

تبصير المؤمنين بفقه النصر والتمكين في القرآن الكريم

أنواعه - شروطه وأسبابه - مراحله وأهدافه

الدكتور
د. علي محمد محمد الصلابي

مكتبة الصحابة
الإمارات - الشارقة
ت: ٥٦٣٣٥٧٥ - فاكس: ٥٦٣٧٥٤٤

مكتبة التابعين
القاهرة - عين شمس
ت: ٤٩٣٨١٤٤ - فاكس: ٤٩٣٤٣٣٥

بسم الله الرحمن الرحيم

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ - ٢٠٠١م

مكتبة الصحابة

الإمارات - الشارقة
ت: ٥٦٣٣٥٧٥ - فاكس: ٥٦٣٧٥٤٤

مكتبة التابعين

القاهرة - عين شمس
ت: ٤٩٣٨١٤٤ - فاكس: ٤٩٣٤٣٢٥

الإهداء

إلى العلماء العاملين، والدعاة المخلصين، وطلاب العلم المجتهدين، وأبناء الأمة الغيورين أهدي هذا الكتاب سائلاً المولى عز وجل بأسمائه الحُسنى وصفاته العُلى أن يكون خالصًا لوجهه الكريم .

﴿ فَمَن كَانَ يَرْجُو لِقَاءَ رَبِّهِ فَلْيَعْمَلْ عَمَلاً صَالِحًا وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا ﴾ [الكهف:١١١] .

■ مقدمة ■

إن الحمد لله، نحمده ونستعينه ونستغفره، ونعوذ بالله من شرور أنفسنا ومن سيئات أعمالنا . من يهده الله فلا مضل له، ومن يضلل فلا هادي له . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِ وَلا تَمُوتُنَّ إِلاَّ وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ﴾ (سورة آل عمران: الآية ١٠٢) .

﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمُ الَّذِي خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَاحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالاً كَثِيراً وَنِسَاءً وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي تَسَاءَلُونَ بِهِ وَالأَرْحَامَ إِنَّ اللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا﴾ (سورة النساء: الآية ١) .

﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَقُولُوا قَوْلاً سَدِيدًا (٧٠) يُصْلِحْ لَكُمْ أَعْمَالَكُمْ وَيَغْفِرْ لَكُمْ ذُنُوبَكُمْ وَمَن يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴾ (سورة الأحزاب : الآية ٧٠، ٧١) .

أما بعد؛

فإن موضوع فقه التمكين في القرآن الكريم يحتاج لبحث تحليلي عميق لخطورته ولأهميته في حياتنا المعاصرة حيث إن الأمة تمر بفترة عصيبة من تاريخها فهي في أشد الحاجة لفهم فقه التمكين حتى ترسم أهدافها وتسعى لتحقيق آمالها وفق سنن الله الجارية في الشعوب والأمم والمجتمعات والدول ، ولقد لاحظت في دراستي للقرآن الكريم أن أصول فقه التمكين واضحة المعالم في كتاب الله الكريم فما على الباحث إلا أن يجمعها ويرتبها ويحللها ويبين أثرها على حياة الأمة عندما حرصت على تطبيقه في كافة شئون حياتها، وماذا أصابها عندما ابتعدت عن كتاب ربها وسنة نبيها ﷺ ، إن وصول الأمة الإسلامية في هذا الزمان إلى التمكين ليس بالأمر السهل، ولكنه كذلك ليس بالأمر المستحيل، إذ على الرغم من التضييق الشديد والحرب الضروس التي تشن على الإسلام والمسلمين، إلا أن كثيراً من المسلمين يرون أن التمكين لدين الله قاب قوسين أو أدنى من ذلك، ومهما رأى

الأعداء أن التمكين للإسلام بعيدًا يشبه المستحيل فإن المسلم واثق بوعد الله أن الأرض يرثها عباده الصالحون . وهذا ليس من باب الأحلام والتمنيات ، ولكن من باب الثقة في الله تعالى ، واليقين بوعده . إن كثيرًا من علماء الأمة وطلاب العلم فيها أجادوا في التصنيف في فنون متعددة ومتنوعة من علوم الدين ، كما أنهم أفادوا الأمة في شرح الداء الذي أصيبت به الأمة وفي بيان المؤامرات التي تحاك ضدها من قبل اليهود والنصارى وأعداء الإسلام ، وبينوا شراسة الحملة التي شنها أعداء الإسلام بضراوة ، وبكل الصور والأساليب على الأمة الإسلامية لتثبيط المسلمين ، وخنق الأمل في صدورهم ، وبث روح الهزيمة النفسية بين جوانحهم حتى لا ترتفع رءوسهم ، ولا تقوى عزائمهم ، فيظلون في ذلك الضعف والهوان الذي صاروا إليه ، فيصل بهم الأمر إلى الذوبان ، والضياع ، والتمزق بين سطوة الأمم التي تداعت عليها كما تتداعى الأكلة إلى قصعتها . لقد تحدث بعض الخطباء والوعاظ عن مشاكل الأمة ، وفساد أحوالها ، بصورة تنشر اليأس وتؤصد أبواب الأمل في وجه أبناء الأمة الغيورين ، وشاعت روح الهزيمة بين صفوفهم ، وأصبحنا كثيرًا ما نسمع من يقول : ماذا نفعل ؟ضاع الإسلام والمسلمون !. . ويقفون على ذكريات الماضي ، ويتغنون بأمجاده ، فأدركت أن الأمر كبير .

والقضية خطيرة ورأيت أن الأمة في أمسِّ الحاجة إلى ما يرد إليها ثقتها بربها ، ومنهجها . . في حاجة إلى من يوقظ الإيمان في قلبها ، ويرشدها للأخذ بأسباب التمكين وشروطه، ويبين لها طبيعة الطريق، وكيفية السير فيه ، ويوضح لها المعالم لتعرف كيف تعمل ؟وإلى أين تسير ؟ .

إن الأمة في أشد الحاجة إلى فقه التمكين والعمل به، وعلى حد اطلاعي المحدود على هذا الفقه تعتبر أبحاثه جديدة ؛ حيث بدأت الكتابة فيه والإشارة إلى أهميته مؤخرًا ، وقد ظهرت بعض الكتب القيمة كالرسالة العلمية التي قُدمت للأزهر الشريف للباحث محمد يوسف بعنوان التمكين للأمة الإسلامية في ضوء

القرآن الكريم، وما كتبه الدكتور علي جريشة في كتابه دعوة الله بين التكوين والتمكين، والدكتور علي عبد الحليم في كتابه فقه الدعوة إلى الله، وفقه المسئولية، وقد رأيت أن مادة فقه التمكين من أهم الأبحاث والأطروحات التي يجب أن يهتم بها الباحثون، ولذلك استعنت بالله ثم بشيوخي الكرام وأخص بالذكر الدكتور أحمد محمد جيلي للخوض في بحر فقه التمكين .

إن مادة فقه التمكين في القرآن غزيرة جداً حيث نجد أن القرآن الكريم تكلم عن أنواع التمكين قال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ وَلِنُعَلِّمَهُ مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ** . . ﴾ (سورة يوسف، آية: ٢١) وقال تعالى: ﴿ **وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ** . . . ﴾ (سورة يوسف، آية: ٥٦) .

فإذا تأملت في الآيتين تلاحظ أن الآية الأولى أشارت للتمكين الجزئي ليوسف عليه السلام، والآية الثانية للتمكين الكلي في حقه، كما نجد أن القرآن الكريم أشار إلى أسباب التمكين المعنوية والمادية في قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** . . . ﴾ (الأنفال: ٦٠) . وأشار القرآن الكريم إلى شروط التمكين في قوله تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا** . . . ﴾ (النور: ٥٥) . وأشار القرآن الكريم إلى مراحل التمكين في قصة بني إسرائيل من زمن موسى عليه السلام إلى العصر الذهبي في زمن داود وسليمان عليهما السلام .

وأشار القرآن إلى أهداف التمكين في قوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** . . . ﴾ (سورة الحج، آية: ٤١) . كما أشار القرآن الكريم إلى سيرة بعض المصلحين من الأنبياء والمرسلين وبين صفاتهم التي أهلتهم إلى أن أكرمهم الله بالتمكين كيوسف عليه السلام قال تعالى: ﴿**نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (يوسف، آية: ٥٦) .

وكسليمان عليه السلام في قوله تعالى: ﴿ رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ (٣٥) فَسَخَّرْنَا لَهُ الرِّيحَ تَجْرِي بِأَمْرِهِ رُخَاءً حَيْثُ أَصَابَ . . . ﴾ إلى أن قال: ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (سورة ص، آية: ٣٦ إلى ٤٠) .

وأشار القـرآن الكريم إلى تمكين الله لذي القرنين وصفـاته الربانية وشكره لله على نعمة التـمكين قال تعالى: ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (سورة الكهف، آية: ٨٤) . وقال تعالى: ﴿ قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴾ (سورة الكهف، آية: ٩٥) .

وأشار القرآن الكـريم إلى صفات جيل التمكـين قال تعالى: ﴿ . . . يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ . . . ﴾ (سورة المائدة، آية: ٥٤) .

لقد قمت بدراسة الآيات السابقة من خلال أقوال المفسرين والعلماء والفقهاء، وحاولت أن أنزلهـا على واقع المسلمين المعاصر حـتى يتضح شيء من معالم فـقه التمكين الذي نحن في أشد الحاجة إليه، وحاولت أن استشهد بسيرة النبي ﷺ على التطبيقات العـملية لفقه التمكين وحرصت على دراسة السـيرة النبوية دراسة متأنيـة مع التأمل بالإضافة لسـيرة الخلفاء الراشدين حيـث يعتبر عصـرهم مدرسة مهمة في تطبـيق هذا الفقه، وتعرضت للحركات الإسلامـية التي كان لها أثر في القرنين الماضيين والتي تركت مـعالم نيرة في فقه التمكين والتي توارثتـها الحركات الإسلاميـة المعاصرة محاولاً إبراز فـقه التمكين عندها ومناهج الإصلاح والتغـيير التي انتهجتها في سعيها لتمكين الإسلام في هذا الزمان .

لقد كان اختياري لهذا الموضوع لأسباب من أهمها:

١ - رغبتي في بحث يجمع بين الأصالة والمعاصرة، فيقدم ما ينفع لعصرنا مما قرره علماء التفسير، فيكون فهمنا لفقه التمكين مستفاداً من فهمهم، فيجمع بذلك بين حفظ أقوالهم، وتقـديم الحلول الصحيحة للمشكلات التي تتـعرض لها الأمة في سعيها للتمكين .

٢- بيان ضوابط وقواعد، ورسم معالم وحدود نفهم بها حقيقة فقه التمكين من خلال إبراز أنواعه وأسبابه وشروطه، ومراحله وأهدافه .

٣- محاولـة لمّ شَعَثِ موضوع فـقه التمكين في رسالة علمـية، تعطي فكرة متكاملة عن موضوعه .

٤- دحض شُبَهِ المغْرضين، وتفنيد آراء المغتـرين، الذين يتهمون ديننا بالجمود والقصـور وعدم الوفاء بمتطلبات العـصر وأنه ليس له القدرة على خـوض معارك التغييـر والوصول بالأمة نحو التمكين الشامل لدينهـا من خلال دولة تحكم بشرع الله تعالى .

● **خطة البحث :**

لقد اقتضت طبيعة الموضوع مني جعل البحث في:

مقدمة، وتمهيد، وثلاثة أبواب، وخاتمة، وتفصيلها على النحو التالي:

أولاً: المقدمة:

تكلمت فـيها عن أهمـية الموضـوع، وأسباب اخـتياره، والخـطة التي سرت عليها، والمنهج الذي سلكته في معالجة مسائل البحث .

ثانيًا: التمهيد:

وتكلمت فيه عن مصطلحات عنوان البحث من الناحية اللغوية والشرعية .

ثالثًا: الأبواب:

الباب الأول: أنواع التمكين في القرآن الكريم وفيه أربعة فصول:

الفصل الأول: تبليغ الرسالة وأداء الأمانة . وفيه ثلاثة مباحث:

المبحث الأول: أصحاب القرية ..

المبحث الثاني: أصحاب الأخدود .

● **منهجي في البحث:**

لقد كانت كتابتي في هذا الموضوع ضمن منهج معين التزمت به قدر الإمكان، وهذا المنهج فيما يأتي:-

١- الرجوع إلى المصادر الأصلية في البحث ما استطعت إلى ذلك سبيلاً .

٢- الحرص على التزام الأمانة العلمية في عزو الأقوال إلى قائليها ، وبذل الجهد في نقل قول كل قائل من مصدره على قدر المستطاع .

٣- الحرص على تدعيم البحث بالنصوص الشرعية من الكتاب والسُّنَّة ، ونصوص العلماء مع تمييز كل ذلك بعلامات التنصيص ، والأقواس .

٤- بيان مواضع الآيات القرآنيـة الكريمة في المصحف الشريف ، وذلك بذكر اسم السورة ورقم الآية .

٥- تخـريج الأحاديث النبـوية الواردة في ثنايا الرسـالة من كتب الأحـاديث المشهورة .

٦- تخريج الأبيـات الشعـرية من دواوين قائليهـا إن تمكنت من ذلك ، وإلا ذكرت مَنْ ذكرها من العلماء .

٧- الترجمة للأعلام الواردة أسماؤهم في الرسالة .

٨- شرح المصطلحات والكلمات الغريبة .

٩- وضع فهارس علمية في آخر الرسالة تسهل الاستفادة منها وهي كالآتي:

أ- فهرس المصادر والمراجع .

ب- فهرس الموضوعات .

هذا ، وإني بذلت ما في وسعي في مـعالجة قضايا هذا البـحث ما استطعت إلى ذلك سبيلاً، غير أن قِلّة بضاعتي ، وصـعوبة هذا البحث ، وتشعب مباحثه ثنتني عن كثير مما أردت .

ولا يفـوتني - في الختـام - أن أتقدم بجـزيل الشكر إلى أستـاذي وشيـخي الجليل فضيلة الدكتور / أحمد مـحمد جيلي الذي أكرمني الله تعالى به للإشراف على هذه الرسالة ، ولقـد كان - حفظه الله - مـثالاً حسنًا للأخـلاق الفاضلة ، ونموذجًا حيًّا للصدق والإخلاص، والتواضع ، والكرم ، وبشاشة الوجه .

ولقد أفادني بتوجـيهاته المفيدة ، وآرائه السديدة ، وتعليقاته النـفيسة ، ولقد أعطاني من وقتـه وتوجيهاته مـا ذلل أمامي عقبـات كثيرة في البحـث ، لقد كان حفظه الله تعالى - بعـد الله - عونًا مخلصًا ، وكنت إذا ما واجـهتني مشكلة في البحث، أتصل به ، فأجد من فضيلته كلَّ ترحيب وتقدير .

فالله أسأل أن يثيبه وأن يجزيه أحسن الجزاء ، وأن يطيل عمره في طاعته وأن يبارك له في وقته وأهله وماله .

كما أتقدم بالشكر إلى أساتذتي وإخواني الذين وقفوا معي بكل ما يملكون من أجل إتمام هذا البحث ولا يفوتني أن أتقدم بالشكر إلى جامعة أم درمان الإسلامية على ما تبذله من عطاء متـجدد للأمة الإسلامية ، وغرس للعقيـدة الصحيحة في نفوس أبنائها ، وقد أكـرمني الله بالدراسة فيها فأسأله سبـحانه أن يجزي القائمين عليها خير الجزاء ، وأن يعينهم على أداء واجبهم إنه سميع قريب .

كمـا أسأله سـبحانه أن يمن عـلينا بنعمـة الإيمان والعيش مع القـرآن والعمل للإسلام مخلصين له الدين ولو كره الكافرون ، وأن يجـعل ما قدمنا حجة لنا لا حجة علينا إنه ولي ذلك والقادر عليه .

* ■ *

تمهيد

هذا تمهيد مختصر يعطي نبذة موجزة عن المصطلحات المتعلقة بعنوان البحث:

أولاً : الفقه: له معنيان ، معنى لغوي ، ومعنى اصطلاحي .

أ- والمعنى اللغوي فيه ثلاثة أقوال:

١- غرضًا للمتكلم أم لغيره . وهذا الذي عليه أئمة اللغة، واستدلوا له بما ورد في القرآن الكريم مثل قوله تعالى في شأن الكفار : ﴿**فَمَالِ هَؤُلاءِ الْقَوْمِ لا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا**﴾ (النساء : ٧٨)، ومثل قوله تعالى على لسان قوم شعيب عليه السلام: ﴿**مَا نَفْقَهُ كَثِيراً مِّمَّا تَقُولُ**﴾ (هود : ٩١) ، فيستفاد ويفهم من الآية الأولى أن فهم أي حديث ولو كان واضحًا سمي فقهًا، ويفهم من الآية الثانية أن قوم شعيب عليه السلام كانوا يفهمون بعض كلامه[1] .

ويدل على ذلك أيضًا قوله تعالى: ﴿**وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ**﴾ (الإسراء: ٤٤) وقوله تعالى على لسان موسى عليه السلام: ﴿ **وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي (٢٧) يَفْقَهُوا قَوْلِي**﴾ (طه: ٢٧، ٢٨) .

وقوله صلى الله عليه وسلم : (من يرد الله به خيراً يفقهه في الدين)[2] .

٢- الفقه: هو فهم غرض المتكلم من كلامه سواء كان الغرض واضحًا أم غير واضح، فلا يسمى فهم ما ليس غرضًا للمتكلم فقهًا كفهم لغة الطير مثلاً .

٣- الفقه: هو فهم الأشياء الدقيقة، فلا يقال فقهت أن السماء فوقنا والأرض تحتنا[3] وهذا مردود بما قاله أئمة اللغة أن الفقه هو مطلق الفهم . وامتناع قولهم فقهت السماء والأرض إنما هو من ناحية أن الفقه يتعلق بالمعاني لا بالمحسوسات، والسماء والأرض من قبيل المحسوسات .

---

(١) انظر: لسان العرب لأبي الفضل جمال الدين بن منظور (ج١١ كتاب الهاء فصل الفاء/ ٥٢٢) .
(٢) البخاري ، كتاب العلم ، باب من يرد الله به خيراً يفقه في الدين (١/ ٣٠) رقم ٧١ .
(٣) شرح الأسنوي (ج١/ ١٥)، أصول الفقه لأبي النور زهير (١ / ٦) .

والراجح من هذه المعـاني هو المعنى الأول للفـقـه ، الذي هو مطلق الفـهم ، ويقال فقـه بكسر القاف : أي فهم ، وفَقُـه بالضم : صار الفقه له سـجية وملكة ، وفَقَه بالفتح : سبق غيره إلى الفهم(١) .

ب- **المعنى الاصطلاحي للفقه:** يراد بالفقه في اصطلاح الفقهاء والأصوليين : العلم بالأحكام الشرعية العملية من أدلتها التفصيلية(٢) . أو هو : العلم بالأحكام الشرعية الفرعية العملية المستنبطة من أدلتها التفصيلية(٣) .

ج- التطور التاريخي لكلمة (فقه):

أذن النبي ﷺ لبعض الصـحابة في الاجتهـاد بعد أن توفرت فيـه شروطه وبسبب ابتعادهم عن النبي ﷺ وتعذر مراجعتهم له حين حدوث الواقعة كمعاذ ابن جبل ﷺ (٤)حين بعـثه إلى اليـمن معلمًـا وقاضـيًا وكـان الصحـابة الذين يجتـهدون في بعض الوقائع الخـاصة يعرضـون اجتهادهم عـلى النبي ﷺ بنية إقرارهم أو توجيهم إلى الصواب ، ومع ذلك لم يشع إطلاق اسم الفقهاء عليهم ، وإنما كانت هذه الكلمـة ترد في توجيـهات الرسول ﷺ وعلى ألسنة الصـحابة والتابعين ، وكـان معناها عندهم يقـصد به أصحـاب الفطنة والبصيـرة النافذة في أحكام الدين ومعـاني النصوص من الكتاب والسُّنَّة ، ففي الحـديث يقول ﷺ : (نضر الله أمرًا سمع منا حـديثًا فحفظه حتى يبلغه ، فـرب حامل فقه إلى من هو أفقه منـه ، وربّ حامل فقه ليس بفـقيه)(٥)، فدل الحديث على تفاوت الناس في فهم معاني النصوص وما ترمي إليه عند استخلاص الأحكام منها(٦) .

(١) انظر : أصول الفقه الإسلامي د . حسن الأهدل ص(١٠) .
(٢) انظر : المفردات للراغب الأصفهاني ص(٣٨٤) .
(٣) انظر : شرح الكوكب المنير للفتوحي ص(١١) .
(٤) هو معاذ بن جبل الخزرجي الأنصاري البدري من أعلم الصحابة بالحلال والحرام توفى في طاعون عمواس سنة ١٨هـ وعمره ست وثلاثون سنة ، سير أعلام النبلاء (١/ ٤٤٣-٤٦٠) .
(٥) أبو داود ، كتاب العلم ، باب فضل نشر العلم (٣/ ٣٢٢) رقم ٣٦٦٠ .
(٦) انظر : المدخل إلى الفقه الإسلامي ، د . عبد الله الدرعان ص ٣١ .

ومن هنا يتضح أن إطلاق كلمة (الفـقه) كانت تعني العلم بأحكام الدين على وجه العموم والشمول سـواء كان فقه العقيدة، أو فقه التفـسير أو فقه الحديث أو فقه الفتيـا في أمور العبادات، والمعاملات، فيكون المقصود (بـالفقهاء) هم العلماء في أمور الدين الإسلامي جملة ، أما في أوساط عهد التابعين ، فقد أخذت كلمة (الفـقـه) مدلـولاً أخص من مـدلولها الأول، فـلا تطلـق إلا على علم الأحكام الشرعية العملية التي يتوصل العلماء إلى استنباطها من الأدلة التفصيلية ، واشتهر من اشتـغل بهذا الجـانب (بالفقـهاء) فـقيل: فقـه الإمام أحـمد[١] وفقـه الإمام الشافعي[٢] وفقه الإمام مالك وفقه الإمام أبي حنيفة[٣] وهكذا[٤].

ثانيًا : التمكين في اللغة والاصطلاح:

أ- التمكين في اللغة:

مصدر الفـعل (مكّن) الذي يتكون من الحروف (م، ك، ن) ومنه (أمْكَنَه) منه بمعنى استـمكن الرجل من الشيء، وتمكّن فلان من الشـيء . وفلان لا (يُمكِنُه) النهوض أي لا يقدر عليه[٥] .

ومن التـمكين المِكَنة تقول العـرب: إن بني فـلان لذو مكِنة من السلطان أي تمكُّن[٦] وتسمي العرب موضع الطير مكِنة لتمكن الطير فيه[٧] والمكانة عند العرب هي المنزلة عند الملك . والجـمع مكانات، لا يجـمع جمع تكسـير ، وقـد مكُن مكانةً فهو مكينٌ ، والجمع مُكنَاء ونُمكّن - تمكُنَ .

(١) هو أبو عبد الله أحمد بن محمد الشيباني ولد عام ١٦٤هـ وتوفي عام ٢٤١هـ . انظر: تقريب التهذيب ص٨٤ .
(٢) هو محمد بن إدريس بن هاشم المطلبي ولد عام ١٥٠هـ وتوفي عام ٢٥٤هـ تقريب التهذيب ص٤٦٧ .
(٣) هو النعمان بن ثابت الكوفي فقيه مشهور مات عام ١٥٠ هـ تقريب التهذيب ص٥٦٣ .
(٤) انظر: المدخل إلى الفقه الإسلامي د . عبد الله الدرعان ، ص٣١ .
(٥) انظر: مختار الصحاح لأبي محمد الرازي ، ص٦٣٥ .
(٦) انظر: لسان العرب (ج١٣ ، فصل النون، باب مكن ص٤١٤) .
(٧) نفس المصدر ، (ج١٣ ، فصل النون ، باب مكن ص٤١٤) .

والمتمكن من الأسماء: ما قبِلَ الرفع والنصب والجر لفظًا [١] .

فالتمكين في اللغة: سلطان وملك .

وقد أشار المولى عز وجل في قوله تعالى عن ذي القرنين: **﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾** (الكهف: ٨٤) .

والمعنى: أن الله مكن لهذا العبد الصالح في الأرض، فأعطاه سلطانًا قويًا، ويسر له كل الأسباب التي تدعم هذا السلطان، وأعطاه من كل شيء مما يحكم السلطان ويقويه، وكذلك الشأن في حديث القرآن الكريم، عن نبي الله يوسف ابن يعقوب، عليهما السلام، فقد مكن الله ليوسف في الأرض **﴿يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ ﴿٥٦﴾ وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾** (سورة يوسف: ٥٦) .

ب- التمكين في الاصطلاح:

دراسة أنواع التمكين وشروطه وأسبابه ومراحله وأهدافه ومعوقاته ومقوماته من أجل رجوع الأمة إلى ما كانت عليه من السلطة والنفوذ والمكانة في دنيا الناس .

وقد عرفه الشيخ الدكتور علي عبد الحليم بقوله: (هو الهدف الأكبر لكل مفردات العمل من أجل الإسلام، فالدعوة بكل مراحلها وأهدافها ووسائلها، والحركة وكل ما يتصل بها من جهود وأعمال، والتنظيم، وما يستهدفه في الدعوة والحركة، والتربية بكل أبعادها وأنواعها وأهدافها ووسائلها بحيث لا يختلف على ذلك الهدف الأكبر أحد من العاملين من أجل الاسلام، كل العاملين مهما اختلفت برامجهم - بشرط أن تكون هذه البرامج والخطط نابعة من القرآن الكريم والسنّة المطهرة، وليس فيها شيء مما يغضب الله- لا يستطيعون أن يختلفوا في أن التمكين لدين الله في الأرض هو الهدف الأكبر في كل عمل إسلامي[٢] حتى يكون سلطان

(١) نفس المصدر السابق، ص٤١٥ .

(٢) انظر: فقه المسئولية ص٣٥٨ .

الدين الإسـلامي على كل دين ونظام الحكم بهـذا الدين على البـشرية كلهـا وهذا التمكين يسبقه الاستخلاف والملك والسلطان ، ويعقبه أمن بعد خوف)[١] .

وعرفه الأستاذ محمد السيد محمد يوسف بقوله : (دراسة الأسباب التي أدت إلى زوال التمكين عن الأمة الإسلامية ، والمقومات التي ترجع الأمة إلى التمكين ، والعوائق التي تعـترض العمل للتمـكين ، ودراسة طبيعـة الطريق إلى التمكين ، وكـذلك المبـشـرات علـى هذا الطريق ،وذلك كله في ضـــوء القـرآن الكريم مع الاستعانة بأحاديث النبي العظيم ﷺ) [٢].

وعرفه الأستـاذ فتحي يكن بقوله : (بلوغ حال من النصـر ، وامتلاك قدر من القوة ، وحيازة شيء من السلطة والسلطان ، وتأييد الجـماهير والأنصار والأتباع ، وهو لون من ألوان الترسيخ في الأرض ، وعلو الشأن) [٣].

ثالثًا: القرآن الكريم في اللغة والاصطلاح:

أ- معنى القرآن في اللغة:

القرآن من مادة قـرأ ، ومنه قرأت الشيء فهو قـرآن : أي جمعتـه ، وضممت بعضـه إلى بعض ، فمعناه : الجـمع والضم . ومنه قولهم : ما قـرأت هذه الناقة جنينًا ، أي لم تضم رحمها على ولد[٤] .

قال أبو عـبيدة[٥]-رحمه الله- : (. . . وإنما سمي قـرآنًا لأنه يجمع السور فيضـمها وتفسير ذلك في آية القـرآن ، قال الله تعالى : ﴿إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة :١٧) . أي : تأليف بعضه إلى بعض . . .) ثم قال : وفي آية أخرى : ﴿فَإِذَا

(١) انظر : فقه الدعوة إلى الله (٢/ ٧١٣، ٧١٤) .
(٢) التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم ، ص١٣ .
(٣) انظر : مجلة المجتمع العدد ١٢٤٩ - ٦ محرم ١٤١٨هـ ١٣ / ٥ / ١٩٩٧م .
(٤) انظر : الصحاح للجوهري ، مادة قرأ (١/ ٦٥) .
(٥) هو معمر بن المثنى التيمي مولاهم البصري ، النحوي ، صاحب التصانيف ، ولد سنة ١١٠هـ ومات سنة ٢٠٩هـ وقيل : ٢١٠هـ انظر : سير أعلام النبلاء (٩/ ٤٤٥) .

قَـرَأْتَ الْقُـرْآنَ﴾ (سورة النحل: ٩٨) . أي : إذا تلوت بعـضـه في إثر بعض، حـتى يجتمع، وينضم بعضه إلى بعض ، ومعناه: يصير إلى معنى التأليف والجمع، ثم استشهد على هذا المعنى، بقول عمرو بن كلثوم[(١)]:

ذراعي حـــرة أدمــاء بكـــــر هيجان اللون لم تقرأ جنينًا[(٢)]

أي لم تضم في رحمها ولدًا قط[(٣)] فسمى القرآن قرآنًا ، لأنه جمع القصص، والأمر والنهي، والوعد والوعيد، والآيات والسور : بعضها إلى بعض[(٤)] .

يذكر أبو بكر الباقلاني[(٥)]: أن القرآن يكون مصدرًا واسمًـا: مصدرًا كما في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ عَلَيْنَا جَمْعَهُ وَقُرْآنَهُ﴾ (القيامة: ١٧) واسمًا كمـا في قوله تعالى: ﴿وَإِذَا قَرَأْتَ الْقُرْآنَ جَعَلْنَا بَيْنَكَ وَبَيْنَ الَّذِينَ لا يُؤْمِنُونَ بِالآخِرَةِ حِجَابًا مَّسْتُورًا﴾ (الإسراء: ٤٥) ويروى عن الشافعي -رحمـه الله- : أن القرآن اسم علم لكتاب الله، غير مشتق: كالتوراة والإنجيل[(٦)] .

قال القرطبي[(٧)] -رحمه الله- : (والصحيح الاشـتقاق في الجميع)[(٨)] أي في القرآن والتوراة والإنجيل .

ب- معنى القرآن في الاصطلاح:

القرآن الكريم : هو اسم لكلام الله تعـالى، المنزل على عبده ورسوله مـحمد

---

(١) هو عمرو بن كـلثوم التغلبي: من أصحـاب المعلقات السبع ومن كبـار شعراء الجاهلية . انظر: شـرح المعلقات السبع ص١٨٠ .
(٢) انظر: شرح القصائد السبع الطوال، لأبي بكر محمد بن القاسم الأنباري، ص٣٨٠ .
(٣) مجاز القرآن لأبي عبيدة معمر التميمي (١/ ١-٣) .
(٤) انظر: لسان العرب، كتاب (أ-ب) فصل الهمزة، باب أقرأ (١/ ١٢٨) .
(٥) هو إمام المتكلمين ورأس الأشاعرة أبو بكر محمد بن الطيب بن محـمد القاضي المعروف بابن الباقلاني البصري المالكي صاحب المصنفات وكان له حظ في العبادة توفي سنة ٤٠٣هـ . انظر: شذرات الذهب (٣/ ١٦٧) .
(٦) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (ج٢/ ٢٩٨) .
(٧) هو الإمام أبو عبد الله محمد بن أحمد بن أبي بكر الأنصاري القرطبي، تفقه على مذهب الإمام مالك، واعتنى بتفسير القرآن الكريم توفي رحمه الله سنة ٦٧١هـ . انظر: المذهب لابن فرحون (٣١٧، ٣١٨) .
(٨) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٢/ ٢٩٨) .

ﷺ ، وهو اسم لكتاب الله خاصة، ولا يسمى به شيء غيره من سائر الكتب(١)، وإضافة الكلام إلى الله تعالى إضافة حقيقية ، من باب إضافة الكلام إلى قائله .

ولما ظهر الخوض في صفات الله تعالى، وفي كلام الله خاصة، من قبل الزنادقة، وفرق المبتدعة، احتاج أهل السُّنَّة إلى تعريف القرآن تعريفًا يظهرون فيه معتقدهم في صفات الله تعالى عامة، وفي صفة الكلام خاصة، ومنه القرآن مخالفين بذلك أهل البدع من الجهمية(٢) والمعتزلة(٣) وغيرهم .

قال أبو جعفر الطحاوي(٤) -رحمه الله- : (وإن القرآن كلام الله ، منه بدا بلا كيفية قولاً، وأنزله على رسوله وحيًا، وصدقه المؤمنون على ذلك حقًّا وأيقنوا أنه كلام الله تعالى بالحقيقة، ليس بمخلوق ككلام البرية، فمن سمعه، فزعم أنه كلام البشر فقد كفر)(٥) .

* ■ *

(١) نفس المصدر السابق .
(٢) هم أتباع جهم بن صفوان الخرساني توفي عام ١٢٨هـ . انظر: سير أعلام النبلاء (٦/ ٢٦) .
(٣) أتباع واصل بن عطاء وهم يقولون بخلق القرآن وغير ذلك من البدع، الملل والنحل (١/ ٤٣) .
(٤) هو أحمد بن سلامة الأزدي المصري من صعيد مصر توفي عام ٣٢١هـ . انظر : البداية والنهاية (١١/ ١٧٤) .
(٥) شرح الطحاوية ص (١٢١، ١٢٢) .

▪ الباب الأول ▪
أنواع التمكين في القرآن الكريم

تمهيد:

قال تعالى: ﴿ إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الأَشْهَادُ ﴾ (سورة غافر: ٥١) . وقال سبحانه : ﴿ وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة الروم: ٤٧) .

وقال تعالى : ﴿ إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ﴾ (سورة محمد: ٧) .

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ سَبَقَتْ كَلِمَتُنَا لِعِبَادِنَا الْمُرْسَلِينَ (١٧١) إِنَّهُمْ لَهُمُ الْمَنصُورُونَ (١٧٢) وَإِنَّ جُندَنَا لَهُمُ الْغَالِبُونَ﴾ (سورة الصافات: ١٧١-١٧٣) .

إن هذه الآيات وأمثالها تشير إلى نصر الله وإعزاز أهل الإيمان ممن يحرصون على الدعوة ويتحملون المشاق في سبيلها سواء كان الداعية رسولاً كريمًا أو أحد المؤمنين، وهذا الإعزاز والانتصار والتمكين يكون في الحياة الدنيا قبل الآخرة .

ونجد في القرآن الكريم والسُّنة النبوية المطهرة ، أن من الأنبياء من قتله أهل الكفر والشرك، كيحيى وزكريا عليهم السلام وغيرهم، ومنهم من حاول قومه قتله إلاّ أن الله نجاه منهم كنبينا محمد ﷺ وعيسى بن مريم عليه السلام، وكإبراهيم الذي ترك قومه وعشيرته مهاجرًا إلى الشام ونجد من أهل الإيمان على مر العصور ومر الدهور من يسام سوء العذاب، وفيهم من يلقى في خدود الأرض المليئة بالنيران المحرقة، ومنهم من يقتل في سبيل الله صابرًا محتسبًا مقبلاً غير مدبر، ومنهم من يعيش في كرب وشدة واضطهاد، فأين وعد الله لهم بالنصر والظفر والتمكين؟ وقد طردوا أو قتلوا أو عذبوا؟ .[1]

يقول سيد قطب -رحمه الله- : (ويدخل الشيطان إلى النفوس من هذا المدخل ، ويفعل بها الأفاعيل:

(١) انظر: حقيقة الانتصار ، ص(١٣، ١٤) .

إن الناس يقيسون بظواهر الأمور، ويغفلون عن قيم كـثيرة وحقائق كثيرة في التقدير .

إن الناس يقيســون بفترة قصــيرة من الزمان ، وحيز مــحدود من المكان وهي مقــاييس بشرية صغـيرة . فأمــا المقياس الشامــل . فيعرض القــضية في الرقــعة الفسيــحة من الزمان والمكان، ولا يضع الحدود بين عصــر وعصر، ولا بين مكان ومكان . ولو نظرنا إلى قضــية الإيمان والاعتقــاد لرأيناها تنتصر من غــير شك . وانتصار قضيــة الإيمان هو انتصار أصحابها، فليس لأصحــاب هذه القضية وجود ذاتي خارج وجــودها . وأول ما يطلبــه منهم الإيمان أن يفنوا فيــها ويختــفوا هم ويبرزوها .

والناس كذلك يقصــرون معنى النصر على صورة مــعينة معهــودة لهم، قريبة الرؤية لأعينهم . ولكن صور النصر شتى . وقد يلتبس بعضها بصور الهزيمة عند النظرة القصيرة . . إبراهيم عليه السلام وهو يلقى في النار فلا يرجع عن عــقيدته ولا عن الدعوة إليهــا . . أكان في موقف نصر أم في مــوقف هزيمة؟ ما من شك في منطق العقيــدة؟ ما من شك في منطق العقيدة -أنه كان في قــمة النصر وهو يلقى في النار كما أنه انتصر مــرة أخرى وهو ينجو من النار . هذه صورة وتلك صورة وهما في الظاهر بعيد من بعيد . فأما في الحقيقة قريب من قريب)[1] .

(وكم من شهــيد ما كان يملك أن ينصــر عقيدته ودعوته ولــو عاش ألف عام كما نصرها باستشهاده . وما كان يملك أن يودع القلوب من المعاني الكبيرة ويحفز الألوف إلى الأعمال الكبيرة، بخطبة مثل خطبته الأخيرة التي يكتبها بدمه، فتبقى حافزًا محركًا للأبناء والأحفاد، وربما كــانت حافزًا محركًا لخطى التاريخ كله مدى أجيال)[2] .

---

(١) انظر: الظلال (٥/ ٣٠٨٦) .
(٢) المصدر نفسه، (٥ / ٣٠٨٦) .

(إن هناك حالات كثيرة يتم فيها النصر في صورته الظاهرة القريبة : ذلك حين تتصل هذه الصورة الظاهرة القريــبة بصورة باقية ثابتة . لقد انتصــر محمد ﷺ في حياته . لأن هذا النصر يرتبط بمعــنى إقامة هذه العقيدة بحقيــقتها الكاملة في الأرض؛ فهذه العــقيدة لا يتم تمامهــا إلا بأن تهيمن على حــياة الجماعة الــبشرية وتصرفــها جميــعًا . من القلب المفرد إلى الدولة الحاكــمة . فشاء الله أن ينــتصر صاحب هذه العقيدة في حياته، ليحقق هذه العقيدة في صورتها الكاملة ، ويترك هذه الحقيقة مقررة في واقعيــة تاريخية محدودة مشهودة . ومن ثم اتصلت صورة النصر القريبة بصــورة أخرى بعيدة، واتحدت الصورة الظاهرة مع الصورة الحــقيقية وفق تقدير الله وترتيبه)[1] .

إن النصر والتمكين للمؤمنين له وجوه عــدة، وصور متنوعة من أهمها؛ تبليغ الرسالة ، وهزيمة الأعداء، وإقامة الدولة .

* ■ *

(١) المصدر نفسه ، (٥ / ٣٠٨٦) .

■ الفصل الأول ■
تبليغ الرسالة وأداء الأمانة

إن من أنواع التـمـكين التي ذكـرت في القـرآن الكريم ، تمـكين الله تعـالى للدعاة، بتبليغ الرسـالة وأداء الأمانة، واستجابة الخلق لهم وقـد أشار القرآن إلى عدة نماذج من ذلك:

المبحث الأول
أصحاب القرية

قال تعالى: ﴿وَاضْرِبْ لَهُم مَّثَلاً أَصْحَابَ الْقَرْيَةِ إِذْ جَاءَهَا الْمُرْسَلُونَ (١٣) إِذْ أَرْسَلْنَا إِلَيْهِمُ اثْنَيْنِ فَكَذَّبُوهُمَا فَعَزَّزْنَا بِثَالِثٍ فَقَالُوا إِنَّا إِلَيْكُم مُّرْسَلُونَ (١٤) قَالُوا مَا أَنتُمْ إِلاَّ بَشَرٌ مِّثْلُنَا وَمَا أَنزَلَ الرَّحْمَنُ مِن شَيْءٍ إِنْ أَنتُمْ إِلاَّ تَكْذِبُونَ (١٥) قَالُوا رَبُّنَا يَعْلَمُ إِنَّا إِلَيْكُمْ لَمُرْسَلُونَ (١٦) وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ (١٧) قَالُوا إِنَّا تَطَيَّرْنَا بِكُمْ لَئِن لَّمْ تَنتَهُوا لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ﴾ (سورة يس: ١٣: ١٨) .

إن أهل هذه القـرية لم يستـجـيبـوا لدعوة المرسـلين ، ومضـوا في كفـرهم وعنادهم غير مبالين، وهددوا المرسلين بالرجم والعذاب الأليم والمتأمل في الآيات القرآنية تظهـر له بعض معاني النصر والتمكين ، التي حقـقها المرسلون ، وبذلك يكونوا قد نصـروا نصراً مؤزراً ، وأن أصحـاب القرية هم الخاسرون، إن مـعاني النصر ظهرت في الحقائق التالية:

١- تمكين الله تعالى للمرسلين بحيث استطاعوا تبليغ رسالته، ولم يستسلموا لشبهة أهل القرية أولاً، وتهديدهم ثانيًا، وهذه هي مهمتهم : ﴿وَمَا عَلَيْنَا إِلاَّ الْبَلاغُ الْمُبِينُ﴾ (سورة يس: ١٧) ومن أدى ما عليه فقد انتصر وفاز ونجح .

٢- إن استجابة رجل من أهل القرية لهم، وتأييده لدعوة التوحيد علانية يعد

نصرًا وانتصــارًا له ولهم ، ولذلك كان ردّ أهل القرية عنيفًا تجـاهه، لأنهم شعروا بخذلانه لهم، وخذلانهم نصر لأولئك الرسل .

٣- إن استشهاد الرجل الذي جاء من أقــصى المدينة نصر له ولدعوة التوحيد حيث استـطاع أن يودع في قلوب الناس من المعاني الكبيرة، ويحـفز الألوف إلى الأعمال الكبيـرة، بخطبة مثل خطبته الأخيـرة التي كتبها بدمه، فأصـبحت حافزًا محركًا لأهل الإيمان على مر الدهور ومـر العصور منذ نزول القرآن الكريم إلى أن يرث الله الأرض ومن عليها إن قـتله في سبيل دعوة التـوحيد كان سببًا في فوزه الأبدي بدخول الجنة ﴿**قِيلَ ادْخُلِ الْجَنَّةَ**﴾ (سورة يس ، الآية :٢٦) .

لقد تمكن التـوحيد في قلبـه فجعله حـريصًا على هداية قومـه ، فلم يحمل حقـدًا ولا ضغـينة مع تعذيب قـومه له وقـتله، وهذا انتصـار عظيم على النفس البشرية: ﴿**قَالَ يَا لَيْتَ قَوْمِي يَعْلَمُونَ (٢٦) بِمَا غَفَرَ لِي رَبِّي وَجَعَلَنِي مِنَ الْمُكْرَمِينَ**﴾ (سورة يس، الآيتان : ٢٦، ٢٧) .

إن وصول دعوة التـوحيد إلى أقصى المدينة دليل على المجـهود العظيم الذي بذله المرسلون وتدل على المعاني العظيمـة من الصدق والإخلاص التي تمكنت في نفوسهم من أجل دعوة التوحيد .

٤- إن انتـصارات هؤلاء الرسل وهذا الداعـيـة الذي جاء من أقـصى المدينة توجت بهلاك القوم الذين كذبوا بدعوة المرسلين ﴿ **وَمَا أَنزَلْنَا عَلَىٰ قَوْمِهِ مِنْ بَعْدِهِ مِن جُندٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَمَا كُنَّا مُنزِلِينَ (٢٨) إِن كَانَتْ إِلاَّ صَيْحَةً وَاحِدَةً فَإِذَا هُمْ خَامِدُونَ**﴾ (سورة يس ، الآيتان : ٢٨، ٢٩) .

إن الدعاة إلى الله في أمسّ الحاجـة إلى أن يقفوا مع قصة أصـحاب القرية ، ويتأملوا ويتفكروا في أبعـادها ونهاياتها إنني أريد أن أقف مع الرجل المؤمن الذي تمكن الإيمان في قلبه ماذا فعل في نفسه ذلك الإيمان العظيم . لقد وفق سيد قطب رحمه الله في تحليل نفـسية هذا النموذج الطيب والرجل المؤمن المستـجيب لدعوة

الرسل، وحلّل نفسيته الخيرة فقال : إنها استجابة الفطرة السليمة لدعوة الحق المستقيمة ، فيها الصدق والبساطة ، والحرارة ، واستقامة الإدراك . وتلبية الإيقاع القوي للحق المبين .

فهذا الرجل سمع الدعوة واستجاب لها بعدما رأى فيها دلائل الحق والمنطق ما يتحدث عنه في مقالته لقومه وحينما استشعر حقيقة الإيمان تحركت هذه الحقيقة في ضميره فلم يطق عليها سكوتًا . ولم يقبع في داره بعقيدته ، وهو يرى الضلال من حوله والجحود والفجور ، ولكنّه سعى بالحق الذي استقر في ضميره وتحرك في شعوره . سعى به إلى قومه وهم يكذبون ويجحدون ويتوعدون ويهدّدون .

وجاء من أقصى المدينة يسعى ليقوم بواجبه في دعوة قومه إلى الحق ، وفي كفّهم عن البغي وفي مقاومة اعتدائهم الأثيم الذي يوشكون أن يصبّوه على المرسلين .

وظاهر أن الرجل لم يكن ذا جاه ولا سلطان ، ولم يكن في عزة من قومه أو منعة من عشيرته ، ولكنّها العقيدة الحيّة في ضميره ، تدفعه وتجيء به من أقصى المدينة إلى أقصاها [١] .

ولقد أجاد الإمام الفخر الرازي[٢] في الإشارة إلى بعض المعاني العظيمة التي تشير إلى تمكن دعوة التوحيد في قلب الرجل المؤمن الصادق المخلص وأنقل إليك بعض هذه المعاني :

إن ارتباط الرجل المؤمن مع ما سبق من آيات القصّة وجهان :

أحدهما : أنه بيان لكونهم أتوا بالبلاغ المبين ، حيث آمن بهم الرجل

(١) الظلال : (٥/ ٢٩٦٢-٢٩٦٣) .

(٢) هو العالم الأصولي المفسر فخر الدين بن عمر بن الحُسين الرازي اشتهر بعلم الأصول والنحو والشعر والوعظ وكان يوعظ باللسانين العربي والعجمي وكان كثير البكاء توفي عام ٦٠٦هـ . انظر: الوفيات (٤/ ٢٤٨) .

الساعي ، وعلى هذا ففي قوله : ﴿مِنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ﴾ بلاغة باهرة ، فهو يدل على أن إنذار الرسل قد بلغ إلى أقصى المدينة .

الثاني :أن ذكر قصة الرجل المؤمن بالمرسلين تسلية لقلوب أصحاب الرسول ﷺ ، وتثبيتهم على الدعوة ، كما كان ذكر الرسل الثلاثة تسلية لقلب الرسول ﷺ .

٢ - في تنكير ﴿رَجُلٌ﴾ فائدتان وحكمتان :

الأولى :أن يكون تعظيمًا لشأنه ، أي رجلٌ كامل في الرجوليّة .

الثانية :أن يكون مفيدًا لظهور الحق من جانب المرسلين ، حيث آمن رجل من الرجال لا معرفة لهم به ، فلا يقال إنَّهم تواطئوا .

٣ - في قوله ﴿يَسْعَى﴾ تبصيرٌ للمؤمنين وهداية لهم ، ليكونوا في النصح باذلين جهدهم ، ساعين فيه ، مقتدين بالرجل الذي جاء يسعى .

٤ - في قوله ﴿يَا قَوْمِ﴾ معنى لطيف : حيث يشير إلى إشفاقه عليهم ، وإضافتهم إليه دليل على أنه لا يريد بهم إلا خيراً .

٥ - في قوله : ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ دعوة منه لهم إلى اتباع المرسلين ، ولم يقل : ﴿اتَّبِعُونِي﴾ كما دعا مؤمن آل فرعون في سورة غافر . وذلك لأنه جاء من أقصى المدينة ، ولم يكن معهم ولا بينهم ، فدعا إلى اتباع المرسلين الذين أظهروا لهم الدليل ، وأوضحوا لهم السبيل .

٦ - جمع في قوله : ﴿اتَّبِعُوا الْمُرْسَلِينَ﴾ بين إظهار النصيحة في قوله : ﴿اتَّبِعُوا﴾ وإظهار الإيمان في قوله : ﴿الْمُرْسَلِينَ﴾ وقدّم النصيحة على الإيمان لكونه أبلغ في النصح .

٧ - في قوله : ﴿اتَّبِعُوا مَن لاَّ يَسْأَلُكُمْ أَجْرًا وَهُم مُّهْتَدُونَ﴾ معنى حسن لطيف ، واستخدام لأحسن الأساليب في النقاش والجدال والإقناع . حيث نزل فيه درجة لإقناعهم . وكأنه يقول لهم : افترضوا أنهم ليسوا مرسلين ولا هداة ، ولكنهم

مهتدون عـالمون بالطريقة المستقيمـة التي توصلهم إلى الحق . ثم هم لا يسألونكم أجرًا ولا مالاً . وهذا الأمر يدعوكم إلى اتباعهم والاستجابة لهم .

٨- في قوله : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ استفهام إنكاري ، وفيه إشارة إلى أن الأمر من جـهة عبادة الله وحده لا خـفاء فيه ، وعلى الذي لا يـعبده أن يقدّم السبب الذي يمنعه من عبادته ، أما أنا فلا أجد مانعًا يمنعني من عبادته .

٩- وفي قوله : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ لطيفة أخرى ، حيث عدل عن مخاطبة القوم إلى الحديث عن نفسه ، والحكمة في ذلك ، وهو أنه لا يخفى عليه حالُ نفسه ، ولذلك فـهو لا يطلب العلة والدليل من أحد آخر ، لأنه أعلم بحال نفسه .

١٠- جمع في قوله : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ بين أمرين إيمانه بالله .

الأول: هو عدم المانع الذي يمنعه من الإيمان في قوله : ﴿ وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ ﴾ .

والثاني : هو قيـام المقتضى الذي يدعـوه إلى الإيمان ، وهو في قوله ﴿الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ، فالله الخالق مالك ومنعم وعلى العبيد عبادته وشكره .

١١- قدّم عـدم المانع من الإيمان على المقتـضى الذي يدعوه للإيـمان في قوله ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي ﴾ ولم يقل : (فطركم) ، لأنه هو الأهم من المقصود من السياق .

١٢- قال : ﴿فَطَرَنِي﴾ ولم يقل : " فطركم " لأنه يتحـدث عن نفسه وليس عنهم ، ولتناسقـه مع قوله : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ ﴾ ، حيث أسند العبـادة إلى نفسه فناسب أن يسند الخلق إلى نفسه .

١٣- يتضمن قوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ الخوف والرجاء في عبادة الله ، فمن يكون إليه المرجع والمآب ، يخاف منه ويرجى .

١٤- هناك حكمة لطيفة من الالتـفات إليهم في قوله : ﴿وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ﴾ ليبين الفرق بينه وبينهم من الرجوع إلى الله ، فرجوعه هو إلى الله ليس كرجوعهم هم .

رجـوعه هو إلى الله رجـوع العـابد المؤمن بالله ، ولهـذا رجـوعه للإكـرام والإنعام، أمـا رجوعهم هم ، فـهو رجوع الكافـر العاصي ، ليحـاسب ويعاقب ويعذّب فرجوعهم للعذاب والإهانة وشتان بين رجوعين .

١٥- في قوله ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ إشارة إلى كـمال التوحيد ، فـقوله : ﴿وَمَا لِيَ لا أَعْبُدُ الَّذِي فَطَرَنِي﴾ إشارة إلى وجود الله وفي قوله : ﴿أَأَتَّخِذُ مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ إشارة إلى نفي الشرك به وعدم عبادة غيره .

١٦- في قوله : ﴿مِن دُونِهِ آلِهَةً﴾ إشارة لطيفة . فالدونية هنا مـقصودة فبما أنه ثبت أن الله وحـده هو الخالق المعـبود ، فكل غـير الله هم ﴿دُونِهِ﴾ وهؤلاء جميعًا مشتركون في كونهم مخلوقين ضعفاء ، محتاجين إلى الله، مفتقرين إليه ؛ ولذلك يجب أن يكونوا جميعًا عابدين له . وبما أنهم كلهم (من دونه شركاء في الدونية) ، فكيف يكون من بينهم آلهة ؟! .

١٧- في قـوله : ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ﴾ يخـاطب الجـميع ، سـواء كـانوا من المرسلين أو من أهل القـرية ، لكنه أول ما يتوجـه إلى أهل القرية ، حـيث يثبت لهم أن الله وحده ربُّهم .

١٨- في قوله : ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ ما يدل على أنه كان متـروٍّ مفكِّر ، فإن المتكلم إذا كان يعلم أن لكلامـه جماعـة سامعين، فـإنه يتفكر فيـه ، كما أنه يقـصد أن يُسمعهم ليـقيم الحجة عليهم، وكأنه يقول لهم : إني أخـبرتكم بما فعلت ، حتى لا تقولوا لم أخفيت عنا أمرك ، ولو أظهرت أمرك لاتبعناك .

١٩- المراد بالسماع في قوله ﴿فَاسْمَعُونِ﴾ ليس مجرد سـماع الصوت ، بل قبول الدعوة ، والاستجابة لصوت الحق والدخول في الإيمان[1] .

إن هذه المنهجية الفريدة مع صـدق الدعوة وإخلاص التوجه ، والحرص على الهـداية ، وظهور الـشجـاعـة ، وترتيب الأفكار، وقوة المـنطق ترجع إلى تمكن الإيمان الحقيـقي في قلب ذلك الرجل الرباني ، كما أن المرسلين الذين اسـتطاعوا

(١) انظر : تفسير الرازي (٢٦/ ٥٤-٦٠) مع التصرف .

أن يضمـوا إلى موكب الإيمان وقافلة الدعوة مـثل هذا الرجل المخلص لَدَليلٌ على نصر الله لهـم وتمكين دعوتهم وظهـور حجتـهم إن دعوة الله يسـتجيـب لها من اتصف بصفـة الرجولة وهناك فـرق بين الرجولة والذكـورة ، فإن الذكـورة تقابل الأنوثة ، فالزوجان هما الذكر والأنثى .

والذكورة صفة جسدية بدنيـة ليس إلا ؛ لكنّ الرجولة تشير إلى الشدة والقوة والتحمُّل والشـجاعة والثبات ، فهي تشـير إلى صفات نفسيـة ، ومزايا معنوية ، وفضائل أخلاقية .

ولعله لأجل هذا وردت صفة الرجولة في مقام مدح وثناء وإشارة قال تعالى : ﴿وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلأَ . . ﴾ (القصص : ٢٠) .

وقال الله تعـالى : ﴿وَجَـاءَ مِنْ أَقْصَـا الْمَـدِينَةِ رَجُلٌ يَسْعَىٰ قَـالَ يَا قَـوْمِ اتَّبِعُـوا الْمُرْسَلِينَ﴾ (سورة يس ،آية : ٢٠) .

وقال تعالى : ﴿وَقَالَ رَجُلٌ مُّؤْمِنٌ مِّنْ آلِ فِرْعَوْنَ يَكْتُمُ إِيمَانَهُ﴾ (سورة غافر :٢٨) .

وقال تعالى : ﴿مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (سورة الأحزاب ،آية :٢٣) .

وقال تعالى : ﴿فِي بُيُوتٍ أَذِنَ اللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا اسْمُهُ يُسَبِّحُ لَهُ فِيهَا بِالْغُدُوِّ وَالآصَالِ (٣٦) رِجَالٌ لاَّ تُلْهِيهِمْ تِجَارَةٌ وَلا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَإِقَامِ الصَّلاةِ وَإِيتَاءِ الزَّكَاةِ﴾ (سورة النور ،آية :٣٦ ـ ٣٧) .

وقـال الله تبارك وتعـالى : ﴿فِيـهِ رِجَـالٌ يُحِـبُّـونَ أَن يَتَطَهَّـرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ﴾ (التوبة :١٠٨) .

إن خطوة ذلك الرجل المؤمن تعتبر موقفًا إيمانيًّا عظيمًا ، وتدل على أن الحياة فعـلاً مواقف ، وأن الرجـال بمواقفهـم لا بأعمارهم ، لقـد آمن في وقت المحنة والشدة والابتلاء ، واتَّبع المرسلين وهم مـستضعفـون ، وتحدى بذلك القوة المادية الغـاشمـة ، وأعلن عن إيمانه وطلب أن يسـمعـوه ، مع أنه يرى الخطر أمامـه ،

ويتوقع أن يناله الأذى والمكروه ، وقد يؤدي موقفه إلى إزهاق روحه ، ومع ذلك آمن وأعلن إيمانه ، واستعد لتحمل نتيجة موقفه[١] .

إن الذين يسعون لتمكين شرع الله في دنيا الناس عليهم أن يتصفوا بصفات الرجولة ويحرصوا على ضم من تظهر فيهم هذه الصفات الجميلة إلى صفوفهم.

إن ذلك الرجل الرباني أصبح نبراسًا ومعلمًا بارزًا على طريق الدعوة ، يقتدي به الدعاة في انحيازهم إلى جانب الحق والتزامه والدعوة إليه . ولسان حال أحدهم يقول للآخرين ﴿إِنِّي آمَنْتُ بِرَبِّكُمْ فَاسْمَعُونِ﴾ .

إن انتصار منهج الله والتمكين له وتعرف الناس عليه ، يحتاج إلى رجال يرفعون أصواتهم حتى يسمع الآخرون . إن جمال الحياة ورونقها البهي وحلاوتها النضرة تكون بنصرة الحق ودك الباطل في حصونه .

وإن المواقف الإيمانية ابتغاء مرضات الله رفعة للداعية في الدنيا والآخرة .

إن أصحاب المواقف الإيمانية هم دائمًا الرابحون ، فعندما يدفع الإنسان المؤمن حياته وعمره ودنياه ، وهو هبة ومنحة وعطية وفضل من الله مقابل الجنة والنعيم الدائم والخلود الأبدي يكون ربح ربحًا وفيرًا ، وفاز فوزًا عظيمًا .

إن أهل الإيمان يكظمون غيظهم ، ويحلمون على الجهلة والصبر على دعوة الأشرار وأهل البغي والسعي في تخليصهم ويبتعدون عن الشماتة بالإعداء ألا ترى كيف تمنى الرجل الرباني الخير لقتلته ، والباغين له الغوائل ، وهم كفرة عبدة أصنام[٢] .

إن دخول الجنة مع الشهادة في سبيل الله نوع من التمكين ، واستئصال أهل الشرك الذين عاندوا الدعاة نوع من النصر لأولياء الله .

---

(١) انظر: مع قصص السابقين للخالدي (٧/ ٢٥٦) .

(٢) المصدر السابق، (٧ / ٢٦٠) .

المبحث الثاني
أصحاب الأخدود

إن قـصة الغـلام مع الملك الكافر مـن أوضح القصص في تمكين الله تعـالى للدعاة في تبليغ رسالتهم وأداء أمانتهم .

قال رسول الله ﷺ : (كان فيمن كان قبلكم ملك وكان له ساحر ، فلما كبر الساحـر قال للملك : إني قد كبر سني ، وحضـر أجلي ، فادفع إليّ غلامًا لأعلمه السـحر ، فدفع إليه غـلامًا كان يعلمـه السحر ، وكان بين السـاحر وبين الملك راهب ، فأتى الغلام على الراهب فسمع من كلامه فأعجبه نحوه وكلامه ، وكان إذا أتى الساحر ضربه وقال : مـا حبسك؟ فشكا ذلك إلى الراهب ، فقال: إذا أراد الساحـر أن يضربك فـقل : حبسني أهلي ، وإذا أراد أهـلك أن يضربوك فقل حـبسني السـاحر ، فبـينما هو ذات يوم إذ أتى على دابة فظيـعة عظيمـة قد حبست الناس فـلا يستطيعون أن يجوزوا ، فقـال: اليوم أعلم أمر الراهب أحبّ إلى الله أم أمر الساحر ، قال : فأخذ حـجرًا ، فقال : اللهم إن كان أمر الراهب أحب إليك وأرضى من أمر الساحر فاقـتل هذه الدابة حتى يجوز الناس ، ورماها فقتلها ، ومضى الناس ، فأخبر الراهب بذلك ، فقال : أي بني أنت أفضل مني ستبـتلى ، فإن ابتليت فلا تدل عليّ؛ فكان الغلام يُبرئ الأكـمه والأبرص وسائر الأدواء ويشفيـهم بإذن الله ، وكان للملك جليس فعمي ، فسـمع به فأتاه بهدايا كثيرة ، فقال : اشفني ، فقال ما أنا أشفي أحدًا ، إنما يشفي الله عز وجل - فإن آمنت به دعوت الله فشـفاك ، فآمن فدعا الله فشـفاه ، ثم أتى الملك فجلس منه نحو ما كان يجلس ، فقـال له الملك : يا فلان ، من ردّ عليك بصرك ؟ فقال : ربي، فقـال أنا ؟ قال: لا، ربي وربك الله ، قـال : أولك ربّ غيـري ؟ قال : نعم، ربي الله وربك الله ، فلم يزل يعذبه حتى دلّ على الغلام ، فبعث إليه فقال : أي بني : بلغ من سحـرك أن تبرئ الأكمـه والأبرص ، وهذه الأدواء ؟ قال :

ما أشـفي أحدًا ، إنما يشـفي الله عز وجل، قـال : أنا ؟ قال : لا ، ولك رب غيـري؟ قال: ربي وربك الله ، فـأخذه أيضًـا بالعذاب لم يزل به حـتى دل على الراهب ، فأتى الراهب ، فقال ارجع عن دينك ، فـأبى فوضع المنشار في مفرق رأسه حتى وقع شقاه إلى الأرض وقال للغلام : ارجع عن دينك ، فأبى ، فبعث به مع نفر إلى جـبل كذا وكذا ، فقال : إذا بلغـتم ذروته فإن رجع عن دينه وإلا فدهـدهوه ، فذهبـوا به، فلما علوا به الجـبل قال : اللهم اكـفنيهم بما شـئت ، فرجف بهم الجبل فدهدهوا أجمعون . وجاء الغلام يلتمس حتى دخل على الملك فقال : ما فعل أصحابك ، فقـال : كفانيهم الله - تعالى - فبعث به مع نفر في قرقور في البحر ، فقال : إذا لججـتم به البحر فإن رجع عن دينه وإلا فغرّقوه في البحـر ، فلججوا به البـحر، فقـال الغلام : اللهم اكفنيـهم بما شئت ، فغـرقوا أجمـعون ، وجـاء الغلام حتى دخل علـى الملك ، فقال : مـا فعل أصـحابك؟ فقـال: كفانيـهم الله تعالى - ثم قال للملك : إنك لـست بقاتلي حتى تفـعل ما آمرك به ، فـإن أنت فعلت مـا آمرك به قتلـتني ، وإلا فإنك لا تستطـيع قتلي ، قال: وما هو ؟ قال تجمع الناس في صعـيد واحد ، ثم تصلبني على جذع وتأخذ سهمًا من كنانتي، ثم قل : بسم الله رب الغلام ، فإنك إذا فعلت ذلك قتلتني ، ففـعل ووضع السهم في كبـد قوسه ، ثم رماه، وقـال : بسم الله رب الغلام ، فوقع السـهم في صدغه ، فوضع الغـلام يده على موضع السهم ومـات ، فقال الناس : آمنا برب الغلام .

فـقيل للملـك أرأيت ما كنت تحـذر ؟ فقـد والله نزل بك ، قـد آمن الناس كلهم، فأمر بأفواه السكك فحدَّد فيها الأخاديد، وأضرمت فيها النيران ، وقال : من رجع عن دينه فدعوه، وإلا فأقحموا فيها ، قال : فكانوا يتعادون ويتدافعون، فجاءت امرأة بابن لها ترضعه ، فكأنما تقاعست أن تقع في النار ، فقال الصبي : اصبري يا أمّاه فإنك على الحق)[1] .

(١) مسلم ، كتاب الزهد والرقائق، باب أصحاب الأخدود (٣/ ٢٢٩٩) رقم ٣٠٠٥ .

لقد انتصر الغلام بعقيدته على الملك الكافر ، وتمكن منهجه الرباني في نفوس رعايا الملك المشرك الغادر وثبتوا على عقيدتهم وضحوا بأنفسهم من أجل إيمانهم وعلموا البشرية معنى من معاني الانتصار .

قال سيد قطب رحمه الله : (في حساب الأرض يبدو أن الطغيان قد انتصر على الإيمان وأن هذا الإيمان الذي بلغ تلك الذروة العالية ، في نفوس الفئة الخيرية الكريمة الثابتة المستعلية ، لم يكن له وزن ولا حساب في المعركة التي دارت بين الإيمان والطغيان .

في حساب الأرض تبدو هذه الخاتمة آسيفة أليمة .

ولكن القرآن يعلم المؤمنين شيئًا آخر ، ويكشف لهم عن حقيقة أخرى .

إن الحياة وسائر ما يلابسها من لذائذ وآلام ومن متاع وحرمان ، ليست هي القيمة الكبرى في الميزان ، وليست هي السلعة التي تقرر حساب الربح والخسارة، والنصر ليس مقصوراً على الغلبة الظاهرة ، فهذه صورة واحدة من صور النصر الكثيرة .

إن الناس جميعًا يموتون ، وتختلف الأسباب ، ولكن الناس لا ينتصرون - جميعًا - هذا الانتصار ، ولا يرتفعون هذا الارتفاع، ولا يتحررون هذا التحرر ، ولا ينطلقون هذا الانطلاق إلى هذه الآفاق ، إنما هو اختيار الله وتكريمه لفئة كريمة من عباده ، تشارك الناس في الموت ، وتنفرد دون - كثير من الناس في المجد ، المجد في الملأ الأعلى ، وفي دنيا الناس - أيضًا - إذا نحن وضعنا في الحساب نظرة الأجيال بعد الأجيال لقد كان في استطاعة المؤمنين أن ينجوا بحياتهم في مقابل الهزيمة لإيمانهم، ولكن كم يخسرون أنفسهم ، وكم كانت البشرية كلها تخسر ، كم كانوا يخسرون وهم يقتلون هذا المعنى الكبير ، معنى زهادة الحياة بلا عقيدة ، وبشاعتها بلا حرّية ، وانحطاطها حين يسيطر الطغاة على الأرواح ، بعد سيطرتهم على الأجساد .

﴿وَمَا نَقَمُوا مِنْهُمْ إِلاَّ أَن يُؤْمِنُوا بِاللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَمِيدِ﴾ (البروج ، الآية : ٨) . حقيقة ينبغي أن يتأملها المؤمنون الداعون إلى الله ، في كل أرض ، وفي كل جيل .

إن المعركة بين المؤمنين وخصومهم هي في صميمها معركة عقيدة ، وليست شيئًا آخر على الإطلاق وإن خصومهم لا ينقمون منهم إلا الإيمان ، ولا يسخطون منهم إلا العقيدة "(١) .

إن المتأمل في قصة الغلام يجد أن الغلام انتصر بعقيدته ومنهجه وكذلك الراهب الذي ثبت من أجل أن تبقى عقيدته في مقابل أن تزهق روحه ، أما الأعمى فقد انتصر مرتين ، انتصر عندما تخلى عن مكانته عند الملك مع ما في ذلك من جاه ومكانة ، وانتصر عندما تخلى عن حياته في مقابل عقيدته .

إن الراهب والأعمى قد خلّدا لنا معاني عظيمة من معاني الانتصار الحقيقي ، بعيدًا عن التأويل والتبرير الذي يغطي فيه كثير من الناس ضعفهم وخورهم بستار يوهمون فيه الآخرين أنهم فعلوا ذلك من أجل الدين .

لقد كان الغلام ذكيًّا ألمعيًّا وحين سنحت له فرصة عظيمة في تبليغ رسالة ربه ، فاغتنمها وحقق معاني عظيمة في مفهوم النصر والتمكين .

لقد انتصر الغلام بقوة فهمه وإدراكه لأقصر وأسلم الطرق لنصرة دينه وعقيدته ، وإخراج أمته من الضلال إلى الهدى ، ومن الكفر إلى الإيمان وانتصر عندما وفق لاتخاذ القرار الحاسم في الوقت المناسب ، متخطيًا جميع العقبات ، ومستعليًا على الشهوات وحظوظ النفس ومتاع الحياة الدنيا ، وانتصر على هذا الملك المتجبر المتغطرس ، الذي أعمى الله قلبه ، فأخرب ملكه بيده ، فإنها لا تعمى الأبصار ، ولكن تعمى القلوب التي في الصدور .

إن الغلام كان عبقريًّا عندما خطط لإهلاك الملك الكافر وعندما رسم طريقه لنيل الشهادة في سبيل الله .

---

(١) انظر : معالم في الطريق : فصل : هذا هو الطريق ، ص١٧٣ .

لقد كان الانتصار العظيم في المعركة بين الكفر والإيمان لصالح موكب التوحيد، لقد استشهد فرد وحيت بسببه أمة فآمنت برب الغلام .

إن دقة التخطيط وبراعة التنفيذ ، وسلامة التقدير ، نجاح باهر ، وفوز ظاهر .

لقد انتصر الغلام عندما جعله الله قدوة لمن بعده ، وأبقى له ذكرًا حسنًا على لسان المؤمنين ، حيث جعل الله له لسان صدق في الآخرين . لقد كانت انتصارات متلاحقة ووصلت إلى ذروتها عندما آمن الناس برب الغلام آمنوا بالله وحده وكفروا بالطاغوت ، وهنالك جن جنون الملك ، وفقد صوابه ، فاستخدم كل ما يملك من وسائل الإرهاب والتخويف ، في محاولة يائسة ، للإبقاء على هيبته وسلطانه وتعبيد الناس له .

ثم يحفر أخاديده ، ويوقد نيرانه ، ويأمر زبانيته وجنوده بإلقاء المؤمنين في النار ، وتأتي المفاجأة المذهلة ، بدل أن يضعف من يضعف ، ويهرب من يهرب إذ نجد الإقدام والشجاعة ، وذلك بالتدافع إلى النار ولا غريب ، لأن الإيمان بث في نفوسهم الشجاعة ، والثبات وها هم يجدّون في اللحاق بالغلام ، وكأنهم يتلذذون في تقديم أرواحهم فداءً لعقيدتهم ودينهم .

إن الإيمان الحقيقي يضع بالأمم الغرائب ويبدد الظلام الطويل الذي عاشوه ، والسنوات المديدة التي استعبدهم فيها الطغاة ، ومع قصر المدة التي قد يأتي فيها الإيمان إلى النفوس إلا أنه كفيل بتعريف الناس بحقيقة المنهج الرباني كما نرى في هذه الأمة السعيدة التي آمنت برب الغلام ، وكأنهم عرفوا المنهج وعاشوا فيه كما عاش الراهب طول عمره ، أو تربوا عليه كما تربى الغلام في صباه .

إن حقيقة الإيمان عندما تخالط بشاشة القلوب ، وتلامس الأرواح تفعل العجب .

لقد كان انتصــار الناس الذين آمنوا برب الغلام انتصارًا جـماعـيًا مباركًا يدل على صفاء العقيدة ، ووضوح المنهج، وسلامة الطريق ، وفهم لحقيقة الانتصار.

إننا لا نجـد في القران ولا فـي السُّنَّة أي ذكر لهـؤلاء الظلمـة ، وماذا كـان مصيرهم في الدنيـا ولله في ذلك حكمة قد تخفى علينا[1] نعم وردت آية في آخر قصتهم فيـها دعوة لهم وتحذير : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ فَتَنُوا الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَتُوبُوا فَلَهُمْ عَذَابُ جَهَنَّمَ وَلَهُمْ عَذَابُ الْحَرِيقِ** ﴾ (سورة البروج ، الآية : ١٠) .

قال الحـسن البـصري[2] : « انظروا إلى هذا الكرم والجود ، قـتلوا أولياءه وهو يدعوهم إلى التوبة والمغفرة »[3] .

إن هذه النهاية تحـقق معنى من معـاني الانتصار ، من المنتصـر ؟ الذي نصر عقـيدته ودين ربه ، وحُرّق بـضع دقائق، ثم انتقل إلى جنـات النعيم ، أو ذلك الذي تمتع بأيام في الحياة الدنيا ثم مـآله - إن لم يتب - إلى عذاب جهنم وعذاب الحريق ؟.

هل هناك مقارنــة بين الحريق الأول ، والحريق الثاني ، حريـق الدنيا وحريق الآخرة ؟ إنها نقلة بعيدة ، وبون شـاسع ، أما المؤمنون الذين حُرّقوا في الدنيا ، فـ ﴿**لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ**﴾ (سورة البروج ، الآية :١١) . وتعلن النتيـجة التي لا مِراء فيها ولا جدال : ﴿**ذَلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ**﴾ أليس هذا هو الانتصار[4] هذا في الآخرة وفي الدنيا تمكن المنهج من قلوب الناس وتم ظهوره .

* ■ *

(١) انظر : حقيقة الانتصار ص (١٣،١٤) .

(٢) هو سيد التابعين الحسن بن أبي الحسن يسار البصري الأنصاري مولاهم زاهد فـاضل ثقة كان من أفصح الناس وأجملهم توفي ١١٠هـ وهو ابن ٨٨ (تهذيب التهذيب ٢/ ٢٦٣ـ٢٧٠) .

(٣) تفسير ابن كثير (٤/٤٩٦) .

(٤) انظر : حقيقة الانتصار ص(٥٥) .

المبحث الثالث

تمكين الله تعالى لرسوله ﷺ لتبليغ الرسالة في مكة

بعد الإعداد الرفيع الذي قام به النبي ﷺ لتربية أصحابه وبناء القاعدة الصلبة على أسس عقدية وخلقية وآمنية وتنظيمية، وبعد أن قطع المرحلة السرية بكل نجاح وتفوق. نزل قول الله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الْأَقْرَبِينَ﴾ (الشعراء: ٢١٤) فخرج رسول الله ﷺ حتى صعد الصفا فهتف: يا صباحاه، فاجتمعت إليه قريش، فقال: (يا بني فلان، يا بني عبد مناف، يا بني عبد المطلب، "أرأيتكم لو أخبرتكم أن خيلاً تخرج بسفح هذا الجبل أكنتم مصدقيَّ ؟" قالوا: ما جرّبنا عليك كذبا. قال: فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب: تبًّا لك، أما جمعتنا إلا لهذا ثم قام فنزلت هذه السورة ﴿تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ وَتَبَّ﴾ (المسد: ١).

من الطبيعي أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ أن مكة بلد توغلت فيه الروح القبلية، فبدء الدعوة بالعشيرة قد يعين على نصرته وتأييده وحمايته، كما أن القيام بالدعوة في مكة لا بد أن يكون له أثر خاص لما لهذا البلد من مركز ديني خطير، فجلبها إلى حظيرة الإسلام لابد وأن يكون له واقع كبير على بقية القبائل. على أن هذا لا يعني أن رسالة الإسلام كانت في أدوارها الأولى محدودة بقريش، لأن الإسلام كما يتجلى من القرآن اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية[1].

ولقد كانت النتيجة المباشرة لهذا الصدع هي الصد والإعراض والسخرية والإيذاء والتكذيب، والكيد المدبر المدروس، ولقد اشتد الضراع بين النبي ﷺ وأصحابه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها، وأصبح الناس في مكة يتناقلون أخبار ذلك الصراع في كل مكان. وهذا في حد ذاته مكسب عظيم للدعوة، ساهم

---

(١) دراسة في السيرة النبوية، د. عماد الدين خليل ص١٢٤، ١٢٥.

فيه أشد وألد أعدائها، ممن كانوا يشيعون في القبائل قالة السوء عنها ، فليس كل الناس يُسَلِّمون بدعاوى القرشيين ، بل كان يوجد من مختلف القبائل من يتابع الأخبار ، ويتحرى الصواب ، فيظفر به .

وكانت الوسيلة الإعلامية في ذلك العصر تناقل الناس للأخبار مشافهة وسمع القاصي والداني بنبوة الرسول ﷺ ، وأصبح هذا الحدث العظيم حديث الناس في كل مكان، وبدأ رسول الله ﷺ يشق طريقه لكسر الحصار المفروض على الدعوة، والانتقال بها إلى مواقع جديدة ، وسنرى ذلك في عرضه للدعوة على القبائل ، والخروج للطائف ، وهجرة الحبشة .

لقد كان أولى الناس بتوجيه الدعوة إليهم : قريش وأهل مكة وبالأخص عشيرة النبي ﷺ الأقربين - فوجه إليهم الدعوة من خلال هذا المنبر العلني ، وأنذرهم عذاب الله وبأسه إن لم يؤمنوا(١) .

ولكن قريشًا رفضت الاستجابة والانقياد للحق المبين وكان موقفهم كموقف الأقوام السابقة من رسلهم ، فحاربوا الدعوة الجديدة التي عرت واقعهم الجاهلي وعابت آلهتهم وسفهت أحلامهم، أي آرائهم وأفكارهم وتصوراتهم عن الحياة والإنسان والكون ، فاتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدعوة وإسكات صوتها أو تحجيمها وتحديد مجال انتشارها .

لقد فكر النبي ﷺ بالخروج بالدعوة من مكة لتحقيق أمور من أهمها :

١- البحث عن موطن يأمن فيه المسلمون على دينهم ، ويسلمون من أذى قريش وفتنتها ، حيث لا تطالهم يدها، ولا يمتد إليهم بطشها .

٢- البحث عن بيئة تقبل الدعوة ، وتستجيب لها ، في مقابل عنت القرشيين وكنوزهم ، ومن هذه البيئة تنطلق إلى آفاق الأرض ، تحقيقًا لأمر الله بالتبليغ للعالمين(٢).

---

(١) انظر: الغرباء الأولون ص١٦٧ ، سلمان العودة .

(٢) المصدر السابق ، ص١٦٨ .

فكانت هجرة المسلمين إلى الحبشة ، فكانت الأولى في شهر رجب سنة خمس من المبعث ، وهم أحد عشر رجلاً وأربع نسوة خرجوا مشاةً إلى البحر فاستأجروا سفينة .

وقد صورت أم سلمة زوج النبي ﷺ - وهي ممن هاجر إلى الحبشة الهجرة الأولى - الظروف التي أحاطت بهذه الهجرة فقالت : (لما ضاقت علينا مكة - وأوذي أصحاب رسول الله ﷺ وفتنوا ورأوا ما يصيبهم من البلاء والفتنة في دينهم ، وأن رسول الله لا يستطيع دفع ذلك عنهم . وكان رسول الله ﷺ في منعة من قومه وعمه ، لا يصل إليه شيء مما يكره مما ينال أصحابه فقال لهم رسول الله ﷺ : « إن بأرض الحبشة ملكًا لا يظلم أحد عنده ، فالحقوا ببلاده حتى يجعل الله لكم فرجًا ومخرجًا مما أنتم فيه » فخرجنا إليها أرسالاً حتى اجتمعنا بها ، فنزلنا بخير دار إلى خير جار آمنا على ديننا ولم نخش منه ظلمًا)[1] .

لقد كانت هجرة المسلمين إلى أرض الحبشة ذات أبعاد سياسية وإعلامية ودعوية وكان اختيار النبي ﷺ للحبشة في غاية الدقة وبعد النظر ، لأنه : (التفت ﷺ إلى ما يحيط به من الداخل والخارج ، وما ينتظر دعوته من أخطار ، فوجد أن جذورها قد امتدت في أعماق الجزيرة العربية ، بين مؤمن قوي الإيمان ، وبين كافر معاند شديد الحرص على زعامتها ، عظيم الحقد على الدعوة وصاحبها) .

وأما خارج الجزيرة ، فتوجد إمبراطورية فارس وقد أعماها دخان النار ، وإمبراطورية الروم وقد عبدوا الملوك ودنياهم . أما الحبشة فما يزال بها بعض وميض من صدق رسالة عيسى عليه السلام ، وأن بها ملكًا لا يظلم أحد بأرضه[2] .

وهذا يدل على اهتمام رسول الله ﷺ بما يدور حوله ومعرفة الدول وطبائعها .

---

(١) ابن هشام (١/ ٣٣٤) .

(٢) انظر : الوفود الإعلامية في العصر المكي لعلي الأسطل ، ص(١١١) .

ولقد كانت الهجرة وسيلة من أهم وسائل الإعلام في الإسلام؛ لأنه بمجرد خروج المسلمين من بلد كانوا فيه منذ النشأة، يخلق تساؤلاً كبيراً في المجتمع المليء بالكذب والأراجيف والمتخصص في تشويه أخبار الدين الجديد، وخرجوا وقد تركوا تساؤلاً في أذهان الناس ما الذي حملهم على ترك أوطانهم وأموالهم وأهليهم؟ إنه لأمر عظيم .

لقد خرج الوفد الإعلامي الإسلامي الأول للحبشة بخطة محكمة وتدبير مقصود لنشر الدعوة الإسلامية وإعلانها في كل مكان حيث إن الرسول ﷺ أرسل كتابًا للنجاشي يشير فيه إلى البر بالمسلمين ويدعوه فيه إلى الإسلام(١) .

وهكذا ترى أن اختيار الزمن والمكان لم يكن لمجرد الصدفة والهروب من شدة العذاب فقط، بل كان بعضهم في حماية قبيلة يستطيع البقاء في مكة دون إيذاء مهلك(٢) .

وكان الوفد الإعلامي الأول أشبه بسفارة في أيامنا الحاضرة لكنها تحمل شعار لا إله إلاّ الله محمد رسول الله ، وتعمل جاهدة على نشره . لقد كان الهدف الأول من هجرة المسلمين إلى الحبشة حماية المستضعفين من أذى قريش، ودفع غربتهم المعنوية ، وتأمينهم على دينهم ، وفتح آفاق جديدة للدعوة إلى الله يشرف عليها المهاجرون، والحط من مكانة قريش عند سائر العرب، وإدانة موقفهم من الدعوة وحَمَلَتها، يجعل الأحباش يسبقون قريشًا ويؤون من طردتهم وأساءت إليهم من أشراف الناس، ومن ضعفائهم وغربائهم وهذه كلها آثار إيجابية، لا يضير أن يوجد إلى جوارها آثار سلبية قليلة، منها: أن إيواء الحبشة للمسلمين وطيب مقامهم بها أذكى نار الحقد لدى قريش، فضاعفت من حربها ومكرها، وعداوتها(٣) .

---

(١) انظر: الوفود الإعلامية في العصر المكي لعلي الأسطل ، (١١٤) .

(٢) المصدر نفسه، ص(١١٥) .

(٣) انظر: الغرباء الأولون ص (١٧١) .

وعندما تسامع المهاجرون بأن قريشًا قد أسلمت، وكفت عن إيذاء النبي ﷺ فرجعوا، فوجدوا الأمر أشد مما كان .

فأذن النبي ﷺ بالهجرة الثانية ، فهاجر قرابة المائة ما بين رجل وامرأة واستقروا هناك[١] .

لقد ذكر ابن إسحاق[٢] دوافع الهجرة الثانية فقال: (فلما اشتد البلاء وعظمت الفتنة تواثبوا على أصحاب رسول الله ﷺ ، وكانت الفتنة الآخرة التي أخرجت من كان هاجر من المسلمين بعد الذين كانوا خرجوا قبلهم إلى أرض الحبشة)[٣] .

لقد أرسلت قريش عمرو بن العاص وعبد الله بن أبي ربيعة يحملان الهدايا إلى النجاشي وبطارقته، فقابلا النجاشي طالبين إليه إعادة من هاجر من المسلمين، فأرسل النجاشي إلى المسلمين فسألهم عن دينهم فقال جعفر بن أبي طالب رضي الله عنه: (أيها الملك كنا قومًا على الشرك، نعبد الأوثان ونأكل الميتة، ونسيء الجوار، ونستحل المحارم، بعضنا من بعض في سفك الدماء وغيرها، لا نحل شيئًا ولا نحرمه . فبعث إلينا نبيًا من أنفسنا نعرف وفاءه وصدقه وأمانته ، فدعانا إلى أن نعبد الله وحده لا شريك له، ونصل الرحم، ونحسن الجوار، ونصلي ونصوم ، ولا نعبد غيره) .

فقال : هل معك شيء مما جاء به ؟ وقد دعا أساقفته فأمرهم فنشروا المصاحف حوله .

فقال جعفر: نعم .

قال : هَلُمَّ فاتل عليَّ ما جاء به .

فقرأ عليهم صدرًا من كهيعص[٤]، فبكى والله النجاشي حتى اخضلت لحيته،

---

(١) انظر: الغرباء الأولون ، ص (١٦٩) .

(٢) هو محمد بن إسحاق بن يسار من كتاب السيرة (انظر: سير أعلام النبلاء ٧/ ٣٤) .

(٣) السير والمغازي لابن إسحاق، ص٢١٣، تحقيق سهيل زكار .

(٤) سورة مريم .

وبكت أساقـفته حتى أخـضلوا مصاحـفهم ثم قال : إن هذا الكلام ليـخرج من المشكاة التي جاء بها موسى انطلقوا راشدين .

ولما أخفقت محـاولة وفد قريش في استعادتهم ، أثار عـمرو بن العاص في اليوم التالي مـوقف المسلمين من عيسى عليه السلام، فقال للنجـاشي : أيها الملك إنهم يقولون في عـيسى قولاً عظيمًـا فأرسل النجاشي إليهم فـسألهم فقال له جـعفر: نقول هو عبد الله ورسوله وكلمته وروحه ألقاها إلى مريم العذراء البتول .

فقال النجاشي: ما عدا عـيسى ابن مريم مما قلت هذا العود وأعطى النجاشي الأمان للمسلمين، فأقاموا مع خير جار في خير دار كما تقول أم سلمة رضي الله عنها[1] .

إن مسارعة قريس لإرسال وفد لاستـعادة المسلمين المهاجرين إلى الحبشة تدل على إدراكها لخطورة المـوقف إذا ما حصل المسلمون على مأوى لـهم يأمنون فيه، والحبشة نصرانية ، وملكها عرف بالعدل، وهي قريبة من مكة، وكل ذلك يشكل خطرًا على قريش في المستقبل .

لقد فتحت جبهة جـديدة لقريش انهزمت فيها معنويًا وسياسيًا وإعلاميًا أمام ضربات المسلمين الموفقة ، وخطواتهم المتزنـة ، وأساليبهم الرصينة من أجل تبليغ دعوة الله وإبلاغ رسالته .

لقد قـاد المعركة السـياسيـة والدعوية والعقـدية جعفـر بن أبي طالب، وكان صادق اللهجـة ، فصيح اللسان ، قوي البـيان، فتأثر النجـاشي من قوله وخابت آمال قريش ، وظهرت ملامح الإيمان في وجه النجاشي .

إن جعفـر رضي الله عنه قاوم حملت قريش الإعلامـية المضللة بكل دقة وموضـوعية وصدق ونقل الأخـبار والحقائق من مصـادرها ، فأعلن رضي الله عنه ما سمـعه من النبي صلى الله عليه وسلم ردًا على سؤال النجـاشي في أمر عـيسى عليه السلام دون مداهنـة أو مواربة أو

(١) انظر: السيرة النبوية لابن هشام .

نفاق ، لقد تلألأ وجه النجاشي بالإيمان الصادق دون بطارقـته وقال للمهاجرين : (اذهبوا فأنتم شيوم أرضي أمنون، من سـبكم غرم كررها ثلاثًا ، ما أحب أن لي دابرًا[١] من ذهب، وأني آذيت رجلاً منكم ردوا عليـهما هداياهما فـلا حاجة لي بها فـوالله ما أخذ الله مني الرشوة حين ردّ عليّ ملكي فـآخذ الرشوة فـيه ، وما أطاع الناس فيّ فأطيعهم فيه) .

وقد امتلأت القلوب حقدًا وغـيظًا على الإسلام والمهاجرين الذين اطمأنوا في عبادتهم ونشر دينهم بالحكمة والموعظة الحـسنة، وقد آمن النجاشي ملك الأحباش وكسـبت الدعوة أنصارًا جـدًا وتوسعت دائرة المسلمين وكسـبوا معـارك سياسـية وإعلامية، ودعوية بتوفيق الله تعالى لهم[٢] .

لقد بقي المسلمون في الحبشة إلى أن استـقر الإسلام في المدينة فهاجر بعضهم إليها وبقي جعفر ومن معه[٣] إلى فتح خيبر سنة ٧ هـ .

وحاول رسول الله ﷺ أن يوسع مجال دعوته، فخرج إلى الطائف وعرض الإسلام على زعمائها إلا أنهم رفضوا ذلك وبالغوا في السفه وسوء الأدب معه . فقام رسول الله ﷺ من عندهم، وقصد مكة ليواصل تبليغ الرسالة وأداء الأمانة ونصح الأمة ولـم يدخل مكة بدون تخطيط أو دراسة مـستـوعبة لكل المـلابسات والظروف المحيطة به، بل درس الأمر وخطط للمرحلة القادمة، ورأى بثاقب بصره وبعد نظره أن يتـصل بمطعم بن عدي سيـد قبيلة بني نوفل بن عـبد مناف وطلب جواره فاستجاب لطلب النبي ﷺ ودخل رسول الله ﷺ ومعه زيد بن حارثة في حراسـة بني نوفل الذين تحلقـوا حوله بالسـلاح وهو يصلي في البـيت الحرام وذهبوا في حراسته حتى دخل بيته .

---

(١) انظر: ابن هشام (١/٣٣٨) .

(٢) انظر: الوفود في العهد المكي ص (١٢٣) .

(٣) انظر: السيرة النبوية الصحيحة ، د . أكرم ضياء العمري (١/١٧٦) .

لقد كان بنو نوفل مؤسسة قوية في المجتمع القرشي الذي له أعرافه وتقاليده المقدسة ، فاستفاد الرسول ﷺ من تلك القوانين الموجودة ووظفها بكل دقة وحنكة وسياسة لمصلحة الدعوة[١] .

هكذا ﷺ دخل إلى مكة بعد رجوعه من الطائف وبدأ يعرض نفسه على القبائل، في المواسم يشرح لهم الإسلام، ويطلب منهم الإيواء والنصرة ، حتى يبلغ كلام الله عز وجل وكان رسول الله ﷺ يتحرك في المواسم التجارية ومواسم الحج التي تجتمع فيها القبائل وفق خطة دعوية واضحة المعالم ومحددة الأهداف وكان ﷺ يعرض نفسه على القبائل على أنه حامل دعوة من الله من أجل حمايته لكي يتمكن من تبليغ دعوة الله إلى الناس ، ومن أجل نصرته فيما يسعى إليه من إقامة سلطان لتلك الدعوة ، ويوفِّر لها ولأتباعها الحماية والأمن، ومن ثمّ يمكنها من الانطلاق في الأرض داعية كل جنس ولون إلى الاستجابة لأمر الله .

ومن توفيق الله لدعوته أن المدينة المنورة كانت تعيش ظروفًا خاصة ترشحها لاحتضان دعوة الإسلام ، وتجتمع فيها عناصر عديدة لا تجتمع في غيرها :

١- منها التشاحن والتطاحن الموجود بين قبيلتي المدينة : الأوس والخزرج ، وقد قامت بينهما الحروب الطاحنة كيوم بعاث وغيره، وقد أفنت هذه الحرب كبار زعمائهم ، ممن كان نظراؤهم في مكة والطائف وغيرهما حجر عثرة في سبيل الدعوة ، ولم يبق إلا القيادات الشابة الجديدة المستعدة لقبول الحق ، إضافة إلى عدم وجود قيادة بارزة معروفة يتواضع الجميع على التسليم لها ، وكانوا بحاجة إلى من يأتلفون عليه ، ويلتئم شملهم تحت ظله فكان يوم بعاث أمرًا قدّمه الله تعالى لنبيه ﷺ ، فقدم وقد قتل معظم سرَواتهم وجُرحوا . فقدمه الله لرسوله ﷺ في دخولهم الإسلام[٢] .

---

(١) انظر: أصول الفكر السياسي في القرآن الكريم د . التجاني، ص(١٧٢-١٨٠) .

(٢) البخاري ، كتاب المناقب، باب مناقب الأنصار (٤/ ٢٦٧) رقم ٧٧٧٧ .

٢- ومنها مجاورتهم لليهود مما جعلهم على علم - و لو يسير - بأمر الرسالات السماوية ، وخبر المرسلين السابقين، وهم - في مجتمعهم - يعايشون هذه القضية في حياتهم اليومية ، وليسوا مثل قريش التي لا يساكنها أهل كتاب ، وإنما غاية أمرها أن تسمع أخباراً متفرقة عن الرسالات والوحي الإلهي ، دون أن تلح عليها هذه المسألة ، أو تشغل تفكيرها باستمرار ، فلما أراد الله إتمام أمره بنصر دينه ، قيض ستة نفر من أهل المدينة للنبي ﷺ فالتقى بهم عند العقبة - عقبة منى - فعرض عليهم الإسلام ، فاستبشروا وأسلموا ، وعرفوا أنه النبي الذي توعدهم به اليهود ، ورجعوا إلى المدينة ، فأفشوا ذكر النبي ﷺ في بيوتها[١] . وكان هذا هو " بدء إسلام الأنصار " كما يسميه أهل السير[٢].

لقد كانت المدينة المنورة تربة صالحة لانتشار الإسلام ، فاليهود يهددون بنبي أظل زمانه يتبعونه ويقتلون الأوس والخزرج قتل عاد وإرم والعرب أهل فراسة ونخوة أضاءت بعض شموع الحق بينهم ، وكأنها إرهاصات للنصرة والنجدة وقام الوفد بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة .

ولما جاء وقت العام التالي وافى الموسم ضِعْف العدد الأول - اثنا عشر رجلاً من المؤمنين فبايعهم النبي ﷺ على ألا يشركوا بالله شيئًا ولا يسرقوا ولا يزنوا ولا يأتوا ببهتان يفترونه بين أيديهم وأرجلهم ولايعصوه في معروف وتعرف هذه البيعة ، ببيعة العقبة الأولى .

عن عبادة بن الصامت رضي الله عنه قال : (إني لمن النقباء الذين بايعوا رسول الله ﷺ وقال : بايعناه على ألا نشرك بالله شيئًا ولا نزني ، ولا نسرق ، ولا نقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق، ولا ننتهب ، ولا نعصي . فالجنة إن فعلنا ذلك، فإن غشينا[٣] من ذلك شيئًا كان قضاء ذلك إلى الله[٤] .

---

(١) انظر: ابن هشام (١/ ٤٣٠) .
(٢) المصدر نفسه (١/٤٢٨) .
(٣) ارتكبنا ذنبًا .
(٤) مسلم ، كتاب الحدود، باب الحدود كفارات لأهلها (٣/ ١٣٣٣) رقم ١٧٠٩ .

ولقد بعث الرسول ﷺ مع المبايعين مصعب بن عمير يعلمهم الدين ويقرؤهم القرآن ، فكان يسمى في المدينة المقرئ وكان يؤمهم في الصلاة[(١)] .

ولقد اختاره الرسول ﷺ عن علم بشخصيته من جهة ، وعلم بالوضع القائم في المدينة من جهة أخرى ، حيث كان رضي الله عنه بجانب حفظه لما نزل من القرآن ، يملك من اللباقة ، والهدوء وحسن الخلق والحكمة ، قدرًا كبيرًا فضلاً عن قوة إيمانه وشدة حماسه للدين ، ولذلك تمكن خلال أشهر أن ينشر الإسلام في سائر بيوتات المدينة وأن يكسب للإسلام أنصارًا من كبار زعمائها ، كسعد بن معاذ ، وأسيد بن حضير ، وقد أسلم بإسلامهما خلق كثير من قومهم[(٢)] .

لقد كانت دعوة مصعب رضي الله عنه في المدينة موفقة وحققت أهدافها وشرع يشرح للناس تعاليم الدين الجديد وتعاليم القرآن الكريم وتفسيره ، وتقوية الروابط الأخوية بين أفراد القبائل المؤمنة من ناحية ، وبين النبي ﷺ وصحبه بمكة المكرمة ، لإيجاد القاعدة الأمنية لانطلاق الدعوة لقد كان الدور الإعلامي والتعليمي والتوجيهي الذي قام به مصعب في المدينة له أثر كبير لتهيئة الظروف للمرحلة التي بعدها . لقد فتحت المدينة بالقرآن وبالدعوة إلى الله وأصبح ولاء كثير من الأوس والخزرج لعقيدة الإسلام وشريعة الرحمن وتشكل وفد من الأنصار لعقد البيعة الثانية مع النبي ﷺ ، لتنتقل الدعوة إلى طور جديد ومرحلة أخرى .

لقد اهتم ﷺ ببناء الفرد المسلم الذي يحمل تكاليف الدعوة ويضحي من أجلها ؛ ولذلك نجد جعفرًا يقوم بدور عظيم في تبليغ الدعوة وأداء الأمانة في أرض الحبشة ونجد مصعبًا يفتح الله على يديه المدينة ويدخل كثير من أهلها في دعوة الإسلام .

---

(١) انظر: سيرة ابن هشام (١/ ٤٣١) .
(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٣٥) .

إن النبي ﷺ في طور المرحلة المكية قام بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة على خير قيام وكانت عناية الله وحفظه له وتأييده ظاهرة للعيان .

ولقد سار على نهج رسول الله ﷺ في تبليغ الرسالة وأداء الأمانة كثير من الدعاة على مر العصور وكر الدهور ومكن الله لهم بين الناس حتى أدوا واجبهم في الدعوة إلى الله ومن أمثال ذلك : الإمام أحمد بن حنبل ، وابن تيمية، والعز ابن عبد السلام ، ومحمد بن عبد الوهاب في الجزيرة ، ومحمد بن علي السنوسي في ليبيا ، وسعيد النورسي في العصر الحديث في تركيا ، وعبد الحميد ابن باديس في الجزائر ، وحسن البنا في مصر ، وغيرهم كثير ومنهم من استشهد في سبيل دعوته إلا أنها انتشرت بعد مماته انتشار الضياء في الظلام ، ولقد لاحظت ، في سيرة هؤلاء الأعلام في القديم والحديث حماية الله لهم ورعايته وحفظه وتثبيته لهم في المحن والشدائد وتهيئة الله قلوب الناس لاستماع دعوتهم ونصحهم ، وكانوا رحمهم الله رجالاً للعقيدة عاشوا من أجل هذا الدين وماتوا في سبيله .

* ■ *

■ الفصل الثاني ■

هلاك الكفار ونجاة المؤمنين أو نصرهم في المعارك

إن قصة نوح وموسى عليهما السلام نموذج رفيع للتدليل على أن من أنواع التمكين هلاك الكفار ونجاة المؤمنين، وقصة نوح مع قومه منهج عظيم للدعاة إلى الله وقصته مليئة بالدروس والعبر ، ومما يكسبها أهمية خاصة ما تميزت به ، ومن ذلك :

١- أن نوح عليه السلام أول رسول إلى البشر ، وكل أول له خصوصيته وميزته .

٢ـ امتداد الزمن الذي قضاه في دعوة قومه (٩٥٠) .

٣ـ كونه من أولي العزم الذين ذكروا في القرآن .

٤- ورد اسمه كثيراً في القرآن الكريم حيث بلغ (٤٣) مرة في (٢٩) سورة من سور القرآن، أي في ربع سور القرآن تقريبًا، مع ورود سورة باسمه في القرآن .

وأما قصة موسى عليه السلام مع فرعون ، فتبين ضراوة الصراع بين الحق والباطل والهدى والضلال ، والإيمان والكفر ، والنور والظلام وتسلط الأضواء على استكبار فرعون وتجبره واستعباده عباد الله واستضعافهم واتخاذهم خدمًا وحشمًا وعبيدًا .

وكيف أراد الله لبني إسرائيل أن يرد إليهم حريتهم المسلوبة وكرامتهم المغصوبة ومجدهم الضائع وعزهم المفقود، إن من يقف أمام إرادة الله فهو عاجز ضعيف ، وهو فاشل مهزوم وإن أعداء الله أينما كانوا هم إلى هزيمة وخسارة وهوان ، وتبين لنا كيف انتقم الله من فرعون ونصر وليه موسى عليه السلام وقومه .

وأما قصة طالوت ، فتوضح مرحلة مرت بها أمة بني إسرائيل ، فبعد أن وقعوا في المعاصي وانحرفوا عن منهج الله وسلط الله عليهم الأعداء وأصاب بنو إسرائيل ذلاً وخيمًا ، ومرارة أليمة ، وهزيمة عظيمة وأرادوا أن يغيروا واقعهم

المهين ، وأن يبـدلوا ذلهم عزة وهزيمتـهم نصراً ، وعلمـوا أن السبـيل لذلك هو الجهاد والقتـال ، فطلبوا من نبيهم أن يختار لهم ملكًا يـتولى أمورهم ، ويقودهم إلى العزة والنصر ، ويقاتل لهم أعداءهم ، في سـبيل الله ، فوقع خيار الله على طالوت ليكون ملكًا عـليهم ، ومن ثم يقـودهم إلى النصـر والعـزة والتحـرير ، فاعترض الملأ على نبـيهم قائلين : أنى له الملك علينا ، ونحن أحق بالملك منه ، ولـم يؤت سعـة من المال ، فبين لهم نبـيهم أن الله اصطفـاه عليكم، والله حكيم خبير ، وإن الله زاده بسطة في العلم والجـسم ، وتسلم طالوت قيادة بني إسرائيل وكانت قصة طالوت مع بني إسـرائيل من أروع القصص القرآني في بيان سنن الله في النهوض بالأمم المستضعفة ، ومـا هي السمات والصفات المطلوبة للقيادة التي تتصدى لمثل هذه الأعمـال العظيمة لتقوية الشعوب والنهـوض بها نحو المعالي ، وفق منهج رباني ووسـائل عمليـة وتربوية عمـيقـة على معـاني الطاعة والثـبات والتضحية والفداء من أجل العقيدة الصحيحة .

وفي سـيـرة النبي ﷺ نجـد هذا النوع من التـمكين ألا وهو النصـر على الأعداء واضـحًا ، فـبعـد أن هاجر ﷺ إلى المدينة قـدّر ظرفه وزمـانه ومكانه وجهز قوات جهادية حققت أهدافها القريبة والبعيدة ، معتمدًا على الله في ذلك، شارعًا في الأخـذ بالأسباب التي أمره الله بها ، فـترك لنا معالم نيّـرة في مغازيه الميمونة ودروسًـا عظيمة في كيفـية تحقيق النصر علـى الأعداء والتمكين لدين الله تعالى ، فبـدأ بالسرايا ، فحققت أهدافـها ، ومضى يحاصر قـوى البغي والكفر والضلال حتى فتحت مكة، ومن ثم وحـدت جزيرة العرب وأثناء ذلك كان يوجه الضربات المحكمة إلى الوثنية في كل مكان وإلى اليهود الذين نقضوا العهود وإلى ملوك الأرض يدعوهم للإسلام ، فترك البناء متينًا وقام الخلفاء الراشدون من بعده ليتـوسعـوا بالإسلام شرقًـا وغربًا ، وهكذا توالت الأجـيال لحمـل الرسالة وأداء الأمانة ، وكان تاريخ أمتنا مليئًا بهـذا النوع من التمكين ، ففي عهد صلاح الدين كانت مـوقعة حطين وعلى يديه كان فـتح القدس، وفي عهـد يوسف بن تاشفين

كانت معركة الزلاّقـة ، وفي عهد محمد الفاتح كان فـتح القسطنطينية ، وأما في العصر الحديث ، فـالملحمة الجهادية بين الروس والأفغـان انتهت بهزيمة الإلحاد ، والمعـارك بين الإسلام والنصـرانية في جنوب الـسودان فـتحت للمـسلمين أبواب الشهادة والعزة والنصر والتمكين ، والصراع بين اليهود والمسلمين في فلسطين بين الكر والفر ، وهكذا نجد دائمًـا عون الله لأهل التوحيد والإيمان على مـر العصور وكر الدهور وتوالي الأزمان .

* ■ *

المبحث الأول

قصة نجاة نوح عليه السلام وهلاك قومه

قال تعالى : ﴿ لَقَدْ أَرْسَلْنَا نُوحًا إِلَىٰ قَوْمِهِ فَقَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ إِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ عَظِيمٍ ﴾ (سورة الأعراف ، الآية : ٥٩) .

إن ثوابت دعوة نوح عليه السلام ، الدعوة إلى عبادة الله وتوحيده ، والتحذير من عدم الاستجابة إلى توحيده .

فلم يستجب قومه إلى ما دعاهم إليه ، بل استكبروا وعتوا وتجبروا ، قال سبحانه : ﴿ وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ نُوحٍ إِذْ قَالَ لِقَوْمِهِ يَا قَوْمِ إِن كَانَ كَبُرَ عَلَيْكُم مَّقَامِي وَتَذْكِيرِي بِآيَاتِ اللَّهِ فَعَلَى اللَّهِ تَوَكَّلْتُ فَأَجْمِعُوا أَمْرَكُمْ وَشُرَكَاءَكُمْ ثُمَّ لَا يَكُنْ أَمْرُكُمْ عَلَيْكُمْ غُمَّةً ثُمَّ اقْضُوا إِلَيَّ وَلَا تُنظِرُونِ ﴾ (سورة يونس ، الآية : ٧١) .

وجاءت سورة هود لتبين لنا الحوار الطويل بينه وبين قومه ، الذين حاججهم وجادلهم وأقام عليهم الحجة وبين لهم طريق الهداية، حتى أجاب قومه بقولهم: ﴿ يَا نُوحُ قَدْ جَادَلْتَنَا فَأَكْثَرْتَ جِدَالَنَا فَأْتِنَا بِمَا تَعِدُنَا إِن كُنتَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴾ (هود : ٣٢).

ثمّ بين الله له النهاية في هؤلاء : ﴿ وَأُوحِيَ إِلَىٰ نُوحٍ أَنَّهُ لَن يُؤْمِنَ مِن قَوْمِكَ إِلَّا مَن قَدْ آمَنَ فَلَا تَبْتَئِسْ بِمَا كَانُوا يَفْعَلُونَ ﴿٣٦﴾ وَاصْنَعِ الْفُلْكَ بِأَعْيُنِنَا وَوَحْيِنَا وَلَا تُخَاطِبْنِي فِي الَّذِينَ ظَلَمُوا إِنَّهُم مُّغْرَقُونَ ﴾ (سورة هود ، الآيتان ، ٣٦، ٣٧) .

لقد كان نوح عليه السلام صابراً وثابتًا في دعوة قومه إلى عبادة الله تعالى ، فاتخذ معهم كافة الأساليب الدعوية المتنوعة في محاولة صادقة لهدايتهم وتعبيدهم لله تعالى . قال تعالى : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي دَعَوْتُ قَوْمِي لَيْلًا وَنَهَارًا ﴿٥﴾ فَلَمْ يَزِدْهُمْ دُعَائِي إِلَّا فِرَارًا ﴿٦﴾ وَإِنِّي كُلَّمَا دَعَوْتُهُمْ لِتَغْفِرَ لَهُمْ جَعَلُوا أَصَابِعَهُمْ فِي آذَانِهِمْ وَاسْتَغْشَوْا ثِيَابَهُمْ وَأَصَرُّوا وَاسْتَكْبَرُوا اسْتِكْبَارًا ﴿٧﴾ ثُمَّ إِنِّي دَعَوْتُهُمْ جِهَارًا ﴾ (نوح ، الآيات : ٥ - ٨) .

ومع هذا الجهـد العظيم والصبـر الجميل والثبات المنقطع النظيـر ، والحرص المستمر إلا أن قومه رفضوا وامتنعوا من الإجابة وقالوا :

قال تعالى : ﴿ قَالُوا أَنُؤْمِنُ لَكَ وَاتَّبَعَكَ الأَرْذَلُونَ﴾ (الشعراء : ١١١) . ثم قالوا : ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ﴾ (الشعراء : ١١٦) . ولم يؤمن مع نوح إلا فئـة قليلة من قومـه حتى زوجتـه وأحد أبنائه غرقـوا في مستـنقع الكفر الخبيث قـال تعالى: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً لِّلَّذِينَ كَفَرُوا امْرَأَتَ نُوحٍ وَامْرَأَتَ لُوطٍ كَانَتَا تَحْتَ عَبْدَيْنِ مِنْ عِبَادِنَا صَالِحَيْنِ فَخَانَتَاهُمَا فَلَمْ يُغْنِيَا عَنْهُمَا مِنَ اللَّهِ شَيْئًا وَقِيلَ ادْخُلا النَّارَ مَعَ الدَّاخِلِينَ﴾ (التحريم : ١٠) وقال تعالى: ﴿وَنَادَىٰ نُوحٌ رَّبَّهُ فَقَالَ رَبِّ إِنَّ ابْنِي مِنْ أَهْلِي وَإِنَّ وَعْدَكَ الْحَقُّ وَأَنتَ أَحْكَمُ الْحَاكِمِينَ﴾ (هود : ٤٥) وقال تعالى: ﴿ قُلْنَا احْمِلْ فِيهَا مِن كُلٍّ زَوْجَيْنِ اثْنَيْنِ وَأَهْلَكَ إِلاَّ مَن سَبَقَ عَلَيْهِ الْقَوْلُ وَمَنْ آمَنَ وَمَا آمَنَ مَعَهُ إِلاَّ قَلِيلٌ ﴾ (هود : ٤٠) . وفي نهـاية المطاف وفي آخر مـراحل الدعوة وبعـد أن علم استـحالة استجـابة قومه لدعوة التوحيـد قال كما قال عنه القـرآن الكريم في قوله تعالى : ﴿قَالَ رَبِّ إِنَّ قَوْمِي كَذَّبُونِ (١١٧) فَافْتَحْ بَيْنِي وَبَيْنَهُمْ فَتْحًا وَنَجِّنِي وَمَن مَّعِي مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الشعراء : ١١٧ ، ١١٨) وقوله تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ﴾ (القمر : ١٠) وقال تعالى : ﴿وَقَالَ نُوحٌ رَّبِّ لا تَذَرْ عَلَى الأَرْضِ مِنَ الْكَافِرِينَ دَيَّارًا (٢٦) إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِرًا كَفَّارًا ﴾ (نوح : ٢٦، ٢٧) .

لقد استـجاب الله لدعوة نوح عليه السلام ولقد أحسن نوح عليه السلام استعـمال هذا السلاح العظيم الذي يغفل عنه الكثير من الدعاة العاملين .

قال تعالى : ﴿ فَدَعَا رَبَّهُ أَنِّي مَغْلُوبٌ فَانتَصِرْ (١٠) فَفَتَحْنَا أَبْوَابَ السَّمَاءِ بِمَاءٍ مُّنْهَمِرٍ (١١) وَفَجَّرْنَا الأَرْضَ عُيُونًا فَالْتَقَى الْمَاءُ عَلَىٰ أَمْرٍ قَدْ قُدِرَ (١٢) وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ (١٣) تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ (١٤) وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ﴾ (سورة القمر ، الآيات : ١٠ - ١٥) لقد لبث قرابة عشرة قرون وكانت النتيجة :

١- لم يؤمن من قومه إلا قليل .

٢- لم تؤمن زوجتـه ولا أحد أبنائه وهم أقرب الناس إليـه ومع ذلك ، فإنه يعد منتصراً ، بل إنه حقق أعظم الانتصارات وتمثل ذلك :

١- صبـره وثباته طـول هذه القرون ، وعـدم ميله إلى مـحاولات قـومه - وحاشاه من ذلك - أو تأثره باستهزائهم وسخريتهم .

قال تعالى : ﴿ وَيَصْنَعُ الْفُلْكَ وَكُلَّمَا مَرَّ عَلَيْهِ مَلأٌ مِّن قَوْمِهِ سَخِرُوا مِنْهُ قَالَ إِن تَسْخَرُوا مِنَّا فَإِنَّا نَسْخَرُ مِنكُمْ كَمَا تَسْخَرُونَ ﴾ (سورة هود ، الآية : ٣٨) .

٢- حماية الله له من كيـدهم ومؤامراتهم : ﴿ قَالُوا لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَا نُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ الْمَرْجُومِينَ ﴾ (الشعراء : ١١٦) . ولم ينته نوح عن دعوة التوحيد وتحقيق معاني العبادة لله ومع ذلك ما استطاعوا إليه سبيلاً .

٣- إهلاك قومه الذين كذبوه بالغرق: ﴿ وَأَغْرَقْنَا الَّذِينَ كَذَّبُوا بِآيَاتِنَا إِنَّهُمْ كَانُوا قَوْمًا عَمِينَ ﴾ (سورة الأعراف، الآية : ٦٤) .

٤- نجاة نوح ومن آمن مـعه ﴿ فَأَنجَيْنَاهُ وَالَّذِينَ مَعَهُ فِي الْفُلْكِ ﴾ (الأعراف: ٦٤) .
﴿ وَحَمَلْنَاهُ عَلَىٰ ذَاتِ أَلْوَاحٍ وَدُسُرٍ * تَجْرِي بِأَعْيُنِنَا جَزَاءً لِّمَن كَانَ كُفِرَ ﴾ (القمر: ١٣، ١٤).

٥- إن قصة انتـصار نوح وإهلاك قومه أصـبحت آية يعتبـر بها ، وجعل الله لنوح لسان صدق في الآخرين: ﴿ وَلَقَد تَّرَكْنَاهَا آيَةً فَهَلْ مِن مُّدَّكِرٍ ﴾ (القمر : ١٥).

﴿ ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ إِنَّهُ كَانَ عَبْدًا شَكُورًا ﴾ (سورة الإسراء ، آية : ٣) .

﴿ سَلامٌ عَلَىٰ نُوحٍ فِي الْعَالَمِينَ ﴾ (الصافـات ، الآية : ٧٩) . ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَىٰ آدَمَ وَنُوحًا وَآلَ إِبْرَاهِيمَ وَآلَ عِمْرَانَ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾ (آل عمران: ٣٣).

وهكذا تتضح حقيقة النصر ، من خلال قصة نوح عليه السلام إن قوم نوح لم يكن في زمانهم على وجه البسيطـة إلا هم ، وقد كفروا بالله ، وتمردوا على رسوله ،

سوى فـئة قليلة هي التي آمنت به ، فإن الله - سـبحانه - أهلك جـميع من في الأرض، يومئـذ سوى نوح ومن آمن مـعه ، حـماية للمنهج الذي ذكـر نوح أنه معرَّض للزوال إن بقي هؤلاء .

قال تعالى : ﴿إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلا يَلِدُوا إِلاَّ فَاجِراً كَفَّاراً﴾ (نوح : ٢٧) فأهلك هؤلاء على كثرتهم من أجل عدد من البشر يحملون الحق ويدافعون عنه . لقـد أهلك الله تعـالى أهل الكفـر والطغـيان، ومكـن لأهل التوحـيـد والإيمان وأصبحوا على وجه البسيطة موحدين محققين لمعاني العبادة في الحياة [١] .

قال تعالى : ﴿ذُرِّيَّةَ مَنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ (الإسراء : ١٣) قال الإمام الطبري [٢] - رحـمه الله - : (وذلك أن كـل من على الأرض من بني آدم فـهم من ذرية من حمله الله مع نوح في السفينة ، قال قتادة[٣]: والناس كلهم ذرية من أنجى الله من تلك السفينة قال مجاهد[٤] : بنوه ونساؤهم ونوح[٥].

قال سبحانه : ﴿أُوْلَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ﴾ (سورة مريم: ٥٨) .

إن التمكين الفعلي والانتصار العظيم والإعزاز الكريم عندما يتمكن منهج رب العالمين مـن نفوس أهل الإيمان ، وإن كانـوا قلة ، فالعبـرة ليست بكثـرة المؤمنين والمستجيبين للحق ، وإنما في صفاء المنهج الرباني الذي يعتقده أولئك الأفراد سواء

---

(١) انظر : حقيقة الانتصار للدكتور ناصر العمر ص(٣٨، ٣٩) .

(٢) هو الإمام المجتـهد أبو جعفر مـحمد بن جرير بن يزيد بن كـثير بن غالب الآملي الطبـري البغدادي، ولد سنة ٢٢٤هـ حفظ القرآن ورحل في طلب العلم وعمره ١٢ سنة ولم يزل طالبًا لـلعلم مولعًا به إلى أن مات واشتهر بالتفسير والفقه والتاريخ ت ٣١٠هـ . انظر : سير أعلام النبلاء (١٤/ ٢٦٧) .

(٣) هو قتادة بن دعامـة بن عزيز أبو الخطاب السدوسي الأعمى الحافظ المفسر، عـالم أهل البصرة مات بواسط سنة ١١٧هـ . انظر : تذكرة الحفاظ (١/ ١٢٢) .

(٤) هو مجاهد بن جبر المكي أبو الحجاج المخزومي المقرئ المفسـر الحافظ مولى السائب بن أبي السائب . كان فقيهًا ورعًا عابدًا . قـال مجاهد : عرضت القـرآن على ابن عباس ثلاث عرضات أقف عند كل آيـة أسأله فيم نزلت وكيف كانت . توفي سنة ١٠٣هـ . انظر : طبقات الحفاظ للسيوطي ، ص٤٢ .

(٥) انظر : تفسير الطبري (٨/ ٢١٥) .

أقلّوا أم كثروا ، ولذلك فإن بضعة نفر أو يزيدون ، ولا يتجاوزوا ثلاثة عشر فردًا يحملون معنى التوحـيد ، ويحققون معنى العبودية ، يهلـك أهل الأرض جميعًا حـماية لهـؤلاء وللمنهج الذي يمثلـونه ويحملونه ، مـا دام أن هناك خطرًا يهـدد بزوالهم ، ومن ثم زوال المنهج الذي يحملونه : ﴿**إِنَّكَ إِن تَذَرْهُمْ يُضِلُّوا عِبَادَكَ وَلَا يَلِدُوا إِلَّا فَاجِرًا كَفَّارًا**﴾ (سورة نوح ، الآية : ٢٧) .

إن هلاك الكافرين ونجـاة المؤمنين ، وسلامة المنهج الرباني القائمين عـليه وما بذلوه من الصبـر والثبات على ذلك نوع من أنواع التـمكين التي يكرم الله بها من يشاء من عباده .

إن الله مكن لنوح عليه السلام ومن آمن به على وجـه الأرض ، فأمـر السمـاء أن تقلع والماء أن يغـيض في الأرض والسفـينة أن تستـوي على جبل الجـودي تمكينًا لسفينة الإيمان وأهلها[1] .



(١) انظر: حقيقة الانتصار ، ص(٤٠) .

المبحث الثاني

قصة موسى مع فرعون

قال تعالى : ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الْأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ ۝ وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الْأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾ (آية : ٥ ، ٦) .

لقد تطاول فرعون وعلا وأسرف في الأرض وذل بني إسرائيل ، فقتل الأولاد واستحيا النساء ظلمًا وعلوًا واستكبارًا في الأرض ، وأراد الله بحكمته ومشيئته وقدرته أن يمن على بني إسرائيل ويجعلهم ملوكًا وولاة ويجعلهم يرثون الأرض من بعد فرعون ويمكن لهم بعد الذل والصغار وينتقم من فرعون وهامان وجنودهما ويريهم ما كانوا يخافونه من زوال ملكهم على رجل من بني إسرائيل[١] .

وقال الإمام ابن كثير[٢] في تفسيره : (لقد سلط على بني إسرائيل هذا الملك الجبار العتيد (فرعون) يستعملهم في أخس الأعمال ، ويكدهم ليلاً ونهارًا في أشغال رعيته ويقتل مع هذا أبناءهم ويستحيي نساءهم إهانة لهم واحتقارًا لهم وخوفًا من أن يوجد منهم الغلام الذي كان قد تخوف هو وأهل مملكته منه أن يوجد منهم غلام يكون سبب هلاكه وذهاب دولته على يديه . وكانت القبط قد تلقوا هذا من بني إسرائيل فيما كانوا يدرسونه من قول إبراهيم الخليل عليه السلام حين ورد الديار المصرية وجرى له مع جبارها ما جرى حين أخذ سارة ليتخذها جارية فصانها الله منه ومنعه منها بقدرته وسلطانه ، فبشر إبراهيم عليه السلام ولده أنه سيولد من صلبه وذريته من يكون هلاك مصر على يديه ، فكانت القبط تحدث بهذا عند

---

(١) انظر : تفسير الطبري (١١/ ٢٨، ٢٩) .

(٢) هو الحافظ المؤرخ الفقيه المفسر إسماعيل بن عمر بن كثير بن درع ، القرشي الدمشقي أبو الفداء ، ولد سنة ٧٠١هـ طلب العلم من صغره ورحل من أجله ، توفي في دمشق سنة ٧٧٤هـ . انظر : شذرات الذهب (٦/ ٢٣١) .

فرعون فاحترز فرعون من ذلك وأمر بقتل ذكور بني إسرائيل، ولن ينفع حذر من قدر ، لأن أجل الله إذا جاء لا يؤخر ولكل أجل كتاب .

أراد فرعون بحوله وقوته أن ينجو من موسى فما نفعه من ذلك مع قدرة الملك العظيم الذي لا يخالف أمره القدري ولا يغلب؛ بل نفذ حكمه وجرى قلمه في القدم بأن يكون هلاك فرعون على يديه بل يكون هذا الغلام الذي احترزت من وجوده وقتلت بسببه ألوفًا من الولدان إنما منشؤه ومرباه فراشك وفي دارك وغذاؤه من طعامك وأنت تربيه وتدلله وحتفك وهلاكك وهلاك جنودك على يديه، لتعلم أن رب السموات العلا هو القاهر الغالب العظيم القوي العزيز الشديد المحال الذي ما شاء كان وما لم يشأ لم يكن[١].

وقال البيقاعي[٢] : رحمه الله : (ونمكن) أي نوقع التمكين (لهم في الأرض) أي كلها لاسيما أرض مصر والشام ، بإهلاك أعدائهم وتأييدهم بكليم الله ، ثم الأنبياء من بعده عليهم الصلاة والسلام بحيث سلطهم بسببهم على من سواهم بما نؤيدهم به من الملائكة وتظهر لهم من الخوارق ، ولما ذكر التمكين ، ذكر أنه مع مغالبة الجبابرة أعلامًا بأنه أضخم تمكين[٣].

وقال الشيخ محمد الأمين[٤] في تفسيره لهذه الآية : قوله تعالى ﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا﴾ ، هو الكلمة في قوله تعالى ﴿وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ الْحُسْنَىٰ عَلَىٰ بَنِي إِسْرَائِيلَ﴾ (سورة الأعراف ، آية: ١٥٧) . ولم يبين هنا السبب الذي جعلهم به أئمة جمع إمام ، أي قادة في الخير دعاة إليه على أظهر القولين . ولم يبين هنا أيضًا الشيء الذي جعلهم وارثيه ، ولكنه بين جميع ذلك في غير هذا

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (٣/ ٣٩٢) .

(٢) هو برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عمر البيقاعي صاحب نظم الدرر في تناسب الآيات والسور، توفي عام ٨٨٥هـ . انظر : مقدمة تفسيره .

(٣) تفسير البيقاعي (٥/ ٤٦٤، ٤٦٥) .

(٤) هو الشيخ محمد الأمين بن محمد المختار الشنقيطي اشتهر بعلم الأصول والتفسير درس في جامعة المدينة والمسجد النبوي توفي عام ١٣٩٣هـ . انظر : أضواء البيان (١/ ٣ـ ٩٩) .

الموضع ، فبين السبب الذي جعلهم به أئمة في قوله تعالى : ﴿وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ﴾ (السجدة : آية :٢٤) . فالصبر واليقين ، هما السبب في ذلك ، وبين الشيء الذي جعلهم له وارثين : ﴿ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴾[1] (سورة الشعراء آية : ٥٧ - ٥٩) .

قال محمد الطاهر بن عاشور[2] - رحمه الله - : (إن الله وصف فرعون وصفًا دلّ على شدة تمكين الإفساد من خلقه ﴿إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ﴾ (القصص : ٤) فحصل تأكيد لمعنى تمكن الإفساد من فرعون ، لأن فعله هذا اشتمل على مفاسد عظيمة :

المفسدة الأولى :

التكبر والتجبر فإنه مفسدة نفسية عظيمة تتولد منها مفاسد جمّة من احتقار الناس والاستخفاف بحقوقهم وسوء معاشرتهم وبث عداوته فيهم وخصوصًا إذا كان حاكمًا صاحبها أو وليًا فيعامل الناس بالغلظة وفي ذلك بث الرعب في نفوسهم من بطشه وجبروته ، فهذه الصفة هي أم المفاسد وجماعها .

المفسدة الثانية :

جعل شعبه شيعًا قرب بعضهم وأبعد بعضهم وتولدت بينهم مفاسد عظيمة من الحقد والحسد والوشاية والنميمة .

المفسدة الثالثة :

جعل طائفة من أهل مملكته في ذل وصغار واحتقار، عذبهم ونكل بهم ومنعهم من حقوقهم وجعلهم عبيدًا للطائفة المقربة لديه .

---

(١) انظر : أضواء البيان (٦/ ٤٥١) .

(٢) هو محمد الطاهر بن عاشور ولد بتونس ١٨٧٩هـ . وكان من كبار علماء الزيتونة له مؤلفات كثيرة من أشهرها التحرير والتنوير في التفسير .

المفسدة الرابعة :

اجتهد في قتل أطفال الطائفة المعذبة من الذكور حتى لا يكون لبني إسرائيل قوة من رجال قبيلتهم وحتى يكون النفوذ في الأرض لقومه خاصة .

المفسدة الخامسة :

كان يستحيي النساء أي يستبقي على حياة الإناث من الأطفال حتى يصبحن بغايا إذ ليس لهن أزواج . (وكان قوم فرعون يحتقرونهن ويأنفون أن يتزوجوا بهن ولم يبق لهن حظ من رجال القوم إلا قضاء الشهوة ، فانقلب استحياء البنات إلى مفسدة عظيمة تصل إلى منزلة تذبيح الأبناء)[١] .

وعندما كان فرعون يستعلي ويتكبر ويتعجرف على بني إسرائيل كانت إرادة الله في تلك الأحداث تريد أن تجعل من بني إسرائيل أمة عظيمة وينتقم من فرعون وملائه فقال تعالى : **﴿وَنُرِيدُ أَن نَّمُنَّ عَلَى الَّذِينَ اسْتُضْعِفُوا فِي الأَرْضِ وَنَجْعَلَهُمْ أَئِمَّةً وَنَجْعَلَهُمُ الْوَارِثِينَ (٥) وَنُمَكِّنَ لَهُمْ فِي الأَرْضِ وَنُرِيَ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا مِنْهُم مَّا كَانُوا يَحْذَرُونَ﴾** (آية : ٥ ، ٦) .

(ونريد) جيء بصيغة المضارع في حكاية إرادة مضت لاستحضار ذلك الوقت كأنه في الحال، لأن المعنى أن فرعون يطغى عليهم والله يريد من ذلك الوقت إبطال عمله وجعلهم أمة عظيمة .

قوله: (استضعفوا) فيه تعليل ، بأن الله رحيم بعباده ، وينصر المستضعفين وخَصَّ بالذكر من المن أربعة أشياء عطفت على فعل " نمنَّ " عطف الخاص على العام وهي : جعلهم أئمة ، وجعلهم الوارثين ، والتمكين لهم في الأرض، وأن يكون زوال ملك فرعون على أيديهم في نِعم أخرى جمة[٢] .

(١) التحرير والتنوير (٢٠/٦٨، ٦٩، ٧٠) .
(٢) المصدر نفسه (٢٠/ ٧٠، ٧١) .

إن الله تعالى من سننـه الجارية في الأمم والشعـوب والمجتمـعات والدول إذا أراد شيئًا هيـأ له أسبابه وأتى به شيئًا ، فـشيئًا بالتدرج لا دفعـة واحدة ، فعندما وصل الظلم إلى أقصى مـنتهاه ، ووصل الاسـتضعاف إلى أسـفل نقطة ممكنة ، كانت تلك النقطة بداية التمكين لبني إسرائيل ، وبدأت قصة التمكين وإنفاذ مشيئة الله عـز وجل بالاهتمـام بالرضـيع في قوله تعـالى : ﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ﴾ (سورة القصص :٧) .

ويظهر من خـلال الآيات الكريمة : أن الله عز وجل أوحى إلـى أم موسى بأن ترضعه فإذا خافت عليه ، فعليها أن ترميه في اليم ، فالله عز وجل لا يكلف نفسًا إلا وسعهـا ، وعلى أهل الحق أن يبذلوا جهدهم ، وهو إن كان قليـلاً فإن الله عز وجل سوف يبارك فيه ، وسوف يهيئ من الأسباب التي يمكن بها لدينه وأهله .

إن سنن الله الكونية نافذة وعلى أهل الإيمان ألا يتأخـروا في الأخذ بالأسباب المتاحـة ، فهذا مـبلغ جهد أم مـوسى في حماية مـوسى الرضيع ، والذي تولى حمايته ونـصره في الحقيقة هو الله عز وجل ذو الجـلال والإكرام، وكان يمكن أن تحصل الحـماية والرعـاية دون أسبـاب؛ ولكن الله من سنته إذا أراد شـيئًـا هيأ له أسبابه، فألقى الله في قلب امـرأة فرعون محبة موسى وكانت سـببًا في نجاته من الذبح . لقد مكن الله تعـالى حب موسى عليه السلام من قلب زوجة فـرعون وأعطاها من القدرة على الجدل والنقاش بحيث أقنعت فرعون بتركه لها .

ونرى في الآيات الكـريمة لطف الله بأم مـوسى بذلك الإلهـام الذي به سلم ابنها، ثم بتلك البشـارة من الله لها برده إليها ، التي لولاها لقضى عليـها الحزن بسـبب ولدها ، وبذلك وغـيـره نعلم أن ألطاف الله على أوليـائه لا تتـصـورها العقـول، ولا تعبـر عنها العـبارات ، وتأمل موقـع هذه البشارة وإنه أتاهـا ابنها ترضعه جهراً ، وتسمى أمه شرعًا وقدراً وبذلك اطمأن قلبها وازداد إيمانها[1] .

---

(١) انظر : تفسير السعدي (٨/ ٣٦٦) .

إن الله مكن حب موسى عليه السلام من قلب امرأة فرعون ، فكان سببًا في تمكين موسى عليه السلام من ثدي أمه وحضنها الحنون .

ونرى في الآيات الكريمة إرشادًا مهمًّا ألا وهو : أن العبد وإن عرف أن القضاء والقدر حق ، وأن وعد الله نافذ لابد منه ، فإنه لا يهمل فعل الأسباب التي تنفع ، فإن الأسباب والسعي فيها من قدر الله ، فإن الله قد واعد أم موسى أن يردها عليها ومع ذلك لما التقطه آل فرعون سعت بالأسباب وأرسلت أخته لتقصه وتعمل الأسباب المناسبة لتلك الحال[1] .

وهذه إشارة قرآنية في قوله : ﴿ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ إلى الأخذ بالأسباب والحذر والاهتمام بالتربية الأمنية العالية خصوصًا للأمة التي تسعى للتخلص من الظلم والجبروت وكبرياء المتسلطين ، بل إن من أسباب نجاح الحركات التي تعمل لتحرير شعوبها من أغلال الحكام الظالمين نجاحها في الجوانب الأمنية، ونرى من خلال الآيات الكريمة : أن الأمة المستضعفة ، ولو بلغت من الضعف ما بلغت ، لا ينبغي أن يستولي عليها الكسل عن السعي في حقوقها ولا اليأس من الارتقاء إلى أعلى الأمور ، خصوصًا إذا كانوا مظلومين ، كما استنقذ الله أمة بني إسرائيل على ضعفها واستعبادها لفرعون وملئهم منهم ، ومكنهم في الأرض وملكهم بلادهم[2] .

وكان من إعداد الله تعالى لموسى عليه السلام أن تربى في قصر فرعون بين مظاهر الترف ومباهج الملك والسلطان ، نشأ كما ينشأ أبناء الملوك . وهكذا زالت من قلب موسى مهابة الملوك والأغنياء ، ولم يخف على موسى أنه دخيل على أهل فرعون ، وأنه يرجع في أصله الحقيقي إلى يعقوب عليه السلام ، فعندما بلغ أشده واستوى أكرمه الله بالحكمة والعلم ، لكونه من المحسنين، وذات يوم عند الظهيرة

(١) انظر: تفسير السعدي (٨/ ٣٦٧،٣٦٨) .

(٢) انظر: المصدر السابق نفسه (٨/ ٣٦٧،٣٦٨) .

وجـد رجلين يقتـتـلان أحدهمـا من قـومه والآخـر من قـوم فرعـون ، فطلب الإسرائيلي من موسى نصرته فتدخل موسى فوكز المصري فقضى عليه، وهذا يدل على قوة موسى عليه السلام وشدة غـضبه ويعبّـر أيضًا عمـا كان في نفسه من شـعور بالضيق، والظلم من فـرعون وقومـه؛ ولكن موسى عليه السلام لم يقصد قـتل القبطي ولذلك، ندم واسترجع وعزاها إلى الشيطان وغوايته .

﴿قَالَ هَذَا مِنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ إِنَّهُ عَدُوٌّ مُّضِلٌّ مُّبِينٌ﴾ (القصص : ١٥) . ثم توجه إلى ربه طالبًا مغـفرته وعفوه : ﴿ قَالَ رَبِّ إِنِّي ظَلَمْتُ نَفْسِي فَاغْفِرْ لِي﴾ واستجاب الله إلى ضراعته واستغفاره ﴿فَغَفَرَ لَهُ إِنَّهُ هُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (القصص : ١٧) .

لقد أصـبح موسى عليه السلام خائـفًا يتـرقب في المدينة وإذ بالمعركـة الثانيـة بين الإسرائيلي والفرعوني ، وتدخل موسى عليه السلام لفض النزاع ووجه لومه إلى الذي من بني قومه وقال له " إنك لغـوي مبين " ، إلا أن الإسرائيلي ظن موسى يريد أن يبطش به ، فوجه له تهمة وموسى بريء منها : ﴿إِن تُرِيدُ إِلاَّ أَن تَكُونَ جَبَّارًا فِي الأَرْضِ وَمَا تُرِيدُ أَن تَكُونَ مِنَ الْمُصْلِحِينَ﴾ (سورة القصص : ١٩) .

إن موسى عليه السلام كان يرى أن المعـارك الجانبيـة لا تفيد قـومه ولذلك وصف الذي من شيعته بأنه غوي : أي بعراكه هذا الذي لا ينتهي واشتباكه الذي لا يثمر إلا إثارة الثائرة على بني إسرائيل وهم عن الثورة الكـاملة عاجزون ، وعن الحركة المثمرة ضعفاء . فلا قيمة لمثل هذه الاشتباكات التي تضر ولا تنفع ولا تفيد(١) .

وهذا درس عمـيق يفيـد العاملين الذين يسـعون لتمكين ديـن الله عليهم أن يبتعدو عن المعارك الجانبية وأن يوحدوا صفـهم ويجمعوا قوتهم لساعة الصفر التي يعلو فيها نجم الإيمان وتنطمس فيها رايات الكفر والطغيان .

لقد تسـرب خبر قـتل موسى عليه السلام للقبطي واجـتمع الفراعـنة للبت في أمر

(١) انظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن، لأحمد فائز (٣ / ٦٤) .

موسى الذي ظهر لهم أنه رمز لثورة تحارب الظلم وتسعى لعز بني إسرائيل وقرروا إلقاء القبض عليه .

وهنا جـاء دور رجل تعاطف مع الحق والعـدل الذي يحمله مـوسى عليه السلام ، فأسرع لإنذاره ونصحـه ، وهنا إشارة قرآنية نحو الاهتمـام بالتواجد الأمني داخل المؤسسات الفرعونية والاستفـادة من المعلومات التي تنير طريق الدعاة في حركتهم المباركة .

﴿ وَجَاءَ رَجُلٌ مِّنْ أَقْصَا الْمَدِينَةِ يَسْعَىٰ قَالَ يَا مُوسَىٰ إِنَّ الْمَلَأَ يَأْتَمِرُونَ بِكَ لِيَقْتُلُوكَ فَاخْرُجْ إِنِّي لَكَ مِنَ النَّاصِحِينَ ﴾ (سورة القصص : ٢٠) .

لقد أكـرم الله موسى عليه السلام بهذه المعلومـات النافعة وقرر أن يهـاجر من بلاد الفراعنة .

وهذا إرشاد قرآني لمن خاف التلف بالقتل بغير حق في موضع ، فلا يلقي بيده إلى التهلكة ويستسلم للهلاك ، بل يفرّ من ذلك الموضع مع القدرة كما فعل موسى عليه السلام ، كما أن فيـه توجيه نحو ارتكاب إحدى المفـسدتين يتعين ارتكاب الأخف منهمـا ، دفعًا لما هو أعظم وأخطر ، فـإن موسى لما دار الأمر بين بقائه في مـصر ولكنه يقتل ، أو ذهـابه إلى بعض البلدان البعيـدة التي لا يعرف الطريق إليـها ، وليس معه دليل يدله غير هداية ربه ، ومعلوم أنها أرجى للسلامة ، لا جرم آثرها موسى[1] .

﴿فَخَرَجَ مِنْهَا خَائِفًا يَتَرَقَّبُ قَالَ رَبِّ نَجِّنِي مِنَ الْقَوْمِ الظَّالِمِينَ (٢١) وَلَمَّا تَوَجَّهَ تِلْقَاءَ مَدْيَنَ قَالَ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ (القصص : ٢١، ٢٢) ونلمح شخـصية موسى عليه السلام فريدًا وحـيدًا مطاردًا في الطرق الصحراوية في اتجـاه مدين جنوبي الشام وشمالي الحجاز . مسافات شاسعة ، وأبعاد مترامية ، لا زاد ولا استعداد ، فقد خرج من المدينة خائفًا يترقب ، وخرج منزعجًا بنذارة الرجل الناصح ، ونلمح

---

(١) انظر : تفسير السعدي (٨ / ٦٣٨) .

إلى جانب هذا نفسه متوجهة إلى ربه مستسلمة له ، مطلعة إلى هداه[1]: ﴿ عَسَىٰ رَبِّي أَن يَهْدِيَنِي سَوَاءَ السَّبِيلِ ﴾ .

كانت رحلة طويلة من الرعاية والتوجيه ، ومن التلقي والتجريب ، قبل وحي الله له بالنبوة : (تجربة الرعاية والحب والتدليل وتجربة الاندفاع تحت ضغط الغيظ الحبيس وتجربة الندم والتحرج والاستغفار وتجربة الخوف والمطاردة والفزع وتجربة الغربة والوحدة والرجوع . وتجربة الخدمة ورعي الغنم بعد حياة القصور وما يتخلل هذه التجارب الضخمة من شتى التجارب الصغيرة ، والمشاعر المتباينة، والخوالج والخواطر ، والإدراك والمعرفة إلى جانب ما آتاه الله حين بلغ أشده من العلم والحكمة . إن الرسالة تكليف ضخم شاق مُتعدد الجوانب والتبعات ، يحتاج إلى زاد ضخم من التجارب والإدراك والمعرفة والتذوق في واقع الحياة العملي ، إلى جانب هبة الله اللدنية، ووحيه وتوجيهه للقلب والضمير)[2] .

إن الله تعالى أراد أن يربي موسى عليه السلام بالأحداث قبل الرسالة ولهذا دخل بقدرة الله إلى مجتمع الرعاة ، مستشعراً النعمة في أن يكون راعي غنم يجد القوت والمأوى بعد الخوف والجوع والمطاردة والمشقة .

وعاش مع البسطاء في أخلاقهم وعاداتهم وخشونتهم وفقرهم وهذا كله تمرين له على تكاليف الدعوة التي سيتحملها .

إن التجارب الميدانية أقوى وأفيد في تربية النفوس البشرية من قراءة الكتب والمجلدات والجرائد ومن الندوات والحلقات الهادئة البعيدة عن المحن والشدائد والصعاب .

إن الشعوب التي تربت على الذل والخنوع والمهانة والقسوة في العادة تفقد القدرة على التفكير والتدبير وتنتظر من يقودها نحو حريتها وكرامتها وعزتها .

---

(١) انظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن (٣ / ٥٤، ٥٥) .
(٢) انظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن (٣ / ٦٤) .

وإن هذا القرآن الكريم ليـمد الطلائع المتحفـزة نحو التغيـير بخبرات الأنـبياء والمرسلين والذين سـعوا لتحـرير شعوبهم من الظلم والجـبروت والطغـيان وتضع أيديهم على مفاصل التـغيير في الأمم والشعـوب وكيفية السـعي بها من الضعف ومن دياجيـر الظلام وأغلال العبـودية للعبيـد إلى القوة ونور الحريات ، وعـبادة الواحد الديان .

إن تجربة موسى عليه السلام في تغيـير الشعوب من أضـخم التجارب، فقـد واجه بدعوته المباركة أعتى ملوك الأرض في زمانه، وأقـدمهم عرشًا ، وأثبتهم ملكًا ، وأعرقهم حضارة ، وأشدهم تعبدًا للخلق واستعلاء في الأرض .

لقد حان وقـت خلاص بني إسرائيل من الظلم والاضطهاد والعـسف والجور وأكمل مـوسى عليه السلام مدته في أهل مـدين وعزم على التكليف الربـاني بالرسالة والنهوض بالشعب المستضـعف من قبل رب العالمين لموسى الكليم وأمده المولى عز وجل بالمعجزات الواضحة والبراهين الدامغة والأدلة الساطعة .

وأمره بالذهاب إلى القوم الفاسقين لإقـامة الحجة على الفراعين وتخليص بني إسرائيل من ظل العبـودية وظلم العباد وقسوة الفراعنة حـتى يعبدوا الله أحرارًا ، ولم يتردد موسى عليه السلام في طلب العون من مولاه وربه ومـبتغاه قال سيـد رحمه الله : لقد استجـاب ربه رجاءه وشد عضده بأخيه ، وزاده على مـا رجاه البشارة والتطمين ﴿وَنَجْعَلُ لَكُمَا سُلْطَانًا﴾ فهما لن يذهبا مجـردين إلى فرعون الجبار ، إنما يذهبان إليه مزودين بسلطان لا يقف له في الأرض سلطان ، ولا تنالهما معه كف طاغية ولا جبار ﴿فَلا يَصِلُونَ إِلَيْكُمَا﴾ وحولكما من سلطان الله سياج ولكما منه حضن وملاذ . ولا تـقف البشـارة إلى هذا الحد ولكنهـا الغلبة للحق ، والغلـبة لآيات الله يجـابهان بهـا الطغاة ، فـإذا هي وحدها السـلاح القوي وأداة النـصر والغلبة ﴿ بِآيَاتِنَا أَنتُمَا وَمَنِ اتَّبَعَكُمَا الْغَالِبُونَ ﴾[1] .

---

(١) في ظلال القرآن (٥ / ٢٦٩٣) .

إن موسى عليه السلام باشر في تنفيذ أمر ربه سبحانه وتعالى وأيده بالمعجزات وصدع بكلمة الحق أمام فرعون الطاغية الجبار ، وأقام عليه الحجة والبراهين ، والأدلة على صدق رسالته وتعرّض فرعون وقومه بالأخذ بالسنين والنقص في الثمرات وابتلاهم الله بالقمل والضفادع والدم وغير ذلك .

ولم يؤمن الجبار العنيد؛ بل اتهم موسى الكليم بالسحر وقرّر أن يجمع كل السحرة للوقوف أمام دعوة الحق التي يقودها رسول الله موسى عليه السلام .

واجتمع الفريقان لميقات يوم معلوم ، وبدأ السجال وألقى السحرة إفكهم وخداعهم ثمّ عرج موسى عليه السلام على باطلهم بالحق المبين، بإلقائه العصا التي انقلبت إلى حية تسعى، فإذا هي تلقف ما يأفكون وكانت الجولة والصولة .

قال تعالى : **﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَلْقِ عَصَاكَ فَإِذَا هِيَ تَلْقَفُ مَا يَأْفِكُونَ * فَوَقَعَ الْحَقُّ وَبَطَلَ مَا كَانُوا يَعْمَلُونَ * فَغُلِبُوا هُنَالِكَ وَانقَلَبُوا صَاغِرِينَ ﴾** (الأعراف : ١٢٢) .

قال صاحب الظلال :

(إنه الباطل ينتفش ويسحر العيون ويسترهب القلوب ويخيل إلى الكثيرين أنه غالب ، وأنه جارف وأنه محق ، وما هو إلا أن يواجه الحق الهادئ الواثق حتى ينفشئ كالفقاعة ، وينكمش كالقنفذ ، وينطفئ كشعلة الهشيم ، وإذا الحق راجح الوزن ثابت القواعد عميق الجذور ، والتعبير القرآني هنا يلقي هذه الظلال وهو يصور الحق واقعًا ذا ثقل "فوقع الحق" وثبت واستقر وذهب ما عداه فلم يعدله وجود " وبطل ما كانوا يعملون " وغلب الباطل والمبطلون وذلوا وصغروا وانكمشوا بعد الزهو الذي كان يبهر العيون " فغلبوا هنالك وانقلبوا صاغرين " ولكن المفاجأة لم تختم بعد والمشهد ما يزال يحمل مفاجأة كبرى : **﴿ وَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سَاجِدِينَ (١٢٠) قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ الْعَالَمِينَ (١٢١) رَبِّ مُوسَىٰ وَهَارُونَ ﴾** (سورة الأعراف : ١٢٠ ، ١٢٢) .

إنها صولة الحق في الضمـائر ، ونور الحق في المشاعر ، ولمسة الحق للقلوب المهيأة لتلقي الحق والنور واليقين)[١] .

لقد احتج فرعون على إيمان السحرة وأرغد وأزبد ، لأنهم آمنوا بدون إذنه : ﴿ آمَنتُم بِهِ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ﴾ كأنما كـان عليهم أن يستأذنـوه في أن تنتفض قلوبهم للحق ، وهم أنـفـسـهم لا سلطان لهم عليـهـا ، أو يسـتـأذنـوه في أن ترتعش وجداناتهم وهم أنفسـهم لا يملكون من أمرها شيئًا ، ولكنه الطاغـوت جاهل غير مطموس ، وهو في الوقت ذاته متعجرف متكبر مغرور .

ثم إنه الفزع على العـرش المهدد والسلطان المهزوز ، والمسألة واضـحة المعالم إنها دعوة موسى إلى ﴿رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ . هي التي تزعج وتخيف ، إنه لا بقاء ولا قرار لحكـم الطواغيت مع الدعـوة إلى رب العالمين ، وهم إنما يقـوم ملكهم على تنحية ربوبية الله للبشـر بنتيجة شريعته وإقامـة أنفسهم أربابًا من دون الله يشرعون للناس ما يشاءون ويعبـدون الناس لما يشرعون ، إنهما منهجان لا يجـتمعان ، أو هما دينان لا يجتمعان أو هما ربان لا يجـتمعان وهكذا أطلق فرعون ذلك التوعد الوحشي الفظيع : ﴿فَسَوْفَ تَعْلَمُونَ (١٢٣) لأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلافٍ ثُمَّ لأُصَلِّبَنَّكُمْ أَجْمَعِينَ ﴾ (سورة الأعراف : ١٢٤) .

إنه التعذيب والتـشويه والتنكيل وسيلة الطواغيت في مـواجهة الحق الذي لا يملكون دفعه بالحجة والبرهان ، وعدة الباطل في وجه الحق الصريح .

ولكن النفس البـشرية حين تستـعلن فيهـا حقيـقة الإيمان تستـعلي على قوة الأرض ، وتستهـين ببأس الطغاة ، وتنصر فـيها العقـيدة على الحياة ، وتخـتصر الفناء الزائل إلى جـوار الخلود المقيم ، إنهـا لا تقف لتسـأل ماذا ستـأخـذ وماذا ستدع ، ماذا ستقبض وماذا ستدفع ، مـاذا ستخسر وماذا ستكسب ، وماذا ستلقى

(١) في ظلال القرآن (٣ / ١٣٥٠) .

في الطريق من صعـاب وأشواك وتضحـيات ؟ لأن الأفق المشرق الوضيء أمامـها هناك، لا تنظر إلى شيء في الطريق[١] .

﴿قَالُوا إِنَّا إِلَىٰ رَبِّنَا مُنقَلِبُونَ (١٢٥) وَمَا تَنقِمُ مِنَّا إِلَّا أَنْ آمَنَّا بِآيَاتِ رَبِّنَا لَمَّا جَاءَتْنَا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَتَوَفَّنَا مُسْلِمِينَ﴾ (سورة الأعراف : ١٢٦) لقد أقام موسى عليه السلام الحجج الدامغة والبراهين الساطعة ، على فرعون الطاغية المتكبر وطلب منه أن يرسل معه بني إسرائيل ، فامتنع وشرع للكيد لموسى وقومه، وكانت النتيجة أن تمكن الإيمان من قلب السحرة وأعلنوها صيـحة مدوية في آفاق الأرض : ﴿فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَٰذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا (٧٢) إِنَّا آمَنَّا بِرَبِّنَا لِيَغْفِرَ لَنَا خَطَايَانَا وَمَا أَكْرَهْتَنَا عَلَيْهِ مِنَ السِّحْرِ وَاللَّهُ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ﴾ (طه : ٧٢) .

لقد انتـقم فرعـون من السحـرة الذين آمنوا وصلبوا في جـذوع النخل وقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وتشـاور الملأ من القوم مع زعيمهم الطاغـية وقرّر الأخير مـضاعفة العذاب والانتـقام من الشعب المستضـعف الذي بدأ يزحف نحو النور والحرية والكرامة والتوحيد الصحيح .

لقد حاور موسى عليه السلام فرعون الطاغـية وساجل سحرته ، وكانت مـحاولته لمعالجة الوضع من فوق ، لتحقيق تغـيير أشمل ، ولكن سرعان ما تبين أن الجدار الفرعوني لا يخترق لا يستمال ولا يحيّد ولا يكسب ، حتى بعد أن كسب المعركة عقديًّا وفكريًّا وسياسيًّا حين لقفت عصاه عـصى السحرة فكان لا بد من الخروج ببني إسرائيل خلسـة وباستخـدام أسلوب التمويه حتـى يكسب بعض الوقت قبل اكتشاف أثرهم واللحاق بهم ، فالمواجهة كانت تعني الهلاك ؛ بل فشل الفرار كان يعني الهلاك كذلك .

وكان لا بد من الـتوجّه نحـو الصحـراء حتى يمنع اللحـاق بهم ويصلوا إلى

(١) المصدر السابق (٣ / ١٣٥١ ، ١٣٥٢) .

أرض الميعاد ، بل كل هذا المجهود الفذ الذي قام به موسى عليه السلام لتخليص قومه من الذل والخنوع والاستعباد ماكان لينجح لولا توفيق الله عز وجل ومعجزة شق البحر ، وإغراق فرعون وجنوده وهم يكادون يمسكون بالهاربين[١] .

لقد كان للأثر السياسي والاجتماعي ومظاهر البيئة الخارجية والداخلية تأثيراً في اتخاذ أسلوب الهجرة السرية لموسى وقومه ، وعلى الشعوب المستضعفة : أن تعمل مافي جهدها وطاقتها ووسعها وتوقن أن نصر الله قادم مادامت تريد أن تعبد الخلاّق العليم على نهجه وشرعه ودينه القويم لقد حان وقت هلاك فرعون اللعين ونجاة موسى الكليم ومن معه من المؤمنين :

قال تعالى : ﴿ وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنْ أَسْرِ بِعِبَادِي إِنَّكُم مُّتَّبَعُونَ ﴿٥٢﴾ فَأَرْسَلَ فِرْعَوْنُ فِي الْمَدَائِنِ حَاشِرِينَ ﴿٥٣﴾ إِنَّ هَٰؤُلَاءِ لَشِرْذِمَةٌ قَلِيلُونَ ﴿٥٤﴾ وَإِنَّهُمْ لَنَا لَغَائِظُونَ ﴿٥٥﴾ وَإِنَّا لَجَمِيعٌ حَاذِرُونَ ﴿٥٦﴾ فَأَخْرَجْنَاهُم مِّن جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ ﴿٥٧﴾ وَكُنُوزٍ وَمَقَامٍ كَرِيمٍ ﴿٥٨﴾ كَذَٰلِكَ وَأَوْرَثْنَاهَا بَنِي إِسْرَائِيلَ ﴿٥٩﴾ فَأَتْبَعُوهُم مُّشْرِقِينَ ﴿٦٠﴾ فَلَمَّا تَرَاءَى الْجَمْعَانِ قَالَ أَصْحَابُ مُوسَىٰ إِنَّا لَمُدْرَكُونَ ﴿٦١﴾ قَالَ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴿٦٢﴾ فَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ مُوسَىٰ أَنِ اضْرِب بِّعَصَاكَ الْبَحْرَ فَانفَلَقَ فَكَانَ كُلُّ فِرْقٍ كَالطَّوْدِ الْعَظِيمِ ﴿٦٣﴾ وَأَزْلَفْنَا ثَمَّ الْآخَرِينَ ﴿٦٤﴾ وَأَنجَيْنَا مُوسَىٰ وَمَن مَّعَهُ أَجْمَعِينَ ﴿٦٥﴾ ثُمَّ أَغْرَقْنَا الْآخَرِينَ ﴿٦٦﴾ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً وَمَا كَانَ أَكْثَرُهُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٦٧﴾ وَإِنَّ رَبَّكَ لَهُوَ الْعَزِيزُ الرَّحِيمُ ﴾ (سورة الشعراء : ٥٢ - ٦٨) .

إن الآيات الكريمة توضح لنا سنة من سنن الله الماضية والجارية في المجتمعات والشعوب والأمم ألا وهي سنة إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه ، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه ،وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه ، وتتضح سنة أخرى ألا وهي سنة الاستدراج وكيف أن المولى عز وجل قرب فرعون وجنوده وأدناهم بل وسلب عقولهم بحيث إنهم تابعوا موسى وقومه ونقف مع الرسول الكريم في قوله تعالى : ﴿ كَلَّا إِنَّ مَعِيَ رَبِّي سَيَهْدِينِ ﴾ هنا دلالة مهمة ألا وهي :

---

(١) انظر : في نظريات التغيير ، منير شفيق ، ص (١) .

أن الرسل هم أوثق الناس بنصر الله عز وجل ووعــده ، فلو ضاقت الأمور وشك الناس في وعد الله بالنصر والفرج فإن الرسل هم أوثق الناس بنصر الله .

إن فرعون الطاغية حاول أن يرفض الاستسلام لآيات الله ومشيئته وتكبر وتجبر وتغطرس وهذه هي النهاية : استــدرج بعيداً عن عرشه وقــصره وسلطانه وأصبح من المغرقين ، وأصبح وقــومه أثراً بعد حين ، وبدأ نجم المستضعـفين في الصعود إلا أن سنين القمع والظلم وضعف العقيدة لازال أثرها في نفوس بني إسرائيل إلا أن هذا الانتصــار العظيم لموسى الكليم على الطاغية اللئـيم نوع من أنواع التمكين الذي ذكرت في القرآن الكريم وكان خطوة نحــو التمكين الأكمل والنصر الأعظم الذي تم في عصر داود وسليمان عليهما السلام .

* ■ *

المبحث الثالث

قصة طالوت عليه السلام مع بني إسرائيل

قال تعالى : ﴿ أَلَمْ تَرَ إِلَى الْمَلَإِ مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ مِن بَعْدِ مُوسَىٰ إِذْ قَالُوا لِنَبِيٍّ لَّهُمُ ابْعَثْ لَنَا مَلِكًا نُّقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ قَالَ هَلْ عَسَيْتُمْ إِن كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ أَلَّا تُقَاتِلُوا قَالُوا وَمَا لَنَا أَلَّا نُقَاتِلَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَقَدْ أُخْرِجْنَا مِن دِيَارِنَا وَأَبْنَائِنَا فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقِتَالُ تَوَلَّوْا إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ بِالظَّالِمِينَ (٢٤٦) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ اللَّهَ قَدْ بَعَثَ لَكُمْ طَالُوتَ مَلِكًا قَالُوا أَنَّىٰ يَكُونُ لَهُ الْمُلْكُ عَلَيْنَا وَنَحْنُ أَحَقُّ بِالْمُلْكِ مِنْهُ وَلَمْ يُؤْتَ سَعَةً مِّنَ الْمَالِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ (٢٤٧) وَقَالَ لَهُمْ نَبِيُّهُمْ إِنَّ آيَةَ مُلْكِهِ أَن يَأْتِيَكُمُ التَّابُوتُ فِيهِ سَكِينَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَبَقِيَّةٌ مِّمَّا تَرَكَ آلُ مُوسَىٰ وَآلُ هَارُونَ تَحْمِلُهُ الْمَلَائِكَةُ إِنَّ فِي ذَٰلِكَ لَآيَةً لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ (٢٤٨) فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلَّا مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ فَلَمَّا جَاوَزَهُ هُوَ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ قَالُوا لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالَ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَاقُو اللَّهِ كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ (٢٤٩) وَلَمَّا بَرَزُوا لِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ قَالُوا رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ (٢٥٠) فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ وَقَتَلَ دَاوُودُ جَالُوتَ وَآتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ وَالْحِكْمَةَ وَعَلَّمَهُ مِمَّا يَشَاءُ وَلَوْلَا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الْأَرْضُ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ (٢٥١) تِلْكَ آيَاتُ اللَّهِ نَتْلُوهَا عَلَيْكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّكَ لَمِنَ الْمُرْسَلِينَ ﴾ (البقرة: ٢٤٦ ـ ٢٥٢) .

إن قصة طالوت عليه السلام توضح نوعًا من أنواع التمكين ألا وهو نصر الله للمؤمنين على الكافرين في المعارك .

وهذه القصة وقعت أحداثها بعد دخولهم الأرض المقدسة في فترة من فترات حياتهم بعد أن انحرفوا عن منهج الله سلط الله عليهم من يضطهدهم ويهزمهم

بسبب ذنوبهم ومعاصيهم ، وقد سلب الله منهم التابوت الذي فيه سكينة من الله وبقية مما ترك آل موسى وآل هارون .

وقد شعر القوم بالذل ومرارة الهزيمة والهوان ، وكان هذا الشعور عند الجميع، العامة والملأ المالكون فيهم .فأرادوا أن يغيروا واقعهم الذليل ، وأن يبدلوا ذلهم عزة وهزيمتهم نصراً . وعلموا أن السبيل الوحيد لذلك هو الجهاد والقتال ، لذلك لجأ الملأ الحاكمون فيهم إلى نبيهم ، وفزعوا إليه ، وطلبوا منه أن يختار لهم ملكًا يتولى أمورهم ، ويقودهم إلى العزة والنصرة ، ويقاتل لهم أعداءهم في سبيل الله ويبدو أن ذلك النبي كان يعلم طبيعتهم المائعة وهمتهم الرخوة ، وأنهم عندما يؤمرون بالقتال ، فسوف ينكصون عنه ويقعدون عن خوضه ، فقال لهم: أخشى عليكم الامتناع عن أمر الله عندما يأمركم بالجهاد ، فردوا بحماسة بأنهم عازمون وبينوا الأسباب التي تدعو إلى قتال أعدائهم فبعد ذلك سأل نبيهم ربه ، فأوحى إليهم أن طالوت ملكهم ، فاحتجوا بحجج واهية نسفها لهم نبيهم وعندما جاء وقت الجد والكفاح والقتال والجهاد بدءوا في التساقط ولم يصبر مع طالوت إلا فئة قليلة سمعت وأطاعت واعتمدت على خالقها ، فنصرهم الله على أعدائهم .

ولقد وقف العلماء على هذه القصة العظيمة يدرسونها ويغترفون من بحرها العميق دروسًا مفيدة في تكوين الأفراد وقيادة الجماعات وإحياء الشعوب والسعي بها نحو التمكين ومن أهم هذه الدروس والعبر(١).

أولا : مبهمات هذه القصة

نلاحظ في هذه القصة مبهمات كثيرة لم يتعرض لها القرآن ، لأنه لا فائدة في ذكرها ، وإنما ذكر المولى عز وجل ما يفيد المسلمين وأهل النظر والاعتبار .

إن في قصة طالوت نرى مبهمات كثيرة منها :

---

(١) انظر: مع قصص السابقين في القرآن (١ / ٢٩٥،٢٩٦) .

١- الزمان الذي وقـعت فيه قـصة طالوت ، فكل ما يؤخـذ من الآيات أنها وقعت لبني إسرائيل من بعد موسى ، يعني بعد إقامتهم في فلسطين . أما تحديد السنة أو الفترة أو الحالة التي عليها بنو إسرائيل ، فهذا لا يمكن تحديده .

٢- اسم النبي الذي طلبوا منه أن يبـعث لهم ملكًا . فقد يكون شـمعون أو صمـويل وقد يكون غـيرهما . فـلا نجعل أحـدًا من الأنبياء إلا بـنص صريح ، لاحتمال أن لا يكون نبيًّا . وبذلك نؤمن بنبوة غير النبي ! وهذا لا يجوز .

٣- السبب الذي دفعهم ليطلبوا من نبيهم ذلك الطلب .

٤- نسب طالوت ، وبداية أمره ، وتفصيلاته قبل تملكه عليهم .

٥- تفصيلات ببسطة طالوت في العلم والجسم .

٦- تفصيلات بملك طالوت عليهم .

٧- التابوت وقصتــه وتاريخه عندهم ومقاساته ، وتفصيــلات السكينة والبقية التي فيه ، التي تركها آل موسى وآل هارون وغير ذلك من المبهمات .

والعجيب أن بعض المفسرين والمؤرخين والـكتّاب والمحدثين لم يقفوا عند هذا البـيان القـرآني والنبوي ، فـذهبوا إلى الإسـرائيليـات ، وطلبوا منهـا حل تلك المبهمات ، وتفصيل تلك الأحداث ، ولم يقدموا لنا علمًا ولا فائدة ولا عبرة .

وبذلك تضيع جـهود وأوقات في غير مـحلها ، ويتركون عـرض القرآن وما احتواه من دروس ودلالات وعبر .فالقصة هذه مثلاً :

فيــها دروس للدعـاة في التعـامل مع الآخرين ، ودروس للمـصلحين الذين يريدون تغيير الواقع السيئ الذي تعيشه الأمة . ودروس للمجاهدين الذين يعملون على تبـديل الذل إلى عـزة والهزيمة إلى نصـر . ودروس للذين يعـتمـدون على الجماهيـر ، ويصدّقون اندفاعهم وحمـاستهم ، ويضعون على أسـاسها خططهم وبرامجهم ، فـتتخلى عنهم الجمـاهير وقت الحاجة . ودروس في التـربية الفردية

والجماعيــة، ودروس في الضبط والحزم والامتحان ، ودروس في الجـهاد والقتال وخوض المعركة ، والتوجه إلى الله والاستنصار به ، وعدم الرعب والهلع من قوة الأعداء . وفـيها دروس في أسس اخـتيار الحكام والمسئـولين وما هي مواصـفات الحكام المطلوبة، إن هذه القصة مليئة بالدروس والعبر في مجال الدعوة والداعية، والحاكم والمحكوم ، والجندي والقـائد ، وفي مجال الإيمان والعقـيدة ، والدعوة والجهاد ، والإصلاح والتغيير ، والتـوجيه والتربية ، والسياسة والولاية ، والحكم والسيادة .

إن كثيراً من المفسرين ملئوا كتبـهم بتيه الإسرائيليات والخرافات والأساطير ، وتجاوزوا كثيراً من الدروس والدلالات[١] .

إن هذا العصـر يتطلب من العلماء أن يبـتعدوا عن التـرف الفكري والعلمي ، لأننا مطالبون بالإصلاح والدعوة والتغيير ، كما أن علينا مسئوليات عظيمة ، لتغيير واقع الأمة من الحضيض التي فيه إلى قمة العزة والتمكين التي يريدها الله لها .

ثانيًا : أهم سنن حياة الأمم والشعوب التي يمكن استخلاصها في هذه القصة :

حاول الشيخ محمد رشيد[٢] - رحمه الله - أن يـتأمل في هذه القصة ويستنبط منها أهم السنن الاجتماعية في حياة الأمم والمجتمعات والشعوب وذكر منها:

السُّنة الأولى : أن الأمم إذا أُعـتدي على اسـتقـلالهـا ، وأوقع الأعداء بهـا فهـضموا حقـوقها ، تتنبه مـشاعرها لدفع الضيـم ، فتسعى للوحـدة التي يمثلها الزعيم العادل ، فتتوجه إلى طـلبه ، كما وقع من بني إسرائيل ، بعد تنكيل أهل فلسطين بهم .

---

(١) المصدر نفسه (١ / ٣٠٤، ٣٠٥) .

(٢) هو محـمد رشيد رضـا القلموني البغـدادي الأصل، الحسيني النسب، صاحـب مجلة المنار، وداعية التـجديد والإصلاح وله تفسيـر اسمه تفسير القرآن الحكيم ومشـهور باسـم تفسير المنار وهو غير كـامل انتهى مؤلفه إلى الآية (١٠١) من سـورة يوسف توفي سنـة ١٣٥٣هـ . انظر: الأعـلام للزركلي (٦/ ١٢٦) تفـسيـر المنار (٧/ ٣٠٥،٣٠٦) .

السُّنة الثانية : أن شعور الأمة بوجوب حفظ حقوقها وصيانة استقلالها ، يكون موجودًا عند خاصتها وأهل الفكر والرأي فيها . فالملأ من بني إسرائيل ، هم الذين طلبوا الملك .

السُّنة الثالثة : متى عظم الشعور بوجوب حفظ حقوق الأمة ومحاربة أعدائها عند خواص الأمة ، فإنه لا يلبث أن يسري إلى عامتها ، حتى إذا خرجت من طور الفكر والشعور إلى طور العمل والظهور ، انكشف عجز الأدعياء، ولم ينفع إلا صدق الصادقين .

السُّنة الرابعة : من شأن الأمم الاختلاف في اختيار الرئيس ، والاختلاف مدعاة للتفرق ، فلابد من مرجِّح ترضى به الأمة ، كما طلبت بنو إسرائيل من نبيهم اختيار ملك لهم ، فكان هو المرجح . والمرجح عند المسلمين هم أهل الحل والعقد منهم .

السُّنة الخامسة : إن الناس لا يتفقون على التقليد أو الاتباع فيما يرونه مخالفًا لمصلحتهم الاجتماعية ، ولذلك اختلف بنو إسرائيل على نبيهم في جعل طالوت ملكًا عليهم ، واحتجوا على ذلك بما لا ينهض حجة إلا في ظن المنكرين ومن عجيب أمر الناس أن كلاً منهم يحسب أنه على صواب في السياسة ونظام الاجتماع في الأمم والدول .

السُّنة السادسة : أن الأمم في طور الجهل ترى أن أحق الناس بالملك والزعامة أصحاب الثروة الواسعة ، كما في قول المنكرين على طالوت : أنى يكون له الملك علينا ونحن أحق بالملك منه ولم يؤت سعة من المال ؟ فهذا الاعتقاد من السنن العامة في الأمم الجاهلية .

السُّنة السابعة : أن الشروط التي ينبغي اعتبارها في الاختيار للملك هي : **﴿إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ وَاسِعٌ عَلِيمٌ﴾** (سورة البقرة : ٢٤٧) فيما يأتي :

١- الاستعداد الفطري للشخص ﴿ إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ ﴾ .

٢- السعة في العلم الذي يكون به التدبير ﴿وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ﴾ .

٣- بسطة الجسم المعبِّر بها عن صحته ، وكمال قواه المستلزم ذلك صحة الفكر ﴿ وَالْجِسْمِ ﴾ .

٤- توفيق الله تعالى لا سبب له ، وهو المعبّر عنه بقوله : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾ .

السنة الثامنة : هي ما أفاده قوله تعالى : ﴿ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ﴾

فمشيئة الله سبحانه ، إنما تنفذ بمقتضى سنة العامة في تغيير أحوال الأمم ، بتغييرهم ما في أنفسهم ، وفي سلب ملك الظالمين، وإيراث الأرض للصالحين ، وتأويل هذه الآيات وأمثالها مشاهد في كل زمان ، وأين المبصرون ؟

السُّنة التاسعة : أن طاعة الجنود للقائد في كل ما يأمر به وينهى عنه شرط في الظفر واستقامة الأمر وقوانين الجندية في هذا الزمان حتى عند الغربيين مبنية على طاعة الجيش لقواده في المنشط والمكره والمعقول وغير المعقول .

السُّنة العاشرة : أن الفئة القليلة قد تغلب بالصبر والثبات وطاعة القوّاد ، الفئة الكثيرة التي أعوزها الصبر والاتحاد مع طاعة القواد ، لأن النصر مع الصابرين ، أي جرت سنته بأن يكون النصر أثرًا للثبات والصبر ، وأن أهل الجزع والجبن هم أعوان لعدوهم على أنفسهم وهذا مشاهد في كل زمان .

السُّنة الحادية عشرة : أن الإيمان بالله ، والتصديق بلقائه من أعظم أسباب الصبر والثبات في مواقف الجلاء والقتال .

السُّنة الثانية عشرة : أن التوجه إلى الله بالدعاء مفيد في القتال كما يدل عليه قوله : ﴿فَهَزَمُوهُم بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ إذ عطفها بالفاء على آية الدعاء ، وذلك معقول المعنى ، فإن الدعاء هو آية الإيمان بالله والتصديق بلقائه .

السُّنة الثالثة عشرة : دفع الله للناس بعضهم ببعض من السنن العامة ، وهو ما يعبر عنه علماء الحكمة في هذا العصر بتنازع البقاء ، ويقولون إن الحرب طبيعية في البشر ؛ لأنها من فروع سنة تنازع البقاء العامة ، وأنت ترى في قوله تعالى : ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ﴾ ليس نصًّا فيما يكون بالحرب والقتال خاصة ، بل هو لكل نوع من أنواع التنازع بين الناس ، الذي يقتضي المدافعة والمغالبة[1] .

إن السنن الربانية ثابتة في الكون ، وتقع على الإنسان في كل زمان ومكان وسنة التدافع من السنن التي تتعلق بالتمكين تعلقًا وثيقًا " ولقد شاء الله رب العالمين أن يُجري أمر هذا الدين - بل أمر هذا الكون - على السنن الجارية، لا على السنن الخارقة وذلك حتى لا يأتي جيل من أجيال المسلمين فيتقاعس، ويقول: لقد نصر الأولون بالخوارق ، ولم تعد الخوارق تنزل بعد ختم الرسالة ، وانقطاع النبوات "[2] .

وعلى المسلمين أن يدركوا سنن ربهم المبرزة لهم في كتاب الله تعالى وفي سنة رسوله ﷺ حتى يصلوا إلى ما يرجون من عزة وتمكين " فإن التمكين لا يأتي عفواً ، ولا ينزل اعتباطًا ولا يخبط خبط عشواء ؛ بل إن له قوانينه التي سجلها الله تعالى في كتابه الكريم ليعرفها عباده المؤمنون ، ويتعاملوا معها على بصيرة "[3] .

إن الوقوف على معرفة سنن الله ودراستها أمر لا بد منه للأمة الإسلامية وذلك حتى يستفيدوا منها ، ولا يصطدموا بها .

يقول حسن البنا : " لا تصادموا نواميس الكون فإنها غلابة . ولكن غالبوها، واستخدموها ، وحولوا تيارها ، واستعينوا ببعضها على بعض "[4].

---

(١) تفسير المنار (٢/ ٤٩٢-٤٩٨).

(٢) واقعنا المعاصر ، ص٤١٤ .

(٣) جيل النصر المنشود، د. يوسف القرضاوي، ص١٥ .

(٤) الرسائل لحسن البنا، ص١٦١ .

إن سنة التدافع متعلقة بالتمكين تعلقًا وطيدًا " فالله تعالى يعلم أن الشر متبجح ، ولا يمكن أن يكون منصفًا ، ولا يمكن أن يدع الخير ينمو - مهما يسلك هذا الخير من طرق سلمية موادعة - فإن مجرد نمو الخير يحمل الخطورة على الشر، ومجرد وجود الحق يحمل الخطر على الباطل ، ولا بد أن يجنح الشر إلى العدوان ، ولابد أن يدافع الباطل عن نفسه بمحاولة قتل الحق وخنقه بالقوة . . . فمن هنا يقع التدافع بين الحق وأهله ، والباطل وحزبه . وتلك سنة الله . ولن تجد لسنة الله تبديلاً "(١) .

"وهي سنة فطرية جارية بين الناس حفظًا لاستقامة حال العيش ، واعتدالا لميزان الحياة "(٢) .

لقد ورد تقرير هذه السنة الربانية في القرآن الكريم بصفة عامة ولكن جاء التنصيص عليها في آيتين كريمتين منه(٣):

الآية الأولى : قوله تعالى في سورة البقرة : **﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّفَسَدَتِ الأَرْضُ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ﴾** (البقرة ، آية : ٢٥١) .

الآية الثانية : قوله تعالى : في سورة الحج : **﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** (الحج ، آية : ٤٠) .

والملاحظ أن آية البقرة تأتي بعد ذكر نموذج من نماذج الصراع بين الحق والباطل المتمثل هنا في طالوت وجنوده المؤمنين ، وجالوت وأتباعه ، ويذيل الله - تعالى - الآية بقوله تعالى : **﴿ وَلَكِنَّ اللَّهَ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْعَالَمِينَ ﴾** (البقرة : ٢٥١) . (مما يفيد أن دفع الفساد بهذا الطريق إنعام يعم الناس كلّهم)(٤) .

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٧٤٢) .

(٢) انظر : التمكين للأمة الإسلامية لمحمد السيد محمد ، ص٢١٨ .

(٣) المصدر نفسه ، ص٢١٩ .

(٤) الفخر الرازي : مفاتيح الغيب (٣/ ٥١٤) .

وتأتي آية الحج بعد إعلان الله تعالى أنه يدافع عن أوليائه المؤمنين ، وبعد إذنه لهم - سبحانه - بقتال عدوهم . ويختتم الآية بتقرير الله تعالى : - لقاعدة أساسية : ﴿ وَلَيَنصُرَنَّ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ ﴾ (الحج : ٤٠) .

إن من الضروري للأمة الإسلامية أن تعي سنة الله - تعالى - في دفع الناس بعضهم ببعض : " لتدرك أن سنة الله - تعالى - في تدمير الباطل أن يقوم في الأرض حق يتمثل في أمة ، ثم يقذف الله - تعالى - بالحق على الباطل فيدمغه فإذا هو زاهق "[١] .

إن الحق يحتاج إلى عزائم تنهض به ، وسواعد تمضي به ، وقلوب تحنو عليه، وأعصاب ترتبط به . . إنه يحتاج إلى الطاقة البشرية الطاقة القادرة القوية ، والطاقة الواعية العاملة . . إنه يحتاج إلى جهد بشري ، لأن هذه سنة الله - تعالى - في الحياة الدنيا سنة ماضية[٢] : ﴿فَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَبْدِيلاً وَلَن تَجِدَ لِسُنَّتِ اللَّهِ تَحْوِيلاً ﴾ (سورة فاطر ، الآية : ٤٣) .

وهكذا يتضح أن سنة التدافع من أهم سنن الله تعالى في كونه وخلقه ، وهي كذلك من أهم السنن المتعلقة بالتمكين للأمة الإسلامية وما على الأمة إلا أن تعي هذه السنة ، لتستفيد منها وهي تعمل لعودة التمكين الذي وعدت به من الله رب العالمين[٣] .

ولذلك يهتم القرآن الكريم بتعليم المسلمين ما يهمهم من أمور دينهم ودنياهم ويبين بكل جلاء ووضوح سنن الله تعالى في الآفاق والمجتمعات والأمم ، ويبين كيفية وقوع هذه السنن وما هي الأسباب التي تتخذ ، فعندما أراد الله لبني إسرائيل أن ينصرهم على عدوهم ويمكن لهم في الأرض سبق ذلك التمكين وذلك النصر أمور ذكرها الله تعالى في قصة طالوت عليه السلام . .وقد أجاد سيد

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ١٠٩١) .
(٢) انظر : لقاء المؤمنين لعدنان النحوي (٢/ ١١٧) .
(٣) انظر : التمكين للأمة الإسلامية ص٢٢٥ .

قطب - رحمه الله - في بيان هذه الحقائق فقال : (والعبرة الكلية تبرز من القصة كلها ، هي أن هذه الانتفاضة - انتفاضة العقيدة - على الرغم من كل ما اعتورها أمام التجربة الواقـعة من نقص وضعف ، ومن تخلي القوم عنها فـوجًا بعد فوج في مـراحل الطريق على الرغم من هذا كله، فـإن ثبات حـفنة قليلة من المؤمنين عليها قـد حقق لبني إسرائيل نتائج ضـخمة جدًّا . فقد كـان فيها العـز والنصر والتمكين ، بعـد الهزيمة المنكرة ، والمهانة الفـاضحة ، والتـشريد الطويل، والذل تحت أقدام المتسلطين ، ومن خلال التجربة تبرز بضع عظات أخرى جزئية ، كلها ذات قيمة للجماعة المسلمة في كل حين من ذلك :

١- أن الحمـاسة الجماعـية، قد تخدع الـقادة لو أخذوا بمظهرها فـيجب أن يضعوها على محك التجربة ، قبل أن يخوضوا بها المعركة الحاسمة .

٢- أن اختبار الحماسة الظاهرة والاندفاع الغائر في نفوس الجماعات ، ينبغي أن لا يقف عند الابتلاء الأول .

أ - فإن كـثرة بني إسـرائيل هؤلاء قد تولَّـوا بمجرد أن كتب عـليهم القـتال استجـابة لطلبهم ، ولم تبق إلا قلة مستـمسكة بعهدها مع نبـيهم . وهم الجنود الذين خرجوا مع طالوت .

ب- ومع هذا فقد سقطت كثرة هؤلاء الجنود في المرحلة الأولى وضعفوا أمام الامتحان الأول ، وشربوا من النهر ، ولم يجاوز معه إلا عدد قليل .

جـ - وهذا القليل لم يثـبت كذلك إلى النهايـة ، فأمام الهـول الحي ، أمام كثرة الأعداء وقوتهم ، تهاونت العزائم ، وزلزلت القلوب .

د- وأمام هذا التخاذل ثبتت القلة القليلة المختارة ، واعتصمت بالله ، ووثقت بوعده ، وهي التي رجحت الكفة وتلقت النصر ، واستحقت العز والتمكين .

لقد تمت تصفـية بني إسرائيل ثلاث مرات ، وخلاصـة الخلاصة ، هم الذين صدقوا الله في الجهاد فصدقهم الله وعده ، وأنزل عليهم نصره .

٣- في ثنايا هذه التجربة تكمن عبرة القيادة الصالحة الحازمة المؤمنة ، وكلها واضحة في قيادة طالوت ، تبرز فيها :

أ- خبرته بالنفوس .

ب- عدم اغتراره بالحماسة الظاهرة .

د- عدم اكتفائه بالتجربة الأولى .

و- محاولته اختبار الطاعة والعزيمة في نفوس جنوده قبل المعركة .

هـ - فصله للذين ضعفوا ، وتركهم وراءه .

ز - ثم - وهذا هو الأهم - عدم تخاذله ، وقد تضاءل جنوده تجربة بعد تجربة ، ولم يثبت معه في النهاية إلا تلك الفئة المختارة فخاض بها المعركة .

٤- والعبرة الأخيرة التي تكمن في مصير المعركة . . أن القلب الذي يتصل بالله ، تتغير موازينه وتصوراته: لأنه يرى الواقع الصغير المحدود بعين تمتد وراءه إلى الواقع الكبير الممتد الواصل، وإلى أصل الأمور كلها وراء الواقع الصغير المحدود فهذه الفئة المؤمنة الصغيرة التي ثبتت وخاضت المعركة وتلقت النصر كانت ترى من قلتها وكثرة عدوها، ما يراه الآخرون الذين قالوا : ﴿**لَا طَاقَةَ لَنَا الْيَوْمَ بِجَالُوتَ وَجُنُودِهِ**﴾ . ولكنها لم تحكم حكمهم على الموقف إنما حكمت حكمًا آخر، فقالت : ﴿**كَم مِّن فِئَةٍ قَلِيلَةٍ غَلَبَتْ فِئَةً كَثِيرَةً بِإِذْنِ اللَّهِ وَاللَّهُ مَعَ الصَّابِرِينَ**﴾ . ثم اتجهت لربها تدعوه : ﴿**رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْرًا وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ . وهي تحس أن ميزان القوى ليس في أيدي الكافرين ، إنما هو في يد الله وحده ، فطلبت منه النصر ، ونالته من اليد التي تملكه وتعطيه .

وهكذا تتغير التصورات والموازين للأمور عند الاتصال بالله حقًّا ، وعندما يتحقق في القلب الإيمان الصحيح . وهكذا يثبت أن التعامل مع الواقع الظاهر للقلوب أصدق من التعامل مع الواقع الصغير الظاهر للعيون ! .

ولا نستوعب الإيحاءات التي تتضمنها القصة ، فالنصوص القرآنية - كما علمتنا التجربة - تفصح عن إيحاءاتها لكل قلب بحسب ما هو فيه من الشأن ، وبقدر حاجته الظاهرة فيه .

ويبقى لها رصيدها المذخور ، تتفتح به على القلوب ، في شتى المواقف ، على قدر مقسوم "(١) .

إن القرآن الكريم يحتاج منا إلى تأمل وتفكر عميق ، وسنجد خبرات لا تعد ولا تحصى في كافة شئون الحياة الدنيوية والأخروية ، وتمد العاملين من أجل الإسلام بالصبر والثبات .

إن دعاء القلة المؤمنة ﴿ **رَبَّنَا أَفْرِغْ عَلَيْنَا صَبْراً وَثَبِّتْ أَقْدَامَنَا وَانصُرْنَا عَلَى الْقَوْمِ الْكَافِرِينَ**﴾ ليس خاصًا بها ، بل يصلح لكل فئة مجاهدة صابرة ، تقف أمام أعدائها ، وهناك لفتة في ترتيب فقرات الدعاء الثلاثة : الصبر وتثبيت الأقدام والنصر ، فكل فقرة مبنية على ما قبلها وترتيبها ترتيبًا مرحليًّا ، فعند مواجهة الأعداء يحتاج المجاهد أولاً إلى الصبر - بمفهومه الشامل وميادينه المتعددة - فإذا صبر حاز المرحلة الثانية وهي ثباته وتثبيت قدميه ، ولن تثبت الأقدام إلا عند الصابرين وإذا ثبتت الأقدام واستبسل المجاهد في القتال نصره الله على الأعداء ونلاحظ في الدعاء الالتفات إلى أهمية الحالة النفسية والناحية المعنوية ، وتقديمها على الحالة الخارجية المادية ، ولذلك قدم الصبر على المعركة ، وعلى تثبيت الأقدام فيها ، كما نلاحظ تناسقًا وتنسيقًا بين موقفين اغترافهم من النهر اغترافًا ، بينما يطلبون إفراغ الصبر عليهم إفراغًا ، وصبّه عليهم صبًّا : ولعلى في هذا إشارة أخرى : فمن استعلى على الدنيا وحاجاتها ، ولم تتعبده ملذاتها ، وحرم نفسه من بعض متاعها ومباحاتها ، ابتغاء وجه الله ، عوّضه الله عن ذلك ، وأمده الله بمدد من عنده . فها هي القلة المؤمنة امتنعت من الشرب من النهر ، واستعلت بذلك

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٦٠-٢٦٣) .

على متاع الـدنيا ومباحاتهـا ، فعوّضهـا الله عن ذلك الصبر حيث أفرغـه عليهم إفراغًا ، ونلاحظ : أن داود عَلَيْهِ السَّلَامُ خرج من وسط الجيش المجـاهد ، فمن ميدان المعركة بدأ أمره ، وترقى في طريق القيـادة والملك والحكمة والمسئولية ، وفي هذا إشـارة إلى أن العـمل هو الذي يخـرج القـادة ، والميـدان هو الذي يكشف عن المواهب ، فالقائدان طالوت وداود ظهرا من وسط الناس ، وقدمهما للناس الميدان والعمل والواقع ، فـهذه هي طريقة القـادة الذين يقودون الأمـة إلى طريق النصر والتمكين[1] .

ومن حكمة الله تعالى فـي قتل داود لجالوت ، أن داود كان فتى صـغيرًا من بني إسرائيل . وجالوت كان ملكًا قويًّا وقائدًا مخوفًا . . . ولكن الله شاء أن يرى القوم وقتذاك أن الأمور لا تجري بظواهرها ، إنما تجري بحقـائقها وحقائقها يعلمها هو . ومقاديرها في يده وحده ، فليس عليهم إلا أن ينهضوا بواجباتهم ، ويفوا الله بعهدهم ثم يكون ما يريده الله بالشكل الذي يريده .

وقد أراد أن يجعـل مصرع هذا الجبار الغـشوم على يد هذا الفتى الصـغير ، ليرى الناس أن الجبابرة الذين يرهبونهم ضعاف يغلبهم الفتية الصغار حين يشاء الله أن يقتلهم .

إن انتصار بني إسرائيل على جيش جالوت نوع من أنواع التمكين التي ذكرها الله تعـالى في كـتابه الكـريم ، وإن النظرة المتـأملة للقـرآن الكريم تكسب الذين يسعون لتحكـيم شرع رب العالمين تجارب بشرية ضخمـة وتمدهم بتجارب الموكب الإيماني كله في جميع مراحله ، وتورّث أجيال الأمة ميراث الأنبياء والمرسلين في نظرتهم للواحد الديان ، والحياة ، والكون ، وحقيقة الإنسان ومناهج التغيير التي خاضوها في هذه الحياة .

---

(١) انظر: مع قصص السابقين في القرآن (١/ ٣٣٢).

المبحث الرابع
الرسول صلوات الله وسلامه عليه مع قومه

إن انتصار أهل الإيمان عـلى أهل الكفر في المعارك القتـالية ، يظهر جليًّا في سيرة النبي ﷺ وفي عهد الخلفاء الراشدين وفي تاريخ الأمة المجيدة .

إن النبي ﷺ بعــد استقــراره في المدينة شرع يخطط للأعــمال الجـهادية ، ويحث أصحابه على فنون القـتال ويرسل السرايا والبعوث ، ليضـيق على حركة قريش الـتجارية ، ويـأدب القبائل المـشركة ويأمـن دولة الإسلام من أعـدائها ، ويخوّف المتربصين بالمسلمين ، ويهيئ أصحابه للمهمات التي تنتظرهم بعد أن أذن الله لهم بالقتـال ، فبـعث ﷺ مجمـوعة من البعـوث والسرايا حـققت بعض الأهداف الاستراتيجية من أهمها :

١-**الاستطلاع** : حتى يتـعرف المسلمون على الطرق المحـيطة بالمدينة والمؤدية إلى مكة ، خاصـة الطرق الحيوية التجاريـة لقريش في الجزيرة واهتمـوا بالتعرف على قبائل المنطقة وموادعة بعضها .

٢- **الحصار الاقتصادي** : على قريش ومنعها من مواصلة تجارتها مع الشام ما أمكن إلى ذلك سبيل ومنع الحصار الاقتـصادي المتوقع على المدينة من قبل القبائل المحيطة بها ، وذلك بعـقد أحلاف مع بعضهـا وقتال البعض الآخر ومـفاجأة كل تجمع يخشى منـه ضرر على الدولة المسلمة ، فكان ﷺ يقظًا سريع الحـركة ما يكاد يسمع بتجمع للمشركين يهـدده إلا فاجأهم وشتت شملهم وألقى الرعب في قلوبهم ، فالهجوم عنده أقوى وسائل الدفاع .

٣- لقد أثبـتت حركة السـرايا والبعوث أن المسلمين أصـبحوا قوة يحـسب لها حسابها من قبل المشركين من قـريش والقبائل المجاورة واضطرت بعض القبائل إلى مهادنة وموادعة المسلمين، هذه بعض الأهداف التي حققتها تلك السرايا والبعوث .

إن معارك النبي ﷺ ضد المشركين وانتـصاره عليهم نوع من أنواع التمكين ومن أهم هذه المعارك : بدر ، والخندق ، ففي مـعركة بدر بين تعالى أن حقـيقة النصر من الله تعالى : قال تعالى : ﴿ وَلَقَدْ نَصَرَكُمُ اللَّهُ بِبَدْرٍ وَأَنتُمْ أَذِلَّةٌ فَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ﴾ (سورة آل عمران ، آية : ١٣٣) .

إن الله تعالـى بين أن النصر لا يكون إلا من عند الله عـز وجل والمعنى ليس النصـر إلا من عند الله دون غـيـره ، (والعـزيز) أي ذو العـزة التي لا ترام[١] والحكيم أي الحكيم فيما شرعه من قـتال الكفار مع القدرة على دمارهم وإهلاكهم بحوله وقوته سبحانه وتعالى[٢] .

ويستفاد من هاتين الآيتين : تعليم المؤمنين الاعتماد على الله وحده ، وتفويض أمورهم إليه من التأكيد على أن النصر إنما هو من عند الله وحده وليس من الملائكة أو غيرهم ، فالأسباب يجب أن يأخذ بها المسلمون لكن يجب أن لا يغتروا بها وأن يكون اعتمادهم على خالق الأسباب والوسائل حتى يمدهم الله بنصره وتوفيقه . ثم بين سبـحانه مظـاهر فضله على المؤمنين وأن النصـر الذي كان في بدر وأن قـتلهم المشركين ، ورمي النبي ﷺ المشركين بالتراب يوم بدر إنما كان في الحقيقة بتوفيق الله أولاً وبفضـله ومعونـته ، وبهذه الآية الـكريمة يربي القرآن المسلمين ويعلـمهم الاعتماد عليـه فقال تعالى: ﴿ فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ قَتَلَهُمْ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ وَلَكِنَّ اللَّهَ رَمَىٰ وَلِيُبْلِيَ الْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلاءً حَسَنًا إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ﴾ (الأنفال : ١٧) .

ولما بين سبـحانه وتعالى في أن النصـر كان من عنده وضح بعض الحكم من ذلك النصر :

فقال تعالى : ﴿لِيَقْطَعَ طَرَفًا مِّنَ الَّذِينَ كَفَرُوا أَوْ يَكْبِتَهُمْ فَيَنقَلِبُوا خَائِبِينَ (١٢٧) لَيْسَ لَكَ مِنَ الأَمْرِ شَيْءٌ أَوْ يَتُوبَ عَلَيْهِمْ أَوْ يُعَذِّبَهُمْ فَإِنَّهُمْ ظَالِمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٢٧-١٢٨) .

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٤١١) .
(٢) المصدر نفسه (٢/ ٣٠٣) .

وأمر سبحانه المؤمنين أن يتذكروا دائمًا تلك النعمة العظيمة نعمة النصر في بدر ، ولا ينسوا من أذهانهم كيف كانت حالتهم قبل النصر .

قال تعالى : ﴿ **وَاذْكُرُوا إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِي الأَرْضِ تَخَافُونَ أَن يَتَخَطَّفَكُمُ النَّاسُ فَآوَاكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِ وَرَزَقَكُم مِّنَ الطَّيِّبَاتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ** ﴾ (الأنفال : ٢٦) .

لقد كانت نتائج غزوة بدر على المسلمين عظيمة، ومن أهم تلك النتائج :

١- ضعف موقف المشركين واهتزاز هيبتهم أمام قبائل الجزيرة العربية .

٢- ظهور قوة جديدة في الجزيرة أصبح الجميع يحسب لها حسابها .

٣- بدأ النفاق في المدينة يظهر جليًّا بعد بدر ، واستمر المنافقون في أذاهم للمسلمين .

٤- شرع اليهود في إظهار عداوتهم للمسلمين بعد بدر حسدًا وبغيًا وأول ظهور من أظهر بغيه يهود بني قينقاع .

٥- أصبحت الحرب معلنة بين المسلمين وقريش لم تنته إلا بفتح مكة .

٦- تشجع كثير من الناس لدخول الإسلام ودخلت المدينة في طور جديد من الجهاد المسلح .

٧- خص الله أهل بدر من الصحابة الكرام بالمغفرة وشرّف من حضرها من الملائكة وأصبحت غزوة بدر شرفًا ومنقبًا لمن حضرها من المسلمين والملائكة .

أما غزوة الخندق فقد تحدث القرآن عنها وبين أمور من أهمها :

١- تذكير المؤمنين بنعم الله عليهم كما قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَاءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا وَكَانَ اللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا** ﴾ (سورة الأحزاب ، الآية : ٩) .

٢- التصوير البديع لما أصاب المسلمين من هم بسبب إحاطة الأحزاب

بالمدينة : ﴿ إِذْ جَاءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ الأَبْصَارُ وَبَلَغَتِ الْقُلُوبُ الْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِاللَّهِ الظُّنُونَا ﴾ (الأحزاب ، الآية : ١٠) .

٣- الكشف عن نوايا المنافقين السيئة ، وأخلاقـهم الذميمة ، وجبنهم الخالع ومعاذيرهم البـاطلة ونقضهم للعهـود قال تعالى : ﴿وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلاَّ غُرُورًا﴾ (الأحزاب ، الآية : ١٢) .

٤- حض المؤمنين في كـل زمان ومـكان على التـأسي برسـول الله ﷺ في أقواله وأفعاله وجهاده وكلّ أحواله استجابة لقوله تعالى : ﴿ لَقَدْ كَانَ لَكُمْ فِي رَسُولِ اللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ لِّمَن كَانَ يَرْجُو اللَّهَ وَالْيَوْمَ الآخِرَ وَذَكَرَ اللَّهَ كَثِيرًا ﴾ (الأحزاب : ٢١) .

٥- مدح المؤمنين على مواقفهم النبـيلة وهم يواجهون جيوش الأحزاب بإيمان صادق ، وفاء بعهد الله تعالى، قال تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلاً﴾ (الأحزاب : ٢٣) .

٦- بيـان سنة من سنن الله التي لا تتـخلف وهو جـعل العـاقبـة للمـؤمنين والهزيمة لأعدائهم قال تعالى : ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا﴾ (سورة الأحزاب ، آية : ٢٥) .

٧- امتنانه سبحانه على عباده المؤمنين حيث نصرهم على بني قريظة وهم في حصونهم المنيعة بدون قتال يـذكر حيث ألقى سبحانه - الرعب في قلوبهم فنزلوا على حكم الله ورسوله[١] . قال الله تعـالى : ﴿ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا (٢٦) وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا ﴾ (الأحزاب ، الآية : ٢٦ ، ٢٧) .

لقد كـانت غزوة الأحزاب من الغـزوات الهامة التي خـاضها المسلمـون ضد أعدائهم وحققوا فيها نتائج مهمة :

---

(١) انظر: حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسول ﷺ (١/ ٤٩٠، ٤٩١) .

١- انتصار المسلمين وانهزام أعدائهم وتفرقهم ورجوعهم مدحورين بغيظهم قد خابت أمانيهم وآمالهم .

٢- تغير الموقف لصالح المسلمين فانتقلوا من موقف الدفاع إلى الهجوم وقد أشار إلى ذلك النبي ﷺ حيث قال : " الآن نغزوهم ولا يغزونا نحن نسير إليهم "(١) .

٣- كشفت هذه الغزوة خبث يهود بني قريظة وحقدهم على المسلمين وتربص الدوائر بهم . فقد نقضوا عهدهم مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأصعبها .

٤- كشفت غزوة الأحزاب حقيقة صدق إيمان المسلمين وحقيقة المنافقين وحقيقة يهود بني قريظة ، فكان الابتلاء بغزوة الأحزاب تمحيصًا للمسلمين وإظهار حقيقة المنافقين واليهود .

٥- كانت غزوة بني قريظة نتيجة من نتائج غزوة الأحزاب حيث تمّ فيها محاسبة يهود بني قريظة الذين نقضوا العهد مع النبي ﷺ في أحلك الظروف وأقساها .

حروب الردة :

عندما توفي رسول الله ﷺ ارتدت أحياء كثيرة من العرب ، وظهر النفاق ، وقد كان أهل الردة على قسمين :

القسم الأول : ارتدوا عن الدين ونابذوا الملّة ، وهذه الفرقة طائفتان :

١- الطائفة الأولى ، فمنهم التارك للدين بالمرّة ، وهم بنو طيئ ، وأسد ، ومن تبعهم من غطفان وعبس وذبيان وفزارة اتبعوا طليحة بن خويلد الأسدي مدعي النبوة في بني أسد ، وبنو حنيفة الذين اتبعوا مسيلمة الكذاب ، وأهل اليمن الذين اتبعوا الأسود العنسي ، وكثير غيرهم ، وهؤلاء ارتدوا عن الدين ،

---

(١) البخاري ، كتاب المغاري ، باب غزوة الخندق (٥/ ٥٨) رقم ٤١٠٩ .

ونابذوا الملّة ، واتبعـوا مُدّعو النبوة في الجزيرة ، ومنهم مـن ترك الصلاة والزكاة وعاد إلى ما كان عليه من الجاهلية .

٢- الطائفـة الثانيـة : هم الذين فرقـوا بين الصلاة والزكاة ، فـأنكروا فرض الزكاة ووجوب أدائها وهم بعض بني تميم ، الذين يرأسهم مالك بن نويرة ، وبنو هوازن وغيرهم .

وهذا القسم هو الذي وقع فيه الخلاف ، فثـبت أبو بكر ﷺ ثم وافقه جميع الصحابة على قتال جميع المرتدين ومانعي الزكاة[١].

وخاض الصديق معارك طاحنة في الجزيرة العربية وهزم جيوش المرتدين ونتج عن تلك المعارك نتائج مهمة من أهمها :

١- ظهرت أهمية القاعدة الصلبة في المجتمع الإسلامي، وأثبتت حروب الردة أن هناك معادن أصيلة وعناصر قوية ، تشكلت منها القاعدة الصلبة في المدينة والتي لم تكن رخوة أو هشـة ، أو ساذجة ، بل كانت قـوية واعية تدرك حقـيقة نفسـها وحقيقة عودها، وتستوعب أبعـاد المخاطر من حولها وتخطط ، بانتباه ويقظة كاملة في مواجـهة كل الصعـاب، ولهذا أزاحت كل العـراقيل والصعـاب التي وضعت أمامـها، لقـد التفت هذه القاعـدة حول الصـديق ﷺ ، فقادهـم لحفظ الدولة، وتقوية دعائمـها بعد رسول الله ﷺ وكان لهذه القاعـدة أثر في الحشد الذي تم لمواجهة أحداث الردة، وكان لهـذه القاعدة دور في لَمِّ شمل الناس من حولهم . . وعلى عاتقهم تم حـفظ كيان الأمة وحرصوا على بـقائها وتنميتهـا وضحوا بالمهج والأموال، ولعل موقفـهم في حروب الردة وخصوصًا في حرب ردة الـيمامة وهي أعظمهـا بين أهميتهم في بقـاء الدولة واستمـرارها حيث تميز المهاجـرون والأنصار بإيمانهم وثباتـهم وصبرهم وكـان القتل في المهاجـرين والأنصار قد اسـتحرّ فـيهم وأكرمهم الله بالنصر على عدوهم بسبب صدقهم وإخلاصهم وثباتهم .

---

(١) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله ص(٢٢٠) .

٢- لقد تكسرت وتحطمت قوى الشر من يهود ونصارى ووثنيين الذين تستروا تحت شعارات عدة أمام صلابة التوحيد وحقيقة التصور السليم ، والقيادة الحكيمة ، وتركت لنا تلك الأحداث الجسيمة ثروة ضخمة في معاملة المرتدين وأحكامهم ، ومعاملة الخارجين عن دولة الإسلام العظيمة .

٣- استطاعت القيادة الإسلامية بزعامة الصديق ﷺ أن تجعل من الجزيرة العربية قاعدة للانطلاق لفتح العالم أجمع وأصبحت الجزيرة هي النبع الذي يتدفق منه الإسلام ليصل إلى أصقاع الأرض بواسطة رجال عركّتهم الحياة ، وأصبحوا من أهل الخبرات المتعددة في مجالات التربية والتعليم والجهاد وإقامة شرع الله الشامل لإسعاد بني الإنسان حيثما كان .

٤- أصبحت الجزيرة العربية تحت نظام واحد وقيادة واحدة بعد تاريخ طويل من التمزق والفرقة والشتات بسبب الصراع القبلي والأطماع الفردية ، والنزعات العشائرية وتحقق مفهوم الأمة على أسس عقدية وفكرية ومنهجية ربانية وانصهرت القبائل في كيان الأمة ذات الفكرة الواحدة ، والقيادة الواحدة ، وأصبحت جزءًا من كيانها المتماسك .

٥- كانت حروب الردة إعدادًا ربانيًّا للفتوحات الإسلامية حيث تميزت الرايات وظهرت القدرات ، وتفجرت الطاقات ، واكتشفت قيادات ميدانية وتفنن القادة في الأساليب والخطط الحربية ، وبرزت مؤهلات الجندية الصادقة المطيعة المنضبطة الواعية التي تقاتل وهي تعلم على ماذا تقاتل ، وتقدم كل شيء وهي تعلم من أجل ماذا تضحي وتبذل ، ولذا كان الأداء فائقًا والتفاني عظيمًا[1] .

٦- وضع الصِّديق التقسيم الإداري بعد انتصاره في حروب الردة لدولة الإسلام على نظام الولايات وهي : مكة وكان أميرها عتاب بن أسيد ، والطائف أميرها عثمان بن أبي العاص ، وصنعاء أميرها المهاجر بن أبي أمية وحضرموت ،

(١) انظر: تاريخ صدر الإسلام للشجاع، ص١٤١، ١٤٢، ١٤٣، ١٤٤، ١٤٥ .

ووليها زياد بن لبيد ، وخولان ووليها يعلى بن أمية ، وزبيد ورقع ووليها أبو موسى الأشعري ، أما جند اليمن ، فأميرها معاذ بن جبل ، ونجران ووليها جرير ابن عبد الله ، وجرش ووليها عبد الله بن نور ، والبحرين ووليها العلاء بن الحضرمي وعمان ووليها حذيفة القلعاني ، واليمامة ووليها سليط بن قيس[1] .

الفتوحات الإسلامية :

تحركت جيوش المسلمين بقيادة الصديق بعد حروب الردة لنشر الإسلام في الآفاق ، فكانت حروب العراق بقيادة خالد بن الوليد، والمثنى بن حارثة وكانت معارك الروم بقيادة أبي عبيدة بن الجراح وبعد وفاة الصديق تولى الخلافة عمر ﷺ والذي تحقق في زمن خلافته انتصار المسلمين الساحق على الروم في اليرموك وانتصارهم على الفرس في المدائن وبذلك فتحت إمبراطورية الروم في بلاد الشام ، وإمبراطورية الأكاسرة في بلاد الفرس أمام دعاة الإسلام يقدمون للأمم دين الله الذي ارتضاه لعباده .

وسار المسلمون على هدى أسلافهم في خوض المعارك الضارية ضد أعداء الإسلام ، فسجل لنا التاريخ انتصار المسلمين على النصارى في معركة الزلاقة عام ٤٧٩هـ بقيادة يوسف بن تاشفين قائد دولة المرابطين ، وانتصارهم على النصارى في معركة حطين عام ٥٨٣هـ وفتحت بعدها القدس بقيادة صلاح الدين الأيوبي وكان انتصار المسلمين على أعدائهم يحدث عندما يأخذ المسلمون بأسباب التمكين وشروطه وسننه التي لا تحابي ولا ترحم ولا تجامل، إن هذا النوع من التمكين يتجدد كلما حققت الأمة صفات جيل التمكين سواء على أفراد الأمة أم قادتها .

* ■ *

(١) إتمام الوفاء في سيرة الخلفاء للشيخ محمد الخضري، ص٥٩، ٦٠ .

■ الفصل الثالث ■
المشاركة في الحكم

تمهيد:

إن تولي أهل التوحـيد والإيمان أعبـاء الحكم لدولة غيـر مؤمنة نوع من أنواع التمكين، وقد أشار القرآن الكريم لهذا النوع من التمكين في قصة يوسف عليه السلام:

قال تعالى : ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ﴾ (يوسف : ٥٣) .

لقد تقدم يوسف عليه السلام بهذا الطلب إلى ملك مصر المشـرك من أجل عقيدته ودعوته وتقديم الخير للناس .

لقد تحرك يوسف عليه السلام وفق الإمكانات والظروف التي مـرّ بها واستـفاد من الفرصة التي سنحت له .

وهذا المسلك الذي اتخذه يوسف عليه السلام يدلنا على أن طرائق نشـر الإسلام ، ودعوة المجتمعات إلى الإيمان له أكثر من سبيل ، كما أن هذا المسلك لا يوجد فيه تناقضًا بين المبدأ الذي يحمل رأيتـه ، وهو أن الحكم لله والعبودية المطلقة للواحد الديان وبين تولية الـوزارة ، ليجعل المجـتمع أقرب إلى دعـوة الله ، وهذا أمر لا شك فيه ، لأن يوسف عليه السلام نشر دعـوة التوحيد في الـسجن فكيف به وهو في سُدّة الحكم .

إن دخول يوسف عليه السلام في الوزارة كان سندًا للحـركات الإسلاميـة المعاصرة التي ترى جواز المشاركة في الحكومـات الجاهلية إذا كان للمشاركة مـصلحة كبرى أو دفع شر مستطير ، ولـم يكن بإمكان المشارك أن يغير في الأوضاع تغييراً جذريًا وذهب إلى هذا الاجـتهـاد كثـيـر من العلماء وأهـل الحل والعقـد في الحركـات الإسلامية المعاصرة إلا أن هذه المسـألة لم تخلو من معارضة بعض الباحثين الذين استـدلوا بأدلة تدل على عدم جـواز المشاركة في الوزارة التي تحـكم بشريعة غـير

شريعة الله واعتبر مسألة المشاركة في الحكم من مسائل العقائد ، والذي يبحث في هذه المسألة من الناحية الشرعية والممارسات التاريخية يصل إلى نتيجة أن المسألة تدخل تحت السياسة الشرعية للجماعة المسلمة الرشيدة التي تسعى لتحكيم شرع الله والتمكين لدينه ؛ ولذلك سنحاول أن نناقش الموضوع مناقشة علمية هادئة بعيدة عن التوتر والتشنج ، وإنما مقصدنا الوصول إلى ما يحبه الله ويرضاه .

* ■ *

المبحث الأول
أدلة المانعين والقائلين بالجواز في المشاركة في الحكم

أولاً: أدلة المانعين المشاركة في الحكم:

يرى أصحاب الرأي الذي يمنع دخول الإسلاميين من المشاركة في الحكم أدلة من أهمها :

١- النصوص الحاكمة على من لم يحكم بغير ما أنزل الله بالكفر والظلم والفسق :

قال تعالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ ﴾ (المائدة : ٤٤).

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ ﴾ (المائدة : ٤٥).

وقال تعالى: ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة : ٤٧).

٢- إن الحاكمية يجب أن تكون لله وحده : ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ﴾ (سورة يوسف: ٤٠) .

٣- نهى رب العالمين المؤمنين أن يحتكموا إلى شريعة غير شريعة الله ، وجعل ذلك منافيًا للإيمان قال تعالى : ﴿فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا﴾ (النساء : ٦٥) .

٤- في المشاركة في الحكم غير الإسلامي مفاسد عظيمة ، فالذين لا يحكمون شرع الله يحادون الله في أمره، وينازعونه في حكمه ﴿إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ﴾ (يوسف: ٤٠).

﴿وَلا يُشْرِكْ بِعِبَادَةِ رَبِّهِ أَحَدًا﴾ (الكهف : ١١٠)، فكيف يشارك المسلم في هذا النوع من الحكم؟ .

٥- مشاركة المسلم في هذا النوع من الحكم توقعه في تناقض كبير ، فالمسلم مطالب بأن يجاهد ، لإقامة حكم الله ، وينكر أشد الإنكار على من حكم بغير ما أنزل الله ، فكيف يكون مقيمًا للحكم بغير ما أنزل الله .

٦- إن طاعة الحكام فيما يشرعونه مخالفين أمر الله تعني اتخاذ المطيع لهم أربابًا من دون الله كما قال تعالى : ﴿ **اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا** ﴾ (سورة التوبة : ٣١) .

٧- من المفاسد التي تترتب على المشاركة أن بعض الحكام قد يتخذون من يستوزرونهم من المسلمين الصالحين زينة يحلون بها حكمهم ، ويدلسون بذلك على السذج والعوام ، فيقولون لو كنا على الباطل لما قبل فلان مشاركتنا في الحكم ، ويزداد الطين بلة عندما يمررون من خلال الوزير المسلم القوانين الجائرة الظالمة وبعد أن يحققوا من ورائه أهدافهم ينبذونه نبذة النواة .

٨- وفي المشاركة في الحكم ركون إلى الذين ظلموا ، وقد حذرنا الحق من الركون إليهم : ﴿ **وَلا تَرْكَنُوا إِلَى الَّذِينَ ظَلَمُوا فَتَمَسَّكُمُ النَّارُ** ﴾ (سورة هود : ١١٣) .

٩- وقد يكون في المشاركة في الحكم إطالة لعمر هذا النمط من الحكم الذي يحكم بغير ما أنزل الله في بعض الأحيان[١] .

ثانيًا: أدلة القائلين بالجواز:

قالوا إن الأصل عدم جواز المشاركة ولكن هناك حالات استثنائية أباحت الشريعة فيها المشاركة ، واستدلوا بأدلة من أهمها دخول يوسف عليه السلام في الوزارة .

١- إن يوسف عليه السلام تولى المنصب الذي تولاه بإذن الملك وإرادته ، يدلنا على ذلك طلب يوسف عليه السلام من الملك أن يوليه : ﴿ **قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ** ﴾ (سورة يوسف : ٥٥) .

---

(١) انظر : حكم المشاركة في الوزارة والمجالس النيابية ص(٢٩ ، ٣٢) .

فالنص صريح في الدلالة على أن الملك هو الذي يملك التولية والنص صريح أيضًا في أن يوسف عليه السلام قد طلب منصبًا في دولة الملك ، ولم يطلب أن يعزل الملك نفسه ولم يكن ذلك الطلب لنفسه .

قال سيد - رحمه الله - : (لم يكن يوسف يطلب لشخصه ، وهو يرى إقبال الملك عليه ، فيطلب أن يجعله على خزائن الأرض ، إنما كان حصيفًا في اختيار اللحظة التي يستجاب له فيها لينهض بالواجب المرهق الثقيل ذي التبعية الضخمة في أشدّ أوقات الأزمة ، وليكون مسئولاً عن إطعام شعب كامل)[١] .

ويرى ابن تيمية - رحمه الله - : (أن هذا المجتمع الكافر لا بدّ أن يكون لهم عادة وسنة في قبض الأموال وصرفها على حاشية الملك وأهل بيته وجنده ورعيته. ولا تكون جارية على سنة الأنبياء وعدلهم ، ولم يكن يوسف يمكنه أن يفعل كل ما يريد ، وهو ما يراه من دين الله ، فإنَّ القوم لم يستجيبوا له . لكنه فعل الممكن من العدل والإحسان ، ونال بالسلطان من إكرام المؤمنين من أهل بيته ما لم يكن أن يناله بدون ذلك - وهذا كله داخل في قوله تعالى : ﴿**فَاتَّقُوا اللَّهَ مَا اسْتَطَعْتُمْ**﴾ (سورة التغابن : ١٦)[٢] .

لقد اعترض المانعون عن المجيزين في استدلالهم بقبول يوسف عليه السلام للوزارة وقالوا إن شرعنا لا يجيز تولي الوزارة في ظل حاكم غير مسلم ، وأما تولي يوسف للوزارة فهو شرع لمن قبلنا ، وشرع من قبلنا ليس بشرع لنا إذا جاء في شرعنا ما ينقصه .

ورد المجيزون على هذا الاعتراض بوجوه :

الوجه الأول : أن شرعنا وشرع يوسف عليه السلام بل شرائع الأنبياء جميعًا متفقة في تقرير حاكمية الله تبارك وتعالى :

---

(١) في ظلال القرآن (١٢/ ٢٠٠٥).

(٢) مجموع فتاوى شيخ الإسلام (٢٠/ ٥٦، ٥٧) .

فيوسف عليه السلام يقرر في مخاطبته للفتيين اللذين دخلا معه السجن أن الحكم لله وحده ﴿ إِنِ الْحُكْمُ إِلاَّ لِلَّهِ أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ ﴾ (يوسف : ٤٠).

ويشرح الأستاذ سيد رحمه الله كلمة يوسف هذه بقوله : " إن الحكم لا يكون إلا لله ، فهو مقصور عليه سبحانه بحكم ألوهيته ، إذ الحاكمية من خصائص الألوهية من ادعى الحق فيها فقد نازع الله سبحانه أول خصائص الألوهية "[١] .

ويوسف عليه السلام الذي يعلم هذا الحكم المقرر في جميع الأديان هو الذي يتولى منصب عزيز مصر، ويقول للملك : ﴿اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ﴾ (يوسف : ٥٥) .

فيتولى هذا المنصب وهو يعلم أن للملك نظامًا وشريعة لا يستطيع أن يزيحها بين عشية وضحاها : ﴿مَا كَانَ لِيَأْخُذَ أَخَاهُ فِي دِينِ الْمَلِكِ﴾ (سورة يوسف : ٧٦) .

يقول سيد قطب في الظلال : (إن هذا النص يحدد مدلول كلمة الدين في هذا الموضوع تحديدًا دقيقًا ، إنه يعني نظام الملك وشرعه ، فإن نظام الملك وشرعه ما كان يجعل عقوبة السارق هو أخذه في جزاء سرقته)[٢] .

فإذا كان فقه يوسف للحاكمية هو نفس الفقه المقرر في شريعتنا ومع ذلك تولى الوزارة فإننا نجزم في هذا المقام بأمرين :

١- أن توليه للوزارة لم يناقض عقيدته في كون الحاكمية لله وحده .

٢- وأنه لم يكن مخطئًا عندما تسلم الوزارة ، لأنه نبي معصوم .

الوجه الثاني : ومما يدل على نفي هذه الشبهة وإبطالها إخبار الحق تبارك وتعالى أن استلام يوسف الوزارة كان رحمة ونعمة ولم يكن عذابًا ونقمة ، ﴿قَالَ اجْعَلْنِي عَلَىٰ خَزَائِنِ الأَرْضِ إِنِّي حَفِيظٌ عَلِيمٌ (٥٥) وَكَذَلِكَ مَكَّنَّا لِيُوسُفَ فِي الأَرْضِ يَتَبَوَّأُ مِنْهَا حَيْثُ يَشَاءُ نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (يوسف: ٥٥، ٥٦) .

(١) في ظلال القرآن (١٢/ ١٩٩٠) .
(٢) المصدر نفسه (١٣/ ٢٠٢٠) .

فالله يقرر أن استسلام يوسف للوزارة هو من باب التمكين له في الأرض ، وأنه رحمة أصابه بها وأنه أجر دنيوي عاجل ، وما ينتظره من الثواب الآجل أعظم وأكبر ﴿وَلأَجْرُ الآخِرَةِ خَيْرٌ لِّلَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ﴾ (يوسف : ٥٧) .

ويوسف عليه السلام يصرح بأن استلامه للحكم كان من نعم الله عليه ، ولم يكن نقمة : ﴿رَبِّ قَدْ آتَيْتَنِي مِنَ الْمُلْكِ وَعَلَّمْتَنِي مِن تَأْوِيلِ الأَحَادِيثِ فَاطِرَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ أَنتَ وَلِيِّي فِي الدُّنْيَا وَالآخِرَةِ تَوَفَّنِي مُسْلِماً وَأَلْحِقْنِي بِالصَّالِحِينَ﴾ (يوسف : ١٠١) .

الوجه الثالث : والنصوص التي ذكرت تدل على أن هذا الحكم ليس خاصًّا بنبي الله يوسف ، دون سواه ، ذلك أن النص صيغ صياغة عامة : ﴿نُصِيبُ بِرَحْمَتِنَا مَن نَّشَاءُ وَلا نُضِيعُ أَجْرَ الْمُحْسِنِينَ﴾ (سورة يوسف : ٥٦) .

ثم من ادعى أن هذا الحكم خاص بيوسف دون سواه عليه أن يأتي بالدليل ، لأن الأصل في سير الأنبياء والمرسلين يراد به التأسي والاقتداء ، فكيف إذا جاءت النصوص القرآنية نافية الخصوصية مشيرة إلى العموم[1] .

لقد تحدث المفسرون في هذه القضية :

١- نقل : القرطبي - رحمه الله - عن بعض أهل العلم : (إباحة طلب الرجل الفاضل أن يعلم أنّه يفوض إليه في فعل لا يعارضه فيه ، فيصلح منه ما شاء ، وأمّا إذا كان عمله بحسب اختيار الفاجر وشهواته وفجوره فلا يجوز ذلك. ونقل القرطبي عن قوم أن هذا كان ليوسف خاصة دون غيره ، ولكنه رجح القول الأول)[2] .

٢- واستدل الألوسي - رحمه الله - بطلب يوسف الولاية على جواز ذلك لغيره إذا كان الطالب قادرًا على إقامة العدل وإجراء أحكام الشريعة وإن كان من

(١) انظر: حكم المشاركة في الوزارة والمجالس النيابية د. عمر الأشقر ص٢٩، ٣٢ .
(٢) تفسير القرطبي (٧/ ٢١٥) .

يد الجائر أو الكافر ، بـل ذهب الألوسي إلى أنه قد يجب الطلب إذا توقف على ولايته إقامة واجب مثلاً ، وكان متعينًا لذلك[1].

٣- وقال الشوكاني : " وقد استُـدل بهذه الآية على أنه يجوز تولي الأعمال جهة السلطان الجائر بل الكافر لمن وثق من نفسه بالقيام بالحق "[2].

وهذا من أقوى الأدلة في جواز المشاركة في الانتخابات .

* ■ *

(١) انظر : تفسير الألوسي (١٣/ ٥) .

(٢) فتح القدير (٣/ ٣٥) .

المبحث الثاني
شواهد من التاريخ الحديث في المشاركة

استطاع الإسلاميون في بعض بلدان العالم الإسلامي أن يدخلوا بعض الوزارات عن طريق الانتخابات والمصالحات والأحلاف التي عقدوها مع بعض الأنظمة والأحزاب، وأثارت هذه الخطوات الجريئة مناقشات واعتراضات في داخل الحركات الإسلامية وخارجها، ولذلك نحاول أن نسلط الأضواء على بعض هذه التجارب والتي من أهمها : تجربة الأردن، واليمن، وتركيا، ولقد راعت هذه الحركة القواعد الشرعية في مبادئ المصالح والمفاسد ، وحاولت جاهدة أن تلتزم بقواعد الضرورة ، ومصلحة العمل الإسلامي ، ومصالح المسلمين في هذه الأقطار، فإذا كانت هناك مصلحة حقيقية أو كان في اشتراكها في الحكومات سيعود بالنفع العميم على المسلمين أو سيمنع فساداً كبيراً وضرراً مصيريًّا يحيق بهم أو يهدد وجودهم فالاشتراك في هذه الحالة يدخل في حكم الواجب بالنسبة لها.

لقد دخلت هذه الحركات المباركة في تجارب الحكم ، ضمن شروط واضحة ومصالح بينة ، وضرورة تفرضها الظروف واستراتيجية مدروسة والتزام بالقواعد الشرعية عند الممارسة ، فلم يكن الحكم واستلام السلطة هدفًا بذاته تتمسك به هذه الحركات على حساب المبادئ أو على حساب الشعب ، أو على حساب الحركات ، أو على حساب أقوات الناس ، أو على حساب استقلال البلاد واسترجاع الأوطان ، ولقد شاركت هذه الحركات في الحكم بالطرق الشرعية عن طريق تفويض الشعب لهم خلال الانتخابات ، ولقد قامت هذه الحركات بدراسات سياسية واجتماعية واقتصادية وأمنية . .إلخ قبل الدخول في الحكم حتى تأكدوا أن وجودهم في مقاعد السلطة أفضل للإسلام والمسلمين من مقاعد المعارضة .

أولاً : الحركة الإسلامية في الأردن :

لا يزال وضع الحركة الإسـلامية في الأردن يختلف عن كثـير من بلاد العالم الإسلامي ، إذ كانت الأردن تتـميز عن غيرها بالحريات وإعطاء العـمل السياسي فرصة أكبـر ، ولذلك وجدت الحركة الإسلامية مـتنفسًا ومناخًا طبيعيًّا لأعمالها السياسية والدعوية والاجتماعية والتربوية والتعليمية .

ويعتبـر تاريخ تأسيس الحركة الإسلامـية في الأردن عام ١٩٤٦م ، وهي السنة التي حصل فيها الأردن على استقلاله وسعت مـنذ تأسيسها إلى إحياء مظاهر الحياة الإسلاميـة في المجتمع الأردني ، وركـزت جهودها على قطاع التربيـة والتعليم في سبيل بناء جيل إسـلامي جديد ، فأنشأت وأدارت مؤسسات متخـصصة في التعليم والرعاية الاجـتماعـية والعناية الصحـية في شـتى أنحاء البلاد ، ووقـفت بجانب المؤسسات الحكومـية القائمة على هذه المجـالات وساهمت بشكل فعال بدعـمها . وتميزت ظروف الحركة في الأردن بظهور حـالة من التعايش بين الحركة والنظام ، مما أتاح لها حرية نسبية من النشاط والعـمل الإسلامي ، وحرصت الحركة من طرفها ، كما سعى النظام من جهته أيضًا ، إلى الحفاظ على عناصر هذا التعايش[1] .

أ- عناصر التعايش بين الحركة والنظام :

١- إدراك الحركـة لوضع الدولة وضـعف إمكاناتها واعـتمـادها على الدعم الاقتصادي الخارجي ، ولذلك تجنبت إحراج الـنظام فيما لا طاقة له به ، فالأردن كيان صغير نشأ في ظل تجزئة الوطن العربي ضمن مخطط أعداء الأمة الهادفة إلى إضعاف كيانها ومنعها من نهوضها من جديد .

٢- إدراك الحـركة أن الأردن لا تملك عناصـر ومقـومات الدولة الإسـلاميـة ولذلك اطمأن النظام إلى أن أهداف الحركة لا تقوم على السعي إلى استبداله بنظام دولة إسلامية في الأردن .

---

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين في السلطة ، عزام التميمي، ص١٠٢ .

٣- تعتبر الحركة عنصر أمان للنظام ضد أية محاولات انقلابية عليه بسبب ما لها من قوة اجتماعية وانتشار عميق في مختلف قطاعات المجتمع الأردني ، ولقد وقفت الحركة موقفًا بطوليًّا في منتصف الخمسينات ضد مظاهرات القوى اليسارية التي كانت تسعى لإسقاط النظام ، واستـبداله بنظام ماركسي كان يمكن أن تشاهد الأردن تلك المآسي التي شهـدتها الدول التي حكمتهـا الأحزاب الشيوعـية والتي قمعت وبطشت بمظاهر الحياة الإسلامية في بلدانها .

٤- تنظر الحركة إلى الـنظام القائم بأنه خير للأردن من كل الأنظمـة اليسارية والأحزاب التي حكمت المنطقة وبطشت بالحركات الإسلامية فيها .

٥- ترفض الحـركة العنف، وتشـجب الإرهاب ، ولا تؤمن بالتغـيير الـقائم على الثورة؛ بل تؤمن بالتغيـير الهادئ القائم على الإقناع والتدرج في الإصلاح، وهذا يعتبر موضع قبول لدى النظام .

٦- المرونة في الأزمات بين الحركة والنظام ، سـواء كانت الحركة هي المبادرة بتصعيـد المواقف أو النظام ، ففي كلتا الحالتين يعكس النظام والحـركة مرونة تجاه بعضهما البعض بامتصاص التوتر والانحناء قليلاً للعاصفة .

٧- التوازن في منهج الحـركة بين ثوابتهـا ومتطلباتها وبين مـحدودات الواقع الأردني .

٨- مطالب الحركـة الإسلاميـة هي مطالب إصلاحيـة تشمل كافة مـجالات الحياة، وتعـتمد على أسس إسلامية ، وهذه المطالب في أقـصى حالاتها لا ترقى إلى تهديد النظام ولا تشكل طرحًا بديلاً له ، ولذا فإن النظام لا يرى فيها خطورة على استمراره أو استقراره[1] هذه هي أهم عناصر التعايش بين الحـركة الإسلامية في الأردن ونظامها ، وبالتـالي يكون من الطبيعي أن تكون للحركة تجربة مـتميزة في المشاركة في الحكم .

---

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين في السلطة ، ص(١٠٣، ١٠٤) .

ب- المشاركة في الحكم :

ظهرت الحركة الإسلاميـة كقوة سياسية كبيرة على الساحـة السياسية الأردنية في عام ١٩٨٩م وذلك عندما قـررت الاشتراك في الانتخابات النيـابية ، إثر قرار الملك حسين - ملك الأردن - اسـتئناف الحـياة الديمقراطيـة في الأردن ، وإجراء الانتخابات في أجواء ديمقـراطية حرة ، متعهدًا بكفـالة نزاهتها ، وبالحيلولة دون تدخل الدوائر الرسمية فيها .

ولقد نجحت الحركة الإسلامية في إدارة حملتها الانتخابية ، وتميزت بأسلوبها المنظم لم يشهد له الأردن مثيلاً ، وذلك بسبب قدراتها التنظيمية ، ولكونها مثلت تطلعـات المسلمين في الأردن المتعطشين إلى استئناف حـياة إسـلاميـة ، وكانت الحركـة الإسلاميـة في الأردن هي التكتل الوحيـد الذي أعلن عن ترشيح قـائمة تحتـوي على أسماء سـبعة وعـشرين مرشـحًا ، طلبت من الأمة التـصويت لهم جميعًا. وقد ضمنت برنامجها الانتخابي في كتيب وزعته في جميع أنحاء البلاد، اشتمل بالإضافة إلى البرنامج الانتخابي على أسماء المرشحين وصورهم .

فازت الحـركة باثنـين وعشرين مـقعـدًا من مقـاعد مـجلس النواب الأردني الثمانين، كما تمخضت النتيجة عن نجاح ما لا يقل عن عشرة مرشحين آخرين من الإسلاميين المستـقلين. ونظرًا لأن مرشحي الحركة كانوا يشكلـون أكبر كتلة داخل البـرلمان الأردنـي، فـقـد اتصل رئيس الوزراء المكلف من قـبل الملك بتـشكيل الحكومة. وبعـد مفاوضـات جرت بين رئيس الوزراء والكتلة البـرلمانية للحـركة، اعتذرت الحركة عن الاشتراك في الحكومة، لأن رئيس الوزراء لم يستجب لمطالبها بتخصيص سبع حقائب وزارية للحركة تشتمل على حقيبة وزارة التعليم .

وفي تحرك سـياسي آخـر ، دخلت الحركـة في مفاوضـات مع رئيس الوزراء حول منح الثقة لحكومـته ، حيث اشترطت الحركة أربعة عشـر شرطًا مقابل منح الثـقة ، وكـان من ضمن هذه الشـروط أن تـتـعهـد الحكومة - بكل إخـلاص -

بالتوجه نحو تطبيق الشريعة الإسلامية في ميادين التعليم والاقتصاد والإعلام. وكانت هذه هي المرة الأولى التي تتخذ فيها الحركة الإسلامية مثل هذه المبادرة في الحلبة السياسية. وبدأ الناس، الذين كان يظن الكثير منهم قبل هذه التجربة ببعد احتمال أن يشترك الإسلاميون فيما يسمى بالحكومة غير الإسلامية ، بالتعامل مع هذه القوة السياسية الناشئة، وفتح أمام الإسلاميين مجال عملي جديد ، لم يكن من قبل متاحًا لهم، للتمرس في العمل السياسي .

وفي تطور تالٍ، اتخذت الحركة الإسلامية بادرة سياسية أخرى ، بالموافقة على الاشتراك في اللجنة الملكية لوضع الميثاق الوطني أعلن عنها ملك البلاد وعين أعضاءها بنفسه. والميثاق الوطني أشبه ما يكون بعقد اجتماعي تجمع عليه الأحزاب والجماعات المختلفة في الأردن ، ويغطي كافة الأوجه السياسية والاجتماعية والاقتصادية والثقافية. وقد اتخذت الحركة الإسلامية قرارًا بالمشاركة في هذا المشروع ، نظرًا لما رأته من ضرورة اللقاء والتحاور والتفاوض مع المجموعات السياسية الأخرى في البلاد ، وتبادل الآراء معها حول القضايا المهمة التي يتناولها الميثاق[١].

لقد ظهر من قيادات الحركة مقدرة فائقة في إدارة الحوار وممارسة فن المفاوضات وشهد لهم دهاقنة السياسة بمقدرتهم السياسية الرفيعة، ولقد ناور زعماء الحركة وحققوا ما استطاعوا من أهداف لصالح التيار الإسلامي في الأردن، واستطاعت أن تمنع نفسها من الدخول في الوزارة عندما كانت مصلحة المبادئ التي يحملوها في الامتناع ، وتقدمت بكل شجاعة لتسلم الحقائب الوزارية عندما رأت أن المصلحة في ذلك ، وتسلمت خمس حقائب وزارية ، هي وزارة التربية والتنمية الاجتماعية والعدل والصحة والشئون الإسلامية .

وبعد ستة أشهر من المشاركة، انتهت حرب الخليج، وبدأت حقبة جديدة من

---

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين في السلطة، ص١٠٥،١٠٦ .

التطورات السياسية التي تمخضت عما يسمى بمؤتمر السلام . وكانت الحركة الإسلامية قد حذرت رئيس الوزراء من أنه إذا ما أقدمت حكومته على فتح أية قنوات للتفاوض مع إسرائيل ، فإن وزراء الحركة الإسلامية سيستقيلون على الفور .

إلا أن الحكومة ما لبثت أن استقالت بكاملها ، لتمهد الأرضية لاستعدادات الحقبة الجديدة ، حقبة مؤتمر السلام في مدريد . وحرصت الحكومة الجديدة ، التي تشكلت للقيام بهذه المهمة ، على السعي منذ تشكيلها لنيل الثقة ، ومع أن أعضاء الكتلة الإسلامية البرلمانية ومعهم عدد من النواب الآخرين في مجلس النواب حجبوا الثقة عنها ، موضحين أنهم ما كانوا ليمنحوا الثقة لأية حكومة تضع التفاوض مع إسرائيل على جدول أعمالها ، إلا أن الحكومة حصلت على الثقة ، ولكن بأغلبية هشة ، إذ صوت لصالحها سبعة وأربعون نائبًا فقط من أصل ثمانين ، وعلى الرغم من أن رئيس الوزراء الجديد كان ينفي طوال ذلك الوقت التزامه أو وزارته بمحادثات السلام مع اليهود ، إلا أن الحكومة ما لبثت ، وبعد مرور شهرين فقط على تشكيل الوزارة ، أن أعلنت عن تشكيل وفدها لعملية السلام ، فبادرت الكتلة الإسلامية البرلمانية بالالتقاء مع عدد من التكتلات الصغيرة في مجلس النواب ، ووقَّعوا جميعًا عريضة حملت ٤٨ توقيعًا ، رفعوها إلى الحكومة حجبوا بموجبها الثقة عنها ، بعد أن كان بعضهم قد منحها إياها في وقت سابق . وعندما حل موعد استئناف الدورة الاعتيادية الجديدة للمجلس النيابي ، لم يكن أمام الحكومة خيار سوى الاستقالة ، فتشكلت حكومة أخرى لم تمنحها كتلة الحركة الإسلامية ثقتها ، لأن مهمتها كانت الإشراف على المشاركة الأردنية في عملية السلام[1] .

جـ - إنجازات المشاركة :

لقد اكتسبت الحركة الإسلامية في الأردن من خلال المشاركة السياسية تجارب عديدة ، وخبرات متعددة ، وأصبحت أكثر واقعية ، واستطاعت من خلال هذه

---

(١) انظر : مشاركة الإسلاميين في السلطة ، ص١٠٦، ١٠٧ .

التجربة أن تطور قدرتها وتحسن أداءها، ولقـد أعطت صوراً مختلفة عن تلك التي ترسخت في عـقول خصومـها الذين أخذوا فكرة عن الحركـة الإسلامية كـما لو كانت مـجموعـة من المتطرفين أو المتعـصبين أو المتشـددين . ومن أهم الإنجازات والمكاسب التي حققتها هي:

١- تشكيل تصـور سليم عن الحركـة، وإزالة الشكوك والمخاوف التي كـانت تثيرها بعض الجهات، فقد أعرب كثـير من الوطنيين والقوميين في مناسبات كثيرة عن قناعتهم بأن الحركـة تتسم بالاعتدال والتحرك المسـئول الواعي، وتحترم الرأي الآخر، إذ أظهـرت مرونة وقدرة على التـنسيق والحوار مع الأحـزاب والحكومات والشخصيات السياسية . وبذلك أزيل الحاجز النفسي الذي كان يفصل بين الحركة والآخرين.

٢- كان لنواب الحركة حضور قوي وفعـال في اللجان المتخصصة ، مثل لجنة الحريات ، واللجنة المالية ، واللجنة القانونية، ولجنة التحقيقات النيابية . وقد كان أداؤهم في هذه المجالات وفي غيرها يعبر عن جهد كبير دءوب ، وعن موضوعية وإنصاف ، وعن إحاطة بالقضـايا الفنية والتخصصية .وكـان هذا الأداء باستمرار موضع تقدير المؤسسات الرسمية والإعلامية .

٣- المشاركـة في إنجاز مـجمـوعة من القـوانين والتشـريعات المهـمة ، وفي تعديلها، بما يلائم المصلحة العامة وحقوق المواطنين ويتفق مع الشريعة الإسلامية. ومن ذلك قانـون الأحزاب ، وقانون الدفـاع ، وقانون رد الاعـتبـار ، والقانون الخاص بمحكمة العـدل العليا ، وقانون محكمة أمـن الدولة ، وقانون النقابات ، وقانون الكسب غير المشروع ، وقانون الاستيراد والتصدير ، وقانون إلغاء الأحكام العرفية ، وقانون الشباب ، وقانون الخمر .

٤- طرح الرأي والموقف الإسلامي في المواقف والأحداث ودفع الحكومة إلى الالتزام به أو احترامه وتقديره ، أو سماعه على أقل تقدير .

٥- التنسيق والتعاون مع الفعاليات السياسية المختلفة ، حكومية وحزبية ونقابية ، بما يخدم الأمة والوطن ، وبما يضمن تنفيذ برامج الحركة الإسلامية وتحقيق أهدافها . ومن القضايا التي تم التنسيق بشأنها موضوع التسوية السلمية ، والموقف من أزمة الخليج ، وقضايا محاكمة الفساد ، والدفاع عن الحريات ، وقانون الأحزاب وقانون أمن الدولة .

٦- إحراز رئاسة المجلس ورئاسة كثير من اللجان النيابية وهو إنجاز يعبر عن تأثير نواب الحركة وقدرتهم على التنسيق والحشد .

٧- الإسهام في تأسيس حزب جبهة العمل الإسلامي ، المشروع الذي تأمل الحركة أن يستوعب جماهيرها ومؤيديها من مختلف الفئات ، ويوسع آفاق العمل الإسلامي .

٨- المساهمة في رد الحقوق إلى أصحابها ، وشمل ذلك إعادة المفصولين، والإفراج عن المعتقلين، وضمان حرية السفر والتنقل وحرية الرأي والتعبير، والحد من تدخل الأجهزة الأمنية في التوظيف وفي شئون النوادي والجمعيات. هذه ولئن كانت إنجازات دون المستوى المطلوب ، إلا أنها بالمقارنة بما كانت عليه الأوضاع قبل استئناف الحياة البرلمانية ، بل وبما عليه الحال في كثير من الدول العربية الأخرى ، تعتبر نقلة نوعية جيدة ، وإنجازاً كبيراً .

٩- تخفيف حالة الاحتقان والعداء مع الحكومة ، وحماية الحركة من محاولات جرها إلى صدام مع النظام لا يعود بالفائدة إلا على أعداء الحركة وأعداء الوطن .

١٠- تنمية العلاقات مع المسئولين المحليين في المحافظات والألوية، من حكام إداريين ومدراء دوائر، والتعاون معهم في العمل والخدمة وحل المشكلات .

١١- دعم القضية الفلسطينية والسعي قدر الإمكان إلى دفع الحكومة للالتزام

بما لا يضيع حقوق الفلسطينيين في أرضهم . وعلى المستوى المحلي ساعدت جهود نواب الحركة في التوصل إلى قرار في مجلس النواب يحد من معاناة أهالي غزة وحملة البطاقات المقيمين في الأردن . ومن ذلك متابعة قضية العائدين من دول الخليج لمساعدتهم وتحصيل حقوقهم .

١٢- دعم القضايا الإسلامية الأخرى ، مثل قضايا أفغانستان ، والبوسنة والهرسك ، وغيرها .

١٣- التفاعل مع الأحداث على الساحة العربية والإسلامية من خلال إرسال البرقيات وحضور اللقاءات والمشاركة في النشاطات والاجتماعات . وقد أصدر مكتب نواب الحركة الإسلامية عشرات البيانات والبرقيات في المناسبات المختلفة ، وشارك نواب الحركة باستمرار في نشاط الوفود البرلمانية إلى الأقطار العربية والإسلامية وغيرها .

١٤- مواجهة الفساد الإداري والمالي ، ومحاسبة الوزراء والحكومة وكبار المسئولين ، والرقابة على أداء الأجهزة بما يحقق المصالح والمنافع ويحمي البلد ومؤسساته من الإهمال والعبث والفساد .

١٥- نشر الفكر والدعوة وخدمة القضايا الإسلامية ، وتسهيل هذه المهمات للقائمين عليها وحمايتهم ، وتفعيل المؤسسات الإسلامية حتى أصبح الرأي الإسلامي المعبر عن الموقف الإسلامي الصحيح يطرق كل منافذ النشر والتبليغ .

١٦- ساهم نواب الحركة في تحقيق كثير من المشاريع والخدمات العامة ومن ذلك : كلية الشريعة في جامعة اليرموك ، بالإضافة إلى المطالبة بإنشاء المدارس والطرق والمراكز الصحية وتمديد الخدمات الكهربائية والمائية والهاتفية في مختلف المناطق والمحافظات .

١٧- استقبال المراجعين والمواطنين والسعي في حاجاتهم والوقوف مع

المواطنين في كثير من القضايا والمشكلات التي تعسر عليهم حلها مع الدوائر الحكومية ومطالبة الحكومة بالمذكرات وبالاتصال الشخصي بمساعدة المواطنين وتنفيذ المشروعات ، والحد من الغلاء وتخفيف الضرائب[١].

هذه بعض إنجازات الحركة .

د- مطالب الحركة من العمل السياسي :

إن الحركة الإسلامية في الأردن تدرك جيدًا الظروف التي تمر بها المنطقة العربية والعالم الإسلامي، وتدرك محدودية إمكانات الأردن في ظل هذه الأوضاع والمعادلة الدولية الحالية؛ ولذلك نهجت أسلوب العمل الإصلاحي المتدرج، يقينًا منها بأن التحسن الجذري للأوضاع مرتهن بتبدل ظروف الأمر الواقع المفروض على المنطقة ككل ، وليس على الأردن فقط ، ووفاءً بواجب الدعوة إلى الله والإصلاح في حدود المستطاع فإن الحركة تسعى جاهدة إلى تحقيق بعض الأهداف المهمة في هذه المرحلة منها :

١- تحقيق العدل والحرية والمساواة بين المواطنين .

٢- ترسيخ الممارسة الديمقراطية وضمان احترام خيار الشعب .

٣- تشكيل حكومة نظيفة ، ومسئولة ، ومخلصة وعادلة ، ومؤهلة لقيادة شئون المجتمع الأردني، وتلتزم بمقاومة الفساد والانحلال الخلقي بكل أشكاله ، وبوضع الشخص المناسب في المكان المناسب، والاحتكام إلى مبادئ الجدارة والاستحقاق في التوظيف والتعيين .

٤- محاربة الطائفية والإقليمية ، والتركيز على الوحدة الوطنية ، وتعزيز الجبهة الداخلية .

٥- مناصرة ودعم حقوق الإنسان ، ورفض القمع والظلم .

---

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين في السلطة، ص١٠٧ إلى ١١١ .اختصرت ما قاله الأستاذ عبد الله العكايلة عن تجربة الحركة الإسلامية في الأردن .

٦- شجب العدوان ، وتأييد حركات التحرر ضد الهيمنة الاستعمارية على الشعوب .

٧- السعي إلى إقامة صيغ الوحدة بين أقطار العالم العربي والإسلامي ، وإنشاء مؤسسات التضامن العربي والإسلامي في المجالات الاقتصادية ، والسياسية والثقافية ، وصولاً إلى صيغ التكامل بين أجزاء الأمة العربية والإسلامية .

ثانيًا : الحركة الإسلامية في اليمن :

قد يظن البعض أن مشاركة الحركة الإسلامية اليمنية في السلطة لم تبدأ إلا بعد الانتخابات النيابية التي جرت في ٢٧ أبريل ١٩٩٣م ، بيد أن الحقيقة هي أن الحركة بدأت تجربتها في المشاركة منذ وقت مبكر وعلى أصعدة متعددة وبأساليب متنوعة حسبما تطلبه الظروف والمراحل ، وإن كانت السنوات الأخيرة من عمر التجربة السياسية للحركة اليمنية تظهر مع قرار الحركة في المشاركة في انتخابات أبريل ١٩٩٣م ، ثم المشاركة في الحكومة حيث أظهرت ملامح الحركة السياسية وقدرتها على خوض الصراع السياسي بمهارة فائقة وقدرة نادرة وتخطيط صحيح وإدارة رشيدة وتنظيم قوي .

لم يكن برنامج العمل السياسي للتجمع اليمني للإصلاح إلا وليد مجهودات سبقت وسنين من العمل والجهاد المتواصل ، ظهرت رؤيته العقدية وصبغته الشرعية ومنظومته الفكرية والثقافية منذ اليوم الأول لاندلاع ثورة سبتمبر ١٩٦٢م التي أطاحت بنظام الإمامة وجاءت بالنظام الجمهوري وأخذت هذه المنظومة تتطور مع الزمن حتى برزت في هيكلها الأخير للتجمع والإصلاح ، ولقد ساعدت عوامل عدة في نمو الحركة السياسي والتنظيمي مع الامتداد الشعبي المتوازن ومن أهم هذه العوامل :

١- بقاء اليمن الشمالي حرًّا بعيدًا عن الاستعمار الأجنبي .

٢- تأكيد النظام الجمهوري بعد قيامه عـلى سيادة الشريعة الإسلامية وجعلها مصدر القوانين جميعًا .

٣- وجود مجالاً رحبًا للعمل السياسي استفادت منه الحركة في تنمية قدراتها وتفجير طاقاتها وتوجيهها نحو تحقيق أهدافها .

٤- امتلاك الشعب للسلاح وبذلك حافظ على حريته؛ ولم تستطع الحكومات العلمـانية أن تذله وتكبل حـريته وتصـادر حقـوقه؛ ولذلك لم تتـعرض الحـركة الإسلامـية بشكل جمـاعي ومنظم طوال فترة مـا بعد الثورة إلى اليـوم لأية محنة كبيرة أو إجراءات قمعية شديدة كالسجن أو النفي أو المطاردة أو غير ذلك[1].

٥- ظهور المد الشيوعي في جنوب اليمن ووصول الحزب الماركسي إلى مقاليد الحكم في اليـمن الجنوبي ، مما جعل مصـالح مشـتركة بين الحكومـات الشمـالية والحركة الإسلامية مع ظهور قيادات فـذة في الحركة استطاعت أن تستفيد من هذه المعادلة لمصلحة الإسلام في اليمن إلى غير ذلك من العوامل .

وكانت لجهود الجهـاد التي قادها الشهيد محمد محـمود الزبيري رصيداً حيًّا للحركـة الإسلاميـة في اليمن وتعـتبر شـخصيـته من أبرز الشـخصيـات الوطنية التاريخية المعاصـرة، وقد أجمعت كل القوى السياسية بعـد استشهاده على إطلاق لقب " أبو الأحرار " عليه .

كان للحركـة الإسلامية مشاركـة سياسية قبل الوحـدة ، وشاركت بعدد من أعضائها في مجلس الشورى لعام ١٩٧١م وحرصت على أن تؤدي دورًا متميزًا ، رغم قلة أعضائها ، في مجال وضع التشريعات القـانونية التي انبثقت جميعها من الشريعة الإسلامية[2] .

واهتمت الحركة في اليمن بالجانب التعليمي والتربوي وأعطته اهتمامًا خاصًّا،

---

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين في السلطة، ص١٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٥٥ .

فساهمت في إعداد المناهج الدراسية لمختلف المراحل التعليمية ، وكان حظ مناهج التربية الإسلامية وافرًا ، حيث حشدت الحركة العشرات من العلماء البارزين -من المذهبين الزيدي والشافعي - لوضع هذه المناهج برؤية توحيدية جامعة تتجاوز التعصب المذهبي، إذ تم الاتفاق على أن تكون مناهج الفقه والحديث نابعة من الدليل الأصوب، دون التحيز والتعصب لأحد المذهبين المذكورين وكان من فضل الله على أهل اليمن ثم بهذا الجهد المبارك أن نشأت الأجيال منذ ذلك الحين حتى اليوم برؤية فقهية موحدة تجاوزت فيها الحساسيات والصراعات الموروثة على مدار التاريخ وتجنبت البلاد مرارة الصراع المذهبي بهذا الفعل الرشيد .

- وبنفس الرؤية التوحيدية الجامعة ساهمت الحركة الإسلامية في تقنين أحكام الشريعة الإسلامية ، وتميز في الفترة التي ترأس فيها القاضي عبد الكريم العرشي مجلس الشعب التأسيسي من ١٩٧٨م إلى ١٩٨٨م بالنشاط الدءوب والعمل الجاد حتى أطلق على هذه الفترة بالعصر الذهبي في هذا المجال ، وأصبح القضاء في جميع اليمن ملتزمًا برؤية شرعية موحدة. وكان لهذا المسلك على المستويين التعليمي والتشريعي أثره الفعال والكبير في ترسيخ دعائم الوحدة الوطنية في اليمن .

- اهتمت الحركة بالجانب الثقافي والتوجيه للمجتمع اليمني واتجهت نحو العمل المؤسسي ، وكان أبرز ثماره مكتب التوجيه والإرشاد ، الذي صدر وفق قانون في عهد الرئيس الراحل إبراهيم الحمدي، وترأسه على التوالي كل من الشيخ عبد المجيد الزنداني والقاضي يحيى الفسيل ، ونص القانون على أن يكون رئيس المكتب بدرجة وزير ، ونائبه بدرجة نائب وزير، ووكيله بدرجة وكيل وزارة. وكان نشاط المكتب عظيمًا وأثره في الجانب الشعبي كبيرًا، حيث استطاع من خلال قوافل التوجيه والدعوة أن يتغلغل في وسط القبائل والقرى والمدن وطعم جهوده الجبارة بدعوة عدد من كبار مفكري العالم الإسلامي مثل الدكتور يوسف القرضاوي، والشيخ محمد الغزالي، والدكتور الترابي، والأستاذ يوسف

العظم، والشيخ حسن أيوب، والدكتور الصواف ، والدكتور أحمد العسال وعشرات غيرهم . نجح المكتب من خلال ذلك في أن يحدث وعيًا شعبيًّا بقضايا الأمة الإسلامية ، سواء كانت قضايا فكرية أو سياسية أو اجتماعية أو غير ذلك.

- واهتمت الحركة بتأسيس المعاهد العلمية ، التي يدرس طلابها نفس مناهج التربية والتعليم مع زيادات مقدرة في المجال الشرعي واللغة العربية ، بهدف تزويد الطلاب بقدر أكبر من تلك العلوم والمعارف . وقد بدأت المعاهد العلمية منذ قيام الثورة في عام ١٩٦٢م كمعاهد أهلية ، ثم أصبحت منذ أوائل السبعينات تابعة لإدارة خاصة بها ضمن وزارة التربية والتعليم، ثم تطورت لتصبح تابعة لهيئة أعلى، لكن موازناتها ظلت ضمن موازنة وزارة التربية والتعليم . وفي عام ١٩٨٠م صدر قانون من مجلس الشعب التأسيسي وموقع من قبل الرئيس علي عبد الله صالح بتوحيدها ضمن جهاز واحد يسمى الهيئة العامة للمعاهد العلمية ، بموازنة مستقلة وبجهاز فني مستقل، على أن يرأسها مسئول بدرجة وزير . ومنذ ذلك الوقت تناوب على رئاستها ثلاث من الشخصيات الإسلامية البارزة بدءًا بالقاضي يحيى الفسيل (١٩٨٠- ١٩٨٥م) . ثم الأستاذ أحمد عبد الله الحجري (١٩٨٥م - ١٩٨٨م) ثم المهندس أحمد الآنسي (١٩٨٨- ١٩٩٠م) ومنذ قيام الوحدة لم يعين لها رئيس حتى الآن؛ بل تتم إدارتها من قبل وكيل الهيئة والجهاز الفني، وذلك بسبب الخلاف السياسي على وجودها واستمرارها، إذ كان يصر الحزب الاشتراكي اليمني على دمجها ضمن وزارة التربية والتعليم بينما يرفض التجمع اليمني للإصلاح ذلك، ويقف المؤتمر الشعبي العام موقف الحياد بين الطرفين، وقد أعطت المعاهد العلمية في الجانب التربوي والتعليمي عطاءً كبيرًا، وتركت آثارًا طيبة على جمهور المواطنين، وتوسعت المعاهد العلمية لتتجاوز خمسمائة معهد على مستوى الجمهورية يرتادها ما لا يقل عن ثلاثمائة ألف طالب وطالبة .

واشتملت هيئة المعاهد على إدارة عامة لمدارس تحفيظ القرآن الكريم تتبعها أكثر من مائة مدرسة ويرتادها أكثـر من ثمانين ألف طالب وطالبة . ورغم موقف الحزب الاشتراكي المهزوم من المعاهد العلميـة ومدارس تحفيظ القرآن الكريم عندما كان في الحكم إلا أنه لم يستطع منع إقبال الناس عليها من المحافظات الجنوبية والشرقية التي كان يحكمهـا الحزب ، ووجد الحزب نفـسه مرغمًا على قـبول فتح معـاهد علمية ومدارس لتحفيظ القرآن الكريم في مختلف أرجاء تلك المحافظات الست .

- وفي المجال السياسي دخلت الحركـة الإسلامية في لجنة الحوار الوطني التي شكلها علي عبـد الله صالح في عام ١٩٨٠م والتي تكونت من خمسين شـخصية يمنية ، مثلت فيها معظم القوى السياسية بما في ذلك الحركة الإسلامية، واستمرت اللجنة لمدة عامين تقـريبًا تدير حوارًا وطنيًّا وشعبيًّا موسعًا لوضع صـيغة لمشروع ميثاق وطني يتـم إقرارها من خلال مؤتمر شعبي عام بحـيث يكون هذا الميثاق هو الدليل النظري والـفكري للشـعب اليمـني وقيـادته، وخـلال عـامين من المداولة والتبـاحث، توصلت لجنة الحوار الوطني إلى صـيغة لمشـروع ميثـاق غلب الطابع الإسلامي عليه، ثم عرضت هذه الصيغة شعبيًّا من خلال استبيان أبدى فيه مئات الآلاف الذين شاركوا فيـه رأيهم في الصيغة المقترحة، وطالبـوا ببعض التعديلات التي صبت مـعظمها في الاتجاه الذي دفـعت صوبه الحركة الإسـلامية، فأعـيدت الصياغة بموجب نتائج الاستبيان الشعبي، ثم قدمت إلى المؤتمر الشعبي العام الذي انعقد في ٢٤ أغسطس (آب) ١٩٨٢م وأقر الصيغـة النهائية للميثاق الوطني وأقر المؤتمر كذلك استـمرار المؤتمر الشعبي العام كـصيغة للعمل السـياسي وإطار يجمع القوى الوطنية ويشرف على تطبيق الميثاق الوطني عمليًّا . وانتخب المؤتمر الرئيس علي عبد الله صالح أمينًا عامًّا له ، كما انتخب لجنة دائمة (مركزية) من خمسين عضوًا ، كان نصفهم تقريبًا من الإسلاميين ، وقد انتخبت اللجنة الدائمة د. أحمد الأصبحي (إسلامي) أمينًا لسرها وعبد الســلام العنسي (إسلامي) وعبد الحميد الحذي (قومي) مساعدين لأمين السر .

وساهم الإسلاميون فيما بعد على المستويين التنظيمي والفكري في ترسيخ قواعد المؤتمر الشعبي العام ، الذي كان أول صيغة سياسية تعترف بالقوى السياسية عمليًّا دون الإعلان عن وجودها بشكل رسمي[1] .

هذه بعض الملامح الرئيسية في مشاركة الحركة الإسلامية في العمل السياسي على مستوى الدولة قبل تجربة الوحدة .

ب- تجربة ما بعد الوحدة :

إن تجربة الحركة الإسلامية فيما بعد الوحدة تختلف اختلافًا كبيرًا عن تجربة ما قبل الوحدة ، وهو اختلاف يكمن سره في الانتقال من العمل السري إلى العمل العلني ، وفي تحول النظام الحاكم في اليمن نحو الديمقراطية والتعددية .

لقد كان إنشاء التجمع اليمني للإصلاح نقلة نوعية كبيرة لم يقتصر أثرها على الحركة الإسلامية وحدها ؛ بل امتد ليشمل الساحة اليمنية بأسرها . فبروز حزب جديد يمتلك قاعدة شعبية عريضة مؤثرة وفاعلة جعل الخريطة السياسية اليمنية تنتقل إلى مرحلة من التوازن ووجد الكثيرون ممن لا يرغبون في الانضمام إلى الحزبين الكبيرين (المؤتمر والاشتراكي) مجالاً لممارسة العمل السياسي ضمن الحزب الجديد . وكان الإصلاح هو حزب المعارضة الرئيس والمؤثر خلال سنوات الفترة الانتقالية من ٢٢ مايو ١٩٩٠ إلى ٢٧ أبريل ١٩٩٣م .

وبرز دور الإصلاح وتأثيره في المعارضة أثناء فترة الاستفتاء على مشروع دستور دولة الوحدة التي استمرت ثلاثة أشهر ، من فبراير إلى مايو ١٩٩١م ، حيث كان الإصلاح يرى وجوب إجراء بعض التعديلات على الدستور قبل الاستفتاء عليه بسبب كثرة التناقضات التي اشتمل عليها ، ناهيك عن الغموض الذي اكتنف الكثير من مواده . حيث كان هذا الدستور قد وضع من قبل لجنة مشتركة من شطري اليمن في الفترة ما بين مارس ١٩٧٩م إلى ديسمبر ١٩٨١م ،

---

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين في السلطة، ص١٥٨،١٥٩ .

أي حينما كان المعسكر الشيوعي في أوج قوته ، مما أدى إلى أن يتجه النظامان حينها إلى صيغ توفيقية وتلفيقية لتجاوز خلافاتهما ، وهكذا أصبحت هوية النظام السياسي غامضة ، فلا يوجد مثلاً نص صريح على التعددية ، وكذلك الأمر بالنسبة لهوية الاقتصاد فلا هو إسلامي ولا هو اشتراكي ولا هو رأسمالي ، ولم ينص الدستور على الفصل بين السلطات ، ولا على التداول السلمي للسلطة .

انتقد الإسلاميون الدستور بسبب الثغرات الكثيرة ولم يرضوا اعتبار الشريعة الإسلامية المصدر الرئيس للتشريع؛ بل طالبوا بأن يكون المصدر الوحيد للتشريع ، لذلك قرر الإصلاح أن يقود معارضة شعبية واسعة للدستور ، وقد اصطف وراءه ما يزيد عن عشرين حزبًا من مختلف الاتجاهات الإسلامية والقومية والليبرالية . وبدأت حملة المعارضة بالمحاضرات والندوات والملصقات والمهرجانات الجماهيرية، فيما اتفق أكثر من أربعمائة من كبار علماء الشريعة في اليمن على توقيع وثيقة تطالب السلطة بتعديل الدستور قبل الاستفتاء عليه . وفي ذات الوقت بدأ الإصلاح بجمع توقيعات المواطنين المطالبين بتعديل الدستور، حتى تجاوزت هذه التوقيعات مليون ونصف المليون توقيع من مختلف مناطق البلاد .

بلغت الحملة ذروتها بالمسيرة المليونية التي قادها الإصلاح داخل العاصمة ، وشارك فيها مواطنون من مختلف أنحاء البلاد اتجهوا إلى مقر رئاسة الجمهورية مطالبين بالتعديل ، فأصدر مجلس الرئاسة الحاكم بيانًا سياسيًّا ضمنه أهم مطالب الإصلاح ، ومنها :

١- الالتزام بأن الشريعة الإسلامية هي المصدر الوحيد للتشريع وبطلان أي قانون يخالفها .

٢- إعادة الحقوق والأملاك التي أممها النظام الشيوعي في عدن إلى أصحابها .

٣- الالتزام بالنظام الديمقراطي القائم على أساس التعددية الحزبية والتداول السلمي للسلطة .

٤- الالتزام بتعديل الدستور إثر أول انعقاد لمجلس النواب المنتخب بعد نهاية الفترة الانتقالية . فرحب الإصلاح وأحزاب المعارضة المتحالفة معه بالبيان، وطالبوا بجعله جزءًا من الدستور والاستفتاء عليه حتى يكتسب قوة دستورية وقانونية. ولما لم تستجب السلطة لهذا المطلب أصدر علماء الشريعة فتوى بوجوب مقاطعة الاستفتاء على الدستور ، وهذا ما تم فعلاً فبدا الاستفتاء هزيلاً بضعف الإقبال الشعبي عليه يومي ١٦ ، ١٧ مايو ١٩٩١م .

ومن خلال موقعه في المعارضة ساهم الإصلاح بفاعلية في صياغة أهم القوانين التي صدرت في الفترة الانتقالية ، مثل قانون الأحزاب والتنظيمات السياسية، وقانون الصحافة، وقانون تنظيم حمل السلاح ، وقانون الإدارة المحلية، والقوانين الاقتصادية ، وقانون الانتخابات[1].

رأى التجمع اليمني للإصلاح أن استمرار الأوضاع كما هي عليه ، حيث يحتكر الحزبان الحاكمان (المؤتمر والاشتراكي) حق إدارة شئون البلاد والعباد ، سيدفع البلاد نحو الانهيار الشامل . ولذلك فإن دخول الإصلاح كشريك في السلطة من شأنه أن يحقق نوعًا من التوازن السياسي في البلاد ، كما أن مشاركة الإصلاح تعطي تجربة فريدة في العالم العربي والإسلامي تتمثل في تشكيل ائتلاف حكومي يضم اليمين المحافظ المتمثل في المؤتمر الشعبي العام، واليسار المعتدل المتمثل في الحزب الاشتراكي، والوسط الإسلامي المتمثل في التجمع اليمني للإصلاح ، كما أن مشاركة الإصلاح في السلطة ستخفف من حدة النزعات المتطرفة التي بدأت في الظهور ، وخاصة في المحافظات الجنوبية والشرقية التي كان يحكمها الاشتراكيون قبل الوحدة كرد فعل على تطرفهم .

ومن الفوائد المرجوة من مشاركة الإصلاح في الحكم ، إتاحة الفرصة أمام العديد من كوادر الإصلاح للتأهل والتدريب على ممارسة الحكم ، وصناعة القرار، والإحاطة بآليات إدارة السلطة وأسرارها وخفاياها .

(١) انظر: مشاركة الإسلاميين في السلطة، ص١٦١، ١٦٢ .

وكذلك إتاحة الفرصة أمام الإصلاح ليقدم نموذجًا جديدًا يتسم بدقة الإنجاز وطهارة اليد وسلامة الضمير وعلمية التخطيط ومحاربة الفساد الشامل في كافة مرافق الدولة .

وبعد خوض الانتخابات استطاع الإصلاح أن يحتل المرتبة الثانية بعد أن تحصل على ٦٣ مقعدًا والاشتراكي ٥٦ مقعدًا والمؤتمر ١٢٧ مقعدًا، والمستقلون ٤٧ مقعدًا، والبعثيون ٧ مقاعد، والوحدوي الناصري مقعد واحد، الناصري الديمقراطي مقعدًا واحدًا ، والتصحيح الناصري مقعدًا واحدًا، وحزب الحق مقعدين، وبحصول الإصلاح على المرتبة الثانية تأكدت مشاركته في السلطة، حيث دعا الرئيس علي عبد الله صالح ونائبه علي سالم البيض إلى اجتماع مشترك مع الشيخ عبد الله بن حسين الأحمر ، زعيم الإصلاح ، اتفق فيه الزعماء الثلاثة على تشكيل ائتلاف حاكم بحيث تتوزع الرئاسات الثلاث على الأحزاب الثلاثة، فتكون رئاسة الدولة للمؤتمر، ورئاسة البرلمان للإصلاح، ورئاسة الحكومة للاشتراكي .

بدأت المفاوضات حول تشكيل الحكومة الجديدة ، ووزعت الحقائب بحيث حصل المؤتمر على أربع عشرة حقيبة تنازل عن واحدة منها للمستقلين ، وحصل الاشتراكي على تسع حقائب منها حقيبة رئيس الوزراء وحقيبة نائب رئيس الوزراء وسبع حقائب وزارية ، بينما حصل الإصلاح على ست حقائب من بينها حقيبة لنائب رئيس الوزراء تولاها الأمين العام للتجمع الأستاذ عبد الوهاب الآنسي، وخمس حقائب وزارية هي الإدارة المحلية وتولاها الأستاذ محمد حسن دماج ، والتموين والتجارة وتولاها د .عبد الرحمن بافضل ، والصحة العامة وتولاها الدكتور نجيب غانم، والأوقاف والإرشاد وتولاها الدكتور غالب القرشي، والشئون القانونية وشئون مجلس النواب وتولاها الأستاذ عبد السلام خالد .

ولم تمض شهور قليلة على تجربة الإصلاح في المشاركة حتى دخلت البلاد في أزمة سياسية انتهت بالحرب بين القوات النظامية والقوات الموالية للحزب

اليمني الاشتراكي الذي أعلن من طرف واحد انفصال الجنوب عن الشمال ، وبعد شهرين من المعارك الدامية (قتل فيها حوالي سبعة آلاف شخص) تمكنت القوات النظامية من دخول آخر معاقل الانفصاليين بعد سقوط مدينتي المكلا وعدن وفرار زعماء الاشتراكي إلى خارج البلاد .

لقد كان دور الإصلاح في المحافظة على وحدة اليمن عظيمًا ، والتف الشعب اليمني المناصر للوحدة والمنابذ للفرقة حول الحكومة الشرعية والحزبين الكبيرين الإصلاح والمجتمع واستطاعوا بفضل الله ثم جهودهم أن يمحو الحزب الشيوعي الاشتراكي من الوجود بعد أن عاث في الأرض فساداً .

واستمر الحزبان المتحالفان في الحكم، وتركت مشاركة الإصلاح في السلطة أثرًا إيجابيًّا على المستوى الشعبي، وأوجدت أملاً لدى المواطنين في إمكانية التغيير إلى الأفضل ، فسمعة الإصلاح ظلت نقية طوال الفترة الماضية قبل الوحدة وبعدها، فالناس أدركوا من خلال تجارب فترة ما قبل الوحدة أن أكثر الوزراء والحكام الإداريين (المحافظين) نجاحًا وإخلاصًا في عملهم هم أولئك الذين ينتمون إلى الحركة الإسلامية تنظيمًا أو فكرًا أو سلوكًا . ولم ينس اليمنيون إنجازات الإسلاميين على صعيد التعليم والحركة التعاونية وفي مجالات التشريع والثقافة والإرشاد وبعد انتخابات عام ١٩٩٧م أصبح الإصلاح في المعارضة وضرب أروع الأمثلة في المعارضة السلمية النزيهة البعيدة عن المزايدة والكذب والتزوير والخداع[١] .

إن تجربة الإصلاح في العمل السياسي تعتبر من أنضج التجارب المعاصرة في العالم الإسلامي .

ثالثًا : الحركة الإسلامية في تركيا :

تأتي قوة الحركة الإسلامية في تركيا ، في كون الأحزاب السياسية في تركيا

---

(١) انظر: البحث الذي أعده نصر طه مصطفى في مشاركة الإسلاميين في السلطة ص (١٤١-١٧٠) .

تعتمد اعتماداً كبيراً في الانتخابات على الجماعات الإسلامية إلى درجة نرى أن أحزابًا كبيرة ، برامجها كانت علمانية ، ولكن مواقفها اختلفت عن هذه البرامج .

من هذه الأحزاب على سبيل المثال حزب الشعب الجمهوري ، الحزب الذي أسسه مصطفى كمال في عام ١٩٢٢م حيث أرسى هذا الحزب معالم العلمانية في تركيا حتى وفاة مؤسس الحزب في عام ١٩٣٨م ، وقد قام هذا الحزب بسلسلة من الإجراءات القانونية فرضت بالقوة على المسلمين في تركيا كان الغرض منها جعل الدستور علمانيًّا ، وفرضت المبادئ الستة التي نادى بها مصطفى كمال على الشعب التركي وجعلت من مبادئ الدستور التركي وهذه المبادئ الستة هي ، أن تركيا دولة جمهورية وعلمانية ، وشعبية ، ودولتية ، وإصلاحية .

إلا أن حزب الشعب الجمهوري ، بدأ يغير في اتجاهاته العلمانية منذ الانتقال إلى ظاهرة التعدد الحزبي ، ريثما وضعت الحرب العالمية الثانية أوزارها ، حيث وافق الحزب على إنشاء كلية الإلهيات ، ومعهد العلوم الإسلامية في أنقرة .

واعتمد الحزب الديمقراطي على الجماعات الإسلامية في انتخابات ١٤ أيار ١٩٥٠م ، وكان سببًا رئيسيًّا في فوزه على حزب الشعب الجمهوري ، وفضلاً عن ذلك ، اعتمدت أحزاب أخرى على الجماعات السالفة الذكر ، مثل حزب العدالة في المدة الواقعة بين ١٩٦١ - ١٩٨٠م .

وأما حزب الطريق المستقيم ، والذي يعد امتداداً لحزب العدالة ، فإنه استمد قوته في الثمانينات من الرأي العام الإسلامي .

وركب حزب العمل القومي بزعامة ألب أرسلان توركش الموجة الإسلامية وغير مفهومة عن العلمانية ، وبدأ بالتقرب من الرأي العام الإسلامي وكان شعار هذا الحزب في انتخابات عام ١٩٨٧م " دليلنا القرآن ، وهدفنا الطوران "[١].

إلا أن العمل الإسلامي المنظم يظهر جليًّا مع ظهور حزب السلامة الوطني.

---

(١) الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا د. أحمد النعيمي ص(١٨٤ إلى ١٨٧) .

كانت الحركة الإسلامية في تركيا قبل ظهور حزب السلامة الوطني تتكون من:

- المتصوفة المناوئة للحركة الكمالية ، وهؤلاء حافظوا على التراث الإسلامي بمفهومهم الخاص بهم ، وواصلوا تحفيظ القرآن سرًّا . وكان هدف هذه الحركة هو الحفاظ على العبادات الإسلامية في نفوس الرأي العام التركي ، وفي هذا المجال قاموا بتكوين جمعيات للإنفاق على طلاب مدارس الأئمة والخطباء للإكثار منهم، وتعويض النقص الذي نتج عن اختفاء الدعاة الإسلاميين عندما اصطدم بهم الحزب الكمالي.

- حركة الإمام المصلح الكبير سعيد النورسي والتي تعرف بحركة النور. والتي تركزت جهودها على الدعوة إلى الإيمان بالله واليوم الآخر ومحاربة المادية الملحدة والاهتمام بتربية الأجيال وابتعد الكثير من أتباعها عن السياسة[1].

عندما تحصلت تركيا على نوع من الحريات تقدم الإسلاميون المؤمنون بضرورة خوض المعترك السياسي بتأسيس حزب النظام الوطني في كانون الثاني عام ١٩٧٠م ، حيث قام على تأسيسه يونس عارف . وقد جاء دعم هذا الحزب بصورة رئيسة من التجار الصغار والحرفيين والرجال المتدينيين في الأناضول . توسع الحزب في مدة قصيرة جدًّا وبدأ يشكل تهديدًا خطيرًا للأحزاب العلمانية، وقد جاء في بيان التأسيس ما يلي : (أما اليوم : فإن أمتنا العظيمة التي هي امتداد لأولئك الفاتحين الذين قهروا الجيوش الصليبية قبل ألف سنة، والذين فتحوا إستانبول قبل ٥٠٠ سنة، أولئك الذين قرعوا أبواب فينا قبل ٤٠٠ سنة. وخاضوا حرب الاستقلال قبل خمسين سنة. هذه الأمة العريقة تحاول اليوم أن تنهض من كبوتها وتجدد عهدها وقوتها مع حزبها الأصيل " حزب النظام الوطني " .

---

(١) انظر: المعالم الرئيسة للأسس التاريخية والفكرية لحزب السلامة، عبد الحميد حرب ص٤٣٥ . ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر، البحرين ٢٢- ٢٥/ ٢/ ١٩٨٥م.

إن حزب النظام الوطني سيعيد لأمتنا مجدها التليد ، الأمة التي تملك رصيداً هائلاً من الأخلاق والفضائل يضاف إلى رصيدها التاريخي ، وإلى رصيدها الذي يمثل الحاضر المتمثل في الشباب الواعي المؤمن بقضيته وقضية وطنه)[1].

وقدم حــزب النظام برنامج عــمله في منظومة من الأفكار يمكن إيجــازها في الآتي :

١- جمــيع المؤسسات الهــامة في تركيــا في أيد غريبــة غير وطنيــة ، والأمر الطبيعي والواجب القومي يقضي بأن تعود هذه المؤسسات إلى أصحابها .

٢- عــاش الناس أربعين سنة والقــوى الخارجــية المـؤثرة تحاول إبعــادهم عن محورهــم الحقيقي إلى مــحور غريب ، فوقع الناس في ضــيق وعنت شديدين ، ولا بد من إرجــاع الناس إلى طبيــعتــهم ومحــورهم الأصيل (فطرة الله) حــتى يستقيم أمرهم ويتخلصوا من عقدهم .

٣- إن التسميات المعاصرة مثل اليمين واليسار والوسط هي من اختراع الماسونية والصهيونية ، وكلها مؤسســات تابعة لغرض واحد وهو أن تنحرف تركيا عن خطها الحضاري الذي عــمره ألف سنة ، وأنه لا بد من التخلص من هذه الأسمــاء الغريبة والعودة إلى الخط الأصيل الذي يصل الماضي التليد بالغد المشرق .

٤- إن حزب النظام الوطني لا يشــبه الأحزاب الأخرى ، فجــميع الأحزاب تقوم على أساس التــسلط وشهوة الحكم ، ونحن نقوم على أساس جــديد يبتغي مرضات الله والعمل في سبيل الوطن .

٥- إن نظام التعليم في تركيا فاسد وضعته شرذمة من الحاقدين من الصليبيين واليهــود بشكل لا يناسب الأمــة ، فهــو يسقط من حــسابه كل قــيمة مــعنوية أو أخلاقــية أو دينية غايتــه فصل تركيــا عن ماضيهــا الإسلامي وسلخهــا عن دينها وقيمــتها ، وبهذه الطريقة فقط يســتطيعون أن يقتلوا الجيل ويدمــروا البلاد ، لقد

(١) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا ، ص١٢٦ .

مرت خمسون سنة ونحن نسمع أن تركيا جزء من أوربا ، وأن النهضة لا بد أن تقوم على أنقاض الدين كما حصل في الغرب ، متناسين أن الإسلام يختلف عن الكنيسة ودولة القسس .

٦- في الوقت الذي تمنع الدولة فيه توزيع الكتب على المعاهد الإسلامية العالية وتحاول إغلاق معاهد الأئمة والخطابة ومدارس تعليم القرآن ، تنفق الملايين على المسارح والممثلين وثمنًا للمشروبات التي توزع في السفارات . وفي الوقت الذي تعترض الدولة على الطالبات اللواتي يلبسن الحجاب على رءوسهن ، تدرس كتب اللاهوت في كل مكان دونما رقابة أو ضجة وهذا يعني أن حزب النظام الوطني أكد العودة إلى الإسلام الحقيقي[1].

إن اليهود والعلمانيين في تركيا لم يتحملوا هذا الصوت الفتي الذي يتدفق بالحيوية والنشاط ويحركه في قضاياه الإيمان العميق بالإسلام وبضرورة رجوع الشعب التركي إليه ، ولذلك تحرك الجيش التركي في آذار ١٩٧١م بسبب نشاط حزب العمال وأحال قضية حزب النظام الوطني إلى المحكمة الدستورية التي أصدرت قرارًا جائرًا بحل الحزب في ٢١ مارس ١٩٧١م[2].

وقد جاء في قرار محكمة أمن الدولة العليا ما يلي :-

١- إن المبادئ التي قام عليها الحزب وتصرفاته تخالف الدستور التركي .

٢- العمل على إلغاء العلمانية في البلاد ، وإقامة حكومة إسلامية .

٣- قلب جميع الأسس الاقتصادية والاجتماعية والحقوقية التي تقوم عليها البلاد .

٤- العمل ضد مبادئ أتاتورك .

٥- القيام ببعض التظاهرات الدينية .

---

(١) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، ص١٢٧ .

(٢) المصدر نفسه، ص١٢٧ .

وجاء في حكم المحكمة أيضًا أنه لا يحق لأي من شخصيات الحزب أن تعمل من خلال أي حزب سياسي آخر ، ولا أن يؤسسوا أي حزب جديد ، ولا أن يرشحوا أنفسهم لأي انتخابات قادمة ولو بشكل مستقلين لمدة خمس سنوات . وهذا يعني أن المدة بين نشوء الحزب وإغلاقه كانت ستة عشر شهرًا فقط(١) . وفي تلك الأحداث الساخنة والمشادة العنيفة بين الإسلام والعلمانية في تركيا ظهر المجاهد الكبير نجم الدين أربكان يخوض المعارك الكلامية مع العلمانيين ففي ٢ آب ١٩٧٢م وقبل تأسيس حزب السلامة الوطني تحدث أربكان في المجلس الوطني فقال : " في رأينا أن التوضيح المهم الأكثر ملاءمة لجعل الدستور ، دستورًا ديمقراطيًّا ، لابد أن تكون هناك مواد دستورية مناسبة قبل تحديد الحركات وحقوق الفكر والمعتقد ، وهكذا من الممكن إيجاد مناخ للتطبيقات الحالية والتي تتعارض مع المبادئ الأساسية للدستور ، وفي مثل هذه الحالة ، على المرء أن يتكلم عن وجود فكر الحرية والمعتقد ، وأن دولتنا لتسعى وتنمو ، ومن ثم لتأخذ مكانتها بين الأقطار الحضارية في العالم "(٢).

كان أربكان يرأى أن النظام الديمقراطي لا يعد ديمقراطيًّا بدون الحقوق وحرية الفكر والمعتقد ، وكان يقصد من وراء ذلك الحرية التامة لاستخدام نشر الأفكار الإسلامية ، وقد فسرت كل من صحيفتي " جمهوريت " و " ملليت " العلمانيتين تصريحات وأقوال أربكان بأنها ذريعة لاستخدام الدين لأغراض سياسية(٣) .

لقد هاجم أربكان العلمانية واستفاد من الثغرات الموجودة في الدستور التركي ورد على الحملة الإعلامية العلمانية الموجهة ضد أطروحاته فقال : (إن مصطلحات القومية والديمقراطية والعلمانية والاجتماعية ، والتي تقوم عليها شخصية الدولة ، واستنادًا إلى المادة الثانية من الدستور ، إن هذا من الممكن

(١) انظر : الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا ، محمد مصطفى ، ص(١٨٥-١٨٦).
(٢) انظر : الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا ، د .النعيمي ، ص١٢٨ .
(٣) المصدر نفسه ، ص١٢٨ .

توضيحه بأن هذه المادة لا تسـمح باستخدام وتفسير المعـارضة في الممارسة ، وفي هذا المجال وبصورة خاصة مصطلح القومية بحاجة إلى توضيح ، وهذا يعني أنها بحاجة إلى تحـديدها بطريقة تقوم على احترام جـميع القيم الروحية لقـوميتنا من حيث التاريخ والتقاليد)(١).

وأضاف أربكان قائلاً : " الـدين هو معتقد أسـاسي ونظام فكري للأفراد ، وهذا يعني الاعتراف بحق الحرية والوجود والاعتـراف بحقوق المعتقد للفرد . إن تحـريم الشخص من هذه الأسس هـو ضد الروح والمبـادئ الأساسـيـة للدستـور وخاصة الفقرة (١) من المادة ١٩ والمادة ٢٠ من الدستور "(٢).

٢- حزب السلامة الوطني :

بعد هدوء جو العنف والقلق السياسي في السيـاسة الداخلية التركية من جراء الأحكام العرفيـة قام أربكان بلم شعث حزب النظام الوطـني وأسس حزبًا جديدًا أطلق عليه حـزب السلامـة الوطني. استطاع حزب السـلامة الوطني خـلال مدة قصيرة لا تتجاوز ثمانيـة أشهر من تنظيم قواعد في ٦٧ محافظة ، وأعلن أربكان بأن نجاح حـزبه خلال هذه المدة يعـود إلى تعاطف الرأي العـام المحلي مع الحزب الذي ينادي بأهميـة الأخلاق الدينية والمواقف المعنوية ، وعلى هذا الأسـاس فقد أكد حـزب السلامـة في برنامجه على مـا يأتي : (قيـام تجمع يعتـمد الفـضيلة والأخلاق ويعطي القيمة المعنوية للإنسان مثلما نصت عليه المادتان العاشرة والرابعة عـشرة من الدسـتور والتي تؤكـد على القيـمـة المعنوية للإنسان على أسـاس من الأخلاق والفضيلة) (٣).

أهم أعمال حزب السلامة :

- عندما شـعر حزب السلامـة بقوته ، وصار جزءًا من الحـياة السياسـية في

(١) نفس المصدر السابق، ص١٢٨ .

(٢) المعالم الرئيسة للأسس التاريخية لحزب السلامة الوطني ، ص٤٣٥ .

(٣) انظر: الحركة الإسلامية الحديثة د .النعيمي، ص١٣٠ .

تركيا شرع منظرو الحزب بشن حملة إعلامية منظمة على أسس العلمانية في تركيا وبينوا للناس أن الإطار السياسي لتركيا الجديدة يناقض المبادئ السياسية للإسلام ، ويقضي الإسلام بتوحيد السلطات السياسية والدينية تحت سيطرة الدين ، وفي هذا المعنى ، فإن العلمانية ، والنظام العلماني ضد الإسلام ، الشريعة والدين وخاصة تطبيقاتها في تركيا فإنها صممت لضمان الزندقة[١] ويردف هؤلاء : " إن الخونة والكذابين هم وحدهم الذين يقولون بأن الدين والسياسة شيئان منفصلان ، لأن المسلمين لا يفصلون شئون الدنيا عن شئون السماء . لقد أصبح واضحًا بأن التشريع ليس من حق الإنسان . أما إذا وضع القوانين أو ادعى بأنه يفعل ذلك ، فإن علمه هذا يعد خطيئة . . إن خالق القوانين الإسلامية هو نفسه خالق الإنسان، لقد خلق الله الإنسان وفق هذه القوانين . إن القوانين الإنسانية لا تتناسب وطبيعة الإنسان . إن الإسلام نظام يصلح لكل الأزمان إنه يمثل كلاً من الدين والدولة . إن القرآن لم ينزل ليقرأ في القبور أو يغلق عليه في أماكن العبادة. لقد أنزل القرآن (ليحكم)[٢].

إن المجاهد الكبير أربكان شق طريقه بصعوبة في محاربته للعلمانية بالحجة والبرهان، ولقد عبر عن آرائه بصراحة خلال مباحثاته مع ضياء الحق ، مؤكدًا أن دخول الإسلام في كافة جوانب الحياة هو الشرط الوحيد لقيام دولة إسلامية ، وفي هذا المجال قال أربكان : " قبل كل شيء يجب أن تكون الدولة إسلامية ، إذا لم يكن الأمر كذلك ، فإن الدين الإسلامي في خطر) [٣].

إن حزب السلامة الوطني لم يحاول أن يتخذ موقف الهجوم المباشر على الديمقراطية في انتخابات عام ١٩٧٣ ، إلا أنهم عبروا عن مشاعرهم الحقيقية عن ذلك في عام ١٩٨٠م، حيث بدءوا ينتقدون الديمقراطية مؤكدين أنها تتعارض مع مبادئ الإسلام[٤] .

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣١ . (٢)، (٣) المصدر نفسه ،ص١٣٢ . (٤) المصدر نفسه، ص١٣٥ .

وفي هذا المجال أكد حزب السلامة أن " الديمقراطية مؤامرة غربية لقيادة الجهلة بموجب الأساليب الغربية والمسيحية . إنه انتصار للمسيحية ضد الإسلام، لذلك يجب تطبيق القوانين الإلهية إذ لا يمكن للإنسان تشريع قوانين يمكن تطبيقها) [١].

وبالإمكان تلخيص وجهة نظر حزب السلامة الوطني عن الرأسمالية والاشتراكية ، في مقالة لنجيب فاضل جاء فيها :

" نحن نقسم طريق الخلاص إلى مجموعتين : الأولى هي طريقة الإسلام في الخلاص، والثانية يمكن تصنيفها كنظم وراثية والتي لا توصل إلى الخلاص . إن المجموعة الثانية لا تعتمد على التعاليم الإلهية وتناقض نفسها باعتمادها على قوانين من صنع الإنسان مثل الشيوعية والرأسمالية والاشتراكية والديمقراطية . لقد تم التأكيد أيضًا على أن الله قد أمرنا أن نحكم طبقًا لتعليم القرآن الكريم ، وليس حسب آرائنا الخاصة. إذا حكَّم الناس حب نظام التصويت ، فإنهم لن يكونوا بحاجة إلى كلام الله في المجتمعات التي تحل فيها كل القضايا وفقًا لنظام التصويت ، لا ينتشر الإسلام" [٢] .

أما فيما يتعلق بموقف الحزب من الولايات المتحدة ، فقد عارض الحزب الوجود الأمريكي في الأراضي التركية، كما عارض استخدام الولايات المتحدة الأراضي التركية في استخدامها ضد دول منطقة الشرق الأوسط . ونتيجة لهذا فقد انتقد الحزب حكومة ديمريل في أواخر عام ١٩٧٩م بسبب زيادة النشاط العسكري الأمريكي في تركيا ، حيث قدم استجوابًا إلى مجلس النواب التركي مطالبًا فيه محاسبة حكومة ديمريل بسبب هذا النشاط الأمريكي ، وقد دلل هذا على قيام طائرتين بالهبوط في مطار مالقا وهيما تحملان ١٨٠ عسكريًّا أمريكيًّا مع أحدث المعدات الحربية، مؤكدًا أن هذا يشكل تهديدًا لأمن المنطقة .

---

(١) المصدر نفسه، ص١٣٥ .

(٢) الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د.النعيمي، ص١٣٥ .

وفي الحقـيقة اسـتطاع الحزب أن يشكل رأي عام منـاهض للغرب والولايات المتحدة ، عن طريق المشكلة القبرصية والتي قام فيها أربكان بدور رئيسي في إقناع القيادات العسكرية بإنزال قواتها في الجزيرة . فـقد تولى القيادة مدة غياب أجويد في زيارة لدول أوربا الشمالية .

ولقد عمل الحزب بقيادة أربكان على إفشـال جميع الخطط والمشاريع اليونانية في بحـر إيجة ، وفي هذا المجـال يقول أربكان : (سنتـحرك وفق أسس الـعدل والحق لأوفق الأسس التي تحددها الأقطار الأوربية الكبيرة) (١) .

وفيما يتعلق بالسوق الأوربية المشتركة يقول أربكان : " إن تركيا يجب أن لا تكون في السوق الأوربـية المشتـركة للدول الغربيـة ، وإنما في السـوق المشتـركة للدول الشرقـية ، إن تركيا مـتخلفة بالنسبـة للغربيين ، ولكنها مـتقدمة بالنسـبة للشرقيين . إذا دخـلت تركيا السوق المشتـركة في الأوضاع السائدة اليـوم ، فإنها مستعمرة "(٢) .

لقد كان لحزب السلامة تأثير كبير في الشارع التركي وعمل على إعادة الهوية الإسلاميـة ونازل بحجج الإسلام وبراهينه الأنظمة الاشـتراكية والرأسمـالية وكان زعيـمه نجم الدين أربكان يتحـدث بعزة الإسلام ويوضح للشـعب التركي خطورة الانحراف عن منهج الله ويوجـه صواريخه إلى أعداء الإسـلام وفي هذا المجال ، يقوِّم لنا نجم الدين أربكان الـنظامين الاشتراكي والرأسمـالي وفيمـا يتعلق بالأول يقول أربكان : " إنه فكر يهـدد الحريات ، ويضر بالكيان القـومي ، ويركز على مصادر أجنبية "(٣) ، أما فيما يتعلـق بالثاني ، يقول أربكان : " الفكر الرأسمالي هو فكر يقوم على الربا ، ومصدره أجنبي أيضًا ، أما حـزب السلامة فيمضي في طريقه رافعًـا راية الأخلاق والأصالة. إن النظام الرأسمـالي والنظام الاشتراكي لا

(١) الأحزاب السياسية في تركيا ، حسين فاضل كاظم، ص١٩٢ .
(٢) الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د .النعيمي ص١٣٧ .
(٣) يقظة الإسلام في تركيا أنور الجندي، ص٢٩- ٣٠ .

يقتصران على ميدان الاقتصاد ، وإنما يمتد تأثيرهما إلى الميدانين الاجتماعي والمعنوي ، ورغم اختلاف النظامين في الظاهر ، فكلاهما مادي ، وكلاهما يعمل على النهوض بالجانب المادي في مقابل انحطاط الأخلاق والمعنويات ، وكلاهما يزداد ارتفاعًا ماديًّا مع هبوط الثقافة والأخلاق "[١].

إن غاية حزب السلامة هو الوصول إلى فهم " تركيا الكبرى " وحرص على التمسك بالماضي العثماني المجيد وبين للناس أهمية الالتزام بالإسلام واتبع سياسة تؤدي في مداها البعيد القضاء على مبادئ أتاتورك العلماني ، وهو في نفس الوقت يدعو إلى عدم التعاون مع العناصر غير الإسلامية في تركيا ، وهو في نفس الوقت يعارض الشيوعية بعنف ، ويؤكد على أن أفضل طريق لانتشار المبادئ الإسلامية هو توفير الحياة الحرة للمواطن التركي .

ودعا أربكان إلى ضرورة تطوير علاقات تركيا مع العالم الإسلامي في المجالات كافة، حيث قال: (وأن لا تظل هذه العلاقات صورية، وإنما يجب أن تكون علاقات فعلية متطورة، حيث إن في العالم ما يقرب من خمسين دولة إسلامية يبلغ سكانها ملياراً، وهذه الدول الإسلامية سوق طبيعية قوية لإنتاجنا)[٢].

وعلى هذا الأساس ، فقد انتقد أربكان كل من الصهيونية والماسونية[٣] حيث قال في هذا المجال: " إن الصهيونية والماسونية حاولا عزل تركيا عن العالم الإسلامي، ومؤامراتهم مستمرة، ذلك أن المعركة بين الإسلام في تركيا والصهيونية قد اتخذت أشكالاً عدة وهي حرب طويلة المدى، ومستمرة منذ خمسة قرون، منذ فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية وعمل على فتح رومية، ولكن هذا الصراع في المائة سنة الأخيرة ، أخذ شكل مخطط أعد له سلفًا، فاستطاعت بعض القوى عام ١٨٣٩م أن تؤثر في جسم الدولة الفكري ، وتدخل القوانين الوضعية البعيدة

---

(١) يقظة الإسلام في تركيا، أنور الجندي، ص٣٠ .
(٢) المصدر نفسه، ص٣٠ .
(٣) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا ، د.النعيمي، ص١٤١ .

عن الإسلام بوساطة المنظمات اليهودية الماسونية، وقسم العمل اليهودي في تركيا إلى ثلاث مراحل مدتها ثلاثون سنة ، وهي عبارة عن تنفيذ فكرة ليتويود وهرتزل بإسقاط الدولة الإسلامية في تركيا ، أما المرحلة الثانية ، فقد استمرت عشرين سنة، وكان لإبعاد تركيا عن الإسلام ، ثم نشأ حزب الاتحاد والترقي ، وكانت له علاقة باليهود والماسونية ، ومن ثم استطاع إسقاط السلطان عبد الحميد ، وبدأ في إبعاد تركيا عن النمط الإسلامي وتغريبها بطرق عديدة أهمها العلمانية التي كانت تعني في تركيا بالتحديد اضطهاد المسلمين)[١].

وقد خاض حزب السلامة الوطني الانتخابات العامة لعام ١٩٧٣م حيث حصل على ٩,١١٪ من الأصوات ، أي بواقع ٢٤,١مليونًا من أصوات الناخبين ونتيجة لذلك فقد مثل نفسه في المجلس الوطني التركي بواقع ٤٥ مقعدًا[٢].

وقد أعلن أربكان عشية انتخابات ١٩٧٣م : " أننا سنعيد عهد الرسول ﷺ ، كما أعلن أربكان بعد الانتخابات أن شعار حزبه هو - المفتاح - وهذا ما سيؤهل للحزب فتح الطريق المغلقة أمامه ، ويكون مفتاح كل الحكومات الائتلافية "[٣].

ونتيجة لذلك فقد تكونت أول حكومة ائتلافية ، ضمت حزب الشعب الجمهوري ، وحزب السلامة الوطني ، وذلك في ٢٥ كانون الثاني ١٩٧٤م ، حيث ضمت الوزارة ثمانية عشر وزيرًا من أعضاء حزب الشعب الجمهوري، وسبعة أعضاء من حزب السلامة .

وبفضل الله تعالى ثم جهود حزب السلامة الوطني بقيادة أربكان ، مثلت تركيا ولأول مرة في آذار ١٩٧٤م في مؤتمر القمة الإسلامي ، وقد اختير وزير الداخلية التركي " وهو من حزب السلامة الوطني " في هذا المؤتمر .

---

(١) الصحوة الإسلامية منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمة على طريق الله، الجندي، ص١١٧ .

(٢) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د.النعيمي، ص١٤٢ .

(٣) المصدر نفسه، ص١٤٣ .

إن نشاط حزب السلامة الوطني خلال السبعينات أدى إلى خرق المظاهر العلمانية في تركيا ، حيث انتشرت بعض المظاهر الإسلامية في تركيا وخاصة في شهر رمضان ، كما تم التوسع في المدارس الإسلامية ، حيث سمح لها بتدريب الأئمة والوعاظ ، وأصبحت هذه المدارس تعلم حوالي ١٠٪ من الطلاب في المدارس الثانوية بما فيهم ٥٠,٠٠٠ من العنصر النسائي في تركيا ، وفي الحقيقة وصل التصويت الإسلامي بين ١٠٪ - ١٥٪ ، وقد اعتبر العلمانيون هذه النسبة بمثابة خطر على المدنية التركية[1] .

وبتأثير من حزب السلامة الوطني ، وطلاب النور في تركيا خرجت إلى حيز الوجود سلسلة " ألف كتاب " التي دعمتها وزارة التربية ، وتناولت هذه السلسلة الثقافية التركية بمعيار إسلامي وأخذ حزب السلامة يعمق المفاهيم الإسلامية في المجلس الوطني التركي الكبير وهاجمت الصحف الإسلامية في تركيا كمال أتاتورك وأطلقت عليه اسم " الدجال " . وضغط حزب السلامة الوطني على رئاسة الشئون الدينية حتى أصدرت بيانًا في حزيران ١٩٧٣م أكدت فيه على دعوة المرأة التركية إلى الحجاب .

وحينما سافر أربكان إلى السعودية عام ١٩٧٤م - وكان وقتئذ نائبًا لرئيس الوزراء - بدأ زيارته للكعبة ، وفي الرسالة التي كتبها للملك ، ذكر ما يلي : " إن معرفة الشعب والحجاج للمشاريع التي ستقام في المناطق الشرقية والجنوبية الشرقية بالقروض التي ستمنحونها لتركيا تعد من الأمور الهامة ، إن دعمكم لموقفي في تركيا سيفتح لتركيا مرحلة جديدة في العالم الإسلامي ، ومساعدتكم لنا في هذا المجال سوف تدعم هذه المرحلة "[2] .

واستطاع أربكان أن يمرر قانونًا في البرلمان يسمح بموجبه للأتراك السفر برًّا إلى الحج ، وكان ذلك ممنوعًا[3] .

---

(١) انظر : الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د . النعيمي ، ص١٤٥ .
(٢) الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا ، محمد مصطفى، ص٢٠٧ .
(٣) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د . النعيمي، ص١٤٧ .

لقد كانت خطوات حزب السلامة الوطنـي جريئة في المجتمع التركي ولذلك لم يتحمل الجيش التـركي خادم العلمانية في تركيا هذه الأعمـال الحميدة ولذلك تدخل الجيش بانقـلابه الذي قضى على التعـددية والحرية السياسـية في ١٢ أيلول ١٩٨٠م . وقد سبق هذا الانقلاب مظاهرات كبيرة في مدينة قونيا يوم ٦ أيلول ، ونادى المتظاهرون بتأسيس دولة إسـلامية ، وقام أنصار حزب السلامـة بالاستهزاء بكل ما يؤمن به أتاتورك والمؤسسة العسكرية . وقد هتف هؤلاء الذين جاءوا من جميع أنحاء البلاد بـالشعارات الدينية ، وطالبوا باستخدام الشـريعة الإسلامية في التعامل السياسي الداخلي ، ومنعوا عزف النشيد الوطني[١] .

واحتج المتظاهرون على ضم القدس ، ونادوا بقطع الـعلاقات مع إسرائيل ، ودعوة إسرائيل المناداة بالقدس الحـرة . كما دعى أربكان في هذه المظاهرة إلى بدء الصراع لأنهـا العقلية الغـربية الزائفة والتـي تحكم تركيا . وقـد كتب المتظاهرون الشـعارات باللـغة العـربيـة، وقام هؤلاء بحـرق العلم الصـهـيوني والأمـريكي والسوفيـتي ونادى المتظاهرون بشعار " الموت لليهـود " ولا سيما أن مـدينة قونيا تضم أعـدادًا من طائفـة اليـهـود والتي يبلغ عـددها ٢٠,٠٠٠ يهـودي ونادى المتظاهرون أيضًـا : " جاء دور القـانون الديني وانتهت الهـمجـية ، الشـريعة أو الموت ، إن الدولة الملحدة يجب أن تدمر ، وإن القـرآن هو دستورنا ، نريد دولة إسلامية بدون الحدود والطبقات "[٢] .

كانت شعبية حزب السلامة الوطني ترتقي ، لأنه التزم القضايا الإسلامية علنًا خصوصًا في العامين ١٩٧٩م ، ١٩٨٠م واضطر الحزب الجمهوري وحزب العدالة بإرضاء حـزب السلامة الوطني ، وقدمـا تنازلات للاتجاه الإسلامي ، طمـعًا في المساعدات الاقتصادية من الأقطار الإسلامية والحاجة الملحة إلى بترولها .

---

(١) المصدر نفسه، ص١٥١ .

(٢) الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا ، د . النعيمي ، ص١٥١ .

لم يستح قادة الجيش التركي بعد انقلابهم العسكري أن يقولوا بأن سبب تدخلهم من أجل وقف المد الإسلامي .

اتخذ الانقلابيون قرارًا بحظر جميع الأحزاب السياسية وحجز قادتها وتقديمهم للمحاكمة، وكان من الطبيعي أن يحاكم حزب السلامة الوطني وأن توجه التهم لزعيمه أربكان وزملائه المجاهدين وكانت كل التهم تدور حول حرص حزب السلامة على إعادة دولة الإسلام لتركيا والتخلص من الأفكار العلمانية والمبادئ الكمالية ، إن الغطرسة التركية العلمانية أعلنت بكل وقاحة على لسان الجنرال إيفرن رئيس أركان الجيش التركي بأن لها من القوة بحيث تستطيع أن تقطع لسان كل من يتهجم على أتاتورك[1] .

لقد استطاع حزب السلامة الوطني أن يدخل بعض التغييرات في السلوك السياسي الداخلي التركي ، من بين ذلك : تحقيق الأذان في الجوامع وباللغة العربية ، وفرض قراءة القرآن الكريم في محطات الإذاعة والتلفزيون ، وكان ذلك محرمًا منذ مجيء المفسد الكبير مصطفى كمال إلى الحكم .

لقد أصبح أربكان مع حزبه المجاهد معلمًا من معالم الحركة الإسلامية المعاصرة في تركيا، ولقد أثرت حركة حزب السلامة في الأوساط الإسلامية والطرق الصوفية والزوايا التقليدية ووجدت من التيار الإسلامي التقليدي من يناصرها ويقف بجانبها ويدعمها وحكمت المحكمة العسكرية الظالمة في عام ١٩٨٣ على المجاهد أربكان لمدة أربعة أعوام وعلى ٢٢ عضواً من أعضاء حزب السلامة الوطني بالسجن لمدد تصل إلى ثلاثة أعوام ونصف[2] .

وقام الجيش التركي بتسريح كل من تشم منه رائحة إسلامية وأعلن إيفرن في حملته التي استهدفت الإسلاميين داخل القوات المسلحة بأن هؤلاء المسلمين " كان هدفهم الوصول إلى المراتب العليا في القوات المسلحة ، ماذا سيحدث لو أنهم

(١) المصدر نفسه، ص١٥٠ . (٢) المصدر نفسه، ص١٥٦ .

أمسكوا بزمام الجيش ؟ "[١] وأضاف قائلاً : " قد يحولون البلاد إلى أي نوع من الأنظمة التي يريدون ، هل هذا نشاط ديني أم خيانة ؟ "[٢].

وبدأت القيادة العسكرية في تركيا تبحث عن حل لمشاكلها السياسية وإرضاء الضغوط الأوربية التي اتهمت تركيا بخرق حقوق الإنسان ويجب عليها إعادة الديمقراطية من جديد ، فشكلت لجان جديدة لصنع دستور للبلاد بحيث يعطي الرئيس التركي الحق في فرض حالة الطوارئ ، وحل البرلمان ، والدعوة إلى انتخابات جديدة ، وبذلك يكون باستطاعة العلمانيين قطع محاولات الإسلاميين المستمرة للقضاء على الدستور العلماني ، وعدلت القوانين بحيث تكون للقيادة العسكرية حق الاحتفاظ ببعض السيطرة على الحياة السياسية في تركيا .

وبعد إعلان الدستور الجديد في عام ١٩٨٢ تكونت أحزاب سياسية إسلامية وظهر حزب الرفاة وهو امتداد طبيعي لفكر السلامة الوطني وبدأت العناصر الإسلامية تتوافد على هذا الحزب الجديد والذي تعرض لمعارضة الجيش والضغط عليه لمنعه في دخول انتخابات عام ١٩٨٣م ، إلا أنه خاض الانتخابات وحصل على نسبة ٥٪ من الأصوات[٣].

إضافة إلى ذلك ، اشترك حزب الرفاة في انتخابات تشرين أول ١٩٨٧م ، حيث فاز ٧٫٠٦٪ من الأصوات[٤].

وبدأت الجماعات الإسلامية تتمحور حول حزب الرفاة وشرع حزب الرفاة في قيادة الحركة الإسلامية في كافة المدن التركية ، وحتى المحافظات الكبرى والقرى المتباعدة الأطراف ، وانتعشت الحركة الإسلامية مع استلام أوزال السلطة وهو المتعاطف مع الإسلام في تركيا خاصة وأن أعداداً كبيرة من قيادة حزبه – حزب الوطن الأم – من الوجوه الإسلامية المعروفة في تركيا ودخلت كوادر قيادية هامة

(١) المصدر نفسه، ص١٦٥ .
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٥ .
(٣) ، (٤) انظر: الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، ص١٧٩ .

من حزب السلامة المنحل إلى حـزب الوطن الأم الذي نجح في انتخابات ١٩٨٣م بأغلبيـة كبيـرة ، وشجعت حكومـة أوزال نشاط المساجـد والمدارس الدينية واهتم وزير الدولة المشرف على الشئون الدينيـة (كاظم أكصوي) بدورات تعليم القرآن الكريم والتي كانت في بداية الثمـانينات ٢٠٠ دورة رسمية ووصلت إلى ٣٠٠٠ دورة في عام ١٩٨٧م ونشطت الطرق الدينية ، وقام كـاظم أكصوي بجعل بعض المؤسسـات الدينية والبنوك مثل بنك الأوقـاف من أهم المراكز التي تغذي الحـركة الإسلامية في تركيا[١] .

واستـمر حزب الرفـاة في جهاده السلمي والتـوغل المتزن في أعمـاق الشعب المسلم التركي الذي لا تزال أعمال حزب السلامة في ذاكرته ووجدانه والتي أعادت للمجتمع التركي وجوده وحضوره الإسلامي واستطاع حزب الرفاة الذي هو امتداد لحزب السلامة في مارس ١٩٩٤م أن يتحصل على أهم وأكبر البلديات في تركيا ، وعلى فوزه بانتخابات ديسمبـر ١٩٩٥م كأكبر حزب في البلاد ، تسلم على إثرها السلطة في ائتلاف حكومي مع حـزب الطريق القويم في يونيو ١٩٩٦م[٢] وأصبح المجاهد الكبيـر نجم الدين أربكان رئيس الوزراء وقام بإصـلاحات اقتصـادية رائعة وارتفعت الرواتب في فـترة وجيزة ، وتقـدم مندفعًا كـالسهم نحو الدعوة لإقـامة سوق إسلامية مشتركة ورفض دخول تركيا السوق الأوربية المشتركة ، فكانت دعوة إلى قيام أمم إسـلامية متحـدة ، ومجلس إسلامي مشتـرك، وضرب ممثلو حزب الرفاة في البلديات وعلى مـستوى الدولة أروع الأمثلة في النزاهة والعـفة وطهارة اليد والمقدرة على التخطيط واهتمت مؤسسات الحزب بتقديم وتحسين أداء الخدمات للمواطنين وتعاطف الشعب التركي مع حزب الرفاة حتى كثير من المومسات أعطين أصواتهن لحـزب الرفاة الذي عـمل على إيجاد فـرص للعمل الشـريف لهن وترك بيوت الدعارة والفساد والرجوع إلى الله بالتوبة والمغفرة .

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص١٨٣ .

(٢) انظر: تحديات سياسية تواجه الحركة الإسلامية ، مصطفى الطحان، ص١١٨ .

ولقد عـالج ممثل الرفاة والذي تولى بلدية إسـتانبول مـشاكل العاصـمة بكل جدارة وتضـاعفت مـيزانية البلدية بعـد أن كانت دائمـًا تشتكي من العـجز المالي بسبب الاختلاس .

لم يرض اليهود والعلمانـيون عن هذه المكاسب العظيمة التي حققتـها الحركة الإسلاميـة في تركيا فدفـعوا قادة الجيش لممـارسة ضغوطهم علـى الأحزاب حتى قضوا على التحالف بين حزب الطريق القـويم وحزب الرفاة وتقدم حزب علماني متطرف مدعوم بقوة العسكر ورجال الاقتـصاد العلمانيين وقدموا حزب الرفاه إلى المحكمة الدستـورية التي حكمت بحل حزب الرفاة ومصـادرة أملاكه ١٩٩٧م ولا يزال الإسلاميون في تركيا يديرون صراعهم مع اليهود والعلمانيين وأعداء الإسلام بكل جدارة وشجاعة وذكاء وإني على يقين راسخ لا يتـزعزع أن الحركة الإسلامية في تركيا ستصل إلى الحكم وتطبق شرع الله بإذن الله ، لأن كل المؤشرات والسنن تقول بذلك .

وأختم التجربة الإسلامية في تركيـا بهذا الحوار للأستاذ والمجاهد الكبير الذي نخر أعمدة العلمانية في تركيا البـروفسور نجم الدين أربكان، سأله صحفي مسلم مشهور بقوله: إن المشاركة في العملية الانتـخابية أمر لا يجوز من الناحية الشرعية وهي مساهمـة في تقوية النظام الجاهلي الذي يعتمد مـثل هذه الأساليب .. فرد أربكان: وماذا نفـعل إذن ..؟ هل كان بإمكاننا أن نحقـق المكاسب الكبرى على صعيد الحريات الشخصيـة والعامة .. ونؤسس هذه المئات من المدارس الإسلامية ونرفع أصواتنا في البرلمان لـتعديل المواد الدستورية التي تحـدّ من الحريات الدينية ونعيد للناس ثقتـهم بأنفسهم وبدينهم ، ونحاصر الشر بأنواعـه حتى يكاد ينحسر عن بلادنا ، بغير هذه الوسائل التي ترفع من مستوى أداء الجميع أفرادًا وجماعات وتدفع الجميع لتحمل مسئولياتهم في إعادة البناء ..؟[1].

---

(١) انظر: تحديات سياسية تواجه الحركة الإسلامية ، ص٨٧ .

إن تجربة الحركات الإسلامية في السودان والأردن واليمن وتركيا من التجارب الرائدة المليئة بالدروس والعبر ولم تفرط هذه الحركات في ثوابت الدين؛ بل التزمت بها ولم تداهن أو تجامل في أمر الشريعة؛ بل ضغطت على حكومتها وعدلت دساتيرها بحيث جعلتها إسلامية كما حدث في السودان واليمن أو تقترب نحو تعاليم الإسلام كما حدث في تركيا ، وإن هذه الأعمال الجليلة التي قامت بها الحركات الإسلامية في بلدانها ومع حكوماتها لنوع من أنواع التمكين لهذا الدين.

* ■ *

■ الفصل الرابع ■
إقامة الدولة

تمهيد:

من أنواع التمكين التي ذكرت في القرآن الكريم وصول أهل التوحيد والإيمان الصحيح إلى سُدَّة الحكم وتوليهم لمقاليد الدولة ، لقد تحدث القرآن الكريم عن من قادوا دول وساسوا شعوب بشرع الله ، من أمثال داود وسليمان عليهما السلام والحاكم المؤمن والفاتح الصالح ، والقائد العادل (ذو القرنين) وجعلهم قدوة ومثلاً رائعًا لأهل الإيمان على مر الدهور وكر العصور وتوالي الأزمان ، وسلط القرآن الكريم الأضواء على جوانب هامة من أعمالهم وجهادهم العظيم الذي استهدفوا به التمكين لمثل عليا ، ومبادئ رفيعة ، وقيم سامية ، وأخلاق فاضلة انبثقت من الإيمان بالله واليوم الآخر ، بعيدة كل البعد عن الكبرياء الوطنية ، والأمجاد القومية ، والنزعات العرقية ، وتقديس التراب والزعماء ولم تكن فتوحاتهم وأعمالهم المجيدة تستهدف سيادة عسكرية أو مغانم اقتصادية ، أو تطلعات توسعية أو نزوات عنصرية التي يبعث عليه حب التسلط والرغبة في العلو .

إنما خاضوا حروبًا وقادوا جيوشًا استهدفت كرامة الإنسان وتخليصه من الشرك والأوهام والانحرافات العقدية ، وإزالة الظلم عن البشر وإقامة العدل ، ودعوة الناس إلى العقيدة الصحيحة ، والمنهج السليم ، والتصور الرباني .

وكان للنبي ﷺ والخلفاء من بعده حظًا وافرًا من هذا النوع من التمكين نحاول أن نسلط الأضواء في هذا الفصل على بعض معالمه ، وسنعرج على التاريخ الإسلامي القديم والحديث لنضرب بعض الأمثلة الحية بإذن الله تعالى لنستخرج الدروس والعبر من هذه الدراسة المتواضعة .

* ■ *

المبحث الأول
تمكين الله تعالى لداود وسليمان عليهما السلام

أولاً: داود عليه السلام :

يبدأ العصر الذهبي لبني إسرائيل مع ظهور داود عليه السلام في القتال عندما أكرمه الله تعالى بقتل جالوت وبين القرآن الكريم أن داود عليه السلام كان مجاهداً في جيش طالوت ، وممن نجحوا في الامتحان العسير الذي قرّر رئيس الجيش أن يخوضه جميع جنوده فسقط من سقط ونجح من نجح .

لقد رفع داود عليه السلام راية النصر وشرع في إعادة التمكين لبني إسرائيل بعد قتله لجالوت ، وكان إذ ذاك فتى ، وتم له الظفر ، فالتقت على محبته القلوب ، وتأكدت له أواصر الإخلاص ، وأصبح بين عشية وضحاها حديث بني إسرائيل ، يكنون له في نفوسهم الاحترام والمحبة والتوقير ، ومنذ ذلك الحين بدأ نجمه يصعد في السماء ويتنقل من ظفر إلى ظفر ، ويجيئه النصر يتبعه النصر ، حتى ولي الملك أخيراً ، وأصبح ذا سلطان وظهرت ملامح الحكم في زمنه في عدله وحكمه، وكان أوّابًا رجّاعًا إلى ربه بالطاعة والعبادة والذكر والاستغفار .

لقد كان منهج التغير في زمن داود عليه السلام هو الصراع المسلح بين قوى الخير والشر ، والإيمان والكفر ، والهدى والضلال ، وبالفعل تم دمغ الباطل وإضعافه ووصل بنو إسرائيل إلى قمة مجدهم وعزهم .

إن داود عليه السلام شدّ ملكه بالتسبيح والذكر والطاعة ، فكان عليه السلام يسبح بالعشي والإشراق وتجاوبت الجبال مع ذكره العذب الجميل وكذلك تجاوبت الطيور قال تعالى : ﴿**إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ**﴾ (سورة ص : ١٩) . فوهبه الله هبة عظمى ذكرها في كتابه عز وجل ﴿**وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ وَفَصْلَ الْخِطَابِ**﴾ (سورة ص ، آية : ٢٠) . الذي جعلنا له ملكًا كاملاً من جميع الملوك

العظماء، بحيث لا يتمكن منه أعداؤه لكثرة جيوشه ، وكثافة حراسه التي قيل إنهم كانوا ألوفًا كثيرة يتناوبون في حراسته ، ولم ينكسر له جيش في معركة أبدًا، فقد كان مؤيدًا بعون الله ونصره[1]. قال تعالى : ﴿ **اصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَاذْكُرْ عَبْدَنَا دَاوُودَ ذَا الْأَيْدِ إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ (ص: ١٧) .

أ- إن المتأمل في القرآن الكريم في قصة داود عليه السلام يتعرف على صفات الحاكم المؤمن الذي مكن الله له وهي تحقق للقائد المصلح كمال السعادة في الدنيا والآخرة .

ومن أهم هذه الصفات :

١- الصبر : فقد أمر الله تعالى نبينا محمد صلى الله عليه وسلم على جلالة قدره بأن يقتدي به في الصبر على طاعة الله .

٢- العبودية : فقد وصفه ربه بقوله (عبدنا) وعبر عن نفسه بصيغة الجميع للتعظيم ، والوصف بالعبودية لله غاية التشريف ، كوصف محمد صلى الله عليه وسلم بها ليلة المعراج : ﴿ **سُبْحَانَ الَّذِي أَسْرَىٰ بِعَبْدِهِ** ﴾ (الإسراء ، آية:١) .

وكان النبي صلى الله عليه وسلم إذا ذكر داود عليه السلام وحدث عنه بيَّن فضله واجتهاده في العبادة ، قال صلى الله عليه وسلم : " إن أحب الصيام إلى الله صيام داود . وأحب الصلاة إلى الله صلاة داود عليه السلام . كان ينام نصف الليل . ويقوم ثلثه وينام سدسه وكان يصوم يومًا ويفطر يومًا "[2] .

٣- القوة على أداء الطاعة والاحتراز عن المعاصي في قوله ﴿ **ذَا الْأَيْدِ** ﴾ .

٤- والرجّاع إلى الله بالطاعة في أموره كلها ، في قوله تعالى : ﴿ **إِنَّهُ أَوَّابٌ** ﴾ . وصف بالقوة على طاعة الله وبأنه أوّاب دليل على كمال معرفته بالله التي جعلته يجتهد في العبادة على نهج رباني صحيح .

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٥/ ١٦٢) .

(٢) مسلم ، كتاب الصيام، باب النهي عن صوم الدهر (٢/ ٨١٦) رقم ١٨٩ .

٥- تسبـيح الجبال والطيور مـعه : ﴿إِنَّا سَخَّرْنَا الْجِبَالَ مَعَهُ يُسَبِّحْنَ بِالْعَشِيِّ وَالإِشْرَاقِ ﴿١٨﴾ وَالطَّيْرَ مَحْشُورَةً كُلٌّ لَّهُ أَوَّابٌ﴾ (ص : ١٨ ، ١٩) .

أي إنه تعالى سخر الجبال تسبح معه عند إشراق الشمس وآخر النهار ، كما قال عز وجل : ﴿يَا جِبَالُ أَوِّبِي مَعَهُ وَالطَّيْرَ﴾ (سبأ : ١٠) .

قال ابن كثـير : " وكذلك الطير تسـبح بتسبيـحه وترجع بترجيـعه إذا مرّ به الطير ، وهو سابح في الهـواء ، فسمعه ، وهو يتـرنم بقراءة الزبور ، لا يستطيع الذهاب ، بل يقف في الهواء ويسبح معه وتجيبه الجبال الشامخات ، ترّجع معه ، وتسبح تبعًا له "(١) .

٦- قـوة الملك : ﴿وَشَدَدْنَا مُلْكَهُ﴾ (ص : ٢٠) . أي قـوينا ملكه بالجند أو الحرس ، وجعلنا له ملكًا كاملاً من جميع ما يحتاج إليه الملوك .

٧- الحكمة : ﴿وَآتَيْنَاهُ الْحِكْمَةَ﴾ (ص : ٢٠) . أعطيناه الفهم والعقل والفطنة ، والعِلم ، والعدل ، وإتقان العمل ، والحكم بالصواب .

٨- حسن الفـصل في الخصـومات : ﴿وَفَصْلَ الْخِطَابِ﴾ (ص : ٢٠) . أي وألهمناه حسن الفصل في القضاء بإحـقاق الحق وإبطال الباطل ، وإيجاز البيان ، بجعل المعنى الكثير في اللفظ القليل(٢) .

وكان من الطبيعي فـي سنن الله تعالى أن يتعرض داود عليه السلام للفتنة والابتلاء وكـانت عين الله ترعاه ، وتقـود خطاه وكـانت يد الله معـه تكشف له ضـعفـه وخطأه ، وتحميه من خطر الطريق وتعلمه كيف يتوقاه : قال تعالى : ﴿وَهَلْ أَتَاكَ نَبَأُ الْخَصْمِ إِذْ تَسَوَّرُوا الْمِحْرَابَ ﴿٢١﴾ إِذْ دَخَلُوا عَلَىٰ دَاوُودَ فَفَزِعَ مِنْهُمْ قَالُوا لا تَخَفْ خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ فَاحْكُم بَيْنَنَا بِالْحَقِّ وَلا تُشْطِطْ وَاهْدِنَا إِلَىٰ سَوَاءِ الصِّرَاطِ ﴿٢٢﴾ إِنَّ هَذَا أَخِي لَهُ تِسْعٌ وَتِسْعُونَ نَعْجَةً وَلِيَ نَعْجَةٌ وَاحِدَةٌ فَقَالَ أَكْفِلْنِيهَا وَعَزَّنِي فِي

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٩) .
(٢) انظر : تفسير المنير وهبة الزجيلي (٢٣/ ١٨٣، ١٨٤، ١٨٥) .

الْخطَاب ﴿٢٣﴾ قَالَ لَقَدْ ظَلَمَكَ بِسُؤَالِ نَعْجَتِكَ إِلَىٰ نِعَاجِهِ وَإِنَّ كَثِيراً مِنَ الْخُلَطَاءِ لَيَبْغِي بَعْضُهُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَقَلِيلٌ مَّا هُمْ وَظَنَّ دَاوُودُ أَنَّمَا فَتَنَّاهُ فَاسْتَغْفَرَ رَبَّهُ وَخَرَّ رَاكِعًا وَأَنَابَ﴾ (ص : ٢١ - ٢٤) .

وبيان هذه الفتنة أن داود النبي الملك ، كان يخصص بعض وقته للتصرف في شئون الملك ، وللقضاء بين الناس ويخصص البعض الآخر للخلوة والعبادة وترتيل أناشيده تسبيحًا لله في المحراب ، وكان إذا دخل المحراب للعبادة والخلوة لم يدخل إليه حتى يخرج إلى الناس .

وفي ذات يوم فوجئ بشخصان يَتَسوّران المحراب المُغلق عليه فـفزع منهم : (قالوا : لا تخف نحن خصمان بغى بعضنا على بعض ، وجئنا للتقاضي أمامك، ونطلب منك أن تحكم بالحق والعدل وتبتعد عن الشطط وتدلنا على الصواب، وبدأ أحدهما فعرض خصومته بطريقة توحي بأن أحدهما وقع في ظلم صارخ، فاندفع داود عليه السلام دون السماع إلى حجة الخصم الآخر وأصدر حكمه، وبعد الانتهاء من إصدار الحكم تنبه داود عليه السلام بأنه لم يتثبت ، فربما كان صاحب النعجة الواحدة هو الظالم ، فأيقن إنما الحادثة اختبار من الله تعالى فرجع إلى طبيعته واستغفر ربه وخرّ راكعًا وأناب[(١)] لقد خاضت بعض التفاسير في هذه الحادثة بسبب التأثر بالإسرائيليات ونسبت لداود عليه السلام ما يتنافى مع عصمته .

إن علماء أهل السنة يجمعون على أن الأنبياء معصومون عن الكبائر[(٢)] .

وقد ذكر العلامة السعدي - رحمه الله - فوائد عظيمة وحكم جزيلة من قصة داود عليه السلام فقال :

١- ومنها أي من الفوائد: اعتناء الله تعالى بأنبيائه وأصفيائه عندما يقع منهم بعض الخلل بفتنتهم إياه، وابتلاؤهم بما به يزول عنهم المحذور ، ويعودون إلى أكمل من حالتهم الأولى ، كما جرى لداود عليه السلام .

(١) انظر: قصص الرحمن في ظلال القرآن (٤/ ٣٥،٣٦) .
(٢) انظر: تفسير المنير (٢٣/ ١٩٠) .

٢- ومنها : أن الأنبياء معصومون من الخطأ فيما يبلغون عن الله تعالى ، لأن مقصود الرسالة لا يحصل إلا بذلك .

٣- ومنها أن داود عليه السلام كان في أغلب أحواله ملازمًا محرابه، لخدمة ربه، ولهذا تسور الخصمان عليه المحراب، لأنه كان إذا خلا في محرابه، لا يأتيه أحد. فلم يجعل كل وقته للناس مع كثرة ما يرد عليه من الأحكام . بل جعل له وقتًا ، يخلو فيه بربه، وتقر عينه بعبادته، وتعينه على الإخلاص في جميع أموره .

٤- ومنها : أنه ينبغي استعمال الأدب ، في الدخول على الحكام وغيرهم . فإن الخصمين ، لما دخلا على داود، في حالة غير معتادة ، ومن غير الباب المعهود ، فزع منهم واشتد عليه ذلك ، ورآه غير لائق بالحال .

٥- أنه لا يمنع الحاكم من الحكم بالحق سوء أدب الخصم وفعله ما لا ينبغي.

٦- ومنها : كمال حلم داود عليه السلام ، فإنه ما غضب عليهما ، حين جاءاه بغير استئذان ، وهو الملك ، ولا انتهرهما، ولا وبخهما .

٧- ومنها جواز قول المظلوم لمن ظلمه " أنت ظلمتني " أو يا ظالم أو باغ عليَّ ونحو ذلك لقولهما : ﴿خَصْمَانِ بَغَىٰ بَعْضُنَا عَلَىٰ بَعْضٍ﴾ .

٨- ومنها : أن الموعوظ والمنصوح ولو كان كبير القدر ، جليل العلم ، إذا نصحه أحد ، أو وعظه ، لا يغضب، ولا يشمئز ، بل يبادره بالقبول والشكر .

٩- ومنها : أن المخالطة بين الأقارب والأصحاب ، وكثرة التعلقات الدنيوية المالية ، موجبة للتعادي بينهم ، وبغي بعضهم على بعض ، وأنّه لا يرد عن ذلك، إلا استعمال تقوى الله ، والصبر على الأمور بالإيمان والعمل الصالح .

١٠- ومنها : أن الاستغفار والعبادة خصوصًا الصلاة ، مكفرات للذنوب ، فإن الله رتب مغفرة ذنب داود ، على استغفاره وسجوده[1] .

---

(١) انظر: تفسير السعدي الذي اختصر في مجلد ص ٥٥٩، ٦٦٠ .

ب- استخلاف الله تعالى لداود عليه السلام :

قال تعالى : ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾ (ص : ٢٦) .

خاطب الله تعالى داود عليه السلام بأن جعله حاكمًا بين الناس في الأرض ، فله الحكم والسلطة ، وعليهم السمع والطاعة . ثم بين الله تعالى له قواعد الحكم تعليمًا لغيره من الناس :

١- ﴿**فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ**﴾ أي فاقض بين الناس بالعدل الذي قامت به السموات والأرض . وهذه أولى وأهم قواعد الحكم .

٢- ﴿**وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ**﴾ أي لا تمل في الحكم مع أهواء نفسك أو بسبب مطامع الدنيا ، فإن اتباع الهوى مزلقة ومدعاة إلى النار ، لذا قال : ﴿**فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ أي إن اتباع الهوى سبب في الوقوع في الضلال والانحراف عن جادة الحق، وعاقبته الخذلان، قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾ .

أي إن الذين يتنكبون طريق الحق والعدل ، لهم عقاب شديد يوم القيامة والحساب الأخروي ، بسبب نسيانهم أهوال ذلك اليوم، وما فيه من حساب شديد دقيق لكل إنسان ، وبسبب تركهم العمل لذلك اليوم ، ومنه القضاء بالعدل .

والعبرة من هذا الموضوع : الوصية من الله عز وجل لولاة الأمور أن يحكموا بين الناس بالحق ، ولا يحيدوا عنه ، فيضلوا عن سبيل الله ، وقد توعد الله من ضل عن سبيله وتناسى يوم الحساب بالوعيد الأكيد والحساب الشديد[1].

إن الآية الكريمة تبين أن الحكم بين الناس ، مرتبة دينية ، تولاها رسل الله ،

---

(١) انظر: تفسير المنير (٢٣/ ١٨٨) .

وخواص خلقه . وأن وظيفة القائم بهـا الحكم بالحق ، ومجانبة الهوى ، فالحكم بالحق يقتضي العلم بالأمور الشرعية ، والعلم بصورة القضية المحكوم بها، وكيفية إدخالها في الحكم الشرعي ، فالجاهل بأحد الأمرين لا يصلح للحكم ، ولا يحل له الإقدام عليه ، وتبين كذلك أن الحاكم ينبغي له أن يحذر الهوى ، ويجعله منه على بال ، فـإن النفـوس لا تخلو مـنه ؛ بل يجـاهد نفـسـه ، بأن يكون الحق مقصوده[1] .

ج- هبة من الله تعالى مباركة وفتح وإلهام :

إن داود عليه السلام كان له كثير من الأبناء والأولاد إلا أن الله خصه بالابن الصالح النبي الملك سليـمان عليه السلام ، وأثنى الله عليـه في كتـابه بكونه أواب إلى الله عـز وجل، كثير الطاعة والعبـادة والإنابة إلى الله عز وجل في أكثر الأوقات ومن مزيد فضل الله على عبده داود أن وهبه سليمان الذي ورث عن أبيه الملك والنبوة.

قال تعالى : **﴿وَوَهَبْنَا لِدَاوُودَ سُلَيْمَانَ نِعْمَ الْعَبْدُ إِنَّهُ أَوَّابٌ﴾** (ص : ٣٠) .

لقد أكـرم الله تعالى سليـمان عليه السلام بالملك والنبـوة وأعطاه الفهم الثـاقب ، والرأي السديد ، ورجاحة العقل .

ومما يدلنا على ذلك قوله تعالى : **﴿وَدَاوُودَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ ﴿٧٨﴾ فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلًّا آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾** (الأنبياء : ٧٨، ٧٩) .

إن الآيات الكريمة تبين قصـة زرع رعته ليلاً غنم لآخرين ، وكـان الله عليمًا شاهدًا بما حكم بـه داود وسليمان ، لا تخـفى عليه خافـية ، ولكنه تعـالى أفهم سليمان القضـية والحكمة والفتوى الصحيحـة الراجحة فكان رأيه هو الأصوب ، مع أنه سبحـانه آتى كلا من داود وسليمـان النبوة وحسن الفصل في الخـصومات

(١) انظر: تفسير السعدي الذي جمع في مجلد واحد ص٦٦٠ .

والعلم والفهم والإدراك السليم للأمور ، مما يدل على إقرار الحكمين في الجملة ، وعلى أن خطأ المجتهد لا يقدح فيه ، وإن كان الصواب واحدًا ، وهو ما قضى به سليمان ، ودل قوله : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ على إظهار ما تفضل الله عليه به في صغره[1] .

لقد استنبط العلماء من هذه الآيات كثيرًا من المسائل المهمة نذكر بعضها:

١- في هذه الآية دليل على جواز رجوع القاضي عما حكم به ، إذا تبين له أن الحق في غيره ، فقد رجع داود إلى حكم سليمان عليهما السلام .

٢- يرأى كثير من الفقهاء أن الحق واحد في أقوال المجتهدين ،وليس الحق أو الصواب في جميع أقوالهم ، بدليل قوله تعالى : ﴿فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ﴾ فخص سليمان بالفهم ، ولو كان الكل مصيبًا لم يكن لتخصيص سليمان عليه السلام بهذا التفهيم فائدة[2] .

د - ابتكار في صناعة الأسلحة :

قال تعالى : ﴿وَعَلَّمْنَاهُ صَنْعَةَ لَبُوسٍ لَّكُمْ لِتُحْصِنَكُم مِّنْ بَأْسِكُمْ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ﴾ (سورة الأنبياء : ٨٠) .

كان داود عليه السلام أول من اتخذ الدروع وصنعها ، وتعلمها الناس منه ، وإنما كانت صفائح ، فهو أول من سردها وحلقها ، فأصبحت النعمة عليه نعمة على جميع المحاربين على الدوام أبد الدهر ، فلزمهم شكر الله تعالى على النعمة .

وذلك يقتضي الشكر ، لذا قال تعالى : ﴿ فَهَلْ أَنتُمْ شَاكِرُونَ ﴾ أي على تيسير نعمة الدروع لكم ، وأن تطيعوا رسول الله صلى الله عليه وسلم فيما أمر به . والمراد : اشكروا الله على ما يسر عليكم من هذه النعمة .

---

(١) انظر : تفسير المنير (١٧/ ١٠٦) .

(٢) المصدر نفسه (١٧/ ١٠٥) .

وهذه الآية دليل على جواز اتخاذ الصنائع والأسـباب ، فالسبب سنة الله في خلقه ، وهي شـهادة للعمـال وأهل الحرف والصنائع بأن العمل شـرف ، واتخاذ الحرفـة كرامـة ، وهذه الآية فـيهـا إشارة لحث أهل الإيمان على العـمل والإبداع والأخذ بأسباب النصر على الأعداء ، ومحاربة الفساد بإعداد الجيوش مقودة بقيم الإيمان وتعاليم الرحمن ، وشريعة الديان .

قوله تعالى : **﴿وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ (١٠) أَنِ اعْمَلْ سَابِغَاتٍ وَقَدِّرْ فِي السَّرْدِ وَاعْمَلُوا صَالِحًا إِنِّي بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ﴾** (سبأ : ١٠، ١١) .

وكانت هذه هبـة الله فوق الملك والسلطان ، مع النـبوة والاستـخلاص . إن الله تعالى أنعم على عـبده داود بتسـييل الحديد له أو تعليـمه كيف يسـيل الحديد الذي هو مادة الإعـمار والبناء والتـصنيع ، ولا شك في خطورة مـادة الحديد في صناعة الحضارات وبناء الدول وفي حسم انتصارات الجيوش .

يقول الدكتور عمـاد الدين خليل : وفي سورة الحديد نقرأ هذه الآية : **﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾** (سورة الحديد : ٢٥) . سورة الحديد ؟ هل ثمة أكثر دلالة على ارتباط المسلم بالأرض من تسمية سـورة كاملة باسم خام من أهم وأخطر خاماتها ؟ هل ثمـة أكثر إقناعًا لنزعة التحضير والإبداع والبناء ، التي جاء الإسلام لكي يجعلها جزءًا أساسيًّا من أخلاقـيات الإيمان وسلوكـياته في قلب العـالم ، من هذه الآية التي تعـرض خام الحديد كنعمـة كبيرة أنزلها الله لعبـاده ، وتعرض معها المسألة في طرفـيها اللذين يتمخضـان دومًا عن الحديد (البأس الشديد) مـتمثلاً باستخـدام الحديد كأساس للتسلح والإعـداد العسكري ، و (المنافع) التي يمكن أن يحظى بهـا الإنسان من هذه المادة الخام في كـافة مـجالات نشاطه وبـنائه (السلميّ) ؟ وهل ثمة حـاجة للتأكيد على الأهمية المتـزايدة للحديد بمرور الزمن ، في مسائل السلم والحرب ،

وأنه غدا في عصرنا الراهن هذا وسيلة من أهم الوسائل في ميادين القوى الدولية سلمًا وحربًا ؟ .

إن الدولة المعاصرة التي تملك خام الحديد تستطيع أن ترهب أعداءها بما يتيحه لها هذا الخام من مقدرة على التسلح الثقيل . . وتستطيع - أيضًا - أن تخطو خطوات واسعة لكي تقف في مصاف الدول الصناعية العظمى التي يشكل الحديد العمود الفقري لصناعاتها وغناها ؟)[1] .

إن الله سبحانه وتعالى منح الحديد لداود عليه السلام ، وعلمه كيف يلينه ، لأن الفائدة تتحقق بوجود الخام والقدرة على تشكيله ، ولا شك أن ذلك ساعد على بناء حضارة عظيمة جمعت بين المنهج الرباني والتطور العمراني والصناعي . . . إلخ .

وإذا تأملنا في آية الحديد نجد تداخلاً عميقًا وارتباطًا وثيقًا بين آية الحديد ، وإرسال الرسل وإنزال الكتب معهم ، وإقامة الموازين الدقيقة لنشر العدل بين الناس ، وبين إنزال الحديد الذي يحمل في طياته (البأس) ، ثم التأكيد على أن هذا كله إنما يجيء لكي يعلم الله ﴿**مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ**﴾ و ﴿**إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ**﴾ .

إن المسلم الرباني لن تحميه بعد قدرة الله إلا يده المؤمنة التي تعرف كيف تبحث عن الحديد وتشكله وتستخدمه من أجل حماية العقيدة والتقدم بهذا الدين، وتحقيق النصر للمؤمنين ، وإقامة دولة تحكمها شريعة رب العالمين ، إن قول الله تعالى : ﴿**وَأَلَنَّا لَهُ الْحَدِيدَ**﴾ فيه إشارة إلى أهمية هذا الخام وتوظيفه لخدمة الإسلام .

ثانيًا: فقه التمكين عند سليمان :

تسلّم سليمان عليه السلام قيادة الدولة القوية التي أسست على الإيمان والتوحيد وتقوى الله تعالى ، لقد أوتي سليمان عليه السلام الملك الواسع والسلطان العظيم بحيث لم يؤت أحد مثلما أوتي ، ولكنه أعطي قبل ذلك عطاء أعظم وأكرم ، هيأه لأن

---

(١) التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص٢٢١، ٢٢٢ .

يكون شخصية فريدة متميزة في التاريخ ، لقد أعطي النبوة ، ومُنح العلم وأوتي الحكمة ، وذلك مثلما أعطى أبوه من قبل . قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ عِلْمًا وَقَالا الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي فَضَّلَنَا عَلَىٰ كَثِيرٍ مِّنْ عِبَادِهِ الْمُؤْمِنِينَ (١٥) وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (سورة النمل:١٥، ١٦) .

إن سليمان عليه السلام لم يرث عن أبيه مالاً أو دارًا أو عقارًا، وإنما ورث عنه العلم والحكمة وورث النبوة والحكم وأعطاه الله تعالى نعمًا وهبات خاصة به لم يعطها أحدًا بعده فقد سأل الله عز وجل أن يخصه بعطاء لا يصل إليه أحد وقال: ﴿رَبِّ اغْفِرْ لِي وَهَبْ لِي مُلْكًا لاَّ يَنبَغِي لأَحَدٍ مِّنْ بَعْدِي إِنَّكَ أَنتَ الْوَهَّابُ﴾ (ص : ٣٥) . يعني: أعطني ملكًا لا يكون لأحد من البشر من بعدي مثله[1] .

وإننا - ونحن نمضي مع ما يحكيه القرآن عن سليمان عليه السلام ، فإننا نعيش مع أنصع الصفحات المشرقة عن عصور بني إسرائيل الذهبية أيام كانوا على الدين الصحيح .

يحدثنا القرآن أنه عليه السلام أقام مملكته على أسس من الإيمان بالله والإسلام له ، ولهذا اعتبر سليمان مُلكه مفخرة عن ملك بلقيس ليس لامتداده وسعته وتفوقه فحسب ، ولكن لأن ملك سليمان قام على العلم وأسس على الإيمان فقال : ﴿وَأُوتِينَا الْعِلْمَ مِن قَبْلِهَا وَكُنَّا مُسْلِمِينَ (٤٢) وَصَدَّهَا مَا كَانَت تَّعْبُدُ مِن دُونِ اللَّهِ إِنَّهَا كَانَتْ مِن قَوْمٍ كَافِرِينَ﴾ (سورة النمل : ٤٢، ٤٣) .

وإننا لنلمح من خلال القرآن أن دولة سليمان عليه السلام كانت مفعمة بالحيوية ، مائجة بالحركة ، وكان عليه السلام قائمًا بواجب العبودية إلى جانب القيام بمهام الملك ومسئوليات الحكام وإعمار الدنيا بطاعة الله ، حتى دانت له الأرض جميعًا وجاء

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٤٠) .

على المعمورة وقت لم يكن فيها لسليمان ندٌّ منازع في الحكم والملك ولا شبيه مماثل في العلم والحكمة .

لقد تحدثت الآيات الكريمة عن صفات وأحوال سليمان الحكيم، فهي صفات وأحوال تحكي مواقف حاكم مسئول عن إدارة شئون الأرض، لما عليها من مخلوقات، فهل كانت هذه المسئوليات الهائلة التي لا تكاد تتصور في عصرنا، هل كانت عقبة أمام سليمان في سلك المنهاج القيم للحكم ، والطريق الناجح في الإدارة ؟ بالقطع لا . بل كان عليه السلام يدير هذه المملكة الشاسعة أحسن ما يدير الفرد شئونه مع أسرته في بيته الصغير .

ومن خلال هذا السياق القرآني لسيرة سيدنا سليمان عليه السلام نستخلص دروس وعبر في كيفية المحافظة على دولة الإيمان وما وظائفها في الحياة ، وما هي وسائل قوتها؟ .

إن قصة سليمان عليه السلام وردت في القرآن الكريم في ثلاثة مواضع ، في سورة النمل وص وسبأ ، وكانت الآيات الكريمة في سورة النمل تتحدث عن حلقة من حلقات حياة سليمان عليه السلام : حلقة قصته مع الهدهد وملكة سبأ . يمهد لها السياق القرآني بما يعلنه سليمان على الناس من تعليم الله له منطق الطير ، وإعطائه من كل شيء ، وشكره لله على فضله المبين . ثم مشهد موكبه من الجن والإنس ، والطير ، وتحذير نملة لقومها من هذا الموكب ، وإدراك سليمان لمقالة النملة وشكره لربه على فضله ، وإدراكه أن النعمة ابتلاء ، وطلبه من ربه أن يجمعه على الشكر والنجاح في هذا الابتلاء . لقد أشارت الآيات الكريمة إلى بداية التمكين ، ومظاهر التمكين ، وكيفية المحافظة على التمكين ، وصفات القيادة الربانية الممكن لها :

أ- بداية التمكين :

بدأ التمكين بتلك الإشارة : ﴿وَلَقَدْ آتَيْنَا دَاوُودَ مِنَّا فَضْلاً﴾ وقبل أن تنتهي

الآية يجيء شكر داود وسليمان على هذه النعمة ، وإعلان قيمتها وقدرها العظيم، فتبرز قيمة العلم ، وعظمة المنة به من الله على العباد، وتفضيل من يؤتاه على كثير من عباد الله المؤمنين ، ولا يذكر هنا نوع العلم وموضوعه؛ لأن جنس العلم هو المقصود بالإبراز والإظهار . وللإيحاء بأن العلم كله هبة من الله، وبأن اللائق بكل ذي علم أن يعرف مصدره، وأن يتوجه إلى الله بالحمد عليه ، وأن ينفقه فيما يرضي الله الذي أنعم به وأعطاه . فلا يكون العلم مُبعدًا لصاحبه عن الله ، ولا منسيًّا له إياه ، وهو بعض مننه وعطاياه وبعد الإشارة إلى الإنعام بمنة العلم على داود وسليمان ، وحمدهما لله ربهما على منته وعرفانهما بقدرها وقيمتها يفرد سليمان بالحديث : ﴿**وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ**﴾ (سورة النمل ، آية : ١٦) .

ب- مظاهر التمكين في دولة سليمان عليه السلام :

إن الله تعالى أنعم على عبده داود عليه السلام بالنبوة والملك ، ثم ورثه ابنه سليمان عليه السلام ومكن الله له من الملك والدولة وأعطاه من النعائم ومظاهر الملك والعز والسلطة بحيث لا ينبغي لأحد من بعده أن يصل إلى ما وصل إليه قال تعالى : ﴿**وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ ﴿١٢﴾ يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ**﴾ (سورة سبأ ، آية : ١٢ ، ١٣) .

ومن خلال الآيات السابقة في سورة النمل وهذه الآيات التي في سورة سبأ يمكننا أن نلخص مظاهر التمكين لسليمان عليه السلام في الآتي :

١- ورّثه الله الملك عن أبيه كما أعطاه النبوة ، فكان ملكًا جمع الشرفين : النبوة والملك .

٢- علّمه الله منطق الطير وأعطاه قدرة التحدث مع مخلوقات الله مثل النمل قال تعالى : ﴿وَوَرِثَ سُلَيْمَانُ دَاوُدَ وَقَالَ يَا أَيُّهَا النَّاسُ عُلِّمْنَا مَنطِقَ الطَّيْرِ وَأُوتِينَا مِن كُلِّ شَيْءٍ إِنَّ هَذَا لَهُوَ الْفَضْلُ الْمُبِينُ﴾ (سورة النمل، الآية : ١٦) .

وقال تعالى: ﴿حَتَّىٰ إِذَا أَتَوْا عَلَىٰ وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ (١٨) فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (سورة النمل ، الآية : ١٦، ١٧) .

٣- أتاه الله الحكمة على حداثة سنه ، ويشهد لذلك ما أوردنا من بعض القصص التي حكم فيها بحكم أقره القرآن الكريم عليه ، قال تعالى : ﴿ وَدَاوُدَ وَسُلَيْمَانَ إِذْ يَحْكُمَانِ فِي الْحَرْثِ إِذْ نَفَشَتْ فِيهِ غَنَمُ الْقَوْمِ وَكُنَّا لِحُكْمِهِمْ شَاهِدِينَ (٧٨) فَفَهَّمْنَاهَا سُلَيْمَانَ وَكُلاًّ آتَيْنَا حُكْمًا وَعِلْمًا﴾ (سورة الأنبياء : ٧٨) .

٤- سخر الله تعالى له الريح فكانت تنقله إلى أي أطراف الدنيا شاء ، وتقطع به المسافات الشاسعة البعيدة في ساعات معدودات قال تعالى : ﴿وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ﴾ (سورة سبأ : ١٢) . (والمعنى أنها تقطع به من الصباح إلى الظهر مسيرة شهر ، ومن الظهر إلى المساء مسيرة شهر ، فتقطع به في النهار الواحد مسيرة شهرين ، وفق مصلحة تحصل من غدوها ورواحها ، يدركها سليمان ، ويحققها أمر الله . . .)[1] .

٥- سخر الله تعالى له الجن ومردة الشياطين ، يغوصون له في البحار لاستخراج الجواهر واللآلئ ، ويعملون له الأعمال التي يعجز عنها البشر كبناء القصور العالية والمحاريب في أماكن العبادة ، والتماثيل الصور من نحاس وخشب وغيره . والجوابي جمع جابية وهي الحوض الذي نجبي به الماء ، وقد كانت الجن

---

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٨٩٨) .

تصنع لسليمان جفانًا كبيرة للطعام تشبه الجوابي ، وتصنع له قدورًا ضخمة للطبخ راسية لضخامتها قال تعالى : ﴿ وَلِسُلَيْمَانَ الرِّيحَ غُدُوُّهَا شَهْرٌ وَرَوَاحُهَا شَهْرٌ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ وَمِنَ الْجِنِّ مَن يَعْمَلُ بَيْنَ يَدَيْهِ بِإِذْنِ رَبِّهِ وَمَن يَزِغْ مِنْهُمْ عَنْ أَمْرِنَا نُذِقْهُ مِنْ عَذَابِ السَّعِيرِ (١٢) يَعْمَلُونَ لَهُ مَا يَشَاءُ مِن مَّحَارِيبَ وَتَمَاثِيلَ وَجِفَانٍ كَالْجَوَابِ وَقُدُورٍ رَّاسِيَاتٍ اعْمَلُوا آلَ دَاوُودَ شُكْرًا وَقَلِيلٌ مِّنْ عِبَادِيَ الشَّكُورُ﴾ (سورة سبأ ، آية : ١٢) .

٦- أسال الله له عين القطر - وهو النحاس المذاب - فكان النحاس يتدفق له مذابًا من عين خاصة كتدفق الماء، فيصنع منه ما شاء ، قال تعالى : ﴿ وَأَسَلْنَا لَهُ عَيْنَ الْقِطْرِ ﴾ (سورة سبأ ، الآية : ١٢) .

وكان النحاس وقتها عنصر الحضارة ومادة التقدم ومظهر الأبهة والعظمة في الجيوش والحراسات والبنايات. وظل سليمان عليه السلام - الملك الجاد - يسعى في إعمار الدنيا بطاعة الله ، حتى دانت له الأرض جميعًا، وجاء على المعمورة وقت لم يكن فيها لسليمان ندٌّ في الحكم والملك ولا شبيه مماثل في العلم والحكمة[١] .

٧- كان جنده مؤلفًا من الإنس والجن والطير ، وقد نظم لهم أعمالهم ورتب لهم شئونهم ، فإذا خرج خرجوا معه في موكب حافل ، يحيط به الجند والخدم من كل جانب ، فالإنس والجن يسيرون معه في موكب حافل ، والطير تظله بأجنحتها من الحر والشمس[٢] .

هذه هي أبرز مظاهر التمكين في زمن حكم سليمان عليه السلام ويظهر إكرام الله له في قوله تعالى : ﴿هَذَا عَطَاؤُنَا فَامْنُنْ أَوْ أَمْسِكْ بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (ص : ٣٩) .

وذلك زيادة في الإكرام والمنة . ثم زاد على هذا كله أن له عند ربه قُربى في الدنيا وحسن مآب في الآخرة : ﴿وَإِنَّ لَهُ عِندَنَا لَزُلْفَىٰ وَحُسْنَ مَآبٍ﴾ (ص : ٤٠) .

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٥٨٧) .
(٢) انظر: دعوة سليمان عليه السلام ص ٥٥، ٥٦ .

جـ - فقه سليمان عليه السلام في إدارة الدولة :

إن القصص القرآني في سيرة سليمان عليه السلام أشار إلى أساليبه في إدارة الدولة والمحافظة على التمكين وأهم هذا الفقه يظهر في النقاط الآتية :

١- دوام المباشرة لأحوال الرعية ، وتفقد أمورها ، والتماس الإحاطة بجوانب الخلل في أفرادها وجماعاتها ، فهذا كان حال سليمان عليه السلام : ﴿ **وَتَفَقَّدَ الطَّيْرَ** ﴾ وذلك بحسب ما تقتضيه العناية بأمور الملك ، والاهتمام بكل جزء فيه ، والرعاية بكل واحدة فيها وخاصة الضعفاء[١] .

ولا شك أن القيادة تحتاج إلى لجان ومؤسسات وأجهزة حتى تستطيع أن تقوم بهذه المهمة العظيمة ، إن سليمان عليه السلام كان مهتمًّا بمتابعة الجند وأصحاب الأعمال وخاصة إذا راب شيء في أحوالهم ، فسليمان عليه السلام ، لما لم ير الهدهد بادر بالسؤال ﴿**مَا لِيَ لا أَرَى الْهُدْهُدَ**﴾ يعني (أهو غائب ؟ كأنه يسأل عن صحة ما لاح له)[٢] ثم قال ﴿ **أَمْ كَانَ مِنَ الْغَائِبِينَ**﴾ سؤال آخر ينم عن حزم في السؤال بعد الترفق ، فسليمان عليه السلام أراد أن يفهم منه أنه يسأل عن الغائب لا عن شفقة فقط ولكن عن جد وشدة ، إذا لم يكن الغيب بعذر[٣] .

٢- لا بد للدولة من قوانين حتى تضبط الأمور بحيث يعاقب المسيء ، ويحسن للمحسن ، ولابد من مراعاة التدرج في تقرير العقوبة ، وأن تكون على قدر الخطأ وحجم الجرم ، وهذا عين العدالة ، ولهذا لم يقطع سليمان عليه السلام بقرار واحد في العقاب عند ثبوت الخطأ ؛ بل جعله متوقفًا على حجم الخطأ : ﴿**لأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لأَذْبَحَنَّهُ أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ** ﴾ وقد استدل أهل العلم بهذه الآية على أن العقاب على قدر الذنب ، وعلى الترقي من الشدة إلى الأشد بقدر ما يحتاجه إلى إصلاح الخلل[٤] .

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (١٣/ ١٧٧) .

(٢) تفسير الرازي (٢٤/ ١٨٩) .

(٣) ، (٤) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٥٩٣) .

٣- لا بد للدولة المسلمة أن تهتم بالأجهـزة الأمنية وتحرص أشد الحرص على الاهتمام بالإخبار والمعلومات حتى توظف لخدمة الدين ، وعقيدة التوحيد ، ونشر المبادئ السامية ، والأهداف النبيلة ، والمثل العليا ، وأن تحرص على تحبيب الجهاد لأبنائها بواسطة الأجهـزة الإعلامية والوسائل التـربوية وأن تهيئ النفوس للظروف المناسبة لإقامتها للدين وإعلاء لكلمة الله ، وهكذا كان شأن سليمان عليه السلام - كما قال القرطبي - رحمه الله - : " فإنما صـار صدق الهدهد عذرًا له ، لأنه أخبر بما يقتضي الجهاد، وكان سليمان عليه السلام حبب إليه الجهاد "[1] .

٤- لا بد للقيـادة في الدولة المسلمة أن تـهتم بنصر دعـوة التوحـيد ، وبذل الوسع في تبليغـها لكل مكلف ، فإن سليـمان عليه السلام لما استـمع إلى خبـر القوم المشركين ، شـمر عن ساعـد الجد في إيصال البلاغ إليـهم ، وبدأ معهم بالحـجة والبيان : ﴿**اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ**﴾ . قال القرطبي - رحمه الله - : " فـي هذه الآية دليل على إرسال الكتب إلى المشركين وتبليـغهم الدعـوة ودعائهم إلى الإسـلام ، وقد كـتب النبي صلى الله عليه وسلم إلى كـسرى وقيصر وإلى كل جبار "[2] .

ومن المهم عرض الدعـوة بعزة الإسـلام وبشرف الإيمان وهيبـة القرآن لا بتذلل واستخـذاء ، وعدم مداراة للناس في أمر الاستجـابة لله ، وترك مداهنتهم فيـما يغضب الله . ولقـد كان كتاب سليـمان عليه السلام للملكة سبأ يبـدأ بالرحمة ، وتتخلله الكرامة ، وآخره الدعوة إلى الإستجابة لله والاستسلام له سبحانه . ﴿**إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾ .

وعلى الدولة المسلمـة أن تهتم بتعظيم اسم الله تـعالى، والتشـرف بذكره في المحافل والمناسـبات والكتابات ، فـهذا شعار المؤمـنين، وتنزيه هذا الاسم المقدس عما لا يـليق به ، والحفاظ عليه من جـهل الجهال ؛ ولذلك قدم سلـيمان عليه السلام

---

(١) تفسير القرطبي (١٣/ ١٨٩) .

(٢) المصدر نفسه (١٣/ ١٩٠) .

اسمه، خوفًا من أن تتلفظ ملكة سبأ بكلمة لا تليق - فيكون اسـمه وقاية لاسم الله عز وجل[١].

وعلى الدولة المسلمة أن يكون خطابها الدعوي ملتزمًا بالجدية في دعوة الناس وأن تراعي شمولية الإسلام ، وتتوخى الاقتصار على المقصود منها ، وهكذا كان خطاب سليمان عليه السلام : ﴿ **إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ ﴿٣٠﴾ أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ** ﴾ .

فالمطلوب من الخلق إما العلم أو العمل ، والعلم مقدم على العمل ، فقوله: ﴿**بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ**﴾ مشـتمل على إثبات الصانـع سبحانه وتعـالى وإثبات صفاته سبـحانه ، وقوله : ﴿**أَلَّا تَعْلُوا عَلَيَّ**﴾ نهي عن الانقياد لغـير الله عز وجل اتبـاعًا للهـوى أو طاعة للنفس ، وقـوله : ﴿ **وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ**﴾ فيـه الحث على الإيمان بالقلب والإسلام بالجوارح[٢] .

وعلى القائمين بأمر الدعوة إلى الله أن يكونوا متعالين على حطام الدنيا ، فعندما تعرض عليهم رشوة في الدين ، أو رهـانًا على المبدأ وليكن الشعار ما قال سليـمان عليه السلام: ﴿ **أَتُمِدُّونَنِ بِمَالٍ فَمَا آتَانِيَ اللَّهُ خَيْرٌ مِّمَّا آتَاكُم بَلْ أَنتُم بِهَدِيَّتِكُمْ تَفْرَحُونَ**﴾ .

فملكة سبـأ عندما عملت الحيلة لاختبـار سليمان عليه السلام ، وتفتق ذهنها عن بعث هدية له تمتحن بهـا حبه للدين ، فـأظهر عليه السلام عدم الاكتـراث بهذا المال ، وأعلم من جاءوا به أن الله تعالى آتاه الدين الذي هو السـعادة القصوى، وآتاه من الدنيا ما لا مزيد عليه ، فكيف يستمال مثله بمثل هذه الهدية ؟! وصارحهم بأنهم هم الذين من شأنهم الـفرح بتلك الهدية التي ظنوا أنه سـيفرح بهـا، أما هو فلن يقبل منهم إلا الإسلام أو السيف[٣] .

---

(١) المصدر السابق نفسه (٢/ ٥٩٤) .

(٢) انظر: روح المعاني للألوسي (٢٤/ ١٩٥) .

(٣) انظر : الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٥٩٨) .

٥- المقدرة عـلى اتخاذ القرار الـصحيح في الـوقت المناسب للمكان المناسب وعـدم التردد في القـرار الصعب للتـغلب على الحـال الأصعب، فـعندما وجـد سليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ، أن القوم ما زالوا على الشرك، بل يريدون استـمالته وتنحيته عن صلابته في الحق قال للوفد الذي جاء بالهدية: ﴿ **ارْجِعْ إِلَيْهِمْ فَلَنَأْتِيَنَّهُم بِجُنُودٍ لاَّ قِبَلَ لَهُم بِهَا وَلَنُخْرِجَنَّهُم مِّنْهَا أَذِلَّةً وَهُمْ صَاغِرُونَ** ﴾ .

ولا مانع من ركوب الشـدة مع المعاند، واستعمـال القوة في إرهاب من يصد عن الدعوة، فإن ذلك قد لا ينفع غيره في إنقاذ الناس من الشرك، بل من المعادن البشرية ما لا يلين إلا تحت وهج السيف وسنابك الخيل، وكان هذا الأسلوب سببًا في إسلام ملكة سـبأ وانقيادها وجنودها لسلـيمان عَلَيْهِ السَّلَامُ ولا مانع من استـعمال الذكاء والـعقل النيـر، ودقة التدبيـر، في استـجلاب قلوب المدعـوين إلى الدين واسـتخـدام نعم الله في دلالة الخلق على الله، ومـخاطبـة الناس بالكيـفيـة التي تستهـوي قلوب عوامهم وتجلب احـترام خواصهم، فسـليمان عَلَيْهِ السَّلَامُ لما بلغه خبر مجيء ملكة سبأ في جمع من حاشيـتها وجنودها، أراد أن يعلمها مدى ما أعطاه الله من قوة حتى إن عرشهـا الذي تركته في حماية عظيمة وحرس كثـيف يسبقها إليه[١] .

٦- وعلى الدولة المسلمة أن تستفـيد من المهارات والمواهب وإمكانات الخاصة في أفراد الرعية، ووضع الفرد المناسب في مكانه الصحيح، إن مملكة سليمان كان فيـها مـن الإنس والجن وغيـرهم ما كـان يمكن أن يؤدي مهـمة الهـدهد، ولكن سليمـان اختاره مع ضعفـه وصغره لتأدية هـذه المهمة ، فـ (تخصـيصه عَلَيْهِ السَّلَامُ إياه بالرسالة دون سائر ما تحت ملكه من أمناء الجن الأقـوياء على التصرف والتعرف؛ لما عاين فيه من مخايل العلم والحكمة)[٢] .

---

(١) المصدر السابق نفسه (٩/ ١٩٣) .

(٢) تفسير روح المعاني (٩/ ١٩٣) .

د- أبرز صفات سليمان عليه السلام كحاكم لدولة:

إن الآيات الكريمة عرضت صفات سليمان عليه السلام كملك وحاكم ممكَّن له في الأرض وفي هذا إشارة من الله تعالى إلى الصفات القيادية المطلوبة للإشراف على تمكين شرع الله تعالى:

١- الحزم: ويظهر ذلك عند القيادة إن غلب الظن أن هناك تقصيراً ، أو تكاسلاً عن الحضور وقت الطلب أو التأخر وقت العمل : ﴿ **لَأُعَذِّبَنَّهُ عَذَابًا شَدِيدًا أَوْ لَأَذْبَحَنَّهُ**﴾ فإنه قد تبين لسليمان عليه السلام أن الهدهد غائب، فتهدد بذلك أمام الجمع الذي يعلم أن الهدهد غائب ، حتى لا يكون غيابه - إن لم يؤخذ بالحزم- سابقة سيئة لبقية الجند[١] .

٢- التريث والتأني قبل الحكم ، فلعل للغائب عذرًا، أو للمقصر حجة تدفع الإثم، وترفع العقوبة، ولهذا قال سليمان بعدها: ﴿ **أَوْ لَيَأْتِيَنِّي بِسُلْطَانٍ مُّبِينٍ**﴾ أي (بحجة تبين عذره في غيبته)[٢] وهذا هو اللائق بالحاكم والقاضي إذا كان عادلاً، وسليمان عليه السلام الذي اشتهر بالعدالة هو وجنوده حتى عند النمل، لا ينتظر منه مع الهدهد، أو ما دونه أو ما فوقه، إلا أن يكون عادلاً لا يعاجل بالعقوبة قبل ثبوت الجريمة ولا يبادر إلى المؤاخذة قبل سماع الحجة .

٣- سعة الصدر في الاستماع إلى اعتذار المعتذر، وحجة المتخلف، وسليمان عليه السلام أنصت لاسترسال الهدهد حتى انتهى من قوله، رغم أن فيه نوع معاتبة لسليمان، وفيه نسبة عدم الإحاطة إليه : ﴿**أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ (٢٢) إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ (٢٣) وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لَا يَهْتَدُونَ (٢٤) أَلَّا يَسْجُدُوا لِلَّهِ الَّذِي يُخْرِجُ الْخَبْءَ فِي السَّمَاوَاتِ وَالْأَرْضِ**

(١) انظر: في ظلال القرآن (٥/ ٢٦٣٨) .
(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ١٨٠) .

﴿وَيَعْلَمُ مَا تُخْفُونَ وَمَا تُعْلِنُونَ (٢٥) اللَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ رَبُّ الْعَرْشِ الْعَظِيمِ﴾ كل هذا وسليمان لا يقاطعه، ولا يكذبه، ولا يعنفه، حتى ينتهي من سرد الحجة، التي كانت مفاجأة ضخمة لسليمان عليه السلام .

٤- قبول الاعتذار ممن يعتذر في الظاهر، وإيكال سريرته إلى الله تعالى، فسليمان عليه السلام سكت عن المؤاخذة وانتقل إلى تحري الخبر: قال القرطبي -رحمه الله-: (هذا دليل على أن الإمام يجب عليه أن يقبل عذر رعيته، ويدرأ العقوبة عنهم في ظاهر أحوالهم بباطن أعذارهم ، لأن سليمان لم يعاقب الهدهد حين اعتذر إليه)[١] .

٥- التروي في تصديق الخبر؛ فهذا الذي حكاه الهدهد ، أمر ليس بالسهل ولا باليسير، ثم إن الهدهد لا يجرؤ على اختلاق هذه القصة الطويلة، وهو يعلم تمكن سليمان من الرعية، ومقدرته على التأكد من صحة الأخبار -ومع ذلك لم يبادر عليه السلام إلى التصديق، كما أنه لم يتعجل التكذيب ، بل قال : ﴿سَنَنظُرُ﴾ وهو من النظر، أو التأمل والتحري)[٢] .

﴿سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ يعني أصدقت في خبرك أم كذبت لتتخلص من الوعيد؟ [٣] .

٦- عدم الاغترار بقوة النفس وكثرة الجند وسعة السلطان، وإسناد الفضل إلى الله في كل نعمة، وتجديد الشكر على هذه النعم، وسليمان عليه السلام لما طلب الإتيان بعرش بلقيس أجابته جنوده التي سخرها الله له مسارعين إلى الطاعة ؛ فلما وجد سليمان طلبه مجابًا ، وأمره مطاعًا سارع إلى ضبط النفس في سلك الخشية ومنهاج التواضع والطاعة لله رب العالمين ﴿فَلَمَّا رَآهُ مُسْتَقِرًّا عِندَهُ﴾ أي رأى العرش ثابتًا عنده: ﴿قَالَ هَذَا مِن فَضْلِ رَبِّي﴾ أي هذا النصر والتمكين من فضل ربي

(١) المصدر نفسه (١٣/ ١٨٤) .
(٢) تفسير الرازي (٢٤/ ١٩٣) .
(٣) تفسير ابن كثير (٣/ ٣٤٩) .

ليختبرني أأشكر نعمته أم أكفرها، فإن من شكر لا يرجع نفع شكره إلا إلى نفسه حيث استوجب بشكره تمام النعمة ودوامها والمزيد، ومن كفر النعم فإن الله غني عن شكره، كريم في عدم منع تفضله عنه[١] .

٧- التواضع وهو في قمة المجد والتمكين: كان سليمان عليه السلام دائم التواضع حتى قيل إنه كان يمشي منكسر الرأس خشوعًا لله، وأثناء استعراضه لجنوده من الجن والإنس والطير، مر على واد النمل، وفي نظرة التواضع إلى الأرض؛ أبصر نملة، فأشخص النظر صوبها، وأصاخ السمع إليها، وبما علم من منطق الطير والحيوان حاول أن يتفهم أمرها ، لقد علم أنها تتخوف من بطش أقدام الجنود في ركب سليمان، لقد سمعها وفهم قولها: **﴿قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لَا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾** (سورة النمل: ١٨) . نعم إنها كائن صغير في مملكة ضخمة عظيمة، تسعى كأخواتها للرزق، وتنصح لهم أن يفسحوا الطريق أمام ركب الملك العادل، حتى لا تقع مظلمة غير مقصودة من أحد منهم. قال القرطبي -رحمه الله- : (التفاتة مؤمن : أي من عدل سليمان وفضله وفضل جنده لا يحطمون نملة فما فوقها إلا بألا يشعروا)[٢] .

إن هذه النملة لم تكن إلا واحدة من رعايا سليمان في مملكته التي ضمت إلى جانب الإنس والجن أنواعًا وألوانًا من الحيوان والطير والهوام .

لقد سمع كلامهما، وتفهم شكواهما ، فتبسم من قولها، فرق قلبه الكبير رفقًا لجرمها الصغير، فرحمها وأخواتها، وشكر ربه إذ علمه منطق هذه المخلوقات حتى يتمكن من إنصافها وإيصال العدل إليها . وسُرّ بأن عدالته وجنوده قد عرفها كل مخلوق، حتى مثل هذه النملة التي اعتذرت عنهم مقدمًا بأنهم إن أصابوا نملة بأقدامهم، فإن ذلك من غير قصد منهم ولا شعور[٣] .

---

(١) انظر : الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٦٠٠) .
(٢) تفسير القرطبي (١٣/ ١٧٠) .
(٣) انظر : الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٥٨٩) .

﴿فَتَبَسَّمَ ضَاحِكًا مِّن قَوْلِهَا وَقَالَ رَبِّ أَوْزِعْنِي أَنْ أَشْكُرَ نِعْمَتَكَ الَّتِي أَنْعَمْتَ عَلَيَّ وَعَلَىٰ وَالِدَيَّ وَأَنْ أَعْمَلَ صَالِحًا تَرْضَاهُ﴾ (سورة النمل: ١٩) .

لقد أدرك سليمان عليه السلام أنه - في جنب الله- في حاجة إلى الرحمة والعطف واللطف أشد من حاجة هذه النملة إلى ذلك منه، ولهذا قال: ﴿وَأَدْخِلْنِي بِرَحْمَتِكَ فِي عِبَادِكَ الصَّالِحِينَ﴾ (سورة النمل : ١٩) .

* ■ *

المبحث الثاني
فقه التمكين عند ذي القرنين

أولاً: من هو ذو القرنين؟

اختلف المفسرون في اسم ذي القرنين ونسبه وزمان وجوده وسبب تلقيبه بذي القرنين، لقد تضاربت أقوالهم وآراؤهم، وتعارضت أدلتهم واعتمد الكثير منهم على الإسرائيليات والخرافات والأساطير ، والروايات الواهية، والأخبار الكاذبة .

وعندما طالعت الكتب التي تحدثت عن ذي القرنين[١] خرجت بنتيجة وهي لا يمكننا الجزم بتحديد شخصية ذي القرنين ، ولا تحديد رحلاته الثلاث التي أشار إليها القرآن الكريم ، ولا تحديد السد الذي بناه على الكرة الأرضية .

إن القرآن الكريم والسنة النبوية المطهرة لم يتعرضا إلى تلك التفصيلات، وبما أنهما سكتا عن المعلومات التفصيلية ، فلا دلالة يقينية عليها .

ولذلك يكون كلام المفسرين وأهل التاريخ والعلماء عنها من باب الظن وليس من باب الجزم[٢] .

لقد قالوا إن ذا القرنين: هو الإسكندر المقدوني اليوناني وذلك لأن البلاد التي استولى عليها الإسكندر امتدت إلى مشارق الأرض ومغاربها، وقيل هو قورش الإخميني ، لإجماع المؤرخين على عدالة سيرته وحسن سيرته في الشعوب والممالك التي استولى عليها، وقيل إنه أبو كرب شمر بن عمرو الحميري . لقد ناقش الأستاذ محمد خير رمضان يوسف الأقوال السابقة وخرج بنتيجة أن ذا القرنين ، لم يكن واحداً من هؤلاء الثلاثة ونقد الآراء السابقة نقداً علمياً متيناً ووصول إلى أن ذا القرنين : (أنه ذو القرنين القرآني الذي ذكره الله عز وجل في كتابه العزيز، وأثنى عليه بالإيمان والإصلاح والعدل، في سورة قرآنية عظيمة،

---

(١) انظر: ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح لمحمد خير رمضان .

(٢) انظر: مع قصص السابقين في القرآن للخالدي (٦/ ٢٥٤، ٢٥٥) .

وآيات إعجازية جليلة ، وقصة تاريخية نادرة، مليئة بالدروس والعبر، طافحة بالعظات والمبادئ والحكم .

إنه علم قرآني بارز . . خلد الله ذكره في كتابه الخالد، فاستحق أن ينال لقب القرآني وكفى، ولم أشأ أن أقول غير هذا لأنني لم أر من أعطى شخصية ذي القرنين حظها في التاريخ مثلما أعطى لها الله عز وجل ، في كتابه العظيم، إنه الرجل الطواف في الأرض، الصالح العادل، الخاشع لربه، والمنفذ لأمره، والقائم بين الناس بالإصلاح . والذي ملك أقاصي الدنيا وأطرافها، فلم يغره مال ولا منصب ولا جاه ولا قوة ولا سلطان ، بل إنه بقي ذاكراً لفضل ربه ورحمته، متأهبًا لليوم الآخر، ليلقى جزاءه العادل عند ربه .

ويكفي أن يبقى ذو القرنين ذلك الشخصية العظيمة في التاريخ ، وذلك العلم البارز في العدل والإصلاح، والقيادة ومثال الحاكم الصالح، على مر التاريخ ، وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها ، بشهادة الكتاب الخالد)[(١)].

إن القرآن الكريم اهتم بإخراج القيم الصحيحة في سيرة ذي القرنين وأعماله وأقواله مثل:

١- الحكم والسلطان والتمكين في الأرض ينبغي أن يسخر لتنفيذ شرع الله في الأرض وإقامة العدل بين العباد، وتيسير الأمر على المؤمنين المحسنين، وتضييق الخناق على الظالمين المعتدين ومنع الفساد والظلم وحماية الضعفاء من بطش المفسدين.

٢- الرجال الأشداء ذوو الخبرات الفنية العالية في النواحي العسكرية والعمرانية والاقتصادية الذين كانوا طوع بنان ذي القرنين، وكذلك خضوع الأقاليم له وفتح الخزائن أمامه وتقديم خراج الشعوب له طواعية ، كل ذلك لم يدخل في نفسه الغرور والبطر والطيش والغواية؛ بل بقي مثال الرجل المؤمن العفيف المترفع عن زينة الحياة الدنيا .

---

(١) ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح (٢٤٧،٢٤٨،٢٤٩) .

٣- الاهتمام باتخاذ الأسباب لبلوغ الأهداف والغايات التي سعى إليها حيث أتاه الله من كل شيء سببًا فأتبع سببًا .

إن القرآن الكريم في قصة ذي القرنين وفي كل قصصه ركّز على الدروس والعبر والحكم والسنن، ولم يهتم بكثير من القضايا التي لا تنفع الإنسان ولذلك نجد في قصة ذي القرنين كثير من المبهمات التي لا تفيد القارئ مثل؛ من هو ذو القرنين ؟ وما هي شخصيته؟ وما هي حياته؟ وما هو الزمن الذي عاش فيه، والدولة التي حكمها ، والحروب التي خاضها، والبلاد التي فتحها، ورحلته الأولى تجاه الغرب، وتحديد المنطقة التي وصل إليها، وتحديد المكان ذي العين الحمئة؟ وكيف وجد الشمس تغرب فيها، وأصل يأجوج ومأجوج، وتاريخهم ، ومناطق سكنهم وإقامتهم بالضبط؟ وغير ذلك من التساؤلات[1] .

ثانيًا: معالم التمكين عند ذي القرنين:

أ- دستوره العادل:

إن المنهجية التي سار عليها ذو القرنين كحاكم مؤمن جعلته يلتزم بمعاني العدل المطلق في كل أحواله وسكناته ولذلك سار في الناس والأمم والشعوب التي حكمها بسيرة العدل، فلم يعامل الأقوام التي تغلب عليها في حروبه بالظلم والجور والتعسف والتجبر والطغيان والبطش، وإنما عاملهم بهذا المنهج الرباني : ﴿**قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا**﴾ (الكهف، ٨٧، ٨٨) .

. وهذا المنهج الرباني الذي سار عليه يدل على إيمانه وتقواه، وعلى فطنته وذكائه ، وعلى عدله ورحمته؛ لأن الناس الذين قهرهم وفتح بلادهم ، ليسوا على مستوى واحد، ولا على صفات واحدة، ولذلك لا يجوز أن يعاملوا جميعًا

---

(١) انظر: مع قصص السابقين في القرآن (٦/ ٢٤٢، ٢٤٤) .

معاملة واحدة؛ فمنهم المؤمن ومنهم الكافر، ومنهم الصالح، ومنهم الطالح فهل يتساوون في المعاملة؟.

قال ذو القرنين : أما الظالم الكافر فسوف نعذبه لظلمه وكفره، وهذا التعذيب عقوبة له؛ فنحن عادلون في تعذيبه في الدنيا ثم مرده إلى خالقه لينال عذابه الأخروي .

إن الظالم والباغي الكافر في دستور ذي القرنين معذّب مرتين ؛ مرة في الدنيا على يديه، والأخري يوم القيامة، حيث يعذبه الله عذابًا نكرًا، أما المؤمن الصالح فإنه مقرب من ذي القرنين، يجزيه الجزاء الحسن، ويكافئه المكافأة الطيبة، ويخاطبه بيسر وسهولة وإشراق وبرٍّ ومودّة[1]، لقد كان ميزان العدالة في حكمه بين الناس، هو التقوى والإيمان والعمل الصالح، ودائمًا يتطلع إلى مقامات الإحسان.

ب- منهجه التربوي في الشعوب:

إن الله تعالى أوجب العقوبة الدنيوية على من ارتكب الفساد في المجتمع وكلف أهل الإيمان ممن مكن لهم في الأرض أن يحرصوا على تنفيذ العقوبات للمفسد والظالم لكي تستقيم الحياة في الدنيا .

إن ذا القرنين يقدم لكل مسئول أو حاكم أو قائد منهجًا أساسيًّا، وطريقة عملية لتربية الشعوب على الاستقامة والسعي بها نحو العمل لتحقيق العبودية الكاملة لله تعالى . قال سيد قطب -رحمه الله- : (وهذا دستور الحاكم الصالح، فالمؤمن الصالح ينبغي أن يجد الكرامة والتيسير والجزاء الحسن عند الحاكم . والمعتدي الظالم يجب أن يلقى العذاب والإيذاء ... وحين يجد المحسن في الجماعة جزاء إحسانه جزاءً حسنًا أو مكانًا كريمًا وعونًا وتيسيرًا ، ويجد المعتدي جزاء إفساده عقوبة وإهانة وجفوة . عندئذ يجد أن ما يحفزهم إلى الصلاح والإنتاج . أما حين يضطرب ميزان الحكم، فإذا المعتدون المفسدون مقربون إلى

(١) المصدر نفسه (٢/ ٣٣٠، ٣٣١) .

الحاكم ، مقدمون في الدولة، وإذا العاملون الصالحون منبوذون أو محاربون ، فعندئذ تتحول السلطة في يد الحاكم سوط عذاب وأداة إفساد . ويصير نظام الجماعة إلى الفوضى والفساد)(١) .

إن التربية العملية للقيادة الراشدة هي التي تجعل الحوافز المشجعة هدية للمحسن ليزداد في إحسانه وتفجر طاقة الخير العاملة على زيادة الإحسان وتشعره بالاحترام والتقدير وتأخذ على يد المسيء لتضرب على يده، حتى يترك الإساءة وتعمل على توسيع دوائر الخير والإحسان في أوساط المجتمع وتضييق حلقات الشر إلى أبعد حدود وفق قانون الثواب والعقاب المستمد من الواحد الديان .

ج- اهتمامه بالعلوم المادية وتوظيفها للخير:

نلاحظ من الآيات القرآنية أن ذا القرنين وظّف علوم عدة في دولته القوية ومن أهم هذه العلوم:

١- علم الجغرافيا حيث نجد أن ذا القرنين كان على علم بتقسيمات الأرض، وفجاجها وسبلها، ووديانها وجبالها وسهولها ، لذلك استطاع أن يوظف هذا العلم في حركته مع جيوشه شرقًا وغربًا ، وشمالاً وجنوبًا، ولا يخلو الأمر أن يكون في جيشه متخصصًا في هذا المجال(٢) .

٢- كان صاحب خبرة ودراية بمختلف العلوم المتاحة في عصره، يدل على ذلك حسن اختياره للخامات ، ومعرفته بخواصها، وإجادته لاستعمالها والاستفادة منها ، فقد استعمل المعادن على أحسن ما خلقت له، ووظف الإمكانات على خير ما أتيح له: ﴿**آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا**﴾ (الكهف:٩٦) . أمرهم بأن يأتوه بقطع الحديد الضخمة، فآتوه إياها، فأخذ يبني شيئًا فشيئًا حتى جعل ما بين

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٩١) .
(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٦٢٤) .

جانبي الجبلين من البنيـان مساويًا لهما في العلو، ثم قال للعمـال: (انفخوا بالكير في القطع الحديدية الموضوعة بين الصدفين)[١] . فلما تم ذلك وصارت النار عظيمة قال للذين يتولون أمـر النحاس من الإذابة وغيرها: آتوني نحاسًا مـذابًا أفرغه عليه فيصير مضاعف القوة والصلابة، وهي طريـقة استخدمت حديثًا في تقوية الحديد، فوجد أن إضافة نسبة من النحاس إليه تضاعف مقاومته وصلابته[٢] .

٣- كان واقعيًّا في قياسه للأمور وتدبيره لها، فقد قدّر حجم الخطر، وقدّر ما يحتاجه إلـيه من علاج، فلم يجعل السور من الحجـارة، فضلاً عن الطين واللبن، حتى لا يـعود منهـارًا لأدنى عارض، أو في أول هجـوم، ولهذا باءت مـحاولات القوم المفسـدين بالفشل عندما حاول التغلب على ما قـهرهم به ذو القرنين: ﴿**فَمَا اسْطَاعُوا أَن يَظْهَرُوهُ وَمَا اسْتَطَاعُوا لَهُ نَقْبًا**﴾ (الكهف:٩٧) . أي لم يتمكنوا من اعتلائه لارتفاعه وملاسته، وما استطاعوا أن يثقبوه لصلابته وثخانته[٣].

لقد كـان ذو القرنين على علم بأخـبار الغـيب التي جاءت بهـا الشرائع ومع ذلك؛ لم يتخذ من الأقدار تكأة لـتبرير القعود والهوان، فقـد بنى السد وبذل فيه الجهد، مع علمه بأن له أجلاً سوف ينهدم فيه لا يعلمه إلا الله .

ثالثًا: أخلاقه القيادية وفقهه في إحياء الشعوب:

أ- أخلاقه القيادية:

إن شخـصية ذي القـرنين تميزت بأخلاق رفيـعة ساعـدته إلى تحقيق رسـالته الدعوية والجهادية في الحياة ومن أهم هذه الأخلاق:

١- **الصبر**: كان جلدًا صابرًا على مشاق الرحلات؛ فمثلاً تلك الحملات التي كان يقـوم بها تحـتاج إلى جـهود جـبارة في التنظيم والنقـل والتحرك والـتأمين،

---

(١) روح المعاني (١٦/ ٤٠) .
(٢) انظر في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٩٣) .
(٣) فتح القدير (٣/ ٣١٣) .

فالأعمال التي كان يعـملها تحتاج إلى جيوش ضخمـة، وإلى عقلية يقظة، وذكاء وقاد، وصبر عظيم وآلات ضخمة وأسباب معينة على الفتح والنصر والتملك[١].

٢- **كانت لـه مهابة ونجـابة** يستـشعرها من يراه لأول مـرة، فلا يخطئ ظنه عندما يوقن أنه ليس بملك جـبار ولا ظالم، فعندما بلغ بين السـدين ووجد القوم المستضـعفين ، استأنسوا به، ووجـدوا فيه مخلصًا من الظلم والقـهر الواقع عليه فبادروه بسؤال المعونة؛ فمن الذي أدراهم بأنه لن يكون مـفسدًا مثلهم ، ومعه من القوة والعدة ما ليس مثلهم[٢].

٣- **الشجـاعة:** كان قـوي القلب جسورًا غـير هيّاب من التـبعات الضخـمة والمسئوليـات العظيمة إذا كان في ذلك مـرضات الله سبحانـه ، فإن ما طلب من إقامة السد، كان عملاً عظيـمًا في ذاته، حيث إن القوم المفسدين كانوا من الممكن أن يوجهوا إفسادهم إليه وإلى جنوده، ولكنه أقدم وأقبل غير متأخر ولا مدبر[٣] .

٤- **التوازن في شخصيته:** فلم تعكر شجاعته على حكمته، ولم ينقص حزمه من رحمتـه، ولا حسمه من رفقـه وعدالته، ولم تكن الدنيا كلها -وقـد سُخرت له- كافية لإثنائه عن تواضعه وطهارته وعفته .

٥- **كـثيـر الشكر:** لأنه كـان صاحب قلب حي مـوصول بالله تعـالى، فلم تُسكِرْه نشوة النصر، وحلاوة الغلبة بعد ما أذل كبرياء المفسدين، بل نسب الفضل إلى ربه[٤] سبحانه وقال ﴿**قَالَ هَذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي** . . ﴾ (سورة الكهف:٩٨) .

٦- كان عـفيفًـا متـرفعًا عن مـال لا يحتاجـه،ومتاع لا ينـفعه، فـإن القوم المستضـعفين لما شكوا إليه فساد المفسـدين، عرضوا عليه الخراج؛ (فأجـابهم بعفة وديانة وصـلاح: إن الذي أعطاني الله مـن الملك والتـمكين خيـر لي من الذي تجمعونه وما أنا فيه خير من الذي تبذلونه)[٥].

---

(١) انظر : الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٦٢٤) .

(٢،٣) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٤) .

(٤) المصدر نفسه (٢/ ٦٢٧) .

(٥) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٦٢٥) .

- إن مفتاح شخصية ذي القرنين تتمثل في إيمانه بالله تعالى والاستعداد لليوم الآخر ، وحبه لأهل الإيمان وبغضه لأهل الكفر والعصيان، وحبه العميق للدعوة إلى الله؛ فالإيمان بالله واليوم الآخر يظهر ذلك جليًا في شخصية ذي القرنين عند قوله تعالى: ﴿مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ﴾ (سورة الكهف:٩٥) . وقوله : ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ (سورة الكهف:٨٧) . وقوله : ﴿فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (سورة الكهف: ٩٨) . وهذه المواضع التي صرح بأنه كان مؤمنًا بالله واليوم الآخر يستفاد منها أمور:

* إن الثناء على الحاكم لا يكون بمجرد شجاعته أو فتوح أو عمارة، ما لم ينضم إليها الإيمان بالله واليوم الآخر ، لأن هناك حكامًا كثيرين كانت لهم من الإصلاحات الدنيوية المجردة ما يعتبرهم الناس من أجله عظماء، ومع ذلك لم يورد القرآن لهم ذكرًا حسنًا، بل جاء في القرآن ذم حكام عمروا في الدنيا كثيراً ولكنهم خربوا أديان الناس وأفسدوا عليهم آخرتهم مثل فرعون وهامان والنمرود ونحوهم .

* إن التوازن المدهش والخلاّب في شخصية ذي القرنين؛ سببه إيمانه بالله تعالى واليوم الآخر ، ولذلك لم تطغ قوته على عدالته، ولا سلطانه على رحمته، ولا غناه على تواضعه، وأصبح مستحقًّا لتأييد الله وعونه؛ ولذلك أكرمه الله تعالى بالأخذ بأسباب التمكين والغلبة وهو تفضل من الله تعالى على عبده الصالح، فجعل له مكنة وقدرة على التصرف في الأرض من حيث التدبير والرأي وكثرة الجنود والهيبة والوقار[١] .

وكذلك أكرمه بكثرة الأعوان والجنود وقذف الرعب في قلوب الأعداء وتسهيل السير عليه ، وتعريفه فجاج الأرض واستيلائه على برها وبحرها[٢]. وتمكنه بذلك من تملك المشارق والمغارب من الأرض، فكل هذه الأمور لا تعطى

---

(١) انظر: روح المعاني (١٦/ ٣٠) .

(٢) انظر: البحر المحيط (٦/ ١٥٩) .

لشخص عادي، ولا يمكن أن يحققـها حاكم بحوله وقوته وذكائه مـهما بلغا، إلا أن يكون مؤيـدًا من الله، ذلك التأييد الـذي ينصر الله به عبـاده المؤمنين . ويدل على هذه العناية أيضًا ضميـر العظمة في قوله تعالى: ﴿وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ أي : أمده بكل ما أراده من مهمات ملكه ومقاصده المتعلقة بسلطانه، فزوده بعلم منازل الأرض وأعلامهـا وعرّفه ألسنة الأقوام الذين كـان يغزوهم، فكان لا يغزو قومًا إلاّ كلمـهم بلسانهم[1] . لقد أعطاه الله تعالى من كل شيء سـببًا وينصرف ذهن السـامع أو القارئ إلى وجـوه التمـكين له في الأرض، وأسبـابه من العلوم والمعرفة واسـتقراء سنن الأمم والشعوب صـعودًا وهبوطًا ، وفي سيـاسة النفوس أفرادًا وجماعـات تهذيبًا وتربية وانتظامًا ، وأعطاه من أسبـاب القوة من الأسلحة والجيوش وأسـباب القوة والمنعـة والظفر ، وأسباب العـمران وتخطيط المدن وشق القنوات وإنماء الزراعة مهما قيل ومهما تصور من أسباب التمكين التي تليق برجل رباني قد مكن له في هذه الأرض[2] يمكن أن يدخل تحت قوله تعالى : ﴿إِنَّا مَكَّنَّا لَهُ فِي الأَرْضِ وَآتَيْنَاهُ مِن كُلِّ شَيْءٍ سَبَبًا﴾ (سورة الكهف: ٨٤). لقد كـانت رعاية الله تعالى لذي القرنين عظيمة بسبب إيمانه بالله تعالى، واستعداده لليوم الآخر ولذلك فتح له باب التوفيق وفق ما سعى إليه من أهداف وغاية سامية .

لقد بذل ذو القرنين مـا في وسعه من أجل دعوة الناس إلى عبـادة الله ، فقد جمع بين الفتوحات العظيمة بحد السيف ، وفتوحات القلوب بالإيمان والإحسان، فكان إذا ظفر بأمـة أو شعب دعاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى قـبل العقاب أو الثواب، وكان حـريصًا على الأعمال الإصـلاحية في كافـة الأقاليم والبلدان التي فتحها، فسعى فـي بسط سلطان الحق ، والعدالة في الأرض شرقًا وغربًا ، وكان صاحب ولاء ومحبة لأهل الإيمان ، مثلما كان معاديًا لأهل الكفران[3] .

---

(١) انظر: روح المعاني (١٦/ ٣١) .

(٢) انظر: مباحث في التفسير الموضوعي لمصطفى مسلم ، ص٣٠٤ .

(٣) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٦٢٣) .

ب- فقه في إحياء الشعوب :

إن حركة ذي القرنين الدعوية والجهادية جعلته يحتك بالشعوب والأمم وتكلم القرآن الكريم عن رحلاته الإيمانية :

١- الرحلة الأولى :

لم يحدد القرآن الكريم نقطة الانطلاق فيها وحدد النهاية إلى مغرب الشمس، ووجد عندها قومًا ، فدعاهم إلى الله تعالى، وسار فيهم بسيرة العدل والإصلاح قال تعالى: ﴿أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا﴾ (الكهف : ٨٧) .

إنها سياسة العدل التي تورث التمكين في الحكم والسلطة وفي قلوب الناس الحب والتكريم للمستقيمين ، وإدخال الرعب في قلوب أهل الفساد والظلم ، فالمؤمن المستقيم يجد الكرامة والود والقرب من الحاكم ، ويكون بطانته وموضع عطفه وثقته ورعاية مصالحه وتيسير أموره .

أما المعتدي المتجاوز للحد ، المنحرف الذي يريد الفساد في الأرض فسيجد العذاب الرادع من الحاكم في الحياة الدنيا ، ثم يرد إلى ربه يوم القيامة ليلقى العقوبة الأنكى بما اقترفت يداه في حياته الأولى .

ولم يعين السياق القوم الذين اتخذ فيهم ذو القرنين هذه السياسة الحكيمة كما أهمل ذكر المدة التي مكثها بينهم والنتائج التي توصل إليها ، وكأن الأمر المفروغ منه أن تثمر هذه السيرة العادلة ، والمبادئ السامية حضارة ربانية وتقدمًا وسعادة وطمأنينة لذا لا داعي لذكرها والوقوف عندها[٢] .

٢- الرحلة الثانية :

وهي رحلة المشرق حيث يصل إلى مكان يبرز لعين الرائي أن الشمس تطلع

---

(١) انظر : مباحث في التفسير الموضوعي، ص٣٠٥ .

(٢) القصص القرآني في سورة الكهف ص٨٧ .

من خلف الأفق ، ولم يحدد السياق أهو بحر أم يابسة ؟ إلا أن القوم الذين كانوا عند مطلع الشمس كانوا في أرض مكشوفة بحيث لا يحجبهم عند شروقها مرتفعات جبلية أو أشجار سامقة، وذهب الشيخ محمد متولي الشعراوي رحمه الله إلى أن المقصود ﴿لَّمْ نَجْعَل لَّهُم مِّن دُونِهَا سِتْرًا﴾ . هي بلاد القطب الذي تكون فيه الشمس ستة شهور لا تغيب طوال هذه الشهور لا يوجد ظلام يستر الشمس في هذه الأماكن(١) .

ونظرًا لوضوح سياسة ذي القرنين في الشعوب التي تمكن منها ، وهو الدستور المعلن في رحلة الغرب لم يكرر هنا إعلان مبادئه، لأنها منهج حياة ودستور دولة مترامية الأطراف وسياسة أمم فهو ملتزم بها أينما حل أو ارتحل(١) .

٣- الرحلة الثالثة : تختلف عن الرحلتين السابقتين من حيث طبيعة الأرض والتعامل مع البشر وسكان المنطقة ، ومن حيث الأعمال التي قام فلم يقتصر فيها على الأعمال الجهادية لكبح جماح الأشرار والمفسدين ؛ بل قام بعمل عمراني هائل . أما الأرض فوعرة المسالك ، وأما السكان - وكأن وعورة الأرض قد أثرت على طبائعهم وطريقة تخاطبهم مع غيرهم - فهناك في التفاهم والمخاطبة بحيث لا يكاد الإنسان منهم يقدر على التعبير عما في نفسه ، ولا أن يفقه ما يحدثه به غيره من غير بني قومه ﴿ وَجَدَ مِن دُونِهِمَا قَوْمًا لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ ، إما في أسلوب التخاطب والتعامل - كما أسلفنا - أو من التخلف الحضاري والبدائية في العادات والمفاهيم والمصطلحات . فلما وجدوا القوة في دولة ذي القرنين والعدل والصلاح في سيرته - وعدل السلطان يفتح أمامه القلوب قبل فتح الجيوش والأمصار - لجئوا إليه بحمايتهم من هجمات تلك القبائل الهمجية المفسدة ، قبائل يأجوج ومأجوج التي كانت تشن عليهم هجماتهم من خلف الجبلين المتقابلين من الممر الضيق الذي بينهما وذلك بإقامة السد بين الصدفين ،

---

(١) انظر : مباحث في التفسير الموضوعي ، ص٣٠٦ .

مقابل خراج يدفعونه إليه في أموالهم . ونظرًا لأن القضية التي وضعها ذو القرنين نصب عينيه هي الإصـلاح ومقاومة الفسـاد والشر ، والحكم بالعدل بين الناس ، ولم يكن همه جمع المال أو قصد الـعلو في الأرض بإذلال الشعوب ، فقد رفض عرضـهم ، وتطوّع بإقامة السـد على أن يتطوعوا هم من جانبـهم بتقديم الجـهد البشري، فمنه الخبرة والتصميم والإشراف ، وعليهم الطاقة العمالية والمواد الأولية المتوفـرة في بلادهم[1] ، ونلاحظ من السـياق القـرآني أن هؤلاء القـوم اتصفـوا بصفات منها :

١- هم قوم متـخلفون : ﴿لاَّ يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ قَوْلاً﴾ وهذا إمّا معناه أنهم لا يفقهون لغة غيرهم من الأقـوام الأخرى ، لأنهم لم يطّلعوا عليها ولم يتعلموها، فهم منغلقون على لـغتهم فقط . وإمّا معناه أن الـكلام لا ينفع معهم ، لأنهم لا يفقـهون ولا يتفـاعلون معه ، ولا يتـفاهمون مع قـائله ، لا يفعلون هذا لجـفاء وغلظة عندهم ، أو لغفلة وسذاجة في طبيعتهم .

٢- هم قوم ضعـفاء، ولذلك عجزوا عـن صدّ هجمات يأجـوج ومأجوج، والوقوف في وجههم ، ومنع إفسادهم .

٣- هم قوم عاجـزون عن الدفاع عن أرضهم ، ومقاومـة المعتدين ، ولذلك لجئوا إلى قوة أخرى خارجيـة ، قوة ذي القرنين، حيث طلبوا منه حل مشكلاتهم والدفاع عن أراضيهم .

٤- هم قوم اتكـاليّون كسـالى ، لا يريدون أن يبذلوا جـهدًا ولا أن يقـوموا بعمل، ولذلـك أحالوا المشكلة على ذي القـرنين ، وأوكلوا إليه حلّهـا ، أما هم فمستعدون لدفع المال له[2].

لقد كان فقه ذي القرنين في التعامل مع الشـعوب المستضعفة هو السعي الجاد

---

(١) المصدر نفسه ، ص٣٠٧ .

(٢) انظر : مع قصص السابقين (٢/ ٣٣٨) .

لنقلها من الجهل والتخلف والكسل والضعف إلى العلم والتقدم والنشاط والقوة ، فكان يدير العمل بروح الجماعة ، ويشترك بنفسه مع إشراك غيره ، ويدل على ذلك ضمير المتكلم الذي يتقابل في تسلسل متتابع رفيع مع ضمير المخاطب في النظم القرآني الكريم مما يشير إلى روح الحماس والحيوية والتعاون المشترك[١] ﴿**قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا ﴿٩٥﴾ آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا**﴾ (الكهف : ٩٥ ، ٩٦) . لقد كان ذو القرنين حريصًا على مصلحة الناس، ناصحًا لهم فيما يعود عليهم بالنفع ، ولهذا طلب منهم المعونة الجسدية ، لما في ذلك تنشيط لهم ورفع لمعنوياتهم[٢] ، ومن نصحه وإخلاصه لهم ، أنه بذل ما في الوسع والخدمة أكثر مما كانوا يطلبون فهم طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين القوم المفسدين سدًّا ، أما هو فقد وعد بأن يجعل بينهم ردمًا ، " والردم هو الحاجز الحصين ، والحجاب المتين وهو أكبر من السد وأوثق ، فوعدهم بفوق ما يرجون "[٣] .

لقد عفَّ ذو القرنين عن أموال المستضعفين وشرع في تعليمهم النشاط والعمل والكسب والسعي، فقال لهم : ﴿**فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا**﴾ (سورة الكهف : ٩٥) .

إن هذه العبارة القرآنية معلمًا بارزًا في تضافر الجهود وتوحيد الطاقات والقدرات والقوى .

إن القيادة الحكيمة هي التي تستطيع أن تفجر طاقات المجتمع وتوجهه نحو التكامل لتحقيق الخير والغايات المنشودة .

إن المجتمعات البشرية غنية بالطاقات المتعددة في المجالات المتنوعة في ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم ، والقوى المادية، ويأتي دور القيادة

(١) انظر : الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٦٢٧) .
(٢) انظر : أحكام القرآن لأبي بكر ابن العربي (٣/ ٢٤٣) .
(٣) روح المعاني (١٦/ ٤٠) .

الربانية في الأمة لتربط بين كل الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها .

إن أمتنا الإسلامية مليئة بالمواهب الضائعة والطاقات المعطلة ، والأموال المهدورة ، والأوقات المبدّدة ، والشباب الحيارى، وهي تنتظر من قيادتها في كافة الأقطار والدول والبلاد لكي تأخذ بقاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق والتعاون ومحاربة الجهل والكسل والتخلف[1] ﴿ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ ﴾ .

إن ذا القرنين لم يكن موقفه مع المستضعفين حمايتهم، وإنما توريثهم أسباب القوة حتى يستطيعوا أن يقفوا أمام المفسدين ، لقد كان ذو القرنين يستطيع أن يبقى حتى يبدأ يأجوج ومأجوج في الهجوم . ثم يهاجم ويهزمهم ، ولكن الله سبحانه وتعالى يريد أن يلفتنا إلى أنه ليس من وظيفة الحاكم أو الملك أن يظل في انتظار هجوم الظالم ؛ ولكن وظيفته منع وقوع الظلم .

كيف منع ذو القرنين وقوع الظلم ؟ لم يأت بجيوش لحماية المستضعفين مع قدرته على ذلك وإنما طلب منهم أن يعينوه ليساعدهم على حماية أنفسهم ويتعلموا فنون الحماية ويكسبوا خبرات ويتدربوا على العمل الجاد والمثمر الذي يجعلهم يبنون السد بأيديهم؛ وهذا أدعى للحفاظ عليه وإصلاحه إن أصابه شيء.

إن ذا القرنين رفض أن يكون هؤلاء المستضعفين عاطلين قال الشيخ محمد متولي الشعراوي : (وهذه تلفتنا إلى أن الله سبحانه وتعالى ، عطاء إمكانات ، وعطاء ذاتي في النفس . . عطاء الإمكانات هو ما تستطيع أن توفره من وسائل تعينك على أداء العمل ، والعطاء الذاتي في النفس . . هو القوة الذاتية في داخلك التي تعطيك طاقة العمل ، وكثير منا لا يلتفت إلى عطاء النفس . . لا يلتفت إلى أنه فيه قوة يستطيع أن يعمل بها أعمالاً كثيرة ، وأنه لا يستخدمها وأن لديه قوة تحمل وبإمكانه أن ينتقل من مكان إلى آخر . . وأن يعمل أعمالاً كثيرة .

---

(١) انظر: مع قصص السابقين (٢/ ٣٤٢) .

هذه القوة معطلة عند عدد كبير من الناس ، فهي غير مستخدمة ، ويستطيع الرجل أن يفعل بها أشياء كثيرة وأمامه المجالات التي يستخدم فيها طاقته ؛ ولكنه لا يستخدمها عنده قوة تفكير لو دربها على العمل لفتحت له أبوابًا كثيرة يرتزق منها ؛ ولكنه يبقيها كسولة فلا تفكر في شيء ولا يستخدمها لينميها .

ماذا فعل ذو القرنين ؟

لم يستعن بجيشه ولا بأناس آخرين . . إنما استعان بهؤلاء الضعفاء ، لقد طلب منهم أن يأتوا بالحديد ثم بناء السد بحيث وصل به إلى قمة الجبلين . ثم قام بصهر الحديد ، وأفرغ عليه النحاس ليكون السد في غاية المتانة والقوة .

. إذن فهو قوى هؤلاء الضعفاء الذين كان يهاجمهم يأجوج ومأجوج . بأن علمهم كيف يعينون أنفسهم وكيف يبنون السد وجعلهم هم الذين يشتركون في البناء وهم الذين يقيمونه ، وأعانهم هو بخبرته وعلمه فقط ، ليأخذوا الثقة في أنفسهم ، بأنهم يستطيعون حماية أنفسهم وليتعلموا ما يعينهم ويحميهم ، والإسلام ينهانا عن أن نعوِّد الناس على الكسل أو نعطيهم أجرًا بلا عمل ، لأن ذلك هو الذي يفسد المجتمع ، فالإنسان متى تقاضى أجرًا بلا عمل لا يمكن أن يعمل بعد ذلك أبدًا "[1] .

إن ذا القرنين قام بمهمة الحاكم الممكن له في الأرض ، فقوى المستضعف وجعله قادرًا على حماية نفسه في العدوان ولا يعتمد على حماية أحد، ولم يترك الناس في مقاعد المتفرجين؛ بل نقلهم إلى ساحة الجد عاملين[2] .

وهنا وقفة مهمة ودرس هام وضروري للأمة ، وبخاصة في زمننا هذا ، لأنها تواجه خطرًا ماحقًا مدمرًا ، أشد وأقسى من يأجوج ومأجوج ، إنه خطر الملاحدة واليهود والنصارى الذين يسعون لتدمير كيان الأمة وسلخها من هويتها وعقيدتها

(١) القصص القرآني في سورة الكهف ، ص٩٣، ٩٤ .
(٢) المصدر نفسه ، ص٩٥ .

وإسلامـها وجعلهـا عاجزة مـكتوفة الأيدي أمـام هذا الخطر ، تستنجـد وتستنكر وتشكو إلى مجلس الأمن والأمم المتحدة ، والدعوة إلى مؤتمر دولي .

إن القرآن الكريم يعلمنا ويرشدنا إلى طريق النجاة ألا وهي الالتزام بمنهج الله واتخاذ طريق العمل الصـائب الصحيح ، بالجهاد والقـتال والقوة والعلوم المتطورة لكي تستحق الأمة رحمة الله ، فـعلى الأمة أن تودِّع الأماني والأحلام الخادعة ، وعليهـا أن تدخل ميدان العـمل والعطاء والجهاد والشـهادة ، فعندما تحـرك القوم المستـضعـفون نحـو العمل بقـيادة ذي القـرنين ، وصلوا إلى هدفهم المـنشود ، وغايتهم المطلوبة . ونقف مع ذي القرنين بعد أن تمّ بناء السد .

نظر ذو القـرنين إلى سـدِّه العظيم الذي حـفظ الناس من غـارات المفسـدين وقال: ﴿هَٰذَا رَحْمَةٌ مِّن رَّبِّي﴾ (سورة الكهف : ٩٧) . إنها عبارة جميلـة مباركة تشير إلى عدة معاني :

١- قال سيـد قطب رحمه الله : (ونظر ذو القرنين إلى العـمل الضخم الذي قام به . فلم يأخذه البطر والغرور ، ولم تسـكره نشوة القوة والعلم ، ولكنه ذكر الله فشكره ، ورد إليه العمل الصالح الذي وفقه إليه . . .)[1].

٢- ذكـر ذي القرنين لـربه عند إنجاز عـمله ، يعلمنا كـيف يكون ذكـر الله سبحـانه ، إن من أعظم صور الذكر ، هي أن يذكر ربه عند توفيـقه في عمله ، فيستشعر أن هذا بأمر ربه ، فيتواضع ويعدل ويذكر ويشكر .

٣- كان بناء السد رحمة من الله تعالى ، وقد استخدم ذو القرنين علمه الذي علمه الله إياه ، وتمكينه الذي مكنه الله له ، استخدمـه في مساعدة الناس وتقديم الخير لهم ، ومنع العـدوان عنهم ، فكان علمه رحمة من ربه ، وكان اسـتخدامه له رحمة من ربه .

(١) الظلال (٤/٢٢٩٣) .

٤- كان القوم مُهدَّدين بيأجوج ومأجوج ، مُعرَّضين لإفسادهم ، ولم يحمهم منهم إلا الله ببناء السد ، فكان السد رحمة من الله لهم ، وكان خلاصًا لهم وإنقاذًا بإذن الله ، فلو لم يتم بناء السد، ولو بقي أولئك القوم يَشْكون ويندبون ، بدون عمل ولا جهد ولا حركة ، لما أنقذوا أنفسهم من الخطر ، لأن الإنقاذ لا يتم إلا بالعمل والجهد المتواصل وتكاتف الجهود والانقياد الطوعي للشعوب لشرع الله خلف القيادة الربانية(١) .

٥- ﴿ فَإِذَا جَاءَ وَعْدُ رَبِّي جَعَلَهُ دَكَّاءَ وَكَانَ وَعْدُ رَبِّي حَقًّا﴾ (الكهف : ٩٨) .

لقد أعلن ذو القرنين ما يؤمن به من أن الجبال والحواجز والسدود ستدك عندما يحين وعد الله الذي لا يتخلف .

رابعًا : المفاهيم الحضارية والدروس والعبر :

أ- المفاهيم الحضارية :

إن الله تعالى أظهر في سيرة أحسن الملوك(١) (ذو القرنين) مفاهيم حضارية وجعل في سيرته دروسًا لكل من أراد أن يحكم بالحق والعدل من الحكام في الناس، فأرشد القرآن الكريم عباده إلى ركائز الحضارة الربانية التي تقوم على شرع الله وتحكيمه بين العباد ، فمن أهم هذه الركائز : الإيمان ، العدل ، العمل ، وإنها لصفات لابد منها حتى تستقيم أمر الشعوب ، ويأمنوا بحق على أنفسهم ، وأموالهم ، وأعراضهم ، وأديانهم ، وعقولهم ، فالإيمان بالله ربًّا يجعل الحاكم يحرص على أن يستقي أوامره وتشريعاته من منهج الله ، الذي لا شطط فيه ولا خلاف ، ولا إفراط ولا تفريط ، ولا غلو ولا جفاء ويكون بعيدًا كل البعد عن هواه، فلا يظلم ولا يبطر ولا يتحكم في رقاب الناس وأمنهم بدون وجه حق والعدل لا بد منه لأنه مركب النجاة ، وأمان أهل الأرض ، والثقة بين الراعي

---

(١) انظر: مع قصص السابقين (٢/ ٣٥٠) .

(٢) انظر: مجموع الفتاوى (١٧/ ٢٢) .

والرعية ، والقائد والمقود والحاكم والمحكوم وبالعمل والتعاون ينتشر العمران ، وتعم الحضارة وفق منهج رب العالمين .

لقد بنى ذو القرنين حضارة ربانية معتمدة على ركائز الإيمان ، والعلم والعدل، والإصلاح مستهدفة بني الإنسان أينما حل وأقام ، أو ارتحل إلى أي مكان ، فقاد الدنيا بالإيمان والخير والفلاح، وعمل على تخليصها من أسر المادة الطاغية ، وكذلك الكفر والشرك والإجرام .

وحرص على تربية جنوده وأتباعه على الخير والحق ، ومحاربة الشر من النفوس ، وأهم هذه الشرور الظلم والعدوان والتسلط على الناس ، ومحاولة استعبادهم واستغلالهم لتحقيق مصالح شخصية ، فالانحطاط الأخلاقي أضر شيء بالحياة الإنسانية .

إن الحضارة الربانية متكاملة ، وقابلة للبناء في أي وقت كان فيه التزام بالمنهج الرباني وأحكامه ، لأن المنهج الرباني وأحكامه فيه كل الخير من عناصر معنوية اعتقادية وروحية وأخلاقية وعلمية وإبداعية، وعناصر مادية تشمل التقدم العمراني والصناعي والزراعي والتجاري، وكذلك عناصر تنظيمية وتشريعية تنظم حياة الفرد والمجتمع والدولة ، مرتبطًا بجميع جوانب الحضارة ولذلك تخرج للوجود حضارة ربانية مؤمنة تتقدم لصالح البشرية ولنشر الهداية لتعميمها على العباد وتسعى لبناء الرجال على أسس من العقلية والأخلاق ، والأفكار الصحيحة، والتصورات السليمة قبل بناء المباني وتجميل المدن ، وصناعة الأسلحة .

وتتميز الحضارة الربانية بتكاملها وتوازنها وتناسقها ، من الحاجات الجسمية والعقلية والروحية وتتطلع إلى التنافس الشريف ، وإسعاد البشرية ، وتكوين الشخصية الربانية التي تتحمل مسئولياتها الحضارية .

إن سيرة ذي القرنين في قيادته الحضارية للبشرية في زمانه تعطينا صورة مشرقة للإنسان القوي المؤمن العالم ، الذي يسخر كل إمكانات دولته وجنوده

وأتباعه وعلومه ووسائله وأسبابه لتعزيز شرع الله وتمكين دينه وخدمة الإنسانية وإعلاء كلمة الله ، وإخراج الناس من الظلمات إلى النور ، ومن عبادة الناس والمادة إلى عبادة الله[١] ولقد سار نبينا عليه أفضل الصلاة والسلام والخلفاء الراشدون من بعده ، على نفس المنوال والهدى الذي رسمه القرآن الكريم ولقد طبقوا قول الله تعالى : ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (سورة الحج، آية : ٤١) .

إن الإيمان الراسخ ، والعمل الصالح ، والسيرة الفاضلة ، والمقاصد الخيرة ، والدعوة إلى الله وإلى الحق واستخدام كل ما أوتينا من علم وحكمة يصنع الحضارة الربانية التي قاعدتها العقيدة الصحيحة ، والتي تنبثق منها مبادئ وقيم وأخلاق ربانية تسعد من دخل في منهجها في الدنيا والآخرة .

إن الحضارة الإنسانية الرفيعة تتحقق في ظل دين الإسلام ، وبذلك نستطيع أن نعرف الحضارة الربانية بأنها : " تفاعل الأنشطة الإنسانية للجماعة الموحدة لخلافة الله في الأرض عبر الزمن ، وضمن المفاهيم الإسلامية عن الحياة والكون والإنسان "[٢] .

وهذا التعريف يتسع ليضم بين جوانبه حلقات الحضارة الربانية المتعددة والتي بدأت مع فجر التاريخ ، عبر الأنبياء والرسل والمؤمنين بهم ، حتى الحلقة الأوسع وهي الحلقة المبتدئة بعصر النبي ﷺ وما تبعه من تفاعلات وأحداث .

وهكذا تصبح الحضارة الربانية الحضارة العالمية ، التي تضم بين أرجائها تفاعلات الأمم والشعوب المندرجة تحت شرع الله تعالى وتقبل في عضويتها العالم بأسره ، أسوده وأصفره وأبيضه وفق المنهج الرباني وأحكامه .

وتسعى لخدمة الإنسان وإسعاده ، ليكون مع سائر الأكوان المحيطة به في

(١) انظر: ذو القرنين القائد الفاتح لمحمد خير رمضان ، ص٣٩٠ .
(٢) الإسلام والحضارة للندوة العالمية للشباب (١/ ٤٩٠) .

وحدة حضارية كونية تتسامى في تمجيد الله تعالى وفي تسبيح أصيل للخلاّق العليم خالق الوجود كله[١]. قال تعالى : ﴿ تُسَبِّحُ لَهُ السَّمَوَاتُ السَّبْعُ وَالأَرْضُ وَمَن فِيهِنَّ وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلاَّ يُسَبِّحُ بِحَمْدِهِ وَلَكِن لاَّ تَفْقَهُونَ تَسْبِيحَهُمْ إِنَّهُ كَانَ حَلِيماً غَفُوراً ﴾ (سورة الإسراء ، آية : ٤٤) .

إننا إذا تأملنا في قول الله تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (العصر الآيات ١-٣) . لوجدناها بحق تمثل معنى الحضارة الربانية في مفاهيمها وعناصرها ، فالسورة حوت عناصر الحضارة كلها بوضوح كامل : الإنسان ، التجمع : صفة الجمع في السورة الذين آمنوا وعملوا الصالحات - الزمن - الصبغة ، كما تضمنت التفاعل الحضاري المستمر بالعمل والتطبيق والتنفيذ للمبادئ والمفاهيم .

إن تعطيل العمل والتنفيذ للمبادئ يعطل الربانية ويجعلها في حالة توقف وانتظار؛ بل في حالة تأخر وانحسار[٢] .

إن ذا القرنين ساهم في صناعة الحياة البشرية على أسس عقدية وأخلاق ربانية، وأكون قد أصبت الحقيقة إن قلت وترك لنا معالم واضحة في التعامل مع نفسية الشعوب وتحريكها بالإيمان والعلم والعمل والعدل والإصلاح والتعمير .

ب- الدروس والعبر والحكم :

إن قصة ذي القرنين مليئة بالآيات والعبر والأحكام والآداب والثمرات والفوائد نذكر منها :

١- الاعتبار برفع الله بعض الناس درجات على بعض ورزقه من يشاء بغير حساب ملكًا ومالاً لما له من خفي الحكم وباهر القدرة ، فلا إله سواه .

---

(١) المصدر السابق (١/ ٤٩٠) .

(٢) الإسلام والحضارة للندوة العالمية للشباب (١/ ٤٩١) .

٢- الإشـارة إلى القيـام بالأسبـاب ، والجري وراء سنة الله في الكون من الجـد والعمل ، وأن علـى قدر الجد يكون الفـوز والظفر ، فـإن ما قصـه الله علينا عن ذي القرنين من ضربه في الأرض إلى مغرب الشمس ، ومطلعهـا وشمالها وعدم فتوره ، ووجدانه اللذة في مواصلـة الأسفار وتجشم الأخطار ، وركوب الأوعـار والبحار ثم إحرازه ذلك الفخار ، الذي لا يشق له غبار ، أكبر عبرة لأولي الأبصار .

٣- ومنها تنشيط الهمم لرفع العوائق ، وأنه متـى ما تيسرت الأسباب ، فلا ينبغي أن يعد ركوب البحر ولا اجتياز القفر ، عذرًا في الخمول والرضاء بالدون ؛ بل ينبغي أن ينشط ويمثل في مرارته حلاوة عقباه من الراحة والهناء .

٤- وجوب المبادرة إلى معالي الأمور .

٥- إن من قـدر على أعـدائه وتمكن منهـم ، فلا يـنبغـي له أن تسكره لذة السلطة بسوقهم بعصا الإذلال ، وتجريعهم غصص الاستعباد والنكال ، بل يعامل المحسن بإحسانه والمسيء بقدر إساءته .

٦- إن على الملك إذا اشتكى إليه جور مجاورين ، أن يبذل وسعه في الراحة والأمن ، دفاعًا عن الوطن العزيز ، وصيانة للحرية والتمدن من مخالب التوحش والخراب ، قيامًا بفريضة دفع المعتدين وإمضاء العدل بين العالمين .

٧- إن على الملك التعـفف عن أموال رعيته ، والزهـد في أخذ أجره ، في مقابلة عمل يأتيه ، ففي ذلك حفظ كرامته وزيادة الشغف بمحبته .

٨- التحدث بنعمة الله إذا اقتضاه المقام .

٩- تدعيم الأسـوار والحصون في الثـغور وتقويتـها على أسس علمـية وفق دراسة ميدانية صحيحة ، لتنتفع به الأجيال على مر العصور وكر الدهور .

١٠- مشـاركة الحـاكم العمـال في الأعمـال ، والإشراف بنفسـه إذا تطلب الأمر ، لكي تنشط الهمم .

١١- تذكير الغـير وتعريفهم ثمار الأعمـال المهمة لكي يستشعـروا رحمة الله تعالى .

١٢- استحضار القدوم على الله ، واستشعار زوال هذه الدنيا والتطلع إلى ما عند الله .

١٣- الاعتـبار بتخليـد جميل الثناء ، وجليل الآثار ، حـيث نجد أن الآيات الكريمة أوضحت أخلاق ذي القرنين الكريمة من شجاعة وعفة وعدل وحرص على توطيد الأمن والإحسان للمحسنين ومعاقبة الظالمين .

١٤- الاهتمام بتوحيد الكلمة لمن يملك أممًا متباينة ، كما كان يرمي إليه سعي ذي القرنين ، فإنه دأب على توحيد الكلمة بين الشعوب ومزج تلك الأمم المختلفة ليربطها بالمنهج الرباني والشرع السماوي[1] .

وبهذا نقف عند الدروس والعبر والحكم من هذا القصص القرآني الكريم .

* ■ *

(١) انظر : تفسير الإمام القاسمي (١١/ ٨٧ إلى ٩٠) .

■ الباب الثاني ■
شروط التمكين وأسبابه

تمهيد:

إن الاستخلاف في الأرض ، والتمكين لدين الله ، وإبدال الخوف أمنًا ، وعد من الله تعالى متى ما حقق المسلمون شروطه ولقد أشار القرآن الكريم بكل وضوح إلى شروط التمكين ، ولوازم الاستمرار فيه: قال تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ**﴾ (سورة النور: ٥٥،٥٦) .

لقد أشارت الآيات الكريمة إلى شروط التمكين وهي : الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح، بكل أنواعه، والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وتحقيق العبودية الشاملة، ومحاربة الشرك بكل أشكاله وأنواعه وخفاياه، وأما لوازم استمرار التمكين فهي: إقامة الصلاة، وإيتاء الزكاة، وطاعة الرسول ﷺ .

وأما ما يتعلق بأسباب التمكين فقد أمر الله تعالى بالإعداد الشامل في قوله تعالى : ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ . . . .**﴾ (الأنفال : ٦٠) .

والإعداد في حقيقته أخذ بالأسباب ، فالإعداد المطلوب من خلال مفهوم الآية إعداد شامل؛ لأن كلمة قوة جاءت نكرة في سياق الأمر؛ فيشمل قوة العقيدة والإيمان، وقوة الصف والتلاحم، وقوة السلاح والساعد .

إن الآية الكريمة تفتح أذهان المسلمين على الإعداء الشامل ؛ المعنوي والمادي، العلمي والفقهي على مستوى الأفراد والجماعات، وتدخل في طياتها الإعداد

التربوي والسلوكي، والإعداد المالي، والإعلامي والسياسي والأمني ، والعسكري . . . إلخ .

وفي هذا الباب سنتعرض لبيان شروط التمـكين في فصل مستقل وبيان أسبابه في فصل آخـر بإذن الله تعالى، لكي يستـفيد منها المـسلمون في حركتـهم الجادة لتمكين شرع الله في الأرض .



■ الفصل الاول ■
شروط التمكين

تمهيد:

إن الاستخلاف في الأرض، والتـمكين لدين الله، وإبدال الخوف أمنًا، وعد من الله تعالى متى ما حقق المسلمون شروطه .

ولقـد أشـار القــرآن الكريم بكل وضــوح إلى شـروط الـتـمكين ، ولوازم الاستمرار فيه .

قال تعالى : ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ (سورة النور: ٥٥، ٥٦) .

لقد أشـارت الآيات الكريمة إلى شروط التـمكين وهي ، الإيمان بكل معـانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح، بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر، وأمـا لوازم استمـرار التمكين فيه ؛ إقـامة الصلاة وإيتـاء الزكاة ، وطاعة الرسول ﷺ .

■

المبحث الأول
الإيمان بالله والعمل الصالح

. لقد بين الله سبحانه لعباده حقيقة الإيمان الذي يقبل الله به الأعمال ويتحقق به وعد الله للمؤمنين .

فمن شروط الاستخلاف في الأرض تحقيق الإيمان بكل معانيه والالتزام بشروطه والابتعاد عن نواقضه .

وقد فصل القرآن الكريم والسنة النبوية موضوع الإيمان وأركانه وشروطه ولوازمه .

وقد بين علماء أهل السنة في تعاريفهم بيان حقيقة الإيمان فقالوا؛ بأن الإيمان هو التصديق بالقلب والنطق بالشهادتين والعمل بالجوارح والأركان . أي هو: اعتقاد وقول وعمل . فهذه الثلاثة كلها مندرجة فيه وتمثل أجزاء من حقيقته . . وقد تواترت أقوال العلماء ومن بعدهم على هذه الحقيقة واستدلوا بأدلة كثيرة من الآيات القرآنية والأحاديث النبوية على صحة هذا القول في حقيقة الإيمان[1].

. قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٢) الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣) أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ (سورة الأنفال: ٢، ٤) .

فقد جمعت هذه الآيات -وهي تعرض صفات المؤمنين- بين عمل القلب وعمل الجوارح، واعتبرت هذا كله إيمانًا، وقصرت الإيمان عليه بأداة القصر والحصر (إنّما) وعرّفت المؤمنين بتلك الصفات مجتمعة، عندما ضمنتها بعبارة ﴿أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا﴾ وأعمال الجوارح في هذه الصفات هي : إقامة الصلاة والإنفاق في سبيل الله .

---

(١) انظر: في ظلال الإيمان للخالدي ، ص٢٣ .

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّمَا يُؤْمِنُ بِآيَاتِنَا الَّذِينَ إِذَا ذُكِّرُوا بِهَا خَرُّوا سُجَّدًا وَسَبَّحُوا بِحَمْدِ رَبِّهِمْ وَهُمْ لا يَسْتَكْبِرُونَ﴾ (السجدة: ١٥) . فسجود المؤمنين عندما يذكّرون بآيات الله، عبادة عملية بدنية، وتسبيحهم بحمد ربهم عبادة عملية لسانية، وعدم استكبارهم عبادة عملية سلوكية أخلاقية قلبية .. وهذه كلها أعمال مندرجة في حقيقة الإيمان .

ومنها قوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ (البقرة:٢٧٧) . فمن حقيقة الإيمان في الآية عمل الصالحات على عمومها وخصصت اثنتين منها بالذكر وهما الصلاة والزكاة، واعتبرت أداءهما عمليًّا من الإيمان .

إن آيات القرآن التي قرنت بين الإيمان وعمل الصالحات واعتبرت الأمرين من حقيقة الإيمان ومن صفات المؤمنين كثيرة، منها قوله تعالى : ﴿إِلاَّ مَن تَابَ وَآمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ يَدْخُلُونَ الْجَنَّةَ وَلا يُظْلَمُونَ شَيْئًا﴾ (سورة مريم : ٦٠) .

وفي قوله تعالى: ﴿إِلاَّ مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَأُوْلَئِكَ لَهُمْ جَزَاءُ الضِّعْفِ بِمَا عَمِلُوا وَهُمْ فِي الْغُرُفَاتِ آمِنُونَ﴾ (سورة سبأ: ٢٧) .

وكقوله تعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً﴾ (سورة الكهف: ٣٠) .

هذا وقد أطلق القرآن لفظ (الإيمان) على العمل في بعض الآيات ومن ذلك قوله تعالى: ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا وَمَا جَعَلْنَا الْقِبْلَةَ الَّتِي كُنتَ عَلَيْهَا إِلاَّ لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ الرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلاَّ عَلَى الَّذِينَ هَدَى اللَّهُ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ إِنَّ اللَّهَ بِالنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (البقرة:١٤٣) . والإيمان هنا يراد به الصلاة، وقد ذهب جمهور المفسرين إلى هذا، بل إن الصحابة فهموا هذا ، وتضافرت الروايات عنهم في سبب نزول الآية :

روى إمام المفسرين ابن جرير الطبري بسنده عن قتادة قال : (كانت القبلة فيها بلاء وتمحيص . صلّت الأنصار نحو بيت المقـدس حولين قبل قدوم نهي نبي الله ﷺ . وصلى نبي الله ﷺ بعد قدومه المدينة مهاجرًا نحو بيت المقدس سبعة عشر شـهرًا . . . ثم وجّهه الله بعـد ذلك إلى الكعبة البيت الحـرام . . فقال في ذلك قائلون من الناس: ما ولاّهم عن قبلتهم التي كانوا عليها؟ لقد اشتاق الرجل إلى مولده: قـال الله عز وجل : ﴿ **قُل لِّلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ يَهْدِي مَن يَشَاءُ إِلَىٰ صِرَاطٍ مُّسْتَقِيمٍ** ﴾ (سورة البقرة:١٤٢) . فقال أناس -لما صُرفت القبلة نحو البيت الحرام كيف بأعـمالنا التي كنا نعمـل في قبلتنا الأولى؟ فأنزل الله ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ ثم أورد الإمام الطبري إحدى عشـرة رواية عن الصحابة والتابعين في أن المراد بالإيمان في الآية الصلاة، وأنها نزلت جوابًا على تساؤل لبعض الصحابة عن مصـير الصلاة التي صـلوها إلى بيت المقدس، وتساؤل آخـرين منهم عن مصـير صلاة إخوانهم إلى بيت المقدس الذين ماتوا قبل تحويل القبلة إلى الكعبة[١] .

فمعنى قوله: ﴿**وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَانَكُمْ**﴾ على ما تضافرت به الرواية من أنه الصـلاة -ومـا كان الله لـيضـيع تصـديق رسـول الله ﷺ بصـلاتكم التي صليتـموها نحـو بيت المقدس عن أمره، لأن ذلك كـان منكم تصديقًـا لرسولي، واتباعًا لأمري، وطاعة منكم لي)[٢].

وقـد التفت الإمـام الطبري إلـى الربط بين الإيمان والصلاة، ولاحظ وجـود التصديق في ممارسة الصلاة والتوجه فيها إلى بيت المقدس ثم إلى الكعبة المشرفة . وهذه اللفتة من الطبري لطيفة، وهذا الربط منه رائع . يشير إلى موهبته الفذة في التفسير واللغة وغيرها[٣] .

ومن الآيات التي أطلقت كلمة الإيمان على الأعمـال قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ**

---

(١) انظر: تفسير الطبري (٣ : ١٦٧-١٦٩) .
(٢) المصدر نفسه (٣: ١٦٩) .
(٣) في ظلال الإيمان : د . الخالدي ، ص٢٦ .

آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمُ الأَنْهَارُ فِي جَنَّاتِ النَّعِيمِ﴾ (يونس : ٩) .

ذهبت طائفة من المفسرين إلى أن المراد بالإيمان هنا الأعمال التي كانوا يعملونها في الدنيا . . وقد أورد الإمام الطبري أقوال مجموعة من التابعين في هذا المعنى، منها قول ابن جريج: (وقال ابن جريج: يهديهم ربهم بإيمانهم قال: يمثل له عمله في صورة حسنة وريح طيبة ، يعارض صاحبه ويبشره بكل خير، فيقول له من أنت؟ فيقول : أنا عملك ! فيجعل له نوراً من بين يديه حتى يدخله الجنة، فذلك قوله: ﴿يَهْدِيهِمْ رَبُّهُمْ بِإِيمَانِهِمْ﴾ والكافر يمثل له عمله في صورة سيئة وريح منتنة ، فيلازم صاحبه ويُلازُّمه حتى يقذفه في النار)[١] وهناك آيات أخرى أطلقت على الإيمان عبارات أخرى تشير إلى العمل وتتضمنه، أورد الإمام البخاري في صحيحه بعضها:

منها قوله تعالى: ﴿قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ﴾ (الفرقان: ٧٧) .

قال البخاري: (دعاؤكم: إيمانكم . . . ومعنى الدعاء في اللغة الإيمان) .

وجعل ابن عباس رضي الله عنهما الدعاء بمعنى الإيمان قال: (لولا دعاؤكم: إيمانكم)[٢] .

ومن هذه الآيات قوله تعالى: ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ قِبَلَ الْمَشْرِقِ وَالْمَغْرِبِ وَلَكِنَّ الْبِرَّ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَالْمَلائِكَةِ وَالْكِتَابِ وَالنَّبِيِّينَ وَآتَى الْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِ ذَوِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَالسَّائِلِينَ وَفِي الرِّقَابِ وَأَقَامَ الصَّلاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَالْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَاهَدُوا وَالصَّابِرِينَ فِي الْبَأْسَاءِ وَالضَّرَّاءِ وَحِينَ الْبَأْسِ أُولَٰئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ﴾ (البقرة : ١٧٧) فالآية اعتبرت هذه الخصال تصديقًا وإيمانًا ، وجعلت أعمال البر هذه من الإيمان . ووجه الدلالة من

---

(١) تفسير الطبري (١٥/ ٢٨) .

(٢) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان، باب دعاؤكم إيمانكم (١/ ٩) .

الآية ما فسره رسول الله ﷺ حيث روي عبد الرزاق[١] وغيره عن أبي ذر الغفاري رضي الله عنه أنه سأل رسول الله ﷺ عن الإيمان فتلا عليه هذه الآية ﴿ لَيْسَ الْبِرَّ أَن تُوَلُّوا وُجُوهَكُمْ . . . ﴾ إلى آخرها . . والحديث رجاله ثقات[٢] .

ومن فقه الإمام البخاري وفطنته - وهو البصير في الحديث والتفسير - أنه جعل هذه الآية وما فيها من خصال البر من أمور الإيمان وضمن باب أسماه "باب أمور الإيمان " وقرنها مع الآيات الأولى من سورة " المؤمنون " التي تتحدث عن صفات المؤمنين، ومع الحديث الذي يقرر أن الإيمان بضع وستون شعبة[٣] .

ومن هذه الآيات : ثلاث آيات أوردها الإمام البخاري في صحيحه ضمن باب: " من قال إن الإيمان هو العمل " وهي قوله تعالى : ﴿وَتِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي أُورِثْتُمُوهَا بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴾ (الزخرف : ٧٢) قال ابن حجر في الفتح : " وقد نقل جماعة من المفسرين أن قوله هنا تعملون معناه : تؤمنون "[٤] والثانية قوله تعالى: ﴿فَوَرَبِّكَ لَنَسْأَلَنَّهُمْ أَجْمَعِينَ ﴿٩٢﴾ عَمَّا كَانُوا يَعْمَلُونَ ﴾ (الحجر : ٩٢- ٩٣) .

قال البخاري : " عن لا إله إلا الله " قال ابن حجر في الشرح : يدخل فيها المسلم والكافر . فإن الكافر مخاطب بالتوحيد بلا خلاف ، بخلاف باقي الأعمال ففيها الخلاف . . . فالسؤال عن التوحيد متفق عليه فهذا هو دليل التخصيص ، وحمل الآية عليه أولى ، بخلاف الحمل على جميع الأعمال لما فيه من الاختلاف[٥] .

من هذه الآيات التي أوردناها يتبين لنا أن الإيمان في القرآن شامل للاعتقاد وللنطق وللعمل ، ولا بد من القول بهذا اتباعًا للقرآن الكريم ، الذي يجب أن

---

(١) هو الإمام العلامة الحافظ عبد الرزاق بن همام ، الصنعاني ، صاحب المصنف، رحل الأئمة إليه من اليمن وله أوهام مغمورة في سعة علمه توفي ٢١١هـ، العبر (١/ ٢٨٣).

(٢) فتح الباري ، كتاب الإيمان ، باب أمور الإيمان (١/ ٧٤) .

(٣) المصدر نفسه ، (١ / ٧٤) .

(٤) فتح الباري، باب الإيمان ، باب من قال إن الإيمان هو العمل (١/ ١٠٩) .

(٥) المصدر نفسه (١/ ١١٠) .

تؤخذ منه الأقوال والآراء ، وأن يعتمد عليه في الاستدلال والاستنباط ، وأن يدخله المتأمل والباحث دون مقررات مسبقة . . فما قرره القرآن قبل ، وما عرضه أخِذ به ، وما قال به لزم المؤمنين القول به . . وإليك أخي القارئ طائفة من أحاديث رسول الله ﷺ التي اعتبرت الإيمان شاملاً للقول والعمل والاعتقاد :

روى الإمام البخاري في صحيحه عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال: "الإيمان بضع وستون شعبة . . والحياء شعبة من الإيمان "[1].

وفي رواية للإمام مسلم عن أبي هريرة رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " الإيمان بضع وسبعون شعبة . أفضلها قول لا إله إلا الله ، وأدناه إماطة الأذى عن الطريق . . والحياء شعبة من الإيمان . . "[2] والشاهد في الحديث ما ذكره رسول الله ﷺ فالشهادة قول وإماطة الأذى عن الطريق عمل ، والحياء خلق وسلوك ، وجعل الثلاثة من الإيمان دليل على حقيقته ، ومعظم شعب الإيمان هي أعمال[3] .

وروى البخاري عن أنس بن مالك رضي الله عنه عن النبي ﷺ قال : " لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه ما يحب لنفسه "[4].

وروى البخاري عن أبي هريرة وأنس رضي الله عنهما أن النبي ﷺ قال : " والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى أكون أحب إليه من والده وولده والناس أجمعين "[5] .

وروى البخاري عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ سئل أي العمل أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله ، قيل ثم ماذا ؟ قال : الجهاد في سبيل الله ، قيل ثم ماذا ؟ قال : حج مبرور "[6].

---

(١) رواه البخاري ، كتب الإيمان ، باب أمور الإيمان (١/ ١٠) رقم ٩ .

(٢) رواه مسلم ، كتاب الإيمان، باب بيان عدد شعب الإيمان (١/ ٦٣) رقم ٥٧ .

(٣) في ظلال الإيمان ، ص٣٠ .

(٤) رواه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب من الإيمان أن يحب لأخيه (١/ ١١) رقم ١٣ .

(٥) رواه البخاري، كتاب الإيمان ، باب حب الرسول ﷺ من الإيمان (١/ ١١) رقم ١٤ .

(٦) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب (فإن تابوا وأقاموا الصلاة) (١/ ١٤) رقم ٢٦ .

وروى البخاري عن ابن عباس رضي الله عنهما أن رسول الله صلى الله عليه وسلم أمر وفد عبد القيس عندما قدموا عليه بالإيمان بالله وحده . قال : " هل تدرون ما الإيمان ؟ قالوا : الله ورسوله أعلم. قال : شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وأن تؤدوا خمسًا من المغنم "[١] .

هذه الأحاديث وغيرها من الأحاديث تجعلها شاملة للاعتقاد والعمل، وأما أقوال السلف فقد تواترت في بيان حقيقة الإيمان .

قال شارح الطحاوية : " ذهب مالك والشافعي وأحمد والأوزاعي[٢] وإسحاق[٣] بن راهوية وسائر أهل الحديث وأهل المدينة رحمهم الله وأهل الظاهر وجماعة من المتكلمين : إلى أنه تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان "[٤].

وقال الإمام سهل بن عبد الله التستري[٥]" الإيمان : قول وعمل ونية وسنّة . . . لأن الإيمان إذا كان قولاً بلا عمل فهو كفر . وإذا كان قولاً وعملاً بلا نية فهو نفاق . وإذا كان قولاً وعملاً ونية بلا سنة فهو بدعة "[٦].

وقال الإمام عبد الرزاق : سمعت من أدركت من شيوخنا وأصحابنا سفيان الثوري[٧] ومالك بن أنس وعبد الله بن عمر والأوزاعي ، ومعمر بن راشد[٨] وسفيان بن عُيينة[٩] يقولون : الإيمان قول وعمل يزيد وينقص .

---

(١) رواه البخاري، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس من الإيمان (١/ ٢٣) رقم ٥٣ .

(٢) هو الإمام العابد الحجة الثقة عبد الرحمن بن عمر الأوزاعي الفقيه روى عن خلق كثير من التابعين ، وكان رأسًا في العلم والعمل والاتباع، بارعًا في الكتابة، كان يكثر من الصلاة والعبادة وقيام الليل توفي في بيروت عام ١٥٨هـ . تهذيب التهذيب (٦/ ٢٣٨)، شذرات الذهب (١/ ٣٤١) .

(٣) هو الإمام المشرق إسحاق بن إبراهيم المروزي ثم النيسابوري الحافظ ابن راهوية عالم خرسان والعراق في عصره توفي سنة ٢٣٨هـ . حلية الأولياء ٩/ ٢٣٤ .

(٤) انظر: الطحاوية ، ص٣٧٣ .

(٥) من الزهاد الكبار والعباد المشهورين اشتهر بالتصوف السني وبالحكم الجميلة .

(٦) الإيمان ابن تيمية : ١٦٣ .

(٧) هو سفيان بن مسروق شيخ الإسلام من أهل الحديث توفي ١٦١هـ، سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٢٩) .

(٨) هو معمر بن راشد أبو عمر البصري من تلاميذ عبد الرزاق الصنعاني ت ١٥٣هـ ميزان الاعتدال ٤/ ١٥٤ .

(٩) هو محمد أبو محمد بن عيينة بن أبي عمران الهلالي توفي ١٩٨هـ . تهذيب التهذيب (٤/ ١١٧) .

وهذا قول ابن مسعود وحذيفة[١] والنخعي[٢] والحسن البصري[٣] وعطاء[٤] وطاوس[٥] ومجاهد وعبد الله بن المبارك[٦] . فالمعنى الذي يستحق به العبد المدح والولاية من المؤمنين هو إتيانه بهذه الأمور الثلاثة : التصديق بالقلب والإقرار باللسان والعمل بالجوارح[٧] .

فهؤلاء مصابيح الهدى وأئمة الدين وعلماء الأمة من أهل الحجاز والعراق والشام وخراسان يرون أن الإيمان قول باللسان وعمل بالأركان واعتقاد بالجنان .

وقال الإمام البخاري في كتاب الإيمان في صحيحه " هو قول وفعل يزيد وينقص والحب في الله والبغض في الله من الإيمان . وقال عمر بن عبد العزيز : إن للإيمان فرائض وشرائع وحدوداً وسننًا ، فمن استكملها استكمل الإيمان، ومن لم يستكملها لم يستكمل الإيمان ، فإن أعشْ فسأبينها لكم حتى تعملوا بها ، وإن أمت فما أنا على صحبتكم بحريص[٨] .

وبهذا يتبين لنا أن مفهوم الإيمان وحقيقته في القرآن والسنة وفي مفهوم السلف ، تصديق بالجنان ، وإقرار باللسان ، وعمل بالأركان ،قال سيد رحمه الله في ظلاله : (إن حقيقة الإيمان التي يتحقق بها وعد الله حقيقة ضخمة تستغرق النشاط الإنساني كله ، وتوجه النشاط الإنساني كله ، فما تكاد تستقر في القلب حتى تعلن عن نفسها في صورة عمل ونشاط وبناء وإنشاء موجه كله إلى الله ، لا يبتغي به صاحبه إلا وجه الله ، وهي طاعة لله واستسلام لأمره في

(١) حذيفة بن اليمان صحابي جليل صاحب سر رسول الله ﷺ .
(٢) هو إبراهيم بن يزيد النخعي توفي ٩٦هـ . تهذيب التهذيب (١/١٧٧) .
(٣) من سادات التابعين اشتهر بالعلم والعبادة والزهد توفي ١١٠هـ بالبصرة .
(٤) هو عطاء بن أبي رباح فقيه أهل الحجاز، أفضل أهل زمانه توفي ١١٤هـ . العبر (١/١٠٨).
(٥) طاوس بن كيسان اليماني أبو عبد الرحمن أحد الأعلام علمًا وأدبًا (ت ١٠٦هـ) العبر (١/٩٩) .
(٦) كان من المجاهدين العاملين جمعت فيه خصال الخير توفي ١٨١هـ . وفيات الأعيان ٣/٣٢ .
(٧) مسلم مع شرح النووي، كتاب الإيمان (١ : ١٤٦-١٤٧) .
(٨) رواه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب قول النبي ﷺ بني الإسلام على خمس (١/٩) .

الصغيرة والكبيرة ، لا يبقى معها هوى في النفس ، ولا شهوة في القلب ، ولا ميل في الفطرة إلا وهو تبع لما جاء به رسول الله ﷺ من عند الله .

فهو الإيمان الذي يستغرق الإنسان كله ، بخواطر نفسه ، وخلجات قلبه وأشواق روحه ، وميول فطرته ، وحركات جسمه ، ولفتات جوارحه وسلوكه مع ربه في أهله ، ومع الناس جميعًا . يتمثل هذا في قول الله سبحانه في الآية نفسها تعليلاً للاستخلاف والتمكين والأمن "[١] .

لقد تقرر أن الإيمان عند علماء السلف قول باللسان واعتقاد بالجنان وفعل بالأركان .

والقول باللسان هو النطق بشهادة الحق وهي كلمة التوحيد (لا إله إلا الله محمد رسول الله) .

ومعناها : لا معبود بحق إلا الله ، وبذلك تنفي الإلهية عما سوى الله وتثبتها لله وحده[٢] .

يقول شيخ الإسلام ابن تيمية رحمه الله : (ليس للقلوب سرور ولا لذة تامة إلا في محبة الله ، والتقرب إليه بما يحبه ، ولا تمكن محبته إلا بالإعراض عن كل محبوب سواه ، وهذا حقيقة " لا إله إلا الله " وهي ملة إبراهيم الخليل عليه السلام وسائر الأنبياء والمرسلين صلاة الله وسلامه عليهم أجمعين)[٣] أما شقها الثاني: محمد رسول الله ، فمعناه تجريد متابعته ﷺ فيما أمر والانتهاء عما نهى عنه وزجر .

ومن هنا كانت " لا إله إلا الله " ولاء وبراء نفيًا وإثباتًا .

ولاء لله ولدينه وكتابه وسنَّة نبيه وعباده الصالحين ، وبراء من كل طاغوت

---

(١) ظلال القرآن (٤/٢٥٢٨) .

(٢) انظر: فتح المجيد ، ص٣٦ .

(٣) مجموع فتاوى الإسلام (٢٨/ ٣٢) .

﴿ فَمَن يَكْفُرْ بِالطَّاغُوتِ وَيُؤْمِن بِاللَّهِ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ . . ﴾ (البقرة: ٢٥٦) .
وبهذه الآية يتضح أن الإنسان لا يكون مؤمنًا إلا بالكفر بالطاغوت .

وكلمة التوحيد ولاء لشرع الله قال تعالى : ﴿ اتَّبِعُوا مَا أُنزِلَ إِلَيْكُم مِّن رَّبِّكُمْ وَلَا تَتَّبِعُوا مِن دُونِهِ أَوْلِيَاءَ قَلِيلًا مَّا تَذَكَّرُونَ ﴾ (سورة الأعراف : ٣) .

وقال تعالى: ﴿ فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا ﴾ (سورة الروم، آية : ٣٠) .

وبراء من حكم الجاهلية : قال تعالى : ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴾ (سورة المائدة، آية : ٥٠) .

وبراء من كل دين غير دين الإسلام : قال تعالى : ﴿ وَمَن يَبْتَغِ غَيْرَ الْإِسْلَامِ دِينًا فَلَن يُقْبَلَ مِنْهُ وَهُوَ فِي الْآخِرَةِ مِنَ الْخَاسِرِينَ ﴾ (سورة آل عمران : ٨٥) .

ثم هي نفي وإثبات تنفي أربعة أمور[1] وتثبت أربعة أمور .

تنفي الآلهة ، والطواغيت ، والأنداد ، والأرباب

فالآلهة : ما قصدته بشيء من جلب خير أو دفع ضر ، فأنت متخذه إلهًا.

والطواغيت: من عبد وهو راضي ، أو رُشح للعبادة .

والأنداد: ما جذبك عن دين الإسلام ، من أهل ، أو مسكن ، أو عشيرة ، أو مال فهو ندّ لقوله تعالى : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ ﴾ (سورة البقرة: ١٦٥) .

والأرباب : من أفتاك بمخالفة الحق وأطعته مصداقًا لقوله تعالى : ﴿ اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ . . . ﴾ (سورة التوبة : ٣١) .

وتثبت أربعة أمور :

١- القصد : وهو كونك ما تقصد إلا الله .

---

(١) انظر: الولاء والبراء في الإسلام لمحمد سعيد القحطاني ، ص٢٥ .

٢- والتعظيم والمحبة : لقوله تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ . . . ﴾ (البقرة : ١٦٥) .

٣- والخوف والرجاء لقوله تعالى : ﴿وَإِن يَمْسَسْكَ اللَّهُ بِضُرٍّ فَلا كَاشِفَ لَهُ إِلاَّ هُوَ وَإِن يُرِدْكَ بِخَيْرٍ فَلا رَادَّ لِفَضْلِهِ يُصِيبُ بِهِ مَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَهُوَ الْغَفُورُ الرَّحِيمُ﴾ (سورة يونس ، آية : ١٠٧) .

ولقد جاء القرآن من أوله إلى آخره يبين معنى لا إله إلا الله ينفي الشرك وتوابعه ويقرر الإخلاص وشرائعه ، فكل قول وعمل صالح يحبه الله ويرضاه هو من مدلولات كلمة الإخلاص ، لأن دلالتها على الدّين كله إما مطابقة[١] وإما تضمنًا[٢] وإما التزامًا[٣] ، يقرر ذلك أن الله سماها كلمة التقوى .

٤- والتقوى : إن يتقي سخط الله وعقابه بترك الشرك والمعاصي ، وإخلاص العبادة لله ، واتباع أمره على ما شرعه . كما قال ابن مسعود ﷺ: " أن تعمل بطاعة الله ، على نور من الله ، ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله ، على نور من الله ، تخاف عقاب الله "[٤] .

لقد تم لأصحاب رسول الله ﷺ معرفة هذه الكلمة والتزام أحكامها والعمل بمقتضاها ولوازمها .

قال سفيان بن عيينة : عندما سأله رجل عن الإيمان ؟ فقال : قول وعمل ، قال : يزيد وينقص ؟ قال: يزيد ما شاء الله ، وينقص حتى لا يبقى منه مثل هذه ، وأشار سفيان بيده . قال الرجل : كيف نصنع بقوم عندنا يزعمون : أن الإيمان قول لا عمل ؟ قال سفيان : كان القول قولهم قبل أن تقرر أحكام الإيمان وحدوده إن الله عز وجلّ بعث نبينا محمدًا ﷺ إلى الناس كلهم كافة أن

---

(١) دلالة المطابقة : هي دلالة اللفظ على معناه .

(٢) دلالة التضمين : هي دلالة اللفظ على جزء معناه .

(٣) دلالة الالتزام : هي دلالة اللفظ على معنى خارج عنه لكنه لازم له .

(٤) انظر : المورد العذب الزلال مجموعة الرسائل النجدية (٤/ ٩٩) .

يقولوا: لا إله إلا الله ، وأنه رسول الله . فلما قالوها عصموا بها دماءهم وأموالهم إلا بحقها وحسابهم على الله عز وجل ، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم، أمره أن يأمرهم بالصلاة ، فأمرهم ففعلوا ، فو الله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ، فلما علم الله جل وعلا صدق ذلك من قلوبهم ، أمره أن يأمرهم بالهجرة إلى المدينة ، فأمرهم ففعلوا ، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ، فلما علم الله تبارك وتعالى صدق ذلك من قلوبهم ، أمرهم بالرجوع إلى مكة ليقاتلوا آباءهم وأبناءهم ، حتى يقولوا كقولهم ، ويصلوا صلاتهم ، ويهاجروا هجرتهم ، فأمرهم ففعلوا ، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ولا هجرتهم ، ولا قتالهم ، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم أمره أن يأمرهم بالطواف بالبيت تعبدًا ، وأن يحلقوا رءوسهم تذللاً ففعلوا ، فوالله لو لم يفعلوا ما نفعهم الإقرار الأول ، ولا صلاتهم ، ولا هجرتهم ، ولا قتلهم آباءهم ، فلما علم الله عز وجل صدق ذلك من قلوبهم أمرهم أن يأخذ من أموالهم صدقة يطهرهم بها ، فأمرهم ففعلوا حتى أتوا بها قليلها وكثيرها ، والله لو لم يفعلوا مانفعهم الإقرار الأول ولا صلاتهم ، ولا هجرتهم ، ولا قتالهم آباءهم ولا طوافهم . فلما علم الله تبارك وتعالى الصدق من قلوبهم فيما تتابع عليهم من شرائع الإيمان وحدوده قال عز وجل : قل لهم : ﴿الْيَوْمَ أَكْمَلْتُ لَكُمْ دِينَكُمْ وَأَتْمَمْتُ عَلَيْكُمْ نِعْمَتِي وَرَضِيتُ لَكُمُ الإِسْلامَ دِينًا﴾ (سورة المائدة ، آية : ٣) .

قال سفيان الثوري : فمن ترك خلة من خلال الإيمان كان بها عندنا كافرًا ومن تركها كسلاً أو تهاونًا بها ، أدّبناه وكان بها عندنا ناقصًا . هكذا السُّنة أبلغها عني من سألك من الناس [١] .

وقد ذكر العلماء رحمهم الله شروطًا سبعة لـ " لا إله إلا الله " لا تنفع صاحبها إلا باجتماع هذه الشروط . وإليك شرحها :

---

(١) كتاب الشريعة لأبي بكر محمد بن الحسين الآجري، ص١٠٤ .

شروط كلمة التوحيد :

لا بد أن تعلم أنه : (ليس المراد من هذا عـدّ ألفاظهـا وحفظهـا ، فكم من عاميٍّ اجتمـعت فيه والتزمها ، ولو قيل له أعـدّها لم يُحسن ذلك ، وكم حافظ لألفاظها يجري فـيها كالسهم ، وتراه يقع كثـيرًا فيما يناقضهـا والتوفيق بيد الله ، والله المستعان)[١] .

وقد قال وهب بن منبه[٢] : لمن سأله :

(أليس " لا إله إلا الله " مفـتاح الجنة ؟ قال : بلى . ولكن ما من مـفتاح إلا وله أسنان ، فإن جئت بمفتاح له أسنان فتح لك ، وإلا لم يفتح لك)[٣] .

وأسنان هذا المفتاح هي شروط " لا إله إلا الله " الآتية :

الشرط الأول : العلم بمعناها المراد منها نفيًا وإثباتًا ، المنافي للجهل بذلك قال تعالى : ﴿ **فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ** ﴾ (سورة محمد ، آية : ١٩) .

وقال تعـالى : ﴿ **إِلاَّ مَن شَهِدَ بِالْحَقِّ وَهُمْ يَعْلَمُونَ** ﴾ (الزخرف ، آية : ٨٦) أي بـ "لا إله إلا الله " : "وهم يعلمون " بقلوبهم ما نطقوا به بألسنتهم .

وقال تعالى : ﴿ **شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (سورة آل عمران : ١٨) .

وفي الصحيح عـن عثمان ﷺ قال : قـال رسول الله ﷺ : " من مات وهو يعلم أنه لا إله إلا الله دخل الجنة "[٤] .

الشرط الثاني : اليقين المنافي للشك . ومعنى ذلك : أن يكون قائلها مستيقنًا

---

(١) معارج القبول للشيخ الحافظ الحكمي (٢/٤١٨) .

(٢) وهب بن منبه بن كامل اليماني الصنعاني روى عن أبي هريرة وأبي سعيد وابن عباس وابن عمر توفي ١١٠هـ . انظر : تهذيب التهذيب (١١/١٦٧) .

(٣) رواه البخاري ، كتاب الجنائز ، باب من كان آخر كلامه : لا إله إلا الله (٢/٨٧) .

(٤) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل من مات على التوحيد (١/٥٥) رقم ٤٣ .

بمدلولات هذه الكلمة ، يقـينًا جازمًا ، فإن الإيمان لا يغني فـيه إلا علم اليقين لا علم الظن[1]. قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ﴾ (الحجرات : ١٥) .

وفي الصـحيح من حديـث أبي هريرة ﷺ قال : قـال رسول الله ﷺ : " أشهد أن لا إله إلا الله وأني رسول الله، لا يلقى الله بهما عبـد غير شاك فيهما إلا دخل الجنة "[2].

الشرط الثالث : القبول لما اقتضته هذه الكلمة بقلبه ولسانه ، وقد قصّ الله عز وجل علينا من أنباء ما قد سبق من إنجاء من قبلها، وانتقامه ممن ردّها وأباها .

قال تعالى : ﴿وَكَذَٰلِكَ مَا أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ فِي قَرْيَةٍ مِّن نَّذِيرٍ إِلَّا قَالَ مُتْرَفُوهَا إِنَّا وَجَدْنَا آبَاءَنَا عَلَىٰ أُمَّةٍ وَإِنَّا عَلَىٰ آثَارِهِم مُّقْتَدُونَ ﴿٢٣﴾ قَالَ أَوَلَوْ جِئْتُكُم بِأَهْدَىٰ مِمَّا وَجَدتُّمْ عَلَيْهِ آبَاءَكُمْ قَالُوا إِنَّا بِمَا أُرْسِلْتُم بِهِ كَافِرُونَ ﴿٢٤﴾ فَانتَقَمْنَا مِنْهُمْ فَانظُرْ كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (سورة الزخرف ، آية : ٢٣ ، ٢٥) .

وقال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أَرْسَلْنَا مِن قَبْلِكَ رُسُلًا إِلَىٰ قَوْمِهِمْ فَجَاءُوهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَانتَقَمْنَا مِنَ الَّذِينَ أَجْرَمُوا وَكَانَ حَقًّا عَلَيْنَا نَصْرُ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الروم ، آية : ٤٧) .

وفي الحديث الصـحيح عن أبي موسى ﷺ عن النبي ﷺ قال : " مـثل ما بعثني الله به من الهدى والعلم كمثل الغيث الكثير أصاب أرضًا فكان منها نقية قبلت الماء فأنبتت الكلأ والعـشب الكثير ، وكانت منها أجـادب أمسكت الماء فنفع الله بها الناس فشربوا وسـقوا وزرعوا ، وأصاب منها طائفة أخرى إنما هـي قيعان لا تمسك ماء ولا تنبت كـلأ ، فذلك مثل من فـقه في دين الله ونفـعه ما بعـثني الله به فعلم وعلم، ومثل من لم يرفع بذلك رأسًا ولم يقبل هدى الله الذي أرسلت به "[3].

(١) معارج القبول (٢/ ٤١٩) .
(٢) رواه مسلم ، كتاب الإيمان ، باب الدليل من مات على التوحيد (١/ ٥٦، ٥٧) رقم ٢٧ .
(٣) رواه البخاري، كتاب العلم ، باب فضل من علِمَ وعلم (١/ ٣٢) رقم ٧٩ .

الشرط الرابع : الانقياد لما دلت عليه ، المنافي لترك ذلك .

قال تعالى : ﴿وَأَنِيبُوا إِلَىٰ رَبِّكُمْ وَأَسْلِمُوا لَهُ ... ﴾ (الزمر ، آية : ٥٤) .

وقال تعالى: ﴿ وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (النساء : ١٢٥) .

وقال تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ (سورة لقمان ، آية : ٢٢) .

وقال تعالى : ﴿ فَلا وَرَبِّكَ لا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ (سورة النساء ، آية : ٦٥) .

قال ابن كثير في تفسيرها : (يقسم الله تعالى بنفسه الكريمة المقدسة أنه لا يؤمن أحد حتى يُحكِّم الرسول ﷺ في جميع الأمور فما حكم به فهو الحق الذي يجب الانقياد له باطنًا وظاهرًا ، ولهذا قال : ﴿ ثُمَّ لا يَجِدُوا فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴾ أي : إذا حكموك يطيعونك في بواطنهم فلا يجدون في أنفسهم حرجًا مما حكمت به ، وينقادون له في الظاهر والباطن فيسلمون لذلك تسليمًا كليًّا من غير ممانعة ولا مدافعة ، ولا منازعة ، كما ورد في الحديث : " والذي نفسي بيده لا يؤمن أحدكم حتى يكون هواه تبعًا لما جئت به "[1])[2] .

الشرط الخامس : الصدق المنافي للكذب ، وهو أن يقولها صدقًا من قلبه ، يواطئ قلبه لسانه ، قال تعالى : ﴿الم ۝١ أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝٢ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة العنكبوت : ١- ٣) .

---

(١) الحديث مروي في الأربعين النووية ص١٣٤ قال فيه النووي : وهو حديث حسن صحيح رويناه في كتاب الحجة بإسناد صحيح .

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥٣٣) .

وقال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ آمَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلاَّ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ﴾ (البقرة : ٨-١٠) .

وفي الصحيـحين عن معاذ بن جبل رضي الله عنه عن النبي صلى الله عليه وسلم : " ما من أحد يشهد أن لا إله إلا الله وأن محمداً عبده ورسوله صدقًا من قلبه إلا حرمه الله على النار "[١].

قال العلاّمة ابن القيم : "والتصـديق بلا إله إلا الله يقتضي الإذعان والإقرار بحقوقها وهي شرائع الإسلام التي هي تفصيل هذه الكلمة ، بالتصديق بجميع أخباره وامتثال أوامره واجتناب نواهيه . . فالمصدق بها على الحقيقة هو الذي يأتي بذلك كله ، ومعلوم أن عصمة المال والدم على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبالقيام بحقّها ، وكذلك النجاة من العذاب على الإطلاق لم تحصل إلا بها وبحقها "[٢] .

وقال ابن رجب : (أما من قال : لا إله إلا الله بلسانه ، ثم أطاع الشيطان وهواه في معصية الله ومخالفته فقد كذب فعله قوله ، ونقص من كمال توحيده بقدر معصية الله في طاعة الشيطان والهوى قال تعالى : ﴿وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ﴾[٣] (سورة ص ، آية : ٢٦) .

الشرط السادس : الإخلاص ، وهو تصفيه بصالح النية عن جميع شوائب الشرك[٤] .

قال تعالى : ﴿أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (سورة الزمر ، آية : ٣) .

---

(١) رواه البخاري ، كتاب العلم ، باب من خص بالعلم قوم (١/ ٤٧) رقم ١٢٨ .
(٢) التبيان في أقسام القرآن لابن القيم ، ص٤٣ .
(٣) كلمة الإخلاص لابن رجب ، ص٢٨ .
(٤) معارج القبول (٢/ ٤٢٣) .

وقال تعالى : ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ﴾ (البينة : ٥) .

وفي " الصحيح " عن أبي هريرة عن النبي ﷺ : " أسعد الناس بشفاعتي من قال : لا إله إلا الله خالصًا من قلبه " ، " أو نفسه "(١) .

وقال الفضيل بن عياض(٢) -رحمه الله- : (إن العمل إذا كان خالصًا ولم يكن صوابًا لم يقبل ، وإذا كان صوابًا ولم يكن خالصًا لم يُقبل ، حتى يكون خالصًا صوابًا . والخالص أن يكون لله ، والصواب أن يكون على السُّنَّة "(٣) .

الشرط السابع : المحبة لهذه الكلمة ، ولما اقتضته ودلّت عليه ، ولأهلها العاملين بها الملتزمين لشروطها ، وبغض ما ناقض ذلك ، قال تعالى : ﴿وَمِنَ النَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ اللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ اللَّهِ وَالَّذِينَ آمَنُوا أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ﴾ (البقرة : ١٦٥) .

وقال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا مَن يَرْتَدَّ مِنكُمْ عَن دِينِهِ فَسَوْفَ يَأْتِي اللَّهُ بِقَوْمٍ يُحِبُّهُمْ وَيُحِبُّونَهُ أَذِلَّةٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ أَعِزَّةٍ عَلَى الْكَافِرِينَ يُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلَا يَخَافُونَ لَوْمَةَ لائِمٍ . .﴾ (سورة المائدة ، آية : ٥٤) .

وفي الحديث الصحيح : " ثلاث من كنّ فيه وجد بهنّ حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود في الكفر بعد أن أنقذه الله منه كما يكره أن يقذف في النار "(٤) .

وقال الشيخ حافظ الحكمي(٥) -رحمه الله- : (وعلامة حب العبد ربه :

---

(١) صحيح البخاري ، كتاب العلم ، باب الحرص على الحديث (٣/ ٣٨) رقم ٩٩ .

(٢) هو أبو علي الفضيل بن عياض بن مسعود الطالقاني الأصل ، الزاهد العابد الثقة الإمام المشهور ، كان أول أمره من قطاع الطرق ، ثم تنسك وسمع الحديث بالكوفة مات سنة ١٨٧هـ ، حلية الأولياء ٨/ ٨٤ ، سير أعلام النبلاء(٨/ ٤٢١) .

(٣) مجموع الفتاوى (٣/ ١٢٤) .

(٤) صحيح البخاري ، كتاب الإيمان ، باب حلاوة الإيمان (١/ ١١) رقم ١٦ .

(٥) هو الشيخ العلامة حافظ بن أحمد الحكمي ، عالم سلفي من منطقة تهامة ولد سنة ١٣٤٢هـ بقرية السلام بالقرب من جيزان . كان آية في الذكاء وسرعة الحفظ والفهم تتلمذ على يد الشيخ الداعية عبد الله القرعاوي توفي سنة ١٣٧٧هـ وعمره ٣٥ . انظر : ترجمته في مقدمة معارج القبول بقلم ابنه .

تقديم محابه وإن خالفت هواه ، وبغض ما يبغض ربه وإن مال إليه هواه ، وموالاة من والى الله ورسوله ، ومعاداة من عاداه ، واتباع رسوله ﷺ ، واقتفاء أثره ، وقبول هداه)(١) .

ويقول ابن القيم في " النونية " :

شرط المحبة أن توافق من تحب ... على محبته بلا عصيان

فإذا ادّعيت له المحبة مع خلا ... فك ما يحب فأنت ذو بهتان

أتحب أعداء الحبيب وتدّعي ... حبًّا له ما ذاك في إمكان

وكذا تعادي جاهدًا أحبابه ... أين المحبة يا أخا الشيطان ؟

ليس العبادة غير توحيد المحبة ... مع خضوع القلب والأركان(٢)

وبعد أن بينت حقيقة الإيمان وشروطه التي يتحقق بها التمكين لدين الله والنصرة على الأعداء يتضح لنا : أن الفرد بغير الإيمان الحقيقي بالله ، ريشة في مهب الريح ، لا تستقر على حال ، ولا تسكن إلى قرار ، والإنسان بغير الدين الإسلامي يتحول إلى حيوان شره ، أو وحش مفترس ، لا تستطيع الثقافة الوضعية ولا القانون الجاهلي أن يحدا من شراهته أو يمنعاه من الافتراس .

والمجتمع بغير دين صحيح ، وإيمان قوي ، مجتمع متوحش مظلم متألم ، وإن لمعت فيه بوارق الحضارة المهترئة وامتلأ بأدوات الرفاهية وأسباب النعيم الحسي ، فهو مجتمع البقاء فيه للأقوى ، لا للأفضل والأتقى ، مجتمع تقرأ التعاسة والشقاء في وجوه أصحابه ، وإن زينوا وجوههم بأنواع الأصباغ والمحسنات ، وركبوا الطائرات ، وسكنوا العمارات واغتصبوا أعظم الثروات ، فهو مجتمع تافه رخيص هزيل . لأن غايات أهله غايات ساذجة ، سطحية هزيلة لا تتجاوز

---

(١) معارج القبول ، (٢ / ٤٢٤) .

(٢) النونية ، ص١٥٨ .

شهوات البطون والفروج ، قال تعالى : ﴿وَالَّذِينَ كَفَرُوا يَتَمَتَّعُونَ وَيَأْكُلُونَ كَمَا تَأْكُلُ الْأَنْعَامُ وَالنَّارُ مَثْوًى لَّهُمْ﴾ (سورة محمد ، آية : ١٢) .

بخلاف مجتمع الإيمان والإسلام المبني على الحب في الله والرضا بكل ما صدر عن الله عز وجل واهب الحياة ومنشئ الخلق ، وصاحب الأمر والنهي المطلق في الوجود كله ، وهذا أمر طبيعي ، في أن يحب الإنسان ربه ، وخالقه ورازقه ، لأن النفوس مجبولة على حب مَنْ أحسن إليها ، وأي إحسان كإحسان من خلق فقدر وشرع فيسر، وجعل الإنسان في أحسن تقويم ، ووعد من أطاعه بجنة الخلد التي فيها ما لا عين رأت ولا أذن سمعت ، ولا خطر على قلب بشر. لهذا كله ولأكثر منه ، أحب المؤمنون ربهم حبًّا لا يقاس بغيره مما هو دونه ، فقدموا أنفسهم وأهليهم وأموالهم في سبيل الله ، بلا تردد أو منة ، بل اعتبروا ذلك تفضل من الله عليهم ، أن فتح لهم باب الجهاد والاستشهاد في سبيله ويسر لهم أسبابه ، فقاموا بذلك الواجب خير قيام[١] .

إن الإيمان الحقيقي بالله ، هو الذي ينبعث منه الحب في الله الذي يحرك إرادة القلب ، ويوجهها إلى المحبوبات وترك المحظورات ، وكلما ازداد الإيمان بالله في نفس المؤمن كلما ازدادت المحبة في الله لديه قوة وصلابة ، وتحول المرّ حلوًا ، والكدر صفاء ، والألم شقاء ، والنصرة جهادًا ، والابتلاء رحمة ، والإحجام عن نصرة أهل الحق خيانة ، وتراجعًا عن الإسلام .

فالحب في الله أخص من الرضا وأعمق أثرًا حيث إنه الضمان الوحيد لترابط المجتمع واحترام حقوقه[٢] ولذلك ورد في الحديث الشريف : " لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تأمنوا حتى تحابوا ، أولا أدلكم على شيء إذا فعلتموه تحاببتم؟ أفشوا السلام بينكم "[٣].

---

(١) انظر: كتاب الإيمان وأثره في الحياة . د .القرضاوي ، ص٥-١٢ .
(٢) انظر: الموالاة والمعادة للجلعود (١/ ٢٤٥) .
(٣) رواه مسلم، كتاب الإيمان، بيان لا يدخل الجنة إلا المؤمنون (١/ ٧٤) رقم ٩٣ .

فحقيقة المحبة في الله لا تتم إلا بموافقة الباري جل وعلا في حب ما يحب وبغض ما يبغض[١].

ولذلك فأكـمل الخلق وأفضلهم وأعـلاهم إيمانًا مَنْ كان أقـربهم إلى الله في محبته ، وأقواهم في طاعته ، وأتمهم عبودية له[٢] .

وهذه الصفات تستلزم محبة الـرسول ﷺ ومحبة ما جاء به من عند الله ، ومـحبـة المؤمنين بهـذا الدين ، وإيثـارهم على النفس بـالمال والنصرة والـتأييـد والانضمام في حزبهم حيث إنهم حزب الله من انضم إلى حزب الله فقد أفلح في دنياه وأخراه .

إن الإيمان بالله ، والحب في الله ، وما يترتب عليـهما قواعد مـتلازمة ينبني بعضها على البعض الآخر ، ويتـأثر اللاحق منها بالسابق ، فإذا قوي الإيمان بالله في نفس المؤمن ازداد الحب في الله ، وازدادت الأفعال المتـرتبة على ذلك ، حتى تصبح الجـماعة المسلمة ، كـخلايا الدم في الجسم تعمل لغـرض واحد ، وهدف واحد ، وفي إطار واحد، عند ذلك تصبح الجماعة المسلمـة بنية حية قوية صامدة قـادرة على أداء رسالتـها ودورهـا العظيم في حق نفسـهـا ، وفي حق البشـرية جمعاء[٣].

ولذلك جـعل الله تعـالى رابطة الـدين والإيمان فـوق كل الروابط الجـاهليـة الفاسدة مـثل رابطة الدم ، ورابطة اللون أو اللغة ، أو رابطة الوطن أو الإقليم أو رابطة الحرفة ، أو الطبقة ، أو غير ذلك من الروابط الجاهلية التي تختلف اختلافًا جـذريًّا مع أصـول الإسلام ومنطلقـاته في الموالاة والمعـاداة والحب والبغض قـال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ** ﴾ (سورة الحجرات ، آية : ١٣) .

---

(١) انظر: مجموعة التوحيد ، ص٤٢٢-٤٢٣ .
(٢) المصدر نفسه ، ص٤٢٢-٤٢٣ .
(٣) انظر: الموالاة والمعادة (١/ ٢٤٦) .

فالمقياس لتفاوت الأفراد في الإسلام هو التقوى والعمل الصالح ، وهذا المبدأ يحقق العدل بالنسبة لكافة المنتمين إليه ويسع العالم أجمع دون أي تمييز بينهم فيما عدا التقوى والعمل الصالح[1] .

إن الإيمان الحقيقي يجعل من أتباعه أخوة متحابين يعملون على رضى مولاهم العظيم قال تعالى : ﴿وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ النَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمْ آيَاتِهِ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ﴾ (آل عمران ، آية : ١٠٣) .

إن الفهم الصحيح لحقيقة الإيمان وكلمـة التوحيد لها آثار في حياة الإنسان : وتلك الآثار لها أثر في التمكين، فمن أهم هذه الآثار :

١- ما تنشئه في النفس من الأنفة وعزة النفس بحيث لا تقوم دونه شيء لأنه لا نافع إلا الله ، وهو المحيي والمميت . وهو صاحب الحكم والسلطة والسيادة . ومن ثم ينزع من القلب كل خوف إلا منه سبحـانه ، فلا يطأطئ الرأس أمام أحد من الخلق ، ولا يتضرع إليه ، ولا يتكفف له ، ولا يرتع من كـبريائه وعظمته . لأن الله هو العظيم القادر . وهذا بخلاف المشرك والكافر .

٢- ينشأ من الإيمان بهـذه الكلمة من أنفة النفس وعزتهـا : تواضع من غير ذل، وترفع من غيـر كبر ، فـلا يكاد ينفخ أوداجه شـيطان الغرور ويزهيـه بقوته وكفاءته لأنه يعلم ويستيـقن أن الله الذي وهبه كل ما عنده قادر على سلبه إياه إذا شاء . أما الملحد فإنه يتكبر ويبطر إذا حصلت له نعمة عاجلة .

٣- المؤمن بهذه الكلمـة : يعلم علم اليقين أنه لا سبيل إلى الـنجاة والفلاح إلا بتزكية النفس والعمل الصالح .

٤- من آثار الإيمان الصحيح عدم تسـرب اليأس ، والبعد عن القنوط ، لأنه

---

(١) انظر: الموالاة والمعادة (١/ ٢٤٦) .

يؤمن أن الملك والخـزائن لله رب العـالمين ، لذلك فهـو على طمـأنينة وسكينة ، وأمل ، حتى ولو طرد العبد أو أهين وضاقت عليه سبل العيش .

٥- من آثار كلمة الإيمان والتوحيد في نفس العبد إعطاء قوة عظيمة من العزم والإقدام والصـبر والثبات والـتوكل والتطلع إلى معـالي الأمور ابتغاء مـرضاة الله تعالى مع شـعوره أن وراءه قوة مـالك السمـاء والأرض . فيكون ثباته ورسـوخه وصلابته التي يستمدها من هذا التصـور ، كالجبال الراسية ، وأنى للكفر والشرك بمثل هذه القوة والثبات ؟ .

٦- من آثار الإيمان الحقيـقي تشجيع الإنسان وامتـلاء قلبه جرأة . لأن الذي يجبن الإنسان ويوهن عزمـه شيئان : حبه للنفس والمال والأهـل ، أو اعتقاده أن هناك أحدًا غـير الله يميت الإنسان ، فإيمان المرء بلا إله إلا الله يرفع عن قلـبه كلا من هذين السببين ، فيـجعله موقنًا بأن الله هو المالك الوحيد لنفـسه وماله فعندئذ يضحي في سبيل مرضاة ربه بكل غال ورخيص عنده . وينزع الثاني بأن يلقي في روعه أنه لا يقدر علـى سلب الحياة منه إنسان ولا حيـوان ولا قنبلة ولا مدفع ، ولا سيف ولا حجر وإنما يقدر ذلك الله وحده . من أجل ذلك لا يكون في الدنيا أشجع ولا أجرأ ممن يؤمن بالله تعالى ، فلا يكاد يخيفه أو يثبت في وجهه زحف الجيوش ، ولا السيوف المسلولة ، ولا مطر الرصاص والقنابل .

٧- ومن ثمـار الإيمان الصحـيح ، التحلي بالأخـلاق الرفيـعة والتطهـر من الأخلاق الوضيعة .

٨- ومن ثمار الإيمان على العبد تجعله حريـصًا على التمسك بشرع الله تعالى ومحافظًا عليه .

٩- ومن ثمار الإيمان تربية العبد على أن يكون جنديًا من جنود الدعوة التي تسعى لتحكيم شرع الله وتمكين دينه سبحانه وتعالى .

إن من شروط التـمكين لدين الله تعالى في الأرض تحـقيق الإيمان الذي يريده الله وبينه رسوله ﷺ وتجسد في حياة أصحابه .

إن الإيمان المطلوب هو الذي يبعثنا على الحركـة والهمة ، والنشاط والسعي ، والجهد والمجاهدة، والجهاد والتربية، والاستعلاء والعزة ، والثبات واليقين[1] .

يقول الشيخ حسن البنا رحمه الله تعالى مفرقًا بين إيمان خامل وإيمان عامل ، إيمان المسلم القاعد وإيمان المسلم الداعية : تحت عنوان " إيماننا " .

" والفرق بيننا وبين قومنا بعد اتفـاقنا في الإيمان بهذا المبدأ ، أنه عندهم إيمان مخدر نائم في نفوسهم ، لا يريدون أن ينزلوا على حكمه ولا أن يعملوا بمقتضاه . . على أنه إيمان ملتـهب مـشتـعل قوي يقظ فـي نفوس الإخـوان المسلمين . . ظاهرة نفسية عجيبة نلمسهـا ويلمسها غيرنا في نفوسنا نحن الشرقيين : أن نؤمن بالفكرة إيمانًا يخـيل للناس حيث نتحـدث إليهم عنها أنهـا ستحـملنا على نسف الجبل وبذل النفس والمال واحتمال المصاعب ومـقارعة الخطوب حتى ننتصر بها أو تنتـصر بـنا ، حتى إذا هدأت ثائـرة الكلام وانفض نظام الجـمع ، نسي كل إيمانه وغفل عن فكرته ، فـهو لا يفكر في العمل لهـا ، ولا يحدث نفسـه بأن يجاهد أضعف الجهاد في سبيلها ، بل قد يبالغ في هذه الغفلة وهذا النسيان، حتى يعمل على ضدها وهو يشعـر أو لا يشعر . . . أولست تضحك عجـبًا حين ترى رجلاً من رجال الفكـر والعمل ، والثقـافة في سـاعتين اثنتين متـجاورتين من سـاعات النهار: ملحدًا من الملحدين ، وعابدًا مع العابدين "[2] .

إن الإيمان الذي جاء به القـرآن الكريم وبينه سيد الخلق أجمعـين عليه أفضل الصلاة والتسليم ليس إيمانًا مجردًا حـبيس دائرة الذهن والتصور ؛ بل هو تصديق يتبعه عمل ، وإقرار يتبعه التزام ، واعتقاد يتبعه خضوع .

---

(١) انظر: في ظلال الإيمان ، ص٦٣ .

(٢) رسائل حسن البنا ، ص١٦ .

فحقيقة الإيمان في القرآن الكريم يدفع العبد المؤمن إلى جهاد ودعوة ، والتزام وحركة ، وتواصٍ بالحق وثبات عليه ، وتواص بالصبر وحث عليه[١] .

يقول سيد قطب رحمه الله : (والعمل الصالح هو الثمرة الطيبة للإيمان ، والحركة الذاتية التي تبدأ في ذات اللحظة التي تستقر فيها حقيقة الإيمان في القلب فالإيمان حقيقة إيجابية متحركة ، ما إن تستقر في الضمير حتى تسعى بذاتها إلى تحقيق ذاتها في الخارج في صورة عمل صالح . . هذا هو الإيمان الإسلامي . . لا يمكن أن يظل خامدًا لا يتحرك ، كامنًا لا يبتدي في صورة حية خارج ذات المؤمن . فإن لم يتحرك هذه الحركة الطبيعية فهو مزيف أو ميت ، شأنه شأن الزهرة لا تمسك أريجها . فهو ينبعث منها انبعاثًا طبيعيًّا ، وإلا فهو غير موجود .

ومن هنا قيمة الإيمان . . إنه حركة وعمل وبناء وتعمير . . يتجه إلى الله . . إنه ليس انكماشًا وسلبية وانزواء في مكنونات الضمير . . وليس مجرد النوايا الطيبة التي لا تتمثل في حركة ، وهذه طبيعة الإسلام البارزة التي تجعل منه قوة كبرى في صميم الحياة[٢] .

" إن الإيمان قوة دافعة وطاقة مجمعة . فما كادت حقيقته تستقر في القلب حتى تتحرك لتعمل ، ولتحقق ذاتها في الواقع ، ولتوائم بين صورتها المضمرة وصورتها الظاهرة . كما أنها تستولي على مصادر الحركة في الكائن البشري كلها ، وتدفعها في الطريق .

" ذلك سر قوة العقيدة في النفس ، وسر قوة النفس بالعقيدة . سر تلك الخوارق التي صنعتها العقيدة في الأرض وما تزال في كل يوم تصنعها . الخوارق التي تغير وجه الحياة من يوم إلى يوم ، وتدفع بالفرد وتدفع بالجماعة إلى التضحية بالعمر الفاني المحدود في سبيل الحياة الكبرى التي لا تفنى ، وتقف

(١) انظر : في ظلال الإيمان ، ص٦٤ .
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٦٦، ٣٩٦٧) .

بالفرد القليل الضئيل أمام قوى السلطان وقوى المال وقوى الحديد والنار ، فإذا هي كلها تنهزم أمام العقيدة الدافعة في روح فرد المؤمن . وما هو الفرد الفاني المحدود الذي هزم تلك القوى جميعًا ، ولكنها القوة الكبرى الهائلة التي استمدت منها تلك الروح ، والينبوع المتفجر الذي لا ينضب ولا ينحسر ولا يضعف "(١) .

" تلك الخوارق التي تأتي بها العقيدة الدينية في حياة الأفراد وفي حياة الجماعات لا تقوم على خرافة غامضة ، ولا تعتمد على التهويل والرؤى . إنها تقوم على أسباب مدركة وعلى قواعد ثابتة . إن العقيدة الدينية فكرة كلية تربط الإنسان بقوى الكون الظاهرة والخصبة ، وتثبت روحه بالثقة والطمأنينة ، وتمنحه القدرة على مواجهة القوى الزائلة والأوضاع الباطلة ، بقوة اليقين في النصر ، وقوة الثقة في الله ، وهي تفسر للفرد علاقاته بما حوله من الناس والأحداث والأشياء ، وتوضح له غايته واتجاهه وطريقه ، وتجمع طاقاته وقواه كلها ، وتدفعها في اتجاه . ومن هنا كذلك قوتها . قوة تجميع القوى والطاقات حول محور واحد ، وتوجيهها في اتجاه واحد ، تمضي إليه مستنيرة الهدف ، في قوة ، وفي ثقة وفي يقين " .

ويضاعف قوتها أنها تمضي مع الخط الثابت الذي يمضي فيه الكون كله ظاهرة وخافية . وأن كل ما في الكون من قوى مكنونة تتجه اتجاهًا إيمانيًّا ، فيلتقي المؤمن في طريقه ، وينضم إلى زحفها الهائل لتغليب الحق على الباطل مهما يكن للباطل من قوة ظاهرة لها في العيون بريق "(٢) .

وبهذا لعلي أكون قد أوضحت حقيقة الإيمان التي نسعى لإيجادها في أفراد الأمة والجماعة المسلمة لنقطع خطوة نحو التمكين المنشود .

* ■ *

(١، ٢) المصدر نفسه (٦/ ٣٣٥٣) .

المبحث الثاني
تحقيق العبادة

أولاً: معنى العبادة في اللغة والشرع:

أ- في اللغة : العبادة والعبدية والعبودية : الطاعة[١] .

وفي لسان العرب : أصل العبودية : الخضوع والتذلل .

والتعبد : التنسك ، والعبادة : الطاعة .

والتعبد : التذلل ، والتعبيد : التذليل .

بعير معبد مذلل ، وطريق معبد ، مسلوك مذلل[٢] .

ويرى أبو الأعلى المودودي في معنى العبادة استناداً إلى الاستعمال اللغوي لمادة (ع ب د) أن أصل معنى العبادة هو الإذعان الكلي ، والخضوع الكامل والطاعة المطلقة[٣] .

ب- العبادة في الشرع: خضوع وحب[٤]، والعبادة المأمور بها العبد تتضمن معنى الذل والخضوع لله ومعنى الحب فهي تتضمن غاية الذل لله بغاية المحبة له[٥] .

قال ابن تيمية -رحمه الله- : (والإله هو المعبود الذي يستحق غاية الحب والعبودية والإجلال والإكرام والخوف والرجاء . . .)[٦] .

وينص ابن القيم -رحمه الله- : على أن (العبادة تجمع أصلين غاية الحب بغاية الذل والخضوع)[٧] ودعائم هذه العبادة التي تنتظم أعمال الإنسان كلها

---

(١) القاموس المحيط كتاب (الدال) . فصل (العين) ٣٧٨

(٢) لسان العرب. كتاب الدال . فصل العين المهملة ٣/ ٢٧١

(٣) المصطلحات الأربعة في القرآن للمودودي . ص٩٧

(٤) العبادة في الإسلام للقرضاوي، ص٣١

(٥) انظر مجموع الفتاوى (١/ ٢٠٧) .

(٦) مجموع الفتاوى (٢٨/ ٣٥).

(٧) مدارج السالكين (١/ ٧٤) .

القلبية، والعـملية الفردية والجماعـية : المحبة والخوف والرجـاء ، وقد جعل ابن القيم هذه الثلاث في قلب المؤمن: (بمنزلة الطائر فالمحـبة رأسه، والخوف والرجاء جناحاه فـمتى سلم الرأس والجناحـان فالطائر جـيد الطيران ، ومـتى قطع الرأس مات الطائر، ومتى فـقد الجناحان فهو عرضه لـكل صائد وكاسر[1] وبهذا يتضح مفهوم العبادة في الشرع .

ثانيًا : حقيقة العبادة:

إن من شـروط التـمكين لدين الله تحـقيق العـبـادة لله في دنيـا النـاس وعلى الجمـاعة المسلمة أن تفـهم حقيـقة العبـادة في القرآن الكريم وسنة سـيد المرسلين ﷺ وأن تعمل على نشر المفـهوم الصحيح لمعنى العبادة في شـرايين الأمة حتى تخرج من الأوهام والمغالطات والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان .

لقـد ساد بين الناس مـفاهيـم خاطئـة للعبـادة، صرفـت عقـولهم وقلوبهم وأعمالهم عن هذه الوظيفة التشريفية التي خلق الله الإنسان من أجلها ، وسخر له كل شيء في نفسه وفي الكون من حوله، ليقـوم بها وفق أمر خالقه، وعند تأمل القرآن الكريم والسنة النبـوية وما تحويه من أخـبار وأوامر ونواهي ووعد ووعـيد، نجد كلها تدور حول تقرير ألوهية الله سبحانه وتعالى وعبودية الإنسان له .

فإذا كـان خلق الإنسان وتسـخيـر الكون له، وإيجاد العـقل والقلب والإرادة فـيه، وإرسـال الرسل وإنزال الكتب وخلق الجنة والنار ، وقـبل ذلك وبعده مـا تقتـضيه صفـات الباري -جل وعلا- من كونه في ذاته وأفـعاله سبحـانه وتعالى حكيمًا عليمًا، خلق كل شيء فقدره تقديرًا، ولم يخلق شيئًا عبثًا ولم يوجد شيئًا لغير حكمة وإذا كان الـقرآن المجيد، وما فيه من أخبار وأوامـر ووعد ووعيد جاء لأجل هذه المهمة العظيـمة، ألا وهي تعبيد الخلق كلهم لله سـبحانه فكيف يصح حينئذ أن يتصور أن العبادة هي النية النقية وحسب، أو أنها الشعائر التعبدية فقط،

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٥١٧) .

أو أنها لبعض نشاطات الإنسان دون بعض، أو لبعض أفعاله وأحواله دون بعض .

بل إن دائرة العبادة التي خلق الله لها الإنسان ، وجعلها غايته في الحياة، ومهمته في الأرض، دائرة رحبة واسعة: إنها تشمل شئون الإنسان كلها، وتستوعب حياته جميعًا ، وتستغرق كافة مناشطه وأعماله[1] وبهذا المعنى الشامل، فهم السلف الصالح عبادة الإنسان فردًا كان أو جماعة، وقد لخص هذا المعنى الشامل للعبادة وحدد ماهيتها شيخ الإسلام ابن تيمية -رحمه الله تعالى- حين قال: (العبادة : هي اسم جامع لكل ما يحبه الله ويرضاه: من الأقوال والأعمال الباطنة والظاهرة، فالصلاة والزكاة والصيام والحج، وصدق الحديث ، وأداء الأمانة، وبر الوالدين ، وصلة الأرحام، والوفاء بالعهود والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ، والجهاد للكفار والمنافقين والإحسان إلى الجار واليتامى والمسكين وابن السبيل والمملوك من الآدميين والبهائم، والدعاء والذكر والقراءة، وأمثال ذلك من العبادة، وكذلك حب الله ورسوله وخشية الله والإنابة إليه وإخلاص الدين له، والصبر لحكمه، والشكر لنعمه، والرضا بقضائه، والتوكل عليه، والرجاء لرحمته، والخوف لعذابه، وأمثال ذلك هي من العبادة لله . . .)[2].

وبهذا التعريف الجامع لا يمكن أن يخرج أي شيء من نشاطات الإنسان وأعماله ، سواء كان ذلك في العبادات المحضة، أو في المعاملات المشروعة ، أو في العادات التي طبع الإنسان على فعلها .

أما في العبادات والمعاملات المشروعة فإنها مما يحبه الله ويرضاه، وهذا أمره الشرعي الدائر بين الأحكام الخمسة التي اصطلح عليها الفقهاء وهي : (الواجب والمحرم، والمستحب، والمكروه، والمباح) أما في العادات فالذي لم يجد منها

---

(١) انظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي، ص٥٣ .

(٢) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٥٠) .

بأوامر الشرع، ولم يتقيد بأحكامه على وجه الخصوص، فإنه لا يخرج عن كونه داخلاً تحت عمومات الشرع باعتبار عبودية الإنسان في كل أحواله لله سبحانه وباعتبار أن (العادات لها تأثير عظيم فيما يحبه الله، أو فيما يكرهه، فلهذا أيضًا جاءت الشريعة بلزوم عادات السابقين في أقوالهم وأعمالهم وكراهة الخروج عنها إلى غيرها من غير حاجة)[١].

وإن كان ينبغي لنا هنا الإشارة إلى أن الأصل في العبادات المحضة المنع حتى يرد ما يدل على مشروعيتها، وأن أصل العادات العفو حتى يرد ما يدل على منعها، وذلك مبني على (أن تصرفات العباد من الأقوال والأفعال نوعان: عبادات يصلح بها دينه، وعادات يحتاجون إليها في دنياهم فباستقراء أصول الشريعة نعلم أن العبادات التي أوجبها الله، أو أحبها لا يثبت الأمر بها إلا بالشرع وأما العادات فيه ما اعتاده الناس في دنياهم مما يحتاجون إليه، والأصل فيه عدم الحظر، فلا يحظر منه إلا ما حظره الله سبحانه وتعالى، وذلك لأن الأمر والنهي هما شرع الله ، والعبادة لابد أن يكون مأمورًا بها، فما لم يثبت أنه مأمور به ، كيف يحكم عليه بأنه عبادة؟!.

وما لم يثبت من العبادات أنه منهي عنه، كيف يحكم عليه أنه محظور ؟ والعادات الأصل فيها العفو ، فلا يحظر منها إلا ما حرم)[٢].

وهذا التقسيم في الحظر والإباحة لا يخرج شيئًا من أفعال الإنسان العادية من دائرة العبادة لله، ولكن ذلك يختلف في درجته ما بين عبادة محضة وعادة مشوبة بالعبادة، وعادة تتحول بالنية والقصد إلى عبادة، لأن المباحات يؤجر عليها بالنية والقصد الحسن إذا صارت وسائل للمقاصد الواجبة، أو المندوبة أو تكميلاً لشيء منهما)[٣] .

---

(١) اقتضاء الصراط المستقيم (١/ ٣٩٩) .

(٢) مجموع الفتاوى (٢٩/ ١١٦-١١٧) .

(٣) انظر: حقيقة البدعة وأحكامها للغامدي (١/ ١٩) .

وقال النووي في شرحه الحديث (في بضع أحدكم صدقة)[١] : (وفي هذا دليل على أن المباحات تصير طاعات بالنية الصادقة)[٢] .

ومن ذلك يتضح : (أن الدين كله داخل في العبادة، والدين منهاج الله جاء ليسع الحياة كلها، وينظم جميع أمورها من أدب الأكل والشرب وقضاء الحاجة إلى بناء الدولة ، وسياسة الحكم ، وسياسة المال ، وشئون المعاملات والعقوبات، وأصول العلاقات الدولية في السلم والحرب .

إن الشعائر التعبدية من صلاة ، وصوم ، وزكاة ، لها أهميتها ومكانتها ولكنها ليست العبادة كلها ؛ بل هي جزء من العبادة التي يريدها الله تعالى .

إن مقتضى العبادة المطالب بها الإنسان ، أن يجعل المسلم أقواله وأفعاله وتصرفاته وسلوكه وعلاقاته مع الناس وفق المناهج والأوضاع التي جاءت بها الشريعة الإسلامية ، يفعل ذلك طاعة لله واستسلامًا لأمره . . .)[٣] .

والدليل على المفهوم الشامل للعبادة ، من الكتاب والسنة وفعل الصحابة ﷺ : فأما من القرآن الكريم فقوله تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (الذاريات : ٥٦) ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا إِلَهًا وَاحِدًا لاَّ إِلَهَ إِلاَّ هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ﴾ (التوبة : ٣١) ﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾ (الأنعام: ١٦٢-١٦٣) ، ﴿وَمَا أُمِرُوا إِلاَّ لِيَعْبُدُوا اللَّهَ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ حُنَفَاءَ وَيُقِيمُوا الصَّلاةَ وَيُؤْتُوا الزَّكَاةَ وَذَلِكَ دِينُ الْقَيِّمَةِ﴾ (سورة البينة ، آية : ٥) .

ومن السُّنة أحاديث كثيرة بعضها في عموم العادات بدون تخصيص وبعضها الآخر في أفراد السلوك العادي ، وفي هذا الأخير دليل وتشبيه على المعنى العام المقصود إثباته هنا فمن ذلك :

---

(١) رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب أن اسم الصدقة يقع على كل نوع من المعروف (١/ ٦٩٧) .

(٢) شرح النووي مع مسلم ، كتاب الزكاة ، باب كل نوع من المعروف صدقة (٧/ ٩٧) .

(٣) مقاصد المكلفين د . عمر الأشقر ، ص٤٦ -٤٧ .

قوله ﷺ : " إن المسلم إذا أنفق على أهله نفقة ، وهو يحتسبها كانت له صدقة "[١].

وقوله ﷺ : " كل ما صنعت إلى أهلك فهو صدقة عليهم "[٢]. وقوله ﷺ : " دينار أنفقته في سبيل الله ، ودينار أنفقته في رقبة ، ودينار تصدقت به على المسكين ، ودينار أنفقته على أهلك ، أعظمها أجرًا الذي أنفقته على أهلك "[٣] وقال ﷺ : " كل سلامى من الناس عليه صدقة ، كل يوم تطلع فيه الشمس تعدل بين الاثنين صدقة ، وتعين الرجل على دابته فيحمل عليها ، أو ترفع له متاعه صدقة ، والكلمة الطيبة صدقة ، وكل خطوة تخطوها إلى الصلاة صدقة ، ودل الطريق صدقة ، وتميط الأذى عن الطريق صدقة "[٤].

وأما الاستدلال على عموم العبادة وشمولها لحياة الإنسان بفعل السلف وفهمهم ففيما روى البخاري في صحيحه عن أبي بردة[٥] في قصة بعث أبي موسى ومعاذ إلى اليمن . وفي آخره قال أبو موسى لمعاذ : فكيف تقرأ أنت يا معاذ؟ قال : أنام أول الليل فأقوم وقد قضيت جزئي من النوم فأقرأ ما كتب الله لي ، فأحتسب نومتي كما أحتسب قومتي "[٦] وفي كلام معاذ رضي الله عنه ، دليل أن المباحات يؤجر عليها بالقصد والنية .

وهذا الفهم يجعل المسلم يُقْبِل على شئون الحياة كلها وكله حرص على إتقانها لكونها عبادة لله تعالى ملتزمًا بالشروط الآتية :

١ - أن يكون العمل مشروعًا في نظر الإسلام . أما الأعمال التي ينكرها

---

(١) رواه البخاري ، كتاب الإيمان ، باب ما جاء أن الأعمال بالنيات : (١/ ٢٤) رقم ٥٥ .

(٢) سلسلة الأحاديث الصحيحة للألباني (٣/ ٢٢) .

(٣) رواه مسلم ، كتاب الزكاة ، باب النفقة على العيال والمملوك (١/ ١٩١) .

(٤) رواه البخاري ، كتاب الصلح ، باب فضل الإصلاح بين الناس (٣/ ٢٢٧) رقم ٢٧٠٧ .

(٥) هو التابعي الثقة أبو برده حارث ، وقيل عامر بن أبي موسى عبد الله بن قيس الأشعري ، ثقة كثير الحديث ، تولى قضاء الكوفة للحجاج ، ثم عزله . ت١٠٧هـ انظر : سير أعلام النبلاء (٤/ ٣٤٣) .

(٦) البخاري ، كتاب المغازي ، باب بعثة أبي موسى ومعاذ إلى اليمن (٥/ ١٥٦) رقم ٤٢ ،٤٣ .

الدين فلا تكون عبادة بأي حال من الأحوال . قال الرسول ﷺ " .. إن الله تعالى طيب لا يقبل إلا طيبًا .. "[١] .

٢- أن تصحبه النية الصالحة . فينوي المسلم إعفاف نفسه ، وإغناء أسرته ، ونفع أمته ، وعمارة الأرض - كما أمره الله رب العالمين .

٣- أن يؤدي العمل بإتقان وإحسان ، قال النبي ﷺ " إن الله كتب الإحسان على كل شيء .. "[٢] .

٤- أن يلتزم في عمله حدود الله تعالى ، فلا يظلم ، ولا يخون ، ولا يغش، ولا يجور .

٥- ألا يشغله عمله لمعاشه عن واجباته الدينية[٣]. قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُلْهِكُمْ أَمْوَالُكُمْ وَلا أَوْلادُكُمْ عَن ذِكْرِ اللَّهِ وَمَن يَفْعَلْ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْخَاسِرُونَ** ﴾ (سورة المنافقون ، الآية : ٩) .

إن من أخطر الانحرافات التي وقعت فيها الأجيال المتأخرة من المسلمين انحرافهم في تصور مفهوم معنى العبادة .. وحين يعقد الإنسان مقارنة بين المفهوم الشامل الواسع العميق الذي كانت الأجيال الأولى من المسلمين تفهمه من أمر العبادة ، والمفهوم الهزيل الضئيل الذي تفهمه الأجيال المعاصرة ، لا يستغرب كيف هوت هذه الأمة من عليائها لتصبح في هذا الحضيض الذي نعيشه اليوم ، وكيف هبطت من مقام الريادة ، والقيادة للبشرية كلها لتصبح ذلك الغثاء الذي تتداعى عليه الأمم تنهشه من كل جانب كما تنهش الفريسة الذئاب[٤] .

إن من شروط التمكين أن يكون مفهوم العبادة في حس الجيل ، أن عبادة الله

---

(١) مسلم، كتاب الزكاة، باب قبول الصدقة من الكسب الطيب (٢/ ٧٠٣) .
(٢) مسلم شرح النووي، كتاب العبد، باب الأمر بإحسان الذبح (مجلد ٥) ج١٣، ص١٠٦ .
(٣) انظر: العبادة في الإسلام د .القرضاوي، ص٦٢-٦٣ .
(٤) انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح لمحمد قطب ، ص١٧٣ .

هي غاية الوجود الإنساني كله ، كما نفهم من قول الله سبحانه : ﴿ وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ ﴾ (الذاريات : ٥٦) .

لقد كان الجيل الأول لهذه الأمة يفهم الحياة كلها على أنها عبادة تشمل الصلاة والنسك ، وتشمل العمل كله، وتشمل لحظة الترويح كذلك ، فلا شيء في حياة الإنسان كلها خارج من دائرة العبادة ، وإنما هي ساعة بعد ساعة في أنواع مختلفة من العبادة . كلها عبادة وإن اختلفت أنواعها ومجالاتها [(١)] .

وبهذا الفهم العميق لمفهوم العبادة حققت تلك الأمة في سالف عهدها ما حققته من منجزات في كل اتجاه، فحين كانت تمارس الأمة إيمانها الحق ، وعبادتها الحقة . وكانت الأخلاق في حسها جزءًا من العبادة المفروضة على المسلم، حدثت إنجازات هائلة لم تتكرر في التاريخ . ففي أقل من نصف قرن امتد الفتح الإسلامي من الهند شرقًا إلى المحيط غربًا وهي سرعة مذهلة لا مثيل لها في التاريخ كله . ولم يكن الكسب هو الأرض التي فتحت ، وإنما كان الكسب الأعظم هو القلوب التي اهتدت بنور الله فدخلت في دين الله أفواجًا [(٢)].

وما كانت تلك الأمة لتقدر على دك حصون الشرك ، واقتلاعها بمثل هذه السهولة ، وبمثل هذه السرعة ، وما كانت لتقدر على إبراز تلك المثل الرفيعة التي أبرزتها في عالم الواقع ، من إقامة العدل الرباني في الأرض ونظافة التعامل ، والوفاء بالمواثيق ، وشجاعة النفس ، والبطولة الفذة في ميدان الحرب والسلم سواء . وما كانت لتقدر على إنشاء حركتها العلمية الضخمة، ولا حركتها الحضارية السامقة . . ما كانت لتقدر على ذلك كله، ولا على شيء منه، لولا هذا الإحساس العميق لديها بأنها في ذلك كله تقوم بالعبادة التي خلق الله الإنسان من أجلها وتقوم به بذات الحس الذي تؤدي به الصلاة [(٣)].

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص٢٠٣، ٢٠٤ .

(٢) المصدر السابق نفسه ، ص٢٢٢ .

(٣) انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح ، ص١٩٢ .

هكذا كانت العبادة تصوراً وفهمًا وعملاً عند الأجيال المسلمة الأولى[١] ولن يصلح آخر هذه الأمة إلا بما صلح به أولها : تصحيح المفاهيم أولاً ، ثم إقامة بناء جديد على المفاهيم الصحيحة للإسلام[٢] .

إن قضية العبادة ليست قضية شعائر ، وإنما هي قضية دينونة واتباع ، وإنها لذلك استحقت كل هذه الرسل والرسالات ، وكل هذا الاهتمام[٣].

وحتى تستحق الأمة الإسلامية اليوم وعد الله بالتمكين فإن عليها أن تصيغ حياتها كلها صياغة جديدة على منهج الله رب العالمين ، لتصبح كلها عبادة من لحظة التكليف إلى لحظة الموت ، لا تندُّ عنها لحظة واحدة من لحظات الوعي ، ولا لمحة ، ولا خاطر ، ولا لون من ألوان النشاط[٤] ، امتثالاً وتحقيقًا لقول الله تعالى: ﴿ قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ ﴾ (الأنعام : ١٦٢) .
إن من أسباب ضياع الأمة وضعفها ، وانهزامها أمام أعدائها فقدها لشرط مهم من شروط التمكين ألا وهو تحقيق العبودية بمفهومها الشامل الصحيح .

ثالثًا : أهمية الجانب العبادي في حياة الإنسان :

إن العبادات التي سنها الله لنا ذات تأثير شمولي مشرق ، ولها أخطر المهمات في تمكين الحقائق العليا للرسالات الإلهية ، وتحقيق الفطرة الإنسانية على وجهها الصحيح المستقيم ، طالما تمثلت فيها عناصر الحب والذل ، والرجاء والخوف ، ونحوها، ومعلوم لدى العلماء إن للعبادة مقصداً أصليًّا ، وهو التوجه إلى الواحد الصمد ، وإفراده بالعبادة في كل حال ، طلبًا لرضى الله ، والفوز بالدرجات العلا ، وهناك مقاصد تابعة للعبادة: صلاح النفس، واكتساب الفضيلة، فالصلاة مثلاً أصل مشروعيتها الخضوع لله تعالى ، وإخلاص التوجه إليه ، والانتصاب

---

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ، ص٥٩ .
(٢) انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح لمحمد قطب ، ص٢٥- ٢٥١ .
(٣) انظر: في ظلال القرآن (٤/ ١٩٤٣) .
(٤) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ، ص٥٩ .

على قدم الذلة والصغار بين يديه ، وتذكير النفس بذكره ، قال تعالى : ﴿وَأَقِمِ الصَّلاةَ لِذِكْرِي﴾ (طه : ١٤) وقال : ﴿إِنَّ الصَّلاةَ تَنْهَىٰ عَنِ الْفَحْشَاءِ وَالْمُنكَرِ وَلَذِكْرُ اللَّهِ أَكْبَرُ﴾ (سورة العنكبوت : ٤٥) يعني أن اشتمال الصلاة على التذكير بالله هو المقصود الأصلي ، ثم إن لها مقاصد تابعة كالاستراحة إليها من أنكاد الدنيا وإنجاح الحاجات كصلاة الاستخارة وصلاة الحاجة وكذلك سائر العبادات لها فوائد أخروية وهي العامة ، وفوائد دنيوية وهي كلها تابعة للفائدة الأصلية وهي الانقياد والخضوع لله[1] .

وإذا تأملنا في مهمة العبادة يمكننا أن نستخلص الآتي :

١- تثبيت الاعتقاد :

إن روح العبادة هو إشراب القلب حب الله تعالى، وهيبته، وخشيته والشعور الغامر بأنه رب الكون ومليكه، والتوجه دائمًا بما شرع من شعائر ونسك، باعتبارها مظهر عمليًّا دائبًا لصدق الإنسان في دعوى الإيمان، وتذكيرًا مستمرًا بسلطان الإله الأعلى، وإلهابًا متجددًا لجذوة اليقين في الله، ورجاء فضله وثوابه .

ولنأخذ مثالاً عباديًّا لتثبيت معنى التوحيد ، وإجلال الله تعالى ، وهو (الأذان) وقد شرع بدخول أوقات الصلاة المفروضة ، فهو يتكرر في اليوم والليلة خمس مرات ، وينادي به منادي المسلمين صوتًا في كل مكان يوجد به تجمع إسلامي، ولو كان أدنى الجمع من المسلمين ، بل شرع مع ذلك للمسافر، والمنفرد، ولو كان في بادية لما يمثله من معانٍ عظيمة ليس مجرد الإعلام بدخول الوقت .

إن المؤذن حين يناد بصوته الأعلى : (الله أكبر الله أكبر) ثم يكررها ، يطلب شرعًا أن يردده معه كل مسلم ومسلمة حين يسمعون هذا القول الأجل ، لينسكب في مشاعر الجميع وفي أوقات متكررة متقاربة ، معنى الكبرياء المطلق لله

(١) انظر: العبادة في الإسلام للقرضاوي: ٤٨-٤٩ .

رب العالمين ، وأنه تعالى فوق كل شيء وأكبر من كل شيء ، فينبغي أن يعتز به وحده ، ويلوذ بحماه وكنفه ، ويستعلي فوق أعناق الطواغيت والجبارين بهذا النداء الجهير ، الذي أراد الله عز وجل أن يتواطأ عليه المجتمع كله ، وأن يظل حتى المنفرد على صلة دائمة به .

فإذا تقرر هذا المعنى عاد النداء الأجل ليملأ الآفاق : (أشهد أن لا إله إلا الله) وهو تذكير يومي بالعهد والميثاق الذي أعطاه العبد لربه بأن لا يعبد ولا يطيع إلا ربه الأكبر ، المنفرد بالكبرياء في السموات والأرض .

ثم يأتي الشق الثاني من الشهادة : (أشهد أن محمدًا رسول الله) وهو كما علمت إقرار متكرر أيضًا بالطريق الذي تؤخذ عنه العبادة المشروعة . والتي لا تصح إلا بالتلقي عن الوحي الإلهي الذي جاء به المعصوم ﷺ .

ثم يأتي رابعًا: الدعوة إلى الصلاة نفسها في جملتين فقط : (حي على الصلاة ، حي على الصلاة) لأن الأذان كما قلنا أبعد مدى ، وأشمل آثارًا ، ثم يأتي .

خامسًا : الدعوة العامة إلى الصلاح المطلق ، المتمثل في الاستجابة لهذا الدين الإلهي الأغر ، ومثله وتعاليمه ، وفي مقدمتها الصلاة بداهة[1] .

ولذلك يعود الشارع بالمؤذن إلى نقطة البدء ليكبر في الختام التأكيد على تفرده تعالى بالكبرياء ، وإعلان التوحيد بصيغة الإقرار والإثبات بعد صيغة الشهادة السابقة (الله أكبر ، الله أكبر ، لا إله إلا الله) معنى هذا أن الأذان وحده يجري على ألسنة المؤمنين ، ويسكب في ضمائرهم ، ويغرس في حياتهم ووجدانهم إفراد الله تعالى بالكبرياء (ثلاثين) مرة يوميًّا ، وإفراده تعالى بصفة الألوهية الذي تفرده بالعبادة والطاعة " خمس عشرة " مرة ، وهو نداء لا يتقيد بحدود معبد ، أو مسجد ، وإنما ينطلق ليدخل كل بيت ، ويصافح كل سمع ، ويطرق كل قلب يريد الهدى .

---

(١) وسطية القرآن في العبادة والأخلاق والتشريع ، ص٤٠ .

وإذا كان هذا هدف الوسيلة في تقرير الأصول العليا فإن القصد الذي تؤدي إليه (وهي الصلاة) أعظم شأنًا ، وأتم مظهرًا ، فقد فرضها الله على كل بالغ من الذكور والإناث خمس مرات في اليوم والليلة ، وهي تبدأ بالتكبير ويطلب من المصلي تكرار هذه الجملة " الله أكبر " في صلوات الفرض فقط (أربعًا وتسعين مرة) . عدا ما يقرع سمعه بعددها من صلوات إمامه إذا صلى جماعة ، فضلاً عن السنن الراتبة والنوافل المطلقة وهي أضعاف ذلك .

ثم إن العبد يتلو كتاب ربه في صلاته ، ويحني له ظهره راكعًا ، ويخر بجبهته ساجدًا ، ويناجي مولاه معظمًا ، ومسبحًا ، وحامدًا ، وداعيًا ، وليس هناك في الوجود أسمى وأجل من هذه الشعيرة في ربط العبد بهذا السلطان الإلهي ، وإلهاب نفسه بمعاني عظمته وسموه[1] .

إن الصلاة عندما تؤخذ على وجهها الصحيح - واحة وراحة يسكن إلى ظلها المؤمن كلما مسه تعب الحياة ولغوبها وهذا مصداق قول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الإِنسَانَ خُلِقَ هَلُوعًا (١٩) إِذَا مَسَّهُ الشَّرُّ جَزُوعًا (٢٠) وَإِذَا مَسَّهُ الْخَيْرُ مَنُوعًا (٢١) إِلاَّ الْمُصَلِّينَ (٢٢) الَّذِينَ هُمْ عَلَىٰ صَلاتِهِمْ دَائِمُونَ** ﴾ (سورة المعارج : ١٩-٢٣) .

٢- تثبيت القيم الأخلاقية :

فقد جاء المنهاج الرباني في العبادة ليتمم مكارم الأخلاق ، ويدعو الناس إلى المثل العليا ، والفضائل الكريمة كالصبر ، والمثابرة ، والسماحة ، والسخاء ، والصدق ، والتي تحقق للإنسان سعادته في الدنيا فضلاً عن الآخرة ، وللعبادات بأنواعها مهمة عظيمة في تثبيت هذه الأخلاق ، وتدعيمها ، وغرسها في نفس المؤمن ووجدانه ، (فالصلاة) مثلاً تعوّد المؤمن الصبر ، والدأب ، والإخلاص والنظام ، حتى تصبح جميعًا خلقًا راسخًا في النفس ، فالمسلم النائم حين يقوم من لذة النوم على نداء المؤذن " الصلاة خير من النوم " ، وكذلك حين ينسحب

---

(١) انظر : المنهاج القرآني في التشريع ، ص٤٥٨ .

من ضجيج الأسواق والبيع والشـراء ملبيًا لنداء " حي على الصلاة " ، ثم لا يزال دأبه هكذا عبر الساعات ، والأيام ، والأعوام ، فهذا وأمثاله لا بد أن تتربى فيهم هذه المعاني الخلقية العالية[1] .

و(الزكاة) التي أخذت من معنى الزيادة ، والنمـاء ، والتطهير ، لها - هي الأخرى - أكـبر الأثر في تنقيـة الخلق في زخم الشح والبخل والإمـساك ، وفي طبعـه بطبائع البذل ، والعـطاء ، والسخاء ، كـذلك تستل صدور المحـتاجين ، وتبدل به شيئًا من خلق الحب ، والمودة ، أو على الأقل سلامة الصدور ، فتشيع في المجتـمع تبعًـا لذلك كل علائق التداني والتـقارب ، وتتـداخل صلات الناس بمشاعر الألفة ، وإلى مثل هذا يشير قوله تعالى : ﴿ **خُذْ مِنْ أَمْوَالِهِمْ صَدَقَةً تُطَهِّرُهُمْ وَتُزَكِّيهِم بِهَا وَصَلِّ عَلَيْهِمْ إِنَّ صَلاتَكَ سَكَنٌ لَّهُمْ** ﴾ (التوبة : ١٠٣) .

و(الصوم) له عـمله الأساسي في تربية الإرادة الإنسـانية ، والضمـير الحي اليقظ الذي يتعـامل على أساس من رقابة الله تعالى له ، وإطلاعه عليـه ، فضلاً عن غرس خليقـة الصبر ، والضبط النفسي بالإمسـاك الطويل عن شهوتي البطن والفرج وبالكف عن اللغو ، والصخب ، والقدرة على تغيير عاداته حتى لا يتعود الجمود ، أو تستعبده عاداته وتقاليده[2] .

ثالثًا : إصلاح الجانب الاجتماعي :

ويظهـر ذلك في الصلاة ودورها في إيجـاد العلاقـات الاجتـماعيـة، وذلك واضح في الحكمـة من صلاة الجـماعـة ، لأن اجتـماع المسلمين راغـبين في الله راجين، راهبين ، مسـلمين وجوههم إليه خـاصيـة عجيـبة في نزول البـركات ، وتدلي الرحمة فيحدث التعاون ، والتعارف ، والوحدة والاجتماع على الخير .

ثم تأتي صلاة الجمعة : فتجمع أهل الحي على هيئة جامعة أكثر من ذلك في

---

(١) وسطية القرآن في العبادة والأخلاق والتشريع ، ص٤٢ .

(٢) انظر : المنهاج القرآني في التشريع ، ص٤٦٠ .

كل يوم جمعـة ، حيث شرع الله لنا خطبتـها تذكيرًا وتعليمًـا للمسلمين بما يصلح دينهم ودنياهم ، كحد أدنى للتثقـيف العام في أمور الدين ، ثم تأتي صلاة العيد ، فتـجمع أهل المدينة كلهـا مرتين في السنة في عـيد الفطر والأضـحى ، يخرجن الأبكار والعواتق[1] .

بل والحيض يشـهدن الخير ودعـوة المسلمين ، ويعتزلن المصلى كمـا جاء في الحديث الصحيح الذي ترويه أم عطية[2] ﵂ قالت : " أمرنا أن نخرج العواتق وذوات الخدور[3] "[4] .

هذا عـدا ما شـرعه الله تعـالى لنا من صلوات جامـعة في مناسـبات شـتى ، كالاستسقاء والخسوف والكسوف والجنائز ، والتراويح في رمضان ، إن الصلاة - لو وعى المسلمون حقيقـتها - لهي توجيه وتنظيم اجتماعي كامل ، يتمـثل فيه المجتمع الكبير ، وبقدر مـا يحسن المسلمون هذه الصلاة ، وما تعنيه من معـان وتوجيهات ، بقدر مـا يرجى لهم إحسان الحـياة في اجتـماعاتهم ، ولا فـرق في هذا المنهاج بين المسجد والمجتمع ، فكلاهما تجمع يجب أن يخضع لدين الله وتعاليمه[5] .

أما الزكاة : في حقيقـتها واجب مالي يؤخذ من الأغنياء ليـرد على الفقراء وذوي الحـاجة من الغـارمين والأرقـاء وغيـرهم ، وهي بذلك تمثل الحـد الأدنى المفـروض فرضًـا للتعـاون الاجتـماعي ، والـتكافل الاقتـصادي بين أبناء الأمـة الواحدة ، لـذلك جعل الله تعـالى معظم مـصارفهـا اجتـماعـية بحتـة ، بأوسع المدلولات الاجتماعية في القديم أو الحديث على السواء ، وكما جاءت صلاة العيد لتوسع دائرة الاجتماع في الصلاة ، تأتي هـنا أيضًا " زكاة الفطر " لتوسع قاعدة التكافل والتعاون إلى أقصى حد .

---

(١) العواتق : جمع عاتقة وهي التي عتقت من الخدمة أو من قهر أبويها .
(٢) هي نسيبة بنت الحارث وقيل بنت كعب من فقهاء الصحابة ت٧٠هـ . انظر : سير أعلام النبلاء (٢/ ٣١٨) .
(٣) ذوات الخدور : الستور .
(٤) رواه البخاري ، كتاب العيدين ، باب خروج النساء والحيض إلى المصلى (٢/ ٩) .
(٥) انظر : المنهاج القرآني في التشريع : ٤٦٢ .

أما الأثر الاجتماعي لفريضة (الحج) فواسع شامل ، ولا زالت آثاره تظهر كل يوم بجديد من حكمة الله تعالى في تشريعه ، وقد أشار القرآن الكريم إلى كثير من ذلك . قال تعالى : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ فَإِذَا أَفَضْتُم مِّنْ عَرَفَاتٍ فَاذْكُرُوا اللَّهَ عِندَ الْمَشْعَرِ الْحَرَامِ﴾ (البقرة : ١٩٨) .

روى البخاري بسنده عن ابن عباس قال : (كانت عكاظ ، ومجنة ، وذو المجاز أسواقًا في الجاهلية ، فتأثموا أن يتجروا في موسم الحج ، فسألوا رسول الله فنزلت الآية : ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ﴾ (البقرة : ١٩٨)[١] وقال تعالى : ﴿وَأَذِّن فِي النَّاسِ بِالْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالاً وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ﴿٢٧﴾ لِيَشْهَدُوا مَنَافِعَ لَهُمْ وَيَذْكُرُوا اسْمَ اللَّهِ﴾ (سورة الحج : ٢٧-٢٨) .

والمنافع المشهودة كلمة جامعة ، تشمل المنافع الروحية ، والمادية والاجتماعية ، والسياسية ، والثقافية ، والاقتصادية وسائر ما يطلق عليه اسم (المنفعة) وقد جعلت غاية من غايات الحج وتقديمها على ذكر الله تعالى إيذان ببالغ أهميتها في مراتب المنافع والحكم الشرعية ، وإن من أعظم هذه الفوائد جمع أطراف الأمة المسلمة كل عام ، وما يحققه من استنفار جزء من كل إقليم سنويًا ليركبوا الأخطار والأسفار ، ويقطعوا السهول والقفار ، أو يمتطوا الأجواء والبحار ، ويتركوا الأولاد والأهل والديار فيجتمع المسلمون من أطراف الأرض ، ويلتقي الشرقي بالمغربي ، والمصري بالهندي ، في مؤتمر جامع ، ورحلة مباركة ، وليحققوا عمليًا دعوة القرآن بالسير في الأرض ، والسياحة في الآفاق ، ومطالعة المشاهد المقدسة ، ومنازل الوحي ، وآثار النبوة منذ أبي الأنبياء إبراهيم إلى خاتمهم محمد ﷺ ، ثم مدارج الصحابة رضي الله عنهم ، التي تهب على المسلمين منها روح الإخلاص ، والبذل ، والعطاء والانقياد المطلق لأمر الله عز وجل[٢].

---

(١) رواه البخاري ، كتاب التفسير ، باب ليس عليكم جناح (٥/ ١٨٦) رقم ٤٥١٩ .

(٢) انظر : المنهاج القرآني في التشريع : ٤٦٥ .

ومن ناحية أخرى فالحج نظام : يوجب على الجميع زيًّا واحدًا ، وحركة واحدة ، وكلمة واحدة ، وطاعة واحدة وبتثبيت الاعتقاد، والأخلاق وإصلاح الاجتماع تأخذ العبادات الإسلامية دورها العظيم في بناء الحياة الإنسانية على أرفع القواعد، وأنبل الغايات ، وأكرمها وأطهرها، وتأخذ بالإنسان إلى أفق أرفع من التراب والطين، ومتاع الحياة الفانية ، حيث تربطه بالحي الباقي، وبالنعيم الخالد ، فهي غسيل مستمر لأدران المادة ، وتهذيب لطغيانها ، وعبادات الإسلام تقوم في أساسها على مراعاة الرقابة الإلهية ، وابتغاء الآخرة ، دون واسطة بين العبد وربه في العبادات كلها وحرّر الإنسان من عبودية الكهنوت وطقوسها ورسومها[1] .

إن القرآن الكريم اهتم اهتمامًا بالغًا ببيان حقيقة العبودية ودعوة الناس إلى تحقيقها كما ينبغي كما بين شروط قبول العبادة وأمر المسلمين بالالتزام بها ، ووجه الناس إلى مفاهيم أصيلة في العبودية وحذرهم من الشرك ومن الانحراف عن معنى العبودية الصحيح ، كما أشار إلى أهمية الجانب العبادي في حياة الناس في تثبيت الاعتقاد ، وتأسيس القيم والأخلاق وزرعها وغرسها في نفوس المؤمنين ، كما اهتم ببيان الجانب العبادي في إصلاح النواحي الاجتماعية ، وركز القرآن في توجيهاته الكريمة في مجال العبادة على إفراد الله وحده في العبادة وتحرير العبادة من رق الكهنوت، واهتم بمسألة التوازن بين الروح والجسد ، وفتح مجال الرخص والتخفيضات في العبادة هذا كله من أجل أن تحقق الأمة عبوديتها لخالقها سبحانه وتعالى من أيسر الطرق وأسهل السبل وأخف التكاليف، وجعل طريق تحقيق العبودية شرطًا من شروط التمكين بهذه الأمة العظيمة .

إن تقرير حقيقة العبودية في حياة الناس يصحح تصوراتهم ومشاعرهم كما يصحح حياتهم وأوضاعهم ، فلا يمكن أن تستقر التصورات والمشاعر ، ولا أن تستقر الحياة والأوضاع ، على أساس سليم قويم ، إلا بهذه المعرفة وما يتبعها من

---

(١) المصدر نفسه : ٤٦٨ .

إقرار ، وما يتبع الإقرار من آثار عندما تستقر هذه الحقيقة بجوانبها في نفوس الناس وفي حياتهم يلتزموا بمنهجه وشريعته ويستشعروا العزة أمام المتجبرين والطغاة ، حين يخرّون لله راكعين ساجدين يذكرونه ولا يذكرون أحداً إلا الله تصلح حياتهم وترقى وتكرم على هذا الأساس .

إن استقرار هذه الحقيقة الكبيرة في نفوس المسلمين وتعليق أنظارهم بالله وحده، وتعليق قلوبهم برضاه ، وأعمالهم بتقواه ، ونظام حياتهم بإذنه وشرعه ومنهجه دون سواه . . في هذه الحياة . . فأما ما يجزي الله به المؤمنين المقربين بالعبودية العاملين للصالحات في الآخرة ، فهو كرم منه وفضل في حقيقة الأمر وفيض من عطاء الله[1].

إن الذين يستنكفون عن عبودية الله، يذلون لعبوديات من هذه الأرض لا تنتهي . يذلون لعبودية الهوى والشهوة ، أو عبودية الوهم والخرافة . ويذلون لعبودية البشر من أمثالهم ، ويحنون لهم الجباة . . ويحكمون في حياتهم وأنظمتهم وشرائعهم وقوانينهم وقيمهم وموازينهم عبيداً مثلهم من البشر هم وهم سواء أمام الله .

* ■ *

---

(١) في ظلال القرآن (٢/ ٨٢٠) .

المبحث الثالث
محاربة الشرك

ومن شروط التمكين المهـمة ؛ محاربة الشرك بجـميع أشكاله وأنواعه ؛ ولذلك على الجماعة المسلمـة والتي تسعى لتحكيم شرع الله تعالى أن تعرف حقـيقة الشرك وخطره وأسبابه وأدلة بطلانه وأنواعه وأن تنقي صفهـا منه بكافة الأساليب الشرعية ولا يمكن للإنسان أن يحذر من الشرك وأن يحذر غيره إلا إذا عرفه وعرف خطره .

ومعرفة الشرك وما يتعلق به له فوائد عديدة :

أحدهما : أن الإنسان يمكنه بمعرفة الشرك أن يحذر من الوقوع فيه .

الثاني : أنه يمكنه أن يحذر غيره .

الثالث: أنه يظهـر له بذلك حسن الإسـلام والتوحـيد ، وذلك أنه إذا عـرف الشرك وظهـر له بطلانه ، عرف أن ضده وهو التوحـيد أفضل الأعمـال وبضدّها تتميز الأشياء إلى غير ذلك من الفوائد .

ولهذه الأسباب وغيرها فقد اهتم الدعاة الصادقون والعلماء المخلصون والقادة الربانيون ببـيان الشرك وأقـسامه وأسبـابه وخطره وجميع مـا يتعلق به ، وبينوا أن تحقيق الإيمان الصحيح لا يتم ولا يقبل من صاحبه إلا بترك الشرك والبعد عنه .

يقول الشيخ السـعدي -رحمه الله- : (ولا يتم توحيد العـبادة حتى يخلص العـبد لله في جـميع إرادته وأقـواله وأفعـاله ، وحتى يدع الشـرك الأكبـر المنافي للتوحيـد كل المنافاة ، وهو أن يصرف نوعًا من العـبادة لغير الله تعـالى ، وتحقيق هذا التـوحيد وتمامـه أن يدع الشرك الأصـغر وهو : كل وسـيلة يتوسل بـهـا إلى الشرك الأكبر كالحلف بغير الله ، ويسير الرياء ونحو ذلك)[1] .

---

(١) الفتاوى السعدية للعلامة عبد الرحمن السعدي ، ص١٣ .

أما حقيقة الشرك بالله: (أن يعبد المخلوق كما يعبد الله أو يعظم كما يعظم الله أو يصرف له نوع من خصائص الربوبية والألوهية)[١] .

أما أقسام الشرك فقسمه العلماء إلى نوعين: شرك في الربوبية ، وشرك في الألوهية قال السعدي -رحمه الله-: (الشرك نوعان : شرك في ربوبيته تعالى كشرك الثانوية الذين يثبتون خالقًا مع الله ، وشرك في ألوهيته، كشرك المشركين الذين يعبدون الله ويعبدون غيره ويشركون بينه، وبين المخلوقين، ويسوونهم مع الله في خصائص ألوهيته)[٢] .

لقد وردت النصوص الكثيرة في الكتاب والسنة في التحذير من الشرك، وبيان خطره، وأنه أعظم ذنب عصي الله به ، وأنه لا أضل من فاعله، وأنه مخلد في النار أبدًا لا نصير له ولا حميم ولا شفيع يطاع قال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدِ افْتَرَىٰ إِثْمًا عَظِيمًا﴾** (النساء، ٤٨) .

وقال تعالى: **﴿إِنَّ اللَّهَ لا يَغْفِرُ أَن يُشْرَكَ بِهِ وَيَغْفِرُ مَا دُونَ ذَلِكَ لِمَن يَشَاءُ وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَقَدْ ضَلَّ ضَلالاً بَعِيداً﴾** (سورة النساء، ١١٦) .

وقال تعالى: **﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾** (سورة الحج، ٣١) .

وقال تعالى: **﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾** (سورة الزمر ،٦٥) .

والأحاديث الواردة في ذم المشركين كثيرة، منها:

حديث عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال سمعت رسول الله صلى الله عليه وسلم يقول: (من مات يشرك بالله شيئًا دخل النار)[٣].

---

(١) الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة لعبد الرزاق العباد، ص١٧٨ .

(٢) الرياض النضرة للسعدي، ص٢٤٤ .

(٣) مسلم ، كتاب الإيمان، باب من مات لا يشرك بالله شيئاً (١/ ٩٤) رقم ٩٢ .

وحديث جابر بن عبد الله قال: سمعت رسول الله ﷺ يقول: (من لقي الله لا يشرك به شيئًا دخل الجنة)[١] .

وحديث أبي بكرة[٢] رضي الله عنه قال : كنا عند رسول الله ﷺ فقال : (ألا أنبئكم بأكبر الكبائر) ثلاثًا : (الإشراك بالله وعقوق الوالدين وشهادة الزور وكان رسول الله ﷺ متكئًا فجلس ، فما زال يكررها حتى قلنا ليته سكت)[٣] .

إن تفشي الشرك في المجتمعات الإسلامية سبب في ضياعها وانحرافها عن هدى المولى عز وجل . فمن أعظم الظلم ، وأبعد الضلال ، عدم إخلاص العبادة لرب العالمين وتسوية المخلوق مع الخلاّق العليم .

فالله وحده المتفرد بالعبودية فهو مالك النفع والضر ، الذي ما من نعمة إلا منه ، لا يدفع النقم إلا هو الذي له الكمال المطلق من جميع الوجوه والغنى التام لجميع وجوه الاعتبارات .

إن الشرك هو الذنب الوحيد المتميز عن بقية الذنوب بعدم المغفرة لصاحبه إذا مات ولم يتب منه ، وأما بقية الذنوب فإن صاحبها إن مات ولم يتب منها فإنه تحت مشيئة الله إن شاء عذبه وإن شاء غفر له .

إن الذنوب التي دون الشرك جعل الله لمغفرتها أسبابًا كثيرة كالحسنات الماحية والمصائب المكفرة في الدنيا والبرزخ ويوم القيامة وكدعاء المؤمنين ، بعضهم لبعض وشفاعة الشافعين ، ومن دون ذلك كله رحمته التي أحق بها أهل الإيمان والتوحيد وهذا بخلاف الشرك فإن المشرك قد سد على نفسه أبواب المغفرة ، وأغلق دونه أبواب الرحمة ، فلا تنفعه الطاعات دون التوحيد ، ولا تفيده الشدائد والمحن شيئًا .

---

(١) المصدر السابق نفسه ، رقم ٩٢ .

(٢) هو نفيع بن الحارث بن كلده بن عمرو أبو بكرة الثقفي ، تدلىّ إلى رسول الله ﷺ من حصن الطائف في (بكرة) فاشتهر بأبي بكرة وأسلم وأعتقه رسول الله ﷺ يومئذ ، وكان من فضلاء الصحابة وسكن البصرة توفي بالبصرة سنة ٥٠هـ . انظر : أسد الغابة (٥/ ٣٨)، الإصابة (٣/ ٥٤٢) .

(٣) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان الكبائر (١/ ٩١) رقم ١٤٣ .

إن الشرك بالله تمجـه وترفضه الفطر السليمـة ولقد بقي البشر بعـد آدم قرونًا طويلة وهم أمة واحدة على التوحيد والهدى، ثم أدخلت عليهم الشياطين الشرور المتنوعة بطرق كـثيرة فكان قوم نوح قد مـات منهم أناس صالحون فحـزنوا عليهم فجـاءهم إبليس وأمرهم أن يصوروا تماثيلـهم ليتذكـروا أحوالهم، فكان هذا باب الشر العظيم .

فلما مات الذين صوروهم لهذا المعنى خلف من بعدهم خلف قل فيهم العلم واستفزهم الشيطان وأغواهم حتى أوقعهم في الشرك ثم بعث الله فيهم نوحًا عليه السلام يعرفونه ويعرفون صدقه وأمانته وكمال أخلاقه فقال: ﴿ **يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَهٍ غَيْرُهُ**﴾ (الأعراف: ٥٩) . إلا أنهم عصوه وما آمن معه إلا قليل .

إن الله تعالى خلق الناس على فطرة التوحيـد ثم استطاعت الشياطين أن تميل بالناس وتنحرف بهم نحو الوثنية المظلمـة والشرك العظيم قال تعالى: ﴿**كَانَ النَّاسُ أُمَّةً وَاحِدَةً فَبَعَثَ اللَّهُ النَّبِيِّينَ مُبَشِّرِينَ وَمُنذِرِينَ**﴾ (سورة البقرة: ٢١٣) .

أي : إن الناس كانوا على ملة آدم عليه السلام حتى عبدوا الأصنام فبعث الله إليهم نوحًا عليه السلام فكان أول رسول بعثه الله إلى أهل الأرض[١] .

وقال تعـالى: ﴿ **فَأَقِمْ وَجْهَكَ لِلدِّينِ حَنِيفًا فِطْرَتَ اللَّهِ الَّتِي فَطَرَ النَّاسَ عَلَيْهَا لا تَبْدِيلَ لِخَلْقِ اللَّهِ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ**﴾ (سورة الروم: ٣٠) .

وقال تعالى : ﴿**وَلَقَدْ بَعَثْنَا فِي كُلِّ أُمَّةٍ رَّسُولاً أَنِ اعْبُدُوا اللَّهَ وَاجْتَنِبُوا الطَّاغُوتَ** ﴾ (سورة النحل: ٣٦) .

وقال ﷺ : (كـل مولود يولد على الفطرة فـأبواه يهودانه أو ينصـرانه أو يمجسانه)[٢] .

---

(١) انظر: تفسير ابن كثير (١/ ٢٥٠) .

(٢) مسلم، كتاب القدر، باب كل مولود يولد على الفطرة (٤/ ٢٠٤٧) رقم ٢٦٥٨ .

وهذه الأدلة الدامغة التي ذكرناها تدل على أن الناس كـانوا على التوحيد وأن الشرك طارئ وحادث فيهم .

إن الجماعة المسلمة التي رضيت بالله ربًا وبالإسلام دينًا وبمحمد ﷺ رسولاً تحرص على تحقيق التوحيد ومـحاربة الشرك وهي تسعى لتحكيم شرع الله ، لأنها تعلم علم اليـقين أن من شروط التـمكين وإقامـة دولة الإسلام تحـقيق الـتوحـيد وتهذيبه وتـصفيته من الشـرك الأكبر والأصغـر ومن البدع القولية والاعـتقادية ، والبدع الفـعلية العمليـة ، ومن المعاصي وذلك بكمال الإخـلاص لله في الأقوال والأفعال والإرادات ، وبالسلامة من الشرك الأكبر المناقض لأصل التوحيد ، ومن الشرك الأصغر المنافي لكمـاله وبالسلامة من البدع[1] وتربي الناس على الاستعانة بالله في كافـة أمور حـياتهم والاستـعانة به والنذر له والذبح له وحـده سبـحانه وتعالى وأن تكون الحاكمية لله رب العالمين .

وهي تحارب شرك القبـور، وكذلك شرك القوانين الوضعيـة وتدعو إلى إفراد العبودية لله وحده في جميع شئون الحياة الإنـسانية ولسان حالها ومقالها قول الله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ** ﴾ (سورة الأنعام ، الآية : ١٦٢) .

لذلك لا بد من محاربة الشرك ومداخله وألوانه وجميع طرقه لأن الشرك ذلة في الدنيا وعـذاب أليم في الآخرة ، ولأن من مـتطلبات الإيمان ولوازمه مـحاربة ضده إلا وهو الشرك .

وبعد أن ذكـرت الآية الكريمة شـروط الاستخـلاف والتمكـين والأمن أرشدت الآيات التي بعدها إلى كيـفية المحافظة على هذا التمكين والأمن وإلى العـدة الفعلية للأمـة الإسـلاميـة ألا وهي : الاتصـال بالله ، وتقـويم القلب بـإقامـة الصـلاة، والاستعـلاء على الشح ، وتطهير النفس والجـماعة بإيتاء الزكـاة . وطاعة الرسول

---

(١) انظر: الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، ص١٩١ .

ﷺ والرضى بحكمه ، وتنفيذ شريعة الله في الصـغيرة والكبيرة ، وتحقيق المنهج الذي أراده للحياة : ﴿ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴾ (النمل: ٤٦) في الأرض من الفساد والانحدار والخوف والقلق والضـلال ، وفي الآخرة من الغضب والعـذاب والنكال . إن الأمة الإسلامية عندمـا تسير على نهج الله تعالى وتحكم شرعه في الحـياة ، وترتضيه في كل أمورها . . . يتـحقق وعـد الله بالاستخـلاف والتمكين والأمن . ومـا من مرة خالفت عن هذا النهج والطريق القـويم إلا تخلفت في ذيل القافلة ، وذلت ، وطرد دينها من الهيمنة على البشرية ، واستبد بها الخوف ، وتخطفها الأعداء .

إن وعد الله لا يتـبدل ولا يتغيـر إذا أقمنا الشروط ، فإذا أردنا الوعـد فعلينا بتحقيق الشروط ولا أحد أوفى بعهده من الله تعالى[1] .

آثار الشرك:

إن الشرك الذي يقع فيه الإنسان له آثاره الوبيلة في دنياه وآخرته ، سواء أكان الواقع فيه فردًا أم جماعة ، فمن تلك الآثار :

١ - إطفاء نور الفطرة :

قال تعـالى : ﴿ وَإِذْ أَخَذَ رَبُّكَ مِن بَنِي آدَمَ مِن ظُهُورِهِمْ ذُرِّيَّتَهُمْ وَأَشْهَدَهُمْ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ أَلَسْتُ بِرَبِّكُمْ قَالُوا بَلَىٰ شَهِدْنَا ﴾ (سورة الأعراف : ١٧٢) .

وعلى هذا فإن الشرك نقض للميثاق الذي أخذه الله على البشر وهم في عالم الذر ، كمـا أنه انحراف عن الغاية التي خلق الله الجن والإنس من أجلهـا ، قال تعالى : ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات:٥٦) .

إن الإنسان يستمد من حـقيقة التوحيد إشراقتـه ونوره وسداد أمره، فإذا أشرك بالله تصبح أعماله كسراب بقيعة يحسبـه الضمآن ماء. وتصبح حاله وأعماله معتمة مظلمة ، قال تعالى : ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَعْمَالُهُمْ كَسَرَابٍ بِقِيعَةٍ يَحْسَبُهُ الظَّمْآنُ مَاءً حَتَّىٰ إِذَا جَاءَهُ لَمْ يَجِدْهُ شَيْئًا وَوَجَدَ اللَّهَ عِندَهُ فَوَفَّاهُ حِسَابَهُ وَاللَّهُ سَرِيعُ الْحِسَابِ * أَوْ كَظُلُمَاتٍ

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ٢٥٣٠) .

فِي بَحْرٍ لُّجِّيٍّ يَغْشَاهُ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ مَوْجٌ مِّن فَوْقِهِ سَحَابٌ ظُلُمَاتٌ بَعْضُهَا فَوْقَ بَعْضٍ إِذَا أَخْرَجَ يَدَهُ لَمْ يَكَدْ يَرَاهَا وَمَن لَّمْ يَجْعَلِ اللَّهُ لَهُ نُورًا فَمَا لَهُ مِن نُّورٍ﴾ (النور : ٣٩، ٤٠) .

٢- القضاء على منازع النفس الرفيعة :

إن النفس المتعلقة بالله المتطلعة إلى رضاه لا تستغرقها شهوات الحس ولا تتصرف بكليتها إلى متاع الأرض القريب، إنما تتطلع دائمًا إلى المثل العليا والقيم الرفيعة ، وإلى الترفع عن الدنس في كل صوره وأشكاله ، سواء أكان فاحشة من الفواحش التي حرّمها الله ، أو ظلمًا يقع على الناس ، أو موقفًا خسيسًا يقفه الإنسان من أجل شهوة رخيصة أو مطلب من مطالب الحياة الدنيا .

ولكن حين تهتز حقيقة التوحيد في النفس ويغشيها الشرك فإن النفس تنحط فتشغلها الأرض ، يشغلها المتاع الزائل فتتكالب عليه وتنسى القيم العليا والجهاد من أجل إقامتها وتحقيقها ، ويكون جهادها صراعًا خسيسًا على هذا المتاع الزائل يتقاتل من أجله الأفراد والدول والشعوب وتصبح الحياة البشرية محكومة بقانون الغاب ، القوي يأكل الضعيف ، والغلبة للقوة لا لصاحب الحق . . وهو الأمر الذي نراه سائدًا في الجاهلية المعاصرة في كل منحى من مناحي الحياة[1]. قال تعالى : ﴿وَمَن يُشْرِكْ بِاللَّهِ فَكَأَنَّمَا خَرَّ مِنَ السَّمَاءِ فَتَخْطَفُهُ الطَّيْرُ أَوْ تَهْوِي بِهِ الرِّيحُ فِي مَكَانٍ سَحِيقٍ﴾ (سورة الحج : ٣١) .

٣- القضاء على عزة النفس ووقوع صاحبه في العبودية الذليلة :

إن العزة الحقيقية تستمد من الإيمان بالله وحده قال تعالى : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (المنافقون : ٨) . ولكن المشرك لا يعرف هذه العزة ولا يتذوقها إنه عبد؛ ولكنها عبودية ذليلة لأنها ليست عبودية لله، الكريم الرحيم ، الذي يُعزُّ عباده بعزته إنه عبد لبشر مثله يتحكم فيه فيذله، أو عبد لشهواته : شهوة المال أو

---

(١) انظر : ركائز الإيمان لمحمد قطب ، ص١٤٠، ١٤١ .

شهوة الجنس أو شهوة السلطان . . كلها عبودية ذليلة وإن بدت لأول وهلة متاعًا وتمكنًا وتجبرًا في الأرض .

ثم يذهب هذا المتاع الزائل الذي تذل له أعناق الرجال، ويأتي اليوم الذي يقفون فيه موقف الخزي الأكبر أمام العزيز الجبار : ﴿أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ * ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ﴾ (الشعراء : ٢٠٥-٢٠٧) .

٤- تمزيق وحدة النفس البشرية :

إن الشرك يشتت وحدة النفس البشرية ويمزقها ، فيصلي الإنسان إذا صلى : لإله ويبيع ويشتري ويبتغي الرزق باسم إله آخر يحل له الربا ويحل له الغش والخداع بغية الربح . ويمارس شهواته باسم إله ثالث يُحِلُّ له العلاقات غير المشروعة ويزيّن له الخبائث . وقد يتوجه إلى بشر مثله أو إلى صنم من الأصنام فيطلب منه البركة أو يطلب منه أن يقرّبه إلى الله زلفى . . وهكذا تتشتت نفسه في محاولة استرضاء هذه الأرباب المتعددة التي كثيرًا ما يكون لكل منها مطالب تخالف مطالب الأخرى وتعارضها .

وفي النهاية يفقد نفسه بعد أن يفقد أمنه وطمأنينته[1]: ﴿ ضَرَبَ اللَّهُ مَثَلاً رَّجُلاً فِيهِ شُرَكَاءُ مُتَشَاكِسُونَ وَرَجُلاً سَلَمًا لِّرَجُلٍ هَلْ يَسْتَوِيَانِ مَثَلاً الْحَمْدُ لِلَّهِ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لا يَعْلَمُونَ﴾ (سورة الزمر : ٢٩) .

٥- ومن نتائجه إحباط العمل :

قال تعالى : ﴿وَلَقَدْ أُوحِيَ إِلَيْكَ وَإِلَى الَّذِينَ مِن قَبْلِكَ لَئِنْ أَشْرَكْتَ لَيَحْبَطَنَّ عَمَلُكَ وَلَتَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ﴾ (سورة الزمر : ٦٥) .

هذه بعض الآثار التي تحدث للإنسان الذي يقع في الشرك ولا شك أن تلك الآثار تبعد المجتمع من التمكين الرباني .

---

(١) المصدر نفسه ، ص١٤٤، ١٤٥ .

المبحث الرابع
تقوى الله عز وجل

قال تعالى : ﴿ وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ وَلَكِن كَذَّبُوا ...﴾ (سورة الأعراف : ٩٦) .

إن من شروط التمكين المهمة والتي نضيفها إلى المباحث السابقة تقوى الله عز وجل ، لأن تقوى الله تعالى لها ثمرات عظيمة في الدنيا والآخرة ، وهذه الثمرات تظهر على الأفراد، ومن ثَمَّ على الجماعة المسلمة التي تسعى لتحكيم شرع الله والتمكين لدينه . إن تقوى الله تعالى تجعل العبد بينه وبين ما يخشاه من ربه ومن غضبه وسخطه وعقابه وقاية تقيه من ذلك ، وهي أن تعمل بطاعة الله على نور من الله ترجو ثواب الله ، وأن تترك معصية الله على نور من الله تخاف عقاب الله .

أولاً - ثمرات التقوى العاجلة والآجلة :

١ - المخرج من كل ضيق والرزق من حيث لا يحتسب العبد:

قال تعالى : ﴿ وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مَخْرَجًا ۝٢ وَيَرْزُقْهُ مِنْ حَيْثُ لا يَحْتَسِبُ ﴾ (سورة الطلاق : ٢،٣) .

٢- السهولة واليسر في كل أمر :

قال تعالى : ﴿وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يَجْعَل لَّهُ مِنْ أَمْرِهِ يُسْرًا﴾ (الطلاق ، آية : ٤) .

قال سيد قطب رحمه الله : " واليسر في الأمر غاية ما يرجوه الإنسان ، وإنها لنعمة كبرى أن يجعل الله الأمور ميسرة لعبد من عباده فلا عنت ولا مشقة ولا عسر ولا ضيق يأخذ الأمور بيسر في شعوره وتقديره ، وينالها بيسر في حركته وعمله ، ويرضاها بيسر في حصيلتها ونتيجتها ، ويعيش من هذا ، في يسر رَخِيٍّ نَدِيٍّ حتى يلقى "(١).

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣٦٠٢) .

٣- تيسير العلم النافع :

قال تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة : ٢٨٢) .

قال العلامة محمد رشيد رضا : (أي اتقوا الله في جميع ما أمركم به ونهاكم عنه وهو يعلمكم ما فيه قيام مصالحكم وحفظ أموالكم وتقوية رابطتكم ، فإنكم لولا هدايته لا تعلمون ذلك ، وهو سبحانه العليم بكل شيء ، فإذا شرع شيئًا فإنما يشرعه عن علم محيط بأسباب درء المفاسد وجلب المصالح لمن تبعه شرعه ، وكرر لفظ الجلالة لكمال التذكير وقوة التأثير)[١] لقد تكرر لفظ الجلالة في قوله تعالى : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَيُعَلِّمُكُمُ اللَّهُ وَاللَّهُ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ﴾ (البقرة: ٢٨٢) ثلاث مرات ، فالأولى حث على التقوى ، والثانية وعدٌ بإنعامه ، والثالثة تعظيم شأنه سبحانه وتعالى .

٤- إطلاق نور البصيرة :

قال تعالى : ﴿إِن تَتَّقُوا اللَّهَ يَجْعَل لَّكُمْ فُرْقَانًا﴾ (الأنفال ، آية : ٢٩) . إن تقوى الله تعالى في الأمور كلها تعطي صاحبها نورًا يفرق به بين الحق والباطل، وبين دقائق الشبهات التي لا يعلمهن كثير من الناس وعندما تسيطر تقوى الله على الصف المسلم يصبح يتحرك بفرقان رباني .

٥- محبة الله عز وجل ومحبة ملائكته والقبول في الأرض:

قال تعالى : ﴿بَلَىٰ مَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِ وَاتَّقَىٰ فَإِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَّقِينَ . . .﴾ (آل عمران آية : ٧٦) .

وعن أبي هريرة ﵁ عن رسول الله ﷺ أنه قال : " إذا أحب الله العبد قال لجبريل : قد أحببت فلانًا فأحبه . فيحبه جبريل ﵇، ثم ينادي في أهل السماء ، إن الله قد أحب فلانًا فأحبوه ، فيحبه أهل السماء ثم يوضع له القبول في الأرض "[٢] .

---

(١) تفسير المنار (٣/١٢٨) .

(٢) مسلم ، كتاب البر والصلة والآداب ، باب إذا أحب الله تعالى (٤/ ٢٠٣٠) رقم ٢٦٣٧ . .

٦- نصرة الله عز وجل وتأييده وتسديده :

وهي المعية المقصودة بقول الله عز وجل : ﴿وَاتَّقُوا اللَّهَ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ مَعَ الْمُتَّقِينَ﴾ (البقرة : ١٩٤) . فهذه المعية هي معية التأييد والنصرة والتسديد وهي معية الله عز وجل لأنبيائه وأوليائه ومعيته للمتقين والصابرين وهي تقتضي التأييد والحفظ والإعانة كما قال تعالى لموسى عليه السلام وهارون: ﴿ لا تَخَافَا إِنَّنِي مَعَكُمَا أَسْمَعُ وَأَرَىٰ﴾ (طه : ٤٦) .

أما المعية العامة مثل قوله تعالى : ﴿وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ﴾ (الحديد : ٤) .

وقوله : ﴿ وَلا يَسْتَخْفُونَ مِنَ اللَّهِ وَهُوَ مَعَهُمْ إِذْ يُبَيِّتُونَ مَا لا يَرْضَىٰ مِنَ الْقَوْلِ ﴾ (النساء : ١٠٨) .

والمعية العامة تستوجب من العبد الحذر والخوف ومراقبة الله عز وجل .

٧- البركات من السماء والأرض :

قال تعالى : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ آمَنُوا وَاتَّقَوْا لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ . . ﴾ (سورة الأعراف : ٩٦) .

قال القاسمي رحمه الله : ﴿وَلَوْ أَنَّ أَهْلَ الْقُرَىٰ﴾ أي : القرى المُهْلَكَه ﴿آمَنُوا﴾ أي : بالله ورسلهم " واتقوا " أي : الكفر والمعاصي ﴿لَفَتَحْنَا عَلَيْهِم بَرَكَاتٍ مِّنَ السَّمَاءِ وَالأَرْضِ﴾ أي: لوسعنا عليه الخير ويسرناه لهم من كل جانب ، مكان ما أصابهم من فنون العقوبات التي بعضها من السماء وبعضها من الأرض)[1].

ويدل على هذا المعنى قوله عز وجل : ﴿وَأَن لَّوِ اسْتَقَامُوا عَلَى الطَّرِيقَةِ لَأَسْقَيْنَاهُم مَّاءً غَدَقًا﴾ (الجن: ١٦).

فانظر إلى بركات التقوى، واعلم أن ما نحن فيه من قلة البركة ونقص الثمار وكثرة الآفات والأمراض إنما هو نتيجة حتمية لضعف وازع التقوى وكثرة المعاصي

---

(١) انظر: محاسن التأويل (٧/ ٢٢١) .

كما يقول تعالى: ﴿ظَهَرَ الْفَسَادُ فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ بِمَا كَسَبَتْ أَيْدِي النَّاسِ لِيُذِيقَهُم بَعْضَ الَّذِي عَمِلُوا لَعَلَّهُمْ يَرْجِعُونَ﴾ (الروم: ٤١).

٨- البشرى وهي الرؤيا الصالحة وثناء الخلق ومحبتهم:

قال تعالى : ﴿أَلا إِنَّ أَوْلِيَاءَ اللَّهِ لا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ (٦٢) الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ (٦٣) لَهُمُ الْبُشْرَىٰ فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَفِي الآخِرَةِ . .﴾ (يونس : ٦٢-٦٤).

والبشرى في الحياة الدنيا ما بشر الله به المؤمنين المتقين. في غير مكان من كتابه وعن النبي ﷺ : (الرؤيا الصالحة من الله)[١] . وعنه ﷺ : (لم يبق من النبوة إلا المبشرات. قالوا : وما المبشرات؟ قال : (الرؤيا الصالحة)[٢] .

وعن أبي ذر رضي الله عنه قال : قلت لرسول الله ﷺ : الرجل يعمل العمل لله ويحبه الناس) فقال: (تلك عاجل بشرى المؤمن)[٣] . وقد رأينا من الموفقين في العمل الإسلامي ثناء الناس على أعمالهم في الدنيا.

٩- الحفظ من كيد الأعداء ومكرهم:

قال تعالى : ﴿وَإِن تَصْبِرُوا وَتَتَّقُوا لا يَضُرُّكُمْ كَيْدُهُمْ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (آل عمران: ١٢٠).

قال ابن كثير -رحمه الله- : (يرشدهم تعالى إلى السلامة من شر الأشرار وكيد الفجار باستعمال الصبر والتقوى والتوكل على الله الذي هو محيط بأعدائهم، فلا حول ولا قوة لهم إلا به، وهو الذي ما شاء كان وما لم يشاء لم يكن)[٤] .

إنه تعليم من الله تعالى للمسلمين في كيفية الاستعانة على أعداء الله وكيدهم.

---

(١) البخاري، كتاب الرؤيا، باب رؤيا الصالحين (٨/ ٨٨) رقم ٦٩٨٦ .

(٢) البخاري ، كتاب الرؤيا، باب المبشرات (٨/ ٨٩) رقم ٦٩٩٠ .

(٣) مسلم ، كتاب الرؤيا، باب المبشرات (٤/ ٢٠٣٤) .

(٤) تفسير القرآن العظيم (١ / ٣٢٩) .

١٠- حفظ الذرية الضعاف بعناية الله تعالى عز وجل:

قال تعالى : ﴿وَلْيَخْشَ الَّذِينَ لَوْ تَرَكُوا مِنْ خَلْفِهِمْ ذُرِّيَّةً ضِعَافًا خَافُوا عَلَيْهِمْ فَلْيَتَّقُوا اللَّهَ وَلْيَقُولُوا قَوْلاً سَدِيداً﴾ (النساء :٩). وفي الآية إشارة إلى إرشـاد المسلمين الذين يخشون ترك ذرية ضعاف بالتقـوى في سائر شئونهم حتى تحفظ أبناؤهم ويدخلوا تحت حفظ الله وعنايته، ويكون في إشعارها تهديد بضياع أولادهم إن فقدوا تقوى الله، وإشارة إلى أن تقوى الأصول تحفظ الفـروع، وأن الرجال الصالحين يحفظون في ذريتهم الضعـاف كما في آية: ﴿ وَأَمَّا الْجِدَارُ فَكَانَ لِغُلامَيْنِ يَتِيمَيْنِ فِي الْمَدِينَةِ وَكَانَ تَحْتَهُ كَنزٌ لَّهُمَا وَكَانَ أَبُوهُمَا صَالِحاً﴾ (الكهف : ٨٢).

فإن الغلامين حفظا ببركة أبيهما في أنفسهما ومالهما[١] .

١١- سبب لقبول الأعمال التي بها سعادة العباد في الدنيا والآخرة :

قال تعالى : ﴿ إِنَّمَا يَتَقَبَّلُ اللَّهُ مِنَ الْمُتَّقِينَ﴾ (سورة المائدة : ٢٧) .

ولهذا لا بد من الدعاة العاملين والعلماء الراسخين من استحضار هذه المعاني العظيمة ، إن أعمالنا مهما كان حجمها وتضـحياتنا مهما كانت ضخامتها لا تقبل إلا من المتقين ، لأنهم هم الذين يستشعروا أن كل خير هو من الله وحده .

١٢- سبب النجاة من عذاب الدنيا :

قال الله تعالى: ﴿وَأَمَّا ثَمُـودُ فَهَدَيْنَاهُمْ فَاسْتَحَبُّـوا الْعَمَىٰ عَلَى الْهُـدَىٰ فَأَخَذَتْهُمْ صَاعِقَةُ الْعَذَابِ الْهُـونِ بِمَا كَانُوا يَكْسِبُونَ * وَنَجَّيْنَا الَّذِينَ آمَنُوا وَكَانُوا يَتَّقُونَ ﴾ [فصلت: ١٨-١٩] .

إن الله تعالى سلَّم أهل الإيمان والتقوى من بين أظهر الكافرين دون أن يمسهم سوء أو أن ينالهم من ذلك ضرر ، بسبب إيمانهم وتقواهم لله تعالى .

(١) انظر: محاسن التأويل للقاسمي (٥/٤٧) .

١٣- تكفير السيئات وهو سبب النجاة من النار ، وعظم الأجر وهو سبب الفوز بدرجة الجنة :

قال تعالى : ﴿**وَمَن يَتَّقِ اللَّهَ يُكَفِّرْ عَنْهُ سَيِّئَاتِهِ وَيُعْظِمْ لَهُ أَجْرًا**﴾ (الطلاق : ٥).

قال ابن كثير رحمه الله : أي : (يذهب عنهم المحظور ، ويجزل لهم الثواب على العمل اليسير)[١] .

١٤- ميراث الجنة ، فهم أحق الناس بها وأهلها ، بل ما أعد الله الجنة إلا لأصحاب هذه الرتبة العَلية والجوهرة البهية . قال تعالى : ﴿ **تِلْكَ الْجَنَّةُ الَّتِي نُورِثُ مِنْ عِبَادِنَا مَن كَانَ تَقِيًّا** ﴾ (مريم : ٦٣) . فهم الورثة الشرعيون لجنة الله عز وجل .

١٥- وهم لا يذهبون إلى الجنة سيرًا على أقدامهم بل يحشرون إليها ركبانًا مع أن الله عز وجل يقرب إليهم الجنة تحية لهم ودفعًا لمشقتهم كما قال تعالى : ﴿**وَأُزْلِفَتِ الْجَنَّةُ لِلْمُتَّقِينَ غَيْرَ بَعِيدٍ**﴾ (ق : ٣١) .

قال تعالى : ﴿**يَوْمَ نَحْشُرُ الْمُتَّقِينَ إِلَى الرَّحْمَنِ وَفْدًا**﴾ (مريم : ٨٥) .

١٦- وهي تجمع بين المتحابين من أهلها حين تنقلب كل صداقة ومحبة إلى عداوة ومشقة :

قال تعالى: ﴿**الأَخِلاَّءُ يَوْمَئِذٍ بَعْضُهُمْ لِبَعْضٍ عَدُوٌّ إِلاَّ الْمُتَّقِينَ**﴾ (الزخرف : ٦٧) .

ومن بركة التقوى أن الله عز وجل ينزع ما قد يعلق بقلوبهم من الضغائن والغل فتزداد مودتهم وتتم محبتهم وصحبتهم قال تعالى : ﴿ **إِنَّ الْمُتَّقِينَ فِي جَنَّاتٍ وَعُيُونٍ (٤٥) ادْخُلُوهَا بِسَلامٍ آمِنِينَ (٤٦) وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ غِلٍّ إِخْوَانًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَابِلِينَ . .** ﴾ (سورة الحجر : ٤٥-٤٧) .

إن هذه الثمار العظيمة عندما تمس شغاف قلوب العاملين في الدعوة الإسلامية تفضي على العمل محيطًا ربانيًّا موصولاً بالله متصلة حلقة الدنيا

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٣٨٢) .

بالآخرة ، كما أن الحرص على تقــوى الله تعالى تكسب الصف الإسلامي صفات رفيعة وأخــلاق حميدة ، ومكارم نفيسة تجـعله أهلاً لتمكين شرع الله على يديه ، ومن أهم هذه الصفات التي تجعل الصف المسلم متـماسكًا في حركته الدعوبة نحو تحكيم شرع الله .

ثانيًا: صفات المتقين:

١ - الصدق ، فهم أصــدق الناس إيمانًا ، وأصدقهم أقوالاً وأعــمالاً وهم الذين صَدَّقوا المرسلين قال تعالى : ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ (البقرة : ١٧٧) .

قال القاســمي : - رحمه الله - : ﴿**أُوْلَئِكَ الَّذِينَ صَدَقُوا**﴾ في إيمانهم لأنهم حقــقوا الإيمان الــقلبي بالأقوال والأفــعال ، فلم تغــيرهم الأحــوال ولم تزلزلهم الأهوال ، وفيــه إشعــار بأن من لم يفعل أفــعالهم لم يصــدق في دعوة الإيمان : ﴿**وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُتَّقُونَ**﴾ عن الكفر وســائر الرذائل ، وتكرير الإشارة لزيادة تنويه بشأنهم وتوســيط الضمير للإشــارة إلى انحصار التقــوى فيهم[١] وقد رغب النبي ﷺ في هذه الخصــلة النبيلة والرتبــة الجليلة فقال ﷺ : " ومــا يزال الرجل يصدق ويتحرى الصدق حتى يكتب عند الله صديقًا "[٢].

٢ - ومن صفــاتهم ، أنهم يعظمون شــعائر الله عز وجل : قــال الله تعالى : ﴿**ذَلِكَ وَمَن يُعَظِّمْ شَعَائِرَ اللَّهِ فَإِنَّهَا مِن تَقْوَى الْقُلُوبِ**﴾ (سورة الحج ، آية : ٣٣) .

إن المتقين يعظمــون طاعة الله وأمره فيــدفعهم ذلك إلى طاعتــه ويعظمون كذلك ما نهى الله عنه فيدفعهم ذلك عن معصيته .

٣ - ويتحرون العدل ويحكمون به ، ولا يحــملنهم بغض أحد على تركه قال تعالى : ﴿**وَلاَ يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَى أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَى وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (سورة المائدة : ٨) .

---

(١) انظر : تفسير القاسمي (٣/ ٥٤) .

(٢) البخاري ، كتاب الأدب ، باب قول الله تعالى : ﴿كونوا مع الصادقين﴾ (٧/ ١٢٤) .

وفي الآية تعليم وإرشاد على وجوب العدل مع الكفار الذين هم أعداء الله ، فما الظن بوجوبه مع المؤمنين الذين هم أولياؤه وإحباؤه .

٤- يتبعون سبيل الصادقين من الأنبياء والمرسلين وصحابة سيد الأولين والآخرين ﷺ . قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اتَّقُوا اللَّهَ وَكُونُوا مَعَ الصَّادِقِينَ** ﴾ (التوبة ، آية : ١١٩) .

فلا شك أن من صفات المتقين أنهم ينتهجون منهج الصحابة ﷺ ، لأنهم أولى الناس بهذه الصفة التي أمرنا الله أن نكون مع أهلها ، فقد شهد الله لهم بالصدق ، وشهد لهم رسوله ﷺ ، فلا يجوز لأحد أن يلمزهم بشيء ، أو يتهمهم بما بَرَّأهم الله عز وجل منه ورسوله ﷺ ، فالصحابة كلهم عدول ، وظهرت فيهم من علامات الصدق والإيمان واليقين ما يجعل العاقل يقطع بتعديلهم، فمن تقوى الله عز وجل موالاتهم ومحبتهم ونصرتهم والاحتجاج بإجماعهم ، وفهم الكتاب والسنة على منهجهم وطريقتهم ، وبغض من يبغضهم وبغير الحق يذكرهم[(١)] .

٥- يَدَعُون ما لا بأس به حذراً مما به بأس ويتقون الشبهات، إن المتقين يتورعون عن الشبهات وعما يرتابون فيه مما ليس حلالاً بينًا ، وذلك أدعى أن يتورعوا عن الحرام البين ، ومن اجترأ على الشبهة اجترأ كذلك على الحرام .

ولهذا قال رسول الله ﷺ : " إن الحلال بين وإن الحرام بين وبينهما أمور مشتبهات لا يعلمهن كثير من الناس ، فمن اتقى الشبهات فقد استبرأ لدينه وعرضه ، ومن وقع في الشبهات وقع في الحرام "[(٢)] .

ولا بد من التنبه لأمر مهم وهو أن التدقيق في التوقف عن الشبهات إنما يصلح لمن استقامت أحواله كلها وتشابهت أعماله في التقوى والورع ، فأما من

---

(١) انظر: الجامع لأحكام القرآن للقرطبي (٨/ ٢٨٩) .

(٢) البخاري، كتاب الإيمان ، باب من استبرأ لدينه (١/ ٢٢) رقم ٢٢ .

يقع في انتهاك المحرمات الظاهرة ثم يريد أن يتورع عن شيء من دقائق الشبهات فإنه لا يحتمل ذلك ؛ بل ينكر عليه ، كما قال ابن عمر رضي الله عنهما لمن سأله عن دم البعوض من أهل العراق : يسألونني عن دم البعوض وقد قتلوا الحسين ، وسمعت رسول الله ﷺ يقول : " هما ريحانتاي من الدنيا "(١).

٦- إنهم يعفون ويصفحون : قال تعالى : ﴿**وَأَن تَعْفُوا أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ (البقرة : ٢٣٧) وقال تعالى : ﴿**وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ**﴾ (الشورى : ٤٠) .

فأخبر عز وجل أن من اتصف بهذه الصفة فأجره في ذلك على الله عز وجل كما رغبهم الله عز وجل في مغفرته إذا فعلوا ذلك فقال عز وجل : ﴿ **وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (النور : ٢٢) .

وقال تعالى في وصف المتقين : ﴿ **وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ**﴾ (آل عمران : ١٣٤) .

فالإحسان وصف من أوصاف المتقين ، ولم يعطفه على ما سبقه من الصفات؛ بل صاغه بهذه الصيغة تمييزًا له بكونه محبوبًا عند الله تعالى(٢).

٧- ومن صفاتهم أنهم غير معصومين من الخطايا إلا من عصمه الله عز وجل من الأنبياء غير أنهم لا يفارقون الكبائر ، ولا يصرون على الصغائر ، بل كلما وقعوا في صغيرة رجعوا إلى الله بالتوبة والاستغفار والعمل الصالح عملاً بقول الله تعالى : ﴿ **إِنَّ الَّذِينَ اتَّقَوْا إِذَا مَسَّهُمْ طَائِفٌ مِّنَ الشَّيْطَانِ تَذَكَّرُوا فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ**﴾ (الأعراف : ٢٠١) .

شأن المؤمنين المتقين إذا مسهم طائف من الشيطان لحملهم على محاكاة

---

(١) البخاري، فضائل الصحابة ، باب مناقب الحسن والحسين (٤/ ٢٦١) .

(٢) انظر: تفسير المنار (٤/ ١٣٤، ١٣٥) .

الجاهلين والخوض مـعهم وعلى غير ذلك مـن المعاصي والفساد تذكـروا فأبصروا فحذروا وسلموا ، وإن زلّوا تابوا وأنابوا[١] .

إن هذه الصـفات عندمـا تتغلغل في نفـوس الدعاة والعلمـاء وأبناء المسلمين تكون الأمة المسلمة جديرة بنصر الله وتوفيقه ، وبهذا نكون قد فصلنا أهم شروط التمكين المتـمثلة في الإيمان بالله والعـمل الصالح ، والعـبادة ، ومحـاربة الشرك وتقوى الله عز وجل .

* ■ *

(١) المصدر نفسه ، (٩ / ٥٥٠) .

■ الفصل الثاني ■
أسباب التمكين

تمهيد:

إن الأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى التمكين أمر أرشدنا إليه القرآن الكريم ، وحثنا على الأخذ بها سيد المرسلين ﷺ .

وقد أمر الله تعالى بالإعداد الشامل فقال : ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ** . . . ﴾ (سورة الأنفال ، آية : ٦٠) .

والإعداد في حقيقته أخذ بالأسباب.

وأشارت الآية الكريمة إلى الأمر بإعداد :

١- ما استطعتم من قوة

٢- ومن رباط الخيل

والغاية :

١- ترهبون به عدو الله وعدوكم

٢- وآخرين من دونهم لا تعلمونهم

وإعداد القوة ، لفظ عام يشمل كل قوة ، فقوة العقيدة والإيمان قوة ، وقوة الصف والتلاحم قوة ، وقوة السلاح والساعد قوة .

- ورباط الخيل إشارة إلى السلاح الثقيل ، وإشارة إلى وجوب وجوده في أيدي المسلمين لا تلقيه شراء أو هبة من أحد .

ولا يمنع من الحفاظ على الخيل كجزء من الإعداد الإسلامي ، لأنها عند الالتحام أقوى من التحام الأفراد بغير أفراس، وقد أثبتت الحروب الحديثة أهمية الخيل كما حدث للمجاهدين في جبال الأفغان ضد الشيوعيين ، وفي جنوب السودان ضد النصارى .

إن الآية الكريمة تضع أذهان المسلمين على الإعداد الشامل ، المعنوي والمادي ، العلمي والفقهي على مستوى الأفراد والجماعات ، وتدخل في طياتها ، الإعداد التربوي ، والسلوكي ، والإعداد المالي ، والإعداد الإعلامي ، والسياسي والأمني والعسكري . . إلخ .

كما أن الآية الكريمة وضحت أن الإعداد يحتاج إلى إنفاق هائل وواعدت بالتعويض في الدنيا والجزاء في الآخرة لتحفز المسلمين وتحثهم على ذلك قال تعالى : ﴿ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ ﴾ (الأنفال : ٦٠) .



المبحث الأول
سنة الأخذ بالأسباب وإرشاد القرآن للإعداد

أولاً : سنة الأخذ بالأسباب :

إن من أهم السنن الربانية التي ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن التمكين سنة الأخذ بالأسباب ، ولذلك يجب على الأفراد والجماعات العاملة للتمكين لدين الله من فهمها واستيعابها وإنزالها على أرض الواقع .

قال الإمام الرازي : أصل السبب في اللغة الحبل . قالوا ولا يدعى الحبل سببًا حتى ينزل ويصعد به ومنه قوله تعالى : ﴿ **فَلْيَمْدُدْ بِسَبَبٍ إِلَى السَّمَاءِ ثُمَّ لْيَقْطَعْ . . .** ﴾ (سورة الحج ، آية : ١٥) . ثم قيل لكل شيء سبب لأنك بسلوكه تصل الموضع الذي تريده قال تعالى : ﴿**فَأَتْبَعَ سَبَبًا**﴾ (الكهف : ٨٥) أي طريقًا ، وأسباب السموات أبوابها . لأن الوصول إلى السماء يكون بدخولها ، قال تعالى مخبراً عن فرعون ﴿**لَّعَلِّي أَبْلُغُ الأَسْبَابَ (٣٦) أَسْبَابَ السَّمَوَاتِ**﴾ (غافر : ٣٦ - ٣٧) والمودة بين القوم تسمى سببًا لأنهم بها يتواصلون والسبب في اصطلاح الشرع : ما يوصل إلى الشيء ولا يؤثر فيه كالوقت للصلاة[1] .

واستعير السبب لكل ما يتوصل به إلى أمر من الأمور[2] إن سنة الأخذ بالأسباب مقررة في كتاب الله تعالى، ولقد وجه الله عباده المؤمنين إلى وجوب مراعاة هذه السنة في كل شئونهم ، الدنيوية والأخروية سواء .

قال تعالى : ﴿ **وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ وَالْمُؤْمِنُونَ**﴾ (التوبة : ١٠٥) وقال سبحانه : ﴿ **هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ** ﴾ (سورة الملك ، آية :١٥) .

---

(١) انظر : مفاتيح الغيب (٢/ ٦٢٦) .

(٢) انظر : مفردات القرآن كتاب السين ، ص٢٢٠ ، المعجم الوسيط ص٤٢٦ .

ولقد أخـبرنا القـرآن الكريم أن الله تعالـى طلب من السيـدة مريم أن تبـاشر الأسباب وهي في أشد حالات ضعـفها قال تعالى : ﴿ وَهُزِّي إِلَيْكِ بِجِذْعِ النَّخْلَةِ تُسَاقِطْ عَلَيْكِ رُطَبًا جَنِيًّا ﴾ (سورة مريم ، آية : ٢٥) .

وهكذا يؤكـد القرآن الكريم على ضـرورة مباشـرة الأسبـاب في كل الأمور والأحوال[١] .

" ولقد قدر الله سـبحانه وتعالى لدينه أن ينتصـر ، وللمسلمين أن يُمكنوا ، وللمشـركين أن ينهزمـوا ، ومع ذلك فهل قـال الله تعالى للمسـلمين : ما دمت قدّرت لكم النـصر والتمكين فـاقعـدوا وانتظروا إنفاذ قدري ، وهـو لا بد نافذ؟ كلا ، وإنما قال لهم : ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ . . ﴾ (سورة الأنفال ، آية : ٦٠) وقال تعالى : ﴿ ذَلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ﴾ (سورة محمد ، آية : ٤) .

وقال عز وجل : ﴿إِن تَنصُرُوا اللَّهَ يَنصُرْكُمْ وَيُثَبِّتْ أَقْدَامَكُمْ ﴾ (محمد : ٧) فلا بد من اتخـاذ الأسباب للنصـر والتمكين ، وإن كـان ذلك قدرًا مقـدورًا من عند الله[٢]

" وليس الله – سـبحـانه وتعـالى – عاجـزًا عن نصـرة الحق بغيـر الأدوات البشرية . وهو الذي يقول للشيء كن فيكون ، ولكن هكذا اقتضت مشيئته وهكذا تجري سننه "[٣] .

ورسول الله ﷺ وهو أفضل المتوكلين كان أوعى الناس لهذه السنة الربانية ، فكان وهو يؤسس لبناء الدولة الإسلامية يأخذ بكل ما في وسعه من أسباب ، ولا يترك شـيئًا يـسير جـزافًا . والمتـتبع للسيـرة النبوية يلمس ذلك تمامًـا . . " ففي

---

(١) انظر : التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن لمحمد السيد ص٢٤٨ .

(٢) مفاهيم ينبغي أن تصحح لمحمد قطب ص٢٦٢ ، ٢٦٣ بتصرف يسير .

(٣) حول التفسير الإسلامي للتاريخ محمد قطب ص١٠٤ .

الهجرة - على سبيل المثال - لم يترك رسول الله ﷺ أمرًا من الأمور إلا أعد له عدته ، وحسب له حسابه ، ورسم له خطته على نحو يستوعب كل الطاقات والوسائل .

فقد أعد النبي ﷺ الرواحل والدليل ، واختار الرفيق والمكان الذي سيتوارى فيه - هو وصاحبه - حتى يهدأ الطلب ، ويفتر الحماس . وأحاط ذلك كله بما يمكن للبشر من أخذ الحذر ، والكتمان ، وأسباب الاحتياط ، وترك للإرادة الإلهية - بعد ذلك - ما لا حيلة له فيه[1] .

وكذلك الأمر بالنسبة لغزوة بدر ، وأحد ، والأحزاب . . وجميع غزواته ﷺ ، وكل أموره .

وكان ﷺ يوجه أصحابه دائمًا إلى مراعاة هذه السنة الربانية ، في أمورهم الدنيوية والأخروية على السواء ففي أمورهم الدنيوية كان النبي ﷺ يرشدهم دائمًا إلى الأخذ بما يمكن من أسباب للوصول إلى حياة كريمة بعيدًا عن ذل السؤال ومهانة العوز والحاجة، روى أبو داود والترمذي عن أنس رضي الله عنه أن رجلاً من الأنصار أتى النبي ﷺ فسأله عطاء ، فقال الرسول ﷺ : أما في بيتك شيء؟ قال : بلى . حلس نلبس بعضه ، ونبسط بعضه ، وقعب نشرب فيه . قال ائتني بهما ، فأتاه بهما ، فأخذهما رسول الله ﷺ بيده وقال : من يشتري مني هذين ؟ قال رجل : أنا آخذهما بدرهم ، قال رسول الله ﷺ : من يزيد على درهم ؟ مرتين أو ثلاثًا ، فقال رجل : أنا آخذهما بدرهمين . فأعطاهما إياه فأخذ الدرهمين ، وأعطاهما الأنصاري ، وقال له : اشتر بأحدهما طعامًا فانبذه إلى أهلك ، واشتر بالآخر قدومًا فائتني به ، فأتاه به ، فشد فيه رسول الله ﷺ عودًا بيده ، ثم قال : اذهب فاحتطب وبع ، ولا أرينك خمسة عشر يومًا فجاء وقد أصاب عشرة دراهم ، فاشترى ببعضها ثوبًا ، وببعضها طعامًا فقال له

---

(١) أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة المقبلة د . القرضاوي ص١٧، ١٨ .

رسول الله ﷺ : هذا خير لك من أن تجيء المسألة نكتة سوداء في وجهك يوم القيامة[١] .

" وهذا نفس المعنى الذي أشار إليه أمير المؤمنين عمر بن الخطاب ﷺ حين قال للكسالى القابعين في المسجد ينتظرون الرزق : لا يقعدن أحدكم عن طلب الرزق ويقول : " اللهم ارزقني " وقد علم أن السماء لا تمطر ذهبًا ولا فضة ، وإن الله تعالى يقول : ﴿فَإِذَا قُضِيَتِ الصَّلاةُ فَانتَشِرُوا فِي الأَرْضِ وَابْتَغُوا مِن فَضْلِ اللَّهِ . . ﴾ (سورة الجمعة ، الآية : ١٠) .

نعم ، لا بد من بذل الجهد ، لأن الأخذ بالأسباب والكدح للحصول على ما يرغب الإنسان في تحقيقه هو ذاته من سنن الله تعالى . . . "[٢] .

وكذلك بالنسبة لأمر الآخرة . لا بد من الأخذ بالأسباب حتى يصل الإنسان إلى ما يرجو من رحمة الله وجنته . قال تعالى : ﴿ وَمَنْ أَرَادَ الآخِرَةَ وَسَعَىٰ لَهَا سَعْيَهَا وَهُوَ مُؤْمِنٌ فَأُولَٰئِكَ كَانَ سَعْيُهُم مَّشْكُورًا ﴾ (سورة الإسراء ، آية : ١٩) . لقد كان في وجدان الأمة الإسلامية في عصرها الزاهر أن إيمانها بقدرة الله - تعالى - المطلقة ، وقضائه وقدره لا يتعارض مع اتخاذ الأسباب .

لقد كانوا يدركون أن لله - تعالى - سننًا في هذا الكون وفي حياة البشر غير قابلة للتغيير . ومع أن لله تعالى سننًا خارقة تملك أن تصنع كل شيء ولا يعجزها شيء إلا أن الله جلّت قدرته قد قضى أن تكون سننه الجارية ثابتة في الحياة الدنيا، وأن تكون سننه الخارقة استثناء لها ، وكلتاهما معلقة بمشيئة الله .

لذلك كان في حسهم أنه لا بد لهم من مجاراة السنن الجارية إذا رغبوا في الوصول إلى نتيجة معينة في واقع حياتهم. أي أنه لا بد من اتخاذ الأسباب المؤدية إلى النتائج بحسب تلك السنن الجارية[٣] .

---

(١) رواه أبو داود، كتاب الزكاة باب ما تجوز فيه المسألة (٢/ ١٢٠) .

(٢) حول تفسير التاريخ الإسلامي ص٨٩ .

(٣) انظر: مفاهيم ينبغي أن تصحح ص٢٦٢، ٢٦٣ .

ولقد أصاب المسلمين في أحد ما أصابهم .. لأنهم لم يستجمعوا المقدمات التي تنتج النصر ولم يكن المشركون أولى بالله منهم . ولكن هذه سنة الله ، فالله - تعالى - قد وضع للنصر أسبابًا كثيرة ، وأوجب على عباده رعايتها، فمن أبى فلا يلومن إلا نفسه .

وإن تأخر المسلمين اليوم عن القيادة العالمية لشعوب الأرض لم يكن ظلمًا وقع بهم ، بل كان نتيجة طبيعية لقوم نسوا رسالتهم ، وحطوا مكانتها ، وشابوا معدنها بركام هائل من الأوهام في مجال العلم والعمل على سواء ، وأهملوا السنن الربانية وظنوا أن التمكين قد يكون بالأماني والأحلام ولكن هيهات؛ بل هذا من صميم العدل الإلهي[1]، قال تعالى : ﴿**ذَلِكَ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيكُمْ وَأَنَّ اللَّهَ لَيْسَ بِظَلَّامٍ لِّلْعَبِيدِ**﴾ (سورة آل عمران ، الآية : ١٨٢) .

ولكن إذا كان هذا عقاب الله للمؤمنين الذين عصوه ، فما بال الكافرين الذين جحدوه سبحانه بالمرة ، ومع ذلك فإنهم متمكنين في الأرض - من الناحية المادية غاية التمكين ؟ .

إن هؤلاء الكفار لم يبلغوا ما بلغوه لأنهم أقرب من الله أو أرضى له ، ولم يبلغوا ما بلغوا بسحر أو بمعجزة أو لأنهم خلق آخر متميز ، ولم يقيموا الصناعات أو يجوبوا البحار ، أو يخترقوا أجواء الفضاء لأن عقيدتهم حق ، أو لأن فكرهم سليم .. إنهم بلغوا ذلك لأن السبيل إلى هذا التقدم درب مفتوح لجميع خلق الله مؤمنهم وكافرهم ، برهم وفاجرهم قال تعالى : ﴿ **مَن كَانَ يُرِيدُ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا وَزِينَتَهَا نُوَفِّ إِلَيْهِمْ أَعْمَالَهُمْ فِيهَا وَهُمْ فِيهَا لا يُبْخَسُونَ**﴾ (هود : ١٥) .

إن الله - سبحانه وتعالى - جعل التمكين في الحياة يمضي بالجهد البشري ، وبالطاقة البشرية على سنن ربانية ثابتة ، وقوانين لا تتبدل ولا تتحول . فمن يقدم

---

(١) انظر الغزو الثقافي يمتد من فراغنا للغزالي ص١٤٧ إلى ١٥٠ .

الجهد الصادق ويخضع لسنن الحياة يصل على قـدر جهده وبذله وعلى قدر سعيه وعطائه .

إنها السنة التي أرادها الله في هذه الحياة ، إنها مشيئته وسننه وإرادته(١).

ب- التوكل على الله والأخذ بالأسباب :

التوكل على الله - سبحانه وتعـالى - لا يمنع من الأخذ بالأسباب ، فالمؤمن يتخذ الأسبـاب من باب الإيمان بالله وطاعته فيمـا يأمر به من اتخاذها ، ولكنه لا يجعل الأسباب التي تنشئ النتائج فيتوكل عليها(٢) .

ولقـد أرشد النبي ﷺ في أحـاديث كثـيرة ضـرورة الأخذ بالأسبـاب مع التوكل على الله تعالى . كما نبه - عليه السلام - على عدم تعارضها .

١ - عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ على ناقة له ، فقال : يا رسول الله أدعها وأتوكل ؟ فقال : (اعقلها وتوكل)(٣) .

وهذا الحديث أصل في التوكل وفـيه الأمر باتخاذ الأسبـاب والاحتراز ، مع الأمر بالتوكل(٤).

٢ - وعن عـمر بن الخـطاب رضي الله عنه عن النبي ﷺ قـال : " لو أنكم توكلتم على الله حق توكله لرزقكم كما يرزق الطير ، تغدو خماصًا ، وتعود بطانًا "(٥).

وفي هذا الحديث الـشريف حث على التوكل مع الإشـارة إلى أهميـة الأخذ بالأسباب حيث أثبت الغدو والرواح للطير مع ضمان الله تعالى الرزق لها(٦) .

إن العمل بسنة الأخذ بالأسـباب من صميم تحقيق العـبودية لله تعالى، وهو

---

(١) انظر : التمكين للأمة الإسلامية ص٢٥٢ .

(٢) المصدر نفسه ، ص٢٥٣ .

(٣) رواه الترمذي في صفة القيامة باب (٦٠) (٤/٦٦٨) رقم ٥٣٧ .

(٤) انظر : التوكل على الله تعالى وعلاقته بالأسباب د . عبد الله الدميجي ص١٧٩ .

(٥) الترمذي ، كتاب الزهد ، باب التوكل على الله (٤/٥٧٣) رقم ٢٣٤٤ حسن صحيح .

(٦) انظر : التمكين للأمة الإسلامية ص٢٥٤ .

الأمر الذي خلق له العبيد ، وأرسلت به الرسل ، وأنزلت لأجله الكتب ، وبه قامت السموات والأرض، وله وجدت الجنة والنار . فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية[1] .

إن القرآن الكريم أرشدنا إلى الأخذ بالأسباب وأرشدنا ألا نعتمد عليها وحدها وإنما نتوكل على الله مع الأخذ بها وعلى المسلم أن يتقي في باب الأسباب أمرين :

١ - الاعتماد عليها ، والتوكل عليها ، والثقة بها ورجاؤها وخوفها فهذا شرك يرق ويغلظ ، وبين ذلك .

٢ - ترك ما أمر الله به من الأسباب ، وهذا أيضًا قد يكون كفرًا وظلمًا وبين ذلك ، بل على العبد أن يفعل ما أمره الله به من الأمر ، ويتوكل على الله توكل من يعتقد أن الأمر كله بمشيئة الله ، سبق بها علمه ، وحكمه ، وأن السبب لا يضر ولا ينفع ولا يعطي ولا يمنع ولا يقضي ولا يحكم ، ولا يحصل للعبد ما لم تسبق له به المشيئة الإلهية ولا يصرف عنه ما سبق به الحكم والعلم ، فيأتي بالأسباب إتيان من لا يرى النجاة والفرح والوصول إلا بها ، ويتوكل على الله توكل من يرى أنها لا تنجيه ولا تحصل له فلاحًا ولا توصله إلى المقصود، فيجرد عزمه للقيام بها حرصًا واجتهادًا ، ويضرع قلبه من الاعتماد عليها والركون إليها تجريدًا للتوكل واعتمادًا على الله وحد[2] وقد جمع النبي ﷺ بين هذين الأصلين في الحديث الصحيح ، حيث يقول : " احرص على ما ينفعك ، واستعن بالله ولا تعجز . . "[3].

فأمره بالحرص على الأسباب والاستعانة بالمسبب ونهاه عن العجز وهو نوعان :

١ - تقصير في الأسباب وعدم الحرص عليها .

---

(١) انظر : مدارج السالكين (٢/ ١٣٠) .

(٢) مدارج السالكين (٣/ ٥٠١) .

(٣) مسلم ، كتاب القدر ، باب الأمر بالقوة (٤/ ٢٠٥٢) رقم ٢٦٦٤ .

٢- وتقصير في الاستعانة بالله وترك تجريدها .

فالدين كله ظاهره وباطنه ، وشرائعه وحقائقه تحت هذه الكلمات النبوية[١] .

إن استيعاب وفهم سنة الأخذ بالأسباب لأفراد الأمة الإسلامية وجماعتها من ضروريات فقه التمكين لهذا الدين .

ثانيًا : إرشاد القرآن للإعداد :

إن أمر التمكين لهذا الدين يحتاج إلى جميع أنواع القوى ، على اختلافها وتنوعها . ولذلك اهتم القرآن الكريم اهتمامًا كبيرًا في إرشاد الأمة للأخذ بأسباب القوة وأوجب الله تعالى على الأمة الأخذ بأسبابها ، لأن التمكين لهذا الدين طريقة الوصول إلى القوى بمفهومها الشامل؛ وقد قال الأصوليون : " وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب "[٢] .

إن القرآن الكريم أوجب على أتباعه إعداد القوة بصورة واضحة قال تعالى : **﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ مِن دُونِهِمْ لا تَعْلَمُونَهُمُ اللَّهُ يَعْلَمُهُمْ وَمَا تُنفِقُوا مِن شَيْءٍ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لا تُظْلَمُونَ﴾** (الأنفال ، الآية : ٦٠) .

شرح الآية الكريمة :

الإعداد : تهيئة الشيء للمستقبل[٣] . والضمير في "لهم" راجع إلى الكفار.

وقوله : **﴿مَّا اسْتَطَعْتُم﴾** قال ابن كثير : أي مهما أمكنكم[٤] ، وهذا التعبير القرآني يشير إلى أقصى حدود الطاقة ، بحيث لا تقعد العصبة المسلمة عن سبب من أسباب القوة يدخل في طاقتها[٥] .

---

(١) انظر: مدارج السالكين (٣/ ٥٠١) .
(٢) في ظلال القرآن (٢/ ٩١٩) تفسير آية ٥٤ من سورة المائدة .
(٣) تفسير المنار (٥/ ٥٣) .
(٤) تفسير القرآن العظيم (٢/ ١٢٢) .
(٥) في ظلال القرآن (٢/ ١٥٥٣) .

والمراد بالقوة هنا : ما يكون سببًا لحصول القوة ، وذكر الفخر الرازي فيه وجوهًا :

١ – المراد من القوة أنواع الأسلحة .

٢ – ورد أن النبي ﷺ قرأ الآية الكريمة على المنبر وقال : " ألا إن القوة الرمي " قالها ثلاثًا[(١)] .

٣ – قال بعضهم القوة هي الحصون .

٤ – قال أصحاب المعاني : الأَوْلَى أن يقال : هذا عام في كل ما يُتَقَوَّى به على حرب العدو ، وكل ما هو آلة للغزو والجهاد ، فهو من جملة القوة ، وقوله عليه السلام : " القوة الرمي " لا ينفي كون غير الرمي معتبرًا كما أن قوله "الحج عرفة "[(٢)] .

وقوله : " الدين النصيحة "[(٣)] لا ينفي اعتبار غيره ؛ بل يدل على أن هذا المذكور جزء شريف من المقصود وكذا هنا[(٤)] .

كما يساعد على هذا الفهم مجيء كلمة " قوة " هنا نكرة لا معرفة فهي تشمل كل سلاح معروف أو سيعرف مع الزمن المتجدد فهي تتسع لإعداد الطائرات والصواريخ والدبابات . . وكل الأسلحة التي لها التأثير الحاسم في المعركة[(٥)] .

ومعنى " رباط الخيل " قال النسفي : هي اسم للخيل التي ترابط في سبيل الله تعالى[(٦)] . وقال صاحب تفسير المنار : الرباط في أصل اللغة الحبل الذي يربط به الدابة ، ورباط الخيل حبسها واقتناؤها[(٧)] ومعنى (ترهبون به) أي : تُخزون ،

---

(١) مسلم مع شرح النووي ، كتاب الجهاد ، باب فضل الرمي (١٣/ ٦٤) .
(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب : إن الدين النصيحة (١/ ٧٤).
(٣) المصدر السابق نفسه .
(٤) تفسير المنار (٥/ ٥٣) .
(٥) انظر : التمكين للأمة الإسلامية ، ص٨٩ .
(٦) انظر : تفسير النسفي .
(٧) تفسير المنار (١٠/ ١٦) .

كما قال الطبري[١]، وقال ابن كثير : تخوفون به[٢] وقال الشيخ المراغي: الرهبة : هي الخوف المقترن بالاضطراب[٣] .

ومعنى " وآخرين من دونهم " قال الطبري : هم كل عدو للمسلمين غير الذي أمر النبي ﷺ أن يشرد بهم من خلفه[٤] . وذكر الفخر الرازي فيه وجوهًا ثم قال : وأصح ما قيل في المقصود منهم : " أنهم المنافقون "[٥].

ذكر الله تعالى في هذه الآية الكريمة ما لأجله أمر بإعداد هذه الأشياء فقال جل شأنه ﴿ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ وَآخَرِينَ ... ﴾ ذلك أن الكفار إذا علموا كون المسلمين متأهبين للجهاد ومستعدين له ومستكملين لجميع الأسلحة والآلات خافوهم وذلك الخوف يفيد أمورًا كثيرة :

١- أنهم لا يتجرئون على دخول دار الإسلام .

٢- أنهم إذا اشتد خوفهم فربما التزموا من عند أنفسهم دفع الجزية .

٣- أنه ربما صار ذلك داعيًا إلى الإيمان لما يرون من قوة أهله وعزتهم .

٤- أنهم لا يعينون سائر الكفار .

٥- أن يصير ذلك سببًا لمزيد الزينة في دار الإسلام[٦] .

ويقول صاحب الظلال : الإسلام يأمر بإعداد القوة على اختلاف صنوفها وألوانها وأسبابها ، فلا بد للإسلام من قوة ينطلق بها في الأرض لتحرير الإنسان .

وأهمية القوة بالنسبة للدعوة الإسلامية تتلخص في أمور :

الأمر الأول : أن تؤمِّن الذين يختارون هذه العقيدة على حريتهم في اختيارها فلا يُصدوا عنها ، ولا يفتنوا كذلك بعد اعتناقها .

---

(١) تفسير الطبري (٦/ ٢٢) .
(٢) تفسير ابن كثير (٢/ ٣٢٢).
(٣) تفسير المراغي (٤/ ٢٣) .
(٤) تفسير الطبري (٦/ ٢٢) .
(٥) مفاتيح الغيب (٧/ ٥٣٣) .
(٦) المصدر نفسه (٧/ ٣٢٤) وما بعدها .

الأمر الثاني : أن تُرهب هذه القوة أعداء الإسلام ، فلا يفكروا في الاعتداء على حرمات الإسلام .

الأمر الثالث : أن يبلغ الرعب بهؤلاء الأعداء ألا يفكروا في الوقوف في وجه الدين الإسلامي وهو ينطلق لتبليغ كلمة الله إلى الإنسان في كل الأرض .

الأمر الرابع : أن تحطم هذه القوة كل قوة في الأرض تتخذ لنفسها صفة " الألوهية " من دون الله رب العالمين[١] .

وبما أن الأمة الإسلامية أمة مجاهدة ، فلابد أن تكون هذه الأمة قوية حتى تستطيع أن تنهض بهذه الرسالة التي أنيطت بها، ولذلك حث النبي ﷺ المؤمنين أن يكونوا أقوياء، وعلى أن يحصلوا كل أسباب القوة، فقال ﷺ : " المؤمن القوي خير وأحب إلى الله من المؤمن الضعيف "[٢] .

وما أحوج المسلمين اليوم إلى أن يحَصِّلوا كل أسباب القوة ، فهم يواجهون نظامًا عالميًّا وقوى دولية لا تعرف إلا لغة القوة فعليهم أن يقرعوا الحديد بالحديد، ويقابلوا الريح بالإعصار ، ويقاتلون الكفر وأهله بكل ما يقدرون عليه، وبكل ما امتدت إليه يدهم وبكل ما اكتشف الإنسان ووصل إليه العلم في ذلك العصر من سلاح ، وعتاد واستعداد حربي ، لا يقصِّرون في ذلك ولا يعجزون[٣] .

إن هذا الإعداد الشامل من أجل تمكين الله يدخل تحت مسمى الجهاد والذي بدونه يستحال التمكين لشرع الله وإقامة دولة تحكم بمنهج الله ، يقول الأستاذ محمد الغزالي : " إن التغيير الإسلامي الذي تنشده الأمة الإسلامية لا يمكن تحقيقه من غير جهاد ، وبدون صياغة جيل مجاهد ، فالمهمة التغييرية مهمة شاقة ، فالقوى الظاهرة والخفية القابضة على الزمام في عالمنا قوى شريرة ، وقد هيأها

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٣١٥٤) مع تصرف .
(٢) مسلم مع شرح النووي كتاب ٦ ، (١٦ / ٢١٥) .
(٣) انظر: ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ لأبي الحسن الندوي، ص ٢٢٥ .

أعداء الإسلام لهذا الدور من زمن بعيـد، وهي تعمل ليل نهار على خفت صوت الإسلام بشتى الطرق والوسائل . وإزالة هذه القوى ، وإقامة الإسلام مكانها ليس بالأمر السـهل ، فهي ستتـشبث بمواقعهـا حتى النَّفَس الأخير وذلك يـحتاج أولاً وقبل كل شيء إلى تربية جهادية تخـرج أنماطًا من المجاهدين ، يحبون الموت كما يحب الناس الحياة ، ويعـيشون همّ الإسلام وقضـاياه ليلهم ونهارهم . لابد من بناء قاعدة صـلبة متينة تستطـيع أن تصمد في هذا الصراع الجبـار وتقف في وجه المؤامرات ، وتجـاهد في كل المجالات والجبهـات ، وتدفع ثمن التمكين لدين الله في الأرض من زهرة أبنائها الشهداء[1]

" إن الواجب على الأمة الإسلامية اليوم لتنهض وتتـقدم وتترقى في مصاعد المجد ، أن تجـاهد بمالها ، ونفـسها الجـهاد الذي أمرها الله به فـي القرآن الكريم مرارًا عديدة ، فالجهاد بالمال والنفس هو العلم الأعلى الذي يهتف بالعلوم كلها ، فإذا تعلمت الأمة هذا العلم وعملت به دانت لها سائر العلوم والمعارف "[2].

* ■ *

(١) ركائز الإيمان بين العقل والقلب، ص ٧٥ بتصرف .

(٢) انظر: لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم؟ الأمير شكيب أرسلان، ص ١٦٤ .

المبحث الثاني
الأسباب المعنوية

ويحتل الإعداد المعنوي المكانة الأولى ، حتى أن التمكين ليرتبط بالدرجة الأولى - بمدى الأخذ بهذه الأسباب ومن أهمها :

أولاً : إعداد الأفراد الربانيين :

ولقد رسم لنا النبي ﷺ منهجًا متميزًا في تربية الأفراد على معاني الربانية وتحمل أداء رسالة رب البرية ، وكان ﷺ مهتمًّا ببناء القاعدة الصلبة وتربية أتباعه على معاني العقيدة الصحيحة ، فقد حرص ﷺ منذ اليوم الأول من بعثته على أن يعطي الناس التصور الصحيح عن ربهم وعن حقه عليهم ، مدركًا أن هذا التصور سيورث التصديق واليقين عند من صفت نفوسهم ، واستقامت فطرتهم ، ولقد ركز النبي ﷺ في تربيته لأصحابه على عدة جوانب منها :

١ - أن الله منزه عن النقائص ، موصوف بالكمالات التي لا تتناهى فهو سبحانه واحد لا شريك له ، ولم يتخذ صاحبة ولا ولدًا .

٢ - وأنه سبحانه خالق كل شيء ، ومالكه ، ومدبر أمره **﴿أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ﴾** (سورة الأعراف : ٥٤) .

٣ - وأنه تعالى جده مصدر كل نعمة في هذا الوجود ، دقت أو عظمت ، ظهرت أو خفيت **﴿وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ﴾** (سورة النحل : ٥٣) .

٤ - وأن علمه محيط بكل شيء ، فلا تخفى عليه خافية في الأرض ، ولا في السماء ، ولا ما يخفي الإنسان وما يعلن : **﴿وَأَنَّ اللَّهَ قَدْ أَحَاطَ بِكُلِّ شَيْءٍ عِلْمًا﴾** (سورة الطلاق : ١٢) .

٥ - وأنه سبحانه يقيد على الإنسان أعماله بواسطة ملائكته ، في كتاب لا يترك صغيرة ولا كبيرة إلا أحصاها ، وسينشر ذلك في اللحظة المناسبة والوقت المناسب **﴿مَا يَلْفِظُ مِن قَوْلٍ إِلاَّ لَدَيْهِ رَقِيبٌ عَتِيدٌ﴾** (سورة ق : ١٨) .

٦- وأنه سبحانه يبتلي عباده بأمور تخالف ما يحبون ، وما يهوون ، ليعرف الناس معادنهم ، من منهم يرضى بقضاء الله وقدره ، ويسلم له ظاهرًا وباطنًا ، فيكون جديرًا بالخلافة والإمامة والسيادة ، ومن منهم يغضب ويسخط ، فلا يساوي شيئًا ، ولا يسند إليه شيء : ﴿**الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ (سورة الملك : ٢) .

٧- وأنه سبحانه يوفق ويؤيد وينصر من لجأ إليه ، ولاذ بحماه ، ونزل على حكمه في كل ما يأتي وما يذر : ﴿**إِنَّ وَلِيِّيَ اللَّهُ الَّذِي نَزَّلَ الْكِتَابَ وَهُوَ يَتَوَلَّى الصَّالِحِينَ**﴾ (سورة الأعراف : ١٩٦) .

٨- وأنه سبحانه وتعالى حقه على العباد أن يعبدوه ، ويوحدوه ، فلا يشركوا به شيئًا : ﴿**بَلِ اللَّهَ فَاعْبُدْ وَكُن مِّنَ الشَّاكِرِينَ**﴾ (سورة الزمر : ٦٦) .

٩- وأنه - سبحانه - حدد مضمون هذه العبودية ، وهذا التوحيد في القرآن العظيم .

وظل ﷺ يطرق معهم هذه الجوانب ، ويكرر على أصحابه ومن آمن به ويفتح عيونهم عليها من خلال الكتاب المنظور ، والكون المسطور حتى خشعت قلوبهم وسمت أرواحهم وطهرت نفوسهم ، ونشأ لديهم تصور وإدراك لحقيقة ومضمون الألوهية يخالف تصورهم الأول ، وإدراكهم القديم[1] .

واهتم ﷺ بغرس حقيقة المصير وسبيل النجاة لأصحابه موقنًا أن من عرف منهم عاقبته ، وسبيل النجاة والفوز في هذه العاقبة ، سيسعى بكل ما أوتي من قوة ووسيلة لسلوك هذا السبيل ، حتى يظفر غدًا بهذه النجاة وذلك الفوز ، وركز ﷺ في هذا البيان على الجوانب التالية :

١ - أن هذه الحياة الدنيا مهما طالت فهي إلى زوال ، وأن متاعها مهما عظم ،

---

(١) انظر : منهج الرسول ﷺ في غرس الروح الجهادية ، د. سيد نوح ص ١٠ إلى ١٦٠ .

فإنه قليل حقير : ﴿ إِنَّمَا مَثَلُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا كَمَاءٍ أَنزَلْنَاهُ مِنَ السَّمَاءِ فَاخْتَلَطَ بِهِ نَبَاتُ الأَرْضِ مِمَّا يَأْكُلُ النَّاسُ وَالأَنْعَامُ حَتَّىٰ إِذَا أَخَذَتِ الأَرْضُ زُخْرُفَهَا وَازَّيَّنَتْ وَظَنَّ أَهْلُهَا أَنَّهُمْ قَادِرُونَ عَلَيْهَا أَتَاهَا أَمْرُنَا لَيْلاً أَوْ نَهَارًا فَجَعَلْنَاهَا حَصِيدًا كَأَن لَّمْ تَغْنَ بِالأَمْسِ كَذَٰلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ﴾ (سورة يونس : ٢٤) .

﴿ قُلْ مَتَاعُ الدُّنْيَا قَلِيلٌ ﴾ (النساء : ٧٧) .

٢- وأن كل الخلق إلى الله راجعون ، وعن أعمالهم مسئولون ومحاسبون وفي الجنة أو في النار مستقرون: ﴿أَيَحْسَبُ الإِنسَانُ أَن يُتْرَكَ سُدًى﴾ (القيامة : ٣٦).

٣- وأن نعيم الجنة ينسي كل تعب ومرارة في الدنيا ، وكذلك عذاب النار ينسي كل راحة وحلاوة في هذه الدنيا : ﴿ أَفَرَأَيْتَ إِن مَّتَّعْنَاهُمْ سِنِينَ (٢٠٥) ثُمَّ جَاءَهُم مَّا كَانُوا يُوعَدُونَ (٢٠٦) مَا أَغْنَىٰ عَنْهُم مَّا كَانُوا يُمَتَّعُونَ ﴾ (سورة الشعراء : ٢٠٥-٢٠٧) .

﴿كُلُوا وَاشْرَبُوا هَنِيئًا بِمَا أَسْلَفْتُمْ فِي الأَيَّامِ الْخَالِيَةِ ﴾ (سورة الحاقة : ٢٤) .

٤- وأن الناس مع زوال الدنيا ، واستقرارهم في الجنة ، أو في النار ، سيمرون بسلسلة طويلة من الأهوال والشدائد : ﴿ يَا أَيُّهَا النَّاسُ اتَّقُوا رَبَّكُمْ إِنَّ زَلْزَلَةَ السَّاعَةِ شَيْءٌ عَظِيمٌ (١) يَوْمَ تَرَوْنَهَا تَذْهَلُ كُلُّ مُرْضِعَةٍ عَمَّا أَرْضَعَتْ وَتَضَعُ كُلُّ ذَاتِ حَمْلٍ حَمْلَهَا وَتَرَى النَّاسَ سُكَارَىٰ وَمَا هُم بِسُكَارَىٰ وَلَٰكِنَّ عَذَابَ اللَّهِ شَدِيدٌ ﴾ (الحج : ١-٢) . وقال تعالى : ﴿فَكَيْفَ تَتَّقُونَ إِن كَفَرْتُمْ يَوْمًا يَجْعَلُ الْوِلْدَانَ شِيبًا (١٧) السَّمَاءُ مُنفَطِرٌ بِهِ كَانَ وَعْدُهُ مَفْعُولاً ﴾ (المزمل : ١٧-١٨) .

٥- وسبيل النجاة من شر هذه الأهوال ، ومن تلك الشدائد ، والظفر بالجنة والبعد عن النار[1] ، بالإيمان بالله تعالى وعمل الصالحات ابتغاء مرضاته . ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَهُمْ جَنَّاتٌ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الأَنْهَارُ ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْكَبِيرُ ﴾

(سورة البروج : ١١) .

---

(١) انظر: منهج الرسول ﷺ في غرس الروح الجهادية، د.سيد نوح ص ١٩ إلى ٣٤ .

ومضى ﷺ كذلك يبصرهم ويذكرهم بدورهم ورسالتهم في الأرض، ومنزلتهم ومكانتهم عند الله، وظل ﷺ معهم على هذه الحال من التبصير والتذكير حتى انقدح في ذهنهم ، ما لهم عند الله ، وما دورهم ، ورسالتهم في الأرض ، وتأثرًا بتربيته الحميدة تولدت الحماسة والعزيمة في نفوس أصحابه ، فانطلقوا عاملين بالليل والنهار بكل ما في وسعهم ، وما في طاقتهم دون فتور أو توان ، ودون كسل أو ملل ، ودون خوف من أحد إلا من الله ، ودون طمع في مغنم أو جاه إلا أداء هذا الدور وهذه الرسالة ، لتحقيق السعادة في الدنيا والفوز والنجاة في الآخرة[1] .

وكان ﷺ يحرص على إعداد أصحابه إعدادًا ربانيًّا وكانت خطواته تتم بكل هدوء وتدرج وسرية وانصبَّت أهدافه التربوية على تعليم الكتاب والسنة وتلاوة القرآن الكريم وتطهير النفوس من أمراضها ، وإعداد الأفراد لتحمل تكاليف الدعوة والرسالة ، وكان شعار هذه المرحلة هو توجيه المولى عز وجل لنبيه ﷺ والدعاة من بعده ذلك التوجيه المتمثل في قوله تعالى : ﴿ **وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُ وَلا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَلا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَاهُ وَكَانَ أَمْرُهُ فُرُطًا** ﴾ (الكهف: ٢٨) .

فالآية الكريمة ، تأمر النبي ﷺ بأن يصبر على تقصير وأخطاء المستجيبين لدعوته، وأن يصبر على كثرة تساؤلاتهم خاصة إن كانت خاطئة ، وأن يصبر على ترددهم في قبول التوجيهات ، وأن يجتهد في تصبيرهم على فتنة أعداء الدعوة ، وأن يوضح لهم طبيعة طريق الدعوة ، وأنها شاقة ، وأن لا يغرر مغرر ليبعده عنهم ، وأن لا يسمع فيهم منتقصًا ، ولا يطيع فيهم متكبرًا أغفل الله قلبه عن حقيقة الأمور وجوهرها[2] .

---

(١) انظر: المصدر نفسه ، ص ٣٧ .

(٢) انظر: الطريق إلى جماعة المسلمين، ص ١٧٠ .

هذه المنهجية التي رسمها رسول الله ﷺ في إعداد الأفراد إعدادًا ربانيًا على زعماء وقادة الحركات الإسلامية أن يسيروا على نفس المنهج الذي سار عليه رسول الله ﷺ والذي في حقيقته تفسيرًا للقرآن الكريم ، إن الآيات الكريمة السابقة من سورة الكهف تصف لنا الشخصية الربانية في عدة صفات منها :

أ- الصبر في قوله تعالى ﴿وَاصْبِرْ نَفْسَكَ﴾:

إن كلمة الصبر تتردد في القرآن الكريم وفي أحاديث النبي ﷺ ويوصي الناس بعضهم بعضًا وتبلغ أهميتها أن تصير صفة من أربع للفئة الناجية من الخسران.

قال تعالى : ﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر) فحكم المولى عز وجل على جميع الناس بالخسران إلا من أتى بهذه الأمور الأربعة :

١- الإيمان بالله . ٢- العمل الصالح.

٣- التواصي بالحق. ٤- التواصي بالصبر.

لأن نجاة الإنسان لا تكون إلا إذا أكمل الإنسان نفسه بالإيمان والعمل الصالح وكمّل غيره بالنصح والإرشاد ، فيكون قد جمع بين حق الله ، وحق العباد، والتواصي بالصبر ضرورة لأن القيام على الإيمان والعمل الصالح، وحراسة الحق والعدل من أعسر ما يواجه الفرد والجماعة، ولا بد من الصبر على جهاد النفس ، وجهاد الغير ، والصبر على الأذى والمشقة ، والصبر على تبجح الباطل ، والصبر على طول الطريق وبطء المراحل ، وانطماس المعالم وبعد النهاية[1] .

إن كلمة الصبر قصيرة سهلة لا تجاوز ثلاثة حروف ، يستطيع كل إنسان أن ينطقها ، وأن يوصي بها؛ ولكن معاناتها أمر آخر والصبر في حقيقته أنواع منها ،

---

(١) انظر: الظلال (٦ / ٣٩٦٨) .

صبر على المعـاصي وهو واجب على كل مؤمن فضلاً عن الدعـاة ، وصبر على الطاعات ، وهو واجب كل مؤمن فضلاً عن الدعـاة وإن كان عليهم أن يستزيدوا من الطاعات ، لأن الإيمان يزيد بالطاعات وينقص بالمعاصي .

وصبر على البلاء ، وهو وإن كان واجبًا على المؤمن ، إلا أنه بالنسبة للداعية أوجب لما يترتب على الدعوة من تعرض للبلاء .

ب- كثرة الدعاء والإلحاح على الله:

وهذا يظهـر في قوله تعـالى ﴿ **يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَاةِ وَالْعَشِيِّ** ﴾ فالدعـاء باب عظيم، فإذا فتح للعبد تتابعت عليه الخيرات ، وانهالت عليه البركات ، فلابد من تربية الأفراد الذين يعدون لحمل الرسالة وأداء الأمانة على حسن الصلة بالله وكثرة الدعاء ، لأن ذلـك من أعظم وأقوى عوامـل النصر قال تـعالى : ﴿ **وَإِذَا سَأَلَكَ عِبَادِي عَنِّي فَإِنِّي قَرِيبٌ أُجِيبُ دَعْوَةَ الدَّاعِ إِذَا دَعَانِ فَلْيَسْتَجِيبُوا لِي وَلْيُؤْمِنُوا بِي لَعَلَّهُم يَرْشُدُونَ** ﴾ (البقرة ، آية : ١٨٦) .

﴿ **وَقَالَ رَبُّكُمُ ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ إِنَّ الَّذِينَ يَسْتَكْبِرُونَ عَنْ عِبَادَتِي سَيَدْخُلُونَ جَهَنَّمَ دَاخِرِينَ** ﴾ (غافر،آية: ٦٠) .

﴿ **إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ** ﴾ (الأنفال ، الآية : ٩) .

وقد أمر الله بالذكر والدعاء عنـد لقاء العدو قال تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَاثْبُتُوا وَاذْكُرُوا اللَّهَ كَثِيراً لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ** ﴾ (الأنفال ، الآية : ٤٥) .

لأنه سبحانه النصيـر فنعم المولى ونعم النصير . قال تعالى : ﴿ **وَمَا النَّصْرُ إِلاَّ مِنْ عِندِ اللَّهِ الْعَزِيزِ الْحَكِيمِ** ﴾ (آل عمران ، آية : ١٢٦) . ولهذا كـان النبي ﷺ يدعو ربه في معاركه ويستـغيث به ، فينصره ويمده بجنوده ، ومن ذلك أنه نظر ﷺ يوم بدر إلى المشركين وهم ألف وأصـحابه ثلاثمائة وتسعـة عشر رجلاً فاسـتقبل ﷺ القبلة ورفع يديه واستغـاث بالله ، وما زال يطلب المدد من الله وحده مادًّا يديه حتى سقط رداؤه عن منكبيه ، فأتاه أبو بكر فأخذ رداءه فألقاه على منكبيه ،

ثم التزمـه من ورائه وقال : يا نبي الله كفاك مـناشدتك ربك فإنه سينجـز لك ما وعدك ، فأنزل الله عز وجل : ﴿**إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلائِكَةِ مُرْدِفِينَ**﴾ (الأنفال: ٩) . فأمده الله بالملائكة[١] وهكذا كان يدعو الله في جميع معاركه ومن ذلك قوله: " اللهـم منزل الكتاب ، سريع الحساب ، مجري السحاب ، هازم الأحزاب اللهم اهزمهم وزلزلـهم وانصرنا عليهم " . وكان يقول عند لقـاء العدو " الـلهم أنت عضـدي ، وأنت نصـيري ، بك أجـول ، وبك أصول، وبك أقاتل "[٢] .

جـ - الإخلاص :

ويظهـر في قوله تعـالى : ﴿**يُرِيدُونَ وَجْهَهُ**﴾ (الكهف: ٢٨). ولابد عند إعداد الأفراد إعـدادًا ربانيًا أن يتـربى المسلم على أن تكون أقواله وأعـماله وجـهاده كله لوجه الله وابتغاء مرضاته وحسن مـثوبته ، من غير نظر إلى مغنم أو جاه أو لقب أو تقدم ، أو تأخر وحـتى يصبح جندي من أجل العقيـدة والمنهج الرباني ولسان حاله قوله تعالى : ﴿ **قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ** ﴾ (سورة الأنعام ، آية : ١٦٢) .

إن الإخلاص ركن من أركان قبول العـمل، ومعلوم أن العمل عند الله تعالى لا يقبل إلا بالإخلاص وتصحيح النية وبموافقة السنة والشرع .

وبالإخلاص تتحقق صحة الباطن، وقد جاء فيه قوله ﷺ : " إنما الأعمال بالنيات "[٣] فهذا هو ميـزان الباطن ، وأما في موافقة السـنة ، فقد قال ﷺ : "من عمل عملاً ليس عليه أمرنا فهو رد "[٤] .

---

(١) مسلم (٣ / ١٣٨٣)، مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة (٣ / ١٣٨٣) رقم ١٧٦٣ .

(٢) صحـيح أبي داود (٢ / ٤٩٩)، صحيح أبي داود، كتـاب الجهاد، باب مـا يدعى عند اللقاء (٢ / ٤٩٩) رقم ٢٢٩١ .

(٣) صحيح أبي داود (٢ / ٢٨٦) .

(٤) البخاري (٥ / ١٧٢) ، البخاري، كتاب آيات القرآن، باب : إن الناس قد جمعوا (٥ / ٢٠٣) .

وقد جمع الله الأمرين في أكثر من آية قال تعالى : ﴿ وَمَن يُسْلِمْ وَجْهَهُ إِلَى اللَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَقَدِ اسْتَمْسَكَ بِالْعُرْوَةِ الْوُثْقَىٰ ﴾ (لقمان : ٢٢) . فإسلام الوجه لله ، إخلاص القصد والعمل له ، والإحسان فيه ، ومتابعة الرسول ﷺ وسنته .

د- الثبات :

ويظهر في قوله تعالى : ﴿ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (الكهف، آية : ٢٨) . وهذا الثبات المذكور فرع عن ثبات أعم ينبغي أن يتسم به الداعية الرباني، قال تعالى : ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ (سورة الأحزاب ، آية: ٢٣) .

ففي الآية الكريمة ثلاث صفات ، إيمان ورجولة وصدق ترتب عليها : أن منهم ﴿ مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ وَمَا بَدَّلُوا تَبْدِيلًا ﴾ .

وعلى ذلك يتضح أن الثبات يحتاج إلى ثلاثة عناصر : إيمان ، ورجولة ، وصدق . إيمان يبعث على التمسك بالقيم الرفيعة والتشبث بها ، وباعث على التضحية بالنفس ليبقى المبدأ الرفيع ، ورجولة محركة للنفس نحو هذا الهدف ، غير مهتمّة بالصغائر والصغار ، وإنما دائمًا دافعة نحو الهدف الأسمى والمبدأ الرفيع وصدق يحول دون التحول أو التغير أو التبديل ، ومن ثم يورث هذا كله، الثبات الذي لا يتلون معه الإنسان وإن رأى شعاع السيف على رقبته أو رأى حبل المشنقة ينتظره أو رأى دنيا يصيبها أو امرأة ينكحها .

ولا شك أن اللبنات التي تعد لحمل أعباء الجهاد تحتاج إلى الثبات الذي يعين على تحقيق الأهداف السامية والغايات الجميلة والقيم الرفيعة[1] .

هـ- تربية الأفراد على الإيمان بالقضاء والقدر :

إن استيعاب حقيقة القضاء والقدر والإيمان بها كما جاءت في القرآن والسنة

---

(١) دعوة الله بين التكوين والتمكين، د. علي جريشة ص ٩١ ، ٩٢ .

تجعل أفراد المسلمين ينطلقون في هذه الحياة انطلاقة هادفة نحو المقاصد النبيلة .

وقد جاءت الأدلة من القرآن الكريم توضح قضية القدر قال تعالى : ﴿وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا﴾ (الأحزاب : ٣٨) وقال تعالى : ﴿إِنَّا كُلَّ شَيْءٍ خَلَقْنَاهُ بِقَدَرٍ﴾ (القمر : ٤٩) وقال تعالى : ﴿وَخَلَقَ كُلَّ شَيْءٍ فَقَدَّرَهُ تَقْدِيرًا﴾ (الفرقان : ٢) وأما أدلة السنة ، فقد قال ﷺ : " وتؤمن بالقدر خيره وشره "[(١)].

وروى مسلم في الصحيح عن طاوس قال : " أدركت ناسًا من أصحاب رسول الله ﷺ يقولون : كل شيء بقدر ، قال وسمعت عبد الله بن عمر يقول : " كل شيء بقدر حتى العجز والكيس أو الكيس والعجز "[(٢)].

وقال ﷺ : " وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل "[(٣)].

إن الإيمان بالقضاء والقدر يجعل الأفراد العاملين في الدعوة والذين يسعون لتحكيم شرع الله تعالى يتذوقون ثمارًا كثيرة تجعلهم يبذلون الغالي والرخيص من أجل عقيدتهم ودينهم وكتاب ربهم وسنة نبيهم .

ويستفيدون من تلك الثمار اليانعة في مسيرتهم الدعوية المباركة ، بل هذه الثمرات تعود بالخير العميم على الأفراد والمجتمعات في الدنيا والآخرة .

ومن أهم هذه الثمرات :

١ ـ أداء عبادة الله عز وجل ، فالقدر مما تعبدنا الله سبحانه وتعالى بالإيمان به .

٢ ـ الإيمان بالقدر ، طريق الخلاص من الشرك ، لأن الذي يؤمن بالقدر على الوجه الصحيح يتخلص من آفات ربما توقعه في الشرك بالله ، أما الإيمان الصحيح بالقدر فهو طريق توحيد الله تعالى .

---

(١) مسلم كتاب الإيمان ، باب ما جاء في القدر (١/ ٣٨) رقم ٨ .

(٢) مسلم كتاب القدر ، باب كل شيء بقدر (٤/ ٢٠٤٥) رقم ٢٦٥٥ .

(٣) مسلم كتاب القدر ، باب الأمر بالقوة وترك العجز (٤/ ٢٠٥٢) رقم ٢٦٦٤ .

٣- الشجاعة والإقدام ، فالذي يؤمن بالقدر يعلم أنه لن يموت إلا إذا جاء أجله ، ولا يناله إلا ما كتب له ، فيقدم غير هياب ولا مبال بما يناله من الأذى والمصائب في سبيل الله ، كما قال أمير المؤمنين علي بن أبي طالب رضي الله عنه :

أي يومي من الموت أفر ... يوم لا يقدر أو يوم قدر
يوم ما قدر لا أرهبه ... وإذا قدر لا ينجي الحذر[1]

٤- قوة الإيمان ، فالذي يؤمن بالقدر يقوى إيمانه ، فلا يتخلى عنه ولا يتزعزع أو يتضعضع مهما ناله في ذلك طالما في سبيل الله .

٥- الصبر والاحتساب ومواجهة الصعاب ، فالذين لا يؤمنون بالقدر ربما يؤدي الجزع ببعضهم إلى أن يكفروا بالله ، وبعضهم يجن ، وبعضهم يصبح موسوسًا ، وبعضهم يلجأ إلى المخدرات ، وبعضهم يقتل نفسه ، ولذلك يكثر الانتحار في البلاد التي لا يؤمن أهلها بالقدر كأمريكا ، والسويد والنرويج ؛ بل إن الأمر وصل بالسويد إلى أن يفتحوا مستشفيات للانتحار ، وأسباب ذلك ترجع إلى أمور تافهة ، فبعضهم ينتحر بسبب تخلي خطيبته عنه وبعضهم بسبب رسوبه في الامتحان وبعضهم بسبب وفاة المطرب الذي يحبه ، وقد يكون الانتحار جماعيًا[2] .

٦- الهداية كما قال تعالى : ﴿ **مَا أَصَابَ مِن مُّصِيبَةٍ إِلاَّ بِإِذْنِ اللَّهِ وَمَن يُؤْمِنْ بِاللَّهِ يَهْدِ قَلْبَهُ** ﴾ (التغابن ، آية : ١١) .

٧- الكرم ، فالذي يؤمن بالقدر ، وأن الفقر والغنى بيد الله وأنه لا يفتقر إلا إذا قدر الله له ذلك - فإنه ينفق ولا يبالي .

٨- الإخلاص ، فالذي يؤمن بالقدر لا يعمل لأجل الناس ، لعلمه أنهم لن ينفعوه إلا بشيء قد كتبه الله له .

---

(١) ديوان الإمام علي ص (٧٩-٨٠) .

(١) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر لمحمد إبراهيم ص٢٥ .

٩- إحسان الظن بالله وقوة الرجاء ، فالمؤمن بالقدر حسن الظن بالله ، قوي الرجاء به في كل أحواله .

١٠- الخوف والحذر من الله ، فالمؤمن بالقدر على حذر من الله تعالى، إذ لا يأمن مكر الله إلا القوم الخاسرون، فلا يغتر بعمله مهما كان كثيراً، فإن القلوب بين أصبعين من أصابع الرحمن يقلبها حيث يشاء والخواتيم علمها عند الله .

١١- الإيمان بالقدر يقضي على كثير من الأمراض التي تفتك بالمجتمعات وتزرع الأحقاد بينهم وذلك مثل ، رذيلة الحسد ، فالمؤمن لا يحسد الناس على ما آتاهم الله من فضله ، فالإيمان منه بأن الله هو الذي رزقهم وقدر لهم ذلك ، فأعطى من شاء ومنع من شاء ابتلاءً وامتحانًا منه عز وجل وأنه حين يحسد غيره، إنما يعترض على القدر[1] .

١٢- التوكل واليقين والاستسلام لله والاعتماد عليه كما قال تعالى : ﴿قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلاَّ مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا﴾ (التوبة : ٥١) .

١٣- عدم الاعتماد على الكهان والمنجمين والمشعوذين والتمسح بأتربة القبور ودعاء غير الله ، وصرف شيء من أنواع العبادة لغير الله ، لأنها لا تملك لنفسها نفعًا ولا ضرًّا .

١٤- التواضع ، فالمؤمن بالقدر إذا رزقه الله بمال ، أو جاه ، أو علم ، أو غير ذلك تواضع لله ، لعلمه أن هذا من الله ، ولو شاء الله لانتزعه منه ، وإنه على كل شيء قدير .

١٥- ومن ثمرات الإيمان بالقدر ، السلامة من الاعتراض على أحكام الله الشرعية ، وأقداره الكونية والتسليم لله في ذلك كله .

١٦- ومن ثمراته الجد والحزم في الأمور والحرص على كل خير ديني أو دنيوي . كما في قوله ﷺ : " احرص على ما ينفعك واستعن بالله ، ولا

---

(١) انظر: مجلة البحوث الإسلامية عدد ٣٤، ص٢٥٠ مبحث وسطية أهل السنة في القدر .

تعجز ، وإن أصابك شيء فلا تقل لو أني فعلت كذا كان كذا وكذا ولكن قل قدر الله وما شاء فعل "[١] .

١٧- الشكر ، فالمؤمن بالقدر يعلم أن ما به من نعمة فمن الله وحده ، وأن الله هو الدافع لكل مكروه ونقمة ، فينبعث بسبب ذلك إلى شكر الله إذ هو المنعم المتفضل الذي قدر له ذلك وهو المستحق للشكر ، وهذا لا يعني ألا يشكر الناس .

١٨- الرضى ، فيرضى بالله ربًّا مدبرًا مشرعًا ، فتمتلئ نفسه بالرضاء عن ربه فإذا رضي بالله أرضاه الله عز وجل - " فالرضا باب الله الأعظم وجنة الدنيا، ومستراح العابدين "[٢] .

١٩- فرح المؤمن بالقدر بذلك الإيمان الذي حرم منه أمم كثيرة قال تعالى : **﴿قُلْ بِفَضْلِ اللَّهِ وَبِرَحْمَتِهِ فَبِذَلِكَ فَلْيَفْرَحُوا هُوَ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ﴾** (يونس : ٥٨) .

٢٠- الاستقامة على المنهج سواء في السراء والضراء ، فالعباد فيهم قصور ، ونقص وضعف لا يستقيمون على منهج سواء إلا من آمن بالقدر ، فإن النعمة لا تبطره والمصيبة لا تقنطه .

٢١- عدم اليأس من انتصار الحق ، فالمؤمن بالقدر يعلم علم اليقين أن العاقبة للمتقين، وأن قدر الله في ذلك نافذ لا محالة ، فلا يدب اليأس إلى قلبه، ولا يعرف إليه طريقًا مهما احلولكت ظلمة الباطل .

٢٢- علو الهمة وعدم الرضا بالدون ، وعدم الرضا بالواقع الأليم ، فالمؤمن بالقدر تجده عالي الهمة لا يرضى بالدون ولا بالواقع الأليم المر ، ولا يستسلم له محتجًّا بالقدر ، إذ أن هذا ليس مجال الاحتجاج بالقدر ، لأنه من المصائب ، والاحتجاج بالقدر إنما يسوغ عند المصائب دون المعائب ، بل إن إيمانه بالقدر يحتم عليه أن يسعى سعيًا حثيثًا لتغيير هذا الواقع حسب قدرته واستطاعته[٣] .

(١) مسلم، كتاب القدر، باب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر (٤/ ٢٠٥٢) رقم ٢٦٦٤ .
(٢) جامع العلوم والحكم لابن رجب: (٢/ ٤٧٦) .
(٣) انظر: الإيمان بالقضاء والقدر ص٢٩ .

٢٣- الإيمان بالقدر على وجه الحقيقة يكشف للإنسان حكمة الله عز وجل فيما يقدره من خير أو شر قال تعالى: ﴿ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لا تَعْلَمُونَ ﴾(البقرة : ٢١٦) .

كم نعمة لا تستقل بشكرها لله في طي المكاره كامنة[١]

وقال آخر :

تجري الأمور على حكم القضاء وفي طي الحوادث محبوب ومكروه
وربما سرني ما كنت أحذره وربما ساءني ما كنت أرجوه[٢]

٢٤- ومن ثمراته : عزة النفس والقناعة والتحرر من رق المخلوقين ، فالمؤمن بالقدر يعلم أن رزقه مكتوب ، وأنه لن يموت حتى يستوفي رزقه ، ويدرك أن الله كافيه وحسبه ورازقه ، وأن العباد مهما حاولوا إيصال الرزق له، أو منعه عنه فلن يستطيعوا إلا بشيء قد كتبه الله ، فينبعث بذلك إلى القناعة وعزة النفس ، والإجمال في الطلب وترك التكالب على الدنيا والتحرر من رق المخلوقين ، وقطع الطمع مما في أيديهم والتوجه بالقلب إلى رب العالمين ، وهذا أساس فلاحه ورأس نجاحه[٣].

٢٥- سكون القلب وطمأنينة النفس وراحة البال ، فهذه الأمور من ثمرات الإيمان بالقضاء والقدر ، وهي هدف منشود ، فكل من على وجه البسيطة يبتغيها ويبحث عنها ، وإنك لتجد عند خواص المسلمين من العلماء العاملين ، والعباد القانتين المتبعين ، من سكون القلب ، وطمأنينة النفس ما لا يخطر على بال ، ولا يدور حول ما يشبهه خيال ، فلهم في ذلك الشأن القدم المعلى والنصيب الأوفى فهذا أمير المؤمنين عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه يقول : " أصبحت وما لي سرور إلا في مواضع القضاء والقدر "[٤] .

(١، ٢) انظر: جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى للغرناطي (٣/ ٥٢) .
(٣) المصدر نفسه ص(٢٩، ٣٠) .
(٤) جامع العلوم والحكم: (١/ ٢٨٧) .

وهذا شيخ الإسلام ابن تيميـة - رحمه الله - يقول : (إن في الدنيا جنة من لم يدخلها لم يدخل جنة الآخرة)[١].

ويقول مـقولته المشـهورة التي قالهـا عندما اقـتيد إلى السـجن : (ما يصنع أعدائي بي، أنا جنتي وبسـتاني في صدري، أينما رحلت فهـي معي لا تفارقني، إن حبسي خلوة ، وقتلي شهادة ، وإخراجي من بلدي سياحة)[٢] .

إن هذه الثمار المباركة نتـيجة طبيعية عندما يتربى الأفراد على مـفهوم القضاء والقدر كما جاء في القرآن الكريم وسنة سـيد المرسلين وتجعلهم يسعون بما يملكون من أجل التمـكين لدين الله وإقامة شـرع الله ويستـبشرون بسـقوط الشـهداء في الطريق ولا يهابون أحدًا إلا الله تعالى .

هذه بعض الصفـات والمعاني المهمة التـي يجب أن يتربى عليها الأفـراد حتى يكونوا ربانيين ، فعند وصولنا إلى إعداد الفرد الرباني نكون قد قطعنا خطوة طيبة في الأخذ بسبب مهم من أسباب التمكين .

ثانيًا : القيادة الربانية :

إن من أخطر عوائق التـمكين غياب القـيادة الربانية وذلك أن قـادة الأمة هم عصب حيـاتها ، وبمنزلة الرأس من جسدها ، فإذا صـلح القادة صلحت الأمة ، وإذا فسـد القادة صار هذا الفـساد إلى الأمة، ولقـد فطن أعداء الإسلام لأهمـية القيـادة في حياة الأمة الإسـلامية ، ولذلك حرصـوا كل الحرص على ألا يمكنوا القيادات الربانيـة من امتلاك نواصي الأمور وأزمّة الحكم في الأمة الإسـلامية ففي خطة لويس التاسع أوصى بـ "عـدم تمكين البلاد الإسلامية والعـربية من أن يقوم بها حـاكم صالح" كـما أوصى بـ "العـمل على إفسـاد أنظمة الحكم فـي البلاد الإسلامية بالرشوة والفساد والنساء حتى تنفصل القاعدة عن القمة "[٣] .

---

(١) الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية لمرعي الحنبلي ص٣٤ .
(٢) شيخ الإسلام ابن تيمية جهاده ودعوته، وعقيدته أحمد القطان ومحمد الزين ص(١٠١) .
(٣) قادة الغرب يقولون جلال العالم ص٦٣ .

وصرح المستشـرق البريطاني "مونتجو مري وات" في جـريدة التايمز اللندنية قائلاً : " إذا وُجد القائد المناسب الذي يتكلم الكلام المناسب عن الإسلام فإن من الممكن لهـذا الدين أن يظهر كـإحدى القـوى السيـاسيـة العظمى في العالـم مرة أخرى "(١) وقال المسـتشرق الصـهيوني: " برنارد لـويس" تحت عنوان : "عودة الإسـلام " في دراسة نشـرها عام ١٩٧٦م : " . . إن غـيـاب القيـادة العصـرية المثقفة: القيادة التي تخدم الإسلام بما يقـتضيه العصر من علم وتنظيم ، إن غياب هذه القيادة قـد قيدت حركة الإسلام كـقوة منتصرة ، ومنع غيـاب هذه القيادات الحركات الإسلامية من أن تكون منافـسًا خطيراً على السلطة في العالم الإسلامي لكن هذه الحركات يمكن أن تتحول إلى قوى سيـاسية هائلة إذا تهيأ لها هذا النوع من القيادة "(٢).

ويظهر للباحث أهمية القيادة الربانيـة في فقه التمكين، وقد تكلم العلماء عن صفات القائد الرباني ونجملها في أمور ونركـز على بعضها بالتفصيل ، فمن أهم هذه الصفـات : سلامـة المعتـقد ، والعلم الشـرعي ، والثقـة بالله ، والقدوة ، والصـدق ، والكفاءة ، والشـجاعـة ، والمروءة ، والزهد ، وحب التضـحيـة ، وحسن اختيـاره لمعاونيه، والتواضع، وقبول التضحـية ، والحلم ، والصبر وعلو الهمة، والتميز بخفة الروح والدعابة ، والحزم والإرادة القوية ، والعدل والاحترام المتبادل والقدرة على حل المشكلات ، والقدرة على التـعليم وإعداد القادة ، وغير ذلك من الصفات .

إن من أهم أسباب التمكين أن يتولى أمور الدعـوة وقيادة المسلمين قيادة ربانية قد جـرى الإيمان في قلبهـا وعروقهـا وانعكست ثماره على جـوارحها وتفـجرت صفات التقوى في أعمالها وسكناتها وأحوالها .

إن القيادة الربانية تسـتطيع أن تنتقل بفضل الله وتوفيقه بالحركـة نحو أهدافها

(١) نفس المصدر السابق ص٢٥ .

(٢) التمكين للأمة الإسلامية ص١٨٥ .

المرسومة بخطوات ثابتة ولا بد أن يكون العلمـاء الربانيين هم قلب القيادة الربانية وعقلها المفكر حتى تسير الحركة والأمة على بصيرة وهدى وعلم .

ولا بد أن نحدد مَنْ هم العلماء الذين يكونون على رأس القيادة الربانية .

والعلمـاء المقـصودون هم : العـارفـون بشرع الله ، المتـفـقهـون في دينه ، العـاملون بعلمهم علـى هدى وبصيـرة ، الذين وهبهم الله الحكمـة ﴿ **وَمَن يُؤْتَ الْحِكْمَةَ فَقَدْ أُوتِيَ خَيْراً كَثِيراً وَمَا يَذَّكَّرُ إِلاَّ أُوْلُوا الأَلْبَابِ** ﴾ (سورة البقرة ، آية : ٢٦٩) .

والعلمـاء هم : الذين جعل الله عـز وجل عماد النـاس عليهم في الفـقه ، والعلم وأمور الدين والدنيا[١] .

والعلمـاء هم : (فقهـاء الإسلام ، ومن دار الفـتيا على أقـوالهم بين الأنام الذين خصوا باستنباط الأحكام ، وعُنوا بضبط قواعد الحلال والحرام)[٢] .

والعلماء هم : أئمة الدين ، نالوا هذه المنزلة العظيمة بالاجـتهاد والصبر واليقين ﴿ **وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ** ﴾ (السجدة : ٢٤) .

والعلمـاء هم : ورثـة الأنبـيـاء ، ورثوا عنهم العلم ، فـهم يـحـملونه في صدورهم ، وينطبع في الجملة - على أعمـالهم- ويدعون الناس إليه . والعلماء هم : الفـرقة التي نفـرت من هذه الأمـة لتتـفقـه في دين الله ، ثم تقـوم بواجب الدعوة ، ومهمة الإنذار ﴿ **وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ** ﴾ (التوبة: ١٢٢) .

والعلماء هم هداة الناس الذين لا يخلو زمان منهـم حتى يأتي أمر الله ، فهم رأس الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة يقول الرسول ﷺ : (لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خـذلهم ، أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس)[٣] .

---

(١) تفسير الطبري (٣/ ٣٢٧) .

(٢) ابن القيم أعلام الموقعين (١/ ٧) .

(٣) البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ لا تزال (٨/ ١٨٩) رقم ٧٣١١ .

كيف يعرف العلماء ؟

إن العلماء يُعرفون بعلمهم ، فالعلم هو الميزة التي تميزهم عن غيرهم ، فهم إن جهل الناس نطقوا بالعلم الموروث عن إمام المرسلين ﷺ : (ويعرفون برسوخ أقدامهم في مواطن الشبهة ، حيث تزيغ الأفهام فلا يسلم إلا من آتاه الله العلم ، أو من اتبع أهل العلم) .

فالعلماء أطواد ثابتة ، لأنهم أهل اليقين الراسخ الذي اكتسبوه بالعلم ، يقول الإمام ابن قيم الجوزية - رحمه الله - : (إن الراسخ في العلم لو وردت عليه من الشبهة بعدد أمواج البحر ما أزالت يقينه ، ولا قدحت فيه شكًّا ، لأنه قد رسخ في العلم فلا تستفزه الشبهات ؛ بل إذا وردت عليه ردها حرسُ العلم وجيشه مغلولة مغلوبة)[١] .

إن العلماء يعرفون - أيضًا بجهادهم ، ودعوتهم إلى الله عز وجل - وبذلهم الأوقات ، والجهود في سبيل الله .

ويعرفون بنسكهم وخشيتهم لله ، لأنهم أعرف الناس بالله ، يقول الله عز وجل : ﴿ **إِنَّمَا يَخْشَى اللَّهَ مِنْ عِبَادِهِ الْعُلَمَاءُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ غَفُورٌ** ﴾ (فاطر: ٢٨) .

وقال الإمام ابن تيمية رحمه الله : " ومن له في الأمة لسان صدق عام بحيث يُثنى عليه ويُحمد في جماهير أجناس الأمة ، فهؤلاء أئمة الهدى ومصابيح الدجى "[٢] .

وهذا حق ، فالمسلمون شهداء الله في أرضه[٣] .

وعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : مروا بجنازة فأثنوا عليها خيرًا فقال النبي ﷺ : " وجبت " ، ثم مروا بأخرى فأثنوا عليها شرًّا ، فقال : " وجبت " فقال عمر بن الخطاب رضي الله عنه ما وجبت ؟

---

(١) مفتاح دار السعادة (١/ ١٤٠) .

(٢) الفتاوى (١١/ ٤٣) .

(٣) انظر: قواعد في التعامل مع العلماء د . اللويحق ص٢٦ .

قال : " هذا أثنيتم عليه خيرًا ، فوجبت له الجنة ، وهذا أثنيتم عليه شرًّا ، فوجبت له النار : أنتم شهداء الله في الأرض "[١].

ومما يعرف به العالم شهادة مشايخه له بالعلم ، فقد دأب علماء المسلمين من سلف هذه الأمة ومن تبعهم بإحسان على توريث علومهم ، الذين يتبؤون من بعدهم منازلهم وتصبح لهم الريادة ، والإمامة في الأمة، ولا يتصدر هؤلاء التلاميذ حتى يروا إقرار مشايخهم لهم بالعلم ، وإذنهم لهم بالتصدر ، والإفتاء والتدريس .

قال الإمام مالك - رحمه الله - : (لا ينبغي لرجل يرى نفسه أهلاً لشيء حتى يسأل من كان أعلم منه ، وما أفتيت حتى سألت ربيعة[٢] ويحيى بن سعيد[٣] فأمراني بذلك ، ولو نهياني لانتهيت)[٤] .

وقال : (. . . ليس كل من أحب أن يجلس في المسجد للتحديث والفتيا جلس ، حتى يشاور فيه أهل الصلاح والفضل ، وأهل الجهة من المسجد ، فإن رأوه أهلاً لذلك جلس وما جلست حتى شهد لي سبعون شيخًا من أهل العلم أني موضع ذلك)[٥] .

هذه بعض الدلائل الدالة على علم العالم ، أما المناصب ونحوها ليست الدليل على العلم .

إن العلماء لا يحددون ويختارون عن طريق الانتخابات ، ولا عن طريق التعيين الوظيفي ، أو الشهادات الجامعية والدرجات والألقاب العلمية ، فكأين من عالم في تاريخ الأمة تصدر وعلا ذكره ، وأصبح إمامًا للأمة كلها ، وهو لم

---

(١) البخاري، كتاب الجنائز، باب ثناء الناس على الميت (٢/ ١٣٢) رقم ١٣٦٧ .

(٢) هو ربيعة بن أبي عبد الرحمن فروخ الإمام المفتي، عالم الوقت مفتي المدينة المشهور بربيعة الرأي كان من أهل الاجتهاد (ت ١٣٦هـ) سير أعلام النبلاء (٦/ ٨٩) .

(٣) هو الإمام يحيى بن سعيد أبو سعيد القطان توفي (١٩٨هـ) تهذيب التهذيب ١١/ ١٦ .

(٤) صفة الفتوى والمستفتي لابن حمدان (٧) .

(٥) ابن فرحون الديباج ص(٢١) .

يعـرف المناصب ، وما الإمـام أحمـد بن حنبل ، وابن تيـميـة إلا مثـلاً من هذا التاريخ الطويل .

وهذا لا يعني أن كل مـن عين في منصب علمي ليـس بعـالم ؛ بل المراد أن المنصب ليس دليلاً على العلم ، وإلا فـإن الشأن عندما يكون الحـاكم خيرًا ، أن يكون الولاة ، والقضـاة ، والمُفْتُون كذلك ، بل قـد يوجد في عهد ظالـم قضاة عادلون ومُفْتُون ثقات[1] .

وهناك ملاحظة مهمة جدًا ألا وهي التفريق بين العلماء وبين ما قد يشتبه بهم .

فلا بد من التفريق بين العلماء والقرّاء :

إن هناك بون شاسع بين القارئ للعلوم الشرعية والفقيه فيها .

إن القارئ لديه نتف وجـزئيات أمسك بـها من خلال قراءتـه لبعض الكتب ، واطلاعه علـى أقوال أهل العلم فـهو لم يعان العلـم ، ولم يشافه العـلماء ، ولم يزاحمـهم بالركب في الحَلَقِ ، ولذلك فـإنه وإن رأيته متـضلعًا في مـوضوع من موضوعـات الفقه والشريعة إلا أنه يغلق علـيه عندما يسأله في مسـألة من مسائل العلم[2] .

أما العـالم الفقيـه فليس كأولئك؛ بل هو ذو فـهم شمولي عـام للإسلام ، واطلاع على مـجمل الأحكام الشـرعية ، فـهو لم يقـرأ نتفًـا ؛ بل درس العلوم الشرعيـة دراسة شمولية عامة ، فـمر على مسائل العلم واستطاع تخـريجها على أصولها وأصبحت لديه ملكة فهم النصوص ، وعرف مقاصد الشريعة ، وأهدافها العامة .

إن علمه لم يأتيـه من قراءة ليلة ؛ بل من سهـر الليالي ومعاناة الأيام ، فـشأن العلماء أنهم لا يقفون عند حد في التعلم ؛ بل هم دائمو الطلب ، دائبو التعلم[3] .

---

(١) قواعد في التعامل مع العلماء ص٢٨ .

(٢) المصدر نفسه ص٣٢ .

(٣) المصدر نفسه ص٣٣ .

ولا بد - أيضًا - من التـفريق بين العلماء والمفكرين والمثقـفين ، إن مفكري الأمة لهم مكانتهم ، وبعضهم قد نفع الله عـز وجل بهم نفعًا كبيراً ، ولكنهم مع ذلك لن يغنوا عن العلماء شـيئًا إلا في حدود علمـهم وقدراتهم كما أن المـثقفين وهم : فئـة من الأخيار الصالحين ذوي تخـصصات علمـية برزوا فيهـا سواء في العلوم التـجريبيـة مثل : الطب والهندسـة والكيمـياء أو في العلوم المسـماة بـ : "العلوم الإنسانية " مثل: علم النفس ، وعلم التربيـة، وعلم الاجتماع، فهؤلاء وإن حُمِـد لهم تخصصهم فـي مثل هذه العلوم فصاروا مـرجعًا فـيها فإنهم غـير مخـتصين في العلـوم الشرعيـة ، وهم في الاصطلاح العلمي الشـرعي جمـهور المسلمين ، وعوامهم الذين يجب أن يكونوا وراء العلماء .

ويجب أن يرجعوا للـعلماء في أمور الشريعة ، ويكونـوا عونًا لهم في شرح واقع تخصصاتهم ، فالطبيب يشرح الأمـور الطبية ، والاقتصادي يشرح الجوانب الاقتـصادية العصـرية وهكذا ، وإن كلام هؤلاء (المفكرين) والمثـقفين يجب أن يكون محكومًا بالشـرع ، وأما إذا بنى هؤلاء المثقفـون و(المفكرون) كلامهم في أمور الشريعة ، وأحوال الأمة العـامة على أساس من العقول والأهواء ، وإطلاق القـول بالمصـالح دون نظر في كـتاب الله وسنـة رسوله ﷺ وأقـوال العلمـاء الراسخين ، فـإنهم بذلك يكونون أشبـه بأهل الكلام وقد : (أجمع أهل الفـقه والآثار من جميع الأمصـار أن أهل الكلام أهل بدع وزيغ ولا يعدون عند الجميع في جـميع الأمـصـار في طبقـات العلمـاء ، وإنّمـا العلمـاء أهل الأثر والفقـه ويتفاضلون فيه بالإتقان والفهم)[١] .

ولا بد من التفريق بين العلماء والخطباء والوعاظ .

قال ابن مسـعود رضي الله عنه : " إنكم في زمان كثيـر علماؤه قليل خطباؤه ، وإن بعدكم زمانًا كثير خطباؤه والعلماء فيه قليل "[٢] .

---

(١) جامع بيان العلم لابن عبد البر (٢/ ٩٦) .
(٢) البخاري، كتاب الأدب المفرد ص٣٤٦، ح٧٨٩ .

إن العالم قد يكون عَيِيًّا لا يحسن الكلام ، أو هو - بطبعه - قليل الكلام غير قادر على الخطابة ، وقد يكون من العوام من هو بليغ اللسان يقلب الألفاظ كيف يشاء .

هـذا التفريق مهم جداً في ما بين العلماء الراسخين وممن يشتبه بهم، ولذلك لا بد أن يقود العمل الإسلامي القادة الربانيين وعلى رأسهم العلماء الراسخين .

إن الشريعة الإسلامية أعطت اعتباراً للعلماء وبنته على أمرين مهمين :

١ - أن طاعتهم طاعة لله- عز وجل ولرسوله ﷺ ، فالتزام أمرهم واجب .

٢ - أن طاعتهم ليست مقصودة لذاتها ؛ بل هي تبعٌ لطاعة الله ورسوله ﷺ .

والأدلة على هذه المنزلة وهذا الاعتبار للعلماء في الشريعة غير منحصرة ، فمنها :

الدليل الأول : قوله تعالى : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ (سورة النساء ، الآية : ٥٩) .

وقد اختلف المفسرون في أولي الأمر منهم على أقوال :

فقيل : هم السلاطين وذوو القدرة .

وقيل : هم أهل العلم .

قال ابن عباس رضي الله عنهما : " يعني أهل الفقه والدين ، وأهل طاعة الله الذين يعلمون الناس معاني دينهم، ويأمرونهم بالمعروف، وينهونهم عن المنكر فأوجب الله سبحانه طاعتهم على عباده "[١] .

ويقول ابن كثير - رحمه الله - : " والظاهر والله أعلم أنها عامة في كل أولي الأمر من الأمراء والعلماء "[٢] .

---

(١) تفسير الطبري (٥/ ١٤٩) .

(٢) تفسير ابن كثير (١/ ٥١٨) .

يقول الإمـام ابن قيم الجـوزية - رحمه الله - : " والتـحقـيق أن الأمراء إنما يطاعون إذا أمـروا بمقتضى العـلم، فطاعتهم تبعٌ لطاعـة العلماء، فـإن الطاعة إنما تكون في المعـروف وما أوجبـه العلم، فكما أن طاعـة العلماء تبع لطاعـة الرسول ﷺ ، فطاعـة الأمراء تبعٌ لطاعـة العلماء . ولما كـان قيـام الإسلام بطائفـتي، العلمـاء والأمـراء، وكـان الناس لهم تبـعًـا، كان صـلاح العـالم بصـلاح هاتين الطائفتين، وفساده بفسادهما "[1] .

الدليل الثاني : أن الله - سبـحانه وتعالى - أوجب الرجوع إليـهم وسؤالهم عما أشكل ، قال تعالى : ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ** ﴾ (الأنبياء : ٧) .

يقول الشيخ عبد الرحمن السعـدي في تفسيره - رحمه الله - : (وعموم هذه الآية، فيها مدح أهل العلم، وأن أعلى أنواعه : العلم بالكتاب المنزل، فإن الله أمر من لا يعلم بالرجـوع إليـهم في جمـيع الحوادث وفي ضـمنه تعـديل لأهل العلم وتزكية لهم حيث أمر بسؤالهم، وأن بذلك يخرج الجاهل من التبعية)[2] .

الدليل الثالث : أن الله - سبـحانه وتعـالى - عظّم قـدرهم فأشهـدهم دون غيرهم على أعظم مشهود .

يقول سبحانه : ﴿**شَهِدَ اللَّهُ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ وَالْمَلائِكَةُ وَأُوْلُوا الْعِلْمِ قَائِمًا بِالْقِسْطِ لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ الْعَزِيزُ الْحَكِيمُ** ﴾ (سورة آل عمران ، الآية : ١٨) .

قال العلامة السعدي - رحمه الله - في تفسيره لهذه الآية : (وفي هذه الآية فضيـلة العلم والعلماء، لأن الله خصهم بالذكـر من دون البشر، وقرن شـهادتهم بشهـادته وشهـادة ملائكتـه، وجعل شـهادتهـم من أكـبر الأدلة والبـراهين على توحـيده ودينه، وجـزائه، وأنه يجب على المكلفين قـبـول هذه الشهـادة العـادلة الصادقة .

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ١٠) بتحقيق، عبد الرءوف سعد .
(٢) تفسير السعدي (٤/ ٢٠٦) .

وفي ضمن ذلك تعديلهم، وأن الخلق تبع لهم، وأنهم هم الأئمة المتبوعون، وفي هذا من الفضل والشرف وعلو المكانة ما لا يقادر قدره "[١] .

الدليل الرابع : أنهم أهل الفهم عن الله عز وجل :

قال تعالى : ﴿ **وَتِلْكَ الأَمْثَالُ نَضْرِبُهَا لِلنَّاسِ وَمَا يَعْقِلُهَا إِلاَّ الْعَالِمُونَ** ﴾ (سورة العنكبوت ، آية : ١٨) .

إن الأمثال تضرب لـلناس كلهم ولكن تعقّلها وفهمها خاص بأهل العلم قال ابن كثير - رحمه الله - : (وما يفهمها ويتدبرها إلا الراسخون في العلم المتضلعون منه)[٢] .

وقال الشيخ ابن سعدي - رحمه الله - : (وما يعقلها) أي : بفهمها وتدبرها وتطبيقها على ما ضربت له، وعقلها في القلب . (إلا العالمون) أي: أهل العلم الحقيقي، الذي وصل العلم إلى قلوبهم .

وهذا مدح للأمثال التي يضربها، وحث على تدبرها وتعقلها، ومدح لمن يعقلها، وأنه عنوان على أنه من أهل العلم، فعلم أن من لم يعقلها ليس من العالمين[٣] .

الدليل الخامس : أن أهل العلم أبصر الناس بالبشر ومداخل الشر: قال تعالى: ﴿ **قَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ إِنَّ الْخِزْيَ الْيَوْمَ وَالسُّوءَ عَلَى الْكَافِرِينَ** ﴾ (النحل: ٢٧) .

قال الشيخ العلامة ابن سعدي - رحمه الله - :

" قال الذين أوتوا العلم " أي : العلماء الربانيون (إن الخزي اليوم) أي: يوم القيامة (والسوء) أي: سوء العذاب " على الكافرين " .

---

(١) نفس المصدر (١/ ٢٦٥) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٣/ ٤١٤) .

(٣) تفسير السعدي (٦/ ٨٩) .

وفي هذه فضيلة أهل العلم، وأنهم الناطقون بالحق في هذه الدنيا، ويوم يقوم الأشهاد، وأن لقولهم اعتباراً عند الله وعند خلقه[1] .

ويقول سبحانه في سياق قصة قارون : ﴿ وَقَالَ الَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ وَيْلَكُمْ ثَوَابُ اللَّهِ خَيْرٌ . . . ﴾ (سورة القصص، آية: ٨٠) .

فأهل العلم هنا كانوا متميزين عن غيرهم، فهم بصراء بالشر وعلماء بالخير، فلما رأوا الناس يتمنون مثل ما أوتي قارون، حذّروهم من الشر، وبيّنوا لهم الخير، وأن الدار الآخرة خير لمن آمن وعمل صالحًا .

ولم يعرف هؤلاء الذين تمنّوا حظوظ الدنيا أن العلماء على الحق إلا حينما حلت عقوبة الله بقارون عندها: ﴿وَأَصْبَحَ الَّذِينَ تَمَنَّوْا مَكَانَهُ بِالأَمْسِ يَقُولُونَ وَيْكَأَنَّ اللَّهَ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَوْلا أَن مَّنَّ اللَّهُ عَلَيْنَا لَخَسَفَ بِنَا وَيْكَأَنَّهُ لا يُفْلِحُ الْكَافِرُونَ ﴾ (سورة القصص، الآية: ٨٢) .

ولما كان العلماء هم العارفين بالشر صاروا هم الذين ينهون الناس عن الوقوع فيه، قال تعالى: ﴿لَوْلا يَنْهَاهُمُ الرَّبَّانِيُّونَ وَالأَحْبَارُ عَن قَوْلِهِمُ الإِثْمَ وَأَكْلِهِمُ السُّحْتَ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَصْنَعُونَ ﴾ (سورة المائدة، الآية: ٦٣) .

أي: هلا نهاهم العلماء المتصدّون لنفع الناس عن هذه الشرور العظيمة، وهم - أي: العلماء - العارفون بالشر ومداخل الشر فكان لزامًا أن يبينوا للناس .

والناس عليهم لزوم طاعة العلماء والاستجابة لتحذيرهم من الشر ونهيهم عن المعاصي[2] .

هذه بعض الأدلة في القرآن الكريم، وأقوال المفسرين فيها ترشدنا إلى أهمية العلماء في قيادة الأمة وقيادة الصفوة التي تقود الأمة .

وقد جاءت الأحاديث النبوية في ترشيد الأمة إلى منزلة العلماء .

---

(١) تفسير السعدي (٤/١٩٦) .

(٢) انظر: قواعد في التعامل مع العلماء ص(٥٣) .

الدليل الأول: أن العلماء ورثة الأنبياء، وهم المفضلون بعد الأنبياء على سائر البشر .

عن أبي الدرداء[١] ﷺ قال سمعت رسول الله ﷺ يقول : " فضل العالم على العابد كفضل القمر ليلة البدر على سائر الكواكب ، وإن العلماء ورثة الأنبياء ، وإن الأنبياء لم يورّثوا ديناراً ولا درهمًا ، ولكنَّهم ورثوا العلم فمن أخذه أخذ بحظ وافر "[٢] .

قال الإمام ابن رجب [٣]- رحمه الله - : " يعني أنهم وَرِثوا ما جاء به الأنبياء من العلم ، فهم خَلَفُوا الأنبياء في أممهم بالدعوة إلى الله وإلى طاعته ، والنهي عن معاصي الله والذود عن دين الله "[٤].

الدليل الثاني : إن العلماء هم المبلغون عن الأنبياء:

قال الرسول ﷺ : "تسمعون ويسمع منكم ، ويسمع ممن يسمع منكم "[٥].

فبين ﷺ أن هذا العلم يؤخذ بالتلقي وكل جيل من أهل العلم يُبلغه لمن بعدهم .

وهؤلاء المبلغون هم المستحقون لدعوة النبي ﷺ : " نضر الله عبدًا سمع مقالتي ، فحفظها ووعاها ، وأداها ، فرُبَّ حامل فقه غير فقيه ، ورُبَّ حامل فقه إلى من هو أفقه منه " .

ولقد جمع العلماء بين نقل أقوال الرسول ﷺ إلى من بعدهم ، وفقه تلك الأقوال وفهمها ، فالعالم حامل فقه وفقيه .

---

(١) هو الصحابي الجليل عويمر بن عامر الخزرجي الأنصاري توفي عام ١٣٣هـ الإصابة (٣/ ٤٦) .
(٢) رواه أبو داود ، كتاب العلم ، باب الحث على طلب العلم (٣/ ٣١٧) رقم ٣٦٤١ .
(٣) هو عبد الرحمن بن أحمد بن رجب البغدادي ثم الدمشقي توفي ٧٩٥هـ شذرات الذهب (٦/ ٣٣٩) .
(٤) شرح حديث أبي الدرداء في طلب العلم ص٤٦ .
(٥) أبو داود ، كتاب العلم ، باب فضل نشر العلم (٣/ ٣٢٢) رقم ٣٦٦٠ .

الدليل الثالث: أن الله أراد بهم الخير:

عن ابن عباس ومعاوية ﷺ قالا: قال رسول الله ﷺ: " من يرد الله به خيرًا يفقهه في الدين "[١].

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله تعالى -: (وكل أمة - قبل مبعث نبينا محمد ﷺ - فعلماؤها شرارها إلا المسلمين فإن علماءهم خيارهم)[٢].

إن الأحاديث في مكانة العلماء كثيرة ونكتفي بهذا القدر، إن الذين يقودون الأمة بغير علم يفسدون أكثر مما يصلحون، وإن العلماء مثل الماء النافع حيثما سقطوا نفعوا، وليس للناس عوض البته عن العلماء إلا أن يكون لهم عوض عن الشمس والعافية، ولا أقصد من كلامي هذا وإطنابي في مكانة العلماء ومنزلتهم في الشريعة أن نقدس ذواتهم وأشخاصهم، فنصبح كبني إسرائيل ﴿**اتَّخَذُوا أَحْبَارَهُمْ وَرُهْبَانَهُمْ أَرْبَابًا مِّن دُونِ اللَّهِ وَالْمَسِيحَ ابْنَ مَرْيَمَ وَمَا أُمِرُوا إِلَّا لِيَعْبُدُوا إِلَٰهًا وَاحِدًا لَّا إِلَٰهَ إِلَّا هُوَ سُبْحَانَهُ عَمَّا يُشْرِكُونَ**﴾ (سورة التوبة، الآية: ٣١).

إن الطاعة عندنا، واعتبار العلماء في شرعنا ليس مقصودًا لذاته؛ بل لما قام فيهم من العلم بالله والعلم عن الله عز وجل: وليس سؤال العامي إياهم سؤالاً عن رأيهم الشخصي، ولا عن حكمهم الذاتي؛ بل سؤالٌ عما يفهمون عن الله - عز وجل - وعن رسوله ﷺ.

ولا بد أن ننبه إلى أمر عظيم ألا وهو أن بعض المنسوبين إلى الخير والصلاح اليوم يعتبرون للعلماء منزلة وطاعة في بعض جوانب الحياة، ويرون أن هناك جوانب أخرى ليس للعلماء فيها اعتبار، وإنما الاعتبار لغيرهم من المفكرين أو الساسة أو الدعاة أو قادة الجماعات أو غيرهم وهذا أمر لا شك أنه غير صحيح، لأن العلماء يفهمون السياسة الشرعية، وأمور الجهاد، والهدنة والمصالح والمفاسد وغير ذلك من الأحكام التي تتناول مظاهر الحياة جميعًا.

---

(١) البخاري، كتاب فرض الخمس، باب قول الله: فلله خمسه (٤/ ٦٠) رقم ٣١١٦.

(٢) رفع الملام عن الأئمة الأعلام ص(١١).

وعلى المختصين في جوانب الحي: من الكوادر الاقتصادية، والسياسية والطبية والعسكرية أن يبينوا واقع تخصصاتهم إلى العلماء الربانيين حتى يطبق العلماء الحكم الشرعي على الوقائع المتجددة .

وهناك ملاحظة مهمة، ألا وهي أن العلماء جاء اعتبارهم عن طريق الشرع فإنّه لا يرفع هذا الاعتبار إلا الشرع، فإذا قارف العالم عملاً أو قال قولاً يخرم دينه، ويجعله غير أهل لإمامة الأمة، ولا يستحق أن يكون على رأس قيادتها فإنه يزال عنه اعتبار طاعته وأخذ قوله . وأما إذا كان رفع اعتبار هذا العالم جاء من جهة عدم رضا الناس برأيه أو عزله، أو حسد قرنائه له، فإن ذلك ليس هادمًا لاعتباره، وإلا لهدمنا اعتبار أئمة الهدى من أمثال : أحمد بن حنبل، وابن تيمية، وغيرهم رحمهم الله - الذين مروا بأحوال وأزمان لم يعتبر الناس لهم فيها رأيًا، حتى أيدهم الله بتأييده[1] .

إن العلماء في مسيرة الحياة الإسلامية دائمًا وأبدًا يتصدرون شعوبهم وأممهم وبهم تقام الدول ويمكَّن لشرعه على يديهم وإليهم المرجع عند الفتن والملاحم والمحن، فلابد من إعطاء العلماء الربانيين المستوعبين لواقعهم العاملين بكتاب ربهم وسنة نبيهم ﷺ والملمين بتاريخ الأمم والدول والشعوب دورهم الطبيعي في الأمة عمومًا وفي الحركات الإسلامية خصوصًا فهذا من فقه التمكين .

ولا شك أننا اليوم في محنة عظيمة وفتن أليمة كقطع الليل المظلم ومن شأن الفتن أن تشتبه الأمور فيها، ويكثر الخلط وتزيغ الأفهام والعقول والحكمة حينذاك إنما هي للجماعة التي يمثل العلماء رأسها، فالواجب على الناس الراعي والرعية الأخذ برأي العلماء والصدور عن قولهم، لأن اشتغال عموم الناس بالفتن وإبداء الرأي فيها ينتج عنه مزيد فتنة وتفرق للأمة، فالأمور العامة من الأمن أو الخوف مردها إلى أهل العلم والرأي يقول الله عز وجل : ﴿ وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الْأَمْنِ أَوِ

---

(١) انظر: قواعد في التعامل مع العلماء ص٦٩ .

الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ وَلَوْلا فَضْلُ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُ لاتَّبَعْتُمُ الشَّيْطَانَ إِلاَّ قَلِيلاً﴾ (سورة النساء: ٨٣) .

إن الناس في الفتن يحتاجون إلى فقه المصالح والمفاسد، والعلم بمراتبها فوق حاجتهم إلى العلم بآحاد النصوص الحاكمة على القضايا المعينة . إذ ليست المنكرات العامة المتعلقة بالسياسة الشرعية وهي في الغالب سبب الفتن كمسائل الطهارة والصلاة والحج والأحوال الشخصية يقوم فيها الحق - غالبًا - على الأدلة التفصيلية، بل قيام العلم في ذلك على أسس منها:

١- الأدلة الشرعية العامة والقواعد التي يدخل تحتها أمور كثيرة .

٢- مقاصد الشريعة .

٣- الموازنة بين المصالح والمفاسد .

٤- الأدلة التفصيلية .

ولا يمكن للعوام، بل وصغار العلم فهم القضايا الكلية العامة، وإن كان يمكنهم فهم النصوص الجزئية . وكذلك فَهْم مقاصد الشريعة لا يكون إلا باستقراء مجمل النصوص وتصرفات الشارع، ففقه المقاصد فقه عزيز، لا يناله كل أحد، بل لا يصل إليه إلا من ارتقى في مدارج العلم، واطلع على واقع الحال، وقلَّب النظر في الاحتمالات التي يظن حدوثها .

والموازنة بين المصالح والمفاسد تحتاج إلى فهم للشريعة ومقاصدها وفهم للواقع ومراتب المصالح والمفاسد وهذا كله لا يكون إلا للعلماء[1] إن تصدر العامة الذين لا يفهمون كتاب الله وسنة رسوله ﷺ يشتت المسلمين ويفرق وحدتهم، لأن العوام لا يتصور اتفاقهم على أمر إذا لم يكن لهم سراة يصدرون عن رأيهم، ولذلك كان الرد إلى أهل الحل والعقد .

---

(١) انظر: قواعد في التعامل مع العلماء ص١٢١ .

إن قيــام مسألة الإنكار في الأمــور العامة هو على فــهم مسألة عظيــمة هي، الإمكان وعــدم الإمكان وتحديـد هذا الإمكان وعدمـه ليس إلى جـمهـور الناس وعوامهم؛ بل هو إلى العلماء بشرع الله البُصراء بواقع الناس[١] .

فلا بد من وضع الثقة بالعلمـاء الربانيين، فكثير من الناس من يطالب العلماء بعمل مـن الأعمال هم عنه ممتـنعون، وما امـتناعهم عنه إلا لنظـرهم من مآلات الأمور وعواقبها .

إذ بعض المصـالح قد يمتنع عنه لما يؤدي إليـه في المآل من المفاسـد العظمى، والدين الإسلامي يراعي المصالح، فلا يقر اعتبـار مصلحة دنيا على حساب وقوع مفسدة عظمى .

ألا ترى أن قتل المنافق الثابـت نفاقه، المعروف باستـهزائه بآيات الله وبرسوله ﷺ ، وبالمؤمنين أمر مشروع بل موجب للقتل، وهو الردة ومفارقة الدين؟.

فقد امـتنع عنه النبي ﷺ لما يقضي إليه هذا القتل من المفاسـد، فعن جابر ابن عبـد الله رضي الله عنهما[٢] أنه قـال: كنا مع النبي ﷺ في غـزاة، فكسع رجل من المهاجرين رجـلاً من الأنصـار . فقـال الأنصـاري: يا للأنصار وقال المهاجريُّ: يا للمهاجرين : فقال رسـول الله ﷺ : " ما بـال دعوى الجاهلـية " قالوا : يا رسول الله : كَسَع رجلٌ من المهاجرين رجلاً من الأنصار فقال : " دعوها فإنها منتنة " فسمعها عبد الله بن أبي، فقال : قد فعلوها . والله لئن رجعنا إلى المدينة ليُخرجن الأعز منها الأذل قال عمر: دعني أضرب عُنُق هذا المنافق: فقال: " دعه لا يتحدث الناس أن محمدًا يقتل أصحابه "[٣].

إن النبي ﷺ امتنع عن قـتل المنافق خشية أن يتـحدث الناس أن رسول الله

---

(١) المصدر نفسه ص١٢٣ .

(٢) هو جابر بن عبد الله الأنصاري السلمي، من أهل بيعة الرضوان، شهد مع النبي ﷺ (١٩ غزوة ت (٧٨هـ) وقيل غير ذلك انظر الاستيعاب (٢/١٠٩-١١٠) .

(٣) البخاري، كتاب التفسير، باب تفسير سورة المنافقين (٦/ ٧٩) رقم ٤٩٠٧ .

ﷺ يقتل أصحابه في وقت كانت الدعوة فيه في طور الانتشار، مما يُنفر الناس عن الإيمان برسالة محمد ﷺ وهذا المحظور أعظم من المصلحة المتحققة بقتل هذا المنافق[١] .

إن وضع الثقة في العلماء الربانيين لخطوة مباركة نحو تحكيم شرع الله والتمكين لدينه .

إن القيادة الربانية والتي على رأسها العلماء الذين وصلوا إلى درجة النظر في فقه الإسلام من كتاب الله وسنة رسوله ﷺ هم الذين يجب أن يقودوا العمل الإسلامي والدعوة إلى الله .

إن أعداءنا من اليهود والنصارى والملاحدة والعلمانيين أيقنوا أن من أسباب قوة المسلمين التفافهم حول علمائهم وقادتهم، لذلك شنوا هجومًا عنيفًا من أجل زعزعة ثقة الأمة في علمائها وقادتها واستعملوا أساليب متنوعة للتشويه والطعن فيهم لأن العلماء هم الوصلة الحقيقية بين الأمة وقرآنها وسنة نبيها ﷺ .

وقد لاحظ الاستعمار الأوربي الحديث ذلك، وما الثورات التي فجرت الاستعمار إلا بقيادة العلماء والقادة الربانيين من المغرب إلى المشرق في كل ديار المسلمين .

ولذلك قام اليهود والنصارى والملاحدة بتشويه صورة القادة والعلماء بواسطة المسرح، والتلفاز، والمجلة والجريدة والنوادي والغناء وكل وسائل الإعلام وإذا أردت أن تعرف هجومهم الإعلامي ابتداءً من العقود الماضية، فلتراجع كتاب المشايخ والاستعمار للأستاذ حسني عثمان، فإنه أجاد إن القيادة الحكيمة وهي تسعى لتحكيم شرع الله تعالى، وإقامة دولة الإسلام توقن إيقانًا جازمًا أن المجتمع لن يكون إسلاميًّا بجرّة قلم، أو بقرار يصدر من ملك أو رئيس، أو مجلس قيادة أو برلمان .

---

(١) انظر: قواعد في التعامل مع العلماء، ص١٨٠ .

إنما يتحقق ذلك بطريق التدرج ، والإعداد والتهيئة الفكرية والنفسية والأخلاقية والاجتماعية ، وإقامة البدائل الإسلامية للأوضاع الجاهلية التي تأسست عليها مؤسسات عدة لأزمنة عديدة .

فهي تعين الهدف ، وتضع الخطة ، وتحدد المراحل ، بوعي وصدق ، بحيث تنتقل من مرحلة إلى مرحلة بتخطيط وتنظيم وإرادة قوية معتمدة على الله تعالى حتى تصل المسيرة إلى مرحلة التمكين الفعلي لدولة الإسلام المنشودة .

إن القيادة الربانية الحكيمة والتي تسعى لتحكيم شرع الله تعطي للعلوم بأنواعها أهمية وخصوصًا علوم الشرع وتركز على علم المقاصد ، وفقه الموازنات ، وفقه الخلاف ، وفقه الأولويات ، وفقه السنن الربانية لأهميتها في زماننا هذا ، بل هي من أفضل العدة بعد تقوى الله تعالى للعاملين من أجل تحكيم شرع الله .

إن القيادة الربانية الحكيمة هي التي تفجر طاقات الأمة وهي التي تحتضن الإسلام وتنهجه قلبًا وقالبًا ، جوهرًا ومنظرًا ، وعقيدة وشريعة ودينًا ودولة وهي التي تصبح وتمسي وهمها عقيدتها وأمتها ، وهي التي تسعى بكل ما تملك لحل المشاكل التي تواجهها وتعمل بكل جهد وإخلاص للقضاء على عوائق التمكين الداخلية والخارجية .

ثالثًا : محاربة أسباب الفرقة :

إن الانحراف عن كتاب الله وسنة رسوله ﷺ وهدى الصحابة والتابعين ، له أسباب كثيرة ، منها خارجية أجنبية ومنها داخلية ذاتية

ومن أهم الأسباب الخارجية:

١ - اتساع الفتوحات الإسلامية ، واختلاط المسلمين بالشعوب والأمم الأخرى ، وتأثرهم بأفكارها وثقافاتها .

٢ - دخل كثير من أبناء الشعوب الأخرى في الإسلام ولم ينصهروا في عقيدة

الإسلام، وتصوراته كما ينبغي، وحملوا معهم موروثاتهم القديمة ونشروا شبهاتهم بين المسلمين .

٣- اندساس بعض الملاحدة واليهود والمجوس وغيرهم من أصحاب المعتقدات المنحرفة في الإسلام بقصد الكيد له، والنيل منه وبغية هدمه وتحريفه وتبديله وذلك بإبعاد المسلمين عن دينهم الصحيح بالتشكيك وإثارة الشبهات، وابتداع العقائد المخالفة لهدي الإسلام الصحيح، ونشروا معتقدات فاسدة، ومناهج منحرفة من أمثلة هؤلاء:[1]

- عبد الله بن سبأ[2] اليهودي الذي تظاهر بالإسلام في خلافة عثمان رضي الله عنه، وسعى في الأمصار يدس أفكار الغلو في علي رضي الله عنه ابتداء بأنه هو وصي رسول الله صلى الله عليه وسلم وانتهاءً بادعاء الألوهية فيه وغير ذلك من الاعتقادات التي كانت أساس الرفض[3].

- وبشر المريسي[4] اليهودي الذي كان له دور كبير في فتنة خلق القرآن، وتعطيل صفات رب العالمين[5] وغيرهم كثير من أهل الزيغ والضلال ممن نشروا البدع، والمعتقدات الفاسدة، والتصورات المنحرفة، ولا شك أن الأسباب الخارجية ساهمت في فرقة الأمة وتمزيق وحدتها وهي من الموضوعات المتشعبة والطويلة والتي لا بد من دراستها دراسة عميقة متأنية تكشف من خلالها أسبابها وأثرها في الأمة مثل: غزو المغول، والحملات الصليبية، وترجمة الفلسفات اليونانية

---

(١) انظر: وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق د . جمال بادي ص١٣٥، ١٣٦ .

(٢) عبد الله بن سبأ اليهودي قيل أصله من صنعاء وقيل غير ذلك رأس الطائفية السبئية التي كانت تقول بألوهية علي رضي الله عنه . أظهر الإسلام ونشر الفتنة بين المسلمين وتذرع بحب آل البيت وكانت له مصائب عظيمة على المسلمين توفي ٤٠هـ .

(٣) انظر: مقالات الإسلاميين للأشعري (١/ ٨٦) .

(٤) هو بشر بن غياث بن أبي كريمة المريسي العدوي بالولاء، فقيه معتزلي، عارف بالفلسفة رمي بالزندقة توفي ٢١٨هـ ميزان الاعتدال (١/ ٣٢٣) .

(٥) انظر: وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق ص١٣٦ .

والهندية . . . إلخ، ورغم أهمية الأسباب الخارجية فإن الأسباب الداخلية كان لها الأثر الأكبر في إحداث الفـرقة وتقسيم صف الجماعة المسلمـة، وتنقسم الأسباب الداخلية إلى أسباب عامة[1] وأسباب منهجية، وأهم الأسباب العامة هي:

١- الابتداع .

٢- الجهل .

٣- اتباع الهوى .

٤- تحكيم العقل وتقديمه على النصوص .

٥- الهجوم القبيح على أهل السنة .

وأما الأسباب المنهجية فجامعها، مخالفة منهج أهل السنة في النظر والاستدلال[2] .

أ- الابتداع :

تعريف البدعة لغة واصطلاحًا :

- لغة : تطلق البدعة في اللغة على الشيء المخترع على غير مثال سابق، ويقال لمن أتى بأمر لم يسبقه إليه أحد، أبدع وتبدع أي : أتى ببدعة[3]، فهي تطلق على الأمر المحدث سواء كان محمودًا أو مذمومًا .

أما اصطلاحًا : طريقة في الدين مخترعة تضاهي الشريعة يقصد بالسلوك عليها المبالغة في التعبد لله سبحانه وتعالى .

يتبين من التعريفات السابقة أن المعنى اللغوي أعم وأشمل من المعنى الشرعي .

---

(١) نص الشاطبي على أن أسباب الوقوع في الاختلاف ثلاثة أمور وهي : الجهل، واتباع الهوى، والتصميم على اتباع العوائد وإن فسدت أو كانت مخالفة للحق (الاعتصام ٢/ ١٧٢-١٨٠) .

(٢) انظر : وجوب لزوم الجماعة وذم التفرق ص١٣٧ .

(٣) القاموس المحيط للفيروز آبادي (٣/ ٣، ٤)، الصحاح للجوهري (٣/ ١١٨٣) .

ولا شك إن الابتداع في الدين من أعظم أسباب التفرق، بل هو أعظمها وكان من العوامل التي ساهمت في القضاء على وحدة الأمة الإسلامية، وشتت شملها، وحادت بسببه فرق كثيرة عن ما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه . إن المجتمع المسلم كان متوحدًا متآلفًا، حتى خرجت البدع على الناس بسمومها وروائحها الكريهة، فقوضت بنيان الأمة، وشتت شملها، ونخرت في كيانها، كما نخر السوس في الحب، وسرت في جسم الأمة كما يسري السرطان في الدم، أو النار في الهشيم، فلذلك نرى من أسباب التمكين للأمة ووحدة الصف محاربة البدع وذمها وتنفير المسلمين منها، وبيان مضارها وأخطارها وسوء منقلب أهلها .

ولقد سار علماء الأمة على مر العصور، وكر الدهور، وتوالي الأزمان على هذا النهج في محاربة البدعة، وإماتتها، وإظهار السنة وإحيائها .

ومن الأمور التي تظهر خطورة البدعة فيها، ما يصيب الأمة بسببها من العداوة والبغضاء والشحناء .

يقول ابن تيمية - رحمه الله - : (والبدعة مقرونة بالفُرقة، كما أن السنة مقرونة بالجماعة)[(١)] .

ويقول الدكتور توفيق الواعي: " ومن سمات أهل البدع مفارقة الجماعة وشق عصا الطاعة على جماعة المسلمين، لأن الأهواء نزعات وسبل تفرق الجادة "[(٢)] .

إن البدع أصابت الأمة في وحدة صفها واجتماع شملها وقوة بنيانها، ولقد أرشدنا القرآن الكريم وأرشدتنا السنة النبوية إلى التمسك بحبل الله المتين ونوره المبين وترك البدع والإحداث في الدين .

(١) الاستقامة (١/ ٤٢) .

(٢) البدعة والمصالح المرسلة ص٢١٤ .

- قال تعالى : ﴿وَأَنَّ هَذَا صِرَاطِي مُسْتَقِيماً فَاتَّبِعُوهُ وَلا تَتَّبِعُوا السُّبُلَ فَتَفَرَّقَ بِكُمْ عَن سَبِيلِهِ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١٥٣) .

- وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ : " من أحدث في أمرنا هذا ما ليس منه فهو رد "(١) .

إن محاربة البدع والتمسك بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه والاقتداء بهم طريق الوحدة واجتماع كلمة الأمة وقوة بنيانها ورصانة دعائمها ، ومتانة قواعدها وإرجاع مجدها وعزتها ومن أهم الأسباب للتمكين لهذا الدين .

ب- الجهل :

إن الجهل من أعظم أسباب الوقوع في المحرمات جميعها من كفر وفسوق وعصيان، ومن أعظم الجهل القول على الله بغير علم، وقد جعله الله عز وجل أعلى مراتب المحرمات وأعلى درجة من الإشراك به سبحانه ، قال تعالى : ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ قُلْ هِيَ لِلَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا خَالِصَةً يَوْمَ الْقِيَامَةِ كَذَلِكَ نُفَصِّلُ الآيَاتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ﴾ (الأعراف ، الآية : ٣٣) .

يقول ابن القيم - رحمه الله - : (وأصل الشرك والكفر ، هو القول على الله بلا علم)(٢).

وقد نهى الله عباده أن ينسبوا إلى دينه تحليل شيء أو تحريمه من عند أنفسهم ، ليس لديهم فيه حجة من الله ولا برهان ، فقال تعالى : ﴿وَلا تَقُولُوا لِمَا تَصِفُ أَلْسِنَتُكُمُ الْكَذِبَ هَذَا حَلالٌ وَهَذَا حَرَامٌ لِتَفْتَرُوا عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ إِنَّ الَّذِينَ يَفْتَرُونَ عَلَى اللَّهِ الْكَذِبَ لا يُفْلِحُونَ﴾ (سورة النحل ، الآية : ١١٦) .

فافتراء الكذب على الله عز وجل أمر خطير وعظيم ، فهو تعد على جانب

---

(١) البخاري، كتاب الصلح، باب إذا اصطلحوا على صلح (٣/ ٢٢) رقم ٢٦٩٧ .

(٢) مدارج السالكين (١/ ٣٧٣) .

الألوهية، وتطاول على الله عز وجل، وفيه إضلال للعباد، وصدٌّ لهم عن دين الله الحق، قال تعالى: ﴿ فَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّنِ افْتَرَىٰ عَلَى اللَّهِ كَذِبًا لِّيُضِلَّ النَّاسَ بِغَيْرِ عِلْمٍ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١٤٤) .

وقال تعالى : ﴿ قُلْ أَرَأَيْتُم مَّا أَنزَلَ اللَّهُ لَكُم مِّن رِّزْقٍ فَجَعَلْتُم مِّنْهُ حَرَامًا وَحَلالاً قُلْ آللَّهُ أَذِنَ لَكُمْ أَمْ عَلَى اللَّهِ تَفْتَرُونَ ﴾ (سورة يونس، الآية: ٥٩) .

وقال تعالى: ﴿قُلْ هَاتُوا بُرْهَانَكُمْ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ﴾ (البقرة، الآية: ١١١) .

وقال تعالى : ﴿ائْتُونِي بِكِتَابٍ مِّن قَبْلِ هَذَا أَوْ أَثَارَةٍ مِّنْ عِلْمٍ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴾ (الأحقاف، الآية: ٤) .

وهذه تربية للمؤمنين، ودعوة للناس أجمعين، بأن يأخذوا الحق ويبحثوا عنه من مصدره الصحيح وهو الوحي فقط لا غير، وأنّ أي شيء لم يقم عليه دليل ولا برهان من وحي الله فإنه باطل مرفوض وإذا انتقلنا إلى السنة النبوية، وجدنا إخبار النبي ﷺ أن من أشراط الساعة قبض العلم وظهور الجهل، فعن أنس بن مالك رضي الله عنه قال: قال رسول الله ﷺ : " إن من أشراط الساعة أن يُرفَع العلم ويَثْبت الجهل "(١) .

وقال ﷺ : " إن الله لا يقبض العلم انتزاعًا ينتزعه من العباد، ولكن يقبض العلم بقبض العلماء، حتى إذا لم يبق عالمًا اتخذ الناس رءوسًا جهالاً فسُئلوا فأفتوا بغير علم فضلوا وأضلوا "(٢) .

وقال النووي رحمه الله : (هذا الحديث بيَّن أن المراد بقبض العلم في الأحاديث السابقة المطلقة ليس هو محوه من صدور حفاظه، ولكن معناه أن يموت حملته ويتخذ الناس جهالاً بجهالاتهم فيضلُّون ويضلون)٣ .

---

١ البخاري كتاب العلم باب رفع العلم وظهور الجهل ١/ ٣٣ رقم ٨٠
٢ البخاري كتاب العلم باب كيف يقبض العلم ١/ ٣٩ رقم ١٠٠
٣ شرح النووي كتاب العلم باب رفع العلم وقبضه ٢/ ٣٣٦ ٣٣٧ رقم ٢١٣٦

إن الجـهل من الأسبـاب المؤدية إلى الاختـلاف والتفـرق والابتعـاد عن الحق والبعد عنه ورده، وبالتالي تأخـير نصر الله وتمكين دينه في الأرض، ولذلك لابد من معـرفة أسبـاب الجهل ومن ثم معـالجتها، ومـن أخطر الأمور أن يكون على مقدمـة الحركة الإسلاميـة قيادة تجهل كتـاب الله وسنة رسوله ﷺ، ولا تعطي للعلماء أي وزن أو اهتمـام ؛ بل تعمل على تهميشـهم والنيل منهم، وتجعل من عقولها وأهوائها مصادر للاجتهادات الحركية والفكرية والسلوكية، ومن المعلوم أن ما سوى الشـرع موزون وليس بميزان، ومحكوم وليس بحاكم، ولذلك وقع كـثير من العقلانيين ومن المتصوفة وغيرهم في التخبط والضلال والبدع وبالتالي ساهموا في تفريق الأمة وتشتيتها وإبعادها عن تحكيم شرع ربها .

والدواء النافع للجـهل هو العلم، وقـد وردت نصوص كـثيرة من الكتـاب والسنة في الحث على طلبه والثناء على أهله وذكر فضله[١] .

جـ - الهوى :

عرّف أهل اللغة الهوى بأنه : " محبة الإنسان للشيء وغلبته على قلبه "[٢] .

وأما في الاصطلاح: ميلان النفس إلى ما تستلذه من الشهوات من غير داعية الشرع[٣] .

ويعتـبر اتبـاع الهوى من أهم الأسبـاب في نشأة الكثـير من الفـرق الضالة، والطوائف المنحرفة، لأن أصحاب هذه الفرق قدّموا أهواءهم على الشرع أولاً، ثم حاولوا جـاهدين أن يستدلّوا بالشـريعة على أهوائهم، وحرّفـوا النصوص والأدلة لتوافق ما هم عليه من البدع، فلم يأخذوا الأدلة الشرعية مأخذ الافتقار إليها؛ بل اعتمدوا على آرائهم وعـقولهم في تقرير ما هم عليه، ثم جعلوا الشـريعة مصدرًا

---

(١) انظر: وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق ص١٧١ .
(٢) لسان العرب (١٥/ ٣٧١) .
(٣) التعريفات للجرجاني ص٢٥٧ .

ثانويًّا، نظروا فيــها بناء على ما قرّروه وأصّلوُه، ولأجل ذلك كــان علماء السلف الصالح يطلقون على أهل البدع وفرق الضلالة لفظة " أهل الأهواء "(١) بل كانوا يطلقونها على كل من خرج عن موجب الكتاب والسنة من العلماء والعباد(٢).

ولذلك فكل مــخالف لما بعث الله به رسوله ﷺ، مــن الأوامر والنّواهي، والعبــادات، والطاعات إنما يكون متبــعًا لهواه، ولا يكون مُــتَّبعًا لدين شــرعه الله تبارك وتعالى(٣).

والهوى من الأسباب التي لأجلهــا خالفت كثير من الأمم أنبيائهــا فاستكبروا ولم يقبلوا الحق والهدى والنور الذي جاءتهم به أنبياؤهم، عليهم السلام .

قال تعالى: ﴿ **لَقَدْ أَخَذْنَا مِيثَاقَ بَنِي إِسْرَائِيلَ وَأَرْسَلْنَا إِلَيْهِمْ رُسُلاً كُلَّمَا جَاءَهُمْ رَسُولٌ بِمَا لا تَهْوَىٰ أَنفُسُهُمْ فَرِيقًا كَذَّبُوا وَفَرِيقًا يَقْتُلُونَ** ﴾ (سورة المائدة، الآية: ٧٠) .

إن الله تعالى ذكر داود عليه السلام وبين في كتــابه أسباب المحــافظة على التمكين وذكر من ذلك الابتــعاد عن الهوى قــال تعالى : ﴿ **يَا دَاوُودُ إِنَّا جَعَلْنَاكَ خَلِيفَةً فِي الأَرْضِ فَاحْكُم بَيْنَ النَّاسِ بِالْحَقِّ وَلا تَتَّبِعِ الْهَوَىٰ فَيُضِلَّكَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ إِنَّ الَّذِينَ يَضِلُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ لَهُمْ عَذَابٌ شَدِيدٌ بِمَا نَسُوا يَوْمَ الْحِسَابِ** ﴾ (سورة ص، الآية: ٢٦) .

يقول ابن تيمية - رحــمه الله - : " ونفس الهوى - وهو الحب والبغض الذي في النفس - لا يلام عليه، فإن ذلك قد لا يملك، وإنّما يلام على اتباعه "(٤).

وقال في موضع آخر: " ومجرد الحب والبغض هوىً، لكن المحرم اتباع حبّه وبغضه بغير هُدى من الله "(٥).

---

(١) انظر: الاعتصام (٢/ ١٧٦) .
(٢) انظر: الفتاوى (٢٨/ ١٣٣) .
(٣) انظر: جامع العلوم والحكم لابن رجب ص٣٦ .
(٤) الفتاوى (٢٨/ ١٣١) .
(٥) الفتاوى (٢٨/ ١٣٣) .

إن اتباع الهوى من أسباب الفرقة، والفرقة من أسباب تأخر التمكين، فإذن فعلى المخلصين من أبناء الأمة الإسلامية، الحريصين على تحكيم شرع الله تعالى، محاربة الهوى وقلع جذوره وأسبابه من النفوس .

إن الله تعالى أمر عباده المؤمنين بأن يتقوه بفعل ما أمرهم به من الاجتماع على دينه متحابين متعاونين على الخير، وأن لا يموتوا إلا وهم مستسلمين لأمره منقادين لطاعته مبتعدين عن معصيته .

إن محاربة الأهواء طريق نحو الاجتماع والائتلاف، ونحو الأخذ بأسباب التمكين لهذا الدين .

إن اتباع الأهواء شتت جهودًا ضخمة في العمل الإسلامي، وأمرضت قلوبًا كانت حية .

إن العلاج الناجع والبلسم الشافي لمن ابتلى بشيء من الهوى، إلزام النفس بالكتاب والسنة، واتباع منهج السلف الصالح وتربية النفس باستمرار على التقوى والخشية من الله تعالى، واتهام النفس ومحاسبتها دائمًا فيما يصدر منها وعدم الاغترار بأهوائها وتزييناتها وخداعها، والإكثار من استشارة أهل العلم والإيمان واستجلاء آرائهم حول ما يريد أن يقوله ويفعله، وكذلك ترويض النفس على استنصاح الآخرين وتقبل الآراء الصحيحة الصائبة وإن كانت مخالفة لما في النفس، وتعويدها على التريث وعدم الاستعجال في إصدار الأحكام وإمضاء الأعمال، والحذر من ردود الأفعال التي قد يكون فيها إفراط وتفريط وغلو أو تقصير، وجهل وبغي وعدوان، وإكثار المرء من الدعاء والتضرع إلى الله تعالى بأن يجنبه اتباع الهوى ومضلات الفتن ويسأله تعالى أن يوفقه لقول كلمة الحق في الغضب والرضا . ويكثر من الدعاء الذي علمه رسول الله ﷺ لأمته : " وأسألك كلمة الحق في الرضا والغضب "[1] ومن قوله ﷺ : " اللهم إني أعوذ بك من منكرات الأخلاق والأعمال والأهواء "[2] .

---

(١) النسائي كتاب السهو، باب الدعاء بعد الذكر (٣/ ٥٥) صححه الألباني رحمه الله .

(٢) رواه الترمذي وصححه الألباني رحمه الله كما في صحيح سنن الترمذي (٣/ ١٨٣) .

د- تقديم العقل وتحكيمه على النصوص :

إن المدرسة العقلية وعلى رأسها المعتزلة حكمت العقل، وجعلته مصدراً أوليًّا للتلقي ودخلت بالعقل في غير مجاله وركبوا مسلك أهل الكلام ودخلوا في جدل مع الفلاسفة في قـضايا الإيمان، والأسماء والصفات، والغيبـيات وابتعدت الأمة عن أوامر الله، ودخلوا في مـجال الترف الفكـري وتأثر كثير مـن العلماء بكتب اليونان وعلومهـم الفلسفية، وأعرضـوا عن منهج الاستدلال المستـمد من الكتاب والسنة والذي سار عليه الأسلاف والأئمة الثقات ونشـأت فرق كلامية متعددة كل فرقـة تزد على الأخرى وحادت عن الصراط المـستقيم، ووقـعت هي الأخرى في أخطاء كثـيرة وجسـيمة نـتيجـة استعـمالها المنهج العـقلاني نفـسه في الرد على الخصوم، وعـدم اعتمادها على المنهج الرباني الذي يقـول الله فيه: ﴿ **وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً** ﴾ (الفرقان، آية: ٣٣) .

ولو تمسك الجميع بالكتاب والسنة وجعلوها المصدر الوحيد للتلقي، وأعرضوا عمّا خالفها، واتبعوا منهج سلف الأمة في فهم أحكام الدين، أصوله وفروعه، لما حصل الذي حصـل، ولكن ما وقعوا فيـه كان نتيجـة حتمية لتـحكيم العقل في مجال غير المجال الذي خُلق له .

يقـول الشاطبي : (إن الله جـعل للعقـول في إدراكهـا حـدًّا تنتهـي إليه لا تتعداه، ولم يجعل لها سبيلاً إلى الإدراك في كل مطلوب)[1] .

إن العاقل اللبيب هو الذي يعرف حقيقة ما أنعم الله عليه من نعمة العقل فلا يدخله في مسالك ودروب لم يـخلق لها، وإنما يستعمل عـقله في عمارة الأرض والكون والحياة، ويتـأمل ويتدبر في كتاب الله وسنة رسـوله ﷺ وينتهج منهج القرآن في معرفة حقيقة العقل، ومكانته ودوره فلا يتقدم على أحكام الشرع أبداً، بل ينقاد إليـها انقياداً حـكيمًا رزينًا مسترشداً بنور الوحي الذي يحـرر العقل من

(١) الاعتصام (٢/ ٣١٨) .

الخرافات والخزعبلات، ويحثه على النظر في الكون والتحرر من التقليد والهوى والتعصب .

إن إقحام العقل في غير مجاله كما فعل أهل الكلام والأهواء شتت الأمة وفرقها وجعلها تبتعد عن كتاب ربها وسنة نبيهاﷺ . ولقد تخبط كثير من علماء الكلام في دياجير الظلام وحيرة العقول حتى مَنّ الله عليهم وألهمهم رشدهم في آخر حياتهم فتابوا إلى الله عز وجل وندموا على ما كان منهم وتحسروا على إضاعة أعمارهم في القيل والقال، واعترفوا بخطأ الطريق الذي ساروا فيه، وأن منهج القرآن والسنة الذي سلكه السلف الصالح هو أفضل السبل على الإطلاق ونذكر من هؤلاء الأعلام

١- الجويني[١] - رحمه الله - :

لقد ذم علم الكلام في آخر حياته ونصح الأمة أن يجتنبوه، حيث قال : " لا تشتغلوا بعلم الكلام، فلو عرفت أن الكلام يبلغ بي ما بلغ ما اشتغلت به "[٢] .

٢- أبو حامد الغزالي[٣]:

نصر مذهب السلف في آخر حياته وقال : " الدليل على أن مذهب السّلف هو الحق، أن نقيضه بدعة، والبدعة مذمومة وضلالة "[٤]

- ذمه لعلم الكلام، حيث قال : (إن الصحابة ﷺ كانوا محتاجين إلى محاجة اليهود والنصارى في إثبات نبوة محمد ﷺ فما زادوا على أدلة القرآن شيئًا، وما ركبوا ظهر اللّجاج في وضع المقاييس العقلية، وترتيب المقدمات كل ذلك لعلمهم بأن ذلك مثار الفتن ومنبع التشويش ومن لا يقنعه أدلة القرآن، لا يقمعه إلا السيف والسّنان، فما بعد بيان الله بيان "[٥] .

---

(١) هو إمام الحرمين عبد الملك بن عبد الله بن يوسف أبو المعالي ركن الدين كان من أذكياء العالم توفي ٤٧٨هـ انظر: العبر (٢/ ٣٣٩) .

(٢) طبقات الشافعية للسبكي (٣/ ٢٦٠) .

(٣) هو محمد بن محمد الغزالي الطوسي له مائتي مصنف توفي عام ٥٠٥هـ شذرات الذهب (٣/ ١٠) .

(٤) إلجام العوام عن علم الكلام ص٩٦ .

(٥) نفس المصدر السابق ص٨٩- ٩٠ .

إن المنهجية الخاطئة التي قدمت العقل على النقل أدت إلى فساد النتائج وبالتالي إلى ظهور الفرق واختلاف المناهج والتصورات والقيم والمعتقدات وكل ذلك أثَّر في وحدة الأمة وساهم في تمزيقها وتشتيتها وتفريقها وإضعافها وزوال هيبتها وملكها وسلطانها ولذلك أرى أن محاربة المدارس الكلامية والنزعات الفلسفية ودعوة الناس إلى الالتزام بكتاب الله وسنة سيد الأنام ﷺ من أسباب التمكين .

هـ: التقليد والتعصب والحرص على اتباع العوائد :

١- تعريف التقليد لغة واصطلاحًا:

- التقليد لغة : هو جعل القلادة في العنق[١] .

- اصطلاحًا : هو الرّجوع إلى قول لا حجّة لقائله عليه[٢] .

٢- تعريف التعصب لغة واصطلاحًا:

- التعصب لغة : من العصبية . وتعصّب، أي : شدّ العصابة[٣] .

- أما اصطلاحًا : بأن تجعل ما يصدر عن شخص ما من الرأي، ويُروى له من الاجتهاد حجة عليك وعلى سائر العباد[٤].

إن التقليد والتعصب من أعظم أسباب التفرق والانحراف عن منهج الله الرباني، ومن أهمّ العوامل التي أدّت إلى انتشار البدع والأهواء بين الناس، وفشت في أوساطهم، وحالت بينهم وبين سماع الحق والهدى، وتركوا بسببها طريق الكتاب الكريم والسنة المطهرة .

وقد ذم الله تعالى الذين يعرضون عن اتّباع الحقّ والانقياد له، بحجة تقليد

---

(١) الصحاح للجوهري (٢/ ٥٢٧) .

(٢) جامع بيان العلم وفضله لابن عبد البر (٢/ ١١٧) .

(٣) الصحاح للجوهري (١/ ١٨٢) .

(٤) أدب الطلب ومنتهى الأدب للشوكاني ص٧ .

الآباء والأجداد فقال تعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمُ اتَّبِعُوا مَا أَنزَلَ اللَّهُ قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (البقرة ، الآية : ١٧٠) .

إن التقليد المذموم إنما هو التقليد في الباطل ، وأما التقليد في الحق فهو في الحقيقة اتباع لا تقليد .

ومن الآيات أيضًا : التي جاءت في ذم التقليد وأهله قوله تبارك وتعالى : ﴿وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ قَالُوا حَسْبُنَا مَا وَجَدْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْلَمُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (سورة المائدة ، الآية :١٠٤) .

قال ابن كثير : (أي إذا دعوا إلى دين الله وشرعه وما أوجبه وترك ما حرمه قالوا : يكفينا ما وجدنا عليه الآباء والأجداد من الطرائق والمسالك)[1] .

فالتقليد الأعمى والتعصب، يؤديان إلى مهاوي الردى ويقودان صاحبهما إلى مسالك الغواية والضلال، ويصدّان عن اتباع النور والهدى ، فتكون النتيجة تخبطًا وانتكاسًا في الدنيا، وهلاكًا وخسرانًا في الآخرة[2] .

لقد انتشر مرض التعصب والتقليد في شعوب الأمة الإسلامية ، لا سيما في العصور المتأخرة، وأصبح هو الأساس والأصل ، ونتج عن تفشيه نتائج وخيمة وأمور جسيمة .

يصف الإمام الشوكاني - رحمه الله - حال الأمّة الإسلامية عندما انقادت للتقليد واتبعت العوائد السيئة فيقول: " وبهذه الذريعة الشيطانية ، والوسيلة الطّاغوتية، بقي المشرك من الجاهلية على شركه ، واليهودي على يهوديته والنصراني على نصرانيته والمبتدع على بدعته ، وصار المعروف منكرًا والمنكر معروفًا، وتبدّلت الأمة بكثير من المسائل الشرعية وغيرها ، وألِفوا ذلك ومرنت عليه نفوسهم وقبلته قلوبهم وأنِسُوا إليه حتى لو أراد من يتصدى للإرشاد أن

(١) تفسير القرآن العظيم لابن كثير (٢/ ٢١٣) .

(٢) في ظلال القرآن لسيد قطب (٢/ ٩٩١) بتصرف .

يحملهم على المسـائل الشرعيـة البيضـاء النقية التي تبـدّلوا بها غيـرها لنفروا عن ذلك، ولم تقبله طبـائعهم، ونالوا ذلك المرشد بكل المكروه، ومزّقـوا عرضه بكل لسان، وهكذا كثير موجـود في كلّ فرقة من الفرق لا ينكره إلا من هو منهم في غفلة(١) .

إن نتائج التعصب والتقليد جسيمة وخطيرة من أشدها عدم قبول الحق، وردّه إذا جاء من المخالف، وهذا إلى جانب كونه مؤديًا إلى العداوة والبغضاء والتفرّق، فهو خـصلة ذميمة من خـصال اليهود، والذين أمرنـا الله تعالى ورسوله ﷺ، بمجانبة طريقهم وعدم التشبه بهم .

قال تعـالى : ﴿ وَإِذَا قِـيلَ لَهُمْ آمِنُوا بِمَـا أَنزَلَ اللَّهُ قَـالُوا نُؤْمِنُ بِمَـا أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَاءَهُ وَهُوَ الْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ﴾ (سورة البقرة ، الآية : ٩١) .

إن محاربة التعصب والتـقليد هو في حقيقته محاربة لأسـباب الفرقة وبالتالي خطوة نحو الأخذ بأسـباب التمكين، فعلى العاملين في مجـال الدعوة أن يعالجوا هذه الأمراض المعضلة من التعصب والتقليد واتباع العـوائد السيئة التي كانت سببًا في تفريق الأمة شيعًا وأحزابًا .

هذه هي أهم الأسباب التي كان لها أثر مبـاشر في فرقة الأمة، وهناك أسباب أخر؛ ولكن اكتفينا بالأهم خوفًا من الإطالة .

رابعًا: الأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والاجتماع :

إذا كانت الفرقـة هي طريق الانحطاط، فإن الوحدة هي سبـيل الارتقاء وتبوأ المكانة الفاضلة من جديد .

إن اتحـاد الأمـة الإسـلامـية عـلى أسس من ديننا العظيم أمـل كل المسلمين الصادقين في كلِّ مكان، ذلك أن الإسلام هو الذي جـعل من العرب المتناحرين،

---

(١) الدّر النفيس في إخلاص كلمة التوحيد للشوكاني ص(٢٨-٢٩) .

أخوة في دين الله ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات : ١٠) . كما أن الإسلام بعقيدته الصحيحة وعبادته الصادقة، وأخلاقه الرفيعة، صهر الأمم والشعوب والحضارات التي دخلت فيه وجعل منهم أمة واحدة مترابطة ترابط الجسد الواحد لا فرق بين الفارسي ولا البربري، ولا الرومي ولا العربي إلا بالتقوى .

وأصبحت أمة الإسلام أمة واحدة في عقيدتها وتصوراتها ومنهجها، وانعكس ذلك في توادّهم وتراحمهم فيما بينهم وأصبحوا كالجسد الواحد، الذي يخفق فيه قلب واحد، وتسري فيه روح واحدة، ويتأثر كل عضو فيه بما يصيب بقية الأعضاء أو هو كالجدار المتين الذي تجتمع لبناته لتشكل فيما بينها وحدة واحدة متماسكة متراصة .

وفي اعتقادي أن من الأمر بمكان أن تهتم الحركات الإسلامية في كل الأقطار بالأصول المهمة التي يجتمع عليها المسلمون في كل بلد، ومن ثَمَّ تجتمع عليها الأمة حتى يكون الاتحاد على أصول قوية ثابتة .

قال تعالى : ﴿ وَاعْتَصِمُوا بِحَبْلِ اللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا وَاذْكُرُوا نِعْمَتَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَاءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِ إِخْوَانًا﴾ (آل عمران: ١٠٣) .

إن طريق الوحدة والتعاون والتآخي والاجتماع على البر والتقوى طريق أهل السنة والجماعة الذين التزموا في كافة أمورهم بما كان عليه رسول الله ﷺ وأصحابه في العقائد والأخلاق والعبادة والمعاملات وكافة شئون الحياة وأهم أسس وأصول أهل السنة والجماعة هي:

الاعتصام بالكتاب والسنة، وحصر التَّلقي لأحكام الدين، أصوله وفروعه، في هذا المصدر، وأن يرد الخلاف إليهما عند التنازع، وأن لا يُعارضا بشيء من المعارضات، لا بمعقول ولا رأي، ولا قياس، ولا ذوق، ولا وجد، ولا مكاشفة، ولا منام، ولا غير ذلك[1] .

---

(١) انظر: مجموع الفتاوى (١٣/٢٨،٢٩) .

إن الكتاب والسنة همـا الميزان الذي توزن به الأقوال والأعمال والمعـتقدات . وهما الحق الذي يجب اتباعـه، وبه يحصل الفرقان بين الحق والبـاطل، وما سواه من كلام الناس يعرض عليه، فإن وافقه قبل، وإلا رُدّ على صاحبه(١) .

إن أهل السنة والجماعة يحتجون بالقرآن والسنّة، ولا يفرقون بينهما، كما هو حال أهل البـدع، فالسنة مبـينة للقرآن موضحـة له، ولا يمكن أن يستغن عنهـما بالقرآن وحـده بحال من الأحـوال، وهي حجة في العـقائد كمـا أنها حـجة في الأحكام .

فـعن أبي هريرة ﷺ قال: قـال رسـول الله ﷺ : " إن الله يرضى لكم ثلاثًا، أن تعبدوه ولا تشركوا به شيئًا، وأن تعتصموا بحبل الله جميعًا ولا تفرّقوا، وأن تناصحوا من ولاّه الله أمركم "(٢) .

إن طريق الاعتـصام بحبل الله أن نلتزم بكتـاب الله وسنة رسوله ﷺ وهذا الأصل من آكد الأصول من هذا الدين العظيم، يقول ابن تيمية - رحمه الله - : " وهذا الأصل العظيـم: وهو الإسـلام، ومما عظمت وصـيـة الله تعـالى به في كتابه، ومما عظم ذمّـه لمن تركه من أهل الكتاب وغيـرهم، ومما عظمت به وصية النبي ﷺ ، في مواطن عامّة وخاصة "(٣).

ولذلك أمر الله تعالى ورسوله ﷺ بكل ما يحـفظ على المسلمين جماعتهم وألفتهم، ونَهيا عن كل ما يعكر صـفو هذا الأمر العظيم . إن ما حصل من فرقة بين المسلمين وتدابر وتقاطع، وتناحر، بسبب عـدم مراعاة هذا الأصل، وضوابطه مما ترتب عليه تفرق في الصـفوف، وضعف في الاتحاد، وأصبحوا شـيعًا وأحزابًا كل حزب بما لديهم فرحون .

(١) المصدر السابق، (١١/٥٨٢)، (٤٦٨-١٢/٤٦٧) .
(٢) أخرجه الإمام أحمد (٢٦،٨/١) .
(٣) مجموع الفتاوى (٢٢/٣٥٩) .

وهذا الأمـر وإن كان مما قدّره الله عـز وجل كونًـا، ووقع كما قـدّر، إلا أنه سبحانه - لم يأمر به شرعًا، فوحدة المسلمين واجتماعهم مطلب شرعيٌّ، ومقصد عظيم من مقـاصد الشريعـة؛ بل من أهم أسباب التمـكين لدين الله تعالى ونحن مأمورون بالتـواصي بالحق والتواصي بالصبـر قال تعالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ لا يُغَيِّرُ مَا بِقَوْمٍ حَتَّىٰ يُغَيِّرُوا مَا بِأَنفُسِهِمْ**﴾ (سورة الرعد، الآية: ١١) .

فلا بد من تضافر الجهود بين الدعاة، وقـادة الحركات الإسلامية، وبين علماء المسلمين، وطلبـة العلم لإصلاح ذات البين إصـلاحًا حقـيقـيًّا لا تلفـيقـيًّا لأن أنصاف الحلول تفسد أكثر مما تصلح قال الشيخ السعدي - رحمه الله - : "الجهاد نوعان: جـهاد يقصـد به صلاح المسلمين، وإصلاحـهم في عقائدهم وأخـلاقهم وآدابهم، وجميع شئونهم الدينية والدنيوية، وفي تربيتهم العلمية، وهذا النوع هو الجهاد وقوامه، وعليه يتأسس النوع الثاني، وهو جهاد يقصد به دفع المعتدين على الإسلام والمسلمين من الكفار والمنافقين والملحدين وجمـيع أعداء الدين ومقاومتهم وهذا نوعان: جهـاد بالحجة والبرهان واللسان، وجـهاد بالسلاح المناسب في كل وقت وزمان "[١] .

ثم أفـرد فـصلاً بـعنوان " الجهـاد المتـعلق بالمسلـمين بقيـام الأُلفـة واتفـاق الكلمة"[٢]. وبعد أن ذكر الآيات والأحـاديث الدّالة على وجوب تعاون المسلمين ووحدتهم قال: " فـإنّ من أعظم الجهاد السّعي في تحـقيق هذا الأصل في تأليف قلوب المسلمين، واجتماعهم على دينهم ومصالحهم الدينية والدنيوية "[٣] .

ولذلك نرى أن الأخذ بالأسبـاب نحو تأليف قلوب المسلمين وتوحيـد صفهم من أعظم الجهاد، لأن هذه الخطوة مهمة جدًّا في إعزاز المسلمين وإقامة دولتهم، وتحكيم شرع ربهم .

---

(١) وجوب التعاون بين المسلمين، ص٥ .

(٢-٣) المصدر نفسه، ص٥ .

ومن أهم الأسبــاب في تحقيق هذا الهــدف المنشود أن يجتــمع المسلمون على أصول ثابتة:

أ- وحدة العقيدة :

لا يمكن أن تقوم وحدة للمــسلمين ما لم تجمعــهم عقيدة واحدة . والعــقيدة تشكل أساسًا مهــمًّا في البناء الفردي والاجتماعي وهي القــاعدة التي تقوم عليها الأعمال والعلاقــات والأخلاق، فإذا كانت العقيدة مــشوّهة أو مزورة فإن البناء لا يستقيم، ولا يستطيع أن يواجه الأعاصير والفتن حتى ينهار .

وإن العقيــدة التي تصلح لجمع شتات المسلمين هي مــا كان منبعهــا كتاب الله وسنة رســوله ﷺ ويمكن التدليل عــلى كل أصل من أصولهــا، أو جزئيــة من جزئياتها، ثم إن الــسلف الصالح الذين استقاموا على عــقيدة الإسلام الحق دوّنوا هذه العقيدة تدوينًا يميزها عن عقائد أهل الفرق والضلال[1] .

إن سلامة الاعتقاد وصحته هــي الطريق الوحيد لإقامة المجتمع المسلم المترابط المتآلف، ولا سبــيل إلى اجتماع الأمة الإسلامــية قاطبة، ووحدة صفــها، وعزّها وسعادتهــا في الدنيا والآخرة إلا بالعودة الــصحيحة إلى الإســلام الصافي النّقي، الخالص من شــوائب الشرك والبدع والأهواء والتــعصب واتباع العوائد الفــاسدة، وهذا يتطلب من كل مسلم أن ينــبذ كل المذاهب والمناهج الحادثة المخالفــة لما كان عليه سلف الأمة، وأن تكــون له عناية فائقة بمذهب السلف الصالح، وعــقيدتهم ومنهجهم .

يقول شيخ الإســلام ابن تيمية - رحمــه الله - : (وإذا تأمّل اللّبيب الفاضل هذه الأمور[2] تبين له أن مذهب الســلف والأئمة في غاية الاســتقامــة والسّداد، والصّحــة والاطراد، وأنه مقضي المعقــول الصّريح، والمنقول الصّــحيح، وأن من

---

(١) كيف تستعيد الأمة الإسلامية مكانتها من جديد؟ د. الأشقر، ص٦٩ .

(٢) الأمور: يقصد اختلاف أهل البدع في مسائل الاعتقاد.

خالفه كان مع تناقض قوله المختلف الذي يؤفك عنه من أفك خارجًا عن موجب العقل والسّمع، مخالفًا للفطرة والسّمع)[(١)].

إن طريق التمكين لا بد فيه من وحدة الصف الإسلامي، ووحدة الصف ليس لها من سبيل إلا الإسلام الصحيح . والإسلام الصحيح مصدره القرآن والسنة، والطريق لفهم القرآن والسنة هي طريق رسول الله ﷺ وأصحابه الكرام، والتابعون لهم بإحسان، ومن سار على نهجهم وطريقتهم إلى يوم الدين .

١- من القرآن الكريم:

قال تعالى : ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيراً** ﴾ (سورة النّساء، الآية: ١١٥) .

وقال تعالى : ﴿ **وَالسَّابِقُونَ الأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَاجِرِينَ وَالأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَانٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ** ﴾ (سورة التوبة، الآية: ١٠٠) .

فوعد من اتّبع غير سبيلهم بعذاب جهنم، ووعد متبعهم بالجنة والرضوان .

٢- من السنة:

عن عبد الله بن مسعود رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : " خير الناس قرّني ثم الذين يلونهم، ثم الذين يلونهم، ثم يجيء قوم تسبق شهادة أحدهم يمينه، ويمينه شهادته "[(٢)] .

٣- ومن أقوال السلف الصالح :

عن ابن مسعود رضي الله عنه : " اتّبعوا ولا تبتدعوا، فقد كُفيتم "[(٣)]. وعنه رضي الله عنه : " من كان متأسيًا فليتأسى بأصحاب رسول الله ﷺ ، فإنّهم كانوا أبرّ هذه الأمة

---

(١) مجموع الفتاوى (٥/ ٢١٢-٢١٣) .

(٢) مسلم، كتاب الصحابة، باب فضل الصحابة (٤/ ١٩٦٣) رقم ٢٥٣٣ .

(٣) أخرجه مالك في الموطأ ، كتاب الجامع : باب النهي عن القول بالقدر رقم ١٦١٩ .

قلوبًا، وأعمقها علمًا، وأقلها تكلفًا، وأقومها هديًا، وأحسنها حالاً، قوم اختارهم الله لصحبة نبيه، وإقامة دينه، فاعرفوا لهم فضلهم واتبعوهم في آثارهم، فإنهم كانوا على الهدى المستقيم"(١).

ب- تحكيم الكتاب والسنة:

إن المسلمين لا يكون لهم شأن، ولا عزٌّ، ولا نصرٌ، ولا فلاح في الدنيا، ولا نجاة في الآخرة، إلا بتحكيم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، على مستوى الأفراد، والأسر والجماعات، والقبائل، ومن ثَمَّ على مستوى الدولة عند الوصول إليها.

والأدلة القرآنية الكريمة تدل على وجوب التحاكم إلى شرع الله على مستوى المحكومين، وكذلك أمرت الحكام بذلك.

١- من القرآن الكريم:

قال تعالى: ﴿**فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ ذَلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلاً**﴾ (سورة النساء: ٥٩).

وقال تعالى: ﴿**أَفَغَيْرَ اللَّهِ أَبْتَغِي حَكَمًا وَهُوَ الَّذِي أَنزَلَ إِلَيْكُمُ الْكِتَابَ مُفَصَّلاً وَالَّذِينَ آتَيْنَاهُمُ الْكِتَابَ يَعْلَمُونَ أَنَّهُ مُنَزَّلٌ مِّن رَّبِّكَ بِالْحَقِّ فَلا تَكُونَنَّ مِنَ الْمُمْتَرِينَ * وَتَمَّتْ كَلِمَتُ رَبِّكَ صِدْقًا وَعَدْلاً لاَّ مُبَدِّلَ لِكَلِمَاتِهِ وَهُوَ السَّمِيعُ الْعَلِيمُ**﴾ (الأنعام: ١١٤، ١١٥).

وقال تعالى: ﴿**وَمَا اخْتَلَفْتُمْ فِيهِ مِن شَيْءٍ فَحُكْمُهُ إِلَى اللَّهِ ذَلِكُمُ اللَّهُ رَبِّي عَلَيْهِ تَوَكَّلْتُ وَإِلَيْهِ أُنِيبُ**﴾ (سورة الشورى: ١٠).

٢- ومن السنة:

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال: خطب رسول الله ﷺ في حجة الوداع فقال:

---

(١) حلية الأولياء (١/ ٣٧٩).

"يا أيها الناس : إني قد تركت فيكم ما إن اعتصمتم به فلن تضلوا أبدًا ، كتاب الله وسنتي "(١) .

٣- ومن أقوال السلف:

قال ابن تيمية - رحمه الله - : (وكان من أعظم ما أنعم الله به عليهم - أي السلف الصالح - اعتصامهم بالكتاب والسنة ، فكان من الأصول المتفق عليها بين الصحابة والتابعين لهم بإحسان ، أنه لا يقبل من أحد قط أن يُعارض القرآن ، لا برأيه ولا بذوقه ، ولا معقوله ، ولا قياسه ، ولا وجده ، فإنهم ثبت عنهم بالبراهين القطعيات والآيات البينات أن الرسول ﷺ ، جاء بالهدى ودين الحق ، وأن القرآن يهدي للتي هي أقوم)(٢).

إن حرص كل مسلم على تحكيم شرع الله تعالى على نفسه وأسرته ومجتمعه خطوة أصيلة نحو وحدة الأمة والاقتراب من نصر الله تعالى ، كما أن للتحاكم إلى شرع الله تعالى آثار دنيوية وأخروية .

الآثار الدنيوية: الاستخلاف والتمكين ، والأمن والاستقرار ، والنصر والفتح ، والعز والشرف ، وبركة العيش ورغد الحياة والهداية والتثبيت ، وانتشار الفضائل وانزواء الرذائل .

أما الآثار الأخروية: المغفرة وتكفير السيئات ، والثواب العظيم عند الله تعالى ، والحياة الحقة الدائمة ، وعلو المنزلة ومعية التكريم .

جـ - صدق الانتماء إلى الإسلام:

ومن الأصول المهمة في توحيد صفوف المسلمين أن يجتهد الدعاة إلى الله في تحصين المسلمين من المناهج والنظريات والدعوات الأرضية التي تفتن أصحابها في

---

(١) مسلم، كتاب الحج ، باب حجة النبي ﷺ (٢/٨٩٠) رقم ١٢١٨ .

(٢) مجموع الفتاوى (١٣/٢٨) .

تزويقها وتزيينها، وكانت سببًا مهمًّا في تشتيت ولاء المسلمين وفقد كثير من أبناء المسلمين هويتهم، ومسخ شخصيتهم بفعل التضليل المستمر الذي يمارسه شياطين الإنس والجن بمختلف الوسائل، ومن أسباب جمع صفوف الأمة وتحقيق الوحدة بينها الدعوة إلى الالتزام بالإسلام عقيدة وشريعة ومنهج حياة، والاعتزاز بالانتساب إلى هذا الدين، ونبذ كل ما يخالفه ويضادّه .

إن الإسلام منهج حياة، والعبودية لله معلم كبير في حياة المسلم والمسلمون وفق هذا المنهج والفهم يشكّلون أمة واحدة في مقابلة التجمعات البشرية .

والمسلم الصادق يعتز بالانتساب إلى الإسلام : ﴿**وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلاً مِّمَّن دَعَا إِلَى اللَّهِ وَعَمِلَ صَالِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ الْمُسْلِمِينَ**﴾ (سورة فصلت : ٧٣) . نصّ المولى عز وجل على أنَّ أفضل الناس هم الذين يعلنون انتسابهم إلى الإسلام .

وكثير من المسلمين اليوم فقدوا انتماءهم، فأخذوا يبحثون عن عقائد ومذاهب وأقوام ينتسبون إليها، ألا وهي الإسلام، لا راية الأوطان ، أو الأقوام أو الأحزاب، أو التجمعات الضالة . والتوحيد والانتساب إلى الإسلام ملة إبراهيم عليه السلام : ﴿**ثُمَّ أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ أَنِ اتَّبِعْ مِلَّةَ إِبْرَاهِيمَ حَنِيفًا**﴾ (سورة النحل، آية : ١٢٣) .

د- طلب الحق والتحري في ذلك :

إن هذا الأصل العظيم ألا وهو طلب الحق والتحري للوصول إليه يقوي وحدة صف العاملين لتحكيم شرع الله وهي من أهم سمات الربانيين الذين صفت نفوسهم وتطهرت قلوبهم بكتاب الله وسنة رسوله ﷺ .

إن الله تعالى في كتابه الكريم، بين أنه لا توجد منزلة ثالثة بين الحق والباطل فقال سبحانه : ﴿**فَمَاذَا بَعْدَ الْحَقِّ إِلاَّ الضَّلالُ**﴾ (سورة يونس ،الآية : ٣٢) .

قال القرطبي -رحمه الله - : " قال علماؤنا : حكمت هذه الآية بأنه ليس بين الحق والباطل منزلة ثالثة في هذه المسألة التي هي توحيد الله تعالى ،

وكذلك هـو الأمـر في نظائرها، وهي مسـائل الأصول فـإن الحق فيهـا في طرف واحد"[١] .

والحق لا بدّ فيـه من اليقين، ولا يكفي فيـه مجرد الظنّ، قـال تعالى: ﴿ **إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِمَا يَفْعَلُونَ**﴾ (سورة يونس، الآية: ٣٦) .

قال ابن كثير : " أي لا يُجدي شيئًا ولا يقوم أبدًا مقام الحق "[٢] . وقد عدّ النبي ﷺ ردّ الحق وعـدم قبوله، من الـكبر الذي هو من أشنع الخـصال وأردأ الفعال .

قال رسول الله ﷺ : " الكبر بَطر الحق وغمط الناس "[٣].

إن بطر الحق هو دفعه وإنكاره ترفعًا وتكبرًا واسـتعلاءً، وأما غمط الناس فهو احتقارهم .

إن الحق هو ما دلت عليه نصوص الكتـاب والسنة، وعلى كل مسلم أن يتبع كل دليل شرعي علمه وتبيّنه قال تعالى : ﴿**فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلا هُمْ يَحْزَنُونَ**﴾ (سورة البقرة، الآية: ٣٨) .

ومن أهم الوسائل التي تعين على طلب الحق والتـحري في ذلك، تقوى الله عز وجل، والإخلاص والتجرد، واللجوء إلى الله عز وجل والافتقار إليه، وتدبر الكتاب والسنة، واتباع سبيل السابقين الأولين، والصحبة الطيبة .

هـ- تحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين:

إن من الأصـول العظيمـة التي تحقق وحـدة الصف وقوة التـلاحم، ومتـانة التماسك بين أفراد المسلمين تحقيق الأخوة في أوساطهم ، إن الأخوة منحة من الله

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٨/ ٣٣٦) .

(٢) تفسير القرآن العظيم (٤/ ٢٥٥) .

(٣) مسلم، كتاب الإيمان ، باب تحريم الكبر (١/ ٦٥) .

عز وجل، يعطيها الله للمخلصين من عباده والأصفياء والأتقياء من أوليائه وجنده وحزبه .

قال الله تعالى : ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (الأنفال: ٦٢-٦٣) .

وهي قوة إيمانية تورث شعوراً عـميقًا بعاطفة صادقة ومـحبة وود، واحترام، وثقة متبادلة، مع كل من تربطنا بهم عقيدة التوحيد ومنهج الإسلام الخالد، يتبعها ويستلزمـها، تعاون وإيثـار ورحمة وعـفو وتسامح، وتكافل وتآزر وهي مـلازمة للإيمان قال تعالى : ﴿إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ﴾ (الحجرات : ١٠).

ولا يذوق حلاوة الإيمان إلا من أشرب هذه الأخـوّة: قال رسول الله ﷺ : " ثلاث من كن فـيه وجـد حلاوة الإيمـان، أن يكون الله ورسوله أحب إليـه مما سواهما، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله، وأن يـكره أن يعود في الكفر كما يكره أن يقذف في النار "[1].

إن القرآن الـكريم يرسم لنا صورة جـميلة لأصـحاب رسـول الله ﷺ قال تعالى : ﴿مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ تَرَاهُمْ رُكَّعًا سُجَّدًا يَبْتَغُونَ فَضْلاً مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا سِيمَاهُمْ فِي وُجُوهِهِم مِّنْ أَثَرِ السُّجُودِ﴾ (سورة الفتح، الآية: ٢٩) .

إن القرآن الكريم حين وضع بين دفتيه هذه الصورة، إنما يخبرنا بتكريم الله عز وجل فهم ﴿أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ﴾

أشداء علـى الكفار ولو كان فـيهم الآباء والقـرابة والأبناء . رحمـاء بينهم، وهذه الأخوة في الحق، أخوة في الدين، إن الأخوة في الله من أهم الأسباب التي

---

(١) البخاري، كتاب الإيمان، باب حلاوة الإيمان (١/ ١١) .

تعمل على الصمود في وجه أعتى المحن التي تنزل بالمسلمين ، كما أن الفهم المتبادل والكامل للأخوة في الله من أسباب تماسك صفوف المسلمين وقوتهم ومن أسباب شموخهم والتمكين لهم[(١)] إن النبي ﷺ اعتمد على معاني الأخوة وعمل على تحقيقها وجعلها من الوسائل المهمة في بناء المجتمع الإسلامي والدولة الإسلامية ، وإن أهمية هذا الأساس تظهر في الجوانب التالية :

١ - إن أي دولة لا يمكن أن تنهض وتقوم إلا على أساس من وحدة الأمة وتساندها . ولا يمكن لكل من الوحدة والتساند أن يتم بغير التآخي والمحبة المتبادلة ، فكل جماعة لا تؤلف بينها آصرة المودة والتآخي الحقيقية ، لا يمكن أن تتحد حول مبدأ ما . وما لم يكن الاتحاد حقيقة قائمة في الأمة أو الجماعة ، فلا يمكن أن تتألف منها الدولة . على أن التآخي لابد أن يكون مسبوقًا بعقيدة يتم اللقاء عليها والإيمان بها ، فالتآخي بين شخصين يؤمن كل منهما بفكرة أو عقيدة مخالفة للأخرى خرافة ووهم . خصوصًا إذا كانت تلك الفكرة أو العقيدة مما يحمل صاحبها على سلوك معين في الحياة العملية ومن أجل ذلك فقد جعل رسول الله ﷺ أساس الأخوة التي جمع عليها أفئدة أصحابه ، العقيدة الإسلامية التي جاء بها من عند الله تعالى والتي تضع الناس كلهم في مصاف العبودية الخالصة لله تعالى دون الاعتبار لأي فارق إلا فارق التقوى والعمل الصالح . إذ ليس من المتوقع أن يسود الإخاء والتعاون والإيثار بين أناس شتتهم العقائد والأفكار المختلفة فأصبح كل منهم ملكًا لأنانيته وأهوائه .

إن المجتمع - أي مجتمع - إنما يختلف عن مجموعة ما من الناس منتشرة متفككة بشيء واحد هو قيام مبدأ التعاون والتناصر فيما بين أشخاص هذا المجتمع ، وفي كل نواحي الحياة ومقوماتها ، فإن كان هذا التعاون والتناصر قائمين دون ميزان العدل والمساواة فيما بينهم ، فذلك هو المجتمع الظالم المنحرف .

---

(١) انظر : رسالة التعاليم د . محمد عبد الله الخطيب ص٢٩٦ .

وإذا كان المجتمع المسلم إنما يقوم على أساس من العدالة في الاستفادة من أسباب الحياة والرزق، فما الذي يضمن سلامة هذه العدالة وتطبيقها على خير وجه؟ .

إن الضمانة الطبيعية والفطرية الأولى لذلك، إنما هي التآخي والتآلف .

إن تحقق مبادئ العدالة والمساواة بين الأفراد، فإنها لا تتحقق ما لم تقم على أساس من التآخي والمحبة فيما بينهم، بل إن هذه المبادئ لا تعدو أن تكون حينئذ مصدر أحقاد وضغائن تشيع بين أفراد ذلك المجتمع ومن شأن الأحقاد والضغائن أن تحمل في طيها بذور الظلم والطغيان في أشد الصور والأشكال .

من أجل هذا: اتخذ رسول الله ﷺ من حقيقة التآخي الذي أقامه بين المهاجرين والأنصار أساسًا لمبادئ العدالة الاجتماعية التي قام على تطبيقها أعظم وأروع نظام اجتماعي في العالم . ولقد تدرجت مبادئ هذه العدالة فيما بعد بشكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة .

ولكنها كلها إنما تأسست وقامت على تلك " الأرضية " الأولى . ألا وهي الأخوة الإسلامية ولولا هذه الأخوة العظيمة التي تأسست بدورها على حقيقة العقيدة الإسلامية لما كان لتلك المبادئ أي أثر تطبيقي وإيجابي في شد أزر المجتمع الإسلامي ودعم كيانه[1] .

لم يكن ما أقامه الرسول ﷺ بين أصحابه من مبدأ التآخي مجرد شعار في كلمة أجراها على ألسنتهم، وإنما كان حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين، ولذلك جعل النبي ﷺ من هذه الأخوة مسئولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الأخوة وكانت هذه المسئولية محققة فيما بينهم على خير وجه، لقد كانت رابطة الأخوة بين الصحابة الكرام من أسباب قوتهم ونصرة الله لهم .

---

(١) انظر: فقه السيرة د . البوطي ص٢٠١

إن مناط الأخوة وأساسها، إنما هو رابط الإسلام وعقيدته الصحيحة وهي من أهم أسباب وحدة الصف، وقوة البنيان بين أفراد الأمة المسلمة التي تسعى لتحكيم شرع الله تعالى، كما لا ننسى أن من أسبـاب وحدة صفوف الأمة، العلم النافع، والإخلاص، وتجـريد المتابعـة، وغير ذلـك من الأسباب المعنوية الـتي جاءت في كتاب الله وسنة رسوله ﷺ لتـوحيد صفوف الأمة إلا أنني ذكرت أهمـها خوفًا من الإطناب والإطالة .

إن التحـابب بين المسلمين والحرص على روابط الأخـوة المستـمدة من الإيمان والعقيدة سر قوة الأمة، ومفتاح نجاحها .

* ■ *

المبحث الثالث
الأسباب المادية

بعد أن بينت أهم أسباب التمكين المعنوية رأيت من المناسب أن أتطرق إلى الأسباب والوسائل المادية المهمة، من تدريب، وإعداد عدة، وتوفير كوادر في كافة مناشط الحياة، وهذا يحتاج إلى تخطيط وإدارة واعية، وتنظيم متين يشرف على إعداد خطة بينة المعالم، محددة الأهداف، متطورة المناهج، شرعية في أسبابها ووسائلها، لا تعتمد على الأشخاص والأفراد وإنما تهتم بنظام المؤسسات حتى يستمر النشاط ويتطور ويراعى الوصول إلى المعلومات الصحيحة، والإحصاءات الدقيقة، وتعتمد الدراسات والإمكانات، والتحليلات العلمية، والمقارنات الموضوعية والإمكانات المادية والبشرية القائمة والمحتملة، وتدرس جميع العوائق المادية والمعنوية، الداخلية والخارجية، الواقعية والمتوقعة، دون تهويل أو تهوين ويشرف على وضع هذه الآفاق والخطط البعيدة جهاز متخصص متكامل من خبراء متمكنين، متنوعي الثقافة يكمل بعضهم بعضًا، يستعينون بكل من يرون الاستفادة منه برأي أو معلومة، من أفراد أو أجهزة أو لجان متخصصة ومن الضروري بمكان أن تهتم الحركة بمبدأ التفرغ، والتخصص، ومراكز المعلومات وبالإعداد المادي، والأمني والسياسي والإعلامي والعسكري .

أولاً : التفرغ، والتخصص، ومراكز البحوث:

أ- التفرغ : إن من أسباب التمكين لهذا الدين والانطلاق بدعوة الله بين الناس أن تهتم الحركات الإسلامية على المستوى القطري، والإقليمي والدولي بمبدأ التفرغ لأصحاب القدرات المتميزة في المواقع المهمة وخصوصًا في مجال العلم والفكر، ومجال التربية والتكوين، ومجال الدعوة والإعلام، ومجال السياسة والتخطيط، ومجال الاقتصاد والمال، ومجال الأمن والاستخبارات، وكافة مجالات الحياة اللازمة لتحكيم شرع الله على كافة أفراد الشعب ومؤسسات الدولة .

إن الأعمال العظيمة تحتاج إلى أوقات كبيرة وجهود ضخمة وهمم عالية؛ ولذلك تضطر الحركة الإسلامية إلى مبدأ التفرغ مع التنوع والتكامل، حتى تُسد كل الثغرات في العمل الإسلامي، ولا يقع تركيز في جانب فيتضخم على جانب آخر فيهمل، ولابد من توفير المال اللازم لهذه المشاريع لأنها من أعظم القربان إلى الله تعالى كما يجوز أخذ مال الزكاة أو الصدقة أو الوقف أو الوصية أو الهبة أو الهدية لسد هذه الثغرات المهمة .

كما ينبغي توفير كل ما يحتاجه المتفرغ وذويه من الأجر الكافي حتى يتفرغ للعطاء والبذل مع مراعاة عدم الإسراف والبذخ ولابد من الخوف من الله تعالى عند اختيار المتفرغ بحيث يوضع الرجل المناسب في المكان المناسب دون محاباة لعمرو أو زيد[1]، قال تعالى: ﴿إِنَّ خَيْرَ مَنِ اسْتَأْجَرْتَ الْقَوِيُّ الأَمِينُ﴾(القصص: ٢٦) .

ب- إعداد المختصين : من الضرورات اللازمة التوجه لإعداد متخصصين في جوانب الحياة كافة، إن عصرنا في حاجة شديدة للتخصص الدقيق، فإن الذكاء وحده والعقل اللمعي وحده لا يكفي، والمواهب وحدها لا تكفي، والموسوعية في كل فن، والإفتاء في كل علم لا يفيد .

فالذي يفيد الدراسة العلمية المتخصصة، القادرة على أن تساير العصر، وتلبي الحاجة، وتتقن العمل الذي يُسند إليها وهذا الإحسان أو الإتقان لا يتم في عصرنا إلا بالتخصص، وما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

يقول الدكتور القرضاوي في هذا الباب: (خذ مثلاً موضوعًا كالإعلام، وما يتطلبه من تخصصات متنوعة إن كتابة النص علم، وكتابته في صورة حوار علم، وإخراجه علم، وأداؤه وتنفيذه علم، وتسويقه علم، والإخراج الإذاعي غير الإخراج التلفزيوني، غير الإخراج المسرحي . . .)[2].

---

(١) انظر: أولويات الحركة الإسلامية للقرضاوي ص١٩٣ .

(٢) انظر: أولويات الحركة الإسلامية للقرضاوي ص١٩٥ .

إن الحركات الإسـلامية غنية بالنوابغ والقدرات والكفـايات القادرة على أسلحة كافة المواقع الحياتية والمفصلية في الحيـاة وتحتاج إلى ترتيب أولوياتها وتوجيه طاقاتها بحيث لا تتكدس ولا تتراكم النوابغ في مجـالات الهندسة والطب والصيدلة ، وإنما تتوزع على مواقع أخر في الدراسات الإنسانية والاجتماعية من علوم النفس والتربية والاجتماع والاقتصاد والعلوم السياسية بحيث تدخل أدمغت الحركات الإسلامية في صميم مجتمعاتها ولا تترك أي مجال حيوي يأثر في الحياة الإنسانية .

إن مبدأ التـخصص يعين الحركات الإسلامـية على سد الثغـرات المتعددة في جوانب الحياة المتنوعة والتي لا بد من دخولها من أجل التمكين لدين الله تعالى.

إن اليهـود والنصارى والملاحـدة تسابقـوا للهيـمنة على الدراسات الإنسـانية والاجتماعـية من علوم النفس والتربية والاقتـصاد، والعلوم السياسيـة والإعلامية والاقتصادية لعلمهم أن ذلك يمكنهم من الصدارة في توجيه الأمم والمجتمعات ولم يتركوا حتى مجال الأدب والقصة والنقد[1] . إلخ .

جـ - الاهتمام بمراكز المعلومات والبحوث:

إن الاهتمام بمراكز البحوث وتطوير مراكـز المعلومات من أهم حاجات العصر وأولوياته وإسناد هذه الأمور إلى متخصصين ذوي كفاءات عالية تشرف على تسيير أجهزة متطورة تلائم العصر وتطوراته واحتياجاته ومشاكله وهمومه .

لقد تعددت مصـادر المعلومات والثقافات، وتقدمت وسائل الحـصول عليها، ووســائل تخزينها ثم تصنيفها، ثم الاسـتفادة منها عند الحاجة والفائدة، ولذلك لا بد من الاستـفادة منهـا حتى نملك مـعلومات كـافيـة عن أعدائنا، وأصدقـائنا وأنفسنا .

ولقد سـاهمت بعض المراكز في توعـية الأمـة وترشيدها وتوضـيح الأخطار المحيطة بها وعالجت بعض المشاكل الواقعة فيها ومن هذه المراكز:

---

(١) نفس المصدر السابق .

١- معهد الدراسات السياسية في باكستان:

تأسس المعهد في إسلام آباد عام ١٣٩٩هـ - ١٩٧٩م مع بداية القرن الخامس عشر الهجري، ليكون أول معهد من نوعه في العالم الإسلامي لتبني قضايا الأمة الإسلامية ووحدتها، وهو معهد بحثي تدريبي يقوم بالبحوث والدراسات التي تتعلق بالسياسات العامة ورسم الاستراتيجيات .

قام المعهد بحوارات متخصصة حول القضية الأفغانية والنظام العالمي الجديد والحكومة السودانية والقضية الفلسطينية، والأخطار المحدقة بباكستان، وعقد ندوات ومؤتمرات لخدمة قضايا الأمة في المحيط المحلي والإقليمي والعالمي .

كما ضم المعهد العديد من الوحدات والأقسام أهمها: وحدة الشئون العالمية، للعالم الإسلامي، وحدة الشئون الاقتصادية، دراسات المرأة، التعليم، تنمية الموارد البشرية، الشئون الباكستانية والكشميرية، القسم العربي، وحدة المعلومات .

أصدر هذا المعهد تقريراً سياسيًّا أسبوعيًّا (قضايا دولية) ساهم في رفع مستوى الوعي السياسي بين أفراد الأمة .

٢- مركز البحوث والدراسات في قطر :

تشرف وزارة الأوقاف والشئون الإسلامية في قطر عليه ويهتم بتشجيع العلماء والباحثين الذين يهتمون بمعالجة قضايا الحياة المعاصرة، ومشكلاتها، ويهتمون بالتحصين الثقافي والتغيير الحضاري، وترشيد الصحوة في ضوء القيم الإسلامية، واستطاع المركز أن يقدم للأمة مجموعة من البحوث اتسمت بالأصالة، والإحاطة والموضوعية والمنهجية وأضافت هذه البحوث شيئًا جديدًا للقارئ المسلم وأصدرت هذه البحوث في كتب نافعة تحت سلسلة كتاب الأمة ساهمت مساهمة فعلية في توجيه أبناء الأمة نحو الخير والرشاد والسداد ومن أهم هذه الكتب:

١- مشكلات في طريق الحياة الإسلامية، لمحمد الغزالي .

٢- الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، د . يوسف القرضاوي .
٣- حول إعادة تشكيل العقل المسلم، د . عماد الدين خليل .
٤- الاستشراق والخلفية الفكرية للصراع الحضاري، د . محمود حمدي .
٥- الحرمان والتخلف في ديار المسلمين، د . نبيل صبحي الطويل .
٦- البنوك الإسلامية، د . جمال الدين عطية .
٧- المدخل إلى الأدب الإسلامي، د . نجيب الكيلاني .
٨- إخراج الأمة المسلمة وعوامل صحتها ومرضها، د . ماجد عرسان .
٩- اليهود والتحالف مع الأقوياء، د . نعمان السامرائي .
١٠- وثيقة مؤتمر السكان والتنمية، د . الحسيني جاد .
١١- في الغزو الفكري، د . أحمد السايح .
١٢- الصياغة الإسلامية لعلم الاجتماع ، منصور زويد .
١٣- المسلمون في السنغال، معالم الحاضر وآفاق المستقبل للأستاذ عبد القادر محمد سيلا .
١٤- المخدرات من القلق إلى الاستعباد، د. محمد الهواري . وغير ذلك من الكتب النافعة، والمؤصلة التي أفادت الأمة .

إن هذه الدراسات المنهجية المدروسة والتي يقوم عليها أهل التخصص لها أثرها في نهضة الأمة والأخذ بيدها نحو الرقي والتقدم والأزدهار والتمكين لدين الله تعالى .

٣- مركز الدراسات الاستراتيجية في السودان:

أصدر هذا المركز كتاب الاستراتيجية القومية الشاملة (١٩٩٢-٢٠٠٢م) ودل الكتاب على جهد مشكور، وعمل متواصل، وإحكام دقيق من حيث التخطيط ووضوح الأهداف، وبيان الوسائل، وتحديد المراحل لكافة شئون الدولة الإسلامية في السودان فمثلاً

- وضع المركز أبحاثًا قيمة في قطاع التنمية الاجتماعية واهتم بالجوانب الأخلاقية وبالرقي الاجتماعي، والرعاية الاجتماعية، ورعاية الطفولة، والشباب، والمرأة، والتكافل، والعمل التطوعي والخيري، والتعليم العالي، والتعليم العام، والتخطيط العمراني والإسكان، وتنمية السياحة والرياضة والبيئة .

ولقد ظهرت آثار طيبة في المجتمع السوداني بفضل الله ثم بالجهود المشكورة والتخطيط السليم الذي أشرف على تنفيذه أبناء المسلمين في السودان، فقطعت أشواط في توسيع التعليم وإنشاء الجامعات وظهرت الخدمات الاجتماعية لكافة قطاعات الشعب مع ما تمر به الدولة من تضييق عالمي ومحاربة علنية لمشروعها الحضاري الإسلامي الذي قامت من أجله .

- وفي قطاع الثقافة والإعلام، بيَّن المركز الأهداف والأدوار والأدوات والمراحل اللازمة للسياسة الثقافية، وتشريعاتها معتمدين في ذلك على التخطيط الحديث والعبقرية الإسلامية والعقلية الإيمانية واستطاع الإعلام في السودان أن يحقق بعض أهدافه وكانت له مساهمات واضحة في إحياء روح الجهاد وكشف مخططات الأعداء بواسطة وكالات الأنباء وشبكات الاتصال ومجال الإعلام الالكتروني والإعلام الداخلي والخارجي .

- أما في مجال العلوم والتقنية، فبين المركز المواجهات والأهداف ومراحل التنفيذ والوسائل من معلومات وبحوث ومؤسسات وطاقات بشرية، ونظم قانونية، وإمكانات مادية، وبرمج ذلك في برامج واضحة المعالم .

وظهرت للوجود الكوادر السودانية في مجال النفط والتنقيب عن المعادن، وأصبح السودان ينتج النفط وبعد قليل بإذن الله تعالى سيصدره .

- أما قطاع السياسة والنظام العالمي، فقد وضح معنى الحكم الاتحادي والنظام السياسي، والعمل النقابي والفئوي، والنظام العدلي، وتعرض للجبهة الداخلية الجنوبية ومحاور التحرك لتحقيق السلام ووضع خطة لإعادة التأهيل والاستيعاب والتعمير لأبناء الجنوب .

وبفضل الله تعالى ثم بالتخطيط السليم استطاع السودان أن يفشل مخططات الأعداء وأن يقطع شوطًا بعيدًا في قضاياه السياسية والداخلية، وظهر من أبنائه أداءٌ سياسي متميز ونبوغ فذ أقنع الأصدقاء والأعداء بقدرتهم في إدارة اللعبة السياسية .

- وفي قطاع العلاقات الخارجية، تعرض المركز للتغييرات السياسية الدولية للعقد المقبل، وطبيعة القوى السياسية في الحياة الدولية، وتوازن المصالح وتوازن القوى، ووضع الأهداف العليا لسياسة السودان الخارجية في السياسة الإقليمية والدولية، وتعرض للمواجهات وللوسائل في تحقيق العلاقات الخارجية، ووضع خطط وبرامج لتدعيم وزارة الخارجية، وتطوير الوزارة في مجالاتها البشرية والمادية وأجهزتها ومعداتها .

وحقق السودان بفضل الله تعالى انتصارات رائعة في السياسة الدولية واستطاع أن يعقد علاقات متينة مع دول قوية مثل الصين، وروسيا، وفرنسا، كما استطاع أن يشكل علاقات حيوية مع جنوب إفريقيا، ونيجيريا وغيرها من الدول الإسلامية والعربية والآسيوية والإفريقية .

إن السودان اليوم يمثل تجربة رائعة وفريدة من نوعها لأنصار المشروع الإسلامي الحضاري، وسوف نتعرض للتجربة السودانية عند تكلمنا عن مراحل التنفيذ واختيار الإسلاميين لخيار القوة في الوصول للحكم .

- أما في قطاع الأمن والدفاع، فبين المواجهات والأهداف، ووضع المبادئ الأساسية للشرطة، والبرامج الرئيسة في مجال منع الجريمة واكتشاف ما يقع منها، ووضع قانونًا للأوراق الثبوتية والهجرة وتأهيل رجال الشرطة على مستوى الضباط، وضباط الصف، وتزويدهم بكافة الوسائل الحديثة لأداء مهمته على أكمل وجه .

إن الشعب السوداني بكافة فصائله عندما يقارن بين الحالة الأمنية في عهد

الإنقاذ ومن قبلهم يسلم بأن الدولة الإسلامية استطاعت بفضل الله أن تحقق الأمن والسلامة لمواطنيها والفضل ما شهدت به الأعداء .

إن من أهم الأسباب المادية التي يجب علينا أن نهتم بها في عملنا الدءوب لتمكين دين الله الاهتمام بالتفرغ وإعداد المتخصصين ، وإنشاء المراكز التي تهتم بالأبحاث والعلوم .

ثانيًا : التخطيط والإدارة:

إن التخطيط السليم والإدارة الناجحة في العمل الإسلامي من الأسباب الأكيدة في التمكين لدين الله تعالى ، ولقد عرّف بعض الباحثين التخطيط بأنه "جسر الحاضر والمستقبل "(١) .

إن التخطيط في المفهوم القرآني هو الاستعداد في الحاضر لما يواجه الإنسان عمله أو حياته في المستقبل ، وعلى هذ فإن الإداري المسلم يكون قد عرف التخطيط لأن الله تبارك وتعالى قد وجه إلى ذلك في آيات كثيرة .

قال تعالى : ﴿**وَابْتَغِ فِيمَا آتَاكَ اللَّهُ الدَّارَ الآخِرَةَ وَلا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ الدُّنْيَا**﴾ (القصص : ٧٧) .

إنه توجيه رباني للتخطيط في هذه الدنيا لمقابلة مصير الآخرة وقال تعالى : ﴿**وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ . . .**﴾ (الأنفال : ٦٠) .

يقول الدكتور عبد الرحمن الضحيان : (هذه الآية دعوة للإدارة الإسلامية بالعمل والتخطيط والاستعداد بقوة لمواجهة أمر مستقبلي قد يحدث لدار الإسلام وأمته ، والقوة هنا تفهم بمفهوم العصر ، فقد تفهم بالقوة البدنية ، وذلك ببناء الرجال الأشداء الأقوياء في إيمانهم وأبدانهم وقوة السلاح بكل أنواعه ، وحسب ما تخرجه المصانع من أنواع الأسلحة حتى القوة والطاقة الذرية وذلك ببناء المصانع

---

(١)التخطيط والرقابة أساس نجاح الإدارة د .عبد الفتاح دياب حسين ص٩٧ .

النووية الإسلامية وحمايتها من ضرب الأعداء لها ، وذلك كله لإرهاب عدو الله وأعداء الإنسانية وحماية دار الإسلام من الأعداء . كما في آية ﴿ وَأَعِدُّوا لَهُم﴾ مفهوم التخطيط الطويل الأجل الذي يجب أن تأخذ به الدولة الإسلامية وإدارتها الحكيمة حتى تحمي شوكة وقوة الإسلام)[١] إن الأمثلة في القرآن الكريم على أهمية التخطيط كثيرة فمنها:

أ- يوسف عليه السلام:

ضرب القرآن الكريم مثلاً للتخطيط السليم الذي قام على أسس منطقية فأمكن بذلك تلافي مجاعة كانت تهدد الناس جميعًا بالهلاك -بسبب التخطيط السليم الذي قام به يوسف عليه السلام وهو أمين على الخزائن - وذلك حين فسر الرؤيا التي جاءت على لسان ملك مصر في قوله تعالى : ﴿**وَقَالَ الْمَلِكُ إِنِّي أَرَىٰ سَبْعَ بَقَرَاتٍ سِمَانٍ يَأْكُلُهُنَّ سَبْعٌ عِجَافٌ وَسَبْعَ سُنْبُلَاتٍ خُضْرٍ**﴾ (سورة يوسف: الآية: ٤٣) وتولى يوسف عليه السلام تفسير الرؤيا فقال : ﴿**تَزْرَعُونَ سَبْعَ سِنِينَ دَأَبًا فَمَا حَصَدتُّمْ فَذَرُوهُ فِي سُنبُلِهِ إِلَّا قَلِيلًا مِّمَّا تَأْكُلُونَ**﴾ (سورة يوسف: ٤٧) .

إن يوسف عليه السلام فسر الرؤيا وزاد عليها أن قدم خطة عملية تستغرق القطر كله والشعب المصري كله، أي إن خطته اعتمدت على التشغيل الكامل للأمة والبرمجة الكاملة للوقت، ثم التشغيل الكامل لطاقة كل فرد في الأمة، وهذا الذي أراده يوسف عليه السلام وعبر عنه بقوله تزرعون، إن الذي يخطط له يوسف عليه السلام هو مضاعفة الإنتاج وتقليل الاستهلاك، لأن الأزمات والظروف الاستثنائية تحتاج إلى سلوك استثنائي، ولأن سلوك الناس في الأزمات غير سلوكهم في الظروف العادية، استرخاء وبطالة، فإن هذه الأمة تكون في حالة خلل خطير يحتاج إلى علاج ومعالج خبير[٢] .

---

(١) انظر: الإدارة في الإسلام نقلاً عن التخطيط والرقابة أساس نجاح الإدارة ص٩٧ .

(٢) انظر: سورة يوسف دراسة تحليلية د. أحمد نوفل ص٤٠٩ .

إن يوسف عليه السلام قسم خطته إلى ثلاث مراحل:

١- تزرعون سبع سنين دأبًا

٢- ثم يأتي من بعد ذلك سبع شداد

٣- ثم يأتي عام يغاث فيه الناس

وتظهر ملامح هذه الخطة في الآتي:

١- الطابع الغالب على المرحلة الأولى هو، الإنتاج والادخار مع استهلاك محدود، فيوسف عليه السلام حدد خطط الإنتاج بالزراعة وحدد استمرار الإنتاج الزراعي سبع سنين العمل فيها دائب لا ينقطع، ومع هذا الجهد الكبير في الإنتاج المستمر كان هناك تحديد واضح للاستهلاك يبدو في قوله: "إلا قليلاً مما تأكلون" وأمر يوسف بحفظ السنابل المخزونة من الغلال كاملة كما هي (فذروه في سنبله) .

٢- فإذا ما انتهت سنوات الإنتاج السبع، بما فيها من جهد متصل دائب، واستهلاك محدود كان على الخطة أن تقابل تحديًا ضخمًا هو توفير الأقوات سبع سنين عجاف، وبعبارة أخرى: بعد الإنتاج والجهد الدائب في المرحلة الأولى سيأتي تحمل أيضًا في المرحلة الثانية وهو تحمل يحتاج إلى تنظيم دقيق يصل فيه الطعام إلى كل فم .

٣- ومع هذا التحمل والتنظيم الدقيق، ينبغي ألا تأتي هذه السنوات العجاف على كل المدخرات، وإنما كان يوسف عليه السلام واضحًا في قوله إلا قليلاً مما تحصنون، فكان هذا الجزء المدخر هو " الخميرة " التي تستطيع بها الأمة أن تقابل متطلبات البذر الجديد بعد السنوات العجاف، أي إعادة استثمار المدخرات .

كان على يوسف عليه السلام أن يوازن بين ثلاثة جوانب، الأول الإنتاج، والثاني الاستهلاك، والثالث الادخار، وأن يعيد استثمار المدخرات .

ومن طبيعة التطور أن تختلف: " تفاصيل الصورة " ولكن أساسها سيظل قائمًا عميقًا في ديننا وتراثنا . .[1] .

---

(١) مواقف إسلامية د . عبد العزيز كامل ص(٨٣-٨٦) .

وتظهر معالم التخطيط والإدارة في كلمات يوسف عليه السلام حيث إن التخطيط يعتبر وظيفة أساسية من وظائف الإدارة التي لا يمكن لها أن تكون فعّالة بدونها، كما أن التخطيط في حقيقته يعتمد على دعامتين وخمسة عناصر، أما الدعامتان فهما: التنبؤ والأهداف، وأما العناصر فهي: السياسات والوسائل والأدوات والموارد المادية والبشرية والإجراءات والبرامج الزمنية، والموازنة التخطيطية التقديرية[1].

إن كتب علم الإدارة والتخطيط الحديث تقول إنه لا إدارة فعالة إلا بتنظيم ووفق تخطيط سليم مسبق وهذا عين الذي زاوله يوسف عليه السلام. لقد جاء الحكم يوم جاء وبرنامجه الإصلاحي السياسي والاقتصادي والاجتماعي والثقافي والتربوي والإعلامي والزراعي كل ذلك في ذهنه قد أعد إعدادًا كاملاً دقيقًا.

إن دعامتا التخطيط: التنبؤ، والأهداف.

أما التنبؤ فاستشراف المستقبل واستشفاف الآتي، وهذا عين ما كان من يوسف بما علمه الله تعالى ثم نجده أيضًا قد حدد الأهداف في مضاعفة الإنتاج وتقنين الاستهلاك أو ترشيده، ثم تخزين الطعام وهذا يقتضي خطة تفصيلية، لأن الهدف العام الكبير ليس شيئًا إن لم يقترن بخططه التفصيلية وهنا يأتي دور السياسات والوسائل والأدوات والموارد البشرية والإجراءات والبرامج الزمنية والموازنة التقديرية.

هذا هو ما فعله يوسف عليه السلام على ضوء علم الإدارة الحديث وإن كان القرآن الكريم حصر كلام يوسف عليه السلام في جمل جامعة وجيزة ولم يشر إلى تنمية الإنسان؛ لكنها متضمنة قطعًا ضمن الخطة، لأن القرآن الكريم علمنا أن الإنسان إنما هو نفسيته ومضمونه ومحتواه وأن تغيير الخارج بدون تغيير الداخل لا يغير نقيراً

لقد وضع يوسف عليه السلام العنصر البشري في خطته لعلمه أنه لا تنجح خطة ليس وراءها الإنسان الذي ينفذها، وأما منهجه في التعامل مع الإنسان فقد ظهر

(١) انظر: سورة يوسف دراسة تحليلية ص(٤١٥، ٤١٦).

في دعوته للسجينين للتوحيد وبذلك يكون منهجه في الارتقاء بالإنسان الذي هو عدة الحضارة ومحرك النهضة ومنفذ البرامج ومنجز المشاريع دعوته للتوحيد وتعليمه حقيقة الإيمان بالله وهذا الكون وهذه الحياة .

إن فائدة التغيير الخارجي تزول إذا لم يكن هناك إنسان أمين على منجزات التغيير الخارجي ويحمل القيم الداخلية التي تضمن استمرارية التغيير الخارجي، صحته وصدقه وأمانته، إن التغيير يجب أن يمارسه الإنسان في المحتوى النفسي، فيطور وينمي ذاته باتجاه الأفضل ثم يجسد محتواه النفسي تغييراً خارجيًّا، ويحوله إلى ممارسة وتطبيق وتحقيق، لأن أحوال الناس وأوضاعها الاجتماعية من الفساد أو الخير لا تتغير إلا إذا تغير محتوى الإنسان، وما هو عليه من الحق أو الباطل هذا هو منطق القرآن والحياة، لكي ترسي نظامًا لابد أن يهيئ له إنسانًا أولاً .

إذا طورنا النظام ومفاهيمه دون الإنسان ومفاهيمه فسرعان ما يتسرب الفساد من الإنسان إلى النظام، فيقوضه أكثر مما يتسرب الإصلاح من النظام إلى الإنسان فيصلحه، لأن الأنانية وحب الذات والجشع أقوى من نصوص القوانين والأنظمة ما لم تهذبها التربية الداخلية العميقة والأخلاق الكريمة المبنية على معرفة الله وحبه والخوف منه[1] .

إن الآيات القرآنية الكريمة أشارت إلى جوانب أخرى ارتبط بها نجاح الخطة ارتباطًا مباشراً، وأهمها جانبان يجمعهما عنصر واحد هو العنصر البشري وعلاقته بنجاح الخطة:

١ - استعداد يوسف عليه السلام على أن يشرف على تنفيذ هذه الخطة وكان هذا الاستعداد بعد أن بدد ظلال الشك وأوهام التهم عن نفسه، وبذلك حدث التكامل القوي بين الخطة والمخططين، بين حساب الأرقام وحساب الأخلاق، بين الأسس المادية والقيم الروحية في المجتمع، بين الدين والحياة[2] .

---

(١) انظر: سورة يوسف دراسة تحليلية ص(٤١٨، ٤١٩) .

(٢) المصدر نفسه ص٤٢٠ .

٢- الجانب الثـاني: يتجلى في اختـيار المعـاونين الذين ساعـدوه في عمله، فكان من رجال يوسف عليه السلام العون الصادق على تنفيذ أوامره بدقة وهدوء[١] .

كما أشارت الآيات القرآنية إلى المعلومات اليقينة التي بنى عليها يوسف عليه السلام خطته . قال تعالى: ﴿ **ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ سَبْعٌ شِدَادٌ يَأْكُلْنَ مَا قَدَّمْتُمْ لَهُنَّ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّا تُحْصِنُونَ** ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٤٨) .

إن من معـالم الخطة السيـاسيـة والاقتـصادية الناجحـة أن تكون مبنيـة على معلومـات يقينية صـادقة حقـيقيـة لا على الخيال الشـعري المجنح الذي لا يرتبط بالواقع، ومن هنا صارح يوسف عليه السلام الشعب بالشدائد التي تنتظره، لكنها ليست المصارحـة التي تثبط أو تقعد عن العـمل، ولكنها التي تدفع للعمل وتزيد الـهمة وتضاعف من الجهد والطاقة .

إن السبع التي تـلي الرخاء ستكون مـجدبة لا تعطي؛ بل تأخـذ وتأكل فهي تقتضي حرصًا واحتياطًا[٢] .

قال سـيد قطب - رحمـه الله - : (ثم يأتي من بعد ذلك سـبع شداد - لا زرع فيهن - يأكلن ما قدمتم لهن وكأن هذه السنوات هي التي تأكل بذاتها كل ما يقدم لها لشدة نهـمها وجوعها: إلا قليلاً مما تحـصنون . أي إلا قليلاً مما تحفظونه وتصونونه من التهامها . ثم تنقـضي هذه السنوات الشداد العجاف المجدبة، التي تأتي على ما خـزنتم وادخرتم من سنوات الخـصب تنقضي ويعقـبها عـام رخاء، يغاث الناس فـيه بالزرع والماء، وتنمـو كرومهم فـيعصـرونها خمـرًا وسمسـمهم وخسهم فيعصرونه زيتًـا . وهنا نلحظ أن هذا العام الرخاء لا يقابله رمز في رؤيا الملك، فهو إذن من العلم اللدني الذي علَّمه الله يوسف عليه السلام، فبشر به الساقي ليبشر الملك والناس، بالخلاص من الجدب والجوع بعام رخي رغيد . . .)[٣] .

---

(١) مواقف إسلامية ص٨٦-٨٩ .

(٢) انظر: سورة يوسف دراسة تحليلية ص٤٢٧ .

(٣) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٩٤) .

ونلاحظ في الآيات القـرآنيـة الكريمة التي تكلمت عـن خطة يوسف عليه السلام عنصر الأمل والتفاؤل وهذا الأمر مهم في الخطة الناجحة . قال تعالى: ﴿ثُمَّ يَأْتِي مِنْ بَعْدِ ذَلِكَ عَامٌ فِيهِ يُغَاثُ النَّاسُ وَفِيهِ يَعْصِرُونَ﴾ (سورة يوسف، الآية: ٤٩) .

إن بعد الشدة التي أشـار إليها يوسف انفراجًا ورخاءً، وستعود الأمور بإذن الله تعالى إلى سيرتهـا الأولى، ولكن بداية العودة تكون عامًا مباركًا غـير معهود العطاء وفرة وكثرة، وكأن الخير فيه سيفيض بغير جهد، فهو عام فيه يغاث الناس أي : يسقون الغـيث، أو يغاثون ينجدون من الغوث . وكل ذلك متـلازم، وفيه يعصرون إشارة أخرى إلى فيض الخير، فلا يلجأ الناس إلى العصر للثمار إلا بعد أن تفيض عن حاجة الاستهلاك الأساسية وهي الأكل .

ولا بد من الأمل والتـفاؤل في أي خطة، وإلا فـإن كان لا أمل فمـا الداعي إلى العمل، ولقـد حرك يوسف عليه السلام دوافع العمـل عندهم بتحذيـرهم من شدة سنوات القحط، ثم حركها ثانية بفتح نافذة الأمل[1] .

إن يوسف عليه السلام كـان مظلومًـا مـضطهـدًا في سـجن الملك وهو يملك من المعلومات والخطط ما يجـعله في محل قوة عند المفاوضة إلا أنه لم يشتـرط لنفسه شيئًا، بل جادت نفسه الزكـية بالتفضل بالخير والعطاء والنصح والإرشاد بدون أي مقابل من الخلق، وهذه الأخلاق الكريمة والصـفات الجميلة يكرم الله بها من يريد أن يجعله قدوة لدينه ومعلمًا لدعوته، كما نلاحظ أن يوسف عليه السلام كان مستوعبًا لفقه الخلاف حيث إن الملك وشعبـه بعيدون عن منهج الله، منغمسون في مناهج الجاهلية ومع هذا التقى مـعهم في الخير المحض والسعي نحو إنقـاذ البلاد والعباد من محنة المجاعة والقحط وهذه السعة في الفهم والاستيعاب العميق يحتاجها من يتصدى لدعوة الناس ودفعهم نحو تمكين دين الله في الأرض .

لقد كـان من ثمار تدبيـر يوسف عليه السلام وتخطيطه أن حـفظ شعب من الهـلاك

---

(١) انظر: سورة يوسف دراسة وتحليل ص٤٢٨ .

والجوع وخرج من الشـدائد وعاد إلى الرخاء ، وفي هذا القصـص القرآني إشارات إلى واقع تخطيطي لكي ندرك أن الإسلام لا يقوم على التـخمين أو التواكل، ولكنه يهتم بأدق الأساليب وأعمقها سواء في جوانب الاقتصاد أو السياسة أو غيرها .

ب- من سيرة سيد الخلق ﷺ :

إن سيـرة الرسول ﷺ معـلمًا بارزًا في جمـيع جوانب الحيـاة ونلحظ من سيرته العطرة جانب التخطيط وإحكام الإدارة ودقة التنظيم في كل مراحل دعوته، فإذا نظرنا مثلاً إلى الهجرة النبـوية نجد أن الرسول ﷺ وضع لها خطة احتوت على هذه العناصر: تحديد الهدف، تنظيم الوسائل، رسم أسلوب التنفيذ، محاولة التنبؤ بالمستقبل، ولذلك نلاحظ الآتي:

- تحديد الهدف:

لقد حدد النبي ﷺ هدفه من الهجرة، وهو مغادرته هو وأصحابه مكة إلى المدينة آمنين، ثم نشر دعوة الإسلام في بيئـة جديدة تتطلع إلى رسالة رب العالمين وتدافع عن المؤمنين وتدفع عنهم الأذى ، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيراً وَسَعَةً وَمَن يَخْرُجْ مِنْ بَيْتِهِ مُهَاجِراً إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ وَكَانَ اللَّهُ غَفُوراً رَّحِيماً** ﴾ (النساء: ١٠٠) .

- تنظيم الوسائل واختيار المكان :

فحين أوحى الله إلى نبـيه بالهجرة، كـانت الوسيلة والنسبيل إلى تحـقيق هذا الأمر، هو التـخطيط والتدبيـر حتى يضـمن نجاح مهـمته ، ولقـد كان للهـجرة مقدماتها ومنها:

١ـ حسن اختيار الرسول ﷺ للمكان، وكان هذا بوحي من الله عز وجل .

٢ـ والمدينة لأنها توفي بالمقصد، وتتناسب مع الهدف .

٣ـ وبها صـلات القربى، بنـو النجار أخوال جـده عبـد المطلب من قبـيلتي الأوس والخزرج .

٤- الموقع الاقتصادي للمدينة حيث غنائها بمائها وزرعها وثروتها التجارية .

٥- منيعة بحصونها ولها سيادة وسلطان بأهلها من الأوس والخزرج .

٦- تجارة مكة تمر عبرها إلى الشام، لموقعها الاستراتيجي .

٧- مجاورة أهلها لأهل الكتاب وسماعهم منهم، يجعلهم أكثر قربًا للاستماع للدعوة الجديدة .

- التمهيد للهجرة:

- بيعة العقبة الأولى:

كانت خير تمهيد لتنفيذ الهجرة ثم تلتها بيعة العقبة الثانية ثم بيعة العقبة الكبرى . والعقبة مكان مرتفع شرقي مكة على يسار الطزيق للقاصد منى من مكة، ولقد لقى الرسول ﷺ في العقبة الأولى .

١- ستة نفر كلهم من الخزرج .

٢- دعاهم وعرض عليهم الإسلام فاستجابوا .

٣- انصرفوا إلى المدينة وبدءوا ينشرون الإسلام فيها .

٤- لم تبق دار من دور الأنصار إلا فيها ذكر لرسول الله ﷺ .

٥- واعدوا النبي ﷺ أن يقابلوه في الموسم القادم من نفس المكان .

- بيعة العقبة الثانية:

ولما حلّ الموسم جاء من المدينة اثنا عشر رجلاً من قبيلة الخزرج منهم النفر الستة الذين بايعوه في العقبة الأولى، واثنان من قبيلة الأوس:

١- التقى بهم رسول الله ﷺ وأسلموا جميعًا .

٢- بايعوا رسول الله ﷺ على السمع والطاعة .

٣- سميت هذه العقبة ببيعة النساء لأنهم لم يبايعوا على القتال، وإنما على الدخول في الإسلام .

٤- أرسل معهم الرسول ﷺ ابن أم مكتوم ومصعب بن عمير ليعلماهم القرآن ويفقهانهم في الدين .

٥- أسلم على يدي مصعب أكثر أهل المدينة ولذا يسمى فاتح المدينة[1] .

بيعة العقبة الثالثة - أو الكبرى -:

وفد على مكة في العالم الثالث في موسم الحج جماعة من يثرب بلغت عدتهم ثلاثة وسبعين رجلاً وامرأتين، منهم أحد عشر من الأوس، فواعدهم الرسول ﷺ أن يلقاهم عند العقبة، فبايعهم على الإسلام وعبادة الله، وألا يشركوا به شيئًا، ثم على حمايته إن قدم المدينة .

وتدل وقائع هذه البيعات الثلاث على الآتي:

١- على مبلغ ودقة الإحكام في التخطيط .

٢- نجحت هذه المرحلة التي تعتبر بمثابة الإعداد والتحضير للهجرة .

٣- دقة اختيار الوقت المناسب لعقد المعاهدة وهو موسم الحج، حتى لا يلفت الأنظار إليه من المشركين المتربصين .

٤- دقة الاختيار في الموعد حيث جعل بعد ثلث الليل، حتى يمكن اجتناب العقبات التي تتوقع من المشركين، وكان هذا الاختيار مساعداً في نجاح الخطة .

٥- تنظيم النبي ﷺ في العقبة الثالثة للأوس والخزرج وجعل من بين السبعين اثني عشر نقيبًا، تسعة من الخزرج وثلاثة من الأوس وهذا يدل على بعد نظر النبي ﷺ ومقدرته على ترتيب وتنظيم الطاقات .

٦- نلاحظ مراعاة التدرج في تنفيذ الخطة، وهذا يدل على رجاحة عقل المخطط ومراعاة لمقتضيات الأحوال وسنة التدرج للوصول إلى الهدف المنشود .

---

(١) انظر: الدعاة والتخطيط د. محمد عبد الله الخطيب ص٥٩، ٦٠، ٦١ .

٧- مراعـاة كافة الظروف المحـيطة ووضع الوسائل المناسـبة وترتب على هذا التخطيط الرشيد الآتي:

- دخول بعض البشر دين الإسلام في البيعة الأولى .

- زيادة العدد إلى الضعف في الثانية وإرسال المربي الذي يتعهد ويعلم ويربي النواة الأولى في المدينة .

- الوصول مع أهل يثرب إلى معاهدة دفاعية في البيعة الأخيرة .

- تنفيذ أمر الهجرة .

تحرك المهاجرون من مكة إلى المدينة ويظهر عنصر التخطيط الدقيق في الآتي:

١- خروج المسلمين من مكة متفرقين .

٢- التزام مبدأ السرية التامة .

٣- التحمل والصبر من أجل العقيدة والدين .

٤- كانت هجرة الصحابة ﭫ تمهيدًا لخطة هجرة النبي ﷺ(١).

وحـان وقت الهجـرة للنبي ﷺ وشرع الـنبي ﷺ في التنفيـذ ونلاحظ الآتي:

١- وجود التـنظيم الدقيق للهـجرة حـتى نجحت رغم مـا كان يكتنفـها من صعاب وعقبات .

وذلك أن كل أمر من أمور الهجرة كان مدروسًـا دراسة وافية بحيث لم تترك ثغرة واحدة للعدو ينفـذ منها، ولم يترك شأنًا من شئونهـا للمصادفة أو للحظوظ العمياء، فلـقد تمت الرحلة المثيرة التي لم يعرف أخطر منها في التـاريخ في سبيل الحق بطريقة سرية، لم يعلم بها أحـد، وفي تكتم شديد وحرص بالغ، حتى لقد

---

(١) انظر: الدعاة والتخطيط ص٦١، ٦٢، ٦٣ .

قال الرسول ﷺ لأبي بكر عندما أراد أن يفضي إليه بنبأ الهجرة: أخرج عني من عندك؟ ولا شك أن السرية في رسم الخطط هي ضمان النجاح وعدته، ولقد بلغ الاحتياط مداه، باتخاذ طرق غير مألوفة للقوم، والاستعانة على ذلك بخبير يعرف مسالك البادية ومسارب الصحراء .. ولو كان ذلك الخبير مشركًا ما دام يملك خبرات جيدة ومحل ثقة في تنفيذ المهمة واختياره ﷺ لشخصيات عاقلة رزينة تتوقد ذكاء لتقوم بالمعاونة في شئون الهجرة، ووضع ﷺ كل فرد في عمله المناسب، فقام علي رضي الله عنه بدوره المنوط به ونام في فراش النبي ﷺ وحققت تلك الفكرة أهدافها وخرج رسول الله ﷺ والمشركون معلقة أبصارهم بمضجع الرسول ﷺ، وأحكم ﷺ أموره وأوصى عليًا رضي الله عنه برد الودائع إلى أهلها، وكان عبد الله بن أبي بكر يقوم بدور جمع المعلومات وكشف تحركات العدو، وأسماء ذات النطاقين تحمل التموين من مكة إلى الغار وسط جنون المشركين بحثًا عن النبي ﷺ ليقتلوه، وعامر بن فهيرة الراعي يسدد أقدام المسيرة التاريخية بأغنامه كيلا يستدل بها القوم ويمد النبي ﷺ وصاحبه باللحم واللبن، وعبد الله بن أريقط، دليل الهجرة الأمين، وخبير الصحراء البصير ينتظر في يقظة إشارة البدء من الرسول الكريم ﷺ ليأخذ الركب طريقه من الغار إلى المدينة، فهذا تدبير للأمور على نحو رائع دقيق، واحتياط للظروف بأسلوب حكيم، ووضع كل شخص في مكانه المناسب، وسد لجميع الثغرات، وتغطية جميلة لكل مطالب الرحلة، واقتصار على العدد اللازم من الأشخاص من غير زيادة ولا إسراف، لقد أخذ ﷺ بالأسباب المعقولة أخذًا قويًا حسب استطاعته مع توكله على الله وتفويض أمره إليه[1].

إن تخطيط الرسول ﷺ للهجرة النبوية المباركة دليل واضح على أن التخطيط ضروري لمزاولة أي نشاط بشري مهما يكن نوعه، يستوي في ذلك أن

---

(١) انظر: الهجرة في القرآن، احزمي تسامعُون جزولي ص٣٦١، ٣٦٢، ٣٦٣.

يكون القائم به فردًا أو جماعة، وأن يستـهدف شأنًا من شئون المسلم أو في شئون الحرب، وإذا كـان التخطيط - اصطلاحًـا - من مسـتحدثات العـصر فـإنه معنى يضرب بجذوره في أعمـاق القدم، قد اقترن بحياة الفرد وحيـاة المجتمع منذ كان الإنسان على الأرض، فـقد شاء الله " سبـحانه وتعالى " أن يزوده بهـذه القدرة المستـمدة من العقل لحـفظ الجنس البشري حـتى تستمر الحـياة عبـر مراحل نموها المتعاقـبة، وكل امرئ خلقه الله في هذه الحياة يبـاشر التخطيط تلقـائيًا في جميع خطواته وفي مختلف تصرفاته دون أن يدري المدلول العلمي لما يقوم به .

فالصـانع والزارع والعامل كل مـنهم يخطط ليومـه وغده، إذ يحدد مـطالبه والتزاماته ويحدد قـدراته على الوفاء بها مستعينًا في ذلك بحصـيلة تجاربه السابقة ومـقدرًا للظروف الطارئة المحـتـملة، وهكذا فالتـخطيط لا بد أن يكون الإنســان مستخدمًا له في سائر حياته لكي يستطيع أن يصل إلى أهدافه المرجوة[١].

إن التخطيط من الفطرة التي فطر الله الناس عليهـا ، ولذلك استخدم رسول الله ﷺ التـخطيط في كل مـراحل دعـوته إيمانًا منه بأن التـخطيط أسـاس من الأسس في إنجـاح أي عمل من الأعـمال، ولا بد منـه للبلوغ إلى المقصـود وأنه ركيزة أساسية يقوم عليها هذا الدين، ولذلك فإن الإسلام قد دعانا إلى الأخذ به، بل وجعله نظامًا لحيـاة المسلمين لأنه ضرورة لا بد منها[٢] وهذا ينسجم مع الفهم الصحيح لمعنى التوكل على الله والإيمان بالقدر .

(إن العمل الإســلامي اليوم يتصدى لتـحقيق أشرف وأعظم إنجـاز في دنيانا وهو التـمكين لدين الله في الأرض بإقـامـة الخلافـة الإسلامـيـة على رأس دولة الإسلام العالمية، التي تجمع كلمة المسلمين، وتحكم شرع الله في الأرض، وتسترد كل شبـر أرض اغتـصـبت من الوطن الإســلامي، بل وتكسب أرضًـا جـديدة

(١) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣٥٩ .
(٢) انظر: الهجرة في القرآن الكريم ص٣٦٠ .

للإسلام، وذلك بتبليغ هذا الدين الحق إلى الناس كافة حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله . فالأمر الطبيعي أن يسير العمل لتحقيق هذا الهدف العظيم بتخطيط دقيق، وألا يكون ارتجاليًّا أو ردود أفعال فيقسم الهدف الكبير إلى أهداف مرحلية، وتوضع الخطة لكل منها، والوسائل اللازمة، ويتابع التنفيذ وهكذا)[١].

إن الاهتمام بأصول وقواعد التخطيط وممارسته في الحياة الدنيا وفق التصور الإسلامي الصحيح من الأسباب المهمة لتمكين دين الله .

ثالثًا: الإعداد الاقتصادي:

إن من أسباب التمكين أن تهتم الحركات الإسلامية بالجانب الاقتصادي، لأن القوة الاقتصادية هي عصب الحياة الدنيا وقوامها، والضعيف فيها يقهر ولا يحسب له حساب إلا في ظل شرع الله حين يحكم، ولذلك ينبغي على الحركات الإسلامية أن تعتمد على الذات في موارد ثابتة، وهذا من النفرة التي أمرنا الله (عز وجل) بإعدادها لمواجهة الأعداء ونشر الدين، والاستغناء عن مد يد الاستجداء، مما يوفر للدعوة والدعاة حرية التحرك، واتخاذ القرار دون ضغوط كابحة للنشاط الإسلامي من أي جهة كانت، إضافة إلى ما توفره القوة المادية من ثقل إعلامي واجتماعي وسياسي هي بأمس الحاجة إليه[٢] .

كما أن حاجات العمل المتعددة تحتاج إلى أموال طائلة لتغطيتها، والمطلوب من الحركات الإسلامية أن تعد من رجالها من التجار المسلمين من تظهر على سلوكه أخلاق الإسلام في التعاملات التجارية وتزوده بالخبرات الميدانية بحيث يقتحم مع إخوانه مجالات التجارة الدولية والأسواق العالمية ويعمل على توحيد جهود التجار المسلمين وإيجاد شبكات للتعاون المثمر بحيث يقارعوا الشركات اليهودية والشيوعية والنصرانية ويبذلوا ما في وسعهم من أجل هيمنة الاقتصاد

---

(١) انظر: قضايا أساسية على طريق الدعوة للأستاذ مصطفى مشهور نقلاً عن الدعاة والتخطيط ص٢٨ .

(٢) البيان العدد ١١٨ جمادى الآخرة ١٤١٨هـ ص٩ .

الإسلامي على الأسواق العالمية ويحرروا شعوب المسلمين من سيطرة الفكر الرأسمالي الدخيل والشيوعي .

إن على التجار المسلمين أن يستوعبوا علم الاقتصاد الإسلامي الذي ينسجم مع تصور الإسلام للكون والإنسان والحياة، والذي في طياته حل لمتطلبات العصر الحديث وبخاصة أن العالم الإسلامي يمتلك من الطاقات البشرية والمادية ما يمكنه من بناء اقتصاد سليم قوي يواجه التيارات الاقتصادية المتصارعة وينقذ البشرية من الويلات الاقتصادية التي تعيشها .

وعليهم أن يسعوا إلى أسلمت المؤسسات الاقتصادية بحيث تنسجم مع النظام الإسلامي على جميع المستويات، كما عليهم أن يعمقوا فاعلية المؤسسات الإسلامية حتى يتم تطويرها ويستفاد من أخطائها وتعالج العوائق التي تحدث في طريقها ، ولقد نجحت الحركة الإسلامية في تركيا نجاحًا جيدًا وأصبحت لها مؤسسات قوية ثابتة ولها تأثير وأداء متميز في الشارع التركي، ولقد استطاعت الحركة الإسلامية في السودان أن تخوض تجارب رائدة في البنوك الإسلامية وفي المؤسسات الاقتصادية وتوظيف فريضة الزكاة لحل مشاكل المسلمين، وكذلك الحركات الإسلامية في اليمن والأردن وماليزيا وأندونيسيا، وأصبح بحمد الله لها بنوك إسلامية ومستشفيات ومؤسسات عملاقة إلا أن الأعداء يضيقون عليها ويحاربونها .

إن الحركات الإسلامية فهمت معادلة المال وهيمنة الاقتصاد فهمًا جيدًا وأصبحت ترى التاجر المسلم من صناع الحياة ؛ بل هم صناع الصناع يقول الأستاذ محمد أحمد الراشد في هذا الصدد : (وعلى خطة الدعوة أن تتوب توبة نصوحة من إسرافهم القديم في تعليم الدعاة كراهة المال وحب الوظائف الحكومية . .)[١].

وطلب في كتابه صناعة الحياة من الدعاة أن يهتموا بجمع المال ولينزل منهم نفر إلى السوق؛ لأن في ذلك مردود دعوي، وذكر اليهود الذين استحوذوا على

---

(١) صناعة الحياة ص٤٦ .

الأموال والأسواق ونحن لا نجيد إلا سبهم، ونـضجر من المارون والأقباط والبُهرة والقاديانـية والمبتـدعة والأقليـات إذ كان منهم السـبق إلى المال، بتسهـيل الدوائر الاستعمارية لهم ذلك في فترة الاستعمار جزمًا، وبمساعدة من قوى خفية أخرى، ولكننا لم نحسن غير سبهم وشتمهم .

إن قوة الاقتصاد الإسلامي ووصول الأموال إلى قبضة المسلمين ستكون عاملاً من عوامل قـوة الدعوة الإسلامية وسـتتحكم المنظومـة الإسلامية على الاقـتصاد العالمي وستعرض على العالم سوقًا إسلاميًّا ومنظومة شركات إسلامية .

وستـرتفع رايات المسلمين ومعنوياتهم عندما يـرون رجال المال المسلمين الذين ينفقون أموالهم سرًّا وعلانية ابتغاء مرضاة الله وينطلق الدعاة في كل مكان مبشرين ومنذرين وخلفهم مؤسـسات وشركات تدعمهم وتقف بجـانبهم، كل على ثغر، وكل يسعى لتمكين دين الله في الأرض .

إن الإعداد المالي والقوة الاقتصادية ستكون في خدمة الأمة والدعوة والسياسة والفكر، وسيسند حركة التغيير الشاملة من أجل التمكين لدين الله في الأرض .

ولا بد أن تهـتم الحـركات الإسـلامـية بميـدان الصناعـة والزراعـة والعقـار والاستيـراد والتصدير، وبخاصـة في البلاد الحرة التي لا ينال أموالنا فـيها ظلم، وفي العالم الكبير الفسيح متسع للاستثمار(١) .

إن الهيـمنة على الاقتصـاد وتحكيم شرع الله فيـه جهاد عظـيم ولها آثار على المجتمعات البشرية من أهمها:

١- إنقاذ البشـرية وبخاصة المسلمين من مـساوئ الأنظمة الوضعـية حتى أن علمـاء الغـرب يقولون بذلـك، يقول جـاك أوسـترى: إن طريق الانـتمـاء ليس محصوراً في المذهبين المعروفين بل هنـاك مذهب اقتصادي ثالث راجح هو المذهب الإسلامي(٢)، وبذلك يتحـرر المسلمون من التبعـية الاقتصادية ويبـرز للعالم هذا

---

(١) المصدر نفسه ص٤٦، ٤٧ .

(٢) الإسلام والتنمية الاقتصادية جاك أوستري ترجمة نبيل الطويل ص١٠٠

النظام، ومن هنا تأتي أهمية طرح النظام الاقتصادي في الإسلام، وبيان الأحكام الشرعية لمعالجة جميع مشاكل الحياة .

٢- استغلال الموارد البشرية والمادية الإسلامية استغلالاً اقتصاديًا يؤدي إلى الرفاهية العامة للشعوب الإسلامية مما يساعد المسلمين على قيام الصناعات الثقيلة وبذلك تتحقق للمسلمين القوة والمنعة التي تحرر أراضيهم المحتلة كل ذلك وفق برامج تنمية متكاملة، فالإسلام ليس مجرد تراث؛ بل فيه طريق التنمية السليم، وبذلك لا يبقى العالم الإسلامي مجرد سوق مالي وسلعي للشرق أو الغرب .

٣- وجود الاقتصاد الإسلامي يؤدي إلى الوحدة السياسية بين شعوب الإسلام، حيث إن الاقتصاد ينطلق من الشريعة، والشريعة تنادي بوحدة المسلمين لأن وحدة الاقتصاد تؤدي إلى وحدة السياسة، وهذا ما تسعى إليه دول غير إسلامية مثل دول السوق الأوروبية المشتركة .

٤- تحقيق القوة الاقتصادية والسياسية يؤدي إلى عودة الإسلام إلى أيامه الزاهرة ويؤدي بالتالي إلى سيطرة الإسلام على مسرح السياسة والاقتصاد في العالم، وتصبح الأمة الإسلامية خير أمة، وأقوى قوة فكرية وحضارية ومادية في العالم .

٥- إذا بني الفكر وبخاصة الفكر الاقتصادي الإسلامي على أساس سليم من العقيدة والأسس التي وضحناها فإن الطريق إلى الاكتشافات والمخترعات الحديثة سيكون مفتوحًا، وستوظف المفاهيم إلى واقع حي عملي في معترك الحياة، وبذلك نبعد جميع الأفكار الدخيلة على الأمة الإسلامية، من رأسمالية واشتراكية .

إن العقيدة الإسلامية ما جاءت إلا لهداية البشر إلى ما فيه السعادة في الدارين[1]، والتي من ضمنها الجانب المادي الاقتصادي .

ولقد اهتم الإسلام بالموارد المالية وبيَّن طرق الكسب المشروع، كالبيوع

---

(١) انظر: النظام الاقتصادي في الإسلام محمود الخطيب ص٧٤، ٧٥ .

والميراث والوصايا والهبات وغيرها، ووضح طرق الكسب الغير مشروع، كالربا والغرر، والغش والاحتكار وغيرها وكانت موارد الدولة الإسلامية في زمن النبي ﷺ والخلفاء من بعده من الزكاة، والغنائم والفيء، والخراج والتجارة .

إن الحركات الإسلامية التي تسعى لتقوية جوانبها الاقتصادية والمالية وتوظيفها في دعوة الله تعالى قد أخذت بسبب مهم من أسباب التمكين المادي .

إن من القواعد المهمة في الاقتصاد الإسلامي: العمل على تحقيق الاكتفاء الذاتي للأمة .

بمعنى أنها يجب أن يكون لديها من الخبرات والوسائل والأدوات ما يجعلها قادرة على أن تنتج ما يفي بحاجاتها المادية والمعنوية، ويسد ثغراتها المدنية والعسكرية، عن طريق ما يسميه الفقهاء فروض الكفاية، وهي تشمل كل علم أو عمل أو صناعة أو مهارة يقوم بها أمر الناس في دينهم أو دنياهم، فالواجب عليهم حينئذ تعلمها وتعليمها وإتقانها حتى لا يكون المسلمون عالة على غيرهم، ولايتحكم فيهم سواهم من الأمم الأخرى .

وبغير هذا الاستغناء والاكتفاء، لن يتحقق لهم العزة التي كتب الله لهم في كتابه : ﴿وَلِلَّهِ الْعِزَّةُ وَلِرَسُولِهِ وَلِلْمُؤْمِنِينَ﴾ (سورة المنافقون، آية : ٨) .

وبغيره لن يتحقق لهم الاستقلال والسيادة الحقيقية، وهو ما ذكره القرآن: ﴿وَلَن يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلاً﴾ (النساء: ١٤١) .

ولن يتحقق لهم مكان الأستاذية والشهادة على الأمم، وهو المذكور في قوله سبحانه : ﴿وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (البقرة: ١٤٣) .

فلا عزة لأمة يكون سلاحها من صنع غيرها، يبيعها منه ما يشاء، متى شاء، بالشروط التي يشاء، ويكف يده عنها أنى شاء، وكيف شاء .

ولا سيادة حقيقية لأمة تعتمد على خبراء أجانب عنها في أخص أمورها، وأدق شئونها، وأخطر أسرارها .

ولا استقلال لأمة لا تملك زراعة قوتها في أرضها، ولا تجد الدواء لمرضاها، ولا تقدر على النهوض بصناعة ثقيلة، إلا باستيراد الآلة والخبرة من غيرها .

ولا أستاذية لأمة، لا تستطيع أن تبلغ دعوتها عن طريق الكلمة المقروءة أو المسموعة، أو المصوَّرة المرئية إلا بشرائها من أهلها القادرين عليها . ما دامت لا تصنع مطبعة ولا بد لتجار المسلمين ورجال الأموال وأهل التخصص في الاقتصاد من حركات إسلامية وعموم الأمة أن يسلكوا سبيل الاكتفاء والتحرر من التبعية الغربية أو الشرقية، ومن الأمور التي تعين على الاكتفاء:

١- ضرورة التخطيط:

لا بد من التخطيط القائم على الإحصاء الدقيق، والأرقام الحقيقية، والمعرفة اللازمة بالحاجات المطلوبة ومراتبها ومدى أهميتها، والإمكانات الموجودة، ومدى القدرة على تنميتها والوسائل الميسورة لتلبية الحاجات، والتطلع إلى الطموحات.

٢- تهيئة الطاقات البشرية وحسن توزيعها:

ويكون ذلك بتطوير النظام التعليمي والتدريبي، بحيث يهيئ لها الطاقات والكفايات البشرية المتنوعة في كل مجال تحتاج إليه، وأن تُطوِّر نظامها الإداري والمالي بحيث تنمي هذه الطاقات، وتحسن تجنيدها، وتوزيعها على شتّى الاختصاصات بالعدل، اهتداء بقوله تعالى: **﴿وَمَا كَانَ الْمُؤْمِنُونَ لِيَنفِرُوا كَافَّةً فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ﴾** (التوبة، آية: ١٢٢) . وملء الثغرات التي تهمل - عادة أو غفلة - بالحوافز أو بالالتزام .

ووضع كل إنسان في المكان المناسب له، والحذر من إسناد الأمر لغير أهله:

" إذا وسد الأمر إلى غير أهله فانتظر الساعة "(١) . ومن ثمّ كان حرص الإسلام على الثروة البشرية، والمحافظة عليها والعمل على تنميتها: جسميًّا وعقليًّا وروحيًّا وعلميًّا ومهنيًا .

٣- حسن استغلال الموارد المتاحة:

بحيث لا نهدر شيئًا منها ونحافظ عليها باعتبارها أمانة يجب أن تُرعى، ونعمة يجب أن يُشكر الله تعالى باستخدامها أحسن استخدام، وأمْثَله .

ويحسن بنا هنا إلى أن نشير إلى قوله تعالى في الوصية بمال اليتيم: ﴿وَلَا تَقْرَبُوا مَالَ الْيَتِيمِ إِلَّا بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ أَشُدَّهُ﴾ (الإسراء: ٣٤) .

وقد تكرر ذلك في القرآن الكريم بهذه الصيغة نفسها، فلم يكتف القرآن منا أن نقرب مال اليتيم بطريقة حسنة وحسب؛ بل بالتي هي أحسن، فإذا كانت هناك طريقتان لتنمية مال اليتيم والمحافظة عليه: إحداهما حسنة جيدة، والأخرى أحسن منها وأجود، كان الواجب علينا أن نستخدم التي هي أحسن وأجود؛ بل حرام علينا ألا نستخدم إلا التي هي أحسن، كما هو مفهوم التعبير بالنهي وأسلوب القصر .

ومال الأمة في مجموعه أشبه بمال اليتيم، والمؤسسات التي ترعاه أشبه بولي اليتيم ولهذا يجب أن نحافظ عليه وننميه بالتي هي أحسن .

٤- التنسيق بين فروع الإنتاج:

قال رسول الله ﷺ : " إذا تبايعتم بالعينة(٢)، ورضيتم بالزرع، وتبعتم أذناب البقر، وتركتم الجهاد في سبيل الله سلط الله عليكم ذلاً لا ينزعه عنكم حتى تراجعوا دينكم "(٣) ففي هذا الحديث إشارة إلى أن الاكتفاء بالزراعة

---

(١) البخاري في صحيحه وفي مشكاة المصابيح رقم (٥٤٣٩) .

(٢) العينة: أن يبيع السلعة بثمن معلوم لأجل ثم يشتريها منه في الحال بأقل .

(٣) صحيح الجامع الصغير ص٤٣٣ .

وحدها، وما يتبعها من الإخلاد إلى الحياة الخاصة المعبَّر عنها باتباع أذناب البقر، وترك الجهاد في سبيل الله وما يتطلبه من إعداد القوة، يُعرض الأمة لخطر الذل والاستعمار، وهذا بالضرورة يحتاج إلى نوع من الصناعات لا بد أن يتوافر في الأمة، إذ ما لا يتم الواجب إلا به فهو واجب .

ولقد أنزل في كتابه سورة الحديد تنبيهًا منه على أهمية هذا المعدن الخطير، قال تعالى: ﴿ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ ﴾ (سورة الحديد: ٢٥) ففي قوله : ﴿فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ﴾ إشارة إلى الصناعات الحربية، وفي قوله : ﴿وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ﴾ إشارة إلى الصناعات المدنية وبهذا تكتمل قوة الأمة في سلمها وحربها .

٥- تشغيل الثروة النقدية:

بحيث تخرج النقود من قمقم " الكنز " إلى ساحة الحركة، والعمل، فإن النقود لم تخلق لتُحبس وتُكتنز، إنما خلقت لتتداول، وتنتقل من يد إلى يد: ثمنًا لبيع أو أجرًا لعمل، أو عين ينتفع بها، أو رأس مال لشركة أو مضاربة، فهي وسيلة لأغراض شتى، وليست غرضًا في ذاتها .

هذه بعض الخطوط العريضة للوصول إلى الاكتفاء الذاتي وتحرير الأمة من العبودية الاقتصادية لغيرها والاقتراب بها نحو تمكين دينها، كما ننبه على أهمية توزيع الزكاة ورعاية أموال الأوقاف ووضعها في محلها الصحيح فيه من الثروات الهائلة فلابد من تحرير الأوقاف فإنها تصل إلى الملايين في البلدان الإسلامية ولم تستثمر كما ينبغي من أجل تقوية دعوة الله والتمكين في الأرض .

رابعًا: الإعداد الإعلامي:

للإعلام أهميته الخطيرة في العصر الحديث، وقد نال اهتمامًا بالغًا من كل الدول حتى أنشئت له كليات خاصة وهي " كليات الإعلام ." وأنشئت له وزارات خاصة وهي " وزارات الإعلام " التي تشرف على سائر وسائل ونواحي الإعلام

في الدولة ويعين وزيرًا لها من أكفأ الوزراء وأشدهم ولاء لنظام الحكم القائم في الدولة ، وذلك لخطره الكبير وأهميته في هذا العصر الذي انتشرت فيه وتقدمت العلوم الحديثة والمخترعات المتعددة والنظريات المختلفة ، فللإعلام تأثيره على الفرد والأسرة والمجتمع والدولة والمجتمع الدولي كله .

وتتضح أهمية الإعلام في الآتي:

١ - تزويد الناس بالمعلومات والحقائق وغيرها من ضروب المعرفة ، وآخر الأحداث والأخبار ، لتشبع رغبتهم الملحة للمعرفة ، ويقوِّموا الأمور التي حولهم في المجتمع تقويمًا عادلاً ويفهموا طبيعة البيئة التي يعيشون فيها ويتمكنوا من التكيف معها والتجاوب مع أفرادها .

٢ -نشر الوعي والحقائق الثابتة وتثقيف العقول وتنوير الأذهان ، ومحاربة الخرافات والأساطير والبدع الضارة حتى يتغير أسلوب الحياة وتتغير الأفكار إلى الأفضل والأحسن وذلك بعرض الجوانب الإيجابية من الحياة.عرضًا إعلاميًا مناسبًا وعرض المعلومات والأفكار الحديثة والعصرية التي تؤدي لنهضة الأمة وزيادة وعيها وثقافتها .

٣- دفع عجلة التنمية الاقتصادية والاجتماعية والسياسية وإحداث التغيير فيها للأفضل وذلك بتخطيط إعلامي سليم يتم به نقل التقنية الحديثة إلى أقصى مدى من البث والدعاية ويلازم هذا الإعلام ويواكب خطوات التقدم الاقتصادي والاجتماعي والسياسي وشرح حقائقه وأهدافه .

٤ - المحافظة على شخصية المجتمع بكل معتقداته وآدابه وتراثه وتاريخه وتعميق كل هذا بوسائل الإعلام المختلفة حتى يظل المجتمع متماسكًا بشخصيته المعروفة باستمرار .

٥ - تحقيق الترابط التام بين الحاكم والمحكوم بحيث تنسجم وتتوافق القاعدة العريضة من المجتمع مع القمة مما يدفع المجتمع إلى التقدم السريع والعمل البناء .

٦ - قلب الحكومـات وإيجاد الاضطرابات : فقـد يقوم الإعـلام بذلك نتيـجة للصراع الفكري أو الصراع الاجتـماعي أو الصراع السياسي فتذاع أخـبار وحقائق تثير الناس مما يخلق الفوضى في المجتمع ويكون من نتيجة ذلك تغيير الوزارات أو قلب الحكومات أو تقرير مصائر الدول أو إيجاد الحقـد والكراهية نحو طبقة معينة أو مجتمع معين[١] إلى غير ذلك من الأمور .

ولقد أرشـد القرآن الكريم الأمة إلى الأخذ بأسلوب الإعـلام في دعوة الخلق ونهج نهجًا متـميزًا في إيصال الحقائق إلى الناس فمـثلاً نرى القرآن الكريم جعل الأحداث مدخلاً إلى قلوب الناس وعقولهم لإرشادهم وتوجـيههم لما فيه السعادة والفلاح في الدنيا والآخرة .

فنجده ينزل في كثـير من الأحيان إثر حادثة أو سؤال مـراعيًا في ذلك الوقت المناسب وما نزل منه ابتداء فأسبابه قائمة في الواقع وإن لم يكن لحادثة معينة .

وقد سأل اليـهود الرسول ﷺ عن هذه الظاهرة الغريبة ، التي مـا عهدوها من قبل في الكتب السماوية السابقة والتي كانت تنزل جملة واحدة .

عن ابن عباس رضي الله عنهما قال : (قالت اليـهود يا أبا القاسم لولا أنزل هذا القرآن جملة واحدة كما أنزلت التـوراة على موسى فنزل قوله تعالى ردًّا على سؤالهم[٢] ﴿**وَقَالَ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْلا نُزِّلَ عَلَيْهِ الْقُرْآنُ جُمْلَةً وَاحِدَةً كَذَلِكَ لِنُثَبِّتَ بِهِ فُؤَادَكَ وَرَتَّلْنَاهُ تَرْتِيلاً (٣٢) وَلا يَأْتُونَكَ بِمَثَلٍ إِلاَّ جِئْنَاكَ بِالْحَقِّ وَأَحْسَنَ تَفْسِيراً**﴾ (الفرقان : ٣٢، ٣٣) إن نزول القـرآن الكريم منجمًـا حسب الأحـداث والوقائع كـان له أهداف إعلامـية عظيمة لا يمكن تحقـيقها في مدة قصيـرة من الزمن إلا بهذا الأسلوب المعجز ومن أهم هذه الأهداف الإعلامية :

١ - مسـاعدة الرسول ﷺ على حل المشـاكل الاجتماعـية المتجـددة ، فمن ذلك أن عبد الله بن رواحة تـزوج من أمة له سوداء بعد أن أعتقهـا إثر ضربه لها

(١) انظر : فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودي لفاروق الصاوي ص٢٠، ٢١ .
(٢) الإتقان في علوم القرآن للسيوطي (١/ ٤٢) .

وهي أمة مؤمنة " فطعن عليه ناس من المسلمين فقالوا تزوج أمة وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشـركين وينكحوهم رغبة في أحـسابهم[١] فنزل قوله تعالى: ﴿ وَلا تَنكِحُوا الْمُشْرِكَاتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ وَلأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ وَلا تُنكِحُوا الْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ أُوْلَئِكَ يَدْعُونَ إِلَى النَّارِ وَاللَّهُ يَدْعُو إِلَى الْجَنَّةِ وَالْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِ وَيُبَيِّنُ آيَاتِهِ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴾ (البقرة: ٢٢١).

فكان العرف السائد في الجاهلية وحـتى ظهور الإسلام أن التفاضل بين الناس بالأنساب والأحـساب فقط . . وكـان هذا الحدث وما حصل فـيه من استـغراب وقيل وقال قـد أتاح الفرصة لإعلام الناس بمقـياس الإسلام الحقيـقي في التفاضل بين الناس وهو تقوى الله عـز وجل والإيمان به وبرسوله ﷺ وهذا المقيـاس فيه رفع من شأن المؤمن وإعلام بشرفه على الكافر، ولو كان هذا المؤمن عبداً أو أمة، وكما لا يخفى فإن فيه تصغيراً لشأن الكافر وإعلامًا بتفاهته ولو كان أشرف الناس في حسـبه ونسـبه ونزول هذه الآيات عـقب هذا الحدث الذي هيأ الـنفوس وأثار انتباهها إعلام لكلا الطرفين بذلك[٢] .

٢- مسـاعدة الـرسول ﷺ في الإجـابة الموجهـة إليه من قـبل المؤمنين أو الكافرين:

عندما بعث المشركون إلى اليهود بالمدينة يسألونهم عن أمره فقالت اليهود عنه أشياء ثلاثة، فإن لم يجب عليها أو أجاب عنهـا جميعًا فهو ليس بنبي وإن أجاب عن اثنين ولم يجب عن الثالث فهو نبي وهذه الأمور الثلاثة هي:

- فتية فقدوا في الزمن الأول ما كان من أمرهم؟
- رجل بلغ شرق الأرض وغربها ما خبره؟
- وعن الروح؟

فسأله القرشيون عن هذه الأشياء فوعدهم بالإجابة عليها في اليوم التالي ولم يقل إن شاء الله " قال مجاهد : إن الوحي تأخر عنه اثنتي عشرة ليلة "[١]، وقيل غير ذلك حتى كثر القيل والقال بين الناس، وقال قائل قريش وعدنا محمد غداً وقد أصبحنا لا يخبرنا بشيء واشتد الحزن على الرسول ﷺ بسبب ذلك حتى إذا تهيأت نفوس الناس وتوترت أعصابهم والتفتت أنظارهم لنتيجة هذا الحدث العظيم الذي يعتبر من أهم الأدلة والبراهين على صدق الرسول ﷺ وأنه مرسل من عند الله نزل الوحي من الله يقول بشأن الفتية : ﴿**أَمْ حَسِبْتَ أَنَّ أَصْحَابَ الْكَهْفِ وَالرَّقِيمِ كَانُوا مِنْ آيَاتِنَا عَجَبًا**﴾ (الكهف، آية : ٩) .

ونزل فيمن بلغ الشرق والغرب ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ**﴾ (الكهف : ٨٣-٩٨) . ونزل في الروح ﴿**وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي**﴾ (الإسراء : ٨٥) . فأجاب عن اثنين من الأسئلة ولم يجب عن واحد، الأمر الذي جعل القرشيين وغيرهم يوقنون بصدق دعوى الرسول ﷺ بأنه مرسل وأنه صادق أمين كما عهدوه . وهكذا كان القرآن الكريم يجيب على كل سؤال يوجه إلى الرسول ﷺ، سواء كان هذا السؤال من المؤمنين أو الكافرين أو كان لغرض التثبت والتأكد أو للاسترشاد والمعرفة[٢] .

ولقد تعددت الأغراض الإعلامية من نزول القرآن منجمًا فبالإضافة إلى ما ذكرنا ثمت أغراض أخر منها: رفع معنوية الرسول ﷺ من وقت لآخر بتبشيره بالنصر على الأعداء وحمايته، وفضح أعداء هذا الدين من المشركين والمنافقين وأهل الكتاب، تنبيه الرسول ﷺ وأصحابه من وقت لآخر على أخطائهم من ذلك ما وقع للرسول ﷺ مع أسرى المشركين يوم بدر[٣] .

ولقد أرشد القرآن الكريم إلى الدستور الإعلامي في القرآن في قوله تعالى :

---

(١) تفسير البغوي بهامش الخازن (٤/ ١٨١) .

(٢) انظر : الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم ص١٨ .

(٣) نفس المصدر ص١٨، ١٩، ٢٠، ٢١ .

﴿وَالْعَصْرِ ① إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ ② إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ﴾ (سورة العصر، آية : ١-٣) . حيث استنبط متخصصو الإعلام من هذه السورة الدستور الإعلامي المكون من :

١- العلم والإيمان .

٢- العمل الصالح .

٣- تبليغ الرسالة .

واستنبطوا قواعد الأسلوب الإعـلامي في القرآن من قوله تعالى : ﴿ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ١٢٥ وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ ١٢٦ وَاصْبِرْ وَمَا صَبْرُكَ إِلاَّ بِاللَّهِ وَلا تَحْزَنْ عَلَيْهِمْ وَلا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ﴾ (سورة النحل، الآية : ١٢٥-١٢٧) .

فهذه الآيات وضـعت قواعد وأسس واضحة للأسلـوب الإعلامي القولي منه والعملي التي لا بد للمسلمين أن يـلتزموا بها عند قيامـهم بتبليغ هذه الرسالة إلى الناس إذا أرادوا تحقيق أهدافهم وغاياتهم[1] ومن أهم هذه القواعد :

١- الحكمة:

هي حسن اخـتيـار الأسلوب الإعلامي المناسب للمـخاطبين وتنويعـه حسب الظروف والزمـان والتـدرج في إيصـال الرسـالة الإعلامـيـة حـتى لا يشق على المخاطبين استيعابها . . .

٢- الموعظة الحسنة:

هي التـوجيـهات التي يقـدمهـا صاحـب الرسالة للناس عن طريق الأوامـر والنواهي المقرونة بالترغيب والترهيب بقصد نصحهم وإرشادهم معتمداً على إيقاظ

---

(١) نفس المصدر ص٣٣

شعورهم ومحاولة إثارة انفعالاتهم نحو ما يدعو له بعد اطمئنانهم له نفسيًا واقترابهم منه[١] .

٣- الجدال بالتي هي أحسن:

فإن كان المدعو يرى أن ما هو عليه حق أو كان داعية إلى باطل يجادل باللين واللطف بلا تحامل عليه ولا تقبيح له حتى يطمئن إلى صاحب الرسالة ويشعر أن هدفه هو الوصول إلى الحقيقة لا غير .

٤- الجهاد:

قال تعالى : ﴿وَإِنْ عَاقَبْتُمْ فَعَاقِبُوا بِمِثْلِ مَا عُوقِبْتُم بِهِ﴾ (سورة النحل: ١٢٦) . فلا بد من الدفاع عن هذه العقيدة وعن حريتها وحرية القائمين على تبليغها " لكي لا تهون في نفوس الناس فالدعوة المهينة لا يعتنقها أحد "[٢] .

٥- القدوة الحسنة:

﴿وَلَئِن صَبَرْتُمْ لَهُوَ خَيْرٌ لِّلصَّابِرِينَ﴾ (النحل: ١٢٦) . فالعفو عند المقدرة في بعض الأحيان يكون أعمق أثرًا وأكثر فائدة من الانتقام والضرب بيد من حديد على يد الظالم يصبح حتميًّا، لأن فيه دفع الضرر وإعلامًا لمن خلفهم ولكل من سولت له نفسه الإضرار بهذه الدعوة وأهلها أن هذا هو المصير الذي ينتظره، والجدير بالذكر أن هاتين القاعدتين أعني[٣] (الجهاد والقدوة الحسنة يمثلان الأسلوب الإعلامي العملي في الإسلام . . وبعد أن أرشدنا القرآن الكريم إلى القواعد الأساسية للأسلوب الإعلامي الناجح الذي تنتهجه في نشر هذه الدعوة الخالدة . . أشار إشارة واضحة إلى ما سيلاقيه الرسول ﷺ والمسلمون من أساليب إعلامية مضادة شيطانية للقضاء على هذه الرسالة والنيل منها فحثهم على الصبر في هذا

---

(١) انظر: مذكرات في الدعوة الإسلامية عبد الغفار عزيز ص٥ .

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ٢٢٠٢) .

(٣) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم محمد الطلابي ص٣٥ .

الصراع الإعلامي المرير بين الحق والباطل وأن العاقبة ستكون له وللمؤمنين والخزي والفشل لأعداء هذا الدين قال تعالى: ﴿وَلَا تَكُ فِي ضَيْقٍ مِّمَّا يَمْكُرُونَ (١٢٧) إِنَّ اللَّهَ مَعَ الَّذِينَ اتَّقَوا وَّالَّذِينَ هُم مُّحْسِنُونَ﴾ (النحل: ١٢٨).

ومن الملاحظ أن القـرآن الكريم قد انتـهج هذا الدستور مـع الرسول ﷺ. فأول ما نزل من القرآن الكـريم هو إعلام الرسول ﷺ بحقيقة " قـاعدة التصور الإيماني العريض(١)" قال تعالى: ﴿اقْرَأْ بِاسْمِ رَبِّكَ الَّذِي خَلَقَ * خَلَقَ الْإِنسَانَ مِنْ عَلَقٍ اقْرَأْ وَرَبُّكَ الْأَكْرَمُ * الَّذِي عَلَّمَ بِالْقَلَمِ * عَلَّمَ الْإِنسَانَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾ (العلق: ١-٥).

" فالله هو الذي خلق وهو الذي علم فمنه البدء والنشأة ومنه التعليم والمعرفة .. والإنسان يتـعلم ما يتعلم ويعلّـم ما يعلم .. فمـصدر هذا كله هو الله الذي خلق والذي علَّم "(٢).

وكـانت هذه هي البدايـة مع الرسول ﷺ فـأول ما نـزل عليه من القـرآن الكريم كان الهدف منه إعلام الرسول ﷺ بقاعدة التصور الإيماني والإيمان بها، فلما علم هذه القاعدة وآمن بها أمره الله تعالى " بالعبادات الفاضلة والقاصرة "(٣) عليه ﷺ، ومن أهمها قراءة القـرآن وصلاة الليل قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُزَّمِّلُ (١) قُمِ اللَّيْلَ إِلَّا قَلِيلًا (٢) نِّصْفَهُ أَوِ انقُصْ مِنْهُ قَلِيلًا (٣) أَوْ زِدْ عَلَيْهِ وَرَتِّلِ الْقُرْآنَ تَرْتِيلًا﴾ (سورة المزمل، الآية: ١-٤).

ولما علم الرسول ﷺ حقيقة قاعـدة " التصور الإيماني " وعمل بمقتضاها، صار عنده استعداد ذاتي لتصـدير هذه الرسالة إلى الناس، فعندها أمره الله تعالى " بإعلان هذه الدعوة والصدع بها "(٤).

قال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الْمُدَّثِّرُ (١) قُمْ فَأَنذِرْ (٢) وَرَبَّكَ فَكَبِّرْ﴾ (المدثر، آية: ١).

---

(١) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم ص٣٥.
(٢) في ظلال القرآن (٦/ ٣٩٣٩).
(٣، ٤) تفسير السعدي (٧/ ٥٠٨).

كما أن القرآن الكريم غني بالأساليب الإعلامية سواء كانت قولية أو عملية، فمن القولية مثلاً: أسلوب الهدم والبناء، والتقابل، التبشير بغد أفضل، الجدل، التهديد، تشويه الصورة، تحسين من الأساليب الإعلامية العملية، القدوة الحسنة، العفو عند المقدرة، الثبات على الحق(١).

ولقد مارس الرسول ﷺ المنهج القرآني الإعلامي، وقام ببعض الأعمال العظيمة وحققت أهداف إعلامية رفيعة وساهمت في انتشار هذا الدين والتمكين له في قلوب العباد وفي البلاد فمثلاً:

١- الهجرة:

اضطهد المكيون الرسول ﷺ حتى وصل بهم الأمر إلى التفكير في التخلص منه قال تعالى: ﴿ **وَإِذْ يَمْكُرُ بِكَ الَّذِينَ كَفَرُوا لِيُثْبِتُوكَ أَوْ يَقْتُلُوكَ أَوْ يُخْرِجُوكَ وَيَمْكُرُونَ وَيَمْكُرُ اللَّهُ وَاللَّهُ خَيْرُ الْمَاكِرِينَ** ﴾ (الأنفال: ٣٠)، فأمره الله تعالى بالهجرة إلى المدينة قال تعالى: ﴿ **إِلاَّ تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ اللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ الَّذِينَ كَفَرُوا ثَانِيَ اثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِي الْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَاحِبِهِ لا تَحْزَنْ إِنَّ اللَّهَ مَعَنَا** ﴾ (التوبة: ٤٠).

فخرج الرسول ﷺ ومعه أبو بكر الصديق متوجهًا إلى المدينة تنفيذًا لأمر الله تعالى له ولم يكن خروج الرسول ﷺ من مكة إلى المدينة خوفًا ولا هربًا من المشركين " بل تعليم للأمة ضرورة أخذ الحيطة في الأزمات وليقف على تحركات قريش ويعلم مقاصدهم ولينكشف ما اعتزموا عليه "(٢).

وكان هذا العمل من الرسول ﷺ من أبلغ الأساليب الإعلامية في الإسلام وكانت له آثار إعلامية في داخل مكة وخارجها، فأهل مكة شعروا بأن هؤلاء لم يتركوا أهلهم ووطنهم وأموالهم إلا من أجل قوة إيمانهم بصدق ما هم عليه من حق كما أن هذه الهجرة " أوجدت فراغًا كبيراً في مكة ولفت هذا الفراغ المكيين

---

(١) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن ص٣٦ إلى ٦٠.
(٢) تفسير السعدي (٢/٢٣٦).

للتغييرات التي حدثت في مجتمعهم ومن أهمها . . ظهور هذا الدين[١] ولم تقتصر آثار الهجرة على مكة وحدها " فإن وجود عناصر مكية في المدينة لفت انتباه جميع من فيها وفي ذلك إعلان كبير . . عن هذا الدين "[٢] .

ومن هنا كانت الهجرة أسلوبًا إعلاميًّا فريدًا قلَّ أن يكون له مثيل في التاريخ[٣] .

٢- بناء المسجد:

قال تعالى : ﴿ **لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ** ﴾ (التوبة ، آية : ١٠٨) .

سواء كانت هذه الآية نزلت في قباء أو المسجد النبوي الشريف فإن الملاحظ أن أول عمل قام به الرسول ﷺ عند قدومه إلى المدينة هو بناء مسجد ولم يكن الهدف الوحيد من هذا المسجد هو الصلاة ؛ بل كان مركزًا إسلاميًّا عامًّا يجتمع فيه المسلمون من جميع القبائل ليتعلموا فيه أمور دينهم[٤] ويقول الدكتور إبراهيم إمام : " أراد النبي ﷺ فيما يبدو أن يبني مكانًا لا ينتمي إلى هذه القبيلة أو تلك ولا يجتمع فيه أفراد من أسرة خاصة بل أن يشيد مكانًا للجميع وهو بيت الله "[٥] .

وفي هذا إعلام لجميع المسلمين الموجودين في المدينة وغيرها أن هذا الدين دين الله وأنه يقضي على العصبيات مهما كانت وعلى أي أساس وجدت ، وأن مقياس التفاضل فيه إنما هو بتقوى الله عز وجل قال تعالى : ﴿ **إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ** ﴾ فلو أقام المسجد في بيت من بيوت احدى القبيلتين الموجودتين في المدينة لوجدت القبيلة الأخرى في نفسها شيئًا من ذلك واعتبرته تفضيلاً لها فكان هذا العمل من الرسول ﷺ فيه من الحكمة ما لا يخفى .

---

(١) الإعلام في صدر الإسلام عبد اللطيف حمزة ص١٣٥ .

(٢) الإعلام في صدر الإسلام ، ص١٣٥ .

(٣ ، ٤) انظر : الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم ص٦٢ .

(٥) الإعلام والإسلام - إبراهيم إمام ص٧٣ .

والحقيقة أنه ما من مكان في الأرض يستطيع تحقيق ما يحققه المسجد من توحيد في الكلمة والجهود والقضاء على العصبيات، إذا وجد من يحسن الاستفادة منه من الناحية الإعلامية(١) .

٣- بيعة الرضوان:

قال تعالى: ﴿ لَقَدْ رَضِيَ اللَّهُ عَنِ الْمُؤْمِنِينَ إِذْ يُبَايِعُونَكَ تَحْتَ الشَّجَرَةِ فَعَلِمَ مَا فِي قُلُوبِهِمْ فَأَنزَلَ السَّكِينَةَ عَلَيْهِمْ وَأَثَابَهُمْ فَتْحًا قَرِيبًا ﴾ (الفتح، آية: ١٨) .

خرج رسول الله ﷺ مع بعض أصحابه وكانوا نحواً من ألف وخمسمائة من المدينة قاصدين بيت الله الحرام للزيارة وكان هذا بعد غزوة الأحزاب بعام "فلما اقتربوا من مكة وجدوا قريشًا تستعد لقتالهم، فبعث إليهم الرسول ﷺ عثمان بن عفان يقترح عليهم عقد صلح بين الفريقين وسرت شائعة بأن عثمان قد قتل "(٢) .

فلجأ الرسول ﷺ إلى أسلوب إعلامي يشعر القرشيين بقوة المسلمين وأنهم على استعداد لقتالهم والانتصار عليهم فجمع أصحابه ودعاهم إلى المبايعة " فبايعوه تحت شجرة على قتال المشركين وأن لا يفروا حتى يموتوا " فلما علمت قريش بهذه البيعة وأن المسلمين عازمون على الدخول في الحرب معهم دخل الرعب في قلوبهم واضطروا في الدخول إلى المفاوضات السّلمية التي كانت الهدف الأساسي للرسول ﷺ من استخدام هذا الأسلوب وكانت قريش ترفض هذه المفاوضات فعقد معهم " هدنة الحديبية " التي اعتبرها الله تعالى - فتحًا للمؤمنين وامتن بها على رسوله ﷺ بقوله ﴿ إِنَّا فَتَحْنَا لَكَ فَتْحًا مُّبِينًا ﴾ (الفتح، آية: ١) .

٤- البعثات النبوية:

قال تعالى: ﴿تَبَارَكَ الَّذِي نَزَّلَ الْفُرْقَانَ عَلَىٰ عَبْدِهِ لِيَكُونَ لِلْعَالَمِينَ نَذِيرًا﴾ (الفرقان: ١)

---

(١) انظر: الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم ص٦٢ .

(٢) الإعلام في صدر الإسلام ص١٦١ .

في هذه الآية الغـاية التي من أجلهـا أنزل القرآن على الرسـول ﷺ وهي إنذار العالمين وتخـويفهم من بأس الله ونقمـته وبيان رضـا الله من سخطه . وفي هذا دلالة واضحة على أن هذه الرسالة عالمية " وغايتها نقل هذه البشرية كلها من عهد إلى عهد ومن نهج إلى نهج عن طريق هذا الفرقان الذي نزّله الله على عبده ليكون للعالمين نذيراً "[١] .

وإذا كانت هـذه الدعوة عالميـة فلا بد أن يكون إعـلامهـا كذلك ، فـالرسول ﷺ والمسلمون مكلفـون بتبليغ هذه الرسالة إلى جميع الـناس بشتى الأساليب الإعلامية .

ولذا فإننا نرى الرسول ﷺ عند أول فرصة وجـدها بعد صلح الحديبية قام بإرسال البـعوث الدينيـة إلى القبـائل العربيـة المجاورة وإلى الأمم خـارج الجزيرة العربية للتبشير بهذه الرسالة تنفيذاً لأمر الله تعالى بتعميم هذه الرسالة .

ولقد حقق هذا النَّوع من الأساليب عدَّة أهداف من أهمها:-

١- إشعار العرب والعجم وغيرهم " أن الإسلام ليس خاصًّا بالعرب وحدهم ولكنه عام لجميع الناس "[٢].

٢- قبول هذه الدعـوة والترحيب بها من قبل بعض الأمـراء والملوك الموجهة إليهم كـما فـعل المقوقس والنَّجـاشي وإن كان البعض رفـضهـا وأساء الرد على صاحبها كما فعل كسرى .

وهذا النوع من الأساليـب يستخدم فـي عصرنا هذا لتـوثيق الروابط السياسـية والاقـتـصـادية والاجـتـمـاعـيـة بين الدول عن طـريق السـفـارات والمبـعـوثين الدبلوماسيين[٣] .

---

(١) في ظلال القرآن (٥/٢٥٤٨) .

(٢) الإعلام في صدر الإسلام ص١٥٥ .

(٣) انظر : الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم ص٦٥ .

ومن خلال هذه المعالم القرآنية والممارسة النبوية الشريفة نتيقن أن الاهتمام بالإعلام وتوظيفه لخدمة الدعوة والتمكين لدين الله من الوسائل المهمة واللازمة للحركات الإسلامية المعاصرة ، ولقد استطاعت بعض الحركات الإسلامية مثل ، التركية أن تستخدم القنوات الفضائية والإذاعية والتلفزيونية والجرائد والمجلات لخدمة الدعوة الإسلامية وحققت نتائج مبشرة في هذا الميدان وكذلك الحركة السودانية التي تحاول أن تجعل من وسائل الإعلام وسيلة لخدمة الإسلام في العالم وأثبتت للعالم أجمع أن الكوادر الإسلامية قادرة على أن تقدم للعالم أروع الأمثلة في العيش للقضايا الإنسانية من خلال التصور الإسلامي .

إن الأخذ بالوسائل الإعلامية المعاصرة يساعد الحركات الإسلامية والدعاة إلى الإسلام عمومًا بالتعريف بأهداف الدعوة ومقاصدها ، ليعلم الناس أن قضية الإسلام قضية عادلة ، لا كما يصورها الأعداء بنعوت وأسماء زائفة تخالف الحقيقة ، إن في عصرنا يمكن توظيف وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية للقيام بوظيفة البلاغ المبين ، وإيصال رسالة الإسلام إلى كافة الفئات الاجتماعية ، حيث يستفيد الدعاة من التطور التقني الهائل في مجالات الاتصال لتبليغ دعوتهم ونشر أفكارهم وعقيدتهم[١] .

ولقد ترك لنا الداعية الكبير والعالم القدير زعيم الجماعة الإسلامية في باكستان العلامة أبو الأعلى المودودي تجربة رائعة في توظيف المجال الإعلامي للدعوة الإسلامية تركت آثارًا على المحيط المحلي للدعوة والمحيط العالمي واستفاد من كافة الوسائل الإعلامية المتاحة لديه من صحافة ، ومؤلفات ، ومحاضرات ، ومجالس ، ومراسلات ومكاتبات ، وفتاوى وتفسير وقدوة حسنة وخدمات اجتماعية ، ولقاءات في الإذاعة وأثمرت تلك الجهود عن ظهور آثار عالمية ونجحت في تحقيق بيان الإسلام للناس :

---

(١) البيان ، العدد ١١٨ ص١٠ .

أ- الآثار المحلية:

١- إنقاذ المسلمين من خدعة القومية الهندية الواحدة ·

٢- هدم سيطرة الحضارة الغربية على المسلمين ·

٣- جمع الرأي العام على المطالبة بتطبيق الشريعة ·

٤- المساهمة الفعالة في قيام باكستان ·

٥- إزالة الجمود الديني والمزج بين القديم والحديث ·

٦- تكوين عمل منظم لإعادة الإسلام عن طريق الجماعة الإسلامية ·

٧- إبراز أخلاق الإسلام السياسية ونظافتها على عكس السياسة المعاصرة ·

٨- إثراء الأدب والفكر الإسلامي ·

٩- جمع شمل العلماء على معالي الأمور ·

١٠- اتساع دائرة التعاون وخدمة الخلق ·

١١- إبراز الوجه الشمولي للإسلام(١) ·

ب- آثار إعلام المودودي العالمية:

١- توعية العرب والمسلمين بحقيقة الإسلام ·

٢- فضح التآمر الصليبي وغارته على العالم الإسلامي ·

٣- تنشيط وإثراء البحوث والدراسات الإسلامية على العالم ·

٤- إقناع الناس بالإسلام(٢) ·

إن الأخذ بوسائل الإعـلام الحديثة تعين الدعاة إلى الله علـى توصيل الأمور الآتية إلى الناس:

---

(١) انظر: فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودي ص٣٨٣ إلى ٣٨٩ ·

(٢) انظر: فقه الدعوة الإسلامية والإعلام للمودودي ص٤٠٣ إلى ٤٠٧ ·

١- الدعوة إلى الله:

بتعريف الناس بحقيقة الإسلام ونظرته للخلاق العليم والكون والحياة والإنسان.

٢- تعريف المسلمين بحقائق الدين:

من عقائد ومعاملات وسلوك وأخلاق، وتربيتهم تربية صالحة وإعدادهم إعدادًا يتناسب مع رسالتهم الإسلامية، ومسئوليتهم في الحياة .

٣- إبراز دور الإسلام:

وكيف أنه قام بإخراج الناس من الظلمات إلى النور ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة، وكيف انتصرت القلة المؤمنة بتمسكها بدين الله .

٤- **استنفار الأمة للدعوة والجهاد** وحشد الطاقات حتى تقوى الأمة وتصبح صفًّا واحدًا متينًا، وتكون مرهوبة الجانب فلا يطمع فيها الأعداء، ولا يستخف بقوتها الكفار، بل يعملون لها ألف حساب .

٥- الرد على الشبهات:

التي يثيرها أعداء الإسلام التقليديون من يهود ونصارى ودحض مفترياتهم وإبطال حججهم الزائفة .

٦- الرد على النظريات والمذاهب المادية الحديثة:

كالشيوعية والاشتراكية والرأسمالية والفاشية والنازية والوجودية والماسونية واليهودية .. إلخ ودحض مفترياتها وبيان دين الله الحق عنها[١] وغير ذلك من الأمور .

إن من الأهمية بمكان الأخذ بوسائل الإعلام بحيث يوظفها العاملون في الدعوة الإسلامية لخدمة الإسلام والتمكين له في دنيا الناس .

---

(١) انظر : فقه الدعوة الإسلامية والإعلام للمودودي ص٢٦ إلى ٢٧ .

خامسًا: الإعداد الأمني:

إن من أهم أسباب التمكين أن ينشأ الحس الأمني للأفراد العاملين منذ دخولهم في العمل الجماعي وأن تشكل لجان ومكاتب وتتحول مع توسع الحركة إلى مؤسسات ثم إلى وزارة بعد وصول الإسلاميين إلى الحكم .

أ- ولقد أشار القرآن الكريم إلى أهمية هذا الجانب في آيات عديدة منها:

١- قوله تعالى:

﴿ وَلا يَنَالُونَ مِنْ عَدُوٍّ نَّيْلاً إِلاَّ كُتِبَ لَهُم بِهِ عَمَلٌ صَالِحٌ ﴾ (التوبة : ١٢٠) .

وتشير الآية الكريمة على أن كل نيل من العدو عليه جزاء[1] وإن استطلاع أخبار العدو ومعرفة مواطن الضعف فيه، ومواقع آليته ومنشآته يعتبر نيلاً لأن ذلك يوصل للتخطيط السليم المؤدي إلى الظفر به .

٢- قال تعالى: **﴿ يَا بَنِيَّ اذْهَبُوا فَتَحَسَّسُوا مِن يُوسُفَ وَأَخِيهِ وَلا تَيْأَسُوا مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِنَّهُ لا يَيْأَسُ مِن رَّوْحِ اللَّهِ إِلاَّ الْقَوْمُ الْكَافِرُونَ﴾** (سورة يوسف، الآية: ٨٧) .

وجه الاستدلال: أن يعقوب عليه السلام قد طلب من أبنائه أن يتحسسوا ويبحثوا عن يوسف وأخيه، وفي هذا إقرار من أحد أنبياء الله في جمع المعلومات عن الآخرين، ويعتبر جمع المعلومات من العناصر الأساسية في علم الاستخبارات، ويؤكد على مبدأ جمع المعلومات (**وَلا تَيْأَسُوا**)[2] .

٣- قال تعالى: **﴿فَمَكَثَ غَيْرَ بَعِيدٍ فَقَالَ أَحَطتُ بِمَا لَمْ تُحِطْ بِهِ وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾** (سورة النمل، الآية:٢٢) .

إن الآية الكريمة ذكرت مبدأ من مبادئ الاستخبارات وهو مبدأ جمع المعلومات، حيث إن الظروف التي جمعت فيها المعلومات هي ظروف حرب

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١١) .

(٢) انظر الاستخبارات العسكرية في الإسلام عبد الله علي ص١٠٥ .

بدليل قوله تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ﴾ (سورة النمل، الآية: ١٧). نلحظ في هذه الآية تطبيق عناصر الاستخبارات التي هي:

- إقرار مبدأ الحصول على المعلومات، إذ أقر سليمان الهدهد ثم أرسله مرة أخرى: ﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (النمل: ٢٧) ثم قال ﴿اذْهَب بِّكِتَابِي هَذَا فَأَلْقِهْ إِلَيْهِمْ ثُمَّ تَوَلَّ عَنْهُمْ فَانظُرْ مَاذَا يَرْجِعُونَ﴾ (النمل: ٢٨).

- عرض المعلومات المجمعة:

قال تعالى: ﴿إِنِّي وَجَدتُّ امْرَأَةً تَمْلِكُهُمْ وَأُوتِيَتْ مِن كُلِّ شَيْءٍ وَلَهَا عَرْشٌ عَظِيمٌ ﴿٢٣﴾ وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ اللَّهِ وَزَيَّنَ لَهُمُ الشَّيْطَانُ أَعْمَالَهُمْ فَصَدَّهُمْ عَنِ السَّبِيلِ فَهُمْ لا يَهْتَدُونَ . . ﴾ (سورة النمل، آية: ٢٣،٢٤).

- تقييم المعلومات المعروضة وتقرير مدى صحتها:

﴿قَالَ سَنَنظُرُ أَصَدَقْتَ أَمْ كُنتَ مِنَ الْكَاذِبِينَ﴾ (سورة النمل، آية: ٢٧).

- تحليل ودراسة المعلومات واستخلاص النتائج المفيدة منها.

- إمداد المسئولين وإطلاع القادة على المعلومات: فالهدهد كجندي من جنود سليمان رأى أن من واجبه أن يأتي بما حصل عليه من معلومات إلى مسئوله وهو سليمان[1] عليه السلام: ﴿وَجِئْتُكَ مِن سَبَإٍ بِنَبَإٍ يَقِينٍ﴾ (النمل، الآية: ٢٢).

- المباغتة والمفاجأة في جمع المعلومات وتوصيلها وغير ذلك من الدروس والعبر.

٤- قال تعالى: ﴿وَحُشِرَ لِسُلَيْمَانَ جُنُودُهُ مِنَ الْجِنِّ وَالإِنسِ وَالطَّيْرِ فَهُمْ يُوزَعُونَ ﴿١٧﴾ حَتَّى إِذَا أَتَوْا عَلَى وَادِ النَّمْلِ قَالَتْ نَمْلَةٌ يَا أَيُّهَا النَّمْلُ ادْخُلُوا مَسَاكِنَكُمْ لا يَحْطِمَنَّكُمْ سُلَيْمَانُ وَجُنُودُهُ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ﴾ (سورة النمل، الآية: ١٧-١٨).

---

(١) نفس المصدر ص١٠٨.

نلحظ في هذه الآيات الكريمة أن المعلومات السابقة لا تقتصر على بني البشر فقد يستفيد منها الحيوان والطير، إذ استفاد النمل من المعلومات السابقة، فاستعمل وسائل الإنذار المبكر، إذ قالت نملة بلغة جنسها حسب ما وصلت إليه من معلومات: ادخلوا مساكنكم حفاظًا على حياتكم، لأن سليمان وجنوده ربما يدوسون بأرجلهم فوقكم فتحطمون بغير قصد، فقد بينت السبب في توجيه هذا الإنذار إلى جماعتها من النمل بفضل المعلومات المسبقة التي حصلت عليها[(١)] .

٥- قال تعالى: ﴿**وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ ⑪ وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِن قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ**﴾ (سورة القصص، الآية: ١١-١٢) .

ونلحظ في الآيات الآتي:

- استخدام أم موسى مبدأ جمع المعلومات والحصول عليها في حفاظها على ابنها ﴿**وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ**﴾ والتقصي إنما هو تتبع الأثر وجمع المعلومات .

- اختيار العنصر الأمين والحريص في جمع المعلومات لتكن صحيحة وموثقة وأمينة، وقبل ذلك حريصة على تلك المعلومات ﴿**وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ**﴾.

فأم موسى لم تختر غير أخته، لأن الأخت تعتبر من الحريصين والأمناء على تلك المصلحة، وهي تندفع من ذاتها في جمع المعلومات وتحصيل الأخبار. والمهم بمكان أن يكون العنصر المرسل في عملية الاستخبارات أن يكون مندفعًا من ذاته حريصًا على المصلحة المرسل إليها .

- التقصي والتتبع بدون إشارة أو جلب أنظار، ﴿ **قُصِّيهِ**﴾ (القصص، آية: ١١) . إذ نفهم من كلمة التقصي الانتباه وعدم إثارة الأنظار، ودليل ذلك أنها بصرت به دون أن يشعروا بها .

---

(١) في ظلال القرآن (٤/ ١٤١) .

- دقة الملاحظة وقـوة الفراسة أثناء جـمع المعلومات، ﴿فَبَصُرَتْ بِهِ عَن جُنُبٍ وَهُمْ لا يَشْعُرُونَ ﴾ (سورة القصص، الآية: ١١) .

- استـعملت أخت مـوسى شكلاً من أشكال الاسـتخـبارات العصـرية وهو التـخريب الفكري، فـبعـد أن نظرت إليهن وهن غـير قـادرات على إرضـاعه . ﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ﴾ (القصص: ١٢) . وقد قصدت إبـعاد موسى عن المراضع، ليخلص إلى أمها دون إشـعارهم أنها منه بسبيل .

- محاولة تحـقيق الهدف أثناء جمع المعلومات، فـأخت موسى لم تكتف بأن تعرف مكان موسى لتـخبر أمها بمكانه، وإنما هي تقـصت الأخبار، وتوصلت إلى مكانه وحاولت إعادته إلى أمه، وقد نجحت في هذا [(١)] .

٦- قال تعالى : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا خُذُوا حِذْرَكُمْ﴾ (سورة النساء: ٧١) . وقال تعالى: ﴿ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَاحْذَرُوا﴾ (سورة المائدة، آية: ٩٢) . وقال تعالى: ﴿ وَلْيَأْخُذُوا حِذْرَهُمْ وَأَسْلِحَتَهُمْ وَدَّ الَّذِينَ كَفَرُوا لَوْ تَغْفُلُونَ عَنْ أَسْلِحَتِكُمْ وَأَمْتِعَتِكُمْ فَيَمِيلُونَ عَلَيْكُم مَّيْلَةً وَاحِدَةً﴾ (سورة النساء: ١٠٢) .

إن الإعـداد الأمني والاستـخبـاراتي في العـمل الإسلامي من مظاهر الحـذر واليقظة، لأنها تحول دون مفاجآت الأعـداء وتطبيق لآيات القرآن السابقة، كما أن السـعي للحصـول على المعلومـات عن العدو الـداخلي أو الخارجي حـتى يكون التخطيط على أسـاس من أسباب القوة ومظاهرها التي أمـر الإسلام بإعدادها من أسباب التمكين التي ذكرت في قوله تعالى: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ . . ﴾ (الأنفال: ٦٠) .

هذه بعض الإرشادات القرآنية إلى الأخذ بهذا المبدأ والإعداد له والاهتمام به .

---

(١) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام ص١١١، ١١٢ .

ب- أما السيرة النبوية على صاحبها أفضل الصلاة والتسليم فقد تركت لنا معالم مهمة وخطوطًا عريضة في هذا الجانب المهم في حياة المسلمين، فنجد في الفترة المكية من معالمها الكتمان والسرية، ولذلك نجد أن الرسول ﷺ اختار دار الأرقم بن أبي الأرقم كمقر سري للدعوة وكان رسول الله ﷺ يربي أتباعه على العقيدة والأخلاق الرفيعة استعدادًا لمرحلة قادمة، وكان اختياره دار الأرقم بسبب:

١- إن الأرقم لم يكن معروفًا بإسلامه، فما كان يخطر ببال أحد أن يتم لقاء محمد ﷺ بداره .

٢- إن الأرقم بن أبي الأرقم رضي الله عنه من بني مخزوم وقبيلة بني مخزوم هي التي تحمل لواء التنافس والحرب ضد بني هاشم فلو كان الأرقم معروفًا بإسلامه فلا يخطر في البال أن يكون اللقاء في داره، لأن هذا يعني أنه يتم في قلب صفوف العدو .

٣- إن الأرقم بن أبي الأرقم كان فتى عند إسلامه، فلقد كان في حدود السادسة عشرة من عمره، ويوم تفكر قريش في البحث عن التجمع الإسلامي فلن يخطر في بالها أن تبحث في بيوت الفتيان الصغار من أصحاب محمد ﷺ؛ بل يتجه نظرها وبحثها إلى بيوت كبار أصحابه، أو بيته هو نفسه عليه الصلاة والسلام، فقد يخطر على ذهنهم أن يكون مكان التجمع على الأغلب في أحد دور بني هاشم، أو في بيت أبي بكر رضي الله عنه أو غيره، ومن أجل هذا نجد أن اختياره ﷺ هذا البيت كان في غاية الحكمة من الناحية الأمنية، ولم نسمع أبدًا أن قريشًا داهمت ذات يوم هذا المركز وكشفت مكان اللقاء[1] .

ونلحظ أن النبي ﷺ يهتم ببناء الجهاز الأمني لدعوته ويزرع أتباعه في وسط القبائل من أجل السعي لتمكين دعوة الإسلام، فعندما أسلم عمرو بن عنبسة أمره النبي ﷺ أن يكتم إسلامه ويلتحق بأهله، وإذا نظرنا في قصة إسلام أبي ذر رأيت الجوانب الأمنية بارزة في تلك السيرة العطرة .

(١) المنهاج الحركي للسيرة النبوية (١/٤٩) .

وفي بيعـة العقـبة الثانيــة نلحظ أن المسلمين رتبـوا هذا اللقاء ترتيبًـا رفيـعًا، فأخذوا بكافة الاحتياطات الأمنية مــن حيث الزمان والمكان، وعقدوا الاتفاق عقدًا متـينًا وحققـوا ما أرادوا، والمشـركون في غفلة عـمّا يحدث ، وفـي هجرة النبي ﷺ قمم شامخة في مجال التـرتيب الأمني والتخطيط الاستخباراتي، وبعد أن انتـقل النبي ﷺ إلى المدينة نجـده يهـتم بجـمع المعلومـات عن أعـدائه ويربي أصحابه تربية أمنية فريدة من نوعها:

١- روي عن الرسول ﷺ أنه بعث عبد الله بن جـحش رضي الله عنه في السنة الثانية للهجرة في اثني عشر رجلاً من المهـاجرين، وزوده بكتاب مختوم، أمره أن لا ينظر فيه حتى يسير يومـين ويصل إلى موقع معلوم حدده له، فلما وصل ذلك المكان وآن وقت فض الكتاب ، فضـه فإذا فيه "إذا نظرت في كتـابي هذا فامض على اسم الله وبركاته، لا تكرهن أحدًا من أصحابك على السيـر معك، وامض فيمن تبعك حتى تأتي بطن نخلة فترصد بها عير قريش وتعلم لنا من أخبارهم "[1].

نلحظ في هذه المهمة أمورًا منها:

١- إن هذه السرية كـانت سرية استطلاع، غـايتها مـراقبة العـدو واستطلاع أخبـاره على نحو السـرايا الاستكشافـية التي تضعـها الجـيوش أمامـها، أو على جانبهـا، أو على نحو المغافر الأمامـية في جهة القتـال، وكانت مهمتهـا المراقبة، والاستطلاع فقط دون التعرض للأعداء بالتحرش أو الاحتكاك أو القتال، وهذا ما يسمى الاستـخبارات الهجوميـة، هدفها جمع المعلومات عن العـدو فقط لمصلحة الدولة الإسلامية .

٢- إن الرسول ﷺ أمـر أن تبقى سِرِّية حـتى على من يحملها وسـينفذها أخذًا بالاحتياط اللازم وخوفًا من تسرب أدنى معلومة للعدو، وتربية لأصحابه أن المعلومة تكون على قدر الحاجة[2] .

---

(١) سنن البيهقي: (١٢/٩) .

(٢) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام ص١١٤ .

وفي غزوة بدر ترك النبي ﷺ دروسًا وعبـرًا وحكمًا لجمع المعلومات على الأعـداء وتوظيـفـها لنـزع النصـر من المشركـين، فنلحظ أن النبي ﷺ جـمع مـعلومات مـتكاملة على الأعـداء، وقام ﷺ بالإشـراف المباشـر على جهـاز الاستخبارات وساهم بنفسـه وبغيره في جمع المعلومات عن مشركي مكة، ويمكن لنا أن نحـصـر أساليـب الاستطلاع التـي قام بهـا النبي ﷺ للحـصـول على المعلومات من مشركي مكة .

- أرسل بسيسـة بن عمرو وعدي بن أبي الزغـباء حتى يأتياه بخبـر عير أبي سفيان، فعادا وأخبراه بموعد وصول العير(١) .

- قيامه ﷺ ، وبصحبته أبي بكر الصديق ﷺ بتحرٍّ المكان الذي توجد فيه قريش، وقد حصل له ما أراد عندما وقف على شيخ من العرب وسأله عن المكان الذي توجد فيه قريش .

- استنطاق الأسـيرين اللذين قـبض عليهـما الصحـابة واستـفاد ﷺ من استنطاق هذين الأسيرين أمور مهمة جدًّا منها:

- عدد أفراد جيش المشـركين، موقع قريش، قيادة جيش المـشركين ومَنْ فيه من أشراف مكة(٢) .

وعتم النبي ﷺ على المشركين أخبار المسلمين وقام بأمـر الكتمان خير قيام وكان صـفة بارزة له في غـزواته كلهـا، فعن كعـب بن مالك ﷺ قـال: (كان رسول الله ﷺ قلّما يريد غزوة إلا ورّى بغيرها . . .)(٣) .

وفي غزوة بدر مـارس رسول الله ﷺ هذا العمـل الأمني ليرشد الأجـيال على مرّ العصور وكرّ الدهور إلى أهميته وتجلى ذلك في الآتي:

---

(١) مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (٣/ ١٥١٠) رقم ١٥٠١ .

(٢) انظر: العبقرية العسكرية . لواء محمد فرج ص٥٧،٥٨ .

(٣) مسلم، كتاب الجهاد والسير، باب الإمداد بالملائكة (٣/ ١٣٨٣) رقم ١٧٦٧ .

- سؤاله ﷺ الشيخ الذي لقيه في بدر عن محمد وجيشه وعن قريش وجيشها .

- تورية الرسول ﷺ في إجابته على سؤال الشيخ : " ممَ أنتما؟ بقوله ﷺ : (نحن من ماء) . وهو جواب يقتضيه المقام، فقد أراد به الرسول ﷺ كتمان أخبار جيش المسلمين .

وفي انصرافه فور استجوابه كتمان - أيضًا - وهو دليل على ما يتمتع به رسول الله ﷺ من الحكمة، فلو أنه أجاب هذا الشيخ ثمّ وقف عنده لكان هذا سببًا في طلب الشيخ بيان المقصود من قوله ﷺ : " من ماء "[1].

- أمره ﷺ بقطع الأجراس من الإبل يوم بدر، فعن عائشة رضي الله عنها أن رسول الله ﷺ أمر بالأجراس أن تقطع من أعناق الإبل يوم بدر .

- كتمانه ﷺ خبر الجهة التي يقصدها عندما أراد الخروج إلى بدر، حيث قال ﷺ : (. . إن لنا طِلْبة فمن كان ظهره حاضرًا فليركب معنا . . .)[2].

وقد استدل الإمام النووي - رحمه الله - بهذا الحديث على استحباب التورية في الحرب، وأن لا يبين القائد الجهة التي يقصدها، لئلا يشيع هذا الخبر فيحذرهم العدو)[3] .

وكان ﷺ يهتم بحركة عدوه ولذلك كانت حركة الاختراق في القبائل المعادية واسعة جدًّا ولذلك باغت ﷺ أعداءه مرّات عديدة، وأفشل خططهم العدائية، ولما أرادت قريش أن تباغت رسول الله ﷺ بعد بدر كان مكتب استخبار مكة التابع للقيادة في المدينة يبعث بالمعلومات أولاً بأول إلى قيادته .

لقد حرص الرسول ﷺ على استطلاع أخبار قريش، وكان يستعين بعمه

---

(١) انظر: ابن هشام (١/ ٦١٦) .

(٢) مسلم، كتاب الإمارة، باب ثبوت الجنة للشهيد (٣/ ١٥١٠) رقم ١٩٠١ .

(٣) انظر: شرح النووي لصحيح مسلم (١٣/ ٤٥) .

العباس، قال ابن عبد البر[١]- رحمه الله - (وكان ﷺ يكتب بأخبار المشركين إلى رسول الله ﷺ وكان المسلمون يتقوّوْن به بمكة، وكان يحب أن يقدم على رسول الله ﷺ ، فكتب إليه رسول الله ﷺ أن مقامك في مكة خير)[٢] .

لقد كان جهاز الاستخبارات الإسلامية في مكة دقيقًا جدًّا وحقق نجاحات مهمة، ولقد قاد العباس بن عبد المطلب هذا الجهاز بكل جدارة ونشاط، وكانت معلوماته دقيقة وبياناته صحيحة فمن هذه المعلومات التي وصلت رسالته إلى النبي ﷺ : (إن قريشًا قد أجمعت المسير إليك فما كنت صانعًا إذا حلّوا بك فاصنعه، وقد توجّهوا إليك وهم ثلاثة آلاف وقادوا مائتي فرس وفيهم سبعمائة درع وثلاثة آلاف بعير وأوعبوا[٣] من السلاح)[٤] .

لقد احتوت هذه الرسالة على أمور مهمة منها:

١ - معلومات مؤكدة عن تحرك قوات المشركين نحو المدينة؛ ولذلك استعد النبي ﷺ وشرع في أخذ العدة لمواجهة هذا الجيش العرمرم .

٢ - حجم الجيش وقدراته القتالية وهذا يعين على وضع خطة تواجه هذه القوات الزاحفة .

إن النبي ﷺ لم يكتف بمعلومات المخابرات المكية؛ بل حرص على أن تكون معلوماته على هذا العدو متجددة مع تلاحق الزمن، وفي هذا إرشاد لقادة المسلمين إلى أهمية متابعة الأخبار التي يتولد عنها وضع خطط واستراتيجيات نافعة، فحين وصل جيش المشركين إلى مكان، يقال له العرْض[٥]، أرسل الرسول ﷺ الحباب بن المنذر فدخل بين جيش مكة وحزر عَدَدَهُ وعُدَدَهُ ورجع وأخبر

---

(١) هو يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر توفي ٤٦٣هـ تذكرة الحفاظ (٣/ ١١٢٨) .

(٢) الاستيعاب (٢/ ٨١٢) .

(٣) استوعبه إذا أخذه أجمع .

(٤) مغازي الواقدي (١/ ٢٠٤) .

(٥) العِرضْ: هو الجُرف، موضع في المدينة .

النبي ﷺ ، ولما بلغ الجيش ذا الحليفة أرسل الرسول ﷺ عينين له وهما، ابنا فضالة، فاعترضا لقريش بالعقيق فسارا معهم حتى نزلوا بالوِطاء ثم رجعا إلى المدينة وأخبرا الرسول ﷺ بذلك[١] .

ولقد حرص النبي ﷺ على حصر تلك المعلومات على المستوى القيادي خوفًا من أن يؤثر هذا الخبر على معنويات المسلمين قبل إعداد العدة من تخطيط وترتيب، ولذلك حين قرأ أبيّ الرسالة على النبي ﷺ استكتمه ما فيها . وحينما دخل بيت سعد بن الربيع قال: (أفي البيت أحد) ؟ فقال سعد: لا، فتكلم بحاجتك، فأخبره بكتاب العباس بن عبد المطلب، فانصرف رسول الله ﷺ واستكتم سعدًا الخبر[٢] .

وفي هذا تعليم للقيادة الإسلامية على أهمية كتم الأسرار وما يتصل بها حتى عن أقرب الناس إليهم من زوجات وأولاد ومَنْ في حكمهم، وإذا دعت الضرورة إلى نشر شيء من ذلك، فينبغي أن يكون لمن يحفظ السّر حتى لا يلحق المسلمون بسبب ذلك ضرر .

وبعد أن عقد المجلس الاستشاري ﷺ ووضعت الخطة المناسبة، اختار ﷺ الوقت المناسب للتحرك والطريق التي تناسب خطته، فقد تحرك بعد منتصف الليل، حيث يكون الجو هادئًا، والحركة قليلة ، وفي هذا الوقت بالذات يكون الأعداء - غالبًا - في نوم عميق، لأن الإعياء ومشقة السفر قد أخذ منهم مجهودًا كبيرًا .

ومن المعروف من نام بعد تعب يكون ثقيل النوم، فلا يشعر بالأصوات العالية والحركة الثقيلة .

قال الواقدي - رحمه الله - : (ونام رسول الله ﷺ حتى أدلج، فلما كان

(١) انظر: المغازي الواقدي (١/٢٠٦،٢٠٨) .
(٢) المصدر نفسه (١/٢٠٤،٢٠٥) .

من السَّحَر قـال : " أين الأدلاء؟ ")(١) . ثمّ إنه ﷺ اختـار الطريق المناسب الذي يسلكه حـتى يصل إلى أرض المعركـة وذكر صفـة ينبغي أن تتـوافر في هذا الطريق وهو السّرية، حتى لا يرى الأعداء جيش المسلمين، فقال ﷺ لأصحابه: " من رجل يخرج بنا على القوم من طريق لا يمر بنا عليهم"؟ فـأبدى أبو خيثمة ﷺ استعداده قائلاً : أنا يا رسول الله ونفذ به بين بساتين بني الحارثة(٢) ولا شك في أن مروره ﷺ بين الأشجار والبسـاتين يدلنا على حرصه ﷺ على الأخذ بالاحتياطات الأمنية المناسبة في أثناء السير، لأن الطرق العامة تكشف للأعداء عن مقدار قوات المسلمين وهذا أمر محذور .

فـالرسول ﷺ يعلّم الأمـة الأخـذ بالسرية من حـيث المكان، ومن حـيث الزمان، لئلا يتمكن الأعداء من مـعرفة قواتهم فيضعوا الخطط المناسبـة لمجابهتها، وبذلك يذهب تنظيم القادة وإعدادهم مهب الرياح(٣) .

وفي غزوة الخندق يظهر دور جهاز أمن الدولة الإسلامية بارزًا، فقد كان يتابع أخبار الأحزاب ويرصـد تحركاتهم ويزود القيادة بكافة المعلومـات، فقام فرع مكة الأمني بإرسـال معلومـات دقيـقة ساعـدت القيـادة في رسم الخطط قبـل وصول الأعداء للمدينة، وأرسل ﷺ طليعة تتـابع الأمور على كثب وترسل المعلومات الدقيقة، ولقد كان حفر الخندق مفاجأة مذهلة لأعداء الإسلام وأبطل خطتهم التي رسموها وكـان من عوامل تحقيق هذه المفـاجأة ما قام به المسلمـون من إتقان رفيع لسريـة الخطة وسرعة إنجـازها، وكان هذا الأسلوب الجـديد في القتـال له أثر في إضعـاف معنويات الأحـزاب وتشتـيت قواتهم ومـارس ﷺ سلاح التـشكيك والدعاية لتمـزيق ما بين الأحزاب من ثقة وتضامن بعـد أن ساق المولى عز وجل نعيم بن مسعود الغطفاني إلى رسـول الله ﷺ ليعلن إسلامه وقال له: يا رسول

---

(١) نفس المصدر السابق.

(٢) انظر: ابن هشام: (٣/ ٦٥) .

(٣) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول ﷺ ص٤٦٨ .

الله إن القوم لم يعلموا بإسلامي فمرني بما شئت، فقال له رسول الله ﷺ : إنما أنت فينا رجل واحد فخذل عنا إن استطعت، فإن الحرب خدعة . . [١] .

فقام نعيم بن مسعود بزرع الشك بين الأطراف المتحالفة بأمر من رسول الله ﷺ ، فأغرى اليهود بطلب رهائن من قريش لئلا تدعهم وتنصرف عن الحصار. وقال لقريش بأن اليهود إنما تطلب الرهائن لتسليمها للمسلمين ثمنًا لعودتها إلى صلحهم، لقد اشتهرت قصة نعيم بن مسعود في كتب السيرة وإن كانت لا تثبت من الناحية الحديثية إلا أنها لا تتنافى مع قواعد السياسة الشرعية فالحرب خدعة[٢] وقد نجحت دعاية نعيم بن مسعود أيما نجاح، فغرست روح التشكيك وعدم الثقة بين قادة الأحزاب، مما أدى إلى كسر شوكتهم، وتهبيط عزمهم . وكان من أسباب نجاح مهمة نعيم قيامها على الأسس التالية:

١- أنه أخفى إسلامه عن كل الأطراف، بحيث وثق كل طرف فيما قدمه له من نصح .

٢- أنه ذكَّر بني قريظة بمصير بني قينقاع وبني النضير وبصّرهم بالمستقبل الذي ينتظرهم إن هم استمروا في حروبهم للرسول ﷺ ، فكان هذا الأساس سببًا في تغيير أفكارهم وقلب مخططاتهم العدوانية .

٣- أنه نجح في إقناع كل الأطراف بأن يكتم كل طرف ما قال له وفي استمرار هذا الكتمان نجاح في مهمته، فلو انكشف أمره لدى أي طرف من الأطراف لفشلت مهمته، وقد حققت مساعي نعيم في تخذيل بني قريظة أمرين مهمين لجيش النبي ﷺ وهما:

١- أن المسلمين بعد انسحاب بني قريظة من التحالف مع الأحزاب أصبحوا في أمان لأن هؤلاء اليهود كانوا يسكنون المدينة فلو بقوا في هذا التحالف لما أمن

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ١٣) .

(٢) انظر: السيرة النبوية الصحيحة (٢/ ٥٣٠) .

المسلمون من توجيه طعنة لهم من الخلف مع أنهم مشغولون بمواجهة خصمهم من الأمام .

٢- إن المسلمين اطمأنوا إلى أن بني قريظة سيستمرون في إمدادهم بالمؤن التي يتطلبـها الموقف، وذلك لشدة حـاجتـهم إليها وانشـغالهم عن توفـيرها بمواجـهة الأعداء[١] .

وكلف ﷺ الزبير بتـتبع أحوال بني قريظة وجـمع المعلومات عن نواياهم، ومـدى التزامـهم بالعهـد، ورصد حـركتـهم المريب[٢] ومع أخذه ﷺ بـكافة الأسباب إلا أنه ﷺ كان كـثير التضرع والدعاء والاستعـانة بالله وخصوصًا في مغـازيه وعندما اشـتد الكرب عـلى المسلمين أكثـر مما سبق حـتى بلغت القلوب الحناجر وزلزلوا زلزالاً شديدًا وجاء المسلمون إلى النبي ﷺ وقالوا يا رسول الله هل من شيء نقوله؟ فقد بلغت القلوب الحناجر؟

قال نعم: " اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا "[٣] .

ودعا ﷺ : " اللهم منزل الكتاب سريع الحساب اهزم الأحزاب، اهزمهم وزلزلهم "[٤] .

وقـال ﷺ : " لا إله إلا الله وحـده، أعـز جنده ونصـر عـبـده وغلب الأحزاب وحده فلا شيء بعده "[٥] .

فاسـتجاب الله - سبـحانه - دعاء نبـيه ﷺ فأقـبلت بشائر الفرج، فـقد صرفهم الله بحوله وقوته وزلزل أبدانهم وأنزل الـرعب في قلوبهم وشتت جمعهم بالخلاف، ثم أرسل عليهم الريح البـاردة الشديدة وألقى الرعب في قلوبهم وأنزل

---

(١) انظر: القيادة العسكرية في عهد الرسول (ص٤٧٧ .

(٢) أنظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام ص١١٩ .

(٣) رواه أحمد في مسنده عن أبي سعيد الخدري عن أبيه (١٨/٨) .

(٤) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الخندق (٥٩/٥) رقم ٤١١٥ .

(٥) المصدر نفسه .

جنودًا من عنده سبحانه وتعالى، وكان ﷺ يتابع الأمر وأحب أن يتحرى عن ما حدث عن قرب فقال: (ألا رجل يأتينا بخبر القوم، جعله الله معي يوم القيامة)[1]، فاستعمل ﷺ أسلوب الترغيب وكرره ثلاث مرات وعندما لم يُجْد هذا الأسلوب لجأ إلى أسلوب الجزم والحزم في الأمر، فعين واحدًا بنفسه فقال: " قم يا حذيفة فائتنا بخبر القوم ، ولا تذعرهم عليّ ".

وفي هذا معنى تربوي وهو أن القيادة الناجحة هي التي توجه جنودها إلى أهدافها عن طريق الترغيب والتشجيع، ولا تلجأ إلى الأمر والحزم إلا عند الضرورة .

قال حذيفة رضي الله عنه : " فمضيت كأنما أمشي في حمام فإذا أبو سفيان يصلي ظهره بالنار فوضعت سهمًا في كبد القوس وأردت أن أرميه ثم ذكرت قول رسول الله ﷺ لا تذعرهم عليّ ولو رميته لأصبته فرجعت كأنما أمشي في حمام، فأتيت النبي ﷺ وأصابني البرد حين رجعت وقررت فأخبرت رسول الله ﷺ ألبسني فضل عباءة كانت عليه يصلي فيها، فلم أبرح نائمًا حتى الصبح، فلما أن أصبحت قال رسول الله ﷺ " قم يا نومان "[2] .

ونستنبط من هذا الموقف دروسًا مهمة منها:

١- اختيار الرسول ﷺ حُذيفة رضي الله عنه ليقوم بمهمة التجسس على الأحزاب يدل على معرفته ﷺ بمعادن الرجال، وأن مَعدن حُذيفة معدن ثمين[3] فهو شجاع ولا يقوم بهذه الأعمال إلا من كان ذا شجاعة نادرة، فهذا العمل يُكلفه حياته فلو اكتشفه الأعداء لكانت عُقوبته الموت صلبًا، ومع هذا أقدم على تنفيذ الأوامر .

---

(١) مسلم، كتاب الجهاد والسير باب غزوة الأحزاب (٣/ ١٤١٤) رقم ١٧٨٨ .

(٢) المصدر نفسه .

(٣) السيرة النبوية دراسة تحليلية د. محمد أبو فارس ص٣٦٦ .

٢- و ضوح الأمر العسكري الذي وجهه الرسول ﷺ إلى حذيفة .

٣- الانضباط العسكري الذي كان يتحلى به حـذيفة في تنفيذ الأوامر ونجاحه في الدور الذي أمر به وقـيامه بالمهـمة خيـر قيام ورجع وقـدم المعلومات اليقـينية الصادقة للرسول ﷺ .

وفي فتح مكة لما قرّر النبي ﷺ فـتحها حرص على مباغـتة قريش، وكتم الأمر حتى لا يصل الخبـر إلى قريش فتعدّ العدة لمجابهتـه وتصدّه قبل أن يبدأ في تنفيذ هدفه وشرع في الأخذ بالأسباب الآتية لتحقيق مبدأ المباغتة:

١- أنه كتم أمره حتى على أقرب الناس إليه:

قال ابن إسحاق - رحمه الله - : (إن أبا بكر دخل على عائشة وهي تغربل حنطة فقال: ما هذا؟ أمركم رسـول الله ﷺ بالجهاز؟ قالت: نعم، قال: وإلى أين؟ قالت: ما سمى لنا شيئًا، غير أنه قد أمرنا بالجهاز[(١)] .

٢- أنه بعث سرية بقيادة أبي قتادة إلى بطن إضَم:

بعث النبي ﷺ قـبل مـسيـرة مكة سـرية مكونة من ثمـانية رجـال وذلك لإسدال الستار على نيته الحقيقية، وفي ذلك يقول ابن سعد : (لما همّ رسول الله ﷺ بغـزو أهل مكة بعث أبا قـتـادة بن ربعي في ثمـانية نفـر سـرية إلى بطن إضَم،[(٢)] ليظن ظان أن رسـول الله ﷺ توجـه إلى تلك الناحـيـة ولأن تذهب بذلك الأخبـار . . . فمضـوا ولم يلقوا جمـعًا فانصـرفوا حتى انتـهوا إلى ذي خُشُب[(٣)]، فـبلغـهم أن رسـول الله ﷺ قد توجـه إلى مكة، فـأخـذوا على "بيبن" ، حتى لقوا النبي ﷺ بالسُّقْيا[(٤)]، [(٥)] .

---

(١) البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢) .

(٢) بطن إضَم: وادي المدينة الذي تجتمع فيه الوديان الثلاثة: بطحان، وقناة، والعقيق .

(٣) ذو خشب: موضع على مرحلة من المدينة إلى الشام يبعد ٣٥ ميلاً عن المدينة .

(٤) السقيا: موضع يقع في وادي القرى: معجم البلدان (٣/ ٢٨٨) .

(٥) الطبقات الكبرى لابن سعد (٢/ ١٣٢) .

٣- أنه بعث العيون لمنع وصول المعلومات إلى الأعداء :

بث رسول الله ﷺ عيونه داخل المدينة وخارجها حتى لا تنتقل أخباره إلى قريش " وأخذ رسول الله ﷺ بالأنقاب[1]، فكان عمر بن الخطاب ؓ يطوف على الأنقاب قيمًا بهم فيقول: " لا تدعوا أحدًا يمر بكم تنكرونه إلا رددتموه . . إلا من سلك إلى مكة فإنه يتحفظ به ويسأل عنه أو ناحية مكة " .

٤- دعاءه ﷺ بأخذ العيون والأخبار عن قريش:

فعندما أعلم رسول الله ﷺ الناس أنه سائر إلى مكة وأمر بالجد والتهيؤ قال : (اللهم خذ العيون والأخبار عن قريش حتى نبغتها في بلادها)[2] .

وهذا شأن النبي ﷺ في أموره يأخذ بكافة الأسباب البشرية ولا ينسى التضرع والدعاء لرب البرية ليستمد منه التوفيق والسداد .

٥- إحباط محاولة تجسس حاطب لصالح قريش:

عندما أكمل النبي ﷺ استعداده للسير إلى فتح مكة، كتب حاطب بن أبي بلتعة كتابًا إلى أهل مكة يخبرهم فيه نبأ تحرك النبي ﷺ إليهم، ولكن الله سبحانه وتعالى أطلع نبيه ﷺ عن طريق الوحي على هذه الرسالة، فقضى ﷺ على هذه المحاولة وهي في مهدها، فأرسل النبي ﷺ عليًّا والمقداد فأمسكوا بالمرأة في روضة خاخ على بعد اثني عشر ميلاً من المدينة، وهددوها أن يفتشوها إن لم تخرج الكتاب فسلمته لهم . ثم استدعى حاطب ؓ للتحقيق فقال: (يا رسول الله، لا تعجل عليَّ، إني كنت امرءًا ملصقًا في قريش - يقول: كنت حليفًا - ولم أكن من أنفسها، وكان من معك من المهاجرين من لهم قرابات يحمون بها أهليهم وأموالهم، فأحببت إذ فاتني ذلك من النسب فيهم أن اتخذ عندهم يدًا يحمون قرابتي، ولم أفعله ارتدادًا عن ديني ولا رضًا بالكفر بعد

(١) الأنقاب جمع نقب وهو كالعريف على القوم .
(٢) البداية والنهاية (٤/ ٢٨٢) .

الإسلام فقال رسول الله ﷺ : (أما إنه قد صدقكم) ، فقال عمر رضي الله عنه : يا رسول الله، دعني اضرب عنق هذا المنافق: فقال: " إنه قد شهد بدرًا، وما يدريك لعل الله اطلع على من شهد بدرًا قال : اعملوا ما شئتم فقد غفرت لكم[1] . فأنزل الله : ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَتَّخِذُوا عَدُوِّي وَعَدُوَّكُمْ أَوْلِيَاءَ تُلْقُونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَقَدْ كَفَرُوا بِمَا جَاءَكُم مِّنَ الْحَقِّ يُخْرِجُونَ الرَّسُولَ وَإِيَّاكُمْ أَن تُؤْمِنُوا بِاللَّهِ رَبِّكُمْ إِن كُنتُمْ خَرَجْتُمْ جِهَادًا فِي سَبِيلِي وَابْتِغَاءَ مَرْضَاتِي تُسِرُّونَ إِلَيْهِم بِالْمَوَدَّةِ وَأَنَا أَعْلَمُ بِمَا أَخْفَيْتُمْ وَمَا أَعْلَنتُمْ وَمَن يَفْعَلْهُ مِنكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (سورة المتحنة، آية: ١) .

نجد من خلال قصة حاطب أن النبي ﷺ له فقه عميق في معاملة أصحابه وحرص شديد على الوفاء لهم وإقالة عثرات ذوي السوابق الحسنة، لقد جعل ﷺ من ماضي حاطب رضي الله عنه المجيد سببًا في العفو عنه .

من خلال الآيات القرآنية الكريمة والممارسة النبوية لهذا الباب تظهر الحاجة للحركات الإسلامية ودولها المسلمة لإيجاد أجهزة أمنية استخباراتية متطورة تحمي الإسلام والمسلمين من أعدائها اليهود والنصارى والملاحدة وتعمل على حماية الصف المسلم في الداخل من اختراقات الأعداء فيه، وتجتهد لرصد أعمال المعارضين والمحاربين للإسلام حتى تستفيد القيادة من المعلومات التي تقدمها لها أجهزتها المؤمنة الأمينة ولا بد أن تؤسس هذه الأجهزة على قواعد منبعها القرآن الكريم والسنة النبوية وتكون أخلاق رجالها قمة رفيعة.تمثل صفات رجال الأمن المسلمين .

إن اهتمام المسلمين بهذا الأمر يجنبها المفاجآت العدوانية وقد كتب "صن تزو" مشيرًا لأهمية ذلك :

" إذا عرفت العدو وعرفت نفسك فليس هناك ما يدعوك إلى أن تخاف نتائج

---

(١) البخاري، كتاب المغازي، باب غزوة الفتح (٥/ ١٠٥) رقم ٤٢٧٤ .

مائة معركـة، وإذا عرفت نفسك ولم تعرف العدو فإنك سـوف تواجه الهزيمة في كل معركة "[١] .

إن بناء الأجهزة الأمنيـة ومكاتب المعلومات التي تقدم للقيـادة التقارير لوضع الخطط المناسـبة على أثرها ليس أمـرًا جديدًا؛ بل هو مـوغل في تاريخ الإنسـانية وكذلك في تاريخ المسلمين .

إن من أسباب التمكين المهمة إعطاء هذا الأمـر حقه من الاهتمام والارتقاء به وتطويره بما يناسب أحوال العصر الذي نحن فيه .

وبعد أن تكلمـنا عن أسباب التـمكين المعنوية والمادية لا أدعي أني حصـرتها وإنما تكلمت عن بعضها وإلا فإن الأسباب وحدها تحتاج إلى أبحاث مستقلة .

* ■ *

(١) انظر: الاستخبارات العسكرية في الإسلام ص٣١١

■ الباب الثالث ■
مراحل التمكين وأهدافه

تمهيد:

إن التمكين لدين الله في الأرض يمر بمراحل لا بد منها وهذه المراحل هي، مرحلة التعريف، ومرحلة الإعداد والتربية، ومرحلة المغالبة، ومرحلة الظهور وكل هذه المراحل سنستعرضها في مباحث مستقلة في هذا الباب - إن شاء الله - ونركز على السنن الربانية التي تمر بها حركة التمكين لدين الله تعالى.

وأما أهداف التمكين فجامعها قول الله تعالى:

﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ﴾ (الحج: ٤١).

ويدخل تحت مفهوم هذه الآية الكريمة أهداف الدولة الإسلامية التي تسعى لتحقيقها وهي في حقيقتها تحقيق العبودية لله بحيث لا يعبد في الأرض سواه ومحاربة الباطل بأشكاله وأنواعه، ومناصرة الحق وأتباعه ففي هذا الباب نحاول أن نبين أهداف التمكين التي تسعى الدولة لتحقيقها من ترسيخ دعائم الدولة، ونظام الحكم الشرعي، وإيجاد الحاكم الصالح، والرعية الصالحة، ووضع نظام عام للدولة، ونشر دعوة الله في العالم كله وإقامة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وجلب المصالح للأمة ودفع المفاسد وإحياء الأخلاق الكريمة وإحياء فريضة الجهاد وغير ذلك من الأمور التي سنوضحها في هذا الباب تحت مباحث متعددة بإذن الله تعالى.

* ■ *

■ الفصل الأول ■
مراحل التمكين

تمهيد:

إن دعوة الله أمانة يتحملها أهل الإيمان الصحيح، وهذه الأمانة ثقيلة في حد ذاتها، وكذلك حملها وأدائها، والوفاء بها، فكيف وهي متعلقة بدين الله تعالى؟ ولذلك من أعظم الأمانات وأشدها ثقلاً أمانة الدعوة التي تحتاج إلى رجال مؤمنين يتخلقون بأفضل الأخلاق الربانية ونفوسهم مليئة بالإيمان العميق، فهم على استعداد تام لتبليغ دين الله ولذلك يسعون بدين الله حتى يتمكن من قلوب الناس وإقامة دولة الإيمان والإسلام.

إن مرحلة التمكين أو إقامة دولة الإيمان تسبقها مراحل استخلصها العلماء من دراسة كتاب الله ودراسة التاريخ المتأنية، ولعل من أهم هذه المراحل:

- مرحلة الدعوة والتعريف بالإسلام.
- مرحلة اختيار العناصر التي تحمل الدعوة.
- مرحلة المغالبة.
- مرحلة الظهور.

وسنحاول خلال هذا الفصل دراسة هذه المراحل وتحديد السمات التي تتميز بها كل مرحلة وكيفية تحقيقها والانتقال بها إلى المرحلة التي تليها لا سيما المرحلة الأخيرة مرحلة التمكين.

إن استيعاب مراحل التمكين يعين الدعاة إلى الله على تحقيق هدفهم المنشود من التمكين لهذا الدين كما يبصرهم بحقيقة الطريق ومعرفة عوائق التمكين التي تعترض تحقيق أهدافهم وكيفية التغلب عليها من خلال القرآن الكريم وسيرة سيد المرسلين وتاريخ الأمة المجيد والتعامل مع سنن الله الربانية المبثوثة في الكون والحياة والشعوب والمجتمعات.

المبحث الأول
مرحلة الدعوة والتعريف بالإسلام

إن الخطوة الأولى في سبيل إقامة الدولة المسلمة أو التمكين للإسلام هو التعريف به والدعوة إليه، وقد كان هذا نهج الأنبياء والمرسلين ومنهج القرآن، والدعاة إلى الله هم ورثة الأنبياء، والأنبياء عليهم السلام لا يورثون مالاً ولا عقاراً، ولكنهم يورثون علمًا ودعوة ومبادئ وقيم وأخلاق وعقيدة صحيحة وتصور سليم للكون والحياة والإنسان والخلاّق العليم.

إن الله سبحانه وتعالى قد بين لنا في كتابه وظيفة رسل الله والدعاة إليه كما في قوله تعالى: ﴿ **كَمَا أَرْسَلْنَا فِيكُمْ رَسُولاً مِّنكُمْ يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا وَيُزَكِّيكُمْ وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٥١).

وتمثل هذه الواجبات الأمور الآتية:

أولاً: تبليغ وحي الله إلى الناس، وتعريفهم به ﴿ **يَتْلُو عَلَيْكُمْ آيَاتِنَا** ﴾ ويكون هذا التبليغ بالأمور الآتية:

١- شرح أصول الإسلام وقواعده للناس.

٢- تفسير نصوص القرآن والسنة تفسيرًا متبعًا لمنهج السلف وملائمًا للعصر الذي يتم فيه التفسير من حيث الأسلوب والوسيلة.

٣- جمع الناس على الإسلام ومبادئه وأخلاقه وتوجيههم نحو الفهم والعمل.

٤- استهداف كل الناس بالدعوة سواء كانوا مشركين أو نصارى أو يهود أو ملاحدة أو علمانيين أو منافقين أو فاسقين أو عصاة مع إعطاء الأولوية للصف الداخلي للأمة[1].

---

(١) انظر: حقيقة الدعوة إلى الله للأستاذ د. علي عبد الحليم (١ / ٢٦٣).

٥- بيان الأخطار التي تـواجههـا الأمة الإسلاميـة من أعدائهـا والعمل على اجتيازها في حدود ما تتطلبه المرحلة.

ثانيًا: تزكية الناس، أي تزكية نفوسهم وتطهيرهم وتنميتها بالخيرات والبركات في الدنيا والآخرة، بحيث يصير الإنسان في الدنيا مستحقًّا للأوصاف المحمودة، وفي الآخـرة الأجر والمثـوبة، وذلك في قـوله سبـحانه وتعـالى ﴿**وَيُزَكِّـيكُمْ**﴾ والتزكية بهذا المعنى، تارة تنسب إلى الله تعالى: ﴿ **بَلِ اللَّهُ يُزَكِّي مَن يَشَاءُ** . . . . ﴾ (سورة النساء، آية: ٤٩)، وتارة تنسب إلى النبي ﷺ لكونه واسطة في وصول ذلك إلى الناس كما في هذه الآية ﴿ **وَيُزَكِّيكُمْ** ﴾.

فالداعية إلى الله، يطهر نفـوس الناس بوحي الله، وينمي أرواحهم وعقولهم وأبدانهم، ويرتفع بهم إلى المستوى الذي كرمه ربه وفضله على كثير من خلقه.

وهذه التزكـية تربيـة ذات منهج ووسائل تنقل الإنسـان من واقعـه إلى ما هو أفضل وأكرم وأحسن له في أمر دينه ودنياه.

ثالثًا: التعليم، تعليم الناس العلم النافع، أي القرآن والحكمة، وذلك في قوله سبحانه من هذه الآية: ﴿**وَيُعَلِّمُكُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ**﴾، فهو واجب النبي ﷺ، وواجب الدعـاة إلى الله إلى يوم الدين، و﴿ **الْكِتَابَ** ﴾ هو القـرآن الكريم، وهو هدى للناس كل الناس، فما من خير للبـشرية في دينها ودنياها إلا نوه عنه القرآن الكريم، وما من شيء من هذا وذاك إلا اشتمل عليه القرآن الكريم: ﴿**مَّا فَرَّطْنَا فِي الْكِتَابِ مِن شَيْءٍ** ﴾ (سورة الأنعام: ٣٨) ﴿**وَتَفْصِيلَ كُلِّ شَيْءٍ**﴾ (سورة يوسف، آية: ١١١) و﴿**تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ**﴾ (سورة النحل، آية: ٨٩).

إن تعليم الناس كـتاب الله وسنة رسـوله ﷺ ينقلهم من ظلام الجـهل إلى نور العلم، ومن ضـلال البـاطل إلى هداية الحق، وهذا يظهـر في قوله تعـالى: ﴿**وَيُعَلِّمُكُم مَّا لَمْ تَكُونُوا تَعْلَمُونَ** ﴾ أي يبصـركم بحاضـركم، ويرسم لكم أسلم طريق لمستقبلكم.

إن هذه الواجبات المنوطة بالدعاة تحتاج إلى تميز إيماني وتفوق روحاني، ورصيد علمي وزاد ثقافي ورجاحة عقل وقوة حجة، ورحابة صدر وسماحة نفس حتى يستطيع الدعاة تحقيق واجباتهم المذكورة.

إن القرآن الكريم وقد بين واجبات الدعاة في آيات كثيرة ومن الآيات الجامعة في هذا الباب قوله تعالى: ﴿**الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلا يَخْشَوْنَ أَحَداً إِلاَّ اللَّهَ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيباً**﴾ (سورة الأحزاب، آية: ٢٩).

إن التقصير في القيام بهذا الواجب، إثم ومعصية ولقد بيَّن المولى عز وجل ذلك في قوله تعالى: ﴿**إِنَّ الَّذِينَ يَكْتُمُونَ مَا أَنزَلْنَا مِنَ الْبَيِّنَاتِ وَالْهُدَىٰ مِنْ بَعْدِ مَا بَيَّنَّاهُ لِلنَّاسِ فِي الْكِتَابِ أُولَٰئِكَ يَلْعَنُهُمُ اللَّهُ وَيَلْعَنُهُمُ اللاَّعِنُونَ**﴾ (سورة البقرة، آية: ١٥٩).

والمعنى أن من عرف الحق، فقد وجب عليه أن يبينه للناس، ومن لم يفعل فقد أثم.

كما نعى الله ذلك الكتمان على أهل الكتاب في قوله تعالى: ﴿**وَإِذْ أَخَذَ اللَّهُ مِيثَاقَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَابَ لَتُبَيِّنُنَّهُ لِلنَّاسِ وَلا تَكْتُمُونَهُ فَنَبَذُوهُ وَرَاءَ ظُهُورِهِمْ وَاشْتَرَوْا بِهِ ثَمَناً قَلِيلاً فَبِئْسَ مَا يَشْتَرُونَ**﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٨٧).

وإذا كانت آيات القرآن الكريم، قد أوجبت على الدعاة، وأهل العلم، أن يبلغوا الناس بهذا العلم فإن السنة المطهرة شارحة القرآن قد فاضت بالأحاديث في هذا المجال.

روى الإمام البخاري بسنده، عن ابن عباس رضي الله عنهما، باب تحريض النبي ﷺ وفد عبد القيس[1] على أن يحفظوا الإيمان والعلم، ويخبروا من وراءهم قال مالك ابن الحويرث[2] - وهو من بني عبد قيس - قال لنا النبي ﷺ: " ارجعوا إلى

(١) عبد قيس: من القبائل التي كانت تسكن الجزيرة العربية وهي من بطون ربيعة.

(٢) هو مالك بن الحويرث، أبو سليمان الليثي، صحابي، نزل البصرة مات سنة أربع وسبعين. انظر: تقريب التهذيب، ص(٥١٦).

أهليكم فعلمـوهم " . وعن ابن عباس قـال: قال النبي ﷺ ، لما قدم إليـه وفد عبـد القيس : " مَنْ الوفد - أو من القـوم ؟ " قالوا: ربيعـة، فقال: " مرحـبًا بالقوم - أو الوفد - غـير خزايا ولا ندامى " ، قالوا: إنا نأتيك من شقـة بعيدة، وبيننا وبينك هذا الحي من كفار مضـر، ولا نستطيع أن نأتيك إلا في شهر حرام، فمرنا بأمر نخبر به مـن وراءنا، ندخل به الجنة، فأمرهم بأربعة ونهاهم عن أربع: أمرهم بالإيمان بالله عز وجل وحده قال: " هل تدرون ما الإيمان بالله وحده؟ " ، قالوا: الله ورسوله أعلـم: قال : " شهادة أن لا إله إلا الله ، وأن محـمدًا رسول الله ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، وصوم رمضان، وتعطوا الخمس من المغنم.

ونهاهم عن الدباء(١) والحنتم(٢) والمزفت(٣) - قال شعبة(٤): ربما قال: النقير(٥) وربما قال: المقير(٦).

قال : احفظوه وأخبروه مَنْ وراءكم "(٧).

وروى البخاري بسنده، عن عبد الله بن عمرو بن العاص رضي الله عنهما، أن رسول الله ﷺ قال: " بلغوا عني ولو آية، وحدثوا عن بني إسرائيل ولا حرج ومن كذب عليَّ متعمدًا، فليتبوأ مقعده من النار "(٨).

وخلاصة الآيات الكريمة والسنة النبوية الشريفـة فرضية العين على من توفرت فيه الأهلية لممارسة العمل في هذه المرحلة ألا وهي مرحلة التعريف.

---

(١) الدباء: القرع.

(٢) الجرة أو الجرار الخضر تعمل من الطين.

(٣) ما طلي بالزفت

(٤) هو شعـبة بن الحـجاج الوردي أبو بسطام الواسطي ، ثقـة ، حافظ مـتقن كـان مدافعـاً عن السنة ت١٦٠هـ. انظر: تقريب التهذيب ص٢٦٦.

(٥) أصل النخلة ينقر فيتخذ منه وعاء.

(٦) ما طلي بالقار.

(٧) البخاري، كتاب الإيمان، باب أداء الخمس (١/ ٢٣) رقم ٥٣.

(٨) البخاري، كتاب أحاديث الأنبياء، باب ما ذكر من بني إسرائيل (٤/ ١٧٥) رقم ٤٣٦١.

وعندما يكون المتصدرون لمرحلة التعـريف دعاة ربانيين يمكنهم أن يحققوا هذه الأهداف:

١- التعريف بالإسلام تعريفًا صحيحًا:

ويكون ذلك بشرح أصـول الإسلام، وقواعـده، وآدابه، وأخلاقه، ومنهـجه ونظامـه في حياة النـاس، ويفسر للـمدعو كل مـجمل، ويوضح له كـل غامض وييسـر له كل ما يتصور أنـه عسير أو صـعب، ويكون ذلك وفق تخطيط وتنظيم وتنسيق بين الدعاة، كما يستدعي هذا العمل تخصصًا يوزع بين الدعاة حتى يصل الإسلام إلى كل إنسان مهما كان مستواه التعليمي أو الثقافي، أو الاجتماعي.

٢- تكوين قاعدة عريضة من المدعويين:

تكون هذه القاعدة على أسس من الفـهم السليم والاستيعاب العميق لحـقيقة الإسلام وأخلاقه وآدابه بحيث تكون هذه القاعدة من شرائح المجتمع المتنوعة، من فلاحين، وأصـحاب حـرف ومصانع وعـمال، وتلاميـذ في المدارس وطلاب في الجامعات وموظفين في الحكومة أو القطاع العـام أو الخاص ومن المثقفين أصحاب الثقافات المتعددة وأعضاء النقابات المهنيـة والمنتمون للأحزاب السياسية، وأصحاب الرأي والفكر، وأعـضاء هيئـات التدريس في الجـامعـات وغير ذلـك من شرائح المجتـمع والواجب على الدعاة في مرحلة الدعـوة والتعريف بالإسـلام أن يعملوا على إيصال الدعوة الإسـلامية إليهم بصورة قـادرة على مواكبة العصـر ومتطلباته والمتغيرات وظروفـها، وأن يضعوا لهم تصورات دقيقـة لمشكلات الحياة من منظور إسلامي يدل على شـمولية هذا الدين وأنه يتناول مظاهر الحـياة جميـعًا من دولة ووطن وحكومة وأمة وخلق وقوة، وعدالة ورحمـة، وثقافة وقانون وعلم وقضاء وعقيـدة صادقة وعبادة صحـيحة سواء بسواء ويكون تكوين القـاعدة الصلبة التي تحمل الإسلام بالتنسيق والتـعاون بين الدعاة أنفسهم، فتهتم مـجموعة من الدعاة بتثـقيف المزارعين وتربيـتهم، وأخرى في أوسـاط أصحاب الصناعـات والحرف،

ودعاة يعـملون في مجـال طلاب العلم ودعاة في أوسـاط الانتمـاءات الموالية أو المعادية للإسـلام وآخرون في مجـال النقابات، وفي مجـال أصحاب الانتـماءات السياسـية والحزبية، وفي مـجال أصحاب الفكر والرأي وفي هيـئات التدريس في الجامعات، ويكون بـين الدعاة تعاون وثيق وتنسيق مستـمر وتنظيم دقيق وتخطيط رشيد وإدارة واعـية وقيادة حازمـة ولا بد من توفر صفات الدعاة فـيهم وإلا عاد ذلك الجهد بمردود سيئ على الدعوة والمدعوين وعلى العمل الإسلامي كله.

إن أمر التـعاون بين الدعـاة واجب شرعي قـال تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ﴾ (سورة المائدة، آية: ٢).

إن الدعوة ليست محصورة في مجال معين، أو وسيلة واحدة؛ بل هي ميدان رحب، ولها وسائل شتى، وذلك يعني أنه لابد من بذل جهود عظيمة ولا بد من إدراك أن الداعية مـهما تعددت مـواهبه فإنها تقصـر عن الإبداع والإتقان في كل مجال، فـهناك من يستطيع الخطابة ويجيدها، وهناك من يحـسن التأليف ويتقنه، وهناك من ينشر العلم ويدرسه، وهناك من يعرف العمل السياسي، وآخر يبدع في العمل الخيري، وهكذا ولا يتصور أن تغطى هذه المجالات إلا باستفراغ كل داعية جهده في مجال إتقانه ليحـصل التكامل، ورحم الله الإمام مالك إمام دار الهجرة الذي نصب نفـسه في ميـدان من أعظم ميـادين الدعوة وهو نشر العـلم الشرعي فكتب إليه من يدعـوه إلى غير ذلك[1] فقال: " إن الله قـسم الأعمال كمـا قسم الأرزاق فرب رجل فتح له في الصلاة ولم يفـتح له في الصوم، وآخر فتح له في الصدقة ولم يفتح له في الصوم، وآخر فـتح له في الجهاد، فنشر العلم من أفضل أعمال البر وقد رضيت بما فتح الله لي فيه، وما أظن ما أنا فيه بدون ما أنت فيه، وأرجو أن يكون كلانا على خير وبر "[2].

---

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح د. علي بادحدح ص١٤٧.

(٢) نزهة الفضلاء (٢/ ٦٢٥).

ولا يشك أحد أن الأمــة الإسلامية تشكو لخــالقها قلة الدعاة وغلبــة الجهل، وضياع العلم، وتفشي المنكرات مما تحتاج معه إلى جهود ضخمة لإصلاح الأحوال ولا يكون ذلك إلا بالتعاون لاستثمار هذه الإمكانات بأقصى ما يمكن والإفادة من التجارب، وتبادل الخبرات.

إن أعداء الإسلام يحرصون على بث أسـباب الشقاق، وزرع بذور النزاع بين المسلمين عمـومًا، وأعيانهم من العلمـاء والدعاة خصوصًـا، وهذا يحقق لهم من الأهداف والغايات ما لا يستطيعون بلوغــه بجهدهم وكيدهم، وذلك أن الهدم من الداخل أشد فتكًا وأعظـم ضررًا، ولذا كان خطر المنافقين أكبـر وأظهر، وإن عدم إدراك هذه الحقيقــة يجعل الداعية يخالف إخوانــه من الدعاة لأي أمر عارض، أو خلاف في أمر يسوغ فيه الخلاف، أو تحـمسًا لفعل لم ير غيره أنه يناسب في هذا الوقت ونحو ذلك، فيسعى حينئــذ إلى مواجهة إخوانه الدعاة بدلاً من أعداء الله، ويتفـرغ لتسـقط أخطائهم، وتتبع عـثراتهم، فـيفرح بذلك أعـداء الله؛ بل إنهم يسعـون لذلك ويثيـرونه، فعلى الداعيــة الحصيف أن يفـوت عليهم الفـرصة وأن يخذلهم باتباع الحق، وفهم حـقيقة الاختلاف المبني على الاجتـهاد وإحسان الظن بـإخوانه، والتـماس العذر لهم، والحـرص على حماية أعـراضهم، وسمعـتهم، والحرص على التعاون، وإشاعة الخير[1]، وله في ذلك نماذج من الأئمة والعلماء، فهذا الإمام أحمد بن حنبل جاء في سيرته أنه إذا بلغه عن شخص صلاح أو زهد وقيام بحق واتبــاع لأمر سأل عنه، وأحب أن يجري بينه وبينه مـعرفة، وأحب أن يعرف أحـواله، وهذا الشافعي ينـاظر يونسًا الصدفي فـيختلفــان ويفترقــان، قال يونس: فلقيني (أي الشافـعي) فأخذ بيدي ثم قال: يا أبا موسى ألا يـستقيم أن نكون إخوانًا وإن لم نتفق في مسألة[2]. وهذا ابن المبارك سمع رجلاً ينال من آخر وينتـقده فـقال له ابن المبـارك: هل قاتلت التـرك؟ قال: لا، قــال: فهل قــاتلت

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح ، ص١٤٩.

(٢) نزهة الفضلاء تهذيب سير أعلام النبلاء د. محمد حسن عقيل (٢/ ٧٣٤).

الفرس؟ قال: لا، قال: فهل قاتلت الديلم؟ قال: لا، قال: أفسلم منك الترك والفرس والديلم ولا يسلم منك أخوك المسلم؟ [(١)].

إذا ما بدت من صاحب لك زلة ... فكن أنت محتالاً لزلته عذراً

أحب الفتى ينفي الفواحش سمعه ... كأن به عن كل فاحشة وقراً

سليم دواعي الصدر لا باسط أذى ... ولا مانع خيراً ولا قائل هجراً

إن في أعدائنا كفاية لاستنفاذ جهودنا في حربهم، ومواجهتهم فكيف نغفل عن هذا ونوجه سهامنا لبعضنا؟![(٢)].

إن نجاح الدعاة في تنظيم جهودهم ووضعها وفق خطة شاملة وتوحيد قيادتهم يعين العاملين في مجال الدعوة على تحقيق أهدافهم ويستطيعون أن يبذلوا طاقاتهم في البناء وانتقاء العناصر الجيدة التي تعتز وتنتمي إلى الإسلام وتثبت على هذا الاعتزاز وتتجرد ممن سواه، وتورثه إلى غيرها من الناس ، وممن تظهر حماستهم والتزامهم الحاسم بكل ما هو إسلامي ويستطيع الدعاة أن يفرزوا قاعدة قوية بين الناس تؤمن بالعمل الجماعي للإسلام وتراه فرضًا عليها، وعلى كل المسلمين القادرين على العمل وتكون تلك القاعدة طليعة لقاعدة أوسع من العاملين للإسلام، في عمل جماعي تشرف عليه لجان مُشكَّلة على كافة مستوياته الفكرية والثقافية، والاجتماعية، والاقتصادية، والسياسية، والتربوية، والحركية والدعوية وفق خطط مجهزة، وتنظيم محكم، وإدارة واعية وتربية عميقة يشرف عليها علماء ربانيون وفقهاء عاملون مستوعبون للحياة الإنسانية وقضاياها ومشكلاتها.

- **وسائل الدعاة في هذه المرحلة:**

لقد انتشر في هذا العصر العلم وكثرت فيه وسائل الإعلام والتربية وازدهرت فيه الخطابة والكتابة وعمت الجامعات في كل مكان، وكذلك المدارس في المدن

(١، ٢) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص١٤٩.

والقرى والجبال والسهول والأرياف، وتدفقت السيول من المطبوعات والمنشورات من المطابع ودور النشر، ونبغ فيهما علماء باحثون، ووعاظ مرشدون، فلهذا يجب على الدعاة أن يتبعوا كل أسلوب يوصلهم إلى قلوب الناس ويحقق الهدف المطلوب من نشر الدعوة، وعليهم أن يعتمدوا الأساليب الحديثة التي استغلها أعداء الإسلام في بث عقائدهم، ونشر أفكارهم وعلمهم وعليهم أن يطوروا هذه الأساليب حتى لا تتعارض مع دعوتهم ولا تصدم بقواعد الدين(١).

وقد حدد القرآن الكريم الأساليب العامة للدعوة الإسلامية في آيات كريمة منها قوله تعالى: ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ** ﴾ (سورة النحل، آية: ١٢٥).

ولنستشعر إعجاز القرآن في قوله ﴿ **ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ** ﴾ ونشعر بمدى أبعاد الإطلاق الذي جاء في هذه الآية، وأبعاد التقييد الذي جاء فيها فأطلق وقال: ﴿**إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ**﴾ ما حدد وما عين شيئًا معينًا خاصًا، فيدخل في ذلك الحث على الصلاة ودعوة الناس إلى مكارم الأخلاق والفضيلة وإلى تطبيق شرع الله على أنفسهم وأهليهم. ﴿ **سَبِيلِ رَبِّكَ** ﴾ يحوي كل شيء ويمتد على اتساع جميع الآفاق. وهو لا يختص بالخطابة ولا يختص بالكتابة ولا يختص بالوعظ والنصيحة إنما قال ﴿ **ادْعُ** ﴾ والدعوة عامة شاملة هذه المعاني كلها، وهذه الأساليب كلها(٢).

ويقول سيد قطب رحمه الله تعالى: (إن الدعوة دعوة إلى سبيل، لا لشخص الداعية ولا لقومه، والدعوة بالحكمة والنظر في أحوال المخاطبين وظروفهم والقدر الذي يبينه لهم في كل مرة، حتى لا يثقل عليهم ولا يشق بالتكاليف قبل استعداد النفوس لها، والطريقة التي يخاطبهم بها التنويع في هذه

---

(١) انظر: أسس الدعوة محمد السيد الوكيل ص٢١.
(٢) انظر: حكمة الدعوة وصفة الدعاة لأبي الحسن الندوي ، ص٨.

الطريقة حسب مقتضياتها، فلا تستبد به الحماسة والاندفاع والغيرة، فيتجاوز الحكمة في هذا كله وفي سواه) [١].

ويقول أيضًا : (بالموعظة الحسنة التي تدخل إلى القلوب برفق، وتتعمق المشاعر بلطف، لا بالزجر والتأنيب في غير موجب، ولا بفضح الأخطاء التي قد تقع عن جهل أو عن حسن نية، فإن الرفق في الموعظة كثيراً ما يهدي القلوب الشاردة، ويؤلف القلوب النافرة، ويأتي بخير من الزجر والتأنيب والتوبيخ)[٢].

ويقول أيضًا في معنى الجدل بالتي هي أحسن: (أي بلا تحامل على المخالف ولا ترذيل له ولا تقبيح، حتى يطمئن الداعي ويشعر أن ليس هدفه هو الغلبة في الجدل، ولكن الإقناع والوصول إلى الحق)[٣].

وعليه تكون الأساليب العامة للدعوة إلى الله ثلاثة هي:

١- الحكمة.

٢- الموعظة الحسنة.

٣- المجادلة بالتي هي أحسن[٤].

وعلى الدعاة أن لا يغفلوا الوسائل الحديثة التي ظهرت في هذا العصر، وكان لها الأثر الكبير في سلوك الناس ومعاملاتهم وأفكارهم ومن هذه الوسائل.

١- وسائل الإعلام:

وهي بكافة أنواعها أسلوب جيد إذا أحسن استغلاله، فالصحف اليومية والمجلات الشهرية أو الأسبوعية، والنشرات الدورية، والوسائل السمعية (الإذاعة) والوسائل البصرية (التلفاز - والتسجيل المرئي - الفيديو) وحتى (الآلة الحاسبة الدقيقة) (الكمبيوتر) فكل هذه الوسائل يمكن أن تستخدم في مجال الدعوة

(١، ٢) في ظلال القرآن (٤/٢١٩٨).

(٣) المصدر نفسه (٤/٢٣٠٢).

(٤) انظر: الدعوة الإسلامية بين الفردية والجماعية ، سليمان مرزوق، ص١٩.

ويمكن استخدام القـصة للتأثير في نفس السامع والقارئ والتمثيليات الهادفة التي تبعث في النفـوس الطموح، وتثيـر فيها حب الجـهاد في سبـيل الله، وتدعو إلى الفضـائل والأخلاق الحميـدة. وهناك الأناشيد الحمـاسية التي تشـعل في النفوس الحمـاس والانطلاق للدعوة في سبـيل الله، وفي تاريخنا مادة دسمـة تغذي هذه الموضوعات.

لا شك أننا إذا قدمنا للناس هذه الألوان من الأساليب وهي تحمل في معانيها ما تدعـوهم إليه من العقيـدة الصحيـحة، والإيمان العميق، والأخـلاق الفاضلة، والمثل العالـية والآداب والتقـاليد التي نعـتز بها، نكون قـد ولجنا إلى قلوبهم من حيث يجب أن نلج ونكون قد قـدمنا لهؤلاء المولعين بهذه الأساليب عوضًـا عما يلهثـون وراءه من هذه التفاهات التي استـولت على عقولهم فأضلتـها عن الحق. فحينئذ نستطيع أن نتحـكم في قلوب الناس وعقولهم، فنملأها بالحق بدل الباطل ونغذيها بالفضائل بدل الرذائل، ونوجههم إلى الخير والصلاح[1].

٢- الكتب والبحوث:

امتـلأت الدنيا بالمـؤلفات، وأصبـح في كل بيت مكتبـة؛ بل في كل مكتب مكتبـة، وكثرت دور النشر، وشـجع تقدم فن الطباعة على مـضاعفة المطـبوعات بشكل هائل.

إن الكتب والمجلات الجنسـية والروايات والقصص، وكتب الجـريمة والفساد، وكتب الأفكار الهـدامة والمنحرفة انتشـرت في دنيا الناس انتشار النار فـي الهشيم بكافة اللغات والوسائل، فيجب على الـدعاة أن يكتبوا الكتب والبحوث بأسلوب سهل ممتع وجذاب يفهمه عامة الناس وخاصتهم، وتعرف الناس بالإسلام وتشرح لهم تعاليمه وتقنعهم أنه منهج كامل يتناول شئون الحياة جميعًا، وأنه كفيل بإسعاد الناس وجلب الرخاء والأمن والسلام لهم جـميعًا حيث إنه أوجد حضـارة مشرقة

(١) انظر: أسس الدعوة ، د. محمد السيد الوكيل، ص٢٠.

وتاريخًا مـجيدًا يوم أن طبِّق تطبـيقًا صحـيحًا. ويحـسن أن تعرض هذه الأفكار ونظيراتها في كتـيبات يسهل حملها كما تسـهل قراءتها بحيث تكون كل فكرة أو بحث في كتيب على حدة، وتتسلسل في ربط قوي، وجاذبية مؤثرة تجعل القارئ لا ينتهي من كتيب حتى يجد نفسه مشدودًا إلى قراءة الذي يليه(١).

وهكذا يسعى الدعاة إلى توظيف كل الوسـائل من الخطبة والمحاضرة والدرس والمناظرة .. إلخ للتعـريف بدعوة الإسلام، ولا بد لهم من اسـتيعاب فـقه الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووسائله وأسـاليبه ويهتموا بإقامـة المنشآت والمؤسسات النافعـة التي تجلب الخيـر للناس وتدفع عنهم الشر ولا بد أن يكـون الدعاة الذين يتصدون لتعليم الناس وتعريفـهم بدعوة الإسلام قدوة بين الناس، لأن القدوة هي الصورة الحيـة للفكرة، والتطبيق العملي للدعوة، والتوضـيح الجلي للحجة، ولا شك أنها من أعظم أسـباب بذر المحبـة في القلوب، ووجود القناعة في العـقول "وكثير من المدعوين ينتفعون بالسيرة ولاسيما العامة وأرباب العلوم القاصرة فإنهم ينتفعون من السيرة والأخلاق الفاضلة والأعمال الصالحة ما لا ينتفعون من الأقوال التي قد لا يفهمونها "(٢).

ولله در ابن القيم حيث قال : " إن الناس قـد أحسنوا القول فمن وافق قوله فعله فذاك الذي أصاب حظه ومن خالف قوله فعله فذاك إنما يوبِّخ نفسه "(٣).

ولا بد من التأكيد على أهمية عنصر القدوة وخطورة انعدامه حيث " يستطيع الإنسان أن يكون عالمًا جـهبذًا في الكيمياء أو العلوم أو الطب أو الهـندسة أو غير ذلك من العلوم التي أمرنا الله بتعلمها لتـعمر الدنيا؛ ولكن هذه العلوم لا تتطلب منا قيدًا سلوكيًّا، فقد تكون عالمًا في أي فرع من هذه العلوم وسلوكك تبعًا لهواك ولكن هذا لا يفسـد الحقيقـة أنك عالم في علمك لأن النبوغ لا يضع قـيدًا على

(١) انظر: كيف ندعو الناس، عبد البديع خضر، ص٧٥.
(٢) مجموع الفتاوى ابن باز (٣/ ١١٠).
(٣) الفوائد ص١٩٢.

الأخلاق إلا علم الدين فإنك إن كنت من علمائه أو الداعين إليه أو المتدينين المخلصين لا بد أن تكون قدوة حسنة لما تدعو إليه وإلا لما استمع إليك أحد"(١).

قال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - : " قال غير واحد من السلف : الحكمة معرفة الدين والعمل به "(٢).

والعلم بلا عمل حجة على صاحبه يوم القيامة، ولهذا حذر الله المؤمنين أن يقولوا ما لا يفعلون، فقال عز وجل : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لِمَ تَقُولُونَ مَا لا تَفْعَلُونَ (٢) كَبُرَ مَقْتًا عِندَ اللَّهِ أَن تَقُولُوا مَا لا تَفْعَلُونَ** ﴾(سورة الصف، الآيتان٢، ٣) .

قال الشاعر :

يا أيها الرجل المعلم غيره ... هلا لنفسك كان ذا التعليم

ابدأ بنفسك فانهها عن غيها ... فإذا انتهت عنه فأنت حكيم

فهناك يقبل ما تقول ويقتدي ... بالعلم منك وينفع التعليم

تصف الدواء لذي السقام من الضنا ... كيما يصح به وأنت سقيم

أراك تلقح بالرشاد عقولنا ... نصحًا وأنت من الرشاد عديم

لا تنه عن خلق وتأتي مثله ... عار عليك إذا فعلت عظيم(٣)

- عدة الدعاة القائمين على هذه المرحلة:

أولاً : التميز الإيماني والتفوق الروحي:

إن التميز في مجال الإيمان عقيدة صحيحة، ومعرفة جازمة، وتأثيرًا قويًا يعد - بلا نزاع - أهم المقومات وأولى الأولويات بالنسبة للداعية، لكي يكون الداعية عظيم الإيمان بالله، شديد الخوف منه، صادق التوكل عليه، دائم المراقبة له، كثير

---

(١) الدعوة قول وأصول ، جمعة أمين ، ص١١١ .
(٢) درء تعارض العقل والنقل (٩/ ٢٢، ٢٣).
(٣) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله ، ص٩٧ .

الإنابة إليه، لسانه رطب بذكر الله، وعقله مفكر في ملكوت الله، وقلبه مستحضر للقاء الله، مجتهد في الطاعات، مسابق إلى الخيرات، صوام بالنهار قوّام بالليل، مع تحري الإخلاص التام، وحسن الظن بالله؛ وهذا هو عنوان الفلاح، وسمت الصلاح، ومفتاح النجاح، إذ هو تحقيق لمعنى العبودية الخالصة لله وهي التي تجلب التوفيق من الله فإذا بالداعية مسدد، إن عمل أجاد، وإن حكم أصاب، وإن تكلم أفاد[1].

يقول ابن القيم - رحمه الله - : (التزام عبوديته من الذل والخضوع والإنابة وامتثال أمر سيده، واجتناب نهيه، ودوام الافتقار إليه، واللجأ إليه، والاستعانة به، والتوكل عليه، وعياذ العبد به ولياذه به، وأن لا يتعلق قلبه بغيره محبة وخوفًا ورجاءً، وفيه أيضًا أنه عبد من جميع الوجوه: صغيراً وكبيراً، حيًّا وميتًا، مطيعًا وعاصيًا، معافى ومبتلى، بالروح والقلب واللسان والجوارح، وفيه أيضًا أن مالي ونفسي ملك لك فإن العبد وما يملك لسيده، وفيه أيضًا أنك أنت الذي مننت علي بكل ما أنا فيه من نعمة فذلك كله من إنعامك على عبدك، وفيه أيضًا أني لا أتصرف فيما خولتني من مالي ونفسي إلا بأمرك، كما لا يتصرف العبد إلا بإذن سيده وإني لا أملك لنفسي ضرًّا ولا نفعًا، ولا موتًا ولا حياة ولا نشورًا، فإن صح له شهود ذلك فقد قال إني عبدك حقيقة "[2].

ولا يتصور للداعية نجاح وتوفيق، أو تميز وقبول دون أن يكون حظه من الإيمان عظيمًا " إذ كيف تدعو الناس إلى أحد وصلاتك به واهية ومعرفتك به قليلة "[3].

وهذه الغاية العظمى تتصل أكثر شيء بأعمال القلوب التي تخفى على الناس ولا يعلمها إلا علام الغيوب، إلا أن آثار ذلك تظهر بوضوح في الأقوال والأفعال

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح ، ص٣٤.
(٢) الفوائد ، ص٣٤، ٣٥.
(٣) مع الله ، للغزالي المعاصر ، ص١٨٨.

فإن " عكوف القــلب على الله تعالى وجمــعه عليــه ، والخلوة به ، والانقطاع عن الاشتــغال بالخلق ، والاشــتغال به وحــده سبحــانه ، بحيث يصــير ذكره وحــبه ، والإقبال عليه في محل هموم القلب وخطراته ، فيستولي عليه بدلها ، ويصير الهم كله به ، والخطرات كلهــا بذكره ، والتــفكر في تحصــيل مراضــيه وما يقــرب منه ، فيصــير أنسه بالله بدلاً عن أنسه بالخلــق ، فيعده بذلك لأنسه به يــوم الوحشة في القبور حين لا أنيس ، ولا مــا يفرح به سواه "[1] . كل ذلك ينعكس على الداعية فتظهر على شخصيته آثار الإيمان الصحيح المتحرك ومن أبرزها :-

١ - التحرر من عبودية غير الله:

الإيمان قوة عظمى يســتعلي بها المؤمن على كل قوى الأرض ، وكــل شهوات الدنيا ، ويصبح حرًّا لا سلطان لأحد عليــه إلا لله ، فلا يخاف إلا الله ، ولا يذل إلا لله ، ولا يطلب إلا مــن الله ولا يأمل إلا من الله ، ولا يتــوكل إلا على الله ، وللإيمان تأثير كبير في أعظم أمرين يســيطران على حياة البشر وهما : الخوف على الرزق ، والخوف على الحياة .

أما الأول: فلا يخــفى كم أذل الحرص أعناق الرجال ، وكــم يشغل الناس حب المال ، وكم باع أناس مــبادئهم ، وخــانوا أمــتهم وتنكــروا لماضيــهم لما ذهب الذَّهب بأبصارهم وسبى قلوبهم ، أما المؤمن فحــقائق الإيمان تملأ قلبه فلا يتأثر بشيء من هذا لأن في قلبه قول الحق جل وعلا : ﴿**وَفِي السَّمَاءِ رِزْقُكُمْ وَمَا تُوعَدُونَ**﴾ (الذاريات : ٢٢)

ولأنه يعلم مَنْ بيده الرزق : ﴿ **فَابْتَغُوا عِندَ اللَّهِ الرِّزْقَ وَاعْبُدُوهُ وَاشْكُرُوا لَهُ**﴾ (العنكبوت : ١٧) . وأنه لا يملك أحد من البشــر من ذلك شيئًا ﴿**إِنَّ الَّذِينَ تَعْبُدُونَ مِن دُونِ اللَّهِ لا يَمْلِكُونَ لَكُمْ رِزْقًا**﴾ (العنكبوت : ١٧) . وفوق ذلك يعلم حقــيقة الرزق في الدنيا وقيمته المحدودة ويرتبط بقوله : ﴿**وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ**﴾ (طه : ١٣١) .

وقوله : ﴿ **إِنَّ هَذَا لَرِزْقُنَا مَا لَهُ مِن نَّفَادٍ** ﴾ (سورة ص، آية: ٥٤) .

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٨٧).

وحديث المصطفى ﷺ : " لو كانت الدنيا تعدل عند الله جناح بعوضة ما سقى كافرًا منها شربة ماء "[١].

ومن هذه المنطلقات الإيمانية قال الشافعي رحمه الله:

أنا إن عشت لست أعدم قوتًا ... وإذا مت لست أعدم قبرًا

همتي همة الملوك ونفسي ... نفس حر ترى المذلة قهرًا[٢]

أما الثاني: فيقين المؤمن أن الموت والحياة بيد الله، وأنه لا ينجي حذر من قدر، وأن الأمة لو اجتمعت على أن يضروه بشيء لم يضروه إلا بشيء قد كتبه الله عليه، وأن الموت ليس بالإقدام وأن السلامة ليست بالإحجام كما قال تعالى: ﴿**أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ**﴾ (النساء: ٧٨). ومن هنا يتميز المؤمن عن غيره، فبينما ترتجف القلوب وتنسكب الدموع، وتعلو التوسلات، وتقدَّم التنازلات، حرصًا على الحياة، نجد المؤمن كالطود الشامخ يهتف مع خبيب بن عدي قائلاً:

ولست أبالي حين أقتل مسلمًا ... على أي جنب كان في الله مصرعي

ويتذكر قول علي بن أبي طالب:

أي يوميّ من الموت أفر ... يوم لا يقدر أو يوم قُدر

يوم لا يقدر لا أرهبه ... ومن المقدور لا ينجو الحذر[٣]

ولا ينسى خبر سحرة فرعون لما آمنوا وهُددوا بالموت هتفوا قائلين ﴿**فَاقْضِ مَا أَنتَ قَاضٍ إِنَّمَا تَقْضِي هَذِهِ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا**﴾ (سورة طه: ٧٢).

٢- الخشية من الله:

وهي من أعظم آثار الإيمان وأبرز أوصاف المؤمنين. ﴿**الَّذِينَ يَخْشَوْنَ رَبَّهُم بِالْغَيْبِ وَهُم مِّنَ السَّاعَةِ مُشْفِقُونَ**﴾ (سورة الأنبياء: ٤٩).

---

(١) الترمذي، كتاب الزهد، باب ما جاء في هوان الدنيا على الله، حديث رقم ٢٣٢٠.
(٢) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٣٦.
(٣) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٣٧.

﴿الَّذِينَ يُبَلِّغُونَ رِسَالَاتِ اللَّهِ وَيَخْشَوْنَهُ وَلَا يَخْشَوْنَ أَحَدًا إِلَّا اللَّهَ﴾ (الأحزاب: ٣٩) وقدوتهم في ذلك النبي ﷺ حيث يقول: "إني لأخشاكم لله وأتقاكم له"(١).

" والخشية أخص من الخوف، فهي خوف مقرون بمعرفة "(٢). وعندما تعمر الخشية والخوف قلب الداعية المؤمن يتميز عن الغافلين والعابثين؛ لأن الخوف يحول بين صاحبه وبين محارم الله قال إبراهيم بن سفيان: " إذا سكن الخوف القلوب أحرق مواضع الشهوات منها وطرد الدنيا عنها "(٣).

وقال الفضيل بن عياض : " من خاف الله لم يضره أحد، ومن خاف غير الله لم ينفعه أحد "(٤) وهذه الخشية دافعة للطاعة " وما استعان عبد على دينه بمثل الخشية من الله "(٥) والداعية له رتبة عليا من الإيمان "تجعل خشيته لله أسرع إلى فؤاده من أي رهبة تخامر نفسه أمام ذي سلطان "(٦). والخشية أساس مراقبة الله ترقى بالمؤمن إلى درجة الإحسان وأن يعبد الله كأنه يراه فإن لم يكن يراه فإن الله يراه(٧).

٣- حسن الصلة بالله:

والمقصود بها إقامة الفرائض، والاستكثار من النوافل، والاشتغال بالأذكار، والمداومة على الاستغفار وكثرة التلاوة القرآنية، والحرص على المناجاة الربانية، وغير ذلك من القربات والطاعات، لأن العبادة زاد يتقوى به الداعية، فالصلاة صلة بينه وبين مولاه، ولا مناص من تميزه في حرصه عليها، وتبكيره إليها، وخشوعه فيها، وتطويله لها، وشهودها مع الجماعة وله في ذلك قدوات سالفة فسعيد بن المسيب ما فاتته الصلاة في جماعة أربعين سنة "(١).

والربيع بن خيثم كان يقاد إلى الصلاة وبه الفالج، فلما روجع في ذلك

---

(١) البخاري ، كتاب النكاح، (الفتح ٩/ ١٠٤).
(٢) تهذيب مدارج السالكين ، ص٢٦٩ .
(٣) المصدر نفسه، ص٢٧٠ .
(٤) نزهة الفضلاء (٢/ ٦٦١).
(٥) المصدر نفسه (١/ ٥١٣).
(٦) مع الله ، ص١٩٠ .
(٧) انظر : مقومات الداعية الناجح ، ص٣٩ .
(٨) نزهة الفضلاء (١/ ٣٧٠).

قال: " إني أسمع حي على الصلاة فإن استطعتم أن تأتوها ولو حبواً "(١)، ولست أدري كيف يكون داعية من يتخلف عن الصلوات في الجماعات سيما في الفجر والعصر والعشاء مع ما ورد في أدائها خصوصًا من تعظيم الأجر، وما جاء في فواتهما من التحذير من الإثم والوزر، وقد ترخص كثيرون في ذلك فلا يهمهم التبكير، ولا يعنيهم إدراك التكبير، ولست أدري ما يقول هؤلاء إذا سمعوا مقالة إبراهيم بن زيد التيمي : " إذا رأيت الرجل يتهاون في التكبيرة الأولى فاغسل يدك منه "(٢) وبماذا يعلقون إذا علموا أن سعيد بن عبد العزيز التنوخي "كان إذا فاتته صلاة الجماعة بكى "(٣).

والحقيقة أن الأمر في هذا يطول والتفريط فيه من بعض الدعاة كثير وخطير، ونصوص الكتاب والسنة أشهر من أن تذكر.

والذكر عظيم المنزلة فهو " منشور الولاية الذي من أعطيه اتصل، ومن منعه عُزل، وهو قوت قلوب القوم الذي متى فارقها صارت الأجساد لها قبوراً، وعمارة ديارهم التي إذا تعطلت عنه صارت بوراً، وهو سلاحهم الذي يقاتلون به قطاع الطريق، وماؤهم الذي يطفئون به التهاب الحريق، ودواء أسقامهم الذي متى فارقهم انتكست منه القلوب "(٤)، والذكر هو العبادة المطلوبة بلا حد يُنتهى إليه ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا اذْكُرُوا اللَّهَ ذِكْراً كَثِيراً﴾ (الأحزاب: ٤١) وبلا وقت تختص به ﴿وَمِنْ آنَاءِ اللَّيْلِ فَسَبِّحْ وَأَطْرَافَ النَّهَارِ لَعَلَّكَ تَرْضَى﴾ (طه: ١٣٠). وبلا حال تستثني منه ﴿الَّذِينَ يَذْكُرُونَ اللَّهَ قِيَاماً وَقُعُوداً وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ﴾ (آل عمران: ١٩١).

والذاكرون هم السابقون في رياض الجنة يرتعون وبوصية المصطفى ﷺ يعملون، وبمباهاة الملائكة يسعدون(٥).

والاستغفار من أعظم الأذكار وكان المصطفى ﷺ يستغفر في اليوم والليلة سبعين مرة(٦).

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٣٨١).
(٢) المصدر نفسه (١/ ٤٦٨).
(٣) تهذيب مدارج السالكين ، ص٤٦٣ .
(٤) المصدر نفسه، ص٤٦٣ .
(٥) انظر: مقومات الداعية الناجح ، ص٤١، ٤٢ .
(٦) البخاري ، كتاب الدعوات، باب استغفار النبي ﷺ (٢ / ١٧٨) رقم ١٥١٨ .

وأخبر أمته أن " من لزم الاستغـفار جعل الله له من كل ضيق مخرجًا، ومن كل هم فرجًا ورزقه من حـيث لا يحتسب "(١) ولذا فلا بد للداعـية من الأذكار ليحيي الله قلبه، ولا بد له من الاستغفار ليمحو الله ذنبه.

وأعظم الذكر تلاوة القـرآن التي هي من أقوى الصـلات بالله التي يحتاجـها الدعاة، ولهـا أثرها في واقع الدعوة والحـياة " ومن الصلة بالله إعزاز كـتاب الله وإدمان تلاوته وتدبر مـعانيه، وعقـد مقارنة مسـتمرة بين المثل التي يحـدو العالم إليها، والواقع الذي ثوى الناس فيه؛ لتكون هذه المقـارنة حافزًا على تذكير الناس بالحق، وقيادتهم إلى الله، وتأهيلهم. وقرب الداعية من كتاب الله يجب أن يكون متعة لروحه وسكنًا لـفؤاده وشعاعًا لعقله، ووقودًا لحركتـه ومرقاة لدرجته "(٢)، والصلة بالقرآن موجبة للتميز كما قال ابن مسعود ﷺ: " ينبغي لحامل القرآن أن يعـرف بليله إذا الناس نائمـون، وبنهاره إذا الناس مـفطرون، وبحـزنه إذا الناس يفرحون، وببكائه إذا الناس يضحكون، وبصمتـه إذا الناس يخوضون، وبخشوعه إذا الناس يختالون، ويـنبغي لحامل القرآن أن يكون باكيًـا محزونًا حكيمًـا حليمًا سكينًا، ولا ينبغي لحامل القرآن أن يكون جافيًا ولا غـافلاً ولا سخابًا ولا صياحًا ولا حديدًا "(٣).

والخلاصة أن التميز الإيماني من أعظم أسـباب نجاح الداعية، إذ ليس النجاح بفصـاحة اللسان ولا قوة البـرهان ولا كثرة الأعـوان؛ بل هو مع ذلك وقبل ذلك بتوفـيق الله الذي يخص به أولياءه ولا شك " أن الدعاة الذين يكرسـون أوقاتهم لله لدفع الناس إلى سـبيله، لابد أن يكون شـعورهم بالله أعمق، وارتـباطهم به أوثق، وشغلهم به أدوم، ورقابتهم له أوضح "(٤).

---

(١) أبو داود، كتاب الصلاة، باب الاستغفار (٢/ ١٧٨) رقم ١٥١٨.
(٢) مع الله ، ص١٩١.
(٣) الفوائد ، ص١٩٢.
(٤) مع الله ، ص١٩٠.

لقد قصّر بعض الدعاة والجماعات الإسلامية في العناية بهذا الجانب المهم بسبب تضخيم العناية بالجوانب الفكرية والسياسية وغيرها، والمطلوب التوازن والشمولية وإعطاء كل جانب حقه من الاهتمام.

ثانيًا: الرصيد العلمي والزاد الثقافي:

وهذا أساس لا بد منه حتى يجد الناس عند الداعية إجابة التساؤلات، وحلولاً للمشكلات إضافة إلى ذلك هو العدَّة التي بها يعلِّم الناس أحكام الشرع، ويبصرهم بحقائق الواقع، وبه أيضًا يكون الداعية قادرًا على الإقناع وتفنيد الشبهات، ومتقنًا في العرض، ومبدعًا في التوعية والتوجيه[1]. " وإذا كانت الدعوة إلى الله أشرف مقامات العبد وأجلها وأفضلها فهي لا تحصل إلاّ بالعلم الذي يدعو به وإليه، ولا بد من كمال الدعوة من البلوغ في العلم إلى حد يصل إليه السعي "[2]. والخوض في غمار الدعوة وميادينها لابد للداعي من علم وإلا ترتب على ذلك آثار وخيمة لأن " العامل على غير علم كالسالك على غير طريق، والعامل على غير علم ما يفسد أكثر مما يصلح "[3].

وكما قال معاذ بن جبل رضي الله عنه: " العلم إمام العمل والعمل تابعه، وهذ ظاهر فإن القصد العمل، والعمل إن لم يكن بعلم كان جهلاً وضلالاً واتباعًا للهوى "[4].

وطبيعة مهمة الداعي خطيرة ونظرة الناس إليه، واعتدادهم به، وأخذهم عنه يجعل أمر العلم " أشد ضرورة للداعي إلى الله لأن ما يقوم به من الدين منسوب إلى رب العالمين، فيجب أن يكون الداعي على بصيرة وعلم بما يدعو إليه، وبشرعية ما يقوله ويفعله ويتركه، فإذا فقد العلم المطلوب اللازم له كان جاهلاً بما يريده ووقع في الخبط والخلط، والقول على الله ورسوله بغير علم، فيكون ضرره

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٤٥.
(٢) مفتاح السعادة (١/ ١٥٤).
(٣) المصدر نفسه (١/ ١٣٠).
(٤) مجموع فتاوى ابن تيمية (٢٨/ ١٣٥، ١٣٦).

أكثر من نفعـه، وإفساده أكثر من إصلاحه، وقـد يأمر بالمنكر وينهى عن المعروف لجهله بما أحلّه الشرع وأوجبه وبما منعه وحرّمه "[١].

ولا بد للداعية أن يـوقن أن " العلم أشرف ما رغب فيه الـراغب وأفضل ما طلب، وجد فيه الطالب، وأنفع ما كسبه واقتناه الكاسب "[٢].

والآخذ بالعلم آخذ بالبداية الصحيحـة إذ العلم مقدم على القول والعمل كما قال تعالى: ﴿**فَاعْلَمْ أَنَّهُ لا إِلَهَ إِلاَّ اللَّهُ وَاسْتَغْفِرْ لِذَنْبِكَ**﴾ (سورة محمد، آية: ١٩).

وبالعلم يحوز الداعـية الرفعة في الميزان الرباني وفـق قوله تعالى: ﴿**يَرْفَعِ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَالَّذِينَ أُوتُوا الْعِلْمَ دَرَجَاتٍ**﴾ (المجادلة: ١١). والسعي في طلب العلم تحقيق للغاية التي أرادها الله ووجه إليها في قوله ﴿**فَلَوْلا نَفَرَ مِن كُلِّ فِرْقَةٍ مِّنْهُمْ طَائِفَةٌ لِّيَتَفَقَّهُوا فِي الدِّينِ وَلِيُنذِرُوا قَوْمَهُمْ إِذَا رَجَعُوا إِلَيْهِمْ لَعَلَّهُمْ يَحْذَرُونَ**﴾ (التوبة: ١٢٢). فقد جعل الله الأمـة فرقتين " أوجب على إحداهمـا الجهاد في سبـيله وعلى الأخرى التفقـه في دينه، لئلا ينقطع جميعـهم عن الجهاد فتندرس الشريعـة، ولا يتوفروا على طلب العلم فتـغلب الكفار على الملة، فـحرس بيضة الإسـلام بالمجاهدين، وحفظ شريعـة الإيمان بالمتعلمين، وأمر بالرجوع إليهم في النوازل ومـسألتهم عن الحوادث فقال عز وجل: ﴿ **فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ**﴾ (النحل: ٤٣) وقال تعالى: ﴿**وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُوْلِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ**﴾ (النساء، آية: ٨٣).

وإذا سلك الداعـية طريـق العلم حظي بالخيـرية الربانيـة الثـابتة في حـديث رســول الله ﷺ : " من سلك طريقًا يلتمس به علمًـا سهل الله به طريقًا من طرق الجنة "[٣].

---

(١) أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان، ص١٣٥.

(٢) أدب الدنيا والدين للماوردي، ص٤٠.

(٣) أبو داود، كتاب العلم، باب الحث على العلم(٤/ ٥٧) رقم ٣٦٤١.

وإذا نال الداعية حظًّا وافيًا من العلم واندرج في سلك طلبة العلم فإنه يكون في مجتمعـه نبراسًا يُهتدى به كما قال ابن القـيم عن الفقهاء : " إنهم في الأرض بمنزلة النجوم في السـماء بهم يُهتدى في الظلمـاء، حاجة الناس إليهم أعظم من حـاجتهم إلى الطعـام والشراب، وطاعتـهم أفرض عليـهم من طاعة الأمـهات والآباء "(١)، وعندما يتحـرك الداعية ناشرًا علمه سـاعيًا بين الناس بالإصلاح ناعيًـا عليهم الغفلة والفسـاد فإنه يحظى بشرف الوصف الذي ذكره الإمـام أحمد حين قال: الحـمد لله الذي جعل في كل فـترة من الرسل بقايا من أهل العلم يدعـون من ضلّ إلى الهدى ويصبـرون منهم على الأذى، يحيون بكـتاب الله تعالى الموتى، ويبـصرون بنور الله أهل العمى، فكـم من قتيل لإبليس قـد أحيوه، وكم مـن ضال تائه قد هدوه، فـما أحسن أثرهم عـلى الناس وما أقبح النـاس عليهم "(٢)، وأهل العلم والبصـيرة من الدعاة شهد التاريخ أنهم " هم من اهتدى بهم الحائر، وسار بهم الواقف، وأقبل بهم المعرض، وكمل بهم الناقص، ورجع بهم الناكص، وتقوى بهم الضعيف "(٣).

ومن أهم العلوم التي يجب أن يهتم بها الدعاة علم القدوم على الآخرة الذي قلّ وجوده بين الناس، وبين طلاب العلم، والذي بدونه لا يعتـبر العالم عالمًا وإن حفظ الشروح والمتون والأحكام ومـلأ رأسه منها ورددها على لسانه إن هذا العلم لب العلوم وغايتـه، وكل مسلم محـتاج إليه والعـالم أشد حاجـة إليه، والداعي أحوج من الجميع إليه، إن هذا العلم هو الذي فـقهه الصحابة الكرام وأشربت به قلوبهم وتنورت به عـقولهم فضنـوا بوقتهم أن يذهب سـدى من غيـر طاعة الله ودعوة إليـه، فاجتـهدوا في أمور الخـير وسارعـوا في الخيرات، وحـرصوا على الطاعات وتسابقوا في الدرجات حتى جاءتهم آجالهم(٤).

---

(١) إعلام الموقعين (١/ ٩).
(٢) انظر: أصول الدعوة ، ص٣٢٨.
(٣) مقومات الدعوة والداعية ، ص٥١، ٥٢.
(٤) انظر: أصول الدعوة، ص٣٢٨.

إن الداعيــة عندما يتصدر للوعظ والإرشــاد والتربية والتـعليم مطالب بقدر من العلم والثقافة التي تعينه على مهمته وتؤهله لها، والمهم من ذلك يتركز في جانبين:

أ- الجانب الشرعي:

لا بد للداعيــة أن يعرف " أن أوْلى العلوم وأفضلـها علم الدين، لأن الناس بمعرفـته يرشدون وبجـهله يضلون "[1] وعلى الداعـية أن يتعلم الحـد الأدنى من العلوم الشرعية الأساسية ومن أهمها ما يلي:

١- **علم العقـيدة الإسلامـية** : أن يتعلم أصـول العقـيدة من كتـاب معتـمد مختصر على مذهب أهل السنة والجماعـة ككتاب: لمعة الاعتقاد لابن قدامة، أو غيره.

٢- **علم التفـسير** : أن يطلع على تفسـير موجز مـوثوق يشتمل على مـعاني الكلمـات وأسباب النزول والمعـنى الإجمالي، ويفـيد في ذلك بعض المـصاحف المطبوع على هامشها أسباب النزول ومعاني الكلمات، ثم يجعل له زادًا في دراسة متأنية لتفسـير بعض السور والأجزاء المكية والمدنية من كتاب معـتمد متوسط مثل "تفسير ابن كثير ".

٣- **علم الحديث** : أن يدرس كتابًا من كـتب الحديث الجامعة المختـصرة مثل "مختصر صحيح البخاري " أو "مـختصر صحيح مسلم " ويمكن أن يطالع كتابًا من كتب الحديث العامة المصونة في جملتها من الأحاديث الضعيفة والمشتملة على أهم الأبواب التي يحتاج إليها في الإيمان والفـضائل والآداب مثل كتاب " رياض الصالحين "، ويحـسن أن يطلع على بعض كـتب الحديث المختـصة بموضـوعات معـينة ففي أحاديث الأحكام " بلوغ المرام " وفي الأذكـار "أذكار النووي " وفي الشمائل " شمائل الترمذي " ونحو ذلك.

---

(١) انظر: مقومات الدعوة والداعية الناجح، ص٥١، ٥٢، ٥٣.

٤- **علم الفقه** : أن يدرس مختصراً في فقه العبادات والمعاملات، وقد يضيف ما يحتاجه من الأبواب على مذهب مـن المذاهب الأربعة المشتهرة ولا مانع من أن يهتم بفقه الحديث.

٥- **علم السيرة والتاريخ** : أن يدرس مختصراً في سـيرة الرسول ﷺ مثل " تهذيب سـيرة ابن هشـام " ومن الكتب المعاصـرة النافعـة " الرحيق المخـتوم "للمباركفوري، وأن يطالع على الأقل تاريخ الخلفاء الراشدين.

٦- **مفاتيح العلوم** : أن يدرس مختـصراً في أصول الفقه مـثل " الوجيز في أصول الفـقه " د. عـبد الكريم زيدان، "تيـسير مـصطلح الحديث " لـلطحان، "مبـاحث في علوم القرآن " للقطان، " مـقدمة شـيخ الإسلام ابن تيمـية " في أصول التفسير.

٧- **علوم اللغة** : أن يدرس مختصراً في النحـو " كالأجرومية " أو " ملحة الإعراب "، وكذلك في البلاغة والأدب يحتـاج إلى دراسة موجزة في مثل كتاب " البلاغة الواضحة " لعلي الجارم(١).

وهذه العلوم الأساسية يحتاج الداعية فيها إلى إرشادات عامة أهمها:-

١- التدرج في كل علم من الأدنى إلى الأعلى، ومن الأيسر إلى الأصعب، وليعلم " أن للعلـوم أوائل تؤدي إلى أواخرها، ومداخل تقـضي إلى حقائقـها، فليـبتـدئ طالب العلم بأوائلهـا لينتـهي إلى أواخـرها، وبمداخلهـا ليفـضي إلى حقائقها، ولا يطلب الآخر قبل الأول، ولا الحقيقة قبل المدخل، فلا يدرك الآخر ولا يعرف الحقـيقة، لأن البناء على غيـر أساس لا يبنى والثمر من غـير غرس لا يجنى "(٢).

وهذا ابن خلدون يـوضح لك الطريق فـيـقـول : (اعلم أن تلقـين العلوم للمتعلمين إنما يكون مفيداً إذا كان على التدرج شيئًا فشيئًا وقليلاً قليلاً "(٣).

---

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٥١، ٥٢، ٥٣.
(٢) أدب الدنيا والدين، ص٥٥.
(٣) مقدمة ابن خلدون، ص٥٣٣.

وقال ابن شـهاب الزهري المحدث الإمام : " من رام الـعلم جملة ذهب عنه جملة، ولكن الشيء بعد الشيء مع الأيام والليالي "[١].

٢- الحرص على الـتلقي عن الشيوخ كـل في فنه وألا يعتمـد على الاطلاع المجرد وحـده، فهـذه العلوم ليست كـالصحف والمجـلات يُكتفى فـيها بـالقراءة والاطلاع، وكما قيل : " من كان شيخه كتابه فخطؤه أكثر من صوابه"[٢].

وصدق الشاعر حيث يقول:

يظن الغمُر أن الكتـــب تَهدي   أخا جهل لإدراك العلــوم

وما علـــم الجهول بأن فيهـــا   مدارك قد تدق عن الفهيـم

ومن أخذ العلوم بغير شيـــخ   يضل عن الصـراط المستقيم

وكم من عائب قولاً صحيحًا   وآفته من الفهـــم السقيـم[٣]

وكتب السلف وتراجم العلماء مليئة بأسماء شيوخهم، وسيرتهم مع من تلقوا عنهم، وكتب أهل العلم طافحة بآداب الطالب مع شيخه مما يدل على بدهية ذلك عندهم[٤].

قال الشاطبي : " من أنفع طرق العلم الموصلة إلى غاية التحقق به أخذه عن أهله المتحققين به على الكمال والتمام "[٥].

٣- الصبر والملازمة، وترك الانتقـال من علم إلى علم قبل تمامه، ومن شيخ إلى شيخ قبل الاستـفادة منه، ومن كتاب إلى كتاب قـبل إحكامه قال الزرنوجي: " ينبغي أن يثبت ويصبر على أستاذه، وعلى كتاب حتى لا يتركه أبتر، وعلى فن

(١) جامع بيان العلم وفضله ، ص١٣٨.
(٢) مقومات الداعية الناجح، ص٥٤.
(٣) انظر: مقومات الداعية الناجح ، ص٥٤.
(٤) انظر: مقومات الداعية الناجح ، ص٥٥.
(٥) الموافقات للشاطبي (١/ ٩).

حتى لا يشغل بفن آخر قبل أن يتقن الأول، وعلى بلد حتى لا ينتقل إلى بلد آخر من غير ضرورة فإن ذلك كله يفرق الأمور ويشغل القلب ويضيع الأوقات ويؤذي العلم "[1].

ب- الثقافة الإسلامية:

لا شك أن الداعية يحتاج بشكل ملح إلى الثقافة العامة وكذلك الثقافة المعاصرة: " إن حركة الداعية حركة واسعة، وانتشاره كبير واتصالاته كثيرة وهو لا شك يلتقي بأنواعٍ كثيرة من البشر كل له مزاجه وثقافته واطلاعه فلابد للداعية أن يشبع هذه الثقافات ويلم بشيء منها حتى يشارك من يخاطبه كل حسب ثقافته كمدخل من مداخل الدعوة "[2].

ولا بد من الاعتراف بوجود الخلل في هذه الثقافة عند كثير من الدعاة "فهناك عجز في المعرفة بالحاضر المعيش والواقع المعاصر، وهناك جهل بالآخرين نقع فيه بين التهويل والتهوين مع أن الآخرين يعرفون عنّا كل شيء وقد كشفونا حتى النخاع، بل هناك جهل بأنفسنا فنحن إلى اليوم لا نعرف حقيقة مواطن القوة فينا ولا نقاط الضعف لدينا، وكثيراً ما نضخم الشيء الهيّن، وما نهون الشيء العظيم، سواء في إمكاناتنا أم في عيوبنا "[3].

إن من المهم بمكان أن يتمكن الداعية عند عرضه للإسلام من بيان محاسن الدين، ومقاصد الشريعة، ويفند مزاعم خصوم الإسلام وشبهاتهم، وإظهار - الكمال في أنظمة الإسلام الاجتماعية والاقتصادية وغيرها، وأنها ترعى جميع المصالح وتسد أبواب الفساد، وأنها صالحة ومصلحة لكل زمان ومكان وأمثال هذه الموضوعات ومن المهم بمكان، أن يستوعب الداعية المذاهب الفكرية المعاصرة كالشيوعية والرأسمالية، والقومية والبعثية والماسونية، وأن يبين عوارها وبطلانها

---

(١) تعليم المتعلم للزرنوجي، ص٤٤.

(٢) الدعوة قواعد وأصول، ص٧١.

(٣) أولويات الحركة الإسلامية، ص٢١.

وما تعارض مع العقيدة الإسلامية ودين الإسلام، وأن يكون على دراية بأساليب الأعداء وغزوهم الفكري والدور العملي للصهيونية والماسونية ومخططاتهم وأساليبهم، والتنصير ومؤسساته وأدواره. وأن يطالع الكتب النافعة في هذا المجال مثل "الغارة على العالم الإسلامي" تأليف أ.ل - شاتليه، وترجمة محب الدين الخطيب ومساعد اليافي، وأساليب الغزو الفكري للدكتور علي جريشة ومحمد شريف وغيرها من الكتب.

إذا توفر للداعية رصيد علمي مناسب وزاد ثقافي جيد كان ذلك سببًا مهمًّا في نجاح الداعية في مرحلة التعريف.

ثالثاً: رجاحة العقل وقوة الحجة:

إن توفر الذهن الوقّاد والعقل النير ميزة كبيرة يتحلى بها الداعية حتى يستطيع أن يرجح بين الآراء المختلفة ويحلل الأمور ويدلل على الصواب، ويرتب الأولويات، ويختار الأوقات، وينتهز الفرص المناسبة، ويتخلص من المشكلات، ويقوى على الرد على الشبهات، والتكيف مع الأزمات، وربما يلتقي الداعية بأصناف من المدعوين يحتاج الداعية معهم إلى إقامة الحجة العقلية ومن هؤلاء:

١- الكافرون الذين لا يؤمنون بالكتاب والسنة.

٢- المعتدُّون بعقولهم المقدمين لها على النص النقلي.

٣- المخدوعون بالشبهات.

٤- المعاندون الذين يتبعون الباطل تبعًا لمصالحهم ويسعون إلى إضلال غيرهم.

٥- الواقعون تحت تأثير الأوضاع والأعراف الخاطئة حتى ألفوها ورأوها صوابًا.

وهناك أساليب كثيرة مستنبطة من الكتاب والسنة في إقامة الحجة العقلية واستخدام الأقيسة المنطقية، وهي تعين الدعاة على التأثير في الناس وخصوصًا عند التفكر العميق والتأمل الهادئ.

ومن هذه الأساليب المهمة:

أ- أسلوب المقارنة:

وذلك بعرض أمرين أحدهما هو الخير المطلوب الترغيب فيه، والآخر هو الشر المطلوب الترهيب منه، وذلك باستثارة العقل للتفكر في كلا الأمرين وعاقبتهما للوصول - بعد المقارنة[١] - ومن أمثلة ذلك:

١- قال جل وعلا تعالى: **﴿أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ﴾** (التوبة: ١٠٩).

قال القرطبي: " وهذه الآية ضرب مثل لهم، أي من أسس بنيانه على الإسلام خير أم من أسس بنيانه على الشرك والنفاق، وبين أن بناء الكافر كبناء على جرف جهنم يتهور بأهله فيها، وفي هذه الآية دليل على أن كل شيء ابتدئ بنية تقوى الله تعالى والقصد لوجهه الكريم فهو الذي يبقى ويسعد به صاحبه ويصعد إلى الله ويرفع إليه "[٢].

٢- ومن الأمثلة النبوية التي تبين استخدام النبي ﷺ لأسلوب المقارنة قوله ﷺ : " إنما مثل الجليس الصالح والجليس السوء كحامل المسك ونافخ الكير، فحامل المسك إما أن يُحذيك وإما أن تبتاع منه، وإما أن تجد منه ريحًا طيبة، ونافخ الكير إما أن يحرق ثيابك وإما أن تجد منه ريحًا خبيثة "[٣].

قال النووي : " وفيه فضيلة مجالسة الصالحين وأهل الخير والمروءة ومكارم الأخلاق والعلم والأدب والنهي عن مجالسة أهل الشر والبدع ومن يغتاب الناس ويكثر فجره وبطالته ونحو ذلك من الأنواع المذمومة "[٤].

---

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٥٩، ٦٠.
(٢) تفسير القرطبي (٨/ ٢٦٥).
(٣) مسلم ، كتاب البر والصلة، باب استحباب مجالسة الصالحين (النووي) (٦/ ١٧٨).
(٤) المصدر نفسه (٦/ ١٧٨).

ب- أسلوب التقرير:

وهو أسلوب يؤول بالمرء بعد المحاكمـة العقلية إلى الإقرار بالمطلوب الذي هو مضمون الدعوة.

١- ومن الأمثلة القرآنية على ذلك:

قال تعالى: ﴿ **وَاتْلُ عَلَيْهِمْ نَبَأَ إِبْرَاهِيمَ (٦٩) إِذْ قَالَ لأَبِيهِ وَقَوْمِهِ مَا تَعْبُدُونَ (٧٠) قَالُوا نَعْبُدُ أَصْنَامًا فَنَظَلُّ لَهَا عَاكِفِينَ (٧١) قَالَ هَلْ يَسْمَعُونَكُمْ إِذْ تَدْعُونَ (٧٢) أَوْ يَنفَعُونَكُمْ أَوْ يَضُرُّونَ (٧٣) قَالُوا بَلْ وَجَدْنَا آبَاءَنَا كَذَلِكَ يَفْعَلُونَ (٧٤) قَالَ أَفَرَأَيْتُم مَّا كُنتُمْ تَعْبُدُونَ (٧٥) أَنتُمْ وَآبَاؤُكُمُ الأَقْدَمُونَ (٧٦) فَإِنَّهُمْ عَدُوٌّ لِّي إِلاَّ رَبَّ الْعَالَمِينَ (٧٧) الَّذِي خَلَقَنِي فَهُوَ يَهْدِينِ (٧٨) وَالَّذِي هُوَ يُطْعِمُنِي وَيَسْقِينِ (٧٩) وَإِذَا مَرِضْتُ فَهُوَ يَشْفِينِ (٨٠) وَالَّذِي يُمِيتُنِي ثُمَّ يُحْيِينِ** ﴾ (سورة الشعراء، آية: ٦٩-٨١). وهنا ستكون الإجابات بالنفي فعقولهم تمنعهم أن يقولوا إن أصنامهم تسمع دعاءهم أو تجيب رجاءهم، وهذا يؤدي إلى عدم جدوى هذه الأصنام وبالتالي الاستسلام العقلي بوجود وألوهية الخالق الذي جاء في هذه الآيات وصف أفعاله سبحانه وتعالى(١).

٢- ومن الأمثلة الحديثية:-

عن أبي هريرة ﷺ: أن رجلاً أتى النبي ﷺ فقال مستنكرًا ومسترشدًا: يا رسول الله ولد لي غلامٌ أسود، فقال: هل لك من إبل؟ قال: نعم، قال ما ألوانها؟ قال: حُمر، قال: هل فيها من أورق(٢)؟ قال: نعم، قال: فأنى ذلك؟ قال: لعله نزعة عرق، قال: فلعل ابنك نزعة عرق(٣).

فهذا الرجل جاء سائلاً مستفتيًا عما وقع له من الريبة، فلما ضرب له المثل أذعن، وقال ابن العربي: " فيه دليل على صحة القياس والاعتبار بالنظر "(٤).

---

(١) انظر: مقومات الداعية الناجح، ص٦٢.

(٢) أورق: أي أسمر (النهاية في غريب الحديث) (٥/ ١٧٥).

(٣) البخاري، كتاب الطلاق، باب إذا عرّض بنفي الولد الفتح (٩/ ٤٤٢).

(٤) فتح الباري (٩/ ٤٤٤).

جـ - أسلوب الإمرار والإبطال:

وهو أسلوب قـوي في إفـحام المعـاندين أصـحاب الغـرور والصلف بإمـرار أقوالهم وعدم الاعتراض على بعض حججهم الباطلة منعًا للجدل والنزاع خلوصًا إلى حجة قاطعة تدمغهم وتبطل بها حجتهم تلك فتبطل الأولى بالتبع .

١ - ومن الأمثلة القرآنية:

قال تعالى في قصة إبراهيم مع النمرود : ﴿ **أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِي حَاجَّ إِبْرَاهِيمَ فِي رَبِّهِ أَنْ آتَاهُ اللَّهُ الْمُلْكَ إِذْ قَالَ إِبْرَاهِيمُ رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ قَالَ أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ قَالَ إِبْرَاهِيمُ فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ فَأْتِ بِهَا مِنَ الْمَغْرِبِ فَبُهِتَ الَّذِي كَفَرَ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ** ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٥٨) .

وقد أحسـن صاحب الظلال في توضيح هذا الأسلوب حيـث قال: " عرّف إبراهيم بالصفة التي لا يمكن أن يشاركه فيها أحد، ولا يمكن أن يزعمها أحد. . . وهذا الملك يسأله عمن يديـن له بالربوبية، ويراه مصدر الحكم والتشـريع وغيره، قال: ﴿ **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ فهو من ثم الذي يحكم ويشـرع، ثم قال تعليقًا على قوله تعالى: ﴿ **أَنَا أُحْيِي وَأُمِيتُ** ﴾ لم يرد إبراهيم عليه السلام أن يسترسل معه في جدل حـول معنى الإحـياء والإماتة مع رجل يماري ويداور في تـلك الحقيـقة الهائلة، حـقيقة منح الحـياة وسلبهـا، هذا السر الذي لم تدرك منه البشـرية حتى اليوم شيـئًا، وعندئذ عدل عن هذه السنة الكونيـة الحقيقيـة إلى سنة أخرى ظاهرة مرئية، وعـدل عن طريقة العرض المجرد للسنـة الكونية والصفة الإلهـية في قوله ﴿ **رَبِّيَ الَّذِي يُحْيِي وَيُمِيتُ** ﴾ إلى طريقة التـحدي، وطلب تغيـير سنة الله لمن ينكر ويتعنت ويجادل في الله "(١).

وعلق بمثل قوله السعدي في تفسيره فقال: " فلما رآه الخليل مموها تمويهًا ربما راج على الهمج والـرعاع قال إبراهيم ملزمًـا بتصديـق قوله: إن كان كـما يزعم

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ٢٩٨).

﴿فَإِنَّ اللَّهَ يَأْتِي بِالشَّمْسِ مِنَ الْمَشْرِقِ . . . . ﴾ الآية فأتى (أي إبراهيم) بهذا الذي لا يقبل الترويج والتزوير والتمويه "[١].

ولا ريب أن الداعية مطالب بتفهم هذه الأساليب والإفادة منها ليكتسب فطنة تساعده على تقرير المسائل وإقامة الحجة وسرعة البديهة.

ولقد كان لأئمة الدعاة أقوال ومواقف دلت على رجاحة عقولهم وقوة حجتهم، فهذا القاضي أبو بكر الباقلاني سأله بعض النصارى بحضرة ملكهم فقال ما فعلت زوجة نبيكم؟ وما كان من أمرها بما رميت من الإفك؟ فقال الباقلاني على البديهة: هما امرأتان ذكرتا بسوء، مريم وعائشة فبرأهما الله عز وجل وكانت عائشة ذات زوج ولم تأت بولد، وأتت مريم بولد ولم يكن لها زوج[٢].

فكان هذا الجواب في غاية الروعة والإفحام، لأن ذلك الخبيث أراد التعريض والإحراج بقصة حادثة الإفك التي اتهمت فيها عائشة ﵂، فأجاب الباقلاني بأن هذه فرية برأها الله منها ولكنه قرن ذلك بذكر مريم، ليشير إلى أن براءة عائشة عقلاً أولى، لأنه لو تطرق إلى العقل احتمال الريبة فهو في حق مريم أعظم، فإن قبلتم أيها النصارى براءتها فليزمكم قبول براءة عائشة من باب أولى[٣].

رابعاً: رحابة الصدر وسماحة النفس:

إن الداعية الرباني في العادة يتحلى برحابة الصدر وسماحة النفس ليستوعب الناس ويستميلهم للخير والحق " فالناس في حاجة إلى كنف رحيم، وإلى رعاية فائقة، وإلى بشاشة سمحة، وإلى ود يسعهم، وحلم لا يضيق بجهلهم وضعفهم ونقصهم، في حاجة إلى قلب كبير يعطيهم ولا يحتاج منهم إلى عطاء ويحل همومهم ولا يعنيهم بهمه، ويجدون عنده دائمًا الاهتمام والرعاية والعطف والسماحة والود والرضا "[٤].

---

(١) تفسير السعدي (١/ ٣٢٠).

(٢) البداية والنهاية (٩/ ١٣٥).

(٣) انظر: مقومات الداعية الناجح ، ص٧٠.

(٤) في ظلال القرآن (١/ ٥٠٠-٥٠١).

وهكذا كان قلب رسول الله ﷺ وهكذا كانت حياته مع الناس " ما غضب لنفسه قط ولا ضاق صدره بضعفهم البشري، ولا احتجز لنفسه شيئًا من أغراض هذه الحياة، بل أعطاهم كل ما ملكت يداه في سماحة ندية، ووسعهم حلمه وبره وعطفه ووده الكريم، وما من واحد منهم عاشره أو رآه إلا امتلأ قلبه بحبه، نتيجة لما أفاض عليه ﷺ من نفسه الكبيرة والرحيبة "(١).

إن هذه الأخلاق مهمة في تكوين الداعية، يحتاج أن يجتهد في اكتسابها لأنها وقود محرك له في دعوته كما أنها ترفع كفاءة القبول، وتكبح جماح الانفعالات النفسية ذات الآثار السلبية، وتتجلى هذه الأخلاق في عدد من الصفات توضحها وتبين أثرها ومن أهمها:

أ- الرحمة والشفقة:

" إن الداعي لابد أن يكون ذا قلب ينبض بالرحمة والشفقة على الناس، وإرادة الخير لهم والنصح لهم، ومن شفقته عليهم دعوتهم إلى الإسلام، لأن في هذه الدعوة نجاتهم من النار وفوزهم برضوان الله تعالى، وأن يحب لهم ما يحب لنفسه وأعظم ما يحبه لنفسه الإيمان والهدى فهو يحب ذلك إليهم "(٢).

وهذا الشعور الغامر بالشفقة على الناس يبعث في النفس الحزن والأسى على حال المعرضين والعاصين، ويتولد إثر ذلك قوة نفسية دافعة لاستنقاذهم من الخطر المحدق بهم، والهلاك القادمين إليه، وما أبلغ وأدق النص القرآني في بيان هذه الصفة عند الرسول الكريم ﷺ ﴿ **فَلَعَلَّكَ بَاخِعٌ نَّفْسَكَ عَلَىٰ آثَارِهِمْ إِن لَّمْ يُؤْمِنُوا بِهَٰذَا الْحَدِيثِ أَسَفًا**﴾ (سورة الكهف، آية: ٦).

تأمل هذه الآيات فإنه : " من فرط شفقته ﷺ داخله الحزن لامتناعهم عن الإيمان، فهوّن الله سبحانه عليه الحال، بما يشبه العتاب في الظاهر كأنه قال له: لِمَ

(١) في ظلال القرآن (١/ ٥٠٠-٥٠١).

(٢) أصول الدعوة ، ص٣٤٣، ٣٤٤.

كل هذا؟ ليس في امتناعهم - في عدِّنا - أثر، و لا في الدين من ذلك ضرر "[١].

فالرحمة - كما ترى - باعث دافع ومحرك للدعوة استنقاذًا للناس من الهلاك، وهي في الوقت نفسه عامل استمرار واطرار وتوسيع لدائرة الاستيعاب والتأثير رغم الصد والإعراض[٢].

ب- الحلم والأناة:

إن الحلم : " فضيلة خلقية نافعة .. تقع في قمة عالية دونها منحدرات، فهو أناة حكيمة بين التسرع والإهمال أو التواني، وضبط للنفس بين الغضب وبلادة الطبع، ورزانة بين الطيش وجمود الإحساس "[٣].

والأناة عند الداعية إلى الله تعالى " تسمح له بأن يُحكم أموره، ويضع الأشياء في مواضعها، بخلاف العجلة فإنها تعرضه للكثير من الأخطاء والإخفاق، وتعرضه للتعثر والارتباك، ثم تعرضه للتخلف من حيث يريد السبق، ومن استعجل الشيء قبل أوانه عوقب بحرمانه، وبخلاف التباطؤ والكسل فهو أيضًا يعرض للتخلف والحرمان من تحقيق النتائج التي يرجوها "[٤]، وقد امتدح النبي ﷺ الأشج فقال: " إن فيك خصلتين يحبهما الله ورسوله: الحلم والأناة"[٥].

ومن الأمثلة من سيرة النبي ﷺ ما رواه أنس بن مالك حيث قال: جاء أعرابي فبال في طائفة المسجد فزجره الناس، فنهاهم النبي ﷺ ، فلما قضى بوله أمر النبي ﷺ بذنوب ماء أهريق عليه "[٦].

لقد كانت مواقف النبي ﷺ التي تبين حلمه كثيرة جدًّا.

---

(١) لطائف الإشارات للقسيري (١/ ٣٧٧).
(٢) الأخلاق الإسلامية لعبد الرحمن حبنكة (٢/ ٣٢٥).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ٣٢٥).
(٤) الأخلاق الإسلامية (٢/ ٣٥٣).
(٥) مسلم ، كتاب الإيمان، باب الأمر بالإيمان بالله ورسوله (١/ ٤٨).
(٦) البخاري ، كتاب الطهارة ، باب صب الماء على البول في المسجد (الفتح) (١/ ٣٢٤).

جـ - العفو والصفح:

ومن مستلزمـات الحلم الذي فيه كظم للغيظ وضـبط للغضب، ثم الأناة التي فيها تبصر بالأمور وتأن في التصرف، مع الاستناد للرحمة بالجاهلين كل ذلك يثمر العفو والصفح لأن " القلوب الكبـيرة قلما تستجيشهـا دوافع القسوة فهي أبدًا إلى الصفح والحنان أدنى منها إلى الحـفيظة والأضغان "[1] وما دام الداعي المسلم ينظر إلى من يدعوهم نظرة الـرحمة والشفـقة عليهم فـإنه يعفو ويـصفح عنهم في حق نفسه، قال تعالى: ﴿خُذِ الْعَفْوَ وَأْمُرْ بِالْعُرْفِ وَأَعْرِضْ عَنِ الْجَاهِلِينَ﴾ (الأعراف: ١٩٩). فإذا كان هذا هو شـأن الداعي المسلم بالنسبة لمن يدعوهم ويحـتمل صدور الأذى منهم فإن عـفو الداعي وصفحـه عن أصحابه أوسع، قـال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ (آل عمران، آية: ١٥٩).

وعندما وقعت حادثة الإفك، كان وقعها على آل أبي بكر شديدًا، فلما نزلت البراءة حلف أبو بكر رضي الله عنه ألا ينفق على مـسطح بن أثاثة فأنزل الله في ذلك قوله تعـالى: ﴿ وَلا يَأْتَلِ أُوْلُوا الْفَـضْلِ مِنكُمْ وَالسَّـعَـةِ أَن يُؤْتُوا أُوْلِي الْقُـرْبَىٰ وَالْمَـسَـاكِينَ وَالْمُهَاجِرِينَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَلْيَعْفُوا وَلْيَصْفَحُوا أَلا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ اللَّهُ لَكُمْ وَاللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴾ (النور، آية: ٢٢). فصفح الصديق وعفا واستمر في نفقته على مسطح.

إن رحابة الصدر وسماحة النفس تتـضمن الرحمة التي تدعو إلى الحلم الذي يقود إلى العفو فيكون من وراء ذلك التأثير التلقائي لأن الإنسان يتأثر بالإحسان : ﴿ادْفَعْ بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ فَإِذَا الَّذِي بَيْنَكَ وَبَيْنَهُ عَدَاوَةٌ كَأَنَّهُ وَلِيٌّ حَمِيمٌ﴾ (فصلت: ٣٤).

وهذا أمر مـشاهد حـيث نرى أن من كان سـمح النفس يستطيع " أن يـظفر بأكبر قـسط من محبة الناس له، وثقـة الناس به، لأنه يعاملهم بالسماحـة والبِشْر ولين الجانب، والتـغاضي عن السيئـات والنقائص، فإذا دعـاه الواجب إلى تقديم النصح كان في نصحه رقيـقًا لينًا، سمحًا، يسر بالنصيحـة، ولا يريد الفضيحة، يسد الثغرات، ولا ينشر الزلات والعثرات "[2].

---

(١) خلق المسلم ، ص٢٠٤.

(٢) الأخلاق الإسلامية (٢/ ٤٤٣).

هذه بعض العدة التي لا بد منها للدعاة الذين يتصدرون الناس لدعوتهم إلى الإسلام.

المراعاة والتدرج في الإسلام:

إن المراعاة والتدرج لازمان للتغيير وحصول الاستجابة، لأن تغيير النفوس وإزاحتها عن مألوفاتها، ونقلها من ميولها أمر ليس سهلاً، كما أن تغيير الأعراف التي تجذرت في النفوس، واستقرت في العقول وتواطأ الناس عليها لا تتغير بأمر يصدر أو دعوة توجَّه، ولذلك لا بد من الدعاة من مراعاة الطبائع، والأفهام، والمقاصد والنيات، والأحوال الخاصة، والأعراف والعوائد العامة، والأولويات، والمصالح والمفاسد، والأوقات عندما يتصدرون دعوة الناس وتعريفهم بالإسلام.

إن التدرج سنة ربانية من سنن الله تعالى في خلقه وكونه، وهو من السنن الهامة التي يجب على الأمة أفراد وجماعات أن تراعيها وهي تعمل للتمكين.

ومراعاة سنة التدرج في العمل للتمكين يعني أن تتدرج الأمة في عملها للتمكين من السهل إلى الصعب، ومن الصعب إلى الأصعب ومن الهدف القريب إلى الهدف البعيد، ومن الخطة الجزئية إلى الخطة الكلية[١] . . وهكذا.

فلقد بدأت الدعوة الإسلامية في زمن النبي ﷺ متدرجة، تسير بالناس سيراً دقيقًا، حيث بدأت بمرحلة الاصطفاء والتأسيس ثم مرحلة المواجهة والمقارنة، ثم مرحلة النصر والتمكين، وما كان يمكن أن تبدأ هذه جميعها في وقت واحد، وإلا كانت المشقة والعجز، وما كان يمكن كذلك أن يقدم واحد منها على الأخرى، وإلا كان الخلل والإرباك[٢].

واعتبار هذه السنة في غاية الأهمية " ذلك أن بعض العاملين في حقل الدعوة الإسلامية يحسبون أن التمكين يمكن أن يتحقق بين عشية وضحاها،

---

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، ص٢٢٦.

(٢) منهج أهل السنة والجماعة في قضية التغيير ص٦٨-٦٩ بتصرف.

ويريدون أن يغيروا الواقع الذي تحياه الأمة الإسلامية في طرفة عين، دون نظر في العواقب، ودون فهم للظروف والملابسات المحـيطة بهذا الواقع، ودون إعداد جيد للمقدمات، أو للأساليب والوسائل"[١].

وقد وجـه الله - تعالـى - أنظارنا إلى هذه السنة في أكثـر من موقـع، فالله تعالى خلق السـموات والأرض في ستـة أيام، يعلمها سـبحانه ويعلم مـقدارها، وكان - جل شأنه - قادرًا على خلقها في أقل من لمح البصر.

وكذلك بالنسبة لأطوار خلق الإنسان والحيوان والنبات كلها تندرج في مراحل حتى تبلغ نماءها وكمالها ونضجها وفق سنة الله - تعالى - الحكيمة.

وسنة التـدرج ثابتة في التـشريع الإسلامي بصـورة بينة ملمـوسة، وهذا من تيسيـر الإسلام على البشر، أنه راعى معـهم سنة التدرج فيما يشـرعه لهم إيجابًا وتحريمًا، فـتجـده حين فرض الفـرائض كالصلاة والصـيام والزكـاة فرضـها على مراحل، ودرجات حتى انتهت إلى الصورة الأخيرة التي استقرت عليها[٢].

ولقد أشـارت السيـدة عائشـة رضي الله عنها إلى سنة الـتدرج في التـشريع ونزول القرآن فقالت: " إنما أنزل القرآن سور فيها ذكر الجنة والنار، حتى إذا ثاب الناس إلى الإسلام، نزل الحلال والحرام، ولو نزل أول شيء لا تشربوا الخمر ولا تزنوا لقالوا: لا ندع الخمر ولا الزنا أبدًا "[٣].

وأوضح مثـال معروف في هذه القـضية هو التـدرج في تحريم الخمـر: فلقد كانت متغلـغلة في نفوس الناس بصورة كبيرة، فكان من الحكمـة أن يُفطموا عنها بطريقة تدريجية[٤] وكان القضاء علي الرق خاضع لسنة التدرج.

يقول الدكـتور القرضاوي: (ولعل رعـاية الإسلام للتدرج هي التي جـعلته لا

---

(١) آفات على الطريق ، السيد محمد نوح (١/ ٢٧).
(٢) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ، ص١٢٧.
(٣) رواه البخاري، كتاب فضائل القرآن ، باب تأليف القرآن.
(٤) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ، ص٢٢٨.

يُقدم على إلغاء نظام الرق الذي كان نظامًا سائدًا في العالم كله عند ظهور الإسلام، وكان محاولة إلغائه تؤدي إلى زلزلة في الحياة الاجتماعية والاقتصادية فكانت الحكمة في تضييق روافده؛ بل ردمها كلها، ما وجد إلى ذلك سبيلاً، وتوسيع مصارفه إلى أقصى حد، فيكون ذلك بمثابة إلغاء الرق بطريق التدرج "[١].

يقول أبو الأعلى المودودي : " إننا إذا درسنا القرآن الكريم والسنة المطهرة دراسة عميقة علمنا كيف، وبأي تدرج وانسجام تم التغيير الإسلامي في بلاد العرب، ومنها إلى العالم كله على يد النبي ﷺ ، فلقد كانت الأمور تسير رويدًا رويدًا حسب مجراها الطبيعي حتى تستقر في مستقرها الذي أراده الله رب العالمين. .) [٢].

إن الأمة الإسلامية التي تتطلع اليوم إلى تمكين الله تعالى لها لابد أن تراعي في عملها سنة التدرج، فما هدم في أعوام لا يمكن أن يبنى في أيام فعليها أن تتبنى سياسة النفس الطويل والصبر الجميل، فتصبر على البذرة حتى تنبت، وعلى النبتة حتى تورق، وعلى الورقة حتى تزهر، وعلى الزهرة حتى تثمر، وعلى الثمرة حتى تنضج، وتؤتي أكلها بإذن ربها[٣].

وينبغي للدعاة العاملين اليوم للإسلام أن : " يراعوا في عملهم سنة التدرج في تحقيق ما يريدون من أهداف، آخذين في الاعتبار سمو الهدف ومبلغ الإمكانات وكثرة المعوقات فلا ينبغي أن يستعجل الشيء قبل أن يبلغ الأجل المقدور لمثله، فإن الزرع إذا حُصد قبل إبانه، والثمر إذا قطف قبل أوانه لا ينتفع به النفع المرجو. بل قد يضر ولا ينفع فإذا كان النبات لا يؤتي أكله إلا بعد أشهر أو سنة وبعض الشجر لا يثمر قبل سنوات عدة فإن بعض الأعمال الكبيرة لا تقطف ثمارها إلا بعد عقود من السنين، وكلما كان العمل عظيمًا، وقاعدته متسعة كانت ثمرته أبطأ.

---

(١) الخصائص العامة للإسلام للقرضاوي ، ص١٦٦ وما بعدها.
(٢) التمكين للأمة الإسلامية ، ص٢٢٩ .
(٣) انظر: جيل النصر المنشود، ص٢٣ للقرضاوي.

وقد يبدأ جيل عملاً تأسيسيًّا ذا شأن فلا يستفـيد منه الجيل الثاني أو الثالث أو ما بعد ذلك، ولا ضير في ذلك ما دام كل شيء يسير في خطه المعلوم وطريقه المرسوم "[1].

" نعم فالأقدار طويلة الأنفاس، والصراع بين الحق والباطل لا تنكشف عقباه في سنة أو سنتين، ولا في جولة أو جـولتين إنه قد يستـوعب السنين والقرون[2] .. ﴿ وَإِنَّ يَوْمًا عِندَ رَبِّكَ كَأَلْفِ سَنَةٍ مِّمَّا تَعُدُّونَ﴾ (سورة الحج، الآية: ٤٧).

إن استيعاب سنة التدرج يعين الدعـاة على التعامل الصحيح مع الناس ولابد للدعاة الذين يعـرّفون الناس بالإسلام أن تكون لهم قدرة عـلى التخطيط والتنظيم وحســن الإدارة، ولا يخفى أن هذه الأمـور المذكورة من صـميم كل مـرحلة من مراحل التمكين؛ بل هي من صميم أي عمل يراد له أن يحقق أهدافه، وأن يصل إلى غايته.

إن مرحلة التـعريف تحتاج من الدعــاة أن يهتموا بالتـخطيط والتنظيم وحسن الإدارة.

فبالتــخطيط يمكن أن يستفاد من الموارد المادية والمعنوية والبـشرية، على أفضل وجه ممكن، وبأقل تكاليف ممكنة، وفي الوقت المناسب.

وبالتنظيم: يمكن تحـديد الواجبات والاختـصاصات بين الأفـراد ويمكن تحديد الأوقات التي تؤدى فـيها الأعمـال، بغية الوصـول إلى الأهداف التي حددت من ذي قبل. وهو عمل يجب أن يمارسه الدعاة إلى الله؛ بل يتمرسوا به، ويجيدوه، لأنه لا ينجح عمل بدون ذلك.

وبحســن الإدارة: يمكن إخراج التـخطيط والتنظيم إلى حيـز الوجود للعـمل والتنفيذ، وتحدد الطاقات وتوظف مهماتهـا في العمل، وفق ما تقتضيه الخطة وما

(١) الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف ، ص١٠٦ ، ١٠٧ .
(٢) علل وأدوية للغزالي ، ص٣٧.

يتطلبه النظام ويمكن تأمين الموارد المالية اللازمة في هذه المرحلة، بحيث تكون موارد ثابتة يمكن على ضوء ثباتها هذا، أن توضع ميزانية للعمل، وأن يخضع لجدولية مالية وزمانية، ويمكن تنسيق جهود الأفراد أو المجموعات المشاركة في العمل، بحيث تغطي احتياجات العمل في هذه المرحلة، وتحقق أهدافه مع تحديد الجهد المطلوب من كل فرد أو مجموعة أيًّا كان هذا الجهد، وبحسن الإدارة يمكن أن يقوم العمل في كل مرحلة من مراحله، والاستفادة من هذا التقويم للوصول إلى الأحسن، وتقويم الأداء في الزمان والمكان، وتقويم النتائج التي حققها العمل، وتقويم الأفراد والمجموعات.

إن تقويم العمل وفق إدارة محكمة ينتج عنه: تجويد العمل على قدر المستطاع، والمحافظة عليه من الانحراف عن أهدافه، والمحافظة على الاستمرارية، والمحافظة على الانضباط.

ولا بد من الإشارة إلى موضوع هام، ألا وهو أن العمل الدعوي في مكان قد يحتاج إلى خطة وتنظيم وإدارة، تختلف عن احتياجه إليها في مكان آخر.

وهذا حق، وهو أمر تطلب فيه المرونة، وسعة الأفق، وعمق النظر إلى الأمور، لكن بغض النظر عن هذا الاختلاف، فليست العبرة أبدًا بنوعية الإعداد، هرميًّا كان أو رأسيًّا، أو رئاسيًّا أو استشاريًّا، أو غير ذلك، وإنما العبرة بضرورة ممارسة التنظيم للعمل، وبضرورة اختيار النوع الملائم للناس والبيئات، التي يطبق فيها أي نوع من أنواع التنظيم كل ذلك ينظر إليه بمنظار الاحتياج من جانب، وبمنظار القدرة على تحقيق الأهداف من جانب آخر، ولا بأس أبدًا بأي نوع من أنواع التنظيم، التي ذكرنا أو سواها مما يصل إليه أذهان الدعاة إلى الله، ما دام هذا التنظيم لا ينطوي على شيء مما حرّم الله[1].

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله، د. علي عبد الحليم (١/ ٢٩٥ إلى ٣٠٢).

المبحث الثاني
مرحلة اختيار العناصر التي تحمل الدعوة

إن رسل الله الكرام عليهم أفضل الصلوات والسلام عندما بلغوا رسالات الله إلى أقوامهم، اختاروا من الناس من استجاب لدعوتهم وغرسوا في نفوسهم المعاني الإيمانية والأخلاق الربانية حتى يستطيعوا أن يحملوا معهم دعوة الله إلى الناس، فهذا رسول الله موسى قام بهذه المهمة الشاقة وذاك رسول الله عيسى الذي اختار أنصاره الحواريين الذين حملوا دعوته ورسالته من بعده وإن كان بعضهم انحرف عن المنهج الرباني الصحيح، ومن سيرة النبي ﷺ نرى أن هذه المرحلة واضحة المعالم في اختيار العناصر التي لها استعداد لتحمل تكاليف ومشاق ومصاعب الدعوة إلى الله.

وقد اهتم كثير من الدعاة إلى الله بهذه المرحلة وأعطوها اهتمامًا خاصًّا على مر العصور، وكر الدهور، ولا زال المهتمون بأمر الدعوة والذين يسعون لتطبيق شرع الله تعالى يعطون هذه المرحلة أوقاتهم وجهدهم، ولقد أرشد القرآن الكريم الأمة إلى الاهتمام بالإعداد في قوله تعالى: ﴿ **وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ تُرْهِبُونَ بِهِ عَدُوَّ اللَّهِ وَعَدُوَّكُمْ . . .** ﴾ (سورة الأنفال: ٦٠).

إن الإعداد في الآية الكريمة كلمة عامة تبدأ بالإعداد النفسي، وتنتهي بكل أنواع الإعداد المادية التي قد تحتاج إليها المعركة، والمسلم في هذه المرحلة بالذات عليه أن يعد نفسه للقاء أعداء الله، فيأخذ نفسه بكل أسباب القوة، ويحول بينه وبين أي سبب من أسباب الضعف، ويعيش منتظرًا ذلك اليوم الذي يجاهد فيه في سبيل الله، ويقاتل أعداءه، ويسعى لإزالة الحواجز التي تمنع دخول الناس في الإسلام، وتمنع تحكيم شرع الرحمن[١].

إن مرحلة اختيار العناصر اللازمة لتحمل الدعوة وتربيتهم على الكتاب والسنة

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله ، د. علي عبد الحليم (١/ ٤٤٧).

من أهم المراحل في تمكين دين الله، كما أن أهدافها أكثر دقة من أهداف المرحلة التي قبلها.

أولاً: أهم أهداف هذه المرحلة:

أ- **الاصطفاء**: وهو الاختيار والانتقاء للعناصر التي أنهت مرحلة التعريف بنجاح حتى يتأهلوا لحمل أعباء وتكاليف الجهاد في مرحلة المغالبة والشروع لهيمنة الإسلام من خلال دولة محكمة[1] وهذا الاصطفاء له معايير أهمها:

١- **القدرة الروحية**، ويكون لدى الشخص المختار استعداد في هذه المرحلة من الناحية الروحية إذا توفرت فيه بعض الصفات من أهمها: صفاء الروح، الشعور بمراقبة الله، أن يظهر حبه لله في سلوكه، وكذلك ارتباطه الوثيق بالله.

٢- **القدرة العقلية**، وأهم الصفات التي تؤهل الشخص من الناحية العقلية، الذكاء الذي يساعده على العلم والتحصيل، ونبذ المسلمات القائمة على الظنون والأوهام: ﴿ **إِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا** ﴾ (سورة يونس: ٣٦)، وأن يتصف في الحكم على الناس والأشياء بالتأني والتثبت في كل الأمور، لأن الشرع يوقع في الخطأ من جانب ويضيع كثيراً من الفرص للتعرف الحقيقي على الناس من جانب آخر قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ**. . ﴾ (سورة الحجرات، آية: ٦)، وأن يتصف بعمق النظر، وقدرته على التدبر واستنباط الحكم الكامنة في المخلوقات، لأن ذلك ينضج الفكر ويزيد الإيمان، قال تعالى: ﴿ **وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ** ﴾ (سورة الحجر: ٨٥).

٣- **القوة البدنية**: وذلك أن هذه المرحلة إعداد لمرحلة الجهاد، فليس بأهل لها إلا رجل قوي البدن سليم الحواس، خال من الأمراض والعاهات، ومن كان قادراً

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٤٢١).

على أن يأخذ نفـسه وبدنه بأسبـاب القوة، ويباعـد بين نفسه وبدنه وبين أسـباب الضعف فذلك شخص مطلوب.

٤- **القدرة الحـركية:** وتتحـقق القدرة الحركيـة في الشخص إذا توفرت فـيه صفات نذكر منهـا، الرغبة في الاختلاط بالناس، وعقـد الصلات بهم، والقدرة على جذب الناس إليه، والقدرة على التـأثير في الناس، وتصنيفهم، وتكون هذه الصفات من مقومات الشخصية المختارة.

٥- **القـدرة الإنتاجـية:** يكون قد اسـتقطب وضم للصف الإسـلامي آخر أو آخـرين، لصفـوف العمل الإسـلامي عـمومًـا، أو إلى صفـوف مرحلة الدعـوة والتبليغ، وأن يتصف بالإيجـابية الفعّالة القادرة على العمل، وأن يكون متـحمسًا للعمل لا يفـتر عنه، وأن يكون مـحسنًا في العمل الذي يسـند إليه وأن يكون ذا علاقة جيـدة بالناس، وأن يكون قد فقه تمامًا معنى كـونه داعية إلى الله، ومن لم تتوفر له هذه الصـفات، أو تلك الشروط، وفق تلك المعاييـر التي ذكرنا يكون له موقع آخـر في العمل الإسلامي أكـثر انسجـامًا وملاءمة لطاقـته وقدراته، وأفـيد للعمل، لأن من الأمور التي تهلك الأعمال توسيدها إلى غير أهلها.

الهدف الثاني للتوظيف:

أي تحديد العمل للفرد، وتقديره في حـدود إمكانات الفرد وطاقته ويحدد له الزمن المناسب لأداء العمل وإسناد العمل المناسب للفـرد المناسب، يستوجب على من يشرف على العمل أن يكون على علم ووعي وإدراك لما يلي:

١- تحديد الهدف لكل عمل من الأعمال.

٢- تحديد الوسائل التي تكفل للعمل النجاح.

٣- تحديد الفرد والأفراد الملائمين للعمل.

٤- تحديد الإطار الزمني للعمل.

الهدف الثالث: الإعداد والتربية:

ونعني بهذا الهدف تهيئة الأفراد وتجهيزهم وتنمية قواهم الجسدية والخلقية والعقلية، ليكونوا أقوياء قادرين على حمل أعباء الجهاد في سبيل الله، ولذلك تعتبر مرحلة الإعداد والتربية من أهم مراحل الدعوة إلى الله، لأنها تكوّن أفرادًا متكاملي البناء، وحسبهم أنهم قادرون على حمل أعباء الجهاد الذي كما هو معروف سنام الإسلام، وأعلى منزلة بين منازله.

الهدف الرابع: الانضباط:

وذلك بالوصول بالأفراد إلى الانضباط وحفظهم بالحزم حفظًا جيدًا، وإحكام إعدادهم وتكوينهم والقيام على أمرهم خير قيام.

إن حياة المسلم العادي منضبطة في كل شيء وفق القوانين التي جاء بها الإسلام فمن باب أولى الذين يعدون لحمل تكاليف الجهاد فالمسلم منضبط وفق الشرع في العقيدة والفكر، وفي العبادة، وفي الخلق والسلوك وفي المعاملات كلها، وفي الكلام والصمت وفي الزي والمأكل والمشرب والمنكح، وفي النوم واليقظة، وفي الحقوق والواجبات، وفي محاسبة النفس وفي الدعوة إلى الله والعمل من أجل الإسلام، وفي الالتزام بوعده وموعده، وفي الانتماء والاعتزاز بأنه مسلم.

وليس المسلمون في ذلك سواء فمنهم من ينضبط وفق هذه المعايير، ومنهم من يقصر في بعضها، ومنهم من يلبِّس عليه الشيطان أو الهوى أمره فلا ينضبط، ولقد كان من حكمة الله سبحانه ورحمته بالناس، أن جعل لعدم الانضباط عقوبات مقدرة " حدود " ليلتزم الناس بأدب الإسلام وخلقه، ومنهجه، ونظامه.

إن مرحلة الإعداد والتربية من أهدافها الأصيلة، أن يتربى المسلم على الانضباط في كل شيء وفق المعايير والقوانين التي شرعها الله سبحانه وتعالى ليحقق الآخذ بها سعادة الدنيا والآخرة.

ومن أهم الوسائل لتحقيق هذه الأهداف أن يتعهد الأفراد المستهدفون في هذه المرحلة من قبل مشـرف مختص ليشـرف على تربيتهم أسبوعـيًا، ثم وفق دراسة معـينة، ويتعـهدوا أيضًـا كل شهـر ونصف ببرنامج مكـثف وتستـخدم الدورات والندوات والمخيمات والمـعسكرات والرحلات لتحقيق هذه الأهداف السـامية، أما البرنامـج المعد لهذه المرحلـة فيحـتوي على تربيـة روحيـة، وعقلية وجـسمـية، واجتماعية وخلقية.

ثانيًا: التربية الروحية:

قال تعالى: **﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُم مِّنَ الْعِلْمِ إِلاَّ قَلِيلاً﴾** (الإسراء، آية: ٥٨). وقال تعالى: **﴿وَنَفَخْتُ فِيهِ مِن رُّوحِي﴾** (سورة ص: ٧٢). وقال تعالى: **﴿ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾** (سورة السجدة، آية: ٩) لتزكية الروح وتربيتها طرق عدة من أهمها:

١- التدبر في كـون الله ومخلوقاته وفـي كتاب الله تعـالى حتى تشعـر بعظمة الخالق وحكـمته سـبحـانه وتعالى قـال تعالى: **﴿إِنَّ رَبَّكُمُ اللَّهُ الَّذِي خَلَقَ السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ فِي سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ اسْتَوَىٰ عَلَى الْعَرْشِ يُغْشِي اللَّيْلَ النَّهَارَ يَطْلُبُهُ حَثِيثًا وَالشَّمْسَ وَالْقَمَرَ وَالنُّجُومَ مُسَخَّرَاتٍ بِأَمْرِهِ أَلا لَهُ الْخَلْقُ وَالأَمْرُ تَبَارَكَ اللَّهُ رَبُّ الْعَالَمِينَ﴾** (الأعراف: ٥٤).

٢- التأمل في علم الله الشـامل وإحاطته الكاملة بكل مـا في الكون؛ بل ما في عالم الغيب والشهـادة، لأن ذلك يملأ الروح والقلب بعظمة الله ويطهر النفس من الشكوك والأمراض.

قال تعالى: **﴿وَعِندَهُ مَفَاتِحُ الْغَيْبِ لا يَعْلَمُهَا إِلاَّ هُوَ وَيَعْلَمُ مَا فِي الْبَرِّ وَالْبَحْرِ وَمَا تَسْقُطُ مِن وَرَقَةٍ إِلاَّ يَعْلَمُهَا وَلا حَبَّةٍ فِي ظُلُمَاتِ الأَرْضِ وَلا رَطْبٍ وَلا يَابِسٍ إِلاَّ فِي كِتَابٍ مُّبِينٍ (٥٩) وَهُوَ الَّذِي يَتَوَفَّاكُم بِاللَّيْلِ وَيَعْلَمُ مَا جَرَحْتُم بِالنَّهَارِ ثُمَّ يَبْعَثُكُمْ فِيهِ لِيُقْضَىٰ أَجَلٌ مُّسَمًّى ثُمَّ إِلَيْهِ مَرْجِعُكُمْ ثُمَّ يُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ﴾** (سورة الأنعام، آية: ٥٩، ٦٠).

٣- عبادة الله من أعظم الوسـائل لتربية الروح وأجلها قـدرًا ، إذ العبادة هي غاية التذلل لله سبحانه ولا يستحقها إلا الله وحده ، ولذلك قال سبحانه ﴿وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا . . . ﴾ (سورة الإسراء ، آية : ٢٣) . والعبادات التي تسمو بالروح وتطهر النفس نوعان :

النوع الأول: العبـادات المفروضة كالطـهارة ، والصلاة ، والصيـام ، والزكاة ، والحج وغيرها .

النوع الثاني: العبادات بمعناها الواسع ، الذي يشـمل كل عمل يعمله الإنسان أو يتركه ؛ بل كل شعور يُقْبِل عليه الإنسان تقربًا به إلى الله تعالى ، بل يدخل فيها كل شعور ، يطرده الإنسـان من نفسه تقربًا به إلى الله تعالى ، ما دامت نيـة المتعبد بهذا العمل ، هي إرضـاء الله سبحانه وتعالى ، فكل الأمور ، مع نيـة التقرب إلى الله سبحانه وتعالى عبادة يثاب صاحبها ، وتربى روحه تربية حسنة[١] .

إن أثر تربية الروح يتمـثل في أمور عديدة نشير إلى أهمها فـيما يلي : توثيق صلة الإنسـان بربه سبـحانه وتعالى ، وتـوضيح صلة الإنسـان بالكون وما فـيه ، وترشيد هذه الصلة ، وتحـبيب الإنسان لأخيه المسلم ، وحـرصه على هدايته وحب الخير له وتحبيب الإنسان لمخلوقات الله كلهـا ، والتعامل معها ، وفق منهج الإسلام ونظامه ، وتحبيب الإنسان في الخير عمـومًا والتقرب به إلى الله ، واستعلاء الإنسان على شهواتـه ، وسيطرته على نزعاته ، وتوجيـه ذلك كله ، وفق منهج الله ونظامه في الحياة الدنيـا ، واستعلاء الإنسان على القوة المادية ، وعـدم الوقوع في أسرها ، بل أعطاؤها حجمها الصحيح ، ومكانهـا المناسب ، وتتكون في العبد ملكة يستمد بها القوة من الله وحده[٢] .

ثالثًا: التربية العقلية:

ونعني بها تربية الأخ وتنمية قدرته على النظر والتأمل والتفكر والتدبر ، وذلك

---

(١) انظر: فقه الدعوة (١/ ٤٧١ ، ٤٧٢).

(٢) المصدر نفسه.

هو الذي يؤهله لحمل أعباء الدعوة إلى الله، وهذا المطلب القرآني أرشد إليه ربنا سبحانه وتعالى، في محكم تنزيله، وجعله أمرًا لكل إنسان قال تعالى: ﴿قُلِ انظُرُوا مَاذَا فِي السَّمَوَاتِ وَالأَرْضِ وَمَا تُغْنِي الآيَاتُ وَالنُّذُرُ عَن قَوْمٍ لاَّ يُؤْمِنُونَ﴾ (يونس: ١٠١).

وقوله تعالى: ﴿قَدْ خَلَتْ مِن قَبْلِكُمْ سُنَنٌ فَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الْمُكَذِّبِينَ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٣٧)، وقوله سبحانه: ﴿قُلْ سِيرُوا فِي الأَرْضِ فَانظُرُوا كَيْفَ بَدَأَ الْخَلْقَ ثُمَّ اللَّهُ يُنشِئُ النَّشْأَةَ الآخِرَةَ إِنَّ اللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ﴾ (سورة العنكبوت، آية: ٢٠).

وقوله سبحانه وتعالى: ﴿كِتَابٌ أَنزَلْنَاهُ إِلَيْكَ مُبَارَكٌ لِّيَدَّبَّرُوا آيَاتِهِ وَلِيَتَذَكَّرَ أُوْلُوا الأَلْبَابِ﴾ (سورة ص، آية: ٢٩).

وقوله جل شأنه: ﴿فَلْيَنظُرِ الإِنسَانُ إِلَىٰ طَعَامِهِ (٢٤) أَنَّا صَبَبْنَا الْمَاءَ صَبًّا (٢٥) ثُمَّ شَقَقْنَا الأَرْضَ شَقًّا (٢٦) فَأَنبَتْنَا فِيهَا حَبًّا (٢٧) وَعِنَبًا وَقَضْبًا (٢٨) وَزَيْتُونًا وَنَخْلاً (٢٩) وَحَدَائِقَ غُلْبًا (٣٠) وَفَاكِهَةً وَأَبًّا (٣١) مَتَاعًا لَّكُمْ وَلأَنْعَامِكُمْ﴾ (سورة عبس، آية: ٢٤-٣٢).

والعقل يعتبر أحد طاقات الإنسان المهمة ولذلك اهتمت التربية الإسلامية بالنظر إليه وجعله المولى عز وجل مناط التكليف عند الإنسان، فمن حرم العقل لجنون أو غيره، فهو غير مكلف، أو قد سقط عنه التكليف، قال تعالى: ﴿وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلا تُبَذِّرْ تَبْذِيراً﴾ (سورة الإسراء، آية: ٢٦) كما يعتبر العقل نعمة من الله على الإنسان، يتمكن بها من قبول العلم واستيعابه؛ ولذلك وضع الإسلام لتربية العقل منهجًا يتمثل في عدد من النقاط من أهمها:

١- تجريد العقل من المسلمات المبنية على الظن والتخمين، أو التبعية والتقليد، فقد حذر القرآن الكريم من ذلك، في الآيات الكريمة التالية:

قوله تعالى: ﴿إِن يَتَّبِعُونَ إِلاَّ الظَّنَّ وَإِنَّ الظَّنَّ لا يُغْنِي مِنَ الْحَقِّ شَيْئًا﴾ (النجم: ٢٨)

وقوله سبحانه: ﴿قَالُوا بَلْ نَتَّبِعُ مَا أَلْفَيْنَا عَلَيْهِ آبَاءَنَا أَوَ لَوْ كَانَ آبَاؤُهُمْ لا يَعْقِلُونَ شَيْئًا وَلا يَهْتَدُونَ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٧٠).

٢- إلزام العقل بالتحري والتثبت قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ﴾ (الحجرات: ٦).

٣- دعوة العقل إلى التدبر والتأمل في نواميس الكون قال تعالى: ﴿ وَمَا خَلَقْنَا السَّمَوَاتِ وَالأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا إِلاَّ بِالْحَقِّ﴾ (سورة الحجر، آية: ٨٥).

٤- دعوة العقل إلى التأمل في حكمة ما شرع الله لعباده من عبادات، ومعاملات، وأخلاق، وآداب، وأسلوب حياة كامل، في السلم والحرب، في الإقامة والسفر، لأن ذلك فوق أن ينضج العقل وينميه، بتعرفه على تلك الحكم، يعطيه أحسن الفرص ليطبق الشرع الرباني في حياته، ولا يبغي عنه حولاً، لما فيه من السكينة والطمأنينة والسعادة البشرية، ولأن الله سبحانه وتعالى إنما شرع ما شرع لذلك، قال سبحانه: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيمًا (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا﴾ (النساء: ٢٦-٢٨).

وقال سبحانه ﴿وَقَدْ فَصَّلَ لَكُم مَّا حَرَّمَ عَلَيْكُمْ إِلاَّ مَا اضْطُرِرْتُمْ إِلَيْهِ وَإِنَّ كَثِيراً لَّيُضِلُّونَ بِأَهْوَائِهِم بِغَيْرِ عِلْمٍ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِالْمُعْتَدِينَ ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١١٩).

إن علماء الأمة وفقهاءها على مر العصور والأزمان منذ بزوغ الإسلام إلى عصرنا الحاضر غاصوا في حكم التشريع وحكمته وتركوا للعالم كله رصيداً هائلاً ضخمًا في أبواب الفقه الإسلامي، والمعاملات بين الناس وكان من أسباب سعادة الدنيا والآخرة لمن التزم بالمنهج الرباني[١].

٥- دعوة العقل إلى النظر في سنة الله في الناس عبر التاريخ البشري، ليتعظ الناظر في تاريخ الآباء والأجداد والأسلاف ويتأمل في سنن الله في الأمم والشعوب والدول.

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (١/ ٤٧٥).

قال تعـالى: ﴿ أَلَمْ يَرَوْا كَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَبْلِهِم مِّن قَرْنٍ مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ مَا لَمْ نُمَكِّن لَّكُمْ وَأَرْسَلْنَا السَّمَاءَ عَلَيْهِم مِّدْرَارًا وَجَعَلْنَا الأَنْهَارَ تَجْرِي مِن تَحْتِهِمْ فَأَهْلَكْنَاهُم بِذُنُوبِهِمْ وَأَنشَأْنَا مِنْ بَعْدِهِمْ قَرْنًا آخَرِينَ﴾ (سورة الأنعام، آية: ١١٩).

وقال تعالى: ﴿وَلَقَدْ أَهْلَكْنَا الْقُرُونَ مِن قَبْلِكُمْ لَمَّا ظَلَمُوا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ وَمَا كَانُوا لِيُؤْمِنُوا كَذَلِكَ نَجْزِي الْقَوْمَ الْمُجْرِمِينَ (١٣) ثُمَّ جَعَلْنَاكُمْ خَلائِفَ فِي الأَرْضِ مِن بَعْدِهِمْ لِنَنظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (سورة يونس، آية: ١٣-١٤).

وقال سبـحانه : ﴿أَوَ لَمْ يَسِيرُوا فِي الأَرْضِ فَيَنظُرُوا كَيْفَ كَانَ عَاقِبَةُ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ كَانُوا أَشَدَّ مِنْهُمْ قُوَّةً وَأَثَارُوا الأَرْضَ وَعَمَرُوهَا أَكْثَرَ مِمَّا عَمَرُوهَا وَجَاءَتْهُمْ رُسُلُهُم بِالْبَيِّنَاتِ فَمَا كَانَ اللَّهُ لِيَظْلِمَهُمْ وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (الروم: ٩٠) وهذا هو المنهج الرباني للعقل لكي لا يضل في التـيه، الذي ضل فيه كثيـر من الفلاسفة، الذين قدسوا العقل وأعطوه أكثر مما يستحق.

وأما الآثار العـملية من هذا التـوجيه الربـاني في العقل فتـتمـثل في أمور من أهمها:

١- تنقية الـعقل من الوهم والخرافة، والدجل والمسلمـات المبنية على الظنون والأوهام وتربيته على التـريث والتثبت، حتى لا يتسرع، فـيظلم ويندم وحينئذ لا ينفع الندم.

٢- تعويد العقل على إدراك حـقيقة هذا الكون الذي يعيش فـيه وإلزامه بأن يتعرف على الحق عن قرب ويقين.

٣- إقدار العـقل على التأمل والنظر في حكمـة الله سبحـانه وتعالى، فيـما شرعـه للناس من منهج ونظام، يحـقق لهم سـعادة الدارين، وتمكين العـقل من التأمل في تاريخ البشـرية، وهذا التاريخ هو أكبر كتاب، وأوسـعه أبوابًا وفصولاً ليخـرج بفائدة جليلة يستطيع أن يقـارن بدقة وحسم بين الكفر والإيمان، وأعـمال المؤمنين وضلال الكافرين.

رابعًا : تربية الجسم:

إن الله تعالى أخبرنا أنه خلق آدم عليه السلام من سلالة من طين، ثم سواه ونفخ فيه من روحه، وجعل له السمع والبصر والفؤاد قال تعالى: ﴿الَّذِي أَحْسَنَ كُلَّ شَيْءٍ خَلَقَهُ وَبَدَأَ خَلْقَ الإِنسَانِ مِن طِينٍ * ثُمَّ جَعَلَ نَسْلَهُ مِن سُلالَةٍ مِّن مَّاءٍ مَّهِينٍ * ثُمَّ سَوَّاهُ وَنَفَخَ فِيهِ مِن رُّوحِهِ وَجَعَلَ لَكُمُ السَّمْعَ وَالأَبْصَارَ وَالأَفْئِدَةَ قَلِيلاً مَّا تَشْكُرُونَ﴾ (السجدة: ٧-٩).

وهذه الآيات إشارة إلى أن الإنسان يتكون من طاقات ثلاث منحها الله للإنسان: طاقة العقل، وطاقة الروح، وطاقة الجسم، ثم استخلفه الله في الأرض، وطلب منه أن يعمرها، قال سبحانه: ﴿هُوَ أَنشَأَكُم مِّنَ الأَرْضِ وَاسْتَعْمَرَكُمْ فِيهَا﴾ (سورة هود، آية: ٦١).

وقد بينت منهج الإسلام في تربية الروح والعقل، ولا بد من بيان منهج القرآن الكريم في تربية الجسم البشري، بحيث يؤدي وظيفته دون إسراف أو تقتير، ودون محاباة لطاقة من طاقاته، على حساب طاقة أخرى، ولذلك أرشد القرآن إلى ما أحله الله من الطيبات، واجتناب ما حرم الله من الخبائث وأنكر على أولئك الذين يحرمون أبدانهم من تلبية حاجاتها على الوجه المشروع، فقد قال تعالى: ﴿قُلْ مَنْ حَرَّمَ زِينَةَ اللَّهِ الَّتِي أَخْرَجَ لِعِبَادِهِ وَالطَّيِّبَاتِ مِنَ الرِّزْقِ﴾ (الأعراف: ٣٢).

وقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تُحَرِّمُوا طَيِّبَاتِ مَا أَحَلَّ اللَّهُ لَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (٨٧) وَكُلُوا مِمَّا رَزَقَكُمُ اللَّهُ حَلالاً طَيِّبًا وَاتَّقُوا اللَّهَ الَّذِي أَنتُم بِهِ مُؤْمِنُونَ﴾ (سورة المائدة، آية: ٨٧-٨٨).

ولا شك أن تحقيق هذه الحاجات، يتمكن الإنسان من أداء وظائفه، التي وظفه الله لها في الأرض من عبادة الله واستخلاف في الأرض، وإعمارها، وتعارف وتعاون وتناصر وتمكن وأمر بمعروف ونهي عن المنكر وجهاد في سبيل الله، وبغير تحقيقها لا يكون شيء من ذلك[1].

---

(١) فقه الدعوة إلى الله (١/ ٤٨٧).

ولذلك ضبطت الشريعة - على نحو دقيق - حاجات الجسم البشري على النحو التالي:

١- ضبط حاجته إلى الطعام والشراب بقول الله تعالى: ﴿وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ٣١).

٢- وضبط حاجته إلى الملبس والمأوى، بأن أوجب من اللباس ما يستر العورة، ويحفظ الجسم، من عاديات الحر والبرد، وأوجب ما يكون زينة عند الذهاب إلى المسجد قال تعالى: ﴿يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ﴾ (الأعراف: ٣١).

٣- وضبط الحاجة إلى المأوى بقوله تعالى: ﴿وَاللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنْ بُيُوتِكُمْ سَكَنًا﴾ (سورة النحل، آية: ٨٠).

٤- وضبط حاجته إلى الزواج والأسرة، بإباحة النكاح، بل إيجابه في بعض الأحيان، وتحريم الزنا، والمخادنة، واللواط، قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَافِظُونَ ۝ إِلاَّ عَلَىٰ أَزْوَاجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ۝ فَمَنِ ابْتَغَىٰ وَرَاءَ ذَٰلِكَ فَأُوْلَٰئِكَ هُمُ الْعَادُونَ﴾ (سورة المؤمنون، الآية: ٥-٧).

٥- وضبط حاجته إلى التملك والسيادة، بأن أباح التملك للمال والعقار، ولكن حرم الاحتكار، واكتناز الأموال، قال تعالى: ﴿الْمَالُ وَالْبَنُونَ زِينَةُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا ﴾ (سورة الكهف، آية:٤٦).

٦- وضبط الإسلام السيادة بتحريم الظلم والعدوان والبغي قال تعالى: ﴿ إِنَّهُ لا يُفْلِحُ الظَّالِمُونَ﴾ (الأنعام: ٢١). وقال تعالى: ﴿وَأَعْتَدْنَا لِلظَّالِمِينَ عَذَابًا أَلِيمًا﴾ (الفرقان: ٣٧). مع أنه سبحانه وتعالى جعل هذه الأمة وسطًا قال تعالى: ﴿وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ﴾ (البقرة، آية: ١٤٣).

٧- وضبط حاجته إلى العمل والنجاح، بأن جعل من اللازم أن يكون العمل مشروعًا، وغير ضار بأحد من الناس، ونادى على المسلمين أن يعملوا في هذه الحياة الدنيا ما يكفل لهم القيام بعبء الدعوة والدين، وما يدخرون عند الله

سبحانه، قال تعالى: ﴿وَيَسْتَخْلِفَكُمْ فِي الأَرْضِ فَينظُرَ كَيْفَ تَعْمَلُونَ﴾ (الأعراف: ١٢٩).
وربط العمل بالإيمان في كثير من آيات القرآن الكريم، وشرط في العمل أن يكون صالحًا، قال سبحانه وتعالى: ﴿إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ إِنَّا لا نُضِيعُ أَجْرَ مَنْ أَحْسَنَ عَمَلاً ﴾ (سورة الكهف، آية: ٣٠).

بل طالب بالإحسان في العمل، فقال سبحانه : ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ ﴾ (سورة النحل، آية: ٩٠).

٨- وضبط النجاح بأن يكون الهدف من العمل الناجح، وجه الله ورضاه قال سبحانه: ﴿وَمَنْ أَحْسَنُ دِينًا مِّمَّنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ﴾ (النساء،آية: ١٢٥).

٩- وضبط حاجة الجسم إلى الراحة والاسترواح، بأن حذر من الإسراف فيها، حتى لا تتحول إلى دعة وكسل، والأصل في الشريعة الإسلامية أنها خالية من كل إعنات، أو إرهاق للإنسان قال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ بِكُمُ الْيُسْرَ وَلا يُرِيدُ بِكُمُ الْعُسْرَ ﴾ (سورة البقرة، آية: ١٨٥).

وقال تعالى: ﴿يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا ﴾ (النساء: ٢٨).

وحذر سبحانه من الدعة والبطر، والاغترار بالنعمة قال سبحانه : ﴿ وَكَمْ أَهْلَكْنَا مِن قَرْيَةٍ بَطِرَتْ مَعِيشَتَهَا فَتِلْكَ مَسَاكِنُهُمْ لَمْ تُسْكَن مِّنْ بَعْدِهِمْ إِلاَّ قَلِيلاً وَكُنَّا نَحْنُ الْوَارِثِينَ﴾ (سورة القصص، آية: ٥٨).

وقال سبحانه : ﴿ وَلا تَكُونُوا كَالَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِم بَطَرًا وَرِئَاءَ النَّاسِ وَيَصُدُّونَ عَن سَبِيلِ اللَّهِ وَاللَّهُ بِمَا يَعْمَلُونَ مُحِيطٌ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٤٧).

هذه بعض التعاليم من منهج الإسلام في تربية الجسم، حتى يستطيع أن يتحمل أثقال الجهاد وهموم الدعوة وصعوبة الحياة ولا شك أن كل هذه الأنواع من تربية الإسلام للجسم، يحتاج إليها كل الناس؛ ولكن المنضمون إلى مرحلة الإعداد والتربية يحتاجون إلى هذه الأمور احتياجًا أساسيًّا.

خامسًا: تربية الحس الاجتماعي:

لقد اهتم القرآن الكريم بنزعة التربية الاجتماعية في الإنسان ووضع لها دعائم:

الدعامة الأولى: تنمية حب الإنسان لأخيه الإنسان المؤمن، وتلك القاعدة التي ترتكز عليها الحاسة الاجتماعية في البشر عمومًا، ويتضح هذا من سيرة النبي ﷺ عندما وصل إلى المدينة فآخى بين المهاجرين والأنصار في الله، وأصبحوا أخوة وسجل ذلك في وثيقة مكتوبة، نقشت في قلب كل مؤمن؛ بل صاروا يتوارثون بمقتضى هذه الأخوة، وظل هذا التوارث ساريًا، حتى نزل قول الله تبارك وتعالى: ﴿**وَأُولُوا الأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِي كِتَابِ اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ بِكُلِّ شَيْءٍ عَلِيمٌ**﴾ (الأنفال، آية: ٧٥) فألغى التوارث، وبقيت الأخوة في الله على ما كانت عليه، من قوة ووثاقة، ولا تزال بين الواعين من المؤمنين حتى اليوم، ولقد تأكدت الأخوة بين المؤمنين بقوله سبحانه: ﴿**إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ**﴾ (الحجرات، آية: ١٠).

ولقد كان من مقتضى فقه الأنصار للأخوة في الله، أن حملوا أعباء إخوانهم المهاجرين، ومدح الله سبحانه ذلك الفقه والعمل، وأثنى عليه بقوله سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ**﴾ (سورة الحشر، آية: ٩).

الدعامة الثانية: استجابة الإسلام لحاجات المجتمع، كاستجابته لحاجات الفرد، وقد عمل على تحقيق حاجات المجتمع في إطار ما أحل الله، وبحيث لا يضر بأحد من الناس، ومن حاجات المجتمع[1].

١- التعاون والتكافل: لقد أمر الله تعالى عباده المؤمنين بالتعاون وأوجبه عليهم قال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ وَلا تَعَاوَنُوا عَلَى الإِثْمِ وَالْعُدْوَانِ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ**﴾ (سورة المائدة، آية: ٢).

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (١/ ٥٠٧).

٢- التناصر والتواصي بالحق والصبر: قال تعالى: ﴿**وَالْعَصْرِ * إِنَّ الإِنسَانَ لَفِي خُسْرٍ * إِلاَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَتَوَاصَوْا بِالْحَقِّ وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ**﴾ (سورة العصر). والتواصي بالحق يدفع عن الناس كل مصيبة ويقضي على المنكرات والآثام التي في المجتمع ويجعلها تنحسر، والتواصي بالصبر يجعل المجتمع تسوى فيه العدالة ويرتفع الظلم وتسوده المودة وتزول العجلة.

٣- الحث على التراحم بين أفراد المجتمع: قال تعالى: ﴿**مُحَمَّدٌ رَّسُولُ اللَّهِ وَالَّذِينَ مَعَهُ أَشِدَّاءُ عَلَى الْكُفَّارِ رُحَمَاءُ بَيْنَهُمْ**﴾ (الفتح، آية: ٢٩). وأثنى سبحانه وتعالى على المؤمنين المتراحمين في قوله سبحانه: ﴿**ثُمَّ كَانَ مِنَ الَّذِينَ آمَنُوا وَتَوَاصَوْا بِالصَّبْرِ وَتَوَاصَوْا بِالْمَرْحَمَةِ (١٧) أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ الْمَيْمَنَةِ**﴾ (البلد: ١٧، ١٨).

وهذه الآيات لم تحصر حاجات المجتمع؛ بل حثته بمفهومها العام على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وعلى جلب المصالح، ودفع المفاسد، والجهاد في سبيل الله وتجهيز الغزاة، وعلى تأمين العيش الكريم لكل أفراده[١].

الدعامة الثالثة: تحديد الصفات التي يجب أن تسود المجتمع:

قال تعالى: ﴿**فَمَا أُوتِيتُم مِّن شَيْءٍ فَمَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَمَا عِندَ اللَّهِ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ لِلَّذِينَ آمَنُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ (٣٦) وَالَّذِينَ يَجْتَنِبُونَ كَبَائِرَ الإِثْمِ وَالْفَوَاحِشَ وَإِذَا مَا غَضِبُوا هُمْ يَغْفِرُونَ (٣٧) وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ (٣٨) وَالَّذِينَ إِذَا أَصَابَهُمُ الْبَغْيُ هُمْ يَنتَصِرُونَ (٣٩) وَجَزَاءُ سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا فَمَنْ عَفَا وَأَصْلَحَ فَأَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ إِنَّهُ لا يُحِبُّ الظَّالِمِينَ (٤٠) وَلَمَنِ انتَصَرَ بَعْدَ ظُلْمِهِ فَأُوْلَئِكَ مَا عَلَيْهِم مِّن سَبِيلٍ (٤١) إِنَّمَا السَّبِيلُ عَلَى الَّذِينَ يَظْلِمُونَ النَّاسَ وَيَبْغُونَ فِي الأَرْضِ بِغَيْرِ الْحَقِّ أُوْلَئِكَ لَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤٢) وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَلِكَ لَمِنْ عَزْمِ الأُمُورِ**﴾ (الشورى: ٣٦-٤٣).

لقد ذكرت الآيات الكريمة الصفات الرفيعة والتي إن سادت في المجتمع يصبح سعيداً راشداً.

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (١/٥٠٨).

فقد أشارت إلى الإيمان بالله، والتوكل عليه سبحانه، واجتناب كل إثم وفاحشة والصفح والتسامح، والاستجابة لكل ما أمر الله به، وإقام الصلاة، وممارسة الشورى في كل ما يعنيهم من أمر، والإنفاق في سبيل الله ووجوه الخير، والانتصاف من كل عدو للإســلام والمسلمين، وهو مقتضى العــدل، والعفو والتســامح مع القدرة على الانتصــاف، وهو مقتــضى الإحسان، والانتــصار بعد الظلم، والصــبر على المظالم والتجاوز عن الظالم لعل الله يهديه، بشــرط ألا يكون ذلك مؤديًا إلى الفساد والشر والدعوة للمعرفة وهكذا يكون المجتمع الإسلامي[1].

الدعامـة الرابعة: تأكيد خـيرية هذا المجتمع الذي انصهـر في تعاليم الإسلام ووضعه في مقدمة المجتمعات لقيادته كلها إلى الإيمان والمنهج الرباني والحق والخير والصلاح والسعادة في الدنيـا والآخرة قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ (سورة آل عمران، آية: ١١٠).

وهذه خيريــة تقوم على الإيمان، والعمل الصالح، والأمــر بالمعروف، والنهي عن المنكر، بعيدة كل البعد عن الخيرية العرقية، والجنسية، والقومية، كما زعمت أمة اليهود، وانخدعت أمة الألمان بالعرقية منذ خمسة عقود فكلفتها وكلفت العالم كله حربًا دامية مات فيها ملايين من البشر.

هذه أهم الدعائم التي يجب أن تسود في المجتمع وينبغي أن يقوم برنامج هذه المرحلة عليها وأن يوزع على كل المشــرفين في مرحلة الإعداد في القرى والأرياف والحواضر والبوادي والمدن والبلديات ولا شك أن مرحلة الإعداد والتربية من أهم المراحل التي يبنى عليها الأهداف في الوصول إلى التـمكين وسيادة شرع الله على العالمين وإقامة دولة الإيمان والتوحيد.

سادسًا: عدة القائمين على مرحلة الإعداد والتربية:

مما لا ريب فيه أن الذين يشرفون على مرحلة الإعــداد والتربية لهم مواصفات

---

(١) المصدر نفسه (١/ ٥٠٩).

خاصة من التـميز الإيماني والتفـوق الروحاني، والرصيد العلمي والـزاد الثقافي، ورجاحة العقل وقوة الحجة، ورحابة الصدر وسماحة النفس، والخبرات والتجارب الكثيرة، والسياسة الحكيمة وسوف نركز على أمرين خوفًا من الإطالة:

أ- الخبرات والتجارب:

إن التجربة لهـا الأثر العظيم في اكتساب المهـارات والخبرات وهي من أعظم اكتساب الحكمة، والتجربة لا تخـرج الحكمة عن كونها فضل يؤتيه الله من يشاء، فإنه المعطي الوهاب ﴿ وَمَا بِكُم مِّن نِّعْمَةٍ فَمِنَ اللَّهِ ﴾ (سورة النحل، آية: ٥٣)، ولكنه سبحانه جعل لكل شيء سببًا يوصل إليه، والتجربة في العلم اختبار منظم لظاهرة أو ظواهر يراد ملاحظتها ملاحظة دقيقة منهجية، للكشف عن نتيجة ما، أو تحقيق غرض معين، وما يعـمل أولاً لتلافي النقص في شيء وإصلاحه[١] ويقال: جربه تجربة: اخـتبره، ورحـل مجرب، أي: عـرف الأمور[٢]، تقول: جـربت الشيء تجريبًا: اختبرته مرة بعد أخرى، والاسم التجربة والجمع تجارب[٣].

وعن معـاوية[٤] رضي الله عنه قـال: " لا حكيم إلا ذو تجـربة "[٥] ومن المعلوم أن الحكيم لا بد له من تجارب قد أحكمته، ولهذا قيل: " لا حليم إلا ذو كثرة، ولا حكيم إلا ذو تجربة "[٦] وبهذا نقول إن الداعيـة إلى الله إذا خالط الناس، وعرف عاداتهم وتقـاليدهم، وأخلاقهم الاجـتماعية، ومـواطن الضعف والقوة، سـيركز على ما ينفع الناس، ويضع الأشـياء في مواضعـها، لأنه قد جربهم، فـالتجارب تنمي المواهب والقـدرات، وتزيد البصيـر صبـرًا، والحليم حلمًا، وتجـعل العاقل

---

(١) المعجم الوسيط : مادة : جرب (١/ ١١٤).

(٢) القاموس المحيط ، باب فصل جيم ، ص٨٥.

(٣) المصباح المنير، مادة جرب ، ص٩٥.

(٤) هو الصحابي كاتب الوحي وصهر الرسول ﷺ تولى خـلافة المسلمين وتوفي عام ٦٠هـ . سير أعلام النبلاء (٣/ ١١٩).

(٥) البخاري مع الفتح، كتاب الأدب، باب لا يلدغ المرء من حجر مرتين (١٠/ ٥٢٩).

(٦) الترمذي ، كتاب البر والصلة، باب ما جاء في التجارب (٤/ ٣٧٩).

حكيمًا، وقـد تشجع الجبان، وتسـخي البخيل، وقد تُلين قلب الـقاسي، وتقوي قلب الضعيف، ومن زادته التـجارب عمى إلى عماه فهـو من الحمقى الذي طبع الله على قلوبهم فهم لا يفقهون[١].

وأعظم الناس تجربة، وأكملهم حكمة الأنبـياء عليهم الصلاة والسلام، لأنهم صفـوة البشر اصطفـاهم الله ربهم، ثم أرسلهم لإخراج الناس مـن الظلمات إلى النور، ومع هذا ما بعث الله من نبي إلا رعى الغنم، كما قال ﷺ: "نعم كنت أرعاها على قـراريط لأهل مكة "[٢] والحكمة من ذلك - والله أعلم - أن الله - عز وجل - يلهم الأنبيـاء قبل النبوة رعي الغنم، ليحصل لهم التمـرين والتجربة برعيها على ما يُكلَّفونه من القيام بأمر أمتهم، ولأن في مخالطتهم ما يحصل لهم الحلم والشفقة كمـا قال ﷺ : " أتاكم أهل اليمن هم أرق أفئدة وألين قلوبًا. الإيمان يمان، والحكمة يمانية، والفخر والخيلاء في أصحاب الإبل والسكينة والوقار في أهل الغنم "[٣] ولأنهم إذا صبروا على رعيها وجمعها بعد تفرقها في المرعى، ونقلها من مسـرح إلى مسرح، ودفع عدوها، من سبع وغيره كـالسارق، وعلموا اختلاف طبائعها، وشدة تفرقها مع ضعفها، واحتياجها إلى المعاهدة ألفوا من ذلك الصبر على الأمة، وعـرفوا اختلاف طبائعهـا وتفاوت عقولها، فجـبروا كسرها، ورفقوا بضعيـفها، وأحسنوا التعاهد لها، فيكون تحـملهم المشقة ذلك أسهل مما لو كلفـوا القيام بذلك مـن أول وهلة، لما يحصل لهم من التـدريج على ذلك برعي الغنم، وخصت الغنم بذلك، لكونهـا أضعف من غيرها، ولأن تفرقهـا أكثر من تفرق الإبل والبـقر، لإمكان ضبط الإبل والبـقر بالربط دونها في العـادة المألوفة، ومع أكثرية تفرقها فهي أسرع انقيادًا من غيرها[٤].

ثم بعد رعـيهم الغنم جربوا الناس، وعـرفوا طبائعهم، فـازدادوا تجارب إلى

---

(١) انظر: هكذا علمتني الحياة للسباعي، ص٤٧.

(٢) البخاري، كتاب الإجارة، باب رعي الغنم (٣/ ٦٥).

(٣) مسلم، كتاب الإيمان، باب تفاضل أهل الإيمان (١/ ٧١).

(٤) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، ص١٠٤.

تجاربهم، ولهذا قال موسى ﷺ لمحمد ﷺ عندما فرضت عليه الصلاة خمسون صلاة في كل يوم ليلة الإسراء والمعراج : " إن أمتك لا تستطيع خمسين صلاة كل يوم، وإني والله جربت الناس قبلك، وعالجت بني إسرائيل أشد المعالجة، فارجع إلى ربك فاسأله التحقيق لأمتك فما زال النبي ﷺ يراجع ربه ويضع عنه حتى أمر بخمس صلوات كل يوم(١).

فموسى ﷺ قد جرب الناس، وعلم أن أمة محمد ﷺ أضعف من بني إسرائيل أجسادًا، وأقل منهم قوة، والعادة أن ما يعجز عنه القوي فالضعيف من باب أولى(٢).

فالداعية بتجاربه بالسفر، ومعاشرته الجماهير، وتعرفه على عوائد الناس وعقائدهم، وأوضاعهم، ومشكلاتهم، واختلاف طبائعهم وقدراتهم، سيكون له الأثر الكبير في نجاح دعوته وابتعاده عن الوقوع في الخطأ، لأنه إذا وقع في خطأ في منهجه في الدعوة إلى الله، أو أموره الأخرى لا يقع فيه مرة أخرى، وإذا خُدع مرة لم يخدع مرة أخرى، بل يستفيد من تجاربه وخبراته ولهذا قال ﷺ : " لا يُلدغ المؤمن من جحر واحد مرتين "(٣).

وقال: " كلكم خطاء، وخير الخطائين التوابون "(٤).

وسبيل الاستفادة من التجارب والخبرات هو خوضها فمثلاً من أراد إصلاح المتدينين وتوجيههم فعليه أن يعيش معهم في مساجدهم، ومجتمعاتهم، ومجالسهم، وإذا أراد إصلاح الفلاحين والعمال عاش معهم في قراهم ومصانعهم، وإذا أراد أن يصلح المعاملات التجارية بين الناس، فعليه أن يختلط بهم في أسواقهم ومتاجرهم، وأنديتهم، ومجالسهم، وإذا أراد أن يصلح الأوضاع السياسية، فعليه أن يختلط بالسياسيين، ويتعرف إلى تنظيماتهم، ويستمع

---

(١) البخاري مع الفتح، كتاب مناقب الأنصار ، باب المعراج (٧/ ٢٠٢).
(٢) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله، ص١٠٥.
(٣) البخاري مع الفتح، كتاب مناقب الأنصار ، باب المعراج (٧/ ٢٠٢).
(٤) الترمذي، كتاب صفة القيامة، باب حدثنا هناد (٤/ ٦٥٩).

لخطبهم، ويقرأ لهم برامجهم، ثم يـتعرف إلى البيئة التي يعيشون فيـها، والثقافة التي حصلوا عليها والاتجاه الذي يندفعون نحوه، ليعرف كيف يخاطبهم بما لا تنفر منه نفوسـهم، وكيف يسلك في إصلاحـهم بما لا يدعوهم إلى محاربتـه عن كره نفس واندفاع عاطفي، فيحرم نفسه من الدعوة إلى الله ويحرم الناس من علم[(١)]، وهذا يؤهله إلى أن يُحدِّث الناس بما يعرفون ولا يحدثهم حديثًا لا تبلغه عقولهم، قال علي ﷺ " حدثوا الناس بما يعرفون، أتحبون أن يُكذب الله ورسوله "[(٢)].

وقال ابن مسعود ﷺ : " ما أنت بمحدث قـومًا حديثًا لا تبلغه عقولهم إلا كان لبعضهم فتنة "[(٣)].

وهكذا ينبغي أن يكون الدعـاة المسئولون على إعـداد الربانيين حتى يورثوهم خبراتهم وتجاربهم في الحياة، ومعرفتهم بشئون الناس[(٤)].

ب- أن يكون ذا سياسة حكيمة:

إن النبي ﷺ هو أسوتنا وقدوتنا، وإمام الدعاة إلى الله، فقد سلك مسلكًا عظيمًا في سـياسته الحكيمة فكان له عظيم النفع والأثر في نجـاح دعوته، وإنشاء دولته، وقوة سلطانه، ورفعـة مقامه، ولم يعرف في تاريخ السيـاسات البشرية أن رجلاً من السـاسة المصلحين في أي أمة من الأمم كـان له مثل هذا الأثر العظيم، ومَن مِن المصلحين المبرزين - سواء كـان قائدًا محنكًا، أو مربيًا حكيـمًا - اجتمع لديه من رجاحة العقل، وأصالة الرأي، وقوة العـزم، وصدق الفراسة، ما اجتمع في رسول الله ﷺ؟ ولقد بـرهن على وجود ذلك فيه، صـحة رأيه، وصواب تدبيـره، وحسن تأليـفه، ومكارم أخـلاقه ﷺ[(٥)]. وأهم الطرق في السيـاسة الحكيمة في الدعوة إلى الله كثيرة منها ما يأتي:

---

(١) انظر: السيرة النبوية دروس وعبر، ص٤١.
(٢) البخاري مع الفتح، كتاب العلم، باب من خص بالعلم قوم دون قوم (١/ ٢٢٥).
(٣) مسلم، في المقدمة، باب النهي عن الحديث بكل ما سمع (١/ ١١١).
(٤) انظر: الحكمة من الدعوة إلى الله، ص١٠٦.
(٥) انظر: هداية المرشدين، للشيخ علي بن محفوظ، ص٢٤، ٣١.

١- تحري أوقات الفراغ، والنشاط، والحـاجة عند المدعوين حتى لا يملوا عن الاستماع ويفـوتهم من الإرشاد والتعليم النافع، والنصائح الغاليـة الشيء الكثير، وقد ثبت عن النبي ﷺ أنه كان يتخول أصحـابه بالموعظة كراهة السآمة عليهم، فعن عبـد الله بن مسعود رضي الله عنه قال: كان النبي ﷺ يـتخولنا بالموعظة في الأيام كراهة السآمة علينا"(١).

ولهذا طبق الصحابة هذه السياسة، فقـد كان عبد الله بن مسعود يذكر الناس في كل خـميس، فقـال له رجل: يا أبا عبـد الرحمن، لوددت أنك ذكـرتنا كل يوم، قال: أمـا أنه يمنعني من ذلك أني أكره أن أملكم، وإني أتخـولكم بالموعظة كما كان النبي ﷺ يتخولنا بها مخافة السآمة علينا(٢).

وقد ثبت عنه ﷺ أنه قال: " يسروا ولا تعسروا، وبشروا ولا تنفروا "(٣).

٢- أن يحرص على سلاح التأليف بالعفو عند المقدرة:

فيعمل على أن يضع الإحسان في مكان الإساءة، واللين في موضع المواخذة، والصبر على الأذى، فيقابل الأذى بالصـبر الجميل، ويقابل الحمق بالرفق والحلم، ويقابل العجلة والطيش بالأناة والتثبت، وبذلك يملك قلوب إخوانه والمدعوين إلى الإسلام عمومًا.

وبمثل هذه المعاملة الحسنة جمع النبي ﷺ قلوب أصحابه حوله، فتفانوا في محبته والدفاع عنه، وعن دعـوته بمؤازرته ومناصرته، وقد مدح الله رسوله ﷺ وأمره بالعفو والصفح والاستغفار لمن تبعه من المؤمنين ﴿**فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ**﴾ (سورة آل عمران، آية: ١٥٩).

---

(١) البخاري مع الفتح، كتاب العلم ، باب من خصه قوم دون قوم (١/ ٢٢٥) .
(٢) البخاري، كتاب العلم ، باب ما كان النبي يتخولهم بالموعظة (١/ ٣) .
(٣) المصدر نفسه ، (١ / ٣) رقم ٦٩.

﴿لَقَدْ جَاءَكُمْ رَسُولٌ مِّنْ أَنفُسِكُمْ عَزِيزٌ عَلَيْهِ مَا عَنِتُّمْ حَرِيصٌ عَلَيْكُم بِالْمُؤْمِنِينَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ﴾ (سورة التوبة، آية: ١٢٨).

٣- عدم مواجهة أحد بعينه: عندما يريد أن يؤدبه أو يزجره مادام يجد في الموعظة العامة كفاية، وهذا من السياسة البالغة في منتهى الحكمة، ولهذا كان النبي ﷺ يسلك هذا الأسلوب الحكيم، فعندما فقد ﷺ ناسًا في بعض الصلوات، فقال: " والذي نفسي بيده لقد هممت أن آمر بحطب فيحطب، ثم آمر بالصلاة فيؤذن لها، ثم آمر رجلاً يؤم الناس، ثم أخالف إلى رجال يتخلفون عنها فأحرق عليهم بيوتهم "[1]. وقال ﷺ : " ما بال أقوام يرفعون أبصارهم إلى السماء في الصلاة "، فاشتد قوله في ذلك حتى قال: " لينتهن عن ذلك أو لتخطفن أبصارهم "[2].

وقال: " ما بال أقوام قالو كذا وكذا، لكني أصلي وأنام، وأصوم وأفطر، وأتزوج النساء، فمن رغب عن سنتي فليس مني"[3]. ولما بلغه أن قومًا اشترطوا الولاء بعد بيع الأمة فخطب الناس فقال: " ما بال أناس يشترطون شروطًا ليست في كتاب الله، من اشترط شرطًا ليس في كتاب الله فليس له، وإن شرط مائة مرة، شرط الله أحق وأوثق"[4].

وهذا إرشاد نبوي حكيم في عدم مواجهة الناس بالعتاب سترًا عليهم ورفقًا بهم، وتلطفًا ويستطيع أن يخاطب الناس عن طريق مخاطبة الجمهور إذا كان المدعو المقصود بينهم ومن جملتهم، وهذا من أحكم الأساليب.

٤- إعطاء الوسائل صورة ما تصل إليه، كقوله ﷺ : " من دل على خير فله مثل أجر فاعله "[5].

---

(١) ألبخاري ، كتاب الأذان ، باب وجوب صلاة الجماعة، (١ / ١٧٩) رقم ٦٤٤.
(٢) البخاري ، كتاب الأذان ، باب رفع البصر في الصلاة (١/ ٢٠٥) رقم ٧٥٠.
(٣) مسلم، كتاب الفضائل ، باب علمه ﷺ وشدة خشيته (٤/ ١٨٢٩).
(٤) مسلم، كتاب العتق ، باب إنما الولاء لمن اعتق (٢/ ١١٤٢).
(٥) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضل إعانة الغازي في سبيل الله (٣/ ١٥٠٦).

فقد صور ﷺ الدلالة على فعل الخير في صورة الفعل نفسه، وكقوله ﷺ : " من جهز غازيًا فقد غزا "[١] وقال ﷺ : " إن من أكبر الكبائر أن يلعن الرجل والديه، قيل يا رسول الله: وكيف يلعن الرجل والديه، قال: يسب الرجل أبا الرجل فيسب أباه، ويسب أمه فيسب أمه "[٢].

وهذا أصل في سد الذرائع، ويؤخذ منه أن من آل فعله إلى محرم يحرم عليه ذلك الفعل وإن لم يقصد إلى ما يحرم[٣]، كما قال تعالى: ﴿ **وَلَا تَسُبُّوا الَّذِينَ يَدْعُونَ مِن دُونِ اللَّهِ فَيَسُبُّوا اللَّهَ عَدْوًا بِغَيْرِ عِلْمٍ** ﴾ (سورة الأنعام، الآية: ١٠٨).

فقد أعطى النبي ﷺ من يسب أبا الغير وأمه صورة من يسب والديه، لأنه تسبب في سبهما.

٥- أن تكون له مقدرة على ضرب الأمثال، قال ﷺ : " المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضًا، وشبك بين أصابعه "[٤] وقد مثل النبي ﷺ المؤمنين في تبادل الرحمة والمودة والعطف بالجسد في روابطه العضوية، إذا مرض عضو مرضت باقي الأعضاء، فقال: " مثل المؤمنين في توادهم وتراحمهم وتعاطفهم كمثل الجسد، إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى "[٥].

وهذه من أهم الوسائل التي إذا وصل إليها الداعية أصبحت له سياسة حكيمة في معرفة الناس وتربيتهم وإعدادهم، وعلى الأخ الداعية المربي أن يلم بفقه الدعوة وأسسها وأصولها التي تقوم عليها حتى يسير في دعوته على بصيرة، ولا شك أن فهم هذه الأركان يدخل في قوله تعالى: ﴿ **قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (يوسف: ١٠٨).

---

(١) المصدر السابق نفسه (٣/ ١٥٠٧).
(٢) البخاري، كتاب الأدب، باب لايسب الرجل والدية (٧/ ٩٢) رقم ٥٩٧٣.
(٣) انظر: الحكمة في الدعوة إلى الله ، ص١١١.
(٤) البخاري ، كتاب الصلاة، باب تشبيك الأصابع (١/ ٥٦٥) رقم ٤٨١.
(٥) البخاري ، كتاب الأدب، باب رحمة الناس والبهائم (١ / ١٠٣) رقم ٦٠١١ .

إن فهم أساليب الدعـوة ووسائلها تعطي الداعية كفاءة وبصـيرة وتزيده إتقانًا وخبرة.

سابعًا: صفات جيل التمكين:

إن في مرحلة الإعداد والتربيـة يهتم المشرفون عليها من الدعـاة بصفات جيل التمكـين ويعملون على غرسـها في نفـوس العناصر التي اخـتيرت لهـذه المرحلة لعلمهم اليـقيني أن لجيل التمكين صفـات خاصة، تميـزه عن غيره من الأجـيال وسمـات يعرف بهـا، ذلك أنه الجيل الذي يعـد ليكون مؤهلاً لنصـر الله وسببًا لإعادة مجـد الأمة التي اختارها الله لإعلاء كلمـته ونصر دينه وعقـيدته، وعندما تبـرز صفـات جـيل التمكين في الصـف الإسلامي يكون مـؤهلاً للتـغلب على التحديات التـي تواجهه سواء كانت مـحلية، أو كانت داخلية، أو كـانت عالمية، ويمكننا تقسيم صفات جيل التمكين إلى: صفات إيمانية، صفات سلوكية أخلاقية، صفات حركية ودعوية، صفات نفسية.

أ- صفات إيمانية

١- ربانية وإخلاص:

يعـيش جيل التـمكين الرباني في الدنيا بقـلوب أهل الآخرة ويعـيشـون فوق الأرض وقلوبهم تهـفو إلـى رضى المولى عز وجل ودخـول جناته ورفـقة النبـيين والصديقـيين والشهداء والصالحين وأبرز مـا يميزهم عن غيرهم أنهم مـخلصون لله رب العالمين، فإذا جاءتهم الدنيـا جعلوها في أيديهم ولـم يدخلوها في قلوبهم، لا يعبدون الأشخاص ولا الأهواء ولا الطاغوت أيًّا كان فقد تبين لهم الرشد من الغي فكفروا بالطاغوت وآمنوا بالله وحده فاستمسكوا بالعروة الوثقى لا انفصام لها.

٢- الشعور بمعية الله عز وجل:

وهذا الشـعور يدفع العـبد المؤمن إلـى الصدع بالحق ويطلق صـاحبـه الجبن

والخوف والهلع ويحدث في النفس انقلابًا نفسيًّا في حياة الداعية، ولنتذكر حين قال أصحاب موسى إنا لمدركون قال موسى عليه السلام: ﴿ قَالَ كَلاَّ إِنَّ مَعِي رَبِّي سَيَهْدِينِ﴾ (الشعراء: ٦٢).

٣- غرباء في هذه الدنيا:

إن هذا الصنف هو الذي أشار إليه رسول الله ﷺ حين قال: " بدأ الإسلام غريبًا وسيعود غريبًا كما بدأ فطوبى للغرباء قيل ومَنْ الغرباء يا رسول الله؟ قال: الذين يصلحون إذا فسد الناس "(١).

والمسلم إذا شرح الله صدره للإسلام وملأ قلبه بالإيمان يستسهل كل صعب ويستعذب كل كدر، إن هذا الغريب يرسل للناس من الأشعة الهادية ما ينير لهم الطريق، فهي ليست غربة عزلة وفرار، ولكنها غربة رفعة وسمو، وحرص على إيصال دعوته للجميع، فهو لا يعيش في برج عاجي بعيدًا عن الناس؛ بل يتفاعل معهم ويحمل همومهم ويعاونهم في حل مشاكلهم فالناس جزء منه وهو جزء منهم فلا يتصور أن يتعالى عليهم.

٤- طلاب آخرة:

لعلمهم بأن متاع الدنيا قليل وبأنه ينتهي ويزول ﴿ وَالآخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ اتَّقَىٰ وَلا تُظْلَمُونَ فَتِيلاً﴾ (النساء: ٧٧) ولذلك تنشئ سعة نفوسهم، ورقة في مشاعرهم، وتحررًا من المادة وظلامها.

٥- أوابون توابون:

يجب أن يتربى المسلمون على الحذر من معصية الله أكثر مما نحذر من أعداء الله، ويجب أن نخاف المعاصي، والمسالك التي تقرب منها سدًّا للذريعة وبعدًا عن الفتنة واتقاءً للشبهة، ونستغفر الله ونذكره كثيرًا إذا وقعنا في معصية

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب بيان أن الإسلام بدأ غريبًا (١ / ١٣٠) رقم ١٤٥ .

فهذه ميزة الصالحين أنهم ﴿ وَالَّذِينَ إِذَا فَعَلُوا فَاحِشَةً أَوْ ظَلَمُوا أَنفُسَهُمْ ذَكَرُوا اللَّهَ فَاسْتَغْفَرُوا لِذُنُوبِهِمْ وَمَن يَغْفِرُ الذُّنُوبَ إِلاَّ اللَّهُ وَلَمْ يُصِرُّوا عَلَىٰ مَا فَعَلُوا وَهُمْ يَعْلَمُونَ ﴾ (آل عمران: ١٣٥).

ورحم الله عمر الفاروق ﷺ عندما وصى سعد بن أبي وقاص وهو في مسيره إلى حرب الفرس فقال: " ... أما بعد فإني آمرك ومن معك من الأجناد بتقوى الله على كل حال، فإن تقوى الله أفضل العُدة على العدو وأقوى المكيدة[١] في الحرب، وآمرك ومن معك أن تكونوا أشد احتراسًا منكم من عدوكم، فإن ذنوب الجيش أخوف عليهم من عدوهم، وإنما ينصر المسلمون بمعصية عدوهم لله، ولولا ذلك لم تكن بهم قوة، لأن عددنا ليس كعددهم، وعُدتنا ليس كعُدتهم، فإن استوينا في المعصية كان لهم الفضل علينا في القوة، وإلا نُنصر عليهم بفضلنا لم نغلبهم بقوتنا، فاعلموا أن عليكم في سيركم حفظة من الله يعلمون ما تفعلون، فاستحيوا منهم، ولا تعملوا بمعاصي الله وأنتم في سبيل الله، ولا تقولوا إن عدونّا شرٌ منهم، كما سُلط على بني إسرائيل - لما عملوا بالمعاصي - كفار المجوس " ﴿فَجَاسُوا خِلاَلَ الدِّيَارِ وَكَانَ وَعْدًا مَّفْعُولاً﴾ (سورة الإسراء، آية: ٥). وسلوا الله العون على أنفسكم، كما تسألونه النصر على عدوكم ... "[٢].

وهذه مفاهيم إيمانية يجب أن تعيشها الأمة:

١- اليقين والثقة بمنهج الله وهو الحق وما عداه باطل.

٢- الوعي بدورها ومهمتها وهي الشهادة على العالمين ولن تتحقق إلا بالعيش مع الكتاب والسنة.

٣- اليقين بضخامة الأجر وعظم المنزلة المترتبة على القيام بالشهادة.

٤- اليقين بنصر الله وأنه لا بد آت.

٥- اليقين بأن نصر الله لا يتنزل جزافًا.

---

(١) المكيدة : الخديعة .

(٢) إتمام الوفاء للخضري ، ص ٧٢ .

ب- صفات سلوكية وأخلاقية

ولا بد لجيل التمكين من صـفات أخلاقية سلوكيـة يجب أن يتحلى بها ومن أبرزها:

١- الصـدق: وهو سلوك وصف الله عـز وجل به أنبـياءه علـيهم السـلام: ﴿وَاذْكُرْ فِي الْكِتَابِ إِسْمَاعِيلَ إِنَّهُ كَانَ صَادِقَ الْوَعْدِ وَكَانَ رَسُولاً نَّبِيًّا﴾ (مريم: ٥٤) واتصف به حبيبنا ﷺ حـتى قبل بعثته، ووصف به ربنا سبحـانه الرجال فقال تعالى: ﴿ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا مَا عَاهَدُوا اللَّهَ عَلَيْهِ . . . ﴾ (الأحزاب: ٢٣).

٢- الصبر: خلق وصف الله تعالى به الدعاة ﴿ وَجَعَلْنَاهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا . . . ﴾ (الأنبياء: ٧٣) وهو خلق لازم للداعية ويكفي أن يعلم الداعـية جزاء الصبر ﴿إِنَّمَا يُوَفَّى الصَّابِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ﴾ (الزمر: ١٠).

ولنا في قدوتنـا ﷺ أسوة حسنة في صـبره على أهل مكة ومـا لاقاه عند عودته من الطائف وغيرها.

٣- الحب والإيثار :

أي يرى الأخ أن إخوانه أولى به من نفسه، فهو يحب لهم الخير ويعمل على هدايتهم ولا بد أن يفصح لهـم عن حبه لهم ويخبرهم به، وأن يتـرجمه لهم في تصرفـاته، فإن هذا أدعى إلى إلتفاف الناس حـوله واستجابتـهم له وأعلى مراتب الحب الإيثار وأدناهـا سلامة الصـــدر، وأن يكـون لإخوانه كالبنيـان يشد بعـضه بعضًا [١] قال تعالى: ﴿وَإِن يُرِيدُوا أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ اللَّهُ هُوَ الَّذِي أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِ وَبِالْمُؤْمِنِينَ (٦٢) وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِي الأَرْضِ جَمِيعًا مَّا أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَكِنَّ اللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة الأنفال، آية: ٦٢، ٦٣).

٤- العطاء والبـذل والجود: وهي صـفة بارزة في حـياة المؤمن فـهي قاعـدة

---

(١) انظر: نظرات في رسالة التعاليم، ص ٢٩٤ .

المجتمع المؤمن المتكافل المتضامن، عن أنس رضي الله عنه أن رسول الله صلى الله عليه وسلم " لم يكن يسأل شيئًا إلا أعطاه، وقال فأتاه رجل فسأله فأمر له بشياه كثيرة بين جبلين من شياه الصدقة، فرجع إلى قومه فقال : ياقوم أسلموا فإن محمدًا يعطي عطاء من لا يخشى الفقر "(١) ونعم العطاء هذا الذي يجعل البعض يحب الإسلام وأهله ويفتح الأبواب الموصدة والقلوب المغلقة إن الإيثار على النفس مع الحجة قمة عليا يجب لمن وصل إلى مرحلة الإعداد والتربية أن يكون لنا فيها نصيب كبير.

ومراتب الجود والإيثار كثيرة منها:

- الجود بالنفس وهو أعلى المراتب.
- الجود بالعلم وبذله.
- الجود بالنفع بالجاه كالمشي في قضاء مصالح المسلمين.
- الجود بالصبر والاحتمال.
- الجود بالراحة فيتعب في قضاء مصالح غيره.
- الجود بترك ما في أيدي الناس لهم فلا يلتفت إليه بقلبه ولا يتعرض له بحاله ولا بلسانه وغير ذلك من أنواع الجود.

٥- العفة والاستغناء عن الناس:

إنه جيل مرتبط بالله عز وجل لا يعمل إلا لله ولا يسأل إلا الله فهو غني بالله ولذلك امتلأت نفوسهم عفة لا يتطلعون إلا إلى فضل الله ولا يرجون إلا رحمة الله : ﴿ **رَبِّ إِنِّي لِمَا أَنزَلْتَ إِلَيَّ مِنْ خَيْرٍ فَقِيرٌ** ﴾ (سورة القصص، آية:٢٤).

ورضي الله عن ابن عوف عندما عرض عليه أخوه سعد بن الربيع رضي الله عنه أن يشاطره ماله وبيته ويتزوج إحدى نسائه فقال له : بارك الله لك في مالك وأهلك ولكن دلني على السوق(٢).

---

(١) مسلم، كتاب الفضائل، باب كان رسول الله صلى الله عليه وسلم أحسن الناس خلقًا (٤ / ١٨٠٤) رقم ٢٣١٢ .

(٢) انظر : أسد الغابة (٢ / ١٩٦) .

لقـد علم أن الغنى في قناعـة النفس ورضـا القلب وغناه عـن التطلع لما في أيدي الناس من حظوظ الدنيا.

جـ- الصفات الحركية والدعوية

يجب أن يتـولد لدى جيل التـمكين شـعور ذاتي بمسـئوليـة العمل للإسـلام واستعـداد كامل لتلبيـة حاجات هذه المسئـولية من النفس والجهد، فـهو لا ينتظر التكليف الحـركي لينهض بالأعباء والمـسئوليـات، وإنما يتولد في أعـماقه شـعور بالمسئولية ويجري في عروقه إحساس رباني بالتكليف.

فهذا أبو بكر الصديق ﷺ عندما التزم بالإسلام تفـجرت فيه الذاتية الحركية فذهب إلى بلال بن رباح، وعبـد الرحمن بن عوف، وعثمان بن عـفان، والزبير ابن العوام، ودعاهم للإسلام فأسلموا، وقـد ذكر لنا القرآن الكريم قصة مؤمن آل فرعون وكيف قام بدعوة قومه إلى الإيمان بدعوة موسى عليه السلام.

٢- يؤمن بالواقعية والعملية:

فهو بعيد عن الغوغـائية ويحتكم إلى الحقائق لا إلى الأوهام، ولا ينسى وهو يتطلع إلى السماء أنه واقف على الأرض، فلا يجـري وراء خيال كاذب ولا أماني موهومة فيسـبح في غير ماء، ويطير بغير جناح، جيل كـبير الآمال ولكنه واقعي التـفكيـر، ولا ييأس من روح الله ولا يـقنط من رحمـة ربه لكنه يـعرف حـدود قدراته، ودوائر إمكاناته، يراعي سنن الله في كونه كمـا يراعي أحكامه في شرعه ويتبنى سياسة النفس الطويل والصبر الجميل، يؤمن بالعلم ويحترم العقل ولا يتبع الظن وما تهوى الأنفس، ويرفض الخرافة.

٣- جيل عمل وبناء جماعي:

فـلا يقف أبناءه عـن التـغني بأمـجـاد الماضي، ولا عند النـواح على هزائم الحاضر، ولا عند التمني لانتصارات المسـتقبل، إنما يؤمن بالعمل والعطاء والإنتاج

وأن الإيمان الحق مـا وقـر في القلب وصـدقـه العـمل، ومـا خلق الله الناس إلا ليعملوا بل ما خلقهم إلا ﴿ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً ﴾ (الملك: ١).

وقد علمـوا من حقائق التـاريخ وقراءة الواقع أن أهل الباطـل يتكتلون حول باطلهم، فأولى بأهل الحق أن يتجمـعوا حول حقهم ﴿ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِهِ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَانٌ مَّرْصُوصٌ ﴾ (الصف: ٤).

لهذا صمموا على أن يبحثوا عن أشباههم ممن ينشدون الحق ويرفضون الباطل ويدعون إلى الخير وينكرون الشر ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر . . فمضوا في طريق العمل الجـماعي يعملون فـي صمت، ويبنون في صبـر ويجاهدون بلا كلل، ولا ملل، وعزموا على أن يكونوا متعـاونين على البر والتقوى متكاتفين في السراء والضراء.

٤- جيل دعوة وجهاد:

كما كـان الصحابة من المهاجـرين والأنصار لا يشغلهم جهـاد عن جهاد ولا ميدان عن ميدان فهم دائمًا في صراع متواصل مع الفجرة في الداخل والكفرة في الخارج، لا يلقون سلاحهم ولا يستريحون من كفاحهم حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله.

قد ترى أحدهم وهو العربي يقاوم الزحف الشيـوعي الأحمر في أفغانستان، وترى آخر وهو أفـغاني يقاتل الصـرب في البوسنة، فالكفـر ملة واحدة ﴿ وَالَّذِينَ كَفَرُوا بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (الأنفال: ٧٣).

﴿ وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ﴾ (التوبة: ٧١).

يجاهدون في سبيل الله في كل معركة تطلبهم وبكل سلاح يمكنهم.

٥- جيل توازن واعـتدال: فهم مـتوازنون معتـدلون على صراط مستـقيم لا يميلون إلى اليمين ولا ينحرفون إلى الشمال لا يغرقون في الماديات ولا يغرقون في

الروحانيات. يعلمون أن لربهم عليهم حقًا، وأن لأنفسهم عليهم حقًا، وأن لأسرهم عليهم حقًا، ولمجتمعهم عليهم حقًا فهم يعطون كل ذي حق حقه، غير جانحين إلى الإفراط ولا مائلين إلى التفريط، يأخذون بالعزائم ولا يغفلون الرخص فإن الله يحب أن تؤتى رخصه كما يحب أن تؤتى عزائمه... يبشرون ولا ينفرون، وييسرون ولا يعسرون، ويجادلون بالتي هي أحسن ﴿ ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ﴾ (النحل: ١٢٥). يفرقون بين الأصول والفروع، والكليات والجزئيات، والقضايا المصيرية والمسائل الجانبية، ويمزجون بين الروح والمادة، والعقل والقلب، بين الثبات على الغايات والتطور في الأساليب، بين أداء الواجبات وطلب الحقوق، بين الحرص على القديم والاستفادة من الجديد، فلا ينقطعون عن الماضي ولا ينعزلون عن الحاضر، فرساناً بالنهار ورهبانًا بالليل، لا تلهيهم نافلة عن فريضة ولا فرض عن مثله.

٦- **جيل منضبط**: يعيش جو الانطلاقة بضوابطه فيتحرك بدعوته وفكره بين الناس مراعيًا الضوابط الحركية حتى لا تكون حركة غوغاء ولا تمنعه الطاعة من إبداء آرائه في جو من الصراحة والوضوح وتتسع صدوره لآراء المخالفين، ولا يجد غضاضة في التنازل عن رأيه إذا استقر رأي الشورى على رأي آخر، يعرف ما الذي يعلن من دعوته فلا يتردد في الجهر به وتعليمه للناس وما الذي يسر فلا يبوح به ولو لأقرب الناس إليه.

د - الصفات النفسية:

من الصفات النفسية التي يجب أن يتحلى بها جيل التمكين:

١- **إرادة قوية لا يتطرق إليها لين ولا ضعف**: يقول تعالى: ﴿ وَكَأَيِّن مِّن نَّبِيٍّ قَاتَلَ مَعَهُ رِبِّيُّونَ كَثِيرٌ فَمَا وَهَنُوا لِمَا أَصَابَهُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَمَا ضَعُفُوا وَمَا اسْتَكَانُوا .. ﴾ (آل عمران: ١٤٦). ومن مظاهرها:

- معرفة الهدف والإصرار على تحقيقه والوفاء له.

- الهمة العالية والعمل الدائب المتواصل.
- محاسبة النفس بشدة والانتصار عليها.
- مخالطة الناس والصبر على أذاهم.
- الصبر وتحمل المشاق والصعاب والتغاضي عن الهفوات.
- الصراحة في الحق والانصياع له والاعتراف بالخطأ وعدم إفشاء السر.
- استشراف الأمل وعدم اليأس وسياسة النفس الطويل.

٢- تضحية عزيزة لا يحول دونها طمع ولا بخل:

ومن مظاهر التضحية العزيزة:

- وضع الدعوة في قمة الأولويات مع استصحاب نية التضحية.
- القدوة في بذل العزيز على النفس (المال - الراحة - النفس - فراق الأهل..).
- تربية من يعولهم على البذل والعطاء والتضحية.
- ربط المصير بالمصير وأن يوطن ظروفه مع ظروف الدعوة.
- تخليص النفس من كل مظاهر الطمع والبخل.
- تقديم مصلحة الدعوة على المصلحة الفردية.
- الاستعداد الكامل لتنفيذ الأمر على أي حال وتحت أي ظرف.

٣- وفاء ثابت لا يعدو عليه تلون ولا غدر:

ومن أنواع الوفاء:- وفاء مع الله - مع الدعوة - مع الأخوة - مع النفس - مع الناس - ومن مظاهر الوفاء الثابت:

- الاعتراف بالجميل وتوريث الدعوة وفتح مجالات عمل جديدة.
- الاستمرارية في العمل حتى أحلك الظروف.
- المصارحة والنصيحة بآدابها الشرعية.
- حمل الأهل والأقارب على احترام الدعوة والتحمس لها.
- تفقد الغائب والشعور بآلام الآخرين.

- إيثار المصلحة الدعوية على المصلحة الفردية.
- الذب والدفاع عن الإسلام وقياداته وعلمائه.

٤- ومعرفة بالمبدأ إيمان به وتقدير له يعصم من الخطأ فيه أو الانحراف عنه أو المساومة عليه أو الخديعة بغير:

- إخلاص الوجهة لله وتصحيح النية دائمًا.
- وضوح الهدف وطبيعة الطريق وكيفية الوصول إلى الأهداف.
- استشعار ثقل الأمانة والتبعة الملقاة على الدعاة.
- التمسك بالقرآن والسنة وفهم السلف الصالح.
- العمل الجاد والمتواصل الذي يؤدي إلى أفضل النتائج بأقل مجهود.
- عدم الاجتهاد في الثوابت.
- محاسبة النفس واتهامها عند الاختلاف.

٥- الاتزان النفسي " الانفعالي ":

وهي صفة هامة يجب أن يتصف بها صاحب الشخصية السوية المتزنة ومن أهم مظاهر الاتزان النفسي:

- الثقة بالله عز وجل وفي نصره وتأييده لأوليائه وحسن التوكل عليه.
- ملك النفس عند الغضب.
- العاطفة المتزنة.
- وضع الأمور في نصابها وحجمها دون تضخيم ولا تصغير.
- البعد عن الحساسية المفرطة وأن يؤخذ الكلام على أحسن محمل.
- الانضباط والكتمان وعدم الثرثرة.
- البعد عن الانطوائية.

ذالكم هو الجيل الذي ننشده وتنشده معنا الأمة بكاملها، وهو الجيل الذي تعمل القوى العالمية على إجهاضه وشغله عن معاركه ومعارك أمته الكبرى بمعارك

جانبية تافهة، وإغراقه في دوامة من الجدل لا يخرج منها، إن هذا الجيل هو جيل النصر الذي تتحرر على يديه كل أرض دنسها الطواغيت والفجار، هو الذي ترتفع به راية الله في أرض الله، هذا الجيل هو الجدير بأن يتنزل عليه نصر الله عز وجل، عندما كانت صفات جيل التمكين متمكنة في الجيل الإسلامي الأول استطاع ذلك الجيل أن:

- أن يحرر الجزيرة العربية من دنس الصهيونية في بني النضير وبني المصطلق وبني قينقاع وخيبر.

- أن يستأصل شأفة الوثنية في بدر والأحزاب وفتح مكة.

- أن ينكس رايات الصهيونية في اليرموك وحطين.

- أن يهزم المجوسية في القادسية.

نحن نحتاج اليوم إلى جيل كالجيل الذي كان منه:

- الحاكم الذي لا يستنكف عن الاعتراف بالخطأ فيقول في شجاعة كما قال عمر ﷺ : " أصابت امرأة وأخطأ عمر "[1].

- الحاكم الذي يحرض الرعية على مراقبته والنصح له فيقول كما قال الصديق ﷺ : " إني وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعيونني وإن أسأت فقوموني "[2].

- والعالم الرباني الذي لا تفتقده مسيرة الجهاد فيعطي العلم حقه، والجهاد حقه، ولكل حقه، ويكون إمام محراب وقائد حرب مثله كمثل عبد الله بن المبارك ﷺ المجاهد الذي كتب إلى أخ له عابد اعتكف في الحرم وترك مسيرة الجهاد فقال له:

---

(١) سنن البيهقي (٧ / ٢٣٣) قال البيهقي: هذا منقطع ومع انقطاعه فيه مجالد وهو ضعيف .

(٢) الطبري في تاريخه (٤ / ٣٠) .

يا عابد الحرمين لو أبصرتنا لعلمت أنك بالعبادة تلعب[١]

إن النبي ﷺ حرص كل الحرص في طور الدعـوة السرية أن يربي أصحابه على صـفات جـيل التمكين ونلاحظ من خـلال دراستنا للـسيرة أنـه ﷺ قام بإعلان الدعوة على قريش والمشركين بعد الإعـداد الجيد وبناء القاعدة الصلبة على أسس عقـدية وخلقية وأمنية وتنـظيمية، وحـان موعد إعلان الدعـوة بنزول قوله تعالى: ﴿وَأَنذِرْ عَشِيرَتَكَ الأَقْرَبِينَ . .﴾ (الشعراء: ٢١٤). فخرج رسول الله ﷺ حتى صـعد الصفا فـهتف: يا صباحـاه فاجتـمعت إليه قريش، فـقال: " يا بني فلان، يا بني عـبد مناف، يا بني عبـد المطلب، " أرأيتكم لو أخبرتكم أن خـيلاً تخرج بسفح هذا الجـبل أكنتم مصدقي؟ قالوا: ما جـرّبنا عليك كذبًا، فإني نذير لكم بين يدي عذاب شديد فقال أبو لهب تبًّا لك، أما جمعتنا إلا لهذا ثم قام[٢] فنزلت هذه السورة ﴿ تَبَّتْ يَدَا أَبِي لَهَبٍ ﴾ (سورة المسد، آية: ١).

" ومن الطبيعي أن يبدأ الرسول ﷺ دعوته العلنية بإنذار عشيرته الأقربين، إذ أن مكة بلد توغلت فـيه الروح القبليـة، فبدء الدعـوة بالعشيـرة قد يعين على نصرته وتأييـده وحمـايته، كمـا أن القيام بالدعـوة في مكة لا بد أن يكون له أثر خاص لما لهذا البلد من مركز ديني خطيـر، فجلبها إلى حظيرة الإسلام لا بد وأن يكون له واقع كـبير على بقـية القـبائل. على أن هذا لا يعني أن رسـالة الإسلام كانت في أدوارها الأولى مـحدودة بقريش، لأن الإسـلام كما يتـجلى من القرآن اتخذ الدعوة في قريش خطوة أولى لتحقيق رسالته العالمية "[٣].

ولقد كـانت النتيـجة المباشـرة لهذا الصدع هي الـصد والإعراض والسـخرية والإيذاء والتكذيب، والكيد المدبر المدروس ، ولقد اشتد الصراع بين النبي ﷺ وصحبه، وبين شيوخ الوثنية وزعمائها وأصبح الناس في مكة يتناقلون أخبار ذلك

---

(١) انظر: عبد الله بن المبارك الإمام القدوة لمحمد عثمان .

(٢) دراسة في السيرة ، عماد الدين خليل، ص ٦٦ .

(٣) انظر: الغرباء الأولون، سلمان عودة، ص ١٦٧ .

الصراع في كل مكان ، وهذا في حد ذاته مكسب عظيم للدعـوة، ساهم فيه أشد وألد أعدائهـا، ممن كانوا يشيعـون في القبائل قالة السـوء عنها، فليس كل الناس يسلِّمون بدعاوى القرشيين، بل كان يوجد من مـختلف القبائل من يتابع الأخبار، ويتحرى الصواب، فيظفر به.

وكانت الوسيلة الإعلامية في ذلك العصر تناقل الناس للأخبار مشافهة وسمع القاصي والداني بنبوة الرسول ﷺ وأصبح هذا الحدث العظيم حديث الناس في كل مكان، وبدأ رسـول الله ﷺ يشق طريقـه لكسـر الحصـار المفـروض على الدعوة، والانتقال بها إلى مواقع جديدة بعد أن رفضت قريش الاستجابة والانقياد للحق المبين[1] وكان مـوقفهم كمـوقف الأقوام السابقـة من رسلهم وتعرض النبي ﷺ وأصحابه لسنة الابتلاء.

ثامنًا: سنة الابتلاء :

الابتلاء – بصفة عـامة – سنة الله تعالى – في خلقه وهذا واضح من الآيات القرآنية الكريمة، قال تعالى: ﴿ **وَهُوَ الَّذِي جَعَلَكُمْ خَلائِفَ الأَرْضِ وَرَفَعَ بَعْضَكُمْ فَوْقَ بَعْضٍ دَرَجَاتٍ لِّيَبْلُوَكُمْ فِي مَا آتَاكُمْ** ﴾ (الأنعام: ١٦٥) وقال تعالى: ﴿**إِنَّا جَعَلْنَا مَا عَلَى الأَرْضِ زِينَةً لَّهَا لِنَبْلُوَهُمْ أَيُّهُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً**﴾ (الكهف: ٧) وقال جل شـأنه : ﴿ **الَّذِي خَلَقَ الْمَوْتَ وَالْحَيَاةَ لِيَبْلُوَكُمْ أَيُّكُمْ أَحْسَنُ عَمَلاً وَهُوَ الْعَزِيزُ الْغَفُورُ**﴾ (سورة الملك، آية: ٢) وقال: ﴿**إِنَّا خَلَقْنَا الإِنسَانَ مِن نُّطْفَةٍ أَمْشَاجٍ نَّبْتَلِيهِ** . . ﴾ (سورة الإنسان، آية: ٢).

والابتلاء مـرتبط بالتمكين ارتبـاطًا وثيقًـا. فلقد جرت سـنة الله تعالى – ألا يمكن لأمة إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفة، وإلا بعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث، فيميز الله الخبيث من الطيب.

وهي سنة جارية على الأمة الإسـلامية لا تتخلف. فقـد شاء الله – تعالى –

---

(١) انظر: الفوائد لابن القيم، ص ٢٨٣ .

أن يبتلي المؤمنين، ويختبرهم، ليمحص إيمانهم، ثم يكون لهم التمكين في الأرض بعد ذلك.

ولذلك جاء هذا المعنى على لسان الإمام الشافعي حين سأله رجل: أيهما أفضل للمرء، أن يمكن، أو يبتلى؟ فقال الإمام الشافعي: لا يمكن حتى يبتلى. فإن الله تعالى - ابتلى نوحًا، وإبراهيم، وموسى وعيسى، ومحمّدًا - صلوات الله وسلامه عليهم أجمعين - فلما صبروا مكنهم فلا يظن أحد أن يخلص من الألم البته[1].

وابتلاء المؤمنين قبل التمكين أمر حتمي من أجل التمحيص، ليقوم بنيانهم بعد ذلك على تمكن ورسوخ. وهذا الابتلاء للمؤمنين ابتلاء الرحمة لا ابتلاء الغضب، وابتلاء الاختيار لا مجرد الاختبار.

فلو أن قائدًا أراد إعدادًا للفوز في معركة ضارية، أيكون من الرحمة بهم أن يخفف لهم التدريب ويهون عليهم الإعداد، أم تكون الرحمة الحقيقية أن يشدد عليهم في التدريب على قدر ما تقتضيه المعركة الضارية التي يعدهم من أجلها؟

والمؤمنون هم حزب الله وجنوده - ولله المثل الأعلى - والمعركة التي يعدهم من أجلها هي المعركة العظمى، معركة الحق والباطل والنتيجة المطلوبة من المعركة ليست مجرد النصر، وإنما هي بعد ذلك إقرار المنهج الرباني في الأرض بكل المعاني والقيم التي يحملها ذلك المنهج، وهي الأمانة التي تعرّض لحملها الإنسان بقدر الله.

وحمل الأمانة - بعد الانتصار على الباطل - لا يصلح له كل الناس، إنما يحتاج لقوم مختارين، يعدون إعدادًا خاصًّا ليحسنوا القيام به[1].

وقد علم الله تعالى أن الابتلاء هو وسيلة الإعداد لهذه المهمة العظيمة وفي قصة طالوت شاهد على ذلك[2]، فطالوت كان مقدمًا على معركة ومعه جيش من

---

(١) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ لمحمد قطب، ص١١١، ١١٢.

(٢) انظر: التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، ص٢٣٥.

أمة مغلوبة، عرفت الهزيمة في تاريخها مـرة بعد مرة، وهو يواجه أمة غالبة، فلا بد إذًا من قوة كامنة في ضمير الجيش تقف أمام القوى الظاهرة الغالبة، هذه القوة الكامنة لا تكون إلا في الإرادة التي تضبط الشهوات والنزوات، وتصمد للحرمان والمشاق، وتستـعلي على الضرورات والحاجات، وتـؤثر الطاعة وتحتمل تكاليـفها فتجـتاز الابتلاء بعد الابتلاء. فلا بد للـقائد إذًا أن يبلو جيشه وصمـوده وصبره، صموده أولاً للرغبات والشهوات وصبـره ثانيًا على الحرمان والمتاعب، ولقد اختار طالوت هذه التجربة وهم عطاش ليعلم من يصبر معه ممن ينقلب على عقبيه[1].

﴿فَلَمَّا فَصَلَ طَالُوتُ بِالْجُنُودِ قَالَ إِنَّ اللَّهَ مُبْتَلِيكُم بِنَهَرٍ فَمَن شَرِبَ مِنْهُ فَلَيْسَ مِنِّي وَمَن لَّمْ يَطْعَمْهُ فَإِنَّهُ مِنِّي إِلاَّ مَنِ اغْتَرَفَ غُرْفَةً بِيَدِهِ فَشَرِبُوا مِنْهُ إِلاَّ قَلِيلاً مِّنْهُمْ﴾ (سورة البقرة، آية: ٢٤٩) . ولقد بين الله – تعـالى – هذا الأمر للأمة الإسلاميـة حتى تكون على بينة من طريقها، ورسالتها وطبيعة هذا الطريق وتلك الرسالة.

وجاء ذلك في مـواضع متعددة، وبأسـاليب مختلفـة في القرآن الكريم: من ذلك قوله تعالى: ﴿وَلَنَبْلُوَنَّكُم بِشَيْءٍ مِّنَ الْخَوْفِ وَالْجُوعِ . . ﴾ (البقرة، آية: ١٥٥)، وقوله تـعالى: ﴿أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تَدْخُلُوا الْجَنَّةَ وَلَمَّا يَأْتِكُم مَّثَلُ الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلِكُم مَّسَّتْهُمُ الْبَأْسَاءُ وَالضَّرَّاءُ وَزُلْزِلُوا حَتَّىٰ يَقُولَ الرَّسُولُ وَالَّذِينَ آمَنُوا مَعَهُ مَتَىٰ نَصْرُ اللَّهِ أَلا إِنَّ نَصْرَ اللَّهِ قَرِيبٌ ﴾ (سورة البقرة: ٢١٤).

وقال تعالى: ﴿ لَتُبْلَوُنَّ فِي أَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ . . . ﴾ (آل عمران: ١٨٦). ومن الملاحظ من خلال الآيات الكريمة أن تقرير سنة الابتلاء على الأمـة الإسلامية جاء في أقوى صورة من الجزم والتأكيد[2].

" وهذه سنة الله – تعالى – في العقائد، والدعوات، لا بد من بلاء، ولا بد من أذى في الأموال والأنفس، ولا بد من صبر ومقاومة واعتزام.

---

(١) انظر: في ظلال القرآن (١/٢٦٨).

(٢) انظر: التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم ، ص٢٣٧ .

إنه الطريق إلى الجنة وقد (حفت الجنة بالمكاره، وحفت النار بالشهوات)[١] كما أخبر النبي ﷺ . ثم إنه الطريق الذي لا طريق غيره لإنشاء الجماعة التي تحمل هذه الدعوة، وتنهض بتكاليفها، طريق التربية للأمة الإسلامية وإخراج مكنوناتها من الخير، والقوة والاحتمال. وهو طريق المزاولة العملية للتكاليف، والمعرفة لحقيقة الناس، وحقيقة الحياة، وذلك ليثبت على هذه الدعوة أصلب أصحابها عودًا وأقواهم شكيمة، فهؤلاء هم الذين يصلحون لحملها، والصبر عليها، فهم عليها مؤتمنون[٢].

إن الابتلاء مكمل لحقيقة الإيمان، لأن الإيمان أمانة الله - تعالى - في الأرض، وهذه الأمانة لا يحملها إلا من هم أهل لها، وفيهم على حملها قدرة، وفي قلوبهم تجرد لها وإخلاص، والذين يؤثرونها على الراحة والدعة، وعلى الأمن والسلامة، وعلى كل صنوف المتاع والإغراء[٣].

" وحقيقة الإيمان لا يتم تمامها في جماعة حتى تتعرض للتجربة والامتحان والابتلاء، وحتى يتعرف كل فرد فيها على حقيقة طاقته، وعلى حقيقة غايته ثم تتعرف الجماعة على حقيقة اللبنات التي تتألف منها، ومدى تماسك هذه اللبنات في ساعة الشدة "[٤]. وفي هذا يقول الله تعالى: **﴿أَحَسِبَ النَّاسُ أَن يُتْرَكُوا أَن يَقُولُوا آمَنَّا وَهُمْ لا يُفْتَنُونَ ۝ وَلَقَدْ فَتَنَّا الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ فَلَيَعْلَمَنَّ اللَّهُ الَّذِينَ صَدَقُوا وَلَيَعْلَمَنَّ الْكَاذِبِينَ﴾** (سورة العنكبوت، آية: ٢، ٣).

" الفتنة: الامتحان بشدائد التكليف من مفارقة الأوطان، ومجاهدة الأعداء وسائر الطاعات الشاقة، وهجر الشهوات، وبالفقر والقحط وأنواع المصائب في الأنفس والأموال، ومصابرة الكفار على أذاهم وكيدهم "[٥].

---

(١) مسلم ، كتاب الجنة وصف نعيمها وأهلها (٤/ ٢١٧٤).
(٢) في ظلال القرآن (١/ ٥٩٣).
(٣) المصدر نفسه (٢/ ١٠٩٠).
(٤) المصدر نفسه (١/ ٥٢٩).
(٥) تفسير النسفي (٣/ ٢٤٩).

وقال ابن كثير - رحمه الله - : (والاستفهام في قوله تعالى: ﴿ أَحَسِبَ النَّاسُ﴾ إنكاري. ومعناه: أن الله سبحانه لا بد أن يبتلي عباده المؤمنين بحسب ما عندهم من الإيمان[(١)] كما جاء في الحديث الصحيح : " أشد الناس بلاء الأنبياء، ثم الصالحون، ثم الأمثل فالأمثل: يبتلى الرجل على حسب دينه فإن كان في دينه صلابة زيد له في البلاء "[(٢)].

ولقد بين رسول الله ﷺ أن الابتلاء صفة لازمة للمؤمن، حيث قال: "مثل المؤمن كمثل الزرع لا تزال الريح تميله ولا يزال المؤمن يصيبه البلاء. ومثل المنافق كمثل شجرة الأرز لا تهتز حتى تستحصد "[(٣)].

وفي ظلال الآية الكريمة السابقة يقول سيد قطب - رحمه الله -: " إن الإيمان ليس كلمة تقال، إنما هو حقيقة ذات تكاليف، وأمانة ذات أعباء، وجهاد يحتاج إلى صبر، وجهد يحتاج إلى احتمال، فلا يكفي أن يقول الناس: آمنا، وهم لا يتركون لهذه الدعوى حتى يتعرضوا للفتنة، فيثبتوا، ويخرجوا من الفتنة صافية عناصرهم، خالصة قلوبهم، كما تفتن النار الذهب، لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به، حتى يصبح خالصًا ثمينًا رفيعًا. وهذا هو أصل كلمة " الفتنة " اللغوي، وله دلالته وظله، وإيحاؤه وكذلك تصنع الفتنة في قلوب المؤمنين "[(٤)] حين تصهرهم بنار الابتلاء، فتُخرج من نفوسهم ما قد يكون فيها من خبث وشهوات وأهواء، حتى يكونوا خالصين لله متجردين له صالحين لحمل الأمانة التي أناطها الله بهم "[(٥)]، ألا وهي أمانة كريمة، وهي أمانة ثقيلة. ومن ثم تحتاج إلى طراز خاص، يصبر على الابتلاء ويعلو فوق المحن[(٦)].

---

(١) تفسير ابن كثير (٣/ ٤٠٥).
(٢) سنن الترمذي (٤/ ٦٠١) حديث حسن صحيح.
(٣) مسلم شرح النووي (مجلد ٦١) (١٧/ ١٥١) كتاب القيامة والجنة والنار.
(٤) في ظلال القرآن (٢/ ١٠٩٠).
(٥) حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص١٨١، ١٨٢.
(٦) انظر: في ظلال القرآن (٢/ ١٠٩٠).

إن سنة الابتلاء جارية في الأمم والدول والشعوب والمجتمعات والأمة الإسلامية أمة من الأمم، فسنة الله تعالى فيها جارية لا تتبدل ولا تتغير، إن الابتلاء سنة الله العامة في الحياة والأحياء، وسنته سبحانه في الرسل والرسالات. ورسول الله ﷺ ليس بدعًا من الرسل، فكان لا بد أن تجري عليه سنة الابتلاء كما جرت على إخوانه المرسلين. ومع ما له ﷺ من عظيم القدر ومنتهى الشرف، إلا أنه قد حظي من البلاء بالحمل الثقيل والعناء الطويل[1] وتعرض الصحابة الكرام ﭫ من البلاء ما تنوء به الرواسي الشامخات. لقد أجمع المشركون على محاربة الدعوة الإسلامية لأنها عرّت واقعهم الجاهلي وعابت آلهتهم وسفهت أحلامهم - أي آراءهم وأفكارهم وتصوراتهم عن الحياة والإنسان والكون، فاتخذوا العديد من الوسائل والمحاولات لإيقاف الدعوة وإسكات صوتها أو تحجيمها وتحديد مجال انتشارها، ومن هذه الأساليب:

١ - محاولة قريش لإبعاد أبي طالب عن مناصرة وحماية رسول الله ﷺ، فذهبت وفود قريش إلى أبي طالب للتنبيه والتهديد بالمنازلة إن لم يكف ابن أخيه عن هذه الدعوة، ثم أرسلوا وفدًا للمساومة حيث يطلبون محمدًا ﷺ مقابل رجل منهم " عمارة بن الوليد " ليقتلوا هذا الذي خالف دينهم وفرق جماعتهم وسفه أحلامهم - كما يدعون - فكانت قولة أبي طالب البالغة الدلالة: " والله لبئس ما تساومونني، أتعطوني ابنكم أغذوه لكم وأعطيكم ابني فتقتلونه. هذا والله ما لا يكون أبدًا "[2] ومما جعل أبو طالب يصر على موقفه صلابة الرسول ﷺ ووثوقه بالحق الذي عليه، وعدم التنازل أو المداهنة في الحق الذي قامت عليه السموات والأرض.

٢ - الاتجاه إلى إيذاء المسلمين فوثبت كل قبيلة على من فيهم من المسلمين يعذبونهم ويفتنونهم عن دينهم، ولم يقدموا على هذه المحاولة إلا حينما أدركوا وقوف أبي طالب ومن معه من عشيرته إلى جوار النبي ﷺ.

---

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص٢٤٠، ٢٤١.

(٢) انظر: ابن هشام (١/ ٢٦٧).

وكان الهدف من هذه المحاولة هو الضغط على رسول الله ﷺ كي يتراجع ويكف عما يدعو إليه ولكن المحاولة فشلت حينما أدركوا صلابة المؤمنين، وصلابة الرسول ﷺ.

٣- عرض المغريات والمساومات، لقد تركت قريش المساند لرسول الله ﷺ " أبا طالب " لأن المحاولات فشلت معه ؛ ولأن عصبته واقفة إلى صفه ومن ثم لا بد من مواجهة صاحب الدعوة لصرفه عن دعوته، فعرض عليه المال والشرف، والسيادة على مكة وجعله ملكًا على قريش، وكان المفاوض للرسول ﷺ والعارض عليه تلك العروض هو عتبة بن ربيعة[١] في بداية الأمر ثم عرضت عليه من قبل مجموعة من أشراف قريش وبالرغم من ذلك الإغراء الذي أمامه القلوب البشرية ومن أراد الدنيا وطمع في مغانمها إلا أن رسول الله ﷺ اتخذ موقفًا حاسمًا في وجه الباطل دون مراغمة أو مداهنة، أو الدخول في دهاء سياسي أو محاولة وجود رابطة استعطاف أو استلطاف مع زعماء قريش[٢]، لأن قضية العقيدة تقوم على الوضوح والصراحة والبيان بعيدة عن المداهنة والتنازل، ولذلك كان رد رسول الله ﷺ : " ما بي ما تقولون ما جئتكم بما جئتكم به أطلب أموالكم، ولا الشرف فيكم، ولا الملك عليكم، ولكن الله بعثني إليكم رسولاً، وأنزل عليَّ كتابًا وأمرني أن أكون لكم بشيرًا ونذيرًا، فبلغتكم رسالة ربي ونصحت لكم، فإن تقبلوا مني ما جئتكم به فهو حظكم من الدنيا والآخرة، وإن تردوا عليَّ أصبر لأمر الله حتى يحكم الله بيني وبينكم "[٣].

بهذا الموقف الإيماني الثابت رجع كيدهم في نحورهم، وثبتت قضية من أخطر قضايا العقيدة الإسلامية وهي خلوص العقيدة من أي شائبة غريبة عنها سواء في جوهرها أم في الوسيلة الموصلة إليها[٤].

---

(١) انظر: السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٥٠٣،٥٠٤).
(٢) انظر: الوفود في العهد المكي وأثره الإعلامي لعلي الأسطل، ص٣٧.
(٣) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص٣٨.
(٤) المصدر نفسه، ص٣٩.

٤- مطالب التحدي: أخـذ عناد المشركين يقوى ولجاجتهم تـشتد وقد أرادوا إحراج الرسول ﷺ وتحديه بمطالبته بالإتيان بمعجزات تثبت نبوته.

قال عبد الله بن عباس : " قالت قريش للنبي: ادعُ لنا ربك أن يجعل الصفا ذهبًا ونؤمن بك. قال: وتفعلون؟ قالوا: نعم، قال: فدعا فأتاه جبريل فقال: "إن ربك عز وجل يقرأ عليك السلام ويقول: إن شـئت أصبح لهم الصفا ذهبًا، فمن كفر بعد ذلك منهم عذبته عذابًا لا أعذبه أحدًا من العالمين، وإن شئت فتحت لهم باب التوبة والرحمة؟ .

قال: بل باب التوبة والرحمة "[١].

قال ابن عبـاس : " فأنزل الله عز وجل هذه الآية ﴿**وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا**﴾ (الإسراء: ٢٩).

لقد كان الهدف من تلك المطالب هو شن حرب إعلامية ضد الدعوة والداعية وتآمر عـلى الحق كي تبتـعد القبـائل العربيـة عنه ﷺ، لأنهم يطالبـون بأمور يدركون أنها ليست من طبـيعة هذه الدعوة ولهذا أصروا عليهـا؛ بل لقد صرحوا بأن لو تحقق شيء من ذلك فلن يؤمنوا أيضًا بهذه الدعوة. وهذا كله محاولة منهم لإظهار عجز الرسول ﷺ واتخاذ ذلك ذريعة لمنع الناس عن اتباعه[٢] وسيتضح هذا في المحاولات القادمة.

٥- المساومة لاقتـسام العبادة والزعامة. وهي محاولة لإخـماد صوت الدعوة بالاتفاق مـعًا على حل وسط حتى يضمنوا بقـاء مكانتهم أمام القـبائل الأخرى، ومنعها أيضًا من الدخول في هذا الدين الجديد وهي مـحاولة ماكرة لأن السير في ركاب الباطل خطـوة واحدة معنى هذا سقوط صـاحب الحق في هاوية الانحراف ونزلت سورة الكافرون "للمـفاضلة الحاسمة بين عبـادة وعبادة، ومنهج ومنهج،

---

(١) السيرة النبوية لابن كثير (١/ ٤٨٣) إسناده جيد.

(٢) الوفود في العهد المكي، ص٤٠-٥١.

وتصور وتصور، وطريق وطريق، نعم نزلت نفيًا بعد نفي، وجزمًا بعد جزم، وتوكيدًا بعد توكيد، بأنه لا لقاء بين الحق والباطل ولا اجتماع بين النور والظلام، والأمر لا يحتاج إلى مداهنة أو مراوغة أو سياسة أو مصالح مشتركة أو مسائل داخلية . . . إلخ "[١].

٦- الاستعانة باليهود: لقد وجدت قريش نفسها عاجزة أمام دعوة الحق وكان المعبر عن هذا العجز النضر بن الحارث الذي صرخ قائلاً : " يا معشر قريش إنه والله قد نزل بكم أمر ما أتيتم له بحيلة بعد . . . فانظروا في شأنكم، فإنه والله لقد نزل بكم أمر عظيم "[٢].

فقرروا بعد ذلك إرسال النضر بن الحارث وعقبة بن أبي معيط إلى اليهود لمعرفة حقيقة هذه الدعوة لا لكي يتبعوها ولكن لإدراكهم أن رسول الله ﷺ لم يجب على مطالبهم التي طلبوها - ولمعرفتهم بحقد اليهود المنصب على الأنبياء جميعًا وأصحاب الحق أينما كانوا ومعرفتهم بأخبار الأولين، فقد يمدونهم بأشياء تظهر عجز الرسول ﷺ فيحققوا بذلك هدفهم الدعائي أمام القبائل العربية ولم يدروا بسلوكهم هذا أنهم نقلوا أخبار الدعوة الإسلامية إلى خارج مكة مهما كان غرضهم وهدفهم، وبالرغم من فرحة قريش بالأمور التعجيزية التي أتوا بها من عند يهود إلا أن الله أحبط محاولتهم بالإجابة عليها كما جاء في سورة الكهف عن أهل الكهف وذي القرنين ثم عن الروح في سورة الإسراء، فأقيمت الحجة على الملأ من قريش وزعماء اليهود[٣].

٧- الدعاية الإعلامية في المواسم ضد النبي ﷺ بأنه ساحر ليصرفوا الناس عنه.

٨- الإيذاء النفسي في شخص رسول الله ﷺ ، وقد تمثل هذا الإيذاء

---

(١) المصدر نفسه ، ص٥٨-٦١.

(٢) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص٤٠ .

(٣) انظر : تاريخ صدر الإسلام ، ص٤١.

بالإعراض والتكذيب واتهامه بالشعر والسحر والكهانة والجنون وغمزه بكل عيب والاستهزاء به وشتمه وإيذائه بالكلمات القبيحة ورسول الله ﷺ صابر محتسب[١]، وكذلك من أنواع الإيذاء النفسي إيذاء وتعذيب أصحابه وهو ينظر. وحثو التراب على رأسه وهو يصلي، ووضع الأوساخ والدماء على باب بيته والشوك في طريقه[٢].

٩- الحصار الاقتصادي والاجتماعي، وقد تمثل هذا في محاربة تجار المسلمين كما ذكرنا من تهديد أبي جهل لمن أسلم من التجار بالإضافة إلى الحصار العام الذي تم في شعب أبي طالب، حيث تم حصار بني عبد المطلب وبني هاشم للضغط على أبي طالب وقومه للتخلي عن نصرة محمد ﷺ، وكانت بنود الاتفاقية " الصحيفة " التي كتبها زعماء قريش فيما بينهم على محاصرة بني هاشم وبني عبد المطلب مسلمهم وكافرهم على السواء:

أ- عدم الزواج منهم أو إليهم.

ب- وألا يبيعوهم شيئًا ولا يبتاعوا منهم[٣].

وكانت اتفاقية قاسية عزموا على تنفيذ بنودها ولذلك اتفقوا على تعليقها في جوف الكعبة للزيادة في توثيقها وإن كانت هذه الوثيقة وبهذه الكيفية تعطي ظلالاً عن عجز قريش واختلاف كلمتها ولهذا خافوا من أنهم إذا ما اتفقوا دون كتابة وتعليق في الكعبة قد يحصل نكوص عن ذلك، ولهذا فعلوا تلك الصحيفة وتعاقدوا عليها[٤].

وبالرغم من أن الحصار الاقتصادي في شعب أبي طالب كان يشمل بني هاشم وبني المطلب مسلمهم وكافرهم على سواء إلا أن هناك نوعًا آخر من

---

(١) الروض الأنف (٢/ ٣٣).
(٢) المصدر نفسه (٢ / ٤٨، ١٠٣، ١٢٧، ١٢٨).
(٣) الروض الأنف (٢/ ١٠١).
(٤) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص٤٣.

الحصار الاقتصادي مارسه كفـار قريش على بقية المسلمين فقد كان أبو لهب إذا ما قدمت القـوافل التجارية إلى مكة يطوف الأسـواق ويقول يا معـشر التجـار غالوا على أصحـاب محمد ﷺ . . . فـأنا ضامن أن لا خسارة عليكم . . فـيزيدون عليهم في السلعة أضعافًا حتى يرجع المسلم إلى أطفاله وهم يتصايحون من الجوع ليست في يديه شيء، ثم يذهب التـجار إلى أبي لهب فيعـوضهم في تجارتهم[١] ومع هذا فلم يتـراجع أحـد منهم عن دينه؛ بل زاده ذلك العـذاب صبـرًا وتجلدًا وعملاً في سبيل دينه[٢].

١- الإيذاء الجسدي:

فقوى البغي والطغيان حينمـا تجد الثبات والصلابة عند المؤمنين قد بلغت مداها وأن الإيذاء النفسي والحصار الاقتصـاد والاجتماعي، والعزل . . إلخ لا تجدي أمام صلابة الإيمان في نفـوس الفئة المؤمنة. حيـنما تصبح تلك الصورة بارزة أمـام قوى الطاغوت يطيش عقلها وتلجأ إلى البطش الجسدي مهما كلفها ذلك من عواقب[٣].

ونلاحظ هنا من خلال ما سبق أن البطش قـد وجه ضد المؤمنين من أصحاب رسول الله ﷺ فتعرضوا للتنكيل والتـعذيب وتولت كل قبيلة شأن المسلمين من أبنائها سواء من الأحرار أم من العبـيد، أم من النساء أم من الرجال . . ومنه من قتل تحت التعذيب كسمية أم عمار ﵁. ولقد ضرب المسلمون الأوائل أروع المثل في الصبر وقوة التحمل[٤].

وكان ﷺ وهو في تلك المحن والشدائد والبلاء يربي أصحابه على:

- التأسي بالسابقين من الأنبياء والمرسلين وأتبـاعهم في تحمل الأذى في سبيل الله ويضرب لهم الأمثلة في ذلك.

---

(١) انظر: الروض الأنف (٢/١٢٧، ١٢٨).
(٢) انظر: تاريخ صدر الإسلام، ص٤٤.
(٣) المصدر نفسه.
(٤) تاريخ صدر الإسلام، ص٤٤.

- التعلق بما أعده الله في الجنة للمؤمنين الصابرين من النعيم، وعدم الاغترار بما في أيدي الكافرين من زهرة الحياة الدنيا.

- التطلع للمستقبل الذي ينصر الله فيه الإسلام في هذه الحياة الدنيا، ويذل فيه أهل الشرك والعصيان.

ومع هذا كله كان ﷺ مع هذه الأشياء كلها كان يخطط ويستفيد من الأسباب المادية المتعددة، لرفع الأذى والظلم عن أتباعه، وكف المشركين عن فتنتهم، وإقامة الدولة التي تجاهد في سبيل الدين، وتتيح الفرصة لكل مسلم أن يعبد ربه حيث يشاء، وتزيل الحواجز والعقبات التي تعترض طريق الدعوة إلى الله[١].

لقد فكر النبي ﷺ بالخروج بالدعوة من مكة لتحقيق أمور من أهمها:

١- البحث عن موطن يأمن فيه المسلمون على دينهم، ويسلمون من أذى قريش وفتنتها، حيث لا تطالهم يدها، ولا يمتد إليهم بطشها.

٢- البحث عن بيئة تقبل الدعوة، وتستجيب لها، في مقابل عنت القرشيين وكنودهم، ومن هذه البيئة تنطلق إلى آفاق الأرض، تحقيقًا لأمر الله بالتبليغ للعالمين[٢] وتم له ذلك ﷺ وهاجر إلى المدينة ودخل مرحلة التمكين.

لقد تعرض أصحاب رسول الله ﷺ لأشد أنواع التعذيب فإذا كان المشركون الأولون يعذبون أولياء الله بالرمضاء والنار - في بعض الأحيان - فإن تعذيب آلات الكهرباء الطويل أشد، وإذا كان الكفار السابقون يصلبون أولياء الله على الجدران والأخشاب وفي جذوع النخل فإن أعداء الله يصلبون أولياءه الآن على أعمدة الحديد المتصلة بتيار الكهرباء، وإذا كان أعداء الله كانوا يقلبون أولياء الله على حر الرمضاء ظهرًا بربط أيديهم أو يجرونهم بالحبال، فإن أعداء الله الآن يسحبون أولياءه بالآلات

(١) الغرباء الأولون، ص١٤٦.
(٢) المصدر نفسه، ص١٦٨.

السريعة كالسيارات في الشوارع ويدخلون الواحد منهم عجلة السيارة بعد أن يضموا رأسه مع رجليه ويديرونها بالآلات وهو مكشوف العورة، ويملئون الأحواض بالماء الساخن في شدة الحر أيام الصيف ويقذفون فيها بالمؤمن مجرداً من ثيابه ويبقى فيها الساعات حتى ينسلخ جلده، ويملئونها في أيام الشتاء والبرد القارس بالماء البارد ويلقونه فيها كذلك ويودعون ولي الله في حجرة ضيقة لنومه وطعامه وشرابه وفضلاته ويجيعون الكلاب المدربة ويضعونها معه في حجرته لتنهش جسمه وتكثر من العواء والنباح على رأسه ويضربونه بالسياط حتى تسيل الدماء وقد تتجاوز دفعة الضرب في المرة الواحدة خمسمائة سوط ويتركونه حتى يتورم جسمه ، ثم يلهبونه بالسياط في مواضع الضرب السابقة ويسيل قيحه وينتن جسمه فلا يسمحون لطبيب يداوي جراحه ويأمرونه مع زملائه من أمثاله بالجري وهم في تلك الحال لمسافات طويلة ومن أظهر التعب ضربوه حتى يغمى عليه أو يموت وهكذا[١]. وهكذا تمر المحن والابتلاءات على الأفراد والجماعات لتصقل العاملين في ساحة العمل الإسلامي على مستوى الأفراد والجماعات وتمضي هذه السنة في كافة الأزمنة والأمكنة إلى عصرنا الحاضر ويتعرض الدعاة إلى البلاء والمحن ويمضون في طريقهم المرسوم باستعلاء إيماني عظيم لا يبالون غير نصرة دينهم ورفع كلمة الله في الأرض وينشد شاديهم في داخل السجون ومن وراء القضبان وهو يرى أفواج رفاقه تشنق رقابهم كل يوم وينتظر نفس المصير فلا يتزعزع الإيمان، وإنما يزداد صلابة وتشتاق النفس إلى خالقها ورفقة النبيين والصديقين والصالحين والشهداء، ويبين الشادي المؤمن أن الحرية هي حرية القلب الذي خلقت عبوديته لخالقه وإن كبله أعداء الله بالقيود وأحاطوه بأسوار السجون والمعتقلات فهو يقول:

أخي أنت حر وراء السدود ... أخي أنت حر بتلك القيود

إذا كنت بالله مستعصماً ... فماذا يضيرك كيد العبيد

---

(١) انظر: الجهاد في سبيل الله ، د. عبد الله القادري (٢/ ٢١٥).

ولا يخشى هذا الداعية الرباني على نفسه من الموت والعذاب تحت سياط الجلادين إنما الخوف من أن يسأم من الجهاد ويترك الكفاح فيطلق في إخوانه صرخته مذكرًا لهم بواجب رفع الراية ومواساة المجاهدين وضحاياهم فيقول:

أخي هل تراك سئمت الكفاح ... وألقيت عن كاهليك السلاح

فمن الضحايا يواسي الجراح ... ويرفع رايتها من جديد

ويحث إخوانه بالاستمرار في طريق الدعوة والجهاد والحرص على رضا الله:

أخي فامض لا تلتفت للوراء ... طريقك قد خضبته الدماء

ولا تلتفت ههنا أو هناك ... ولا تتطلع لغير السماء[1]

إن طور البلاء لا بد منه قبل التمكين وتخرج الدعوة والدعاة بعد هذا الطور أصلب عودًا وأقوى مما كانت عليه لتنطلق لتحطيم عروش الطغاة وتبدد الظلام لتبني حياة إسلامية صحيحة راشدة.

* ■ *

(١) انظر: الجهاد في سبيل الله (٢/ ٢٢٣).
هذا الشادي هو سيد قطب رحمه الله تعالى.

المبحث الثالث
مرحلة المطالبة

إن من أهم المراحل في العمل الإسلامي هي هذه المرحلة، حيث هي مرحلة التركيز والتخصيص، لسد ثغرات العمل الإسلامي كله، من حيث الكم ومن حيث النوع ومن حيث الاستجابة لكل متطلبات الدعوة وأعبائها في كل مراحلها، كما أن هذه المرحلة يعقبها التمكين لدين الله بإذنه سبحانه وتعالى، إن أجمع تعريف لهذه المرحلة: أنها مرحلة المؤمنين، الذين صدقوا ما عاهدوا الله عليه، وأعدوا للعمل الإسلامي، ما يحتاج إليه من حكمة وقوة، إنها مرحلة المجاهدين في سبيل الله، لتكون كلمة الله هي العلياء[(١)].

إن أفراد هذه المرحلة اكتسبوا من المعارف والخبرات والتجارب والعلوم النافعة حتى وصلوا إلى النضج السليم، ولا شك أن لكل مرحلة من مراحل الدعوة الإسلامية أولويات تقدم على غيرها، ومن أهم هذه الأولويات أن يكون على رأس هذه المرحلة فقهاء وعلماء قد بلغوا درجة النظر في الدين وفي معرفة كيف تسعى لتحكيم شرع الله، إن العلماء هم: هداة الناس الذين لا يخلو زمان منهم حتى يأتي أمر الله فهم رأس الطائفة المنصورة إلى قيام الساعة يقول الرسول ﷺ: "لا تزال طائفة من أمتي قائمة بأمر الله لا يضرهم من خذلهم، أو خالفهم حتى يأتي أمر الله وهم ظاهرون على الناس "[(٢)].

ومن الأولويات في هذه المرحلة:

الاهتمام بالأفراد المتخصصين القادرين على سد ثغرات العمل الإسلامي في كل مجالاته، بمعنى أن يختار من أفراد هذه المرحلة، مجموعات تتخصص في دراسة المجالات التي لا بد منها في تكوين الدول ليصبحوا علماء متخصصين في

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (١/ ٥٢٤).

(٢) البخاري، كتاب الاعتصام، باب قول النبي ﷺ لا تزال طائفة (٨/ ١٨٩) رقم ٧٣١١ .

كل مجالات الحياة الإنسانية وتصبغ روح الشـريعة عليها كلها وعلى سبيل المثال، في مجال علم الاجتـماع، في مجال علم السياسة، وفي مجـال الاقتصاد، وفي مجـال التربية وفي مـجال الإعلام وفي مجـال علوم الزراعة والمياه، وفي مـجال علوم طبـقات الأرض والتـعدين، وفي مجـال علوم الفـضاء، وفي مجـال علوم الصناعة والتقنيـة، وفي كل مجال يحتاج إليـه، وفي مجال فقه الدعـوة والحركة والتنظيم، وفي مجال فن القيادة والتـخطيط، وفي مجال ظروف العالم الإسلامي واحتياجاته، وفي كل مجـال علمي أو فن من هذه المجالات، يتفرع إلى عشرات التخصصات الدقيقة والأكثر دقة[1].

ومن الأولويات:

تعـميق الانتـماء للدين الإسـلامي وللدعـوة إلى الله ويحرص العـاملون أن يتمـثلوا الإسلام العملي في سلوكـهم وأخلاقهم بحـيث يصبحـون أعلامًا حـية للإسلام ولدعوته، وكل ذلك طريقه عمق الانتـماء إلى الإسلام، وعمق الاعتزاز به، ويحرص الأخ العامل أن يكون واسع الأفق، عمـيق الفهم، متين الخلق قوي الجسم، مستوعبًا لقضايا العالم الإسلامي المعاصر، قادر على تحليل هذه القضايا، ومتصورًا حـلاً أو حلولاً لها في موضوعية وواقعـية وتجريد للحق، إن أفراد هذه المرحلة حري بهم أن يكونوا متـجذرين في انتمائهم للإسلام، ولدعوتـه ويعمقوا ولاءهم لمنهج الرحـمن ونظـام الديان وشـريعـة الإسلام ويكـونوا هم جنود هذه المرحلة من العمل والتنفيذ والممارسـة والتطبيق لكل ما تعلمناه في المراحل السابقة مستـمرون في أعمـالنا، دون ملل أو تراخ، وأن يكونوا أصحاب عزيمة صـادقة، وإصـرار في بلوغ الهـدف، مع التـأني والصبـر والإجـادة والإحـسان مع عـدم استعـجال النصر من الله، لأن ذلك أمر مـتروك لله سبحـانه، يجعله على يد من يشاء من عباده، ولكنه يقين سوف يتحقق ما دمنا بالحق عاملين مجاهدين[2].

---

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (١/ ٥٢٥، ٥٢٦).

(٢) انظر: فقه الدعوة إلى الله (١/ ٥٢٧).

إن طبيعة مرحلة المغالبة، تختلف عن سواها من المراحل، ومجمل طبيعة هذه المرحلة يكمن في أنها: مرحلة الجهاد المتـواصل، والصبر على الابتلاء، والإصرار على مواصلة السعي في الطريق، حتى تتحقق إحدى الحسنيين: النصر، والتمكين لدين الله في عبـاد الله، أو الحصول على الشـهادة في سبيل الله، كـما لا بد في هذه المرحلة من كـمال الطاعـة ولا بد من الالتزام بتـحقـيق الأهداف المرسـومة، ويمكننا القـول بأن طبيعـة هذه المرحلة يكمن في كلمـة واحدة الجهـاد ونعني به: الجهاد بكل أنواعه: جـهاد اللسان، وجهاد العمل في كل مجالاته، وجـهاد قتال أعداء الله، وجهاد المرابطة في سبيل الله، وجهاد الاسـتعداد لكل معركة في سبيل الله، وجهـاد لكل عمل يتطلبه الإسلام. ولا بـد لكل فرد وصل إلى هذه المرحلة أن يكون جهده ووقته وماله في سبيل الله[١].

وفي هذه المرحلة تكون الجماعة الإسلامية القائمة على أمر الدعوة الإسلامية قد اقتفت سنة الأنبياء والرسل في دعـوة الأمم فحرصت على غرس الإيمان في النفوس وتوطيد العقيدة في القلوب فـفي الحرص على هذا الأصل العظيم سعادة للناس في الدنيـا والآخرة قـال سيـد قطب - رحمـه الله - : " ظـل القـرآن المكي ينزل على رسول الله ﷺ ثلاثة عشـر عامًا كاملة يحـدثه فيها عن قـضية واحدة لا تتـغير، ولكن طريقة عـرضهـا لا تكاد تتكرر. لقد كان يعـالج القضـية الأولى، والقضـية الكبرى، والقضية الأساسية، في هذا الدين الجديد قـضية العقيدة، ممثلة في قاعدتها الرئيسة: الألوهية والعبودية وما بينهـما من علاقة . . ولم يتجاوز القرآن المكي هذه القضية الأساسية إلى شيء يقوم عليهـا من التعريفات المتعلقة بنظام الحياة إلا بعد أن علم الله أنها قد استوفت ما تستحقه من البيـان وأنها استقرت استقرارًا متينًا ثابتًا في قلوب العصبة المختارة من بني الإنسـان التي قدر الله أن يقوم هذا الدين عليها، وأن تتـولى هي إنشاء النـظام الواقعي الذي يتـمـثل فيـه هذا الدين "[٢]، إن الاهتـمام

(١) المصدر السابق نفسه (١/ ٥٣١، ٥٣٢).
(٢) معالم في الطريق ، ص (٢٠/ ٢١).

بالجانب العقدي والمفهوم الإيماني وتربية الأمة عليه ينبغي أن يستمر إلى أن يلقى الله عز وجل، فإنه مهما بلغ الإنسان من الإيمان فإنه لا يستغني عن التذكير به والازدياد منه، ولا بد من إعداد القاعدة الصلبة التي تلتحم مع الجماهير وتتحرك نحو تطبيق شرع الله والتمكين لدينه سبحانه وتعالى، قال سيد قطب رحمه الله وهو يقرر ضرورة إعداد هذه القاعدة: " لقد كان الله سبحانه يعلم أن هذا هو المنهج . . . " ثم تكلم عن سنة الابتلاء، ثم قال: " فالتوسع الأفقي قبل قيام هذه القاعدة خطر ماحق يهدد وجود أية حركة لا تسلك طريق الدعوة الأولى من هذه الناحية ولا تراعي طبيعة المنهج الحركي الرباني النبوي الذي سارت عليه الجماعة "[1].

وأجمل ذلك في مكان آخر بقوله : " لقد قامت كل عقيدة بالصفوة المختارة لا بالزبد الذي يذهب جفاء ولا بالهشيم الذي تذروه الرياح "[2].

لا بد من الاهتمام بتقوية الإيمان وتزكية الأخلاق الفاضلة وكثرة الطاعة لله ولرسوله ﷺ والبعد عن المعصية والتوعية الكاملة والفقه في الدين ومعرفة مشكلات العصر وحلها، والتدريب العملي على البذل والإنفاق وإيثار الدعوة الإسلامية بالنفس والنفيس والإخلاص الكامل والتجرد لله وحده، وهذا الإعداد مع صعوبته وطول مدته التي تحتاج إلى صبر وجلد خير من العجلة في جمع الجماهير، ذوي عواطف تبهج النفس وتنعشها عواطف يظهر أصحابها الطاعة والحب والتفاني في سبيل العقيدة ولكن وقت الرخاء، أما وقت الشدة فإنها كالزبد الذي يذهب جفاء والهشيم الذي تذروه الرياح[3].

إن بناء القاعدة الصلبة على أسس من منهج أهل السنة والجماعة يدخل ضمن الطائفة المنصورة التي تتحرك بهذا الدين على جميع الثغرات، ومن صفات الطائفة المنصورة من خلال الأحاديث الصحيحة يتضح الآتي:

---

(١) في ظلال القرآن (١/ ١٥٧٧).

(٢) المصدر نفسه (١/ ١٦١٨).

(٣) المصدر نفسه (١/ ١٦١٨).

أ- أنها على الحق:

فهي طائـفة من هذه الأمة تشـربت المنهج الرباني الذي هو (الحق) ومـا عداه الباطل، واستـقرت على الالتزام به استـقرار المتمكِّن الذي لا يتزحـزح وهي طائفة متخصصة بـ (خصائص الفرقة الناجية) أهل السنة والجماعة والتي تحرص أن تكون على ما كـان عليه رسول الله ﷺ وأصحـابه، فهي متـحققة من العلم الصـحيح المبني على الدليل الشرعي، ومن عمل القلب وعمل الجوارح المواطئ لهذا العلم.

وقد تعددت عبارات الأحاديث، وتنوعت في بيان أن هذه الطائفة تحمل الحق الذي جاء به محمـد ﷺ وتلتزم به من غير تحريف ولا تبـديل، فجاء الحديث بأنهم (على الحق).

وأنهم "على أمر الله" . وأنهم "على هذا الأمر" . وأنهم "على الدين " .

وهذه الألفاظ تجـتمع في الدِّلالة على استقـامتهم على الدين الصـحيح الذي بُعث به مـحـمد ﷺ وقـد عـبّـر ﷺ عن تمسك الطائفـة المنصـورة بالحق، والدين، والأمر بلفظ: " على "، الدال على التمكن والاستقرار[١] .

وللطائفة المنصورة من ملازمة الحق واتبـاعه ما ليس لسائر المسلمين، وهي إنما استحقت الذكر والنصر، لتمسكها بالحق الكامل حين أعرض عنه الأكثرون، ومن الجوانب البارزة في الحق الذي استمسكت به حتى صارت طائفة منصورة ما يلي:

١- الاستـقامة في الاعـتقاد ومـلازمة ما كـان عليه النبي ﷺ وأصـحابه ومـجانبـة البدع وأهلهـا، فهم أصـحاب السنـة الذين ليس لهم اسم يُعرفـون به وينتمون إليه إلا السنة، لا جـهمية ولا معتزلة، ولا غـير ذلك من الأسماء الدالة على البدع والأهواء "[٢].

٢- الاستـقامـة في الهدى والسلوك الظاهر على المنهج النـبوي الموروث عن الصحابة رضي الله عنهم والسلامة من أسباب الفسق والريبة والشهوة المحرمة.

---

(١) انظر: صفة الغرباء، سلمان العودة، ص١٦٦ .

(٢) انظر: الاعتصام للشاطبي (١/ ٥٨)، والانتقاء في فضائل الأئمة الثلاثة الفقهاء لابن عبد البر، ص٣٥ .

٣- الاستقامة على الجهاد بالنفس والمال، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، وإقامة الحجة على العاملين.

٤- الاستقامة في الحرص على توفير أسباب النصر المادية والمعنوية، واستجماع المقومات التي يستنزل المؤمنون بها نصر الله ولا شك أنهم إنما ينتصرون لملازمتهم للجادة المستقيمة - من جهة، ولبذلهم الجهد الواجب في تحصيل أسباب النصر - من جهة ثانية:

وبذل الجهد في تحصيل تلك الأسباب هو في الحقيقة - جزء من الاستقامة على الشريعة، إذ الشريعة تأمر بفعل الأسباب واتخاذ الوسائل المؤدية إلى النتائج - بإذن الله - فليس صحيحًا أن يقعد المسلم عن استخدام الوسائل المادية الممكنة، من الصناعة، والسلاح والتخطيط، والإدارة وغيرها، متوهمًا أن النصر يجيء بدونها، لأن تحقيق ذلك هو من مقتضيات الاستقامة على أمر الله.

ب- أنها قائمة بأمر الله:

وهذه الخصيصة بارزة جدًّا في الوصف النبوي لهذه الطائفة، فهم (أمة قائمة بأمر الله)، واسمهم " الطائفة المنصورة " في عدد من الأحاديث وقيامهم بأمر الله يعني:

١- أنهم تميزوا عن سائر الناس بحمل راية الدعوة إلى الله، وإلى دينه، وشرعه، وسنة نبيه ﷺ، والقيام على نشر السنة بين الناس بكل وسيلة ممكنة مشروعة، ودفع الشبهات عنها، وحمل الناس عليه - مهما أمكن ذلك - والرد على مخالفيها من الكفرة والمرتدين والمارقين والمنافقين والجاهلين.

٢- أنهم قائمون بمهمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، باليد، واللسان، والقلب، معارضون لكل انحراف يقع بين المسلمين، أيًّا كان نوعه: سياسيًّا أو اجتماعيًّا، أو اقتصاديًّا، أو علميًّا، أو اعتقاديًّا، فهم " أولو البقية " الذين ينهون عن الفساد في الأرض وهم الناجون حتى يهلك الظالمون. قال تعالى: ﴿ **فَلَوْلَا**

كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ وَاتَّبَعَ الَّذِينَ ظَلَمُوا مَا أُتْرِفُوا فِيهِ وَكَانُوا مُجْرِمِينَ ﴾ (هود: ١١٦) .

جـ - إنها تقوم بواجب الجهاد والقتال في سبيل الله:

وقد جاءت الأحاديث النبوية في وصفهم بأنهم :

" يقاتلون على الحق "[١].

أو " يقاتلون على أمر الله "[٢].

وهذا يبين أنها لم تقف عند حدِّ جهاد الكلمة ، ببيان ، والدعوة إليه بالحسنى ، أو الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر بين المسلمين ، بل تميزت مع ذلك - بالقيام بواجب الجهاد الشرعي في سبيل الله ، وقتال أعداء الله من الكفار والمنافقين وغيرهم :

وهذا يعني استمرار الجهاد والمواجهة العسكرية مع أعداء الله إلى يوم القيامة ، لأن الطائفة القائمة به باقية إلى يوم القيامة[٣].

والمقصود أن الجهاد لا ينقطع انقطاعًا دائمًا مستمرًّا ، بل لا يزال في الأمة طائفة منصورة تجاهد في سبيل الله أعداء الله ، ولكن هذا لا يعارض ما وُجِد ويوجد في بعض الأمكنة وبعض الأزمنة من ترك الجهاد ، ممّا أخبر به النبي ﷺ ، وحذر منه ، فوقع في الأمّة كما أخبر ، فعن ابن عمر رضي الله عنهما قال : سمعت النبي ﷺ يقول : "إذا تبايعتم بالعينة "[٤]، وأخذتم أذناب البقر ، ورضيتم بالزرع ، وتركتم الجهاد ، سلط الله عليكم ذُلاًّ لا ينزعه حتى ترجعوا إلى دينكم "[٥].

فقد تترك عامة الأمة الجهاد في سبيل الله ، وتخلد إلى الأرض ، وتشتغل

---

(١) أبو داود ، كتاب الجهاد ، باب دوام الجهاد (٣/ ١١) رقم ٢٤٨٤ .

(٢) مسلم ،كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ :لا تزال (٣/ ١٥٢٤) رقم ١٧٦ .

(٣) انظر: صفة الغرباء ، ص١٧٧ .

(٤) العينة : هي أن يشتري من رجل سلعة بثمن معلوم مؤجل ثم يبيعها له بأقل من الثمن .

(٥) أبو داود ، كتاب البيوع ، باب النهي عن العينة (٣/ ٧٤٠) رقم ٣٤٦٢ .

بالزرع أو غيـره من شـئون دنياها، وتلهو به عـما أخرجت له من الجـهاد وحرب أعداء الله بالسلاح، وعملها على إزالة العوائق والعـقبات التي تحول دون الجهاد، فإنه إذا وجب عليهـا القتال والحرب لأعداء الـدين، فقد وجب عليها الاسـتعداد لهذه الحـرب بكل وسيلة ممكنة، ووجب عليـها السعي لإزالـة الموانع الحائلة دون قيامها بالواجب، ما استطاعت إلى ذلك سبيلاً وبجهود هذه الطائفة ترجع الأمة - عامّة - إلى الجهاد، وتخوض الغمرات إلى أعدائها، حتى ينصرها الله، ويعيد لها عزّتها ومجـدها وكرامتها، إن الجهاد الذي بدأ في عـهد الرسول ﷺ لا ينتهي حتى آخر الدهر، قبيل قيام الساعـة، والطائفة التي أكرمها الله تعالى بحمل الراية جيلاً بعد جيل، ورعيلاً بعد رعيل، هي الطائفة المنصورة القائمة بأمر الله[1].

د- أنها المجددة للأمة أمر دينها:

إن التجديد لهذا الدين هو الخط المقابل للغربة، والمجددون هم الذين يدافعون غرابة الدين، ويدفعونها، ويحـيون ما اندرس من الشرائع وهي بذلك تعمل على إحياء الدين، وتجديده، ودفع الغربة عنه وعن أهله، وتتضاعف مسئولياتها وتعظم كلما ازداد الشرُّ والفساد في الأمة، واسـتفحل وتضاعف، فـ (التجديد إنما يكون بعد الدروس وذاك هو غربة الإسلام)[2].

وكما وعـد رسول الله ﷺ بطائفة منصورة ظاهرة قائمـة بأمر الله إلى قيام الساعة، فقد وعد وعدًا خاصًّا مندرجًا في هذا الوعد العام، وهو البشارة، ببعثة من يجدِّد لهذه الأمة أمـر دينها، فعن أبي هريرة رضي الله عنه عن رسول الله ﷺ قال: " إن الله يبعث لهذه الأمة على رأس كل مائة سنة من يجدِّد لها دينها "[3].

ولفظ (من) في الحديث يُطلق على الفرد، وعلى الجماعـة، فيحتمل المعنى أن يكون المبعوث فردًا، ويحتمل أن يكون جمـاعة أو طائفة، فإن كان المجدد فردًا، فلا

---

(١) انظر: صفة الغرباء ، ص١٨١ ١٨٢ .

(٢) الفتاوى لابن تيمية (١٨/ ٢٩٧).

(٣) أبو داود ، كتاب الملاحم ، باب ما يذكر في قرن المائة (٤/ ٢٨٠) رقم ٢٩١ إسناده صحيح.

بد أنه من الطائفة المنصورة، وهذا مما لا يحتاج إلى بيان وإن كانت مهمة التجديد موكولة إلى فئة، فهي الطائفة المنصورة - بلا ريب - وذلك لأن خصائص هذه الطائفة هي الخصائص التي يحتاج إليها في تجديد الدين لهذه الأمة.

وهذا - أي: التجديد - قد يكون بفرد، وقد يكون بطائفة وكونه بطائفة أغلب وهو ما رجحه الحافظ ابن حجر[١] حيث قال: " لا يلزم أن يكون في رأس كل مائة سنة واحد فقط، بل يكون الأمر فيه كما ذكر في الطائفة وهو متّجه، فإن اجتماع الصفات المحتاج إلى تجديدها لا ينحصر في نوع من أنواع الخير، ولا يلزم أن جميع خصال الخير كلها في شخص واحد، إلا أن يدعي ذلك في عمر بن عبد العزيز، فإنه كان القائم بالأمر على رأس المائة الأولى، باتصافه بجميع صفات الخير وتقدمه فيها، ومن ثمّ أطلق أحمد أنهم كانوا يحملون الحديث عليه، وأما من جاء بعده، فالشافعي، وإن كان متصفًا بالصفات الجميلة، إلا أنه لم يكن القائم بأمر الجهاد والحكم بالعدل، فعلى هذا، كل من كان متصفًا بشيء من ذلك عند رأس المائة هو المراد سواء تعدّد أم لا "[٢]. وهناك مجموعة من آراء الأئمة تلتقي حول هذا الرأي كابن الأثير الجزري[٣]، وابن كثير وغيرهم. ومن البديهي أن المجدِّد لهذا الدين - لو كان فردًا - لا يخرج من فراغ، ولا يستطيع بمفرده - بحال من الأحوال - أن يجدِّد الدين - كل الدين للأمة - كل الأمة.

إن من الواضح أن مثل هذا العمل الجبار التاريخي لا يضطلع بمباشرة كل جوانبه فرد واحد؛ بل يحتاج إلى طائفة تتولى التجديد في كل جوانب الحياة الإنسانية، فيكون منهم شجعان مقاتلون، ومنهم فقهاء، ومنهم محدِّثون، ومنهم زُهّاد، وآمرون بالمعروف، وناهون عن المنكر، ومنهم أهل أنواع أخرى من الخير، ولا يلزم أن يكونوا مجتمعين، بل يكونوا متفرِّقين في أقطار الأرض "[٤].

---

(١) هو أحمد بن علي بن محمد العسقلاني أبو الفضل (ت٨٥٢هـ). انظر: الأعلام (١/١٧٨-١٧٩).
(٢) فتح الباري ، كتاب الاعتصام، باب لاتزال طائفة (١٣/١٢) رقم ٧٣١٢ .
(٣) هو أبو السعادات مبارك بن محمد بن الأثير توفى عام ٦٠٦هـ. انظر: جامع الأصول.
(٤) انظر: صفة الغرباء، ص١٨٧ .

هـ- أنها ظاهرة إلى قيام الساعة:

وقد وصفــت الأحاديث النبوية الكريمة هذه الطائفــة بكونها ظاهرة على الحق إلى يوم القيامة وكلمة الظهور تشتمل على عدة معان فيما يبدو:

١- بمعنى الوضــوح والبـيان، وعـدم الاسـتتـار، فـهم مـعروفـون بارزون مستعلون.

وهذا - في الجملة - وصف صحـيح لهذه الطائفة، لأن تصديقـها للدعوة، والأمر بالمعروف، والنهي عن المنكر، والجهاد، وإقـامة الحجة، يعني أنها ظاهرة، مشهورة، ولها مؤسساتها وأجهزتها ووسائلها المعلومة، وقيام هذه الطائفة بواجب البلاغ والدعـوة، وحرب المنكر، وقـتال الأعداء، يقـتضي أن تكون ظاهرة غـير مستترة، حريصة على الـتبليغ لصوت الحق لكل مسلم، بل ولكل إنسان وإن كان هذا لا يمنع أن يستخفي بعض أفرادها بإسلامهم، أو بدعوتهم لملابسات خاصة في مكان معين، وزمان مـعين، فالعبرة بالطائفة جملة، لا ببـعض أجزائها، أو بعض أفرادها، والعبرة بالحال العام المستمر الثابت، لا بالحال المؤقت الطارئ.

٢- ثباتهم على مـا هم عليه من الحق، والدين، والاستـقامة، والقيـام بأمر الله، وجـهاد أعـدائه، بحيث لا يـثنيهم عن ذلك شيء مـن العقـبات والعـوائق والمثبِّطات، وغلبـتهم بالحجة والبـيان وسيطرة منطقهم على العـقول والقلوب، لما يعتمـد عليه الحق الصريح المقـتبس من الكتاب والسنة، وهذا يدعو إلى أتـباعهم وموافقتهم، فالحق غلاب، والباطل خلاب وكلما كانت هذه الطائفة أوسع علمًا، وأعظم فهـمًا للوحي، وأكـثر إدراكًـا لثقـافة عصـرها، وأقدر على الـتعبـير عن منهجها، كانت حجتها أغلب، وطريقتها أصوب[1].

٣- الظهور بمعنى الغلبة، وقـد دلت النصوص على هذا المعنى أوضح دلالة، فقد وصفوا في الأحاديث بكونهم ظاهرين، ولا شك أن الظهور يأتي كثيرًا بمعنى

---

(١) انظر: صفة الغرباء، ص١٩٢.

الغلبـة والتمكن والعلو والظفـر، كمـا في قوله تعـالى: ﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ﴾ (سورة التوبة: ٣٣). وكما قـال تعالى: ﴿فَأَيَّدْنَا الَّذِينَ آمَنُوا عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا ظَاهِرِينَ﴾ (سورة الصف، آية: ١٤).

وقوله: ﴿ حَتَّىٰ جَاءَ الْحَقُّ وَظَهَرَ أَمْرُ اللَّهِ وَهُمْ كَارِهُونَ﴾ (التوبة: ٤٨).

وقوله: ﴿إِنَّهُمْ إِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ يَرْجُمُوكُمْ أَوْ يُعِيدُوكُمْ فِي مِلَّتِهِمْ﴾ (الكهف: ٢٠).

وقد أكَّـد إرادة هذا المعنى مجيء روايات أخـرى تكاد أن تكون صريـحة في ذلك، كقوله : "ظاهرين لعدوهم "(١)

وقوله: " ظاهرين على من ناوأهم "(٢).

وقوله: " لعدوهم قاهرين "(٣).

ولا شك أن هذا وعد رباني على لسان محـمد ﷺ وليس يشك مسلم في ثبوته وتحققه ووقوعه، خاصـة وأصل الحديث ثابت متواتر كما سبق، وهو يشمل الغلبة والقهر بالحجة، ويشتـمل الغلبة المادية والنصر في القتال، ويجوز أن تكون معاني الظهور السابقة - كلها - واردة وصـحيحة، فتكون الطائفة المنصورة ظاهرة معلنة غير مستتـرة، وظاهرة على الدين بالثبات عليه والتمكين منه، وظاهرة على عدوها بالحجَّة والبيان، وبالقوة والسِّنان(٤).

و - أنها صابرة:

قال تعالى: ﴿ وَجَعَلْنَا مِنْهُمْ أَئِمَّةً يَهْدُونَ بِأَمْرِنَا لَمَّا صَبَرُوا وَكَانُوا بِآيَاتِنَا يُوقِنُونَ ﴾ (السجدة، آية: ٢٤).

قال تعالى: ﴿فَاصْبِرْ إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَا يَسْتَخِفَّنَّكَ الَّذِينَ لَا يُوقِنُونَ﴾ (الروم: ٦٠).

فقد خصَّ الله الطائفة المنصـورة من الصبر بخصيصة ليـست لغيرهم فهم في

---

(١) مسلم ،كتاب الإمارة ، باب قوله ﷺ لا تزال طائفة (٣/ ١٥٢٤) رقم ١٧٦ .

(٢) أبو داود ، كتاب الجهاد، باب دوام الجهاد رقم (٢٤٨٤) (٣/ ١١) .

(٣) انظر: الطبراني (الكبير) ترجمة أبي أمامة رقمها ٧٣٦ (٨/ ١٧١).

(٤) انظر: صفة الغرباء ، ص١٩٣، ١٩٤ .

هذا الخصم العنيف في الصراع بين الحق والباطل يتسلحون بالصبر الجميل ويتحملون الشدائد والمصاعب من أذى الكافرين والمنافقين والفاسقين والمخالفين عن سمته وطريقه المستقيم، فلا تستطيع القوة الظالمة أن تخرجهم عن منهجهم وهدفهم الذي يسعون إليه، ولهذا وصف الرسول ﷺ هؤلاء القوم بأنهم : " لا يضرهم من كذبهم، ولا من خالفهم "(١).

" لا يضرهم من خذلهم "(٢).

" ولا يبالون من خالفهم "(٣).

وهذه التعبيرات النبوية الكريمة تشير إلى أن هؤلاء العاملين الذين عرفوا أهدافهم وسلكوا طريقهم، فلم ينظروا إلى خلاف المخالفين وعوائق المخذلين، ولا تكذيب الأعداء الحاقدين، وكانوا يواجهون كل المتاعب بصبر وثبات ويقين(٤).

هذه أهم الصفات التي جاءت في الأحاديث النبوية لوصف الطائفة المنصورة والتي تسعى لتحكيم شرع الله تعالى فعلى الجماعات الإسلامية أن تعمل على تربية أتباعها على هذه الصفات الجميلة والتي هي من أسباب النصر والتمكين الرباني.

إن القيادات الإسلامية التي تنهج منهج أهل السنة والجماعة حريصة على صلة بعضها وخصوصًا من يصل منهم إلى مرحلة المغالبة حيث لا بد أنه يحتاج إلى إخوانه حتى يعينونه على تحقيق أهدافه.

إن تكالب الأعداء من أمم الكفر على أمتنا مزّقها وحطم أخلاقها وهتك أعراضها، واستولوا على بلاد المسلمين ونهبوا ثرواتهم وخيراتهم، فهذه المصائب الجسام توجب على أهل السنة ومن اتصف بصفات الطائفة المنصورة أن يتعارفوا

---

(١) البخاري، كتاب التوحيد، باب قول الله تعالى (إنما قولنا...) (٨/ ١٨٩).

(٢) مسلم، كتاب الإمارة، باب قول النبي ﷺ: (لا تزال طائفة) (٣/ ١٥٢٣) رقم ١٧٠.

(٣) رواه سعيد بن منصور، كتاب الجهاد، باب من قال: الجهاد ماض، رقم ٢٣٧٦ وله طرق تقويه.

(٤) انظر: صفة الغرباء، ص٢٠٥.

على إخوانـهم من بلدان شتى ويتـعاونوا مع بعـضهم في طريق العـمل والدعوة والجهاد، فلا بد من تعارف وتعاون من يحملون هَمّ الدعوة والجهاد من أهل السنة حتى تتوحد الجهود نحو تحقيق الأهداف.

ويأتي دور العلماء الربانيين والقـادة المخلصين في تنسيق الجهود وتحـقيق معنى الانتساب للطائفة المنصورة المجاهدة، بمعرفة حدود ما أنزل الله على رسوله، وتعلم العلم الشرعي المبني على الدليل مـن الكتاب والسنة في مجال الاعـتقاد والأحكام والسلوك، والاستـعداد الدائم لتجاوز الأخطاء وتصـحيحها، والتـخلي عن كل ما ينافي حقيقة هذا الانتسـاب الشريف، من الآراء والأقوال والأخلاق وغيرها، وهذا لا يتم إلا في جو من الفرح والغبطة بالنقد الصحيح، وترك أسلوب التزكية المطلقة للأقـوال والأعمـال والأشخـاص والجـماعـات، والسعي الدائـم لتعـديل المناهج والمسـالك على وفق الحق الذي تقتـضيـه شريعـة الله ويدل عليه النص من الـقرآن والسنة، ووضع المسائل والقضايا في موقعها الصحيح الذي تقتضيه الحكمة[1].

وعلى القيـادة الصالحة التي تقـود العمل الإسلامي فـي بلد ما ووصلت إلى مرحلة المغـالبة أن تحـرص على توثيق التعـاون مع القائمين على أمـر الدعوة في بلادهم وغيـرها من الأقطار الإسلاميـة ولا بد من تنسيق الجهـود، بحيث يكمل بعضها بعضًا، ولا تتناقض ولا تتعـارض، والتعاون واجب شرعي، لقوله تعالى: ﴿وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ﴾ (سورة المائدة: ٢).

والتعاون ثمرة من ثمار التعارف بين العاملين في الدعوة الإسلامية ممن حرصوا أن يكونوا ضمن كتائب التـغيير الإسلامي، وثمرة من توحيـد منهج السير المنضبط بالدليل الشرعي من الكتاب والسنة، وبذلك تجتـمع القلوب وتزول أسباب الخلاف التي ينفذ منها الشيطان وجنوده من الإنس والجن لزرع الفرقة والشتات بين المسلمين ويكلَّل هذا وهذا بالتآزر والتعاون والتناصر، لتـجتمع قدرات المسلمين وتتوحد في

(١) انظر: من وسائل دفع الفرية للشيخ سليمان عودة، ص٦٧.

مواجهة المحن والشدائد المتمثلة في التحديات الكبيرة التي يزخر بها العصر ولتتناوب فئاتها في القيام بفروض الكفاية التي اضطلعت بها، وشرّفها الله لتحمل القيام بها من بين المسلمين، فتقوم كل فئة بما تعجز عنه الأخرى فالتعاون والتناصر يجعل الصف الإسلامي أقوى في إمكاناته وقدراته، وأقدر على الاستفادة من الفرص المتنوعة التي تختلف بين مكان وآخر وزمان وآخر، وأكثر دقة في توزيع المهمات والواجبات وتوظيف الجهود والقدرات نحو الهدف المنشود(١).

فعلى الجماعة الإسلامية التي تربت على منهج أهل السنة والجماعة أصولاً وفروعًا، عقيدة وأخلاقًا، فكرًا وتصورًا، عبادة ومعاملة، وحرصت أن تتصف بصفات الطائفة المنصورة وجهزت كوادرها المتنوعة ووصلت إلى مرحلة المغالبة أن تقود هذه المرحلة بكل دقة وإحكام، وتخطيط وإتقان مستعينة بالواحد الديان وأن تستوعب الجانب العملي الحركي في الإسلام وأن تقود حركة الجهاد الشاملة وفق أحكام الشريعة.

وأن تحسن إنزال أنواع الجهاد في ميادينها لسد الثغرات المتنوعة وأن هذه الأنواع في مجموعها متكاملة، يقود بعضها إلى بعض وكل واحد مشروع لتحقيق الهدف الأسمى لدعوة الإسلام، وهو تحقيق العبودية الكاملة لله تعالى في: الأفراد والجماعات والمجتمعات، وفي داخل النفس وخارجها(٢)، غير أن كلاً منها يتعامل مع صنف خاص من الأعداء الذين يصدون عن تحقيق ذلك الهدف، فيزيحه من الطريق أو يحد من فاعليته ، والكل يلتقي عند جعل العبودية خالصة لله تعالى، ورفع كلمة الله سبحانه في الأرض، وجعلها هي العلياء، بأن تكون هي المرجع الوحيد للبشرية في جميع نشاطاتها ومن هنا كان لكل نوع من تلك الأنواع أهميته الخاصة، وكانت حاجة المؤمنين إلى ممارسة كل منها حاجة ماسة.

---

(١) المصدر السابق نفسه ، ص٦٨ .

(٢) الجهاد ميادينه وأساليبه ، د. محمد نعيم ياسين ، ص٢٣٥ .

والجماعة الإسلاميـة الواعية والتي تسعى أن يكون المجتمع إسلاميًا وربانيًا لا بد أن تجاهد في الله حق جهاده ، كما قال تعالى : ﴿وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ﴾ (سورة الحج ، آية : ٧٨) وحق الجـهاد هو التـصدي لكل عـدو يقف أمام دعـوة الله ، وممارسة جـميع الأنواع الجهـادية بكل حكمة وعـقل ورزانة ، وتقدير للمـصالح والمفاسـد ، ومعـرفة تامة لمقـاصد الشـريعة والموازنة بين أفضل المصـلحتين وأقل الضررين بحـيث تسد كل الثغور ، ويسـد المجال أمام كل عدو ، وهذه صـفة من الصفات الربانية اللازم ظهورها في الـصف المتحرك لتمكين شرع الله والذي يذب ويجاهد من أجل هذا الدين .

لقد جاءت الآيات القرآنية والأحاديث النبوية ، والإرشادات الفقهية تبين فضل الجهاد وضرورته وأنواعه .

والواقع العملي يدلنا على أن أشكـال الجهاد مرتبطة بعـضها ببعض ، فـجهاد النفس هو في حقـيقته ، أصل تلك الأنواع جـميعًا ، وهي متـفرعة عنه ومعـتمدة عليه ، فهـو بذرتها ، وهو شرطها ، وهـو عدتها يقول ابن القـيم – رحمه الله- : "ولما كان جهـاد أعداء الله في الخارج فرعـًا عن جهاد العبـد نفسه في ذات الله ، كما قال النبي ﷺ : "المجاهد من جاهـد نفسه في ذات الله والمهاجر من هجر ما نهى الله عنه "[1]. كان جهاد النفس مقدمًا على جهاد العدو في الخارج وأصلاً له ، فإنه مَنْ لم يجـاهد نفسـه أولاً ، لتفعل مـا أمرت به ، وتترك مـا نهيت عنه ، ويحاربها في الله لم يمكنه جهاد عدوه في الخارج "[2].

– وأما جهاد الشيطان فهو ضروري للتمكن من جهاد النفس وجهاد أعداء الله في الخـارج ، لأن الشيطان عـدو يثبط الإنسـان عن جهـاد نفسـه وجهاد الكـفار والمنافقين والفـاسقين ، ولا بد للعبد مـن جهاده والتغلب عليـه إذا أراد أن يتغلب على شهوات نفسه ، وعلى كل عدو يصـد عن سبيل الله تعالى : يقول ابن القيم

---

(١) زاد المعاد (٢/٣٨).

(٢) البخاري ، كتاب الإيمان ، باب أمور الدين (١/ ١٠) رقم ١٠ .

بيـانًا لهذا المعنى بعـد أن بين أهميـة جهـاد النفس وجهـاد أعداء الله فـي خارج الإنسان: " وبينهما عدو ثالث لا يمكنه جهـادهما إلا بجهاده، وهو واقف بينهما يثبط العبد عن جهادهما، ويخذله ويرجف به، ولا يزال يخيل له ما في جهادهما من المشاق وترك الحظوظ، وفوت اللذات والمشتـبهات، ولا يمكنه أن يجاهد ذينك العدوين إلا بجـهاده، فكان جهـاده هو الأصل وهو الشيطان، قـال تعالى: ﴿**إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمْ عَدُوٌّ فَاتَّخِذُوهُ عَدُوًّا**﴾ (سورة فاطر: ٦). والأمر باتخاذه عدوًّا تنبيه على استفراغ الوسع في محاربته ومجاهدته . . "[١].

وأما جهاد الكفار والمنافقين وأهل المنكر فهو مشتمل على جميع أنواع الجهاد، لأنه جهاد النفس على التضحية باللذة العاجلة في سبيل السعادة الأبدية، وهو في حقيقـته مشتمل على جمـيع أنواع العبادات الباطنة والظاهرة، فهو مـشتمل على محبة الله عز وجل والإخلاص له والتـوكل عليه، وتسليم النفس والمال له سبحانه والصبر والزهـد وغيرها "[٢]. وكذلك جـهاد الشيطان الذي يزين القـعود ويمني بالسلامـة، إلا أنه من الجدير بالذكـر أن هذا لا يعني تساوي الجـهاد وأشكاله من حيث الأجر والفضل عند الله تعالى.

والمعيـار في ذلك أشارت إليه الآيات والأحـاديث هو مقـادير التضحـية التي يقدمها المؤمن في سـبيل الله تعالى فمن كان أشد تضحيـة كان أفضل عند الله عز وجل، وأثقل في ميـزانه سبـحانه لدلالته على قـوة الإيمان بالله، وشدة الثـقة بما عنده ولا شك في أن التضـحية بالنـفس هي أعلى أنواع التضحـية وأكرمـها عند البـاري تبارك وتعـالى، إذ أثمن مـا يملك العـبد نفسـه، وهي أصل كل ثمين، ومرجع كل لذة في هذه الحياة الدنيا، فمن ضحى بها فقد بذل كل ما يملك، ولم يستبق لنفسه شـيئًا، وإنما قدمه في سبيل ربه، فإن كانت نيـته خالصة لله تعالى، كان أكرم الشهداء عند رب العـباد، ولذلك قال تعالى: ﴿**لا يَسْتَوِي الْقَاعِدُونَ مِنَ**

---

(١) زاد المعاد (٢/ ٣٨).

(٢) انظر: السياسة الشرعية لابن تيمية.

الْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُوْلِي الضَّرَرِ وَالْمُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى الْقَاعِدِينَ دَرَجَةً وَكُلاً وَعَدَ اللَّهُ الْحُسْنَىٰ وَفَضَّلَ اللَّهُ الْمُجَاهِدِينَ عَلَى الْقَاعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴾ (سورة النساء ، الآية : ٩٥) .

وقال عز وجل : ﴿أَجَعَلْتُمْ سِقَايَةَ الْحَاجِّ وَعِمَارَةَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ كَمَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الآخِرِ وَجَاهَدَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ لا يَسْتَوُونَ عِندَ اللَّهِ وَاللَّهُ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ (١٩) الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ أَعْظَمُ دَرَجَةً عِندَ اللَّهِ وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْفَائِزُونَ ﴾ (سورة التوبة ، الآيتان : ١٩ ، ٢٠) .

ولذلك فضل رسول الله ﷺ الجهاد بالنفس على الحج ، وجعله بعد الإيمان[(١)] ، ففي الصحيحين عن النبي ﷺ أنه سئل : أي الأعمال أفضل ؟ قال : إيمان بالله ورسوله ، ثم جهاد في سبيله . قيل ثم ماذا ؟ قال : ثم حج مبرور "[(٢)] .

وقد روى الإمام مسلم في صحيحه عن سلمان الفارسي رضي الله عنه أن النبي ﷺ قال : " رباط يوم وليلة في سبيل الله خير من صيام شهر وقيامه ، ومن مات مرابطًا مات مجاهدًا ، وأجرى عليه رزقه من الجنة وأمن الفتان "[(٣)] . ولذلك أجمع العلماء على أن المقام في ثغور المسلمين أفضل من المجاورة في المساجد الثلاثة ، لأن الرباط ، هو في الواقع ، نوع من التضحية بالنفس أو استعداد لها[(٤)] .

إن مرحلة المغالبة لا بد لأفرادها أن يكونوا قد استوعبوا مفهوم الجهاد بعمومه وأن تكون كافة الكوادر في جميع المجالات مستعدة للتحرك نحو تولي أمور الحكم وتحكيم شرع الله تعالى ، والتمكين لدينه .

إن حركة المسلمين في مرحلة المغلبة تهز عروش الطغاة ، وكلما قطعت الدعوة مرحلة من مراحلها كلما ازداد فزع الظلمة واقتربت نهاية الأحكام الجاهلية .

---

(١) فتح القدير للشوكاني (٤/ ٢٧٧).

(٢) البخاري ، كتاب الحج ، باب فضل الحج المبرور (٢/ ١٧٢) رقم ١٥١٩ .

(٣) مسلم ، كتاب الإمارة ، باب فضل الرباط (١/ ١٥٢٠) رقم ١٩١٣ .

(٤) انظر : الجهاد ميادينه وأساليبه ، د . محمد ياسين ، ص٢٣٨ .

إن سهام الدعـاة موجهة إلى أسس تقوم عليهـا عروش الطغاة ومن أهم هذه الأسس التي تسعى الدعوة إلى نزعها :

١- نزع مقاليد الحكم من أيديهم:

حتى تقف رغبـاتهم وأهوائهم التي يمضونها بواسطة القـوة والسلاح ويعذبون الناس ؛ بل يقتلونهم من أجل أهوائهم وكفرهم كمـا فعل فرعون مع السحرة قال تعالى : ﴿**فَأُلْقِيَ السَّحَرَةُ سُجَّدًا قَالُوا آمَنَّا بِرَبِّ هَارُونَ وَمُوسَىٰ (٧٠) قَالَ آمَنتُمْ لَهُ قَبْلَ أَنْ آذَنَ لَكُمْ إِنَّهُ لَكَبِيرُكُمُ الَّذِي عَلَّمَكُمُ السِّحْرَ فَلَأُقَطِّعَنَّ أَيْدِيَكُمْ وَأَرْجُلَكُم مِّنْ خِلَافٍ وَلَأُصَلِّبَنَّكُمْ فِي جُذُوعِ النَّخْلِ وَلَتَعْلَمُنَّ أَيُّنَا أَشَدُّ عَذَابًا وَأَبْقَىٰ**﴾ (سورة طه ، آية : ٧٠، ٧١) .

فلو لم تكن مقـاليد الحكم بيد فرعـون ما كان ليقـدم على هذا الفعل الشنيع وهكذا كل الفراعنة لولا أن القوة بأيديهم ما اسـتطاعوا أن يفرضوا باطلهم ويمنعوا الناس من الحق .

٢- تحرير الناس من عبودية المناهج الكفرية وعبادة الحكام:

الذين يضعون مناهج عقدية وسياسية واجتـماعية واقتصادية وعسكرية لتحقيق هدف واحد لهـم ، وهو إخضاع الناس عن طـريق الترغيب والإغـراء وعن طريق الترهيـب والإيذاء ، ويستعين الحـكام في تحقيق هذه الأهـداف الخبيـثة بأصـحاب النفوس المريضة الذين يبجلون الحكام ويسـعون لمرضاتهم من أجل مال زائل وجاه خادع وحظوة مذمومـة ويحرص الحكام على هذه الطبقة الذليلة فيـقدمون لهم ما يريدون من جاه ومال وسلطـان قال ابن تيمية -رحـمه الله- : (وكذلك طالب الرئاسة والعلو في الأرض قلبه رقيق لمن يعينه عليـها ولو كان في الظاهر مقدمهم والمطاع فيهم ، فـهو في الحقيقـة يرجوهم ويخافهم فيـبذل لهم الأموال والولايات ويعفو عنهم ليطيعوه ويعينوه ، فهو في الظاهر رئيس مطاع وفي الحقيقة عبد مطيع لهم . والتحقيق أن كليهـما فيه عبودية للآخر ، وكلاهما تارك لحقـيقة عبادة الله، وإذا كان تـعاونهمـا على العلو في الأرض بغـير الحق كـانا بمنزلة المتعـاونين على

الفاحشة أو قطع الطريق فكل واحد من الشخصين لهواه الذي استعبده واسترقه يستعيده الآخر "(١).

٣- القضاء على القوانين والأنظمة التي شرّعوها لتخدم أهواءهم والتي جعلوها بكيفية تجد لهم ما يريدون وتحريم ما لا يشتهون، وتمكنهم من الاعتداء على النفوس والأعراض والأموال:

إن الطغاة لا يطيقون أن يقف أمام رغباتهم وأهوائهم أي قانون، قال تعالى: ﴿وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ وَلَا تَنقُصُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ إِنِّي أَرَاكُم بِخَيْرٍ وَإِنِّي أَخَافُ عَلَيْكُمْ عَذَابَ يَوْمٍ مُّحِيطٍ ﴿٨٤﴾ وَيَا قَوْمِ أَوْفُوا الْمِكْيَالَ وَالْمِيزَانَ بِالْقِسْطِ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تَعْثَوْا فِي الْأَرْضِ مُفْسِدِينَ ﴿٨٥﴾ بَقِيَّتُ اللَّهِ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ وَمَا أَنَا عَلَيْكُم بِحَفِيظٍ ﴿٨٦﴾ قَالُوا يَا شُعَيْبُ أَصَلَاتُكَ تَأْمُرُكَ أَن نَّتْرُكَ مَا يَعْبُدُ آبَاؤُنَا أَوْ أَن نَّفْعَلَ فِي أَمْوَالِنَا مَا نَشَاءُ إِنَّكَ لَأَنتَ الْحَلِيمُ الرَّشِيدُ﴾ (سورة هود، آية: ٨٤، ٨٧).

٤- كشف الحقائق للناس وبيان خداعهم للعوام وغشهم بقلب الحقائق، وبيان كذبهم في إظهار النصح والخوف على مصالح الناس من خطر الدعاة إلى الله في إقامة حكم الله في الأرض كما قال الله عن فرعون: ﴿وَقَالَ فِرْعَوْنُ ذَرُونِي أَقْتُلْ مُوسَىٰ وَلْيَدْعُ رَبَّهُ إِنِّي أَخَافُ أَن يُبَدِّلَ دِينَكُمْ أَوْ أَن يُظْهِرَ فِي الْأَرْضِ الْفَسَادَ﴾ (غافر: ٢٦) يعني موسى، يخشى فرعون أن يضل موسى الناس ويغير رسومهم وعاداتهم، وهذا كما يقال في المثل: صار فرعون مُذكرًا، يعني واعظًا يشفق على الناس من موسى عليه السلام "(٢).

وقال سيد - رحمه الله -: " ولعله من الطريف أن نقف أمام حجة فرعون في قتل موسى: إنّي أخاف أن يبدل دينكم أو أن يظهر في الأرض الفساد "؟

---

(١) الفتاوى (١-١٨٩).

(٢) تفسير ابن كثير (٤/ ٧٦).

أليست هي بعينها كلمة كل طاغية مفسد عن كل داعية مصلح، أليست هي بعينها كلمة الباطل الكالح في وجه الحق الجميل، أليست هي بعينها كلمة الخداع الخبيث لإثارة الخواطر في وجه الإيمان الهادي؟ : إنه منطق واحد يتكرر كلما التقى الحق والباطل والإيمان والكفر والصلاح والطغيان على توالي الزمان واختلاف المكان، والقصة قديمة مكررة تعرض بين الحين والحين "[١].

٥- كشف خطط الطغاة في جعل الناس شيعًا وأحزابًا ودعوة الناس للاجتماع على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ قال تعالى: ﴿ **إِنَّ فِرْعَوْنَ عَلَا فِي الْأَرْضِ وَجَعَلَ أَهْلَهَا شِيَعًا يَسْتَضْعِفُ طَائِفَةً مِّنْهُمْ يُذَبِّحُ أَبْنَاءَهُمْ وَيَسْتَحْيِي نِسَاءَهُمْ إِنَّهُ كَانَ مِنَ الْمُفْسِدِينَ** ﴾ (سورة القصص، آية: ٤).

هذه أهم الأسس التي تقوم عليها عروش الطغاة في الأرض، وأي أساس منها فقد كان جديراً بتحطيم تلك العروش ولا سيما الأول منها والثاني[٢].

ولذلك يهتم الدعاة إلى الله في كل مراحل دعوتهم بتوجيه السهام إلى تلك الأسس وخصوصًا في مرحلة المغالبة حيث تنشط كتائب المجاهدين بتوجيه الضربات المسددة إلى تلك الأسس الطاغوتية وبعد تدميرها يصل الدعاة بإذن الله تعالى بدعوتهم إلى مرحلة التمكين.

إن هذه المرحلة المهمة من مراحل الدعوة يكون أفراد الجماعة الإسلامية العاملة يسعون بكل إخلاص وصدق على تنفيذ مخططات دعوتهم وتحقيق أهدافهم، والدعوة في هذا الطور جهاد وعمل متواصل في سبيل الوصول إلى الغاية، وامتحان وابتلاء لا يصبر عليهما إلا الصادقون، ولا بد أن نهتم بالفرد اهتمامنا بالجماعة ونهتم بالقاعدة اهتمامنا بالقيادة حرصًا على بناء الصفوف بناءً إسلاميًّا صحيحًا. إن مراحل الدعوة التي تسبق مرحلة التمكين متداخلة فيما بينها

(١) في ظلال القرآن (٥/ ٣٠٧٨).

(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله ، د. عبد الله أحمد القادري (٢/ ٢٣٥).

فمقدار نضج الجماعة في مرحلة التـعريف والإعداد والمغالبة، تكون الأمور سائرة في الطريق الصحيح، وبمقـدار ما يكون التعريف صحيـحًا يكون الإعداد أسهل، وبمقدار ما يكون الإعداد صحيحًا تكون مرحلة المغالبة أحكم وأقوى. ومن ثم فإن النضج في هذه الـقـضايـا بشكل عـام هو مظهـر النضج العـمـلي والنظري في الجماعة، بقـدر ما توجد عند الجماعة أجهـزة مختصة ناضجـة في كل قضية من هذه القضايا يكون سيرنا قد أخذ مسراه الكامل "[(١)].

وهناك من يسـمي مرحلة المغالبـة بمرحلة التنفيـذ ولا مشـاحة في الاصطلاح ويقـول حسن البنا - رحـمه الله - في هذه المرحلة: " التنفـيذ والدعـوة في هذا الطور جهاد لا هوادة معـه وعمل متواصل في سبيل الوصول إلى الغـاية وامتحان وابتلاء لا يصبر عليهمـا إلا الصادقون. ولا يكفل النجاح في هذا الطور إلا كمال الطاعة "[(٢)].

وقال: (ثم بعد ذلك كله مرحلة التنفيذ والعمل والإنتاج وكثيرًا ما تسير هذه المراحل الثـلاث: أي التعـريف والتكوين والتنفـيذ جنـبًا إلى جنب نظرًا لوحـدة الدعوة وقوة الارتباط بينهما جميـعًا، فالداعي يدعو، وهو في نفس الوقت يتخير ويربّي، وهو في الوقت عـينه يعمل وينفـذ كذلك. ولكن لا شك في أن الـغاية الأخيرة أو النتيجة الكاملة لا تظهر إلا بعد عـموم الدعاية، وكثرة الأنصار ومتانة التكوين "[(٣)] ومن كلامـه نفهم أن التـنفيذ عنـده نوعان: تنفـيذ يومي، وتنفـيذ شامل، وأن التنفيـذ اليومي مرتبط بموضوع العمل المتواصل المكافئ. وأمـا التنفيذ الشامل فيرتبط بتحقيق الأهداف الكبرى[(٤)].

* ■ *

(١) الدعوة إلى الإسلام، حسن أدهم جرار ، ص١٢١ .

(٢-٤) آفاق التعلم ، سعيد حوى ، ص٧٦ .

المبحث الرابع
مرحلة التمكين

إن مـرحلة التـمكين هي ذروة العمل الإسـلامي المنظم، وهي تمـثل الثمـرة الناضجة، إذا مثلت المراحل التي سبقتها التـربة الصالحة والبذرة الصالحة، والتعهد والرعاية، وأن الجـهد الذي أوصل إلى هذه المرحلة كله من توفـيق الله، ويستطيع أن يمس المؤمن أثر توفـيق الله سبحـانه وتعالى في الـوصول إلى مرحلة الـتمكين لدينه في الأرض في دراسـته القرآنيـة المتأنية، أو في نظرته الـتاريخيـة المستوعـبة للتاريخ الإسلامي المجيد، ومرحلة التمكين في الدعوة إلى الله تعني أن الله تبارك وتعالى، يمكن لديـنه في الأرض، عن طريق المؤمنين الذين يعملون الصـالحات، وأن هذا التمكين، يسبقه الاستخـلاف والملك والسلطان، ويعقبه أمن بعد خوف، كمـا أن الوصول إلى التمكين يكون بعـد تحقيق شروطه من إيمان وعـمل صالح، وتحقيق العبـودية، ومحاربة الشرك، وتقوى الله، كما أن لاستـمراره شروط منها إقامـة الصلاة، وإيتـاء الزكاة، وطاعة الرسـول ﷺ، وهذه الثلاثة هي إجـمال للإسلام كله، فالصلاة عمـاد الدين وهي دليل الإسلام وعلامته، وهي تنهى عن الفحشاء والمنكر، والزكاة تراحم وتكافل، ودفع لحاجات المحتاجين الذين حدد الله سبحانه أنواعهم في آية ﴿ **إِنَّمَا الصَّدَقَاتُ لِلْفُقَرَاءِ**. . . ﴾ (سورة التوبة، آية: ٦٠) كما هي طهارة لقلب المزكـي، وطهارة لماله، وطاعة الرسـول ﷺ هي الالتزام بكل ما أمر والانتهاء عن كل ما نهى، وذلك الإسـلام كله وما ذكرته يوضحه قول الله تعالى: ﴿ **وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَى لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُم مِّنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَن كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥) وَأَقِيمُوا الصَّلاةَ وَآتُوا الزَّكَاةَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ** ﴾ (النور، آية: ٥٥، ٥٦).

وستظل الطاعة للرسول ﷺ، وإقام الصلاة، وإيتاء الزكاة، مصاحبة للتمكين لا

تنفك عنه، ولا ينفك عنها قال تعالى: ﴿الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الْأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلَاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الْأُمُورِ﴾ (الحج، آية: ٤١).

وفي هذه الآية النصّ على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وهو من صميم ما أمر الرسول ﷺ به[١].

إن القرآن الكريم إذا تدبره المؤمنون وتفقهوا فيه رأوا حكم وسنن تعين من أخذ بها للوصول إلى غايته النبيلة، ولا شك أن مرحلة التمكين وإن كانت قمة المراحل، إلا أنها ليست آخر المراحل، فبعدها استمرار التمكين والمحافظة عليه، وإن من وراء التمكين لأمور عظيمة وأهوال جسيمة ومسئوليات كبرى أمام التحديات الضخمة والأعداء المتكالبين ولا بد من استمرار الدعاة إلى الله بواجبات مراحل التعريف، والإعداد والمغالبة والتمكين إلى قيام الساعة، ويوم يعدل الدعاة عن هذا العمل الموازي لمرحلة التمكين، فعندئذ يحدث التراجع والانتكاس، وتنشأ الأجيال الجديدة، فلا تجد من يعرّفها، ولا من يربّيها ولا من يفقهها ويعلمها ويقودها.

إن بعض الناس قد يرون هذه المرحلة بعيدة المنال.

وإن بعضهم ليراها مستحيلة التحقيق.

وإن بعضهم ليراها قريبة جدًّا قريبة.

أما الذين يرونها بعيدة المنال، فهم على صواب طالما بقي المسلمون غير محققين لشروط التمكين، لأن التمكين لدين الله في الأرض، حقيقة قرآنية ثابتة، إذا توفرت لها شروطها[٢].

إن التمكين لدين الله في الأرض مطلب عزيز دعا إليه الدين، وعمل صالح يؤجر عليه فاعله أعظم الثواب، وليس العمل لتمكين دين الله في الأرض عسيراً، أو فوق مستوى طاقة المسلمين، لأن الله لا يكلف نفسًا إلا وسعها، بل ممكن وفي

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (٢/ ٧١٥).

(٢) انظر: فقه الدعوة إلى الله (٢/ ٧١٦).

مقــدور العاملين من أجل الإســلام ولكونه ممكنًا فـقد وعد الله تعـالى به المؤمنين الذين يعملون الصالحات.

إن التمكين لدين الله في الأرض إرادة إلــهية كي يظهــر هذا الدين الخاتم على الدين كله يومًا من الأيام، قــال الله تعالى: **﴿ هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ﴾** (الصف: ٩). وقد أمر الله نبيه ﷺ والمؤمنين أن يقيموا هذا الشرع، أي يجعلوه قائمًا، دائمًا مستمرًّا محفوظًا مستقرًّا قال الله تعالى: **﴿شَرَعَ لَكُم مِّنَ الدِّينِ مَا وَصَّىٰ بِهِ نُوحًا وَالَّذِي أَوْحَيْنَا إِلَيْكَ وَمَا وَصَّيْنَا بِهِ إِبْرَاهِيمَ وَمُوسَىٰ وَعِيسَىٰ أَنْ أَقِيمُوا الدِّينَ وَلا تَتَفَرَّقُوا فِيهِ كَبُرَ عَلَى الْمُشْرِكِينَ مَا تَدْعُوهُمْ إِلَيْهِ اللَّهُ يَجْتَبِي إِلَيْهِ مَن يَشَاءُ وَيَهْدِي إِلَيْهِ مَن يُنِيبُ﴾** (الشورى: ١٣).

إن التــمكين لدين الله هو الهــدف الأكـبـر لكل مـفـردات العــمل من أجل الإسلام.

الدعوة بكل مراحلها وأهدافها ووسائلها.

والحركة، وكل ما يتصل بها من جهود وأعمال.

والتنظيم، وما يستهدفه في الدعوة والحركة.

والتربية بكل أنواعها وأهدافها ووسائلها.

وعلى العاملين لدين الله أن يبـينوا لجماهير الأمــة العريضة أهميــة تحقيق هذا الهدف النبيل[١] .

إن النبي ﷺ سار بخطوات ثابتة نحو تحقيق الأهداف، فكانت مسيرته تسير جنبًا إلى جنب في بناء العقيــدة وتطهير النفوس من أمراضها، وتربيــتها بالأخلاق الفاضلــة مع الاهتمام بالجــوانب الحركـية، والتــخطيطية والسـياسيـة والإعلامـية والجهادية وبناء دولة تحكم شرع الله تعالى وتسعى لتمكين دينه، فمنذ دخوله المدينة شرع ﷺ لتـحقيــق الأهداف التي هاجر من أجلها، ولــذلك رأى من الضروري

(١) انظر: فقه المسئولية ، د. علي عبد الحليم ، ص٣٥٨ .

واللازم إنشاء " دولة إسلامية " على قواعد متينة وأسس راسخة فكانت أولى خطواته المباركة، بناء المسجد الجامع ثم أصدر الوثيقة للمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار والمعاهدة مع اليهود، ولم يمض الوقت طويلاً حتى شكل جيشًا إسلاميًّا مجاهدًا لحماية الدولة والسعي على تحقيق أهدافها، لقد قدّر رسول الله ﷺ ظرفه وزمانه ومكانه واستطاع أن يقود أصحابه نحو التمكين معتمدًا على الله تعالى وشارعًا في الأخذ بالأسباب الأمنية، والتربوية، والسياسية، والإعلامية والاقتصادية، والعسكرية وترك لنا معالم نيّرة في مغازيه الميمونة، ودروسًا عظيمة في كيفية تحقيق النصر على الأعداء والتمكين لدين الله تعالى، فبدأ بالسرايا، فحققت أهدافها، ومضى يحاصر قوى البغي والكفر والضلال حتى فتحت مكة ومن ثم وحدت جزيرة العرب وأثناء ذلك كان يوجه الضربات المحكمة إلى الوثنية في كل مكان وإلى اليهود الذين نقضوا العهود وإلى ملوك الأرض بدعوتهم للإسلام، وتم الفتح الأكبر بفتح مكة الذي ترتبت عليه نتائج من أهمها:

١- دخول مكة تحت نفوذ المسلمين وزوال دولة الكفر وانطلقت كتائب الإسلام بعد ذلك لتحطيم بعض الجيوش في حنين والطائف، ومن ثم إلى العالم أجمع.

٢- تطهير الكعبة من الأصنام وإنهاء الوثنية في مكة بعد أن دمرت أصنام القلوب وأصلحت العقائد الفاسدة والتصورات المنحرفة.

٣- استخدم النبي ﷺ أسلوب العفو عند المقدرة فأعلن العفو العام وأحسن إلى أهل مكة مما كان سببًا في دخول كثير من زعمائهم الإسلام وتمكن الإيمان من قلوبهم من أمثال عكرمة بن أبي جهل، وصفوان بن أمية.

٤- أصبح المسلمون قوة عظمى في جزيرة العرب: وبعد فتح مكة، وتحقق أمنية الرسول ﷺ بدخول قريش في الإسلام، برزت قوة كبرى في الجزيرة العربية لا يستطيع أي تجمع قبلي الوقوف في وجهها وهي مؤهلة لتوحيد العرب

تحت راية الإســلام ثم الانطلاق إلى الأقـطار المجـاورة، لإزالة حكومـات الظلم والطغيـان، وتأمين الحرية لخلق الله كي يدخلوا في دين الله، ويعبـدوه وحده من دون سواه[١].

٥- تمكين الله للمؤمنين الصادقين بعدما ضحوا بالغالي والنفيس وحققوا شروط التمكين وأخذوا بأسبابه ولا ننسى تلك الصورة الرائعة وهي وقوف بلال فوق الكعبة مؤذنًا للصلاة بعـد أن عذب في بطحاء مكة وهو يردد أحد أحـد في أغلاله وحديده ويجرونه الصبيان هاهو اليوم قد صعـد فوق الكعبة ويرفع صوته الجميل بالأذان وهو في نشوة الإيمان، لقـد قام النبي ﷺ بتبليغ الأمانة، وأداء الرسـالة ولحق بالرفيق الأعلى فجزاه الله عنا وعن الإسـلام خير الجزاء ، وجاء الخلفـاء الراشدون رضوان الله عليهم، فتـسلموا الراية، وساروا والمسلمون معهم على درب نـبيهم ﷺ ، ما غيروا وما بدلوا، بل ثبتوا على دينهم واندفعـوا في مشارق الأرض ومغاربها يبلغون دعوة الله إلى البشرية، فهدى الله بهم من شاء من عبادة العباد إلى عبادة رب العباد، ومن ضيق الدنيا إلى سعتها، ومن ظلم الأديان إلى عدل الإسلام.

وكانت فـترة الخلافة الراشـدة التي ما تجاوزت ثلاثين عامًـا قصيرة في عـمر الزمن ولكنها في مـيزان القيم أثقل من عـمر إمبراطورية ظلت قـائمة في الأرض عشرة قرون ، فقـد كانت تلك السنوات القصيرة أعلى قمم صعـدتها البشرية في تاريخها كله[٢].

وكـان التمكين في هذه المـرحلة في ذروته التي لم تصل إليـها الأمـة في أي وقت آخر. كـما كان شاملاً، فـكان يشمل تمكين الدين والشعائر، وكـان يشمل تمكين الدنيا، والسيادة الإسلامية برًا وبحرًا، سياسيًا، واقتصاديًا، وعلميًا . . .

ولقد سعدت الأمة الإسـلامية ردحًا كبيرًا من الزمان وفـتح الله عليها بركات السماء والأرض.

---

(١) انظر: قيادة الرسول السياسية والعسكرية ، ص١٢٩ .

(٢) انظر: حول التفسير الإسلامي للتاريخ ، ص٢١٨ .

وانتهت الخلافة الراشدة بتنازل الإمام الحسن بن علي عن الخلافة لمعاوية بن أبي سفيان - رضي الله عن الجميع - عام ٤١ هـ. وبدأت في تاريخ الأمة الإسلامية مرحلة جديدة.

وفي هذه المرحلة لم تستقر حياة الأمة الإسلامية في كل جوانبها - على الأفق الأعلى الذي كان وقت حياة الرسول ﷺ ، وخلفائه الراشدين، ولكنها ظلت مع ذلك عالية بالنسبة لكل ما عرفته الأرض من نظم وقيم وحضارات[١] " فليس صحيحًا ما اندس في أوهام الكثيرين من أن الإسلام قد انتهى بعد فترة الرسول ﷺ ، والخلفاء الراشدين. الصحيح - فقط - أن الفترة المثالية قد انتهت وبدأت فترة عادية من تاريخ الإسلام "[٢].

ومع بداية الحكم الأموي، بدأت مرحلة الملك العضوض، بنظامه الوراثي، ومظالمه، وبدأ أول كسر في المبادئ الإسلامية في سياسة الحكم، وسياسة المال، .. رافق ذلك التخلي التدريجي من مجموع الأمة عن مراقبة أعمال الحكام، وانصرافها التدريجي إلى أمورها الخاصة[٣].

وعلى الرغم من هذا فقد كان حجم الانحراف على عهد الأمويين محدودًا على أي حال، وإن بدا مجسمًا غليظًا حين يقاس بعهد الذروة (العهد النبوي، والخلافة الراشدة) الذي يبدو كل شيء صغير حين يقاس إليه. فقد كانت الأمة على عقيدتها الصحيحة، وأخلاقها المتينة، فاتسعت الفتوحات الإسلامية حتى وصل المسلمون إلى أبواب القسطنطينية، وامتدت دعوة الإسلام إلى الهند شرقًا، وإلى الشمال الإفريقي غربًا وقويت دولة الإسلام، حتى غدت قوة يرهبها أعداؤها، ويعملون لها ألف حساب[٤].

---

(١) انظر: هل نحن مسلمون ؟ لمحمد قطب ، ص١٠٠ .

(٢) المصدر نفسه ، ص١٠١ .

(٣) انظر: واقعنا المعاصر لمحمد قطب ، ص١١٧ وما بعدها.

(٤) المصدر نفسه ، ص١٢٤ .

ثم جاء العباسيون، وركبوا الخط الذي بدأه الأمويون، وزادت فجوة الانحراف في عهدهم، وأضيف إليها انحرافات من نوع جديد، فقد بقي الملك الوراثي العضوض، وزادت سوأته حين جعلوه بالدور - ولو جاء الدور على صبي لا يتجاوز الثانية عشرة - مما أثّر على قوة الدولة الإسلامية، فضلاً عما جرى من المؤامرات الرهيبة من أجل تولي الملك. ووصل العنف السياسي مداه حتى وصل إلى مذابح بشعة لا يتصور حصولها من مسلمين، وأما السرف في بيت المال، فلقد كان الخليفة العباسي لا يجد حرجًا أن يعطي الشاعر لقاء أبيات في مدحه مائة ألف من بيت مال المسلمين. هذا غير صور الانحرافات الأخرى التي ليس هذا مجال حصرها، وأما مجموع الأمة فقد صارت ترى هذا العبث ولا تحرك ساكنًا[١].

وكان طبيعيًّا أن تنهار الدولة العباسية من وطأة هذه الانحرافات مجتمعة، وجاء الانهيار تحقيقًا لسنن الله تعالى في الحياة البشرية. ودخل التتار بغداد عاصمة الخلافة الإسلامية عام ٦٥٦هـ، فذبحوا الخليفة المعتصم، وذبحوا المسلمين، وأحرقوا كتب العلم التي كانت تعمر بها بغداد، وألقي معظمها في نهر دجلة، وكانت تضم أعظم تراث العالم في ماضيه وفي حاضره[٢].

وقد أجمع المؤرخون على أن السبب في هذه النكبة هو الغفلة والترف، والاستهانة بتعاليم الإسلام. وصدق الله العظيم إذ يقول: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ (سورة هود، الآية: ١١٧).

وانهارت كذلك الدولة الإسلامية في الغرب، حيث استولى الصليبيون على الأندلس، وطردوا المسلمين منها بوحشية بالغة، وانمحى الوجود الإسلامي من تلك البقعة من الأرض التي كانت مركزًا للعلم والحضارة ردحًا كبيرًا من الزمان[٣].

---

(١) المصدر نفسه، ص١٢٤.

(٢) البداية والنهاية (٧/ ١٨٣).

(٣) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٣٨.

وعلى الرغم من انهيار الدولة العباسية، إلا أن الأمة الإسلامية كانت ما زالت بخير كثير على الرغم من كل عناصر الفساد التي تسربت خلال الحكم العباسي، ولم يكن انهيار الدولة العباسية هو نهاية الأمة الإسلامية، فقد برزت إلى الوجود دولة إسلامية جديدة، فتية، وهي الدولة العثمانية، والتي بقيت ممكنة في الأرض زهاء خمسة قرون استطاعت خلالها أن تحفظ كيان المسلمين وأن تحميهم من غارات الصليبيين المتتالية، بل وتوغلت في أوربا الصليبية، وفتحت للإسلام أراضي وقلوبًا، فدخل الناس في الإسلام بعشرات الملايين، كما منعوا قيام الدولة اليهودية على أرض الإسلام . . وغير ذلك الكثير.

ولكن هذا وغيره لا ينفي وجود انحرافات كثيرة، سواء في الدولة، أو في حياة الأمة في ظل الدولة، وقد أتت هذه الانحرافات ثمارها السيئة على مدى الأيام(١).

- فكانت هذه أول دولة للخلافة لم تستعرب.

- وكان الوالي في آخر عهد الدولة العثمانية على أي قطر يتولى لفترة محدودة ثم يعزل، فكان يجعل من فترة ولايته فرصة لجمع ثروة من المال تكفيه مدى الحياة.

- وأصاب الدولة العثمانية في آخر أيامها الجمود والتخلف في أرجائها.

- وتسلل الأعداء إلى كيان الدولة وشرعوا في نخرها، ودخلت الأيدي الأجنبية وكان بدايتها المشئومة في عهد السلطان سليم، والذي اشتهر باسم: سليمان القانوني(٢).

وأما الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، فقد كانت الأمة قد تخلت عنه بالنسبة لحكامها منذ زمن بعيد، ولم يكن من المتوقع أن تعود إليه في الجو العسكري الذي قامت فيه الدولة العثمانية.

---

(١) المصدر نفسه، ص٩٠٨.

(٢) تولى الحكم من سنة ١٥٢٠م إلى ١٥٦٦م.

- وانشغل المسلمون عــن دينهم الصحيح ببدع، وخرافـات، ومعاصٍ، وران عليهم جو التواكل والقعود عن الأخذ بالأسباب.

ولكن على الرغم من ذلك لم يكن الإسلام ذاته في نفوسهم موضع نقاش لا بوصفه عقيــدة، ولا بوصفه منهجًا للحكم؛ بل ظل حيًّا محفــوظًا من التحريف والتبــديل. وظلت مشـاعل الإصلاح مـتسلسلة، بعـضهـا من بعض لا تطفئـها العواصف[1].

ودخل العالم مرحلة جديدة من تاريخه مع بداية القـرن السابع عشر الميلادي حيث شن الغرب النصراني حروبه على أنحاء الأمة الإسلامية. وقد سماها بعض الباحثين: " الحملات الصليبية الأخيرة "[2].

وفي هذه المرة كان الموقف قد تغير كثيـرًا عن ذي قبل، فقد انحرف المسلمون انحرافًا شديدًا عن حقيقة الإسلام، سواء في التصور أو السلوك. وفسدت المفاهيم لدى الأمة الإسلامية:

- ففسد مفهوم العقيــدة، وانحصر في مجرد النطق بالشهادتين دون النظر إلى العمل، وتبع ذلك: التواكل المقيت، والسلبية، والوهن، والعجز.

- وفسد مفهوم العبادة الشامل، فانحصر في شعائر التعبد المحدودة.

- وفـسد كـذلك مفـهوم العـمل الصالح، فـانحصـر في مجـرد الركعـات والتسبيحات، والأوراد.

- وتخلف المسلمون كـثيرًا في مـجالات الحيـاة، بعد أن عجـزوا عن الأخذ بأسباب التقدم.

- كما تقطعت أواصر الإخاء بين الأمة الإسلامـية، فضعفت قوتهم، وذهبت هيبتهم[3].

---

(١) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٥٢.

(٢) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص١٩.

(٣) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٥٢.

وقد ظلت هذه العوامل الرهيـبة، وغيرها تساور العـالم الإسلامي، وتهدده، وتسلل إلى قواعده في إصـرار، ووراءها جميع قوى العالـم الجاهلي، ولكنها لم تبلغ أن تحطمــه من أساسه. ولكنهـا مع تطاول الزمان، ومع التـجمع والتـرصد واستمرار ذلك ظلت تنتقص منه شيئًـا فشيئًا، وتنحرف به عن أصوله رويدًا حتى أثخنته فعلاً، وهددته تهديدًا خطيرًا[١].

لقد تجمعـت انحرافات القرون الطويلة، وتفاعلت بعضـها مع بعض، فأدت في النهاية إلى زوال التمكين عن الأمـة الإسلامية، وانهيارها من الذروة الـسامقة إلى الهوة السحيقة[٢].

وحين جاءت الحروب الصليـبية الأخيرة، والمسلـمون على هذا الوضع، كان الاحتمال الأكـبر أن ينهاروا، ويسلموا أنفسهم للضيـاع. وسقط العالم الإسلامي فريسة للاحتلال الأجنبي، وتقطعت أوصاله بين براثن المغيرين.

ولا يعني هذا - بطبـيعة الحـال - أن الأمة قد خـربت، ولا أن الساحـة قد خلت من الأمـر بالمعـروف والنهـي عن المنكر، ولكننا حين نـطلق مـا نطلق من تعمـيمات نقصـد بذلك الصورة الغالبـة، والصورة الغالبـة هي التي تقرر الموقف العملي في الحقيقة، وليست القلة المتميزة مهما يكن لها من تميز، إلا أن يكون في أيديها مقاليد الأمور[٣].

ويحفظ التاريخ للمسلمين كثيـرًا من أدوار البطولة في جهاد المحتلين، لكنها كانت بطولات المنهزم، يضرب آخر ضرباته قبل الاستسلام، فقد كانت العقيدة قد توارت خلف الركام، فكان حقًّا على الناس أن ينتهوا إلى الهزيمة والاستسلام[٤].

نعم حدث هذا وكان لا بـد أن يحدث، لأن المسلمين فقدوا أسبـاب التمكين

---

(١) انظر: هذا الدين لسيد قطب، ص٣٩.

(٢) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٦٢-١٦٣.

(٣) المصدر نفسه، ص١٦٣.

(٤) انظر: واقعنا المعاصر، ص١٠.

في الأرض، فعصفت بهم الرياح الهوجاء، وأزالتهم من مكان الريادة، لتلقي بهم في حضيض التخلف والتبعية ﴿وَمَا ظَلَمُونَا وَلَكِن كَانُوا أَنفُسَهُمْ يَظْلِمُونَ﴾ (سورة الأعراف، آية: ١٦٠) لقد مرت الأمة الإسلامية بثلاث فترات نوعية:

١- فترة التطبيق الفائق للإسلام، وما صاحبها من تمكين فائق.

٢- فترة التطبيق العادي للإسلام، وما صاحبها من التمكين العادي.

٣- فترة الانحسار وتزايد البعد عن حقيقة الإسلام، وما صاحبها من زوال التمكين وغلبة الأعداء[١].

لقد كان لأسباب زوال التمكين عن الأمة عوامل عديدة منها:

١- انحراف كثير من المسلمين عن الفهم الصحيح للإسلام، وانصرافهم عن الدين كعقائد وأعمال إلى ألفاظ ومصطلحات.

٢- إهمال كتاب الله تعالى وسنة رسوله ﷺ، والخروج عن الإسلام في نظام الحياة.

٣- تفرق المسلمين، واحتدام الخلافات السياسية والعصبية، والدينية، في صفوف الأمة الإسلامية.

٤- ضعف القيادة الإسلامية، واستغلال الرياسة لتحقيق الأهواء والمصالح الشخصية بعيداً عن مصلحة الإسلام والمسلمين.

٥- موت روح الجهاد، وضعف أدواته.

٦- التخلي عن الأخذ بأسباب القوة الحسية.

٧- تخلي الأمة الإسلامية عن القيام برسالتها حقَّ القيام من الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله.

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية، ص٢١.

٨- الجمود والتخلي عن الاجتهاد.

٩- إهمال العلوم العلمية النافعة، والانشغال بفلسفات عقيمة، وعلوم سقيمة.

١٠- انتشار الأدواء الخلقية والاجتماعية.

١١- تصدع بناء الفرد المسلم، والبيت المسلم، والمجتمع المسلم[١].

وهكذا صارت الأمة بعد أن زال عنها التمكين إلى الأزمة الحالية، والتي لا شبيه لها على مدار التاريخ، وهي أزمة لا يستطيع القلم أن يصفها، أو يحدد معالمها وإنما ينطق به واقع الأمة المرير.

* ■ *

---

(١) انظر: مجموعة الرسائل، ص١٣١، ١٣٢ ومجلة الوعي الكويتية عدد ربيع الآخر ١٤١٤هـ بتصرف

المبحث الخامس
الحركات الإسلامية ودورها في العودة إلى التمكين

بدأت بشائر العودة إلى التمكين ومظاهره مع الحركات الإسلامية منذ القرنين الماضيين وتوارثت الأجيال الحاضرة تلك التجارب التي تركت لنا معالم في فقه التمكين ومن أهم هذه الحركات:

أولاً: حركة الشيخ محمد بن عبد الوهاب :

ولد الشيخ محمد بن عبد الوهاب بن سليمان بن علي بن محمد بن أحمد بن راشد التميمي سنة ١١١٥هـ، ١٧٠٣م في بلدة العينية الواقعة شمال الرياض بينها وبين الرياض مسيرة سبعين كيلومترًا، أو ما يقارب ذلك من جهة الغرب[١].

ونشأ على حب العلم، فطلبه منذ صغره وظهر منه نبوغًا وتميزًا، فحفظ القرآن الكريم ودرس الفقه الحنبلي والتفسير والحديث، وتتلمذ على كتب ابن تيمية في الفقه والعقائد والرأي وأعجب بها أيما إعجاب وتأثر بكتب ابن القيم، وابن عروة الحنبلي وغيرهم من فحول هذا المنهل السلفي[٢].

ورحل في طلب العلم إلى مكة، والمدينة، والبصرة، والأحساء. وتعرض لفتن عديدة عندما جاهر بآرائه في العراق ثم رجع بعد ذلك إلى نجد.

أ- إعلان دعوته:

وعندما رجع إلى حريملاء ببلاد نجد بدأ بدعوته بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والاشتغال بالعلم والتعليم، والدعوة إلى عقيدة التوحيد الصافية، وحذر من الشرك ومخاطره وأنواعه وأشكاله وتعرض لمحاولة اغتيال من بعض السفهاء في حريملاء وانتقل بعد ذلك إلى بلدته العينية وتلقاه أميرها بالترحيب وشجعه على

---

(١) انظر: إمام التوحيد الشيخ محمد عبد الوهاب، أحمد القطان، ص٣٥ .

(٢) المصدر نفسه، ص٣٦ .

أمر الدعوة، فأقام الشرع ونفذ الحدود، وهدم القباب ولم يستمر في حريملاء طويلاً بسبب ضغط أمير الأحساء على أمير حريملاء لقتل الشيخ محمد بن عبد الوهاب، فخرج ماشيًا على الأقدام إلى الدرعية.

ب- تحالفه مع محمد بن سعود:

استطاع محمد بن عبد الوهاب أن يتحالف مع الأمير محمد بن سعود الذي قدم ماله ورجاله من أجل دعوة التوحيد، وكان هذا التحالف على أسس متينة واستطاع الشيخ أن يواصل دعوته للناس بالتعليم والرسائل والوعظ واستمر على هذا الحال يعلم الناس ويكتب الرسائل ويدبجها بالحجج والبراهين والأدلة على صحة دعواه، يدعو إلى إزالة المنكر وهدم قباب القبور، وسد ذرائع الشرك، وتحقيق العبودية لله وحده[1] وظلت الدعوة مسالمة متأنية، تطرق القلوب برفق وأناة، وتدعو إلى الله بالحكمة والموعظة الحسنة، واستمر يعلم من يحضر دروسه ويوضح عقيدته، ويشرح مبادئ دعوته للقاصي والداني، ولكنه رأى أن اللين يقابل بالشدة، وأن الصدق يقابل بالكذب، والموعظة الحسنة، يرد عليها بالمؤامرات، فلم يكن بد من دخول مرحلة الجهاد وتغيير المنكر بالقوة.

إذا لم يكن إلا الأسنة مركبًا فما حيلة المضطر إلا ركوبها[2]

وبدأ الشيخ يعاونه الأمير محمد بن سعود بإعداد العدة من الرجال والسلاح للخروج بجموع المجاهدين من الدرعية إلى خارج حدودها لنشر الدعوة وتثبيت أركانها في الجزيرة وخارجها، وكان الشيخ يشرف بنفسه على إعداد الرجال، وتجهيز الجيوش وبعث السرايا، ويستمر مع ذلك على الدرس والتدريس، ومكاتبة الناس، واستقبال الضيوف، وتوديع الوفود، فقد جمع الله له العلم والجاه، والعزة والتمكن بعد جهاد طويل[3] وقد كان له نظر سياسي ثاقب، وخبرة واسعة

---

(١) انظر: إمام التوحيد الشيخ محمد بن عبد الوهاب ، ص٤٥، ٤٦ .

(٢) انظر: استمرارية الدعوة ، محمد السيد الوكيل (٣/ ٢٩٣).

(٣) انظر: إمام التوحيد محمد بن عبد الوهاب ، ص٥٣ .

في أمور الحرب والسيـاسة ومما يذكر أنه كان يشرف بنفسـه على إعداد المجاهدين وتحضير الكتائب وتسيير المقاتلين(١).

واستـمرت الحروب بين أنصـار الدعوة وأعدائهـا سنين عديدة، وكـان النصر حليف أصحاب الدعوة في أغلب المواقف وكانت القرى تسقط واحدة تلو الأخرى وفي عام ١١٧٨هـ - ١٧٧٣م فتحت الرياض بقيادة الأميـر عبد العزيز بن محمد ابن سعود، وفر منها حاكمها السـابق دهام بن دواس، وكان حاكمًا ظالمًا غشومًا، اعتـدى على الدعاة مرارًا، ونـقض العهود التي أبرمـها مع القائـمين على الدعوة وبعد فـتح الرياض اتسعت رقـعة الأرض التي تخضع للـدعوة، ودخل كثـير من الناس في الدعـوة مخـتارين، فـقد أزيلت الـعوائق التي كـانت تصدهم عنهـا، وانفرجت الأمور بعض ضيق، وجاء اليسـر بعد العسر، وكثرت الأموال، وهدأت الأحوال، وأمن الناس في ظل الدولة الإسلامية الفتية، التي حرم الناس من نعمة الأمن والاستقرار مدة غيابها(٢).

لقد أخـذ الشيخ مـحمـد بن عبـد الوهاب بالسنن لتمكين دين الله تـعالى، فنلاحظ في دعوته أخذه بشروط التمكين ودعـوة الناس وتربيتهم عليها من الإيمان بالله، والعمل الصـالح، وتحقيق الـعبودية ومـحاربة الشرك، وتقـوى الله تعالى، وأخذه بأسباب التمكين ويظهر حرصه عـلى الأخذ بالأسباب في تحالفه مع الأمير محمـد بن سعود الذي وظف جيشه، وحـكومته وماله وسلاحه، ورجـاله لخدمة الدعوة، ومرت الدعـوة بالمراحل الطبيعيـة من التعريف بها وإعـداد من يحملها، ومغالبة أعـدائها والتمكين لها، ومرّ الشيخ بسنة الابـتلاء، ومارس سنة التدرج، وشرع في الأخذ بسنة تغـيير النفوس، واستخـدم سنة التدافع بين الحق والباطل، ولم يترك سنة الأخذ بالأسباب، وهذا كله يدخل تحت فـقه التمكين الذي مارسه الشيخ محمد بن عبد الوهاب رحمه الله.

---

(١) المصدر السابق نفسه، ص٧٨.

(٢) انظر: استمرارية الدعوة، د. محمد الوكيل (٣/ ٢٩٤).

ثانيًا - حركة الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي:

هو أحمد بن عبد الأحد بن زين العابدين السرهندي يتصل نسبه إلى سيدنا عمر بن الخطاب رضي الله عنه ولد ليلة الجمعة ١٤ شوال ٩٧١هـ - ١٥٦٣م بمدينة سرهند ببلاد الهند، وسماه والده " شيخ أحمد "، ونشأ الإمام السرهندي في بيئة متضاربة فكريًّا، متعارضة عقديًّا، مضطربة خلقيًّا، فقد ترعرع في عهد الإمبراطور جلال الدين محمد أكبر، من أباطرة آل تيمور المغوليين الذي انحرف عن الإسلام والذي سيطرت عليه فكرة حلول الألف الثاني من عمر الإسلام، وقد تأثر بدعوة بعض الفلاسفة المارقين عن الإسلام بقولهم إن عمر الإسلام الطبيعي ألف عام، أما وقد انقطعت، وبدأ الألف الثاني، فإن الدنيا في حاجة إلى عهد جديد تتابع فيه مسيرتها، كما أنها في حاجة ماسة إلى دين جديد يمارس الناس من خلاله حياتهم الدينية، وتشريع جديد ينظم شئونهم ويدبر معاشهم، ويستغنون به عن الدين الذي سلف، وذهابه بذهاب ألف سنة من عمره واستحوذت فكرة الدين الجديد على نفس الملك أكبر وشكل لجان لنشر الدين الجديد ونشرها في نواحي الهند، لقد كان ذلك الدين يحتوي على الشرك بكل أنواعه وأصنافه، فدخلت عبادة الشمس والكواكب بدلاً من التوحيد الخالص، وأبدلت عقيدة البعث والنشور بعقيدة التناسخ، وأحل الدين الجديد الربا والقمار، والخمر والخنزير وأباح الزنا وصدر قانون بتنظيمه وحرم ذبح البقر، وحرم الحجاب . . . إلخ.

وانتشرت النظريات الفلسفية التي كانت تؤمن بأن العقل وحده قادر على إدراك الحقائق الحاضرة منها والغائبة، حتى استغنوا بالعقل عن الرسل والرسالات وكل ما يتعلق بهما.

وفي خضم هذه الاضطرابات وتلك الفوضى، كان الإمام السرهندي قد قارب الثلاثين من عمره، وكان قد تسلح بالعلوم الدينية، وأصول أهل السنة وقد حباه الله - عز وجل - عقلاً راجحًا وفكرًا ثاقبًا وذوقًا مرهفًا، وقلبًا واعيًا،

فاستعمل كل مواهبه لخدمة الإسلام والمسلمين ووقف متحديًا كل هذه الأفكار الضالة، كاشفًا عورات هذه السخافات والبدع والخرافات؛ بل عمل حتى وصل إلى بلاط الملك أكبر في عهد ابنه وتغير الدين الباطل الذي كانت عليه الدولة إلى دين الإسلام الصحيح(١).

منهج الإمام السرهندي للوصول إلى مرحلة التمكين :

١- اهتم بتعليم وتربية مجموعات هائلة من أفراد الأمة وأعدهم إعدادًا تربويًا، علميًا، دعويًا رفيع المستوى ثم أرسلهم إلى القرى والمدن لدعوة الناس.

٢- اهتم بنقد فكر الفلاسفة المنحرف، والصوفية الباطلة من أصحاب وحدة الوجود والحلول والاتحاد وبين الطريق الصحيح لمعرفة الحق، والوصول اليقيني إلى معرفة الإله الواحد من خلال القرآن ومنهج أهل السنة والجماعة.

٣- حارب كل أنواع الشرك ومن أقواله في ذلك : " إن تعظيم مظاهر الشرك وأعياد الجاهلية من أعظم أنواع الشرك بالله - عز وجل - وإن من يعتقد بصحة دينين، وصلاحيتهما في وقت واحد، فهو مشرك، وإن من يعمل بأحكام الإسلام وأعمال الكفر والشرك فهو مشرك، ولا يتم الإسلام إلا بالبراءة من الشرك ومحادّته ومعاداته، وإن التوحيد هو الاشمئزاز والتصور من كل شائبة من شوائب الشرك "(٢).

٤- اهتم بالدعوة إلى التوحيد الخالص، وخلود رسالة محمد ﷺ ، ودعم وحدة المسلمين وإعادتهم إلى حظيرة الإسلام، وكان سببًا في حماية المسلمين في بلاد الهند من ردة محققة.

٥- قاوم المد الشيعي الذي اخترق البلاط الملكي في عهد نور الدين جهانكير ابن الملك أكبر ورفع راية أهل السنة جهارًا نهارًا، بل استطاع أن يصل إلى معسكر الملك وبلاطه بواسطة تلميذه بديع الدين السهارنبوري.

---

(١) استمرارية الدعوة والدعاة (٣/ ٢٠٥، ٢٠٦، ٢٠٧).

(٢) انظر: رجال الفكر والدعوة للندوي (٣/ ٢٢٦).

٦- اهتم بالأمراء الذين ظهر منهم تدينًا، وفيهم شهامة وحبًا للخير، فهذا الأمير خان جهان وكان الملك جهانكير يحبه حبًا جمًا، ويعتمد عليه في كثير من شئون الدولة كتب إليه السرهندي يحثه على نصرة دين الله فيقول له: " لو جمعتم بين ما تتبوأن من منصب كبير، وبين العمل على الشريعة الإسلامية، لأديتم أمانة الأنبياء - عليهم الصلوات والتسليمات وأوضحتم الدين المتين وأضأتموه وعممتموه، ولو جهدنا - نحن الفقراء - أنفسنا أعوامًا طوالاً لما لحقنا بغبار أمثالكم من صقور الإسلام.

ألا نفوس أبيّات لها همم أما على الخير أنصار وأعوان[1]

وكانت لرسائله أثرًا طيبًا في التأثير على القادة والأمراء والتفافهم حول القرآن والسنة.

٧- استطاع الإمام السرهندي بعد جهاد مرير، وبلاء عظيم أن يصل إلى الملك نفسه وأصبح من حاشيته ولم يترك جلساء السوء ينفردون به، بل عمل على دعوة قواد الجيش وحاشية الملك إلى الإسلام الصحيح، وتأثروا بالإمام السرهندي لما رأوا فيه من حسن الخلق، وغزارة العلم، وإخلاص للدين، وزهد وورع متين، وحكمة في الدعوة إلى الله، ولقد تعاون أولئك القادة مع الإمام السرهندي من أجل التمكين لدين الله وما هي إلا فترة وجيزة حتى أزيل دين الملك أكبر، الذي فرضه على الرعية، وأعيد للإسلام مكانته الرفيعة[2].

لقد تأثر الملك جهانكير بمبادئ الإمام السرهندي وأقواله، فاستبدل الإلحاد بالإيمان، وأحل الإسلام محل الزندقة، وجاهر بذلك على رءوس الملأ من قومه.

لقد أظهر الملك شعائر الإسلام ورفع أحكامه، وأعز أهله وبكى كثيرًا على سابق تفريطه.

---

(١) انظر: استمرارية الدعوة (٣/ ٢٥٥).

(٢) المصدر نفسه (٣/ ٢٥٠).

إن الإمام السرهندي مدرسة مهمة في فقه التمكين وله منهجية رائعة في أساليب الدعوة حققت نتائج عظيمة للمسلمين في الهند.

إن الاقتراب من رجال الدولة والملوك والأمراء من أجل دعوتهم إلى الإسلام وتمكين دينه قام به العلماء والدعاة من أمثال الإمام السرهندي وحققت نتائج طيبة في نصرة دين الله.

ثالثًا: الحركة الإسلامية في السودان:

إن ما قام به المسلمون في السودان من أروع تجارب التمكين المعاصرة، حيث استطاعت الحركة هناك بعد توفيق الله أن تمر بمراحل التمكين من تعريف المجتمع السوداني حقيقة الدعوة، واختيار عناصر لتحملها، إن وصول الإسلاميين في الحكم لم يأت من فراغ، وإنما جاء بعد كفاح مرير، وجهاد مشكور، وإعداد تربوي، وفكري، ودعوي ومعنوي ومادي، وأخذ بسنن التمكين، وفهم المعادلة المحلية، والإقليمية والدولية، وإعداد الكوادر التربوية، والسياسية، والإعلامية، والاقتصادية، والاجتماعية، والأمنية، والعسكرية ... إلخ، ودخلت في المجال السياسي، والاجتماعي، والثقافي، والتعليمي، والاقتصادي وجهزت كوادر في كافة مجالات الدعوة، والحركة والتغيير ودخلت المعترك السياسي في الستينات، وتعرضت لمحن ترتب عليها دخول زعمائها للسجن، واضطر بعضهم للهجرة، واستشهد آخرون ووسعت المعارضة للحكم تحت واجهة جبهة الميثاق الإسلامي بقيادة الترابي.

وفي عام ١٩٧٧م تصالح نظام النميري مع جبهة الميثاق واستفادت الحركة من هذه الفرصة التي كانت بسبب التواجد الشعبي والرصيد القومي، وكوادر الحركة المنتظمة مما جعل حكومة النميري تضطر لمصالحتهم والاعتراف بقوتهم، فتصالح الاتجاه الإسلامي مع النظام العسكري واحتل قادة الحركة الإسلامية مناصب ومراكز قيادية في حزب الاتحاد الاشتراكي السوداني، وتقلدوا عددًا من الوزارات وكانت هذه التجربة متميزة وحققت للحركة الإسلامية بعض الإيجابيات من أهمها:

١ - تدريب عناصر وكوادر الحركـة على قيادة بعض الوزارات ومعرفة حـقيقة الدولة عن قريب، ومعرفة مواضع الضعف والقوة بطريق التجربة.

٢ - معرفة قوة الحركة الحقيقية وهل لها القدرة على إدارة الدولة وحدها أم لا بد من الإعداد والسعي من أجل إكـمال النقص والقصور الذي يظهـر للقيادة من خلال الممارسة الميدانية.

٣ - دحض شبهات العلمانيين القائلة بأن الإسـلاميين لا يستطيعون أن يقودوا الوزارات وبالتالي فهم أعجز الحركات في إدارة دفة الدولة.

٤ - التأثيـر على الوزراء وكبـار رجال الدولة بالاحـتكاك والمخالطة والمناقـشة والحوار وتبـادل الآراء وضرب أروع الأمثلة في الأمانـة والعفة والصدق والمراقـبة والدقة والتخطيط والإدارة .. إلخ.

٥ - إزالة الحاجـز النفسي الذي كـان يفصل بين الحـركة ومعـارضيـها وذلك بإعطاء فرصـة للخصـوم لتكوين فكرة سليمـة عن الحركـة، وإزالة المخاوف التي كانت في أذهان بعض المخلصين من الوطنيين، لقد اقتنعوا باعتدال الحركة وتحركها المسئول الواعي، واحـترامها للرأي الآخر، إذ أظهرت مـرونة وقدرة على التنسيق والحوار مع الأحزاب والحكومة والشخصيات السياسية وبذلك أزيل الحاجز النفسي الذي كان يفصل بين الحركة والآخرين.

٦ - طرحت أفكارها ومـواقفـها الإسـلامـية في الأحـداث الدولية ودفـعت الحكومة إلى الالتزام بها.

٧ - اهتمت بدعم القضايا الإسلامية، مثل قضية فلسطين وغيرها.

٨ - خفـضت من حدة التوتر بين النظام وبين الإسـلاميين وأضاعت الفـرصة على أعـداء الحركة وأعـداء السودان الذين أرادوا أن يسـتمـر الصراع بين الحـركة والحكومة.

٩ - واجهت الفساد الإداري والمالي ، ودعمت السلك القضائي ووقفت معه من أجل العدل وإعادة الحقوق إلى أصحابها .

١٠ - أضافت للدعوة منابر أخرى ونشرت من خلالها فكرها ودعوتها وساهمت في تقوية الرأي الإسلامي في الشارع السوداني وغير ذلك من النتائج الإيجابية .

حاول النميري أن ينفرد بالسلطة في آخر عصره وأودع قادة الحركة الإسلامية في السجون إلا أن جهوده فشلت وتحالف الجيش مع الشعب وأسقط نظام النميري وجاء سوار الذهب كمرحلة انتقالية ، ثم سلم البلاد إلى عصر الأحزاب التي تكالبت على امتصاص خيرات الشعب السوداني وساءت أحوال البلاد ، وانهارت الديمقراطية وسعت الأطراف المختلفة للاستيلاء على الحكم وتسابق الإسلاميون العسكريون مع بقية التنظيمات داخل القوات المسلحة واستطاعوا أن يصلوا إلى الحكم وتحالفوا مع الحركة الإسلامية التي اهتمت بدعوة الجيش كشريحة من شرائح المجتمع إلى الإسلام ، وكان اهتمام الحركة بالجيش في السبعينات وما تلاها وامتد التواجد الدعوي للحركة الإسلامية إلى قطاعات واسعة من الجيش ، بحيث تمكنت فيما بعد من تغيير الواقع بأقل الخسائر الممكنة ، وأخف المجهودات المبذولة ، موفرة الدماء والاقتصاد ومحافظة على الوحدة بين أبناء الشعب السوداني .

شبهة والرد عليها :

رأى بعض الدعاة أن مسلك الانقلاب العسكري غير صحيح للوصول لمرحلة التمكين وقالوا : " إن فكرة الانقلاب العسكري فكرة غربية ؛ بل وأمريكية خالصة ، فعندما تسلمت أمريكا قيادة العالم الغربي وجدت إنكلترا وفرنسا متحكمة في البلاد التي كانت تخضع لها عن طريق حفنة من أهل البلاد . . . أهلتها فرنسا وإنجلترا للحكم باسمها بعد خروجها . فلم يكن أمام الأمريكان طريق إلا الانقلاب العسكري الذي ينقض على كل المكتسبات كالدستور ، والبرلمان

فيلغيها . . ويلقي بالحفنة التي سلمتها القوى الغربية الأخرى مقاليد السلطة فيسحقها أو يزج بها في السجن . . . "[١].

" الانقلاب العسكري معناه فرض اتجاه معين، ورأي معين أو شخص معين بل وإرهاب الشعب وليس تربيته، وإجباره بقوة السلاح لا بقوة الحجة، وتكون الغلبة لحجة القوة، لا لقوة الحجة والمنطق والإقناع، والكلمة الأخيرة للأقوى، لا للأتقى والأعلم، وللأحمق لا للأصلح . . "[٢].

إن الشعوب الإسلامية لو ترك لها حق الخيار لاختارت الإسلام، فإذا كانت الأحزاب العلمانية تصر على مصادرة الحريات، ومنع الشريعة أن تسود وتحكم المسلمين واستطاعت مجموعة من الأخيار المسلمين أن تنزع الحكم من الأحزاب العلمانية وتطبق شرع الله يكون سعيها ذاك جهاد في سبيل الله تعالى، كيف لا وهم قد أزاحوا عن الأمة حكم الأحزاب العلمانية، والدساتير الوضعية، والقوانين البشرية وخلّصوا أمتهم من الظلم البشري والغطرسة الكفرية، وأعانوهم على تحكيم شرع ربهم، لقد تكلم العلماء في كتب السياسة الشرعية وغيرها عن: انعقاد الإمامة بالغلبة والقهر، فيما بين المسلمين، فكيف لو انتزع الحكم من العلمانيين؟ ذهب جمهور فقهاء أهل السنة منهم الإمام أحمد بن حنبل، والإمام الشافعي، والنووي، وإمام الحرمين الجويني، وابن خلدون، وبعض علماء الحنفية وغيرهم إلى أن من غلب الناس واستولى على الخلافة بالقهر فإنه يصبح إمامًا تجب طاعته[٣] يقول الإمام أحمد بن حنبل : " ومن غلب عليهم بالسيف حتى صار خليفة، وسمى أمير المؤمنين، فلا يحل لأحد يؤمن بالله واليوم الآخر أن يبيت ولا يراه إمام "[٤].

---

(١) تحديات سياسة تواجه الحركة الإسلامية للطحان ، ص٩٨ .

(٢) التغيير على منهاج النبوة ، جمعة أمين عبد العزيز ، ص٢٩١ .

(٣) انظر : نظام الحكم في الإسلام ، د . عارف خليل أبو عيد ، ص١٢٦ .

(٤) الأحكام السلطانية لأبي يعلى ، ص٤ .

ويقــول الإمام يخــرج عليه من يطلب الملك فــيكون مع هذا قوم ومــع ذاك قوم تكون الجمعة مع من غلب، واحتج بالخبر المروي عن ابن عمر أنه صلى بأهل المدينة زمن الحرة وقال: " نحن مع من غلب "(١) وهذا مذهب الإمام الشــافعي فقد روى البيــهقي بإسناده عن حــرملة قال: سمــعت الشافعي يقــول : " كل من غلب على الخلافة بالسيف حتى يسمى خليفة، ويجمع الناس عليه فهو خليفة "(٢).

وقال الإمام النووي: " أما الطريــق الثالث فهو القهر والاستــيلاء، فإن مات الإمام فتصدى للإمامة من جميع شرائطها من غير استخلاف ولا بيعة وقهر الناس بشوكــته وجنوده انعقدت خــلافته، لينتظم شــمل المسلمين، فإن لم يكن جامــعًا للشرائط بأن كان فاسقًــا أو جاهلاً فوجهان، أصحهمــا انعقادها لما ذكر، وإن كان عاصيًا بفعله "(٣).

إن الذين يعطلون شــرع الله تعــالى، ويمنعون حق الأمــة في الاخــتيــار يجب إزاحتــهم ولو بالقــوة، فإن استطــاعت حركة إســلاميــة في بلد ما أن تزيــح حزبًا علمانيًّا من على سدة الحكم، وعملت على إرجاع الشريعة والدستور الإسلامي ثم أعطت لشعبــها حق الاختيار في مَنْ يشرف عــلى تحكيم شرع الله ومن يقودها إلى العزة والنصر والتــمكين؛ فذلك العمل العظيم يوافق مقاصــد الشرع، وينسجم مع أصول الشريعة ولا يتعارض مع العــقل ولا النقل ولا الفطرة، إن الحركة الإسلامية في السودان استــطاعت أن ترتقي بمؤسساتها حــتى استطاعت أن تدير دولة في هذا الخضم من العداء بين الحق والباطل، فلم يتحرك الجيش بقيادة الإسلاميين للوصول للحكم إلا بالتعــاون مع الحركة الإسلاميــة التي تغلغلت في كافة شــرائح المجتمع السوداني؛ فأحسنت في إعــدادها، وإن كان التقصير من صفــات البشر، وأحسنت اختيارها لوقت التــحرك ، وكان التوفيق الرباني حليفــها، ونحن هنا لا ندعي لها

(١) انظر: الأحكام السلطانية لأبي يعلى نقلاً عن نظام الحكم في الإسلام ، ص١٢٦ .
(٢) انظر: نظام الحكم في الإسلام ، ص١٢٧ .
(٣) روضة الطالبين (١٠/ ٤٦).

الكمال ؛ بل نقـول بأنها وصلت إلى مرحلة من التمكين سَـرَّت المسلمين وأحزنت الدوائر العـالمية المعـادية للإسلام؛ فعـملت على إسـقاطها ولا زالـت ، وأظهرت الحركة كفاءة عالية في الجهاد، ومهـارات رفيعة في الصراع السياسي، وكوادر خيّرة في كافـة المجالات وهي تنتقل يومًـا بعد يوم من الأسـوأ إلى الأحسن، ولا زالت القوى اليـهودية والنصـرانية والعلمـانية تسـعى لإزالة تلك الدويلة الإسلامـية من الوجود ، والله غالب على أمره ولكن أكثر الناس لا يعلمون.

إن التجربة الإسـلامية في السودان حريٌّ بأبناء الأمة، وطلاب العلـم فيها أن يدرسوها دراسة مستوعية ليستخرجوا منها دروس وعبر لطلائع الحركات الإسلامية التي تسعى لتمكين شرع الله في الأرض.

* ■ *

■ الفصل الثاني ■

أهداف التمكين

تمهيد : إن من القضـايا المهمة التي يـجب بحثهـا أهداف التمكين ومقـاصده الأساسية، وإذا رجعنا لنصوص القرآن والسنة نجد أن من أهداف التمكين ما يلي:

١- أن يتمكن المجـتمع المسلم من إقـامة سلطة سـياسيـة تستند على مـبادئ واضحة، وقواعـد بينة وأصول متينة، وتستمد تلك القـواعد والأصول من القرآن الكريم ونظام الحكومة في عصر النبي ﷺ ، والزمن الراشدي حيث ساد القانون الإلهي، والعدل بين الناس والمساواة، ظهـرت مسئولية الحـاكم، والرعية، وطبق نظام الشـورى، وإقامة نـظام الحياة الإسـلاميـة على الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى الله، والجهـاد في سبيله، وإقامة الحـدود. . .إلخ. وقد كان ذلك كله ترجمة عملـية لقوله تعالى: ﴿ **الَّذِينَ إِن مَّكَّنَّاهُمْ فِي الأَرْضِ أَقَامُوا الصَّلاةَ وَآتَوُا الزَّكَاةَ وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ وَلِلَّهِ عَاقِبَةُ الأُمُورِ** ﴾ (الحج: ٤).

كما يقول الدكتور مصطفى السباعي - رحمه الله - " إن الآية الكريمة تصرح بالنتائـج التي تترتب على انتصـار المؤمنين في هذا القتـال المشروع، فـهي ليست استعمار الشـعوب، ولا أكل خيراتها، ولا انتهاب ثرواتهـا، ولا إذلال كرامتها، وإنما هي نتائج لمصلحة الإنسانية، ولفوائد المجتمعات فهي:

١- لنشر السمو الروحي في العالم عن طريق العبادة: ﴿ **أَقَامُوا الصَّلاةَ** ﴾ .

٢- ولنشر العدالة الاجتماعية بين الشعوب عن طريق الزكاة ﴿ **وَآتَوُا الزَّكَاةَ** ﴾ .

٣- ولتحقيق التعاون على خير المجتمع وكرامته ورقيه ﴿ **وَأَمَرُوا بِالْمَعْرُوفِ** ﴾ .

٤- وللتعاون على مكافحة الشر والجريمة والفساد ﴿ **وَنَهَوْا عَنِ الْمُنكَرِ** ﴾ .

تلك هي النتـائج التي تترتب على انتـصار المؤمنين فـي قتالهم أعـداءهم من إقامة دولة إسلامية تعـمل على سمو الروح، وتكافل المجتمع، ورقي الإنسان عن

طريق الخير، ومع انحداره عن طريق الشر، فـأية غاية إنسانية أنبل من هذه الغاية التي شرع من أجلها القتال في الإسلام[١].

ويؤكد هذا الهدف قـوله تعالى: ﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا إِلَىٰ مَا أَنزَلَ اللَّهُ وَإِلَى الرَّسُولِ رَأَيْتَ الْمُنَافِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾ فَكَيْفَ إِذَا أَصَابَتْهُم مُّصِيبَةٌ بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ثُمَّ جَاءُوكَ يَحْلِفُونَ بِاللَّهِ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا إِحْسَانًا وَتَوْفِيقًا﴾ (النساء: ٦٠، ٦١).

فالله سـبحانه وتعـالى يبين هدف تمكين الأمة وغايتـه والذي يتمثل في قـيادة الأمة لنفسها وللبشـرية بكتاب الله تعالى، الذي نهى عن الانحراف عن هذا النهج الرباني إلى تشريع آخـر وهو الطاغوت، هذه هي غاية وجود هذه الأمـة والهدف من إقـامة دولتـهـا، يقول الله تعـالى: ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْكَافِرُونَ﴾ (المائدة: ٤٤)، ﴿ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الظَّالِمُونَ﴾ (المائدة: ٤٥)، ﴿وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ﴾ (المائدة: ٤٧) وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الْأَمْرِ مِنكُمْ فَإِن تَنَازَعْتُمْ فِي شَيْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى اللَّهِ وَالرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا﴾ (النساء: ٥٩). فـهذه الآيات تحكم على من لم يحـكم بما أنزل الله بالكفر والفـسق والظلم، وهي تدل على وجوب إقامة شرع الله في حياة الجماعة المسلمة، وأنه لا طاعة لولاة الأمـور إلا إذا قاموا بهـذه الوظيفة، التي تتـمثل في تطبيق الشـريعة الإسلامية التي أوصى الله تعالى بها والسـنة تقرر أن طاعة ولاة الأمر منصبة على تنفيذ الحكم الشرعي، لقد بين الرسـول ﷺ الأهداف السامية من التمكين وهي تطبيق شريـعة الله، والقضاء على الظلم والانحـراف في الأرض، ونشر الإسلام والدعوة إليه عقيدة ونظامًا، وذلك لأن الشريعة الإسلامية لم تأت لقوم دون قوم، أو مجتمع دون مجتمع، بل جاءت خاتمة لما قبلها من الشرائع، ومخاطب بها كل أفراد البشر من حين بعثة محمد ﷺ إلى أن تنتهي الدنيا[٢].

وفيما يلي مباحث تتناول هذا الهدف وما ينتج عنه من مبادئ وأسس:

---

(١) السيرة النبوية للدكتور مصطفى السباعي، ص١٠٩، ١١٠.

(٢) انظر: نظام الحكم في الإسلام، د. عارف خليل أبو عيد، ص٦٨، ٦٩، ٧٠.

المبحث الأول
إقامة المجتمع المسلم

إن من أهداف التمكين إقامة المجتمع المسلم الذي تتـحقق فيه العبودية الشاملة لله تعالى، ولذلك لا بد من إقامة دولة الإسلام بدعائمـها ودستورها، وقواعدها ومبادئها، ولا بد من إقامة فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، والدعوة إلى مكارم الأخلاق، وتطبـيق الحدود، وتعليم الأمـة ما ينفعـها في الدنيـا والآخرة، وممارسـة قواعـد النظام السـياسي الإسـلامي من الشـورى، والعدالة، والمسـاواة .... إلخ.

أولاً: إقامة دولة الإسلام ودعائمها ودستورها:

إن من الوسائل المهمة في تحقيق العبودية لله تعالى بحيث لا يعبد في الأرض سواه إقامة دولة إسلامية، تحارب الباطل بأشكاله وأنواعه، وتناصر الحق وأتباعه، وللدولة الإسلامـية دعائم مهـمة تقوم عليهـا، ومبادئ تستند لهـا وأهداف تسعى لتحقيقهـا، وقواعد تعمل على ترسيخها، إن السعي لإقامـة دولة إسلامية ينبعث من كون الدولة جزء من تحقيق الإسلام الشامل، ولم تكن هذه الدولة فكرة نظرية مجردة؛ بل كانت واقـعًا عاشه المسلمون فترة طويلة من الزمـان قامت في كنفها حضـارة وانتشر خـلالها الإسلام في شـتى أنحاء العـالم. ورغم أن الدولة مرت بفترات من القوة والضعف ودب الوهن في جسمها فإنها ظلت متمسكة بالأساس الذي قامت عليـه، ولم تتنازل عن الميثاق الذي ربط عـراها وهو الكتاب والسنة. وتبلور من النظرية والتطبيق أسس معـينة ميزت الدولة الإسلامية وجـعلتها نموذجًا حاولت البشرية أن ترتقي إليه من خلال نظمها الإنسانية ولكن هيهات.

أما تلك الدعائم التي قامت عليها الدولة الإسلامية وميزتها عن غيرها فتتمثل فيما يأتي:

القوة والضعف، والسلامة والمرض، ولكنها لم تتنازل أبدًا عن سر بقائها وهو دستورها الوحيد المتمثل في الكتاب والسنة، إن أجيال المسلمين في الماضي البعيد، والحاضر القريب توقن إيقانًا راسخًا بأن هناك ارتباطًا وثيقًا بين دولة الإسلام وعقيدة الإسلام، فقوة الدولة رفعة للعقيدة، وحماية للعقيدة- ومما يدل على عمق الشعور بالارتباط بين الدولة والعقيدة لدى جماهير المسلمين خلال التاريخ الإسلامي أنه - وكما هو موجود بكثرة في كتب الحديث والسير والتاريخ - كان علماء المسلمين وقواد جيوشهم وأفاضل كل عصر، إذا بايعوا الخليفة منذ عهد أبي بكر فمن بعده، يبايعونه على كتاب الله وسنة رسول الله ﷺ، فربطوا البيعة بالكتاب والسنة لتظل الدولة قائمة عليهما، ولتستمد بقاءها ومبرر وجودها من الحفاظ عليهما.

إن دولة الإسلام تمثل بين سائر الدول الدولة الصالحة القائمة على العقيدة والشريعة ولا بد لدولة الصلاح من أن تكون أركانها ودعائمها صالحة كلها، لإصلاح أحد هذه الدعائم يهدد بقيتها ولذلك من أهداف التمكين تحقيق هذه الدعائم المتمثلة في نظام حكم شرعي ورعية صالحة ملتزمة بشرع الله، وحاكم صالح يسهر ويجتهد من أجل تحكيم شرع الله وإليك بيان هذه الدعائم:

أ- نظام الحكم الشرعي: (الحاكمية)

إن النظام الإسلامي في الحكم يرتبط ارتباطًا وثيقًا بالدين وأخلاقه وعقيدته، فالواقع العملي يدل على ذلك، فخاصة المسلمين في كل عصر منذ عهد أبي بكر رضي الله عنه، وطيلة عهود الخلافة كانوا يبايعون الخلفاء والأمراء على كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، ويجعلون ذلك أساس الارتباط مع الدولة، فكلما تمسك الولاة بالشريعة كلما قويت الآصرة بينهم وبين خاصة الأمة وبالتالي عامتها، ولقد اقترنت السياسة بالدين في الإسلام وارتبطت بالعقيدة الصحيحة، ولم يبق في الأرض عقيدة سليمة غيرها، وارتبطت بالمعايير الأخلاقية التي لا تستمد إلا

من الدين، وما أحـــوج السياسة إلى عقيدة تنطلق منها وأخلاق تسير عليها[١].

لقـد جمع الإسـلام بين الرسالة والخـلافة، لأن الإسـلام غاية مـراد الله من الشرائع وهو الشريعة الخاتمة، ولأن امتزاج الدين والملك هو أكمل مظاهر التمكين في الأرض للمؤمنين قال تعالى: ﴿وَمَا أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلاَّ لِيُطَاعَ بِإِذْنِ اللَّهِ﴾ (النساء: ٦٤). ولذلك أجمع أصحاب رسول الله ﷺ بعد وفاته على إقامة الخليفة لحفظ نظام الأمة وتنفيـذ الشريعة، ولـم ينازع في ذلك أحد من الخاصـة ولا من العامة، إلا الذين ارتدوا على أدبارهم من بعد ما تبين لهم الهدى[٢].

إن تحقيق حاكـمية الله على الأمة من خلال دولة مسلمـة هو محض العبودية لله، لأن بذلك يتحقق التوحـيد ويقوم الدين: قال تعالى: ﴿أَمَرَ أَلاَّ تَعْبُدُوا إِلاَّ إِيَّاهُ ذَلِكَ الدِّينُ الْقَيِّمُ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لا يَعْلَمُونَ﴾ (يوسف: ٤٠). يعني : " ما الحكم الحق في الربوبية والعقائد والعبادات والمعـاملات إلا لله وحده يوحيه لمن اصطفاه من رسله، لا يمكن لبـشر أن يحكم فـيه برأيه وهواه، ولا بعـقله واستـدلاله ولا باجتهاده واسـتحاسنه، فهذه القاعدة هي أساس ديـن الله تعالى على ألسنة جميع رسله لا تختلف باختلاف الأزمنة والأمكنة "[٣].

ويقول الأسـتاذ سيد قطب - رحـمه الله -: لقد رسم يوسف عليـه السلام بهذه الكلمات القليلة الناصعة الحاسمة المنيرة كل معالم هذا الدين، وكل مقومات هذه العقيدة، كما هز بها كل قوائم الشرك والطاغوت والجاهلية هزًّا شديدًا.

إن الطاغوت لا يقوم في الأرض إلا مدعيًـا أخص خصائص الألوهية، وهي الربوبية، أي حق تعـبيد الناس لأمـره وشرعه، ودينونتـهم لفكره وقانونه وهو إذ يزاول هذا في علم الواقع، يدعيـه - ولم ينطق بلسانه - فالعـمل دليل أقوى من

---

(١) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٥٣٧) عبد العزيز مصطفى.
(٢) انظر: تفسير التحرير والتنوير (١/ ٧٠٧).
(٣) تفسير المنار (١٢/ ٣٠٩).

القول، وإن الطاغـوت لا يقوم إلا في غـيبة الديـن القيم والعقـيدة الصـالحة عن قلوب الناس، فما يمكن أن يقـوم وقد استقر في اعتقـاد الناس فعلاً أن الحكم لله وحده، لأن العبـادة لا تكون إلا لله وحده، والخضوع للحكـم عبادة، بل هي[١] أصل مدلول العبادة "[٢].

لقد نزل القـرآن الكريم من أجل تحقيق العـبودية والحاكـمية لله تعـالى. قال سبحانه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ فَاعْبُدِ اللَّهَ مُخْلِصًا لَّهُ الدِّينَ (٢) أَلا لِلَّهِ الدِّينُ الْخَالِصُ﴾ (الزمر: ٢، ٣) وقال سبـحانه : ﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (النساء: ١٠٥). فكما أن تحقيق العـبودية غاية من إنزال الكتاب فكذلك تطبيق الحاكـمية غاية من إنزاله، وكمـا أن العبادة لا تكون إلا عن وحي منزل، فكذلـك لا ينبـغي أن يحكم إلا بشـرع منـزل، أو بما له أصل في شـرع منزل[٣].

قال تعالى : ﴿لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ وَأَنزَلْنَا الْحَدِيدَ فِيهِ بَأْسٌ شَدِيدٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَلِيَعْلَمَ اللَّهُ مَن يَنصُرُهُ وَرُسُلَهُ بِالْغَيْبِ إِنَّ اللَّهَ قَوِيٌّ عَزِيزٌ﴾ (سورة الحديد: ٢٥). فالكتـاب والميزان هما : ما نُقل صـدقًا، وما شُرع عـدلاً لإقامة الناس على شـريعة الحق اتباعـًا للرسل، فمن أبى فقـد جُعل الحديد رادعًا لكل مـعاند بعد قيـام الحجة[٤] إن إقامة حكم الله علـى المجتمع من خلال الدولة عهـد وميثاق ذكره الله تـعالى في قوله : ﴿وَاذْكُرُوا نِعْمَةَ اللَّهِ عَلَيْكُمْ وَمِيثَاقَهُ الَّذِي وَاثَقَكُم بِهِ إِذْ قُلْتُمْ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ عَلِيمٌ بِذَاتِ الصُّدُورِ﴾ (سورة المائدة: ٧). فهذا تذكيـر من الله لعباده المؤمنين بنعمتـه عليهم في الشرع الذي شرعه لهم في هذا الدين العظيم، المرسل به الرسول الكريم، وأخذ للعهد والميثاق

---

(١) هكذا الضمير في الأصل المطبوع (هي) ولعل الأوفق للسياق (هو).

(٢) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٩١).

(٣) انظر : الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٤٣٣).

(٤) انظر : تفسير ابن كثير (٤/ ٣١٥).

عليهم في متابعته ونصرته وإبلاغه والقيام به، وهذا مقتضى البيعة التي كان الصحابة يبايعون عليها رسول الله ﷺ، على السمع والطاعة في المنشط والمكره، كما أن الإخلال بعهد الحاكمية جاهلية قال تعالى: ﴿ أَفَحُكْمَ الْجَاهِلِيَّةِ يَبْغُونَ وَمَنْ أَحْسَنُ مِنَ اللَّهِ حُكْمًا لِّقَوْمٍ يُوقِنُونَ﴾ (سورة المائدة: ٥٠). ففي الآية الكريمة إنكار وتوبيخ وتعجيب من حال من يتولى عن حكم الله وهو يبغي حكم غيره، والآية تعيير لليهود بأنهم مع كونهم أهل كتاب وعلم يبغون حكم الجاهلية التي هي هوى وجهل لا يصدر عن كتاب ولا يرجع إلى وحي[١]. إن تحقيق الحاكمية، تمكين للعبودية، وقيام بالغاية التي من أجلها خلق الإنسان والجان، قال تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ﴾ (سورة الذاريات: ٥٦). أي ليطيعوه وحده لا شريك له[٢]. وإن المفهوم الواسع الرحيب للعبادة ليشمل علائق وأعمالاً كثيرة، منها ما يمكن أن يقيمه الأفراد ومنها ما لا يمكن تحقيقه على الوجه الأكمل إلا في ظل دولة الإسلام. أو بمعنى آخر: منها ما يتم بالتحاكم ومنها ما يتم بالحكم، ولا شك أن دولة الإسلام تقصد إلى تهيئة المجتمع الإسلامي للقيام بالعبادة بهذا المعنى الشامل، ونحن عندما نقول إن الدولة في الإسلام تقصد إلى تحقيق العبودية فالمراد أنها تحمي أصول هذه العبودية، ولا تمكّن أحداً من الاعتداء عليها كما يحدث في الدول التي لا تحكم بما أنزل الله.

وإذا كان للعبادة أصلان: أحدهما: أن لا يعبد إلا الله.

والثاني: أن يعبد بما أمر وشرع[٣]. فإنه مما لا شك فيه أن دولة الإسلام مسئولة عن حماية هذين الأصلين بمحاربة الشرك في داخلها وتعمل على تقليص نفوذه خارجها، وهي تحمي الشرع ضد من يعتدي عليه بابتداع أو تحريف أو تغيير أو تبديل، وكل ذلك يعين على تحقيق العبودية لله على الوجه المرضي، وعلى

---

(١) تفسير ابن كثير (٤/ ٢٣٩).

(٢) المصدر نفسه.

(٣) مجموع الفتاوى (١٠/ ١٧٣).

حماية الدين من دخـائل وانتحالات المضلين، وبهذا تكون الدولة إسـلامية بالمعنى الصحـيح، فلا ينبـغي أبدًا قصـر مفـهوم إقـامة الدين على العـبادة بمعنى إقـامة الشعـائر، واعتبار الدولة التـي تظهر بعض هذه الشعائـر مقيمـة للدين، ومظهرة للعبودية بادعاء أنها تقيم من الإسلام أهم ما فيه وهو العبادة.

يقول الشيخ أحـمد شاكر: " فمن زعم أن الدين عبادة فـقط، فقد أنكر كل هذا[١]. وأعظم على الله الفرية، وظن أن لشخص كائنًا من كـان، أو لهيئة كائنة من كانت أن تنسخ ما أوجب الله من طاعته والعمل بأحكامه، وما قال هذا مسلم قط، ولا يقوله، ومن قـال فقد خـرج عن ملة الإسلام جملة ورفـضه كله، وإن صام وصلى وزعم أنه مسلم"[٢].

إن كلمة التوحـيد " لا إله إلا الله " أقرت أن الحاكمـية لله عز وجل، وهي من أولى خصـائص الألوهية، التي ينفرد بهـا سبحانه وتعـالى، وليس لأحد من البشر كائنًا من كان، أن يدعيـها، فالمُشرع والمُحلُّ والمحرِّم هو الله عز وجل، ومما لا شك فيه أن مفهوم الحاكمية يشـمل جميع نواحي الحياة الإنسانية، فإلى جانب العلاقـة بين الإنسان وخـالقه من شـعائر تعبـدية، فإن هذا المفـهوم يشـمل أيضًا العلاقات بين الإنسان ونفسه، والعلاقة بين الإنسان وأسرته وأقاربه، وما له عليهم وما لهم عليـه من حقوق التـربية والرعاية مـثلاً، وكذلك عـلاقة الإنسان بأخـيه الإنسان، وأخيرًا علاقة الإنسان بالسلطة الحاكمـة، فيطيعها ما دامت مطبقة لشرع الله ومنفذة لأوامره[٣].

لقد كانت الشريعة الربانية مهيـمنة على المجتمع النبوي، والمجتمع الراشدي، وفي العصـر الأول يتجلى في زمن عـمر بن عبـد العزيز الذي صبغ أوامـر دولته وإجراءاته في كافة شئون الدولة بصبغة الله تبارك وتعالى وذلك ما أعلنه ﷺ منذ

(١) يقصد بقية أمور الشريعة المتعلقة بالسياسة والاقتصاد والاجتماع.
(٢) الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين في مصر، ص٨٩.
(٣) انظر النظام السياسي في الإسلام، د. محمد أبو فارس، ص٢٣.

الساعـات الأولى لتولية أمـر المسلمين، إذ قال : " يا أيها الـناس: إنه ليس بعد نبيكم نبي، وليس بعد الكتاب الذي أنزل عليكم كـتاب، فما أحلّ الله على لسان نبيه فهو حـلال إلى يوم القيامة، وما حرم الله على لسان نبـيه فهو حرام إلى يوم القيامة، ألا إني لست بقاض، وإنما أنا منفذ لله، ولست بمبتدع، ولكنّي متَّبع، ألا إنه ليس أحد أن يطاع بمعصية الله عز وجل . . . "(١).

ويتضح من هذا، إدراك عمـر لمفهوم الحاكميـة لله عز وجل، وإنه عازم على تطبيق حكم الله في كل أمر، وأنه منفـذ لله، وبذلك يحقق الخلافة في الأرض، بتطبيق شرعه في خلقه، وذلك ما يبعث الله الرسل من أجله.

كما كتب ﷺ إلى العمل، فقـال: " أما بعد: فإن الله بعث محمدًا ﷺ : ﴿ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ ﴾ (التوبة: ٣٣). وإن دين الله الذي بعث به محمد ﷺ كتابه الذي أنزل عليه أن يطاع الله فيه، ويتبع أمره، ويُـجْتَنَب مـا نهى عنه، وتقام حـدوده، ويعمل بفـرائضه، ويُحلُّ حـلاله ويُحرِّم حرامـه، ويعترف بحقه، ويحكم بما أنزل فيـه فمن اتبع هدى الله اهتدى، ومن صد عنه ﴿فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (الممتحنة: ١). وأن من طاعة الله التي أنزل في كتابه أن يفـتح لأهل الإسلام باب الهجرة، وأن توضع الصدقـات والأخماس على قضاء الله وفـرائضه، وأن يبتغي الناس بأموالهم في البر والبـحر، لا يمنعون ولا يحبسون "(٢).

ففي هذا الكتاب نقل عمـر مفهوم مبدأ الحاكمـية لله إلى عماله، وأنه يرغب إليهم تطبـيق ذلك المبدأ على حقيـقته، حيث يتبين أنـه عزم أن يكون أي قرار أو إجراء يُتخذ في كافة أنحاء الدولة، بالنسبة لأي أمر كان، لا بد وأن يخضع لحكم الله عـز وجل وتجري عليـه سنة رسوله ﷺ . وبـذلك يكون تطبيق هذا المبـدأ الأساسي، من قـبل كافـة الولاة والعمال، في كل أنحـاء الدولة الإسلامـية، بل

(١) انظر : سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم ، ص٣٥،٣٦ .

(٢) انظر: سير عمر بن عبد العزيز ، ص٨٨ .

ونجده في آخر الكتاب أوضح أن هناك قـرارات إدارية شرع في اتخاذها في حينه، مثل فتح باب الهجرة، وأن تكون الإجـراءات المالية حسب قضاء الله، وأن تكون هناك حرية استـثمار الأموال برًّا وبحرًا، فكانت تأكيـدًا ودليلاً للولاة، بأنه عازم على إدارة الدولة في دائرة شـرع الله وحكمه، وأن ذلك من طاعـة الله التي أنزل في كتابه الكريم، فأصدر أمر التنفيذ وقرنه بالتطبيق(١).

إن الدولة الإسلامـية تجعل دسـتورها مسـتمـدًّا من كتـاب الله وسنة رسوله ﷺ، وتستمد منهمـا أمهات الأخلاق وأساسيات العقائد، فـهو قانونهم الأكبر الذي ترجع إليه كل القوانين الفرعية.

إن من أهداف مـرحلـة التـمكين وضع نظام، نابـع من الإسـلام ومـصـادر الشـريعة، يتنـاول كل مناشط حيـاة الناس، الفـردية والعـامة، فـلابد من وضع الأنظمة التالية على سبيل المثال:

١- نظام التعليم في كل مـراحله المعروفة، بل التـعليم المستمـد بعد المراحل التعليمية، يتناول: التعليم، والتدريب، والتثقيف.

٢- ونظام للإعلام، ونظام للاقتصاد والتجارة، والمصارف.

٣- ونظام لتنمية الثروة والموارد.

٤- ونظام لتعامل الفرد مع الدولة، وتعـامل الدولة مع الفرد، بحيث يحفظ للدولة هيبتها، وللفرد كرامته وإنسانيته.

٥- نظام للجيش والتجنيد وما يتصل به.

٦- نظام سيـاسي للدولة، يوضح الأسس التي تقـوم عليهـا سياسـة الدولة الداخلية والخارجية، وما فيهما من تفريعات ضخمة.

٧- نظام للعمل والعمال ونقاباتهم.

---

(١) انظر: إدارة عمر بن عبد العزيز، محمد القحطاني، ص٢٧٨.

٨- ونظام للخدمات التي تؤديها الدولة للمواطن مثل:

- الخدمات الاجتماعية العامة.

- والخدمات الصحية.

- والخدمات التي تقدمها المرافق العامة في الدولة.

٩- ونظام الدعوة إلى الله ونشرها على مستوى العالم كله.

١٠- ونظام للتعامل مع الدول التي لا تدين بدين الإسلام.

١١- ونظام للمساجد والأوقاف.

١٢- ونظام للأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

وغير ذلك من الأنظمة التي تقتضيها مصالح الناس، أو دفع المضار عنهم.

ولا بد من أن تستقي هذه الأنظمة من مصادر الشريعة الإسلامية وحدها.

ويشرف على تنفيذ هذه الأنظمة وكتابتها أهل التخصص ممن تربوا في أحضان الدعوة وعاشوا للإسلام وبالإسلام(١)، ولا شك أن الدستور الإسلامي تستمد أصوله من القرآن الكريم، والسنة النبوية الصحيحة التي تعتبر بيانًا وتفصيلاً لما في الكتاب، وكذلك أعمال الخلفاء الراشدين ومذاهب المجتهدين، وما أجمعوا عليه في كل عصر، وإن كان التشريع بمعنى، التحليل والتحري، لا يؤخذ إلا من الكتاب والسنة.

وأهم مصادر الدستور الإسلامي، يمكن تعددها فيما يلي:

١- القرآن الكريم:

قال تعالى:

﴿إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ﴾ (النساء: ١٠٥).

فهو المصدر الأول الذي يشتمل على جميع الأحكام الشرعية التي تتعلق

(١) انظر: فقه الدعوة إلى الله (٢/ ٧٤١).

بشئون الحياة البشرية، كما يتضمن مبادئ أساسية وأحكامًا قاطعة لإصلاح كل شعبة من شعب الحياة، كما بين القرآن الكريم للمسلمين كل ما يحتاجون إليه من أسس تقوم عليها دولتهم.

٢- السنة المطهرة:

هي المصدر الثاني الذي يستمد منه الدستور الإسلامي أصوله ومن خلالها يمكن معرفة الصيغ التنفيذية والتطبيقية لأحكام القرآن ممثلة في قيادة الرسول ﷺ للأمة ومن خلال السنة يمكن التعرف على نوعية المجتمع المثالي الذي ينشده الإسلام.

٣- إجماع الأمة:

وخاصة الصحابة، وفي مقدمتهم الخلفاء الراشدين، قال تعالى: ﴿ **وَمَن يُشَاقِقِ الرَّسُولَ مِنْ بَعْدِ مَا تَبَيَّنَ لَهُ الْهُدَىٰ وَيَتَّبِعْ غَيْرَ سَبِيلِ الْمُؤْمِنِينَ نُوَلِّهِ مَا تَوَلَّىٰ وَنُصْلِهِ جَهَنَّمَ وَسَاءَتْ مَصِيرًا** ﴾ (النساء: ١١٥).

إن إجماع الصحابة - حكامًا ومحكومين - في عصور الخلافة الراشدة، ليس له إلا معنى واحد، وهو الفهم الصحيح للكتاب، والطريق السليم للعمل، بالسنة، فهم الذين عاصروا عهد تنزيل الكتاب، وعاشوا طريقة النبي ﷺ في إقامة حياة الناس عليه، فهم أفهم الناس لروح الدين، وأعرف الناس بمقاصد الشرع، وأقدر الناس على التمييز بين الحق والباطل، ومن المستبعد بل من المحال أن يجتمعوا على باطل، لقول النبي ﷺ : " إن أمتي لا تجتمع على ضلالة "(١). ولهذا كان إجماعهم حجة يسوغ أن تُراعى وتوضع ضمن مصادر الدستور الإسلامي، وإجماع الأمة قد يكون على فهم نص، ويجوز أن ينعقد الإجماع عن اجتهاد وقياس، ويكون حجة(٢).

---

(١) ابن ماجة، كتاب الفتن، باب السواد الأعظم (٢/ ٤٦٤) رقم ٤٠١٤ .

(٢) انظر: روضة الناظر وجنة المناظر (١/ ٣٨٥).

٤- مذهب العلماء والمجتهدين:

قال تعالى: ﴿وَإِذَا جَاءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ الأَمْنِ أَوِ الْخَوْفِ أَذَاعُوا بِهِ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى الرَّسُولِ وَإِلَىٰ أُولِي الأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ الَّذِينَ يَسْتَنبِطُونَهُ مِنْهُمْ﴾ (النساء، آية: ٨٣).

والآية دليل على الأخذ بالاجتهاد إذا عُدم النص والإجماع[١]، ولأن العلماء في أمة محمد ﷺ كالأنبياء في بني إسرائيل، فهم المؤتمنون على نقل العلم، والمفوضون في استنباط الأحكام المتجددة في عمومات الشريعة، لا لعصمة اختصوا بها - فليس في الإسلام كهنوت - ولكن لأهليتهم في أن يُسموا " أهل الذكر " والله تعالى يقول: ﴿فَاسْأَلُوا أَهْلَ الذِّكْرِ إِن كُنتُمْ لا تَعْلَمُونَ﴾ (النحل: ٤٣).

فما ذهب إليه العلماء المجتهدون في الأمة - وإن لم يكن حجة في ذاته - إلا أنه يساعد كثيرًا في فهم روح الشريعة وقواعدها، ومعالجة ما يستجد من قضايا في ضوء هذا الفهم، ثم إن لهم القدرة على ضبط المناط في الأحكام وقياس الفروع على الأصول فيها[٢].

وعلماء القرون الأولى هم - ولا شك - المقدَّمون في هذا المضمار، ثم يقدم العالم كلما كان أكثر قربًا من علماء السلف في الهدى والسمت وعمق الفهم، وغزارة العلم، فمذاهب العلماء المجتهدين هي رابع مصادر الدستور الإسلامي[٣].

إن الدستور الإسلامي للدولة الصالحة يشتمل على قواعد ونظم توضح نظام الحكم، وتنظيم السلطات العامة وارتباط بعضها ببعض، وتحديد كل سلطة من السلطات الثلاث، التشريعية والقضائية، والتنفيذية بكل دقة ووضوح، وتوضيح حقوق الأفراد على الدولة، وواجباتهم نحوها، والحقوق بكل تفصيلاتها معنوية ومادية، وكذلك الواجبات والالتزامات، ووضع القوانين المفصلة للدستور مثل:

---

(١) انظر: تفسير القرطبي (٥/ ٢٩٢).

(٢) انظر : الدستور الإسلامي للمودودي ، ص٥،٦ .

(٣) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٥٤٢).

القانون المدني، والقانون الجنائي، والقـانون العام بحيث يكون ذلك كله مستمدًا من المصادر المذكـورة، إن هذه الدعامـة عندما تقـوم على ما ينبغـي تقوى الدولة المسلمة، وتحمي أنظمة الحياة من عـبث العابثين الذين لا يدركون الحق في سياسة الرعية، أو يدركـونه لكنهم ينحرفون عنه، لقـد جاءت هذه الشريعة لسـد حاجة المسلمين من الأحكام فمـا توفي رسول الله ﷺ إلا وقد بيّن لأمـته كل شيء، ولم يبق للعلماء في ذلك من دور إلا إظهار حكم الله ورسولـه وتفسير النصوص الشرعية وفق قواعد الإسلام الكلية.

إن تطبيق الشريعـة الإسلامية يحقق نتائج طيبـة في حياة المسلمين، ومن هذه النتائج تهذيـب النفس من الشرور والآثام وترويضها على الخـير، لذا كان الوازع الديني ثمرة من ثمارها يمنع من ارتكاب الجـريمة، ويحاسب النفس عليها، ويكون ماثلاً أمام العـين مما يجعل النفس تخشى الله وتتقـيه دائمًا وأبدًا، كمـا أنها تحقق المساواة بين المسلمين في الحـقوق والواجبـات وتنشر العدالة في الدولة الإسلامـية لجميع ساكنيـها، كما أن في تطبيقهـا نزول البركة، وتوالي النعم، إذ ليس هنالك طريق مستقل لحـسن الجزاء في الآخرة، وطريق مستقل لصـلاح الحياة في الدنيا، إنما هو طريق واحد، تصلح به الدنيـا والآخرة، وفي تطبيقهـا بركات في النفوس وبركات في المشـاعر وبركات في طيبات الحـياة، فالبركـة قد تكون مع القليل إذا أحسن الانتفاع به، ومن نتائج تطبيقها بناء مجتمع إسلامي معتز بدينه وعقيدته بما التزمه من سلوك مصدره كتاب الله وسُنة رسـوله ﷺ ففيهما المواد اللازمة لبناء الفرد المسلم والجماعة المسلمة والأمـة المسلمة والدولة المسلمة، كما أن من النتائج حفز الهمم، وبعث النفوس إلى الأخذ بأسباب العلم والحضارة والرقي والتقدم لما تضمنتـه تلك الشريعـة من الدعوة إلى الحيـاة كما أنهـا تتضـمن نبذ عفن الحـياة الحضاري لمجتمعات الرذيلة أيًّا كانت وأينما وجدت[1].

---

(١) انظر: تطبيق الشريعة الإسلامية، د. عبد الله الطريقي، ص٦٠، ٦١.

ب- الحاكم الصالح:

إن الحاكم إذا كـان صالحًا، مـستـوفيًا للصـفات الشرعـية، فـإنه يكون أحد الدعائـم القوية التي تشـد من أزر دولة الإسلام، وتعـينها على القـيام بوظائفـها السامية خير قيام، استجلابًا للخير، ودفعًا للشر.

وبقدر ما يأتي الخيـر ويكثر في وجود الإمام الصالح، بقدر مـا يتفاعل الشر وتتفاقم الفتن في حـالة خلو الزمان منه، يقول الإمام أحمد رحـمه الله: " الفتنة إذا لم يكن إمام يقـوم بأمر الناس ". ويقول أيضًـا : " لا بد للناس من حاكم، أتذهب حقوق الناس؟ "[1].

والأصل في الإمام أن يكون صالحًا في نفســه، قدوة لغيره، فكلمة (الإمام) نفســها تدل على ذلك، فمـعنى الإمام: القدوة، ومنه قـيل لخشبــة البناء: إمام، ويقال للطريق: إمام، لأنه يؤم فيه المسالك، أي يقصد[2].

وقد قال الله تـعالى لنبيه إبراهيم عليــه السلام : ﴿**إِنِّي جَاعِلُكَ لِلنَّاسِ إِمَامًا**﴾ (سورة البقرة: ١٢٤) أي "جعلناك إمـامًا للناس يأتمون بك في الخصال، ويقـتدي بك الصالحون "[3].

ولهذا فإن الذين يفتـقدون إلى الصلاح لا يستحقون الإمـامة، فإبراهيم عليه السلام قال لربه بعدما بشّره بالإمامة : ﴿**وَمِن ذُرِّيَّتِي**﴾ (سورة البقرة: ١٢٤). على جهة الاستفهـام، أي ومن ذريتي يا رب ماذا يكون؟ فأخبره الله تعالى أن فـيهم عصاة ظالمين لا يستـحقون الإمامـة، وقال: ﴿ **لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ (البقرة: ١٢٤). والعهد المراد في الآية هو: النبوة أو الإمامة، أو ولاية الأمر[4].

---

(١) الأحكام السلطانية لأبي يعلى، ص١٩ .

(٢) انظر: لسان العرب ، مادة (أمم) (١/ ١٣٤).

(٣) تفسير القرطبي (٢/ ١٠٧).

(٤) تفسير الطبري (٣ / ٢٤).

قال القرطبي في تفسيره : ﴿ **لَا يَنَالُ عَهْدِي الظَّالِمِينَ** ﴾ : (استدل جماعة من العلماء بهـذه الآية على أن الإمام يكون من أهل العدل والإحسـان، والفضل مع القوة على القـيام بذلك وهو الذي أمر النبي ﷺ ألا ينازعوا الأمـر أهله، فأما أهل الفسـوق والجور والظلم فليسـوا بأهله "[١] وفي الآية إشارة إلى أن الإمـامة والعدل فيها، أمانة وعهد، والجور والظلم فيها، خيانة لذلك العهد وهذا يقال في كل ولاية شرعية، يقول الشيخ رشيد رضا في تفسيره لهذه الآية: " الولاية العامة الشـرعية حـق أهل الإيمان والعدل، والله تعـالى لن يعهـد بإمامـة الناس وتولي أمورهم للظالمين، فكل حاكم ظالم فهو ناقض لعهد الله تعالى "[٢].

إن وجود الحاكم الصالح ضرورة إسلامية لتدعيم الدولة الحاكمة بما أنزل الله، ولذلك نجد أن الشريعة الإسلامية قد أوجـبت تنصيبه، بحيث توافر الإجماع على ذلك منذ عهد الصحابة[٣]، بلا خلاف معتبر والأصل في وجوب تنصيب الإمام، أن الصحـابة لما اختلفوا في سقـيفة بني سـاعدة، قالت الأنصار منا أمـير ومنكم أمير، دفـعهم أبو بكر وعمر رضي الله عنهما، وقالوا: إن الـعرب لا تدين إلا لهذا الحي من قريش، ودارت بين الفريقين محاورات ومناظرات انتهت إلى مبايعة أبي بكر رضي الله عنه خليـفة لرسـول الله ﷺ ، فلولا أن الإمـامة واجـبـة لما ساغت تلك المحـاورة والمناظرة، ولقال قائل: ليست في قريش ولا غيرهم[٤].

لقد كان إجماع الصحـابة على ضرورة تنصيب خليفة مستمـدًّا من نصوص الكتاب والسنة الواضحة الدلالة على هذا الوجود[٥] وحسمت الشريعة أمر الإمامة بكل وضوح، فجـعلت شروطًا في الإمامة، وزادت الشريعـة من ضبط هذا الأمر بأن جعلت أمر الترجيح بهذه الشـروط راجعًا إلى خاصة الأمة المعروفين بـ (أهل

---

(١) تفسير القرطبي (٢/ ١٠٨).

(٢) تفسير المنار (١/ ١١٣).

(٣) انظر: مراتب الإجماع للإمام : أبي محمد ابن حزم ، ص١٢٤ .

(٤) انظر: الأحكام السلطانية لأبي يعلى ، ص١٩ .

(٥) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٤٨٢).

الحل والعقد)، وأهل الحل والعقد ينظرون في الشروط التي حددتها الشريعة لولي الأمر، وينوبون عن الأمة في اختيار رجل مستوف لتلك الشرائط التي تعتبر المعيار الشرعي للصلاح المطلوب في الحاكم.

ومن الجدير ذكره هنا، أن أهل الحل والعقد أنفسهم يخضعون لشروط حددها أهل العلم من أهمها: العدالة، العلم الذي يتوصل به إلى معرفة من يستحق الإمامة، والثالث أن يكون من أهل الرأي والتدبير المؤديين إلى اختيار من هو للإمامة أصلح[(١)].

وهذه الأمور ينص عليها دستور الدولة المستمد من الكتاب والسنة المطهرة، كما أن الدستور يتضمن على شروط الإمامة العظمى. إن الشريعة الإسلامية انفردت بكثير من الأسرار والحكم مؤداها في النهاية ألا يُقدَّم لهذا المنصب الجليل إلا من يغلب على الظن أنه أهل لقيادة خير أمة أخرجت للناس، وهذه الشروط منها ما هي شروط صحة، ومنها ما هي شروط كمال.

الشرط الأول: الإسلام:

والإشارة إليه في قوله تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ** ﴾ (النساء: ٥٩). أي ذوي أمركم ومن ولوه من المسلمين[(٢)].

وقال النووي رحمه الله: (أجمع العلماء على أن الإمامة لا تنعقد لكافر، وعلى أنه لو طرأ عليه الكفر انعزل. قال: وكذا لو ترك إقامة الصلوات والدعاء إليها)[(٣)].

الشرط الثاني: العدالة:

والعدالة هي التحلي بالفضائل والتخلي عن الرذائل مع ترك المعاصي وكل ما يخل بالمروءة. وهي تثبت بالاستفاضة والشهرة[(٤)].

---

(١) الأحكام السلطانية للقاضي أبي يعلى، ص١٩ للماوردي، ص٤.

(٢) انظر: تفسير الطبري (٨/٥٠٣) تحقيق أحمد شاكر.

(٣) شرح صحيح مسلم للنووي (١٢/٢٢٩).

(٤) الأحكام السلطانية للفراء، ص٤.

الشرط الثالث: الذكورة:

أجمع العلماء على أن المرأة لا يجوز أن تكون إمامًا[١].

قال الشنقيطي رحمه الله: " من شــروط الإمام الأعظم كونه ذكرًا، ولا خلاف في ذلك بين العلماء، ويدل له ما ثبت في صحيح البخاري وغيره أن النبي ﷺ لما بلغه أن فارسًا ملَّكوه ابنة كسرى قال: " لن يفلح قوم ولّوا أمرهم امرأة "[٢].

الشرط الرابع: القدرة وسلامة الحواس:

قال تعـالى: ﴿**إِنَّ اللَّهَ اصْطَفَاهُ عَلَيْكُمْ وَزَادَهُ بَسْطَةً فِي الْعِلْمِ وَالْجِسْمِ وَاللَّهُ يُؤْتِي مُلْكَهُ مَن يَشَاءُ**﴾ (سورة البقرة: ٢٤٧).

قــال الشنقيـطي: "أي يكون سليم الأعـضاء، غـيـر زَمِن ولا أعمى ونحـو ذلك "[٣].

الشرط الخامس: القرشية:

قال رسـول الله ﷺ : " إن هــذا الأمــر في قريش، لا يعاديهـا أحد إلا كبّه الله في النار على وجهــه ما أقاموا الدين "[٤]. وشرط القرشية قد اختلف في كونه شرط صحــة أو شرط كمال، وذهب الجمهور إلى أنه شرط صــحة، كما أن شرط القرشية قيد بشرط وهو: إقامة الدين الذي هو المطلب من وراء الإمامة.

الشرط السادس: الحرية:

لا خلاف بين العــلماء في أن من شروط الإمــام الأعظم أن يكون حــرًّا، فلا يجوز أن يكون قائد الأمة من العبيد، ونقل عنهم الإجماع على ذلك[٥].

---

(١) انظر الفصل بين الملل والنحل (٤/ ١١٠) ومراتب الإجماع، ص١٢٥.

(٢) البخاري، كتاب الفتن، باب ١٨، حديث رقم ٧٠٩٩. فتح الباري (١٣/٥٨).

(٣) أضواء البيان (١/٥٧).

(٤) البخاري، كتاب الأحكام، باب الأمراء من قريش فتح الباري (١٣/ ١٢٢) رقم ٧١٣٩.

(٥) انظر: الأحكام السلطانية لأبي يعلى، ص٢٠.

الشرط السابع: البلوغ:

لابد لمن يتولى أمر المسلمين أن يكون رجلاً، فالصبيان لا يليق أن يلوا الأمور العظام، والإجماع منـعقد على عدم جواز إمـامة الصبي لعدم قدرتـه على القيام بأعباء الحكم(١).

الشرط الثامن: العقل:

لا نزاع بين أهل العلم في أن المجنون أو المعتوه لا تجوز إمـامته " لأن الإمامة تدبير، والعقل آلة التدبير، فإذا ذهب العقل ذهب التدبير "(٢).

الشرط التاسع: العلم المؤدي إلى الاجتهاد:

وهو شرط عند علماء المسلمين في الإمام، بحـيث يصلح أن يكون قاضيًا من قضاة المسلمين وحتى يمكنه الاستغناء عن استفتاء غيره في الملمات والحوادث.

وصرح الشاطبي رحمه الله بعدم صحة عـقد الإمامة لمن لم ينل رتبة الاجتهاد والفتوى فقال: " إن العلماء نقلوا الاتفاق على أن الإمامة الكبرى لا تنعقد إلا لمن نال رتبة الاجتهاد والفتوى في علوم الشرع "(٣).

وذهب بعض العلماء إلى أن هذا شرط كمـال وليس شرط صحة، ومن رأى أنه شرط صحة أجاز ولاية غير المجـتهد عند الضرورة وهذا ما صرح به الشاطبي بقوله: " إذا فرض خلو الزمـان عن مجتهد يظهر بين الناس، وافـتقروا إلى إمام يقـدمونه لجـريان الأحكام وتسكين ثورة الثـائرين، والحيـاطة على دمـاء المسلمين وأموالهم، فلابد من إقامة الأمثل ممن ليس بمجـتهد، لأنَّا بين أمرين، إما أن يترك الناس فوضى، وهو عين الفســاد والهرج، وإما أن يقدموه فيـزول الفساد به، ولا يبقى إلا فوات الاجتهاد "(٤).

---

(١) تفسير القرطبي (١/ ٢٧٠) أنظر: الفصل بين الملل والنحل (٤/ ١١).

(٢) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٤٩٤).

(٣) الاعتصام للشاطبي (٢/ ١٢٦).

(٤) المصدر نفسه .

الشرط العاشر: الحنكة في أمور الحرب والسلم:

فينبغي لولي أمر المسلمين أن يكون ذا خبرة ورأي حصيف في أمور الحرب مثل: تدبير الجيوش، وسد الثغور وحماية بيضة المسلمين ومنازلة الأعداء وحسن الاستفادة من الأصدقاء، وكذا في أمور السلم بأن يملك زمام الأمة ويأخذ من ظالمها لمظلومها ولضعيفها من قويها، ويقيمها على الحق ويقيم بها الحق[1].

وعدّ القاضي أبو يعلى من شرط الإمام " أن يكون قيمًا بأمر الحرب والسياسة وإقامة الحدود، لا تلحقه رأفة في ذلك "[2] وهذا الشرط من شروط الصحة عنده وعند الماوردي[3] وكذلك ابن خلدون[4].

على أن الشروط المعتبرة، رغم نص العلماء عليها - ليست ضربة لازب كلها، بحيث لو وجد شخص فيه معظمها لا تنعقد له الإمامة حتى توجد فيه كلها، لا . بل إن في الأمر مرونة تناسب تغير الأحوال بل قال القرطبي: "يجوز نصب المفضول مع وجود الفاضل خوف الفتنة وألا يستقيم أمر الأمة وذلك أن الإمام إنما نصب لدفع العدو وحماية البيضة وسد الخلل، واستخراج الحقوق وإقامة الحدود، وجباية الأموال لبيت المال وقسمتها على أهلها، فإذا خيف بإقامة الأفضل الهرج والفساد وتعطيل الأمور التي لأجلها ينصب الإمام، كان ذلك عذرًا ظاهرًا في العدول عن الفاضل للمفضول، ويدل على ذلك أيضًا علم عمر وسائر الأمة وقت الشورى بأن الستة[5] فيهم فاضل ومفضول "[6].

---

(١) انظر : تفسير القرطبي (١/ ٢٧٠).
(٢) الأحكام السلطانية لأبي يعلى ، ص٢٠ .
(٣) انظر: الأحكام السلطانية للماوردي ، ص٦ .
(٤) انظر : المقدمة ، ص١٩٣ .
(٥) الستة هم الذين نصح عمر ﷺ المسلمين أن يختاروا واحدًا منهم لولاية الأمر بعده حين طلب إليه أن يعهد عهدًا ، وهم علي وعثمان وعبد الرحمن بن عوف وسعد بن أبي وقاص والزبير بن العوام وطلحة بن عبيد الله.
(٦) تفسير القرطبي (٥/ ٢٥٩).

ولا شك أن من أهداف مرحلة التمكين تقـديم الحاكم الصالح الذي تتدعم به دولة الإسلام.

إن إقـامة الدسـتور على نهج كـتاب الله وسنة رسـوله ﷺ وبيان شـروط الحـاكم من خلاله من أهداف مـرحلة التـمكين، إن القـرآن الكريم ذكر للحـاكم الصالح صفات وملامح لا تقف عند حد الإجـزاء والصحة، وإنما تتجاوزهما إلى حد السـمو والرفعـة، وكيف لا يكون الأمر كـذلك، والحاكم هو أسوة العـامة، وقائد الخـاصة، والفـرد الأول في الأمة، المقـدم لقيـادة الركب في كل المهـمات والملمات.

إن في القرآن كثيراً من الصفات العظيـمة التي يحبها المولى عز وجل وسنرى ذلك بإذن الله في بعض شخصيات المرسلين.

جـ - الرعية الصالحة:

إن من أهداف مرحلة التمكين إيجاد دعائم دولة الإسلام ومن أهمها الاهتمام بالرعيـة وتربيتهـا على نهج رب البرية لتصـبح مؤمنة بربها مـصلحة في حيـاتها تتحمل إقامة الحياة الإسلاميـة على شريعة الله وتقوم بإلزام الحكام على الاستقامة على شريعـة الله، فالرعـية هي التي تمد الحكام بشرعـية الولاية، وتوظيـفهم في مـهمـة تحكيم شـرع الله، قال القـرطبي: " إقـامة مـراسيـم الدين واجبـة على المسلمين، ثم الإمام ينوب عنهم "(١).

فالرعية الصالحة قيّمة على مسلك الولاة، بحيث إذا زاغوا عن السبيل ردتهم، وإذا اعوجوا قومتهم. فإن أبوا إلا الانحراف والابتعاد عن الطريق المستقيم خلعتهم وأبعدتهم والأمة المسلمة لـيست كأية أمة، ولا ينبغي لشعوبهـا أن تكون رعيّة كأية رعيـة، تُساق فتنساق، وتوجـه فتتوجـه، إنها أمة صـاحبة رسالة وحـاملة أمانة، اختارها بين الأمم، وأرسل فيها أفضل الرسل، وأنزل إليها أحسن الكتب، وخصها بأفضل شريعة وكلـفها بأسمى رسالة، كما قـال سبحانه: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ**

(١) المصدر نفسه (١٢/ ٢٦١).

لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠). فهم خير الناس للناس وأنفع الناس للناس[١].

إن أمة الإسلام تحتاج لكي تقوم بمهمتها في هداية الناس للخير إلى أن تكون صالحة في نفسها، مصلحة لغيرها، فهي الشهيدة على الأمم لأنها أمة الوسط.

قال سبحانه: ﴿ وَكَذَلِكَ جَعَلْنَاكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ وَيَكُونَ الرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا﴾ (سورة البقرة: ١٤٣). إن الدستور الإسلامي في دولة الشريعة بيَّن حقوق الرعية على الحاكم، وحقوق الراعي على المحكومين بدقة متناهية.

إن من أهداف مرحلة التمكين بيان حقوق الرعية على الراعي وحث الحاكم على تنفيذها ، ومن أهم هذه الحقوق:

١- العمل على الإبقاء على عقيدة الأمة صافية نقية.
٢- بذل الأسباب المؤدية إلى وحدة الأمة.
٣- أن يعمل الولاة على حماية الأمة من المفسدين والمحاربين.
٤- أن يعملوا على حماية الأمة من أعداء الخارج.
٥- إعداد الأمة إعدادًا جهاديًّا.
٦- حفظ ما وضعت الشريعة لأجله.
٧- تحصيل الصدقات وأموال الزكاة والخراج والفيء وصرفها في مصارفها الشرعية.
٨- تحري الأمانة في اختيار أرباب المناصب.
٩- إعطاء حقوق الرعية وما يستحقونه في بيت المال من غير سرف ولا تقتير، ودفعه في وقت لا تقديم فيه ولا تأخير.
١٠- الإشراف المباشر على سير الأمور بين الرعية في كل النواحي الإدارية التي تتعلق بما يصلح أحوالهم[٢].

---

(١) تفسير ابن كثير (١/ ٣٦٩).
(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٣١٥ إلى ٣٢٣).

فإذا استوفت الرعيــة حقوقها من ولاتها فلا بد أن تؤدي واجبـاتها إليهم فإن لولاة الأمر حقوقًا على الرعيــة واجبة في أعناقهم، ولذلك فإن من أهداف مرحلة التمكين بيان هذه الحقوق في دستور الدولة وتذكير الناس بالالتزام بها.

ومن واجبات الرعية تجاه الولاة:

١ - الطاعة:

قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُولِي الأَمْرِ مِنكُمْ**﴾ (سورة النساء، آية: ٥٩).

قال القرطبي: " لما تقدم إلى الولاة في الآية المتـقدمة وبدأ بهم فأمرهم بأداء الأمانات، وأن يحكموا بين الناس بالعدل، تقدم في هذه الآية فأمر الرعية بطاعته جل وعلا أولاً وهي امتثال أوامره واجتناب نواهيه، ثم بطاعة رسوله ثانيًا فيما أمر به ونهى عنه، ثم بطاعة الأمراء ثالثًا، على قول الجـمهور وأبي هريرة وابن عباس وغيرهم "[(١)].

وفي المجتمع الإسلامي، الشريعة فوق الجميع، يخضع لها الحاكم والمحكوم، ولهذا فـإن طاعة الحكام مـقيدة دائمًـا بطاعة الله ورسـوله، كما قـال رسول الله ﷺ : " لا طاعة في المعصية، إنما الطاعة في المعروف "[(٢)].

٢- النصرة:

فالواجب على الرعية نصرة الإمام الحاكم بما أنزل الله ومعاضدته ومناصرته في أمور الدين وجهاد العدو قال تعالى: ﴿**وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ**﴾ (المائدة: ٢).

قال ﷺ : " من أتاكم وأمـركم جميع على رجـل واحد منكم، يريد أن يشق عصاكــم أو يفرق جماعتكم فـاقتلوه"[(٣)] ومن نصرة الإمـام ألا يهان، ومن

---

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٢٥٩).

(٢) البخاري ، كتاب الأحكام ، باب السمع والطاعة للإمام ، حديث رقم ٧١٤٥ (٨/ ١٣٥).

(٣) مسلم ،كتاب الإمارة باب حكم من فرق أمر المسلمين (٣/ ١٤٨٠) رقم ١٨٥٢ .

معاضدته أن يحترم، وأن يكرَّم فقوامته على الأمة وقيادته لها لإعلاء كلمة الله، تستوجب تبجيله وإجلاله وإكرامه تبجيلاً وإجلالاً وإكرامًا لشرع الله سبحانه الذي ينافح ويدافع عنه. يقول رسول الله ﷺ : " إن من إجلال الله تعالى: إكرام ذي الشيبة المسلم، وحامل القرآن غير الغالي فيه والجافي عنه، وإكرام ذي السلطان المقسط "(١).

٣- النصح:

إن الإسلام أوجب على الرعية أن تُناصح ولاة أمرها قال ﷺ : " الدين النصيحة - ثلاثًا - قال الصحابة: لمن يا رسول الله؟ قال: لله - عز وجل - ولكتابه ولرسوله ولأئمة المسلمين وعامتهم "(٢).

وقد كان الصحابة رضوان الله عليهم يتناصحون - رعاة ورعية - فهذا عمر رضي الله عنه دُرة الولاة، وفخر الأئمة في هذه الأمة يقول للرعية : " رحم الله من أهدى إليَّ عيوبي "(٣).

٤- التقويم:

لقد استقر في مفهوم الصحابة أن بقاء الأمة على الاستقامة رهن باستقامة ولاتها، فهذا أبو بكر رضي الله عنه عندما اختير للخلافة، قام في الصحابة خطيبًا فقال: بعد أن حمد الله وأثنى عليه بالذي هو أهله : " أما بعد، أيها الناس فإني قد وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني، وإن أسأت فقوموني، الصدق أمانة، والكذب خيانة، والضعيف فيكم قوي عندي حتى أرجع عليه حقه إن شاء الله، والقوي فيكم ضعيف حتى آخذ الحق منه إن شاء الله، لا يدع قوم الجهاد في سبيل الله إلا خذلهم الله بذل، ولا تشيع الفاحشة في قوم إلا عمهم

---

(١) رواه أبو داود ، كتاب الأدب باب تنزيل الناس منازلهم ،رقم الحديث ٤٨٢٢ وصححه الألباني : انظر صحيح سنن أبي داود (٣/ ١٩١٨) رقم ٤٠٥٣ .

(٢) مسلم ، كتاب الإيمان ، باب بيان أن الدين النصيحة (١/ ٧٤) رقم ٥٥ .

(٣) أورده الإمام الدارمي في مقدمة سننه (١/ ١٦٩).

الله بالبلاء، أطيعوني ما أطعت الله ورسوله، فإذا عصيت الله ورسوله، فلا طاعة لي عليكم، قوموا إلى صلاتكم يرحمكم الله "(١).

وكان عمر ﷺ لا يكتفي بإنصاف الناس من نفسه، حتى ينصفهم من عُماله وولاته، ويسأل الـرعية عـمن أساء منهم، وكـان يقول: " إني لم أبعث عـمالي ليضـربوا أبشاركـم وليشتـموا أعـرافكم ويأخذوا أمـوالكم، ولكني اسـتعملـتهم ليعلمـوكم كتاب ربكم وسنة نبيكم، فـمن ظلمه عامله بمظلمـة فلا إذن له علي، ليرفعها إليَّ حتى أقصّه منه "(٢).

إن العلاقـة بين الراعي والرعيـة - كما تحـدد الشريعة مـعالمها - هي عـلاقة التعاون والتعاضد مع النزاهة والتجرد، فهي علاقة هدفها إعلاء كلمة الله.

إن من أهداف مرحلة التمكين تحقيق دعائم الدولة في دنيا الوجود المتمثلة في نظام حكم شرعي، وحاكم صالح، ورعية صالحة مصلحة.

ثانيًا: إقامة قواعد النظام الإسلامي:

ويدخل ضمنًا في أهداف التمكين الحرص على إقـامة قواعد النظام الإسلامي التي تساهم في إقامة المجتـمع المسلم ومن أهم هذه القواعد، الشورى، والعدل، والمساواة، والحريات.

أ- الشورى:

إن تداول الرأي في الحوادث مـارسته الـشعوب منذ أقـدم العصور، مـارسه العرب والفـرس، والمصريون، والهنود، والرومـان، والصينيون، ومـارسه الملوك والفراعنة، ولم يوجد شعب، ولا أمة إلا مارسته في القديم والحديث.

إن ملكة سبأ عنـدما وصلها كتاب من سليـمان عليه السلام يدعـوها فيه إلى

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٦/ ٣٠٦) وقال ابن كثير : إسناده صحيح.

(٢) الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (٢/ ٥٣٣).

الإذعان لله بالوحدانية والربوبية وإلى الطاعة والإسلام دعت الملأ وهم أشراف الناس من قومها ووجوههم المقربون[1] إليها قالت: ﴿إِنِّي أُلْقِيَ إِلَيَّ كِتَابٌ كَرِيمٌ (٢٩) إِنَّهُ مِن سُلَيْمَانَ وَإِنَّهُ بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ (٣٠) أَلاَّ تَعْلُوا عَلَيَّ وَأْتُونِي مُسْلِمِينَ (٣١) قَالَتْ يَا أَيُّهَا الْمَلأُ أَفْتُونِي فِي أَمْرِي مَا كُنتُ قَاطِعَةً أَمْرًا حَتَّىٰ تَشْهَدُونِ (٣٢) قَالُوا نَحْنُ أُوْلُوا قُوَّةٍ وَأُوْلُوا بَأْسٍ شَدِيدٍ وَالأَمْرُ إِلَيْكِ فَانظُرِي مَاذَا تَأْمُرِينَ﴾ (النمل: ٢٩-٣٣).

إن القرآن الكريم يقدم لنا درسًا في الأخذ بنظام الشورى، إذ يقص علينا قصة ملكة سبأ عندما تلقت تهديد سليمان بالزحف على مملكتها فلم تنفرد باتخاذ موقف لوحدها ثم تطلب تنفيذه، وإنما جمعت أشراف قومها وطلبت منهم الآراء في هذا الموضوع الخطير[2].

إن الشورى واجبة على الحاكم في الشريعة الإسلامية وإلى هذا القول ذهب كثير من العلماء والفقهاء، فلا يحل للحاكم أن يتركها، وأن ينفرد برأيه دون مشورة المسلمين من أهل الشورى، كما لا يحل للأمة الإسلامية أن تسكت على ذلك. وأن تتركه ينفرد بالرأي دونها، ويستبد بالأمر دون أن يشركها فيه، فإن أقدم على هذا الأمر، فقد ارتكب منكرًا، ينبغي عليها أن تنكره عليه، أخذًا بحديث رسول الله ﷺ الذي رواه الإمام مسلم رحمه الله: قال: قال رسول الله ﷺ : " من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده، فإن لم يستطع فبلسانه، فإن لم يستطع فبقلبه، وذلك أضعف الإيمان "[3].

فالحاكم المستبد آثم بتركه واجب الاستشارة، والأمة آثمة لتركها واجب الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، ويوسع الأمة إذا كانت متماسكة على قلب رجل واحد عزله وتحرير الأمة منه ومن ظلمه واستبداده، بل الشرع يفرض عليها ذلك. قال ابن

---

(١) انظر: الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الدين التميمي، ص١٧ .
(٢) انظر: دعوة سليمان، علي منسي عشكان، ص٦٩ .
(٣) مختصر صحيح البخاري للمنذري، ص١٦، رقم الحديث ٣٤ .

عطية[1] رحمه الله تعالى: " والشورى من قواعد الشريعة وعزائم الأحكام، ومن لا يستشير أهل العلم والدين فعزله واجب، هذا ما لا خلاف فيه "[2].

وقال الجصاص الحنفي[3] - رحمه الله - في تفسيره بأحكام القرآن معقبًا على قوله تعالى: ﴿ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾. وهذا يدل على جلالة موقع الشورى لذكرها مع الإيمان، وإقامة الصلاة، ويدل على أننا مأمورون بها[4].

قال الطاهر بن عاشور: "مجموع كلام الجصاص يدل على أن مذهب أبي حنيفة وجوبها "[5].

وقال النووي - رحمه الله - " واختلف أصحابنا هل كانت الشورى واجبة على رسول الله ﷺ أم كانت سنة في حقه كما في حقنا، والصحيح عندهم وجوبها، وهو المختار قال الله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾، والمختار الذي عليه جمهور الفقهاء ومحققو الأصول أن الأمر للوجوب "[6].

وقال شيخ الإسلام ابن تيمية - رحمه الله - " لا غنى لولي الأمر عن المشاورة، فإن الله تعالى أمر بها نبيه ﷺ، فقال تعالى: ﴿فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ﴾ (آل عمران، آية: ١٥٩) [7].

---

(١) هو عبد الحق بن غالب بن عبد الرحمن بن عبد الرؤوف بن تمام بن عطية ، يكنى أبا محمد، وهو من نسل زيد ابن محارب وكان فقيهًا عالمًا بالتفسير والأحكام والحديث والفقه والنحو واللغة توفي عام ٥٤٦هـ. انظر: الديباج المذهب في معرفة علماء المذاهب ، ص١٧٤-١٧٥ .

(٢) المحرر الوجيز في تفسير الكتاب العزيز (٣/ ٣٩٧).

(٣) هو أبو بكر أحمد بن علي الرازي كان مشهوراً بالزهد والورع تبحر في العلوم وتلقى على يديه خلق كثير توفي ٣٧٠هـ . الطبقات السنية في تراجم الحنفية (١/ ٤٧٧-٤٨٠).

(٤) أحكام القرآن للجصاص (٣/ ٣٨٦).

(٥) التحرير والتنوير (٤/ ١٤٩).

(٦) شرح النووي على مسلم (٤/ ٧٦).

(٧) السياسة الشرعية في إصلاح الراعي والرعية ، ص١٣٥ .

ولقد ذهب إلى وجوب الشورى على الحاكم جماهير العلماء من المحدثين، وإليك بعضهم:

قال الأستاذ حسن البنا - رحمه الله - : " ومن حق الأمة الإسلامية أن تراقب الحاكم أدق مراقبة، وأن تشير عليه بما ترى فيه من الخير - وعليه أن يشاورها وأن يحترم إرادتها، وأن يأخذ بالصالح من آرائها، وقد أمر الله الحاكمين بذلك فقال: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ وأثنى على المؤمنين خيراً فقال : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ ونصت على ذلك سنة رسول الله ﷺ[1].

وقال الأستاذ المودودي : " والأمير حتم عليه أن يسوس البلاد بمشاورة أهل الحل والعقد، أعضاء مجلس الشورى، وهو أمير ما دام مزوداً بثقة الأمة "[2].

وقال: " وخامسة قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحكامها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم وإمضاء نظام حكم الشورى "[3].

وقال الشيخ شلتوت[4] - رحمه الله - : " أما الشورى فهي أساس الحكم الصالح، وهي السبيل إلى تبين الحق، ومعرفة الآراء الناضجة، أمر بها القرآن، وجعلها عنصراً من العناصر التي تقوم عليها الدولة الإسلامية، ففي الكتاب الكريم سورة عرفت باسم: (الشورى) وقد سميت بذلك لأنها السورة الوحيدة التي قررت الشورى عنصراً من عناصر الشخصية الإيمانية الحقة، ونظمتها في عقد، حياته طهارة القلب بالإيمان والتوكل، وطهارة الجوارح من الإثم والفواحش، ومراقبة الله بإقامة الصلاة، وحسن التضامن بالشورى "[5].

---

(١) مجموعة الرسائل للأستاذ حسن البنا، ص٣٦١ .

(٢) نظام الحياة في الإسلام - النظام السياسي ، ص٣٦ .

(٣) الخلافة والملك ، ص٤١ .

(٤) هو أحد علماء مصر المشهورين ، وشيخ الأزهر الشريف ، له مؤلفات كثيرة في الفقه والتفسير والثقافة العامة، توفي عام سنة ١٩٦٤م .

(٥) الإسلام عقيدة وشريعة، ص٤٥٨-٤٥٩ .

وقال الشيخ محمد أبو زهرة[١] - رحمه الله - : " أما الشرط الثالث فهو أن يكون الاختيار بشورى المسلمين، والأصل في ذلك هو أن الحكم الإسلامي في أصل وضعه شورى، لقوله تعالى: ﴿ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ ولالتزام النبي ﷺ في عامة أموره التي كانت تهم المسلمين، ولم ينزل فيها وحي . . . وإذا كان الحكم الإسلامي في أصله شوريًا فلا بد أن يكون الاختيار شوريًا أيضًا، لأنه لا يمكن أن يكون الحكم شوريًا، ويكون الخليفة مفروضًا بحكم الوراثة، إذ أن الوراثة والشورى نقيضان لا يجتمعان في باب واحد "[٢].

قال الشيخ عبد الوهاب خلاف[٣]: " والناظر في آيات القرآن الكريم وصحاح السنة يتبين أن الحكومة الإسلامية دستورية، وأن الأمر فيها ليس خاصًا بفرد، وإنما هو للأمة ممثلة في أهل الحل والعقد، لأن الله سبحانه جعل أمر المسلمين شورى بينهم، وساق وصفهم بهذا مساق الأوصاف الثابتة، والسجايا اللازمة كأمة شأن الإسلام ومن مقتضياته . . . وإذا كان المسلمون أهملوا تنظيم هذه الشورى حتى ذهبت روحها، وجرؤ بعضهم أن يقول: إنها مندوبة لا محتومة، وأغفلوا المسئولية حتى استقل بأمرهم ولاتهم وخرست الألسنة عن النصيحة، وصمت الآذان عن سماعها، وأضاعوا البيعة ومسخوها حتى جعلوها أمرًا صوريًا، لا يحقق الغرض منها ولا يشعر بإرادة الأمة"[٤].

وقال الأستاذ عبد القادر عودة[٥]- رحمه الله - : " والإسلام يرد نظام

---

(١) هو الشيخ الجليل محمد أبو زهرة أحد فحول علماء مصر المعدودين كان جريئًا في الحق ، مدافعًا عن الإسلام، لا يخشى في ذلك لومة لائم ، له مصنفات كثيرة في الفقه والأصول وتاريخ التشريع ومن كتبه علم أصول الفقه والإمام مالك، والشافعي وأبو حنيفة وأحمد ، وابن حزم، وابن تيمية ، وتاريخ المذاهب الإسلامية.

(٢) تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد، ص٩٣، ٩٤ .

(٣) ولد سنة ١٨٨٠م بكفر الزيات والتحق بالأزهر الشريف سنة ١٩٠٠م بعد أن حفظ القرآن الكريم ودرس في مدرسة القضاء الشرعي وتخرج منها عام ١٩١٥م وعين مدرسًا بها وشارك في ثورة ١٩١٩م فبرزت مواهبه الخطابية والكتابية ومارس القضاء ودرس في كلية الحقوق بجامعة القاهرة (٢٢) سنة، توفي ١٩٥٦ . مقدمة كتابه أصول الفقه.

(٤) السياسة الشرعية أو نظام الدولة في الشئون الدستورية والخارجية والمالية ، ص٢٥-٢٩ .

(٥) عبد القادر عودة من كبار المحامين في مصر، درس الحقوق ونبغ فيها، ودرس الفقه الإسلامي الجنائي دراسة=

الحكم في الجماعة إلى الشورى، لتستطيع الجماعة أن تختار الحكام الصالحين للقيام بأمر الله في الجماعة، ولتستطيع أن تعزلهم كلما عجزوا عن أداء واجباتهم أو حادوا عن الطريق القويم، كما أن نظام الشورى يحول بين الحكام وبين الاستئثار بشئون الجماعة، إذ يجعل الجماعة رقيبة على الحكام الذين اختارتهم، وقد جاء الإسلام بنظام الشورى وطبقه المسلمون قبل أن تعرضه الدول الغربية بأحد عشر قرنًا على الأقل، وقد فرض هذا النظام بقوله تعالى: ﴿**وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ**﴾ وبقوله : ﴿**وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ (آل عمران: ١٥٩) [١].

وقال الأستاذ عبد الكريم زيدان - حفظه الله - : " إن وكالة رئيس الدولة عن الأمة وكالة مقيدة، ومن قيودها أن يشاور الأمة، لأن المشاورة ورد بها النص الشرعي، فلا تملك الأمة التنازل عنها، لأن سلطاتها محدودة بحدود الشرع فلا تستطيع أن تفوض وكيلها - رئيس الدولة - استعمال سلطانها إلا بهذا القيد، قيد الشورى، سواءً صرحت بهذا عند انتخابه أو لم تصرح "[٢].

ولقد استدل القائلون بوجوب الشورى بالكتاب والسنة وسيرة الخلفاء الراشدين رضي الله عنهم أجمعين، والمعقول - الأدلة من القرآن الكريم:

١- قال تعالى: ﴿ **فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ** ﴾ (سورة آل عمران: ١٥٩).

لقد نزلت هذه الآية بعد غزوة أحد وما جرى فيها من أحداث وآلام حلت بالمسلمين. وكان القرار في الخروج مبنيًا على الشورى، وحتى لا تنشأ فكرة استبعاد الشورى عند بعض الصحابة نزلت هذه الآية، تأمر رسول الله ﷺ بأن

= شاملة وواعية وألف فيه كتابه المشهور التشريع الجنائي الإسلامي، وهو من أفضل الكتب في هذا المجال أعدمه جمال عبد الناصر في محنة الإخوان المسلمين في مصر وكان أعدامه -رحمه الله- سنة ١٩٥٥م.

(١) الإسلام وأوضاعنا القانونية ص١٢٢-١٢٣

(٢) الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية ص٣٦، ٣٧

يعفو عن المؤمنين وأن يستغفر لهم ويشاورهم في الأمر ولو كان نتيجة الشورى مُرَّة، كما حدث في أحد.

وإذا كان الله تبارك وتعالى قد أمر رسول الله ﷺ - وهو أرجح الناس عقلاً، وأقواهم رأيًا - بالشورى، فالأمر في حق غيره من الحكام والأمراء والسلاطين آكد وأوجب. ومن المعروف عند علماء الأصول أن الأمر يفيد الوجوب ما لم ترد قرينة تصرفه من الوجوب إلى الندب، وصيغة شاورهم صيغة أمر. وهي تدل على وجوب الشورى، ولم ترد قرينة تصرفها من الوجوب إلى الندب، بل جاءت النصوص الأخرى من الكتاب والسنة تؤكد هذا الوجوب وتؤيده(١).

قال الفخر الرازي في تفسيره : " ظاهر الأمر للوجوب، فقوله : (وشاورهم، يقتضي الوجوب)(٢).

وقال أبو حيان الأندلسي(٣): " في هذه الآية دليل على المشاورة وتخمير الرأي وتنقيحه والتفكر فيه. وأن ذلك مطلوب شرعًا خلافًا لما كان عليه بعض العرب من ترك المشورى، ومن الاستبداد برأيه من غير فكر في عاقبة "(٤).

وقال الأستاذ محمد رشيد رضا - رحمه الله - في تفسيره قوله تعالى: ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾ : " أي في الأمر العام الذي هو سياسة الأمة، في الحرب والسلم، والخوف والأمن، وغير ذلك من مصالحهم الدنيوية، أي أدم المشاورة وواظب عليها كما فعلت قبل الحرب في هذه الموقعة (غزوة أحد) وإن أخطئوا الرأي، فإن الخير كل الخير في تربيتهم على العمل بالمشاورة دون العمل برأي الرئيس وإن كان صوابًا، لما في ذلك من النفع لهم في مستقبل حكومتهم إن

(١) انظر: حكم الشورى في الإسلام ونتيجتها د. محمد أبو فارس ص٣١، ٣٢ .
(٢) التفسير الكبير: (٩/ ٦٧).
(٣) هو محمد بن يوسف بن علي بن حيان الغرناطي الأديب النحوي اللغوي مفسر ومحدث توفي عام ٧٤٥هـ. شذرات الذهب (٦/ ١٤٥-١٤٧).
(٤) البحر المحيط (٢/ ٤٧).

أقاموا هذا الركن العظيم (المشاورة). والخـطر على الأمة في تقويض أمرهم إلى الرجل الواحد أشد وأكبر "[١].

وقال سيد - رحـمه الله - " وبهذا النص الجازم ﴿ **وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ** ﴾ يقرر الإسلام هـذا المبدأ في نظام الحكم - حـتى ومحـمد رسـول الله ﷺ هو الذي يتولاه، وهو نص قاطع لا يدع للأمة المسلمة شكًّا في أن الشورى مبدأ أساسي، لا يقوم نظام الإسلام على أساس سواه "[٢].

وقال أيضًـا: " لو كان وجـود القيـادة الراشدة في الأمـة يكفي ويسد مـسد مزاولة الشورى في أخطر الشئون، لكان وجود محمد ﷺ ومعه الوحي من الله سبحانه وتعالى - كافيًا لحرمان الجماعة المسلمة يومها في حق الشورى!- وبخاصة على ضوء النتـائج المريرة التي صاحـبتها فـي ظل الملابسات الخطيرة لنشـأة الأمة المسلمة. ولكن وجود محمـد رسول الله ﷺ ومعه الوحي الإلهي ووقوع تلك الأحداث، ووجود تلك الملابسات، لم يلغ هذا الحق، لأن الله سبحانه - يعلم أن لا بد من مزاولته في أخطر الشـئون، ومهما تكن النتائج، ومهـما تكن الخسائر، ومهمـا يكن انقسام الصف، ومهمـا تكن كلها جزئيات لا تقوم أمـام إنشاء الأمة الراشدة، المدربة بالفعل على الحياة، المدركة لتبعات الرأي والعمل، الواعية لنتائج الرأي والعمل، ومن هنا جاء الأمر الإلهي في هذا الوقت بالذات ﴿**فَاعْـفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ**﴾ ليقـرر المبدأ في مواجـهة أخطر الأخطار التي صاحـبت استعمـاله، وليثبت هذا القـرار في حياة الأمـة المسلمة، أيًّا كانت هذه الأخطار التي تقع في أثناء التطبيق، ولـيسقط الحجة الواهيـة التي تثار لإبطال هذا المبدأ في حيـاة الأمة المسلمة، كلما نشـأ عن استعماله بعض الـعواقب التي تبدو سيئة، ولو كان هو انقســام الصف، كما وقع في أحد والعدو على الأبواب، لأن

---

(١) تفسير المنار (٤/ ١٦٦).

(٢) في ظلال القرآن الكريم (٤/ ٥٠١).

وجود الأمة الراشدة مرهون بهذا المبدأ، ووجود الأمة الراشدة أكبر من كل خسارة أخرى في الطريق(١).

٢- وقال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ﴾ (سورة الشورى، آية: ٣٨). لقد قرنت الآية الكريمة الشورى بين المسلمين بإقامة الصلاة، فدل ذلك على أن حكم الشورى كحكم الصلاة، وحكم الصلاة واجبة شرعًا، فكذلك الشورى واجبة شرعًا(٢).

إن هذه الآية قد نزلت في سـورة سميت سورة الشورى، وهي مـكية، ولقد جاءت مـؤكدة أن تكون الشـورى صفة مـلازمة للجـماعة الإسـلاميـة، وسلوكًا اجتماعيًّا لا يغادرهم قبل قيام الدولة الإسلامية وبعد قيامها، فإن كلمة أمرهم من ألفاظ العموم تشمل جميع شئونهم العامة وحياتهم المشتركة(٣).

قال سيد - رحمه الله - في تفسيـره لهذه الآية: " والتعبير يجعل أمرهم كله شورى، لصبغ الحياة كلها بهذه الصبـغة، وهو كما قلنا نص مكي قبل قيام الدولة الإسلامية.

فهذا الطابع إذن أعم وأشمل من الدولة في حـياة المسلمين، إنه طابع الجماعة الإسلامية في كل حالاتها، ولو كانت الدولة بمعناها الخاص لم تقم بعد.

والواقع أن الدولة في الإسلام ليست سوى إفراز طبيعي للجماعة وخصائصها الذاتية، والجماعة تتضمن الدولة، وتنهض وإياها بتحقيق المنهج الإسلامي وهيمنته على الحياة الفردية والجماعية.

ومن ثم كان طابع الشورى فـي الجماعة مبكرًا، وكـان مدلوله أوسع وأعمق

---

(١) في ظلال القرآن (٤/٢٠٥).
(٢) انظر: النظام السياسي في الإسلام لأبي فارس، ص٩٠.
(٣) انظر: الحكم الشوري في الإسلام ونتيجتها، ص٤٠.

من محيط الدولة وشئون الحكم فيها، إنه طابع ذاتي للحياة الإسلامية، وسمة مميزة للجماعة المختارة لقيادة البشرية، وهي من ألزم صفات القيادة "[١].

ويقول الأستاذ عبد القادر عودة - رحمه الله - : " الشورى دعامة من دعائم الإيمان وصفة من الصفات المميزة للمسلمين، سوَّى الله بينها وبين الصلاة والإنفاق في قوله: ﴿**وَالَّذِينَ اسْتَجَابُوا لِرَبِّهِمْ وَأَقَامُوا الصَّلَاةَ وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ**﴾ (سورة الشورى، آية: ٣٨) . فجعل للاستجابة لله نتائج بين لنا أبرزها، وأظهرها، وهي إقامة الصلاة والشورى والإنفاق، وإذا كانت الشورى من الإيمان فإنه لا يكمل إيمان قوم يتركون الشورى، ولا يحسن إسلامهم إذا لم يقيموا الشورى إقامة صحيحة، وما دامت الشورى صفة لازمة للمسلم لا يكمل إيمانه إلا بتوفرها، فهي إذن فريضة إسلامية واجبة على الحاكمين والمحكومين، فعلى الحاكم أن يستشير في كل أمور الحكم والإدارة، والسياسة، والتشريع، وكل ما يتعلق بمصلحة الأفراد أو المصلحة العامة، وعلى المحكومين أن يشيروا على الحاكم بما يرونه في هذه المسائل كلها، سواء استشارهم الحاكم أو لم يستشرهم "[٢].

والأحاديث القولية والسنة الفعلية الدّالة على وجوب الشورى كثيرة ونكتفي بما ذكرنا خوفًا من الإطالة ومن خلال الدراسة الوافية لمسألة الشورى يتضح أن القول بالوجوب أرجح من الندب والعلم عند الله.

ولقد اختلف العلماء هل الشورى معلمة أو ملزمة، ولقد اخترت في هذا البحث كونها ملزمة وهو الذي ينسجم مع أهداف التمكين والواقع المعاش للأمة، ولقد ذَهب جمهور العلماء والفقهاء في العصر الحديث إلى أن الشورى بنتيجتها للإمام ملزمة وعليه أن يأخذ برأي الأغلبية وإن كان رأي الأغلبية يخالف رأيه الذي يرجح أنه أصوب من رأيهم، ولقد كان آخر رأي صدر عن الأستاذ المودودي

---

(١) في ظلال القرآن (٦/ ٣١٦٥).

(٢) الإسلام وأوضاعنا السياسية ، ص١٩٣ .

في هذا الشأن أن الشورى ملزمة للأمير، وليس له أن ينفرد برأيه ويخالف رأي أهل الشورى أو أغلبيتهم.

قال المودودي - رحمه الله - : " وخامسة قواعد الدولة الإسلامية حتمية تشاور قادة الدولة وحكامها مع المسلمين والنزول على رضاهم ورأيهم، وإمضاء نظام الحكم بالشورى. يقول تعالى: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ وبقوله : ﴿وَشَاوِرْهُمْ فِي الأَمْرِ﴾(١).

إن قاعدة : ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ تتطلب بذاتها خمسة أمور: خامسها التسليم بما يجمع عليه أهل الشورى أو أكثريتهم، أما أن يستمع ولي الأمر إلى آراء جميع أهل الشورى ثم يختار هو بنفسه بحرية تامة، فإن الشورى في هذه الحالة تفقد معناها وقيمتها، فالله لم يقل : " تؤخذ آراؤهم ومشورتهم في أمرهم" ، وإنما قال: ﴿وَأَمْرُهُمْ شُورَىٰ بَيْنَهُمْ﴾ يعني أن تسير أمورهم بتشاور فيما بينهم، وتطبيق هذا القول الإلهي لا يتم بأخذ الرأي فقط، وإنما من الضروري لتنفيذه وتطبيقه أن تجري الأمور وفق ما يتقرر بالإجماع أو بالأكثرية "(٢).

وقال الشيخ شلتوت - رحمه الله - : " وضع الإسلام مبدأ الشورى، وعمل به النبي ﷺ في حياته، والخليفتان من بعده، وكان له في صدر الإسلام، شأن تجلى به سمو الإسلام في تقرير حق الإنسان، وكان فيه الحرية التامة في إبداء الرأي من أهل الرأي، وقد جاء في بيان المصادر التي يجب على المؤمنين اتباع الأحكام والنظم والأوامر الصادرة عنها، قوله تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا أَطِيعُوا اللَّهَ وَأَطِيعُوا الرَّسُولَ وَأُوْلِي الأَمْرِ مِنكُمْ ﴾ (النساء، آية: ٥٩). وإذا كانت إطاعة الله هي العمل بما تضمنه كتابه الواضح الذي لا يحتمل الرأي، وكانت إطاعة الرسول ﷺ هي العمل بما تضمنته أقواله التشريعية العامة الموثوق بنسبتها إليه، كان (أولو الأمر) هم أهل النظر الذين عرفوا في الأمة بكمال الاختصاص

(١) الخلافة والملك ، ص٤١-٤٢ .

(٢) الحكومة الإسلامية ، ص٩٤ .

في بحث الشئون وإدراك المصالح والغيرة عليها، وكانت طاعتهم هي الأخذ بما يتفقون عليه في المسألة ذات النظر والاجتهاد، أو بما يترجح فيها عن طريق الأغلبية أو قوة البرهان "(١).

وقال في كتابه من توجيهات الإسلام تعقيبًا على موقف السعدين سعد بن معاذ وسعد بن عبادة ﷺ من رفض إعطاء غطفان ثلث ثمار المدينة، وقد كان رسول الله ﷺ يرى ذلك.

وهذه الحادثة تضع تقليدًا دستوريًا هامًا، وهو أن الحاكم ولو كان رسولاً معصومًا - يجب عليه ألا يستبد بأمر المسلمين، ولا أن يقطع برأي في شأن هام، ولا أن يعقد معاهدة تلزم المسلمين بأي التزام دون مشاورتهم وأخذ آرائهم، فإن فعل كان للأمة حق إلغاء كل ما استبد به، من دونهم، وتمزيق كل معاهدة لم يكن لهم فيها رأي "(٢).

ويقول الأستاذ عبد الكريم زيدان: " الأخذ برأي رئيس الدولة سديد من الناحية النظرية، ولكن نظرًا لضرورات الواقع، وتغيير النفوس، ورقة الدين، وضعف الإيمان، وندرة الأكفاء الملهمين، كل هذا يقتضينا أن نأخذ بالرأي الثاني، فلنزم رئيس الدولة برأي الأكثرية بشروط: الأول إذا لم يقتنع رئيس الدولة برأي الأكثرية فله أن يحيل الخلاف إلى هيئة التحكيم، الثاني: إذا لم يقتنع برأي هيئة التحكيم، فله إجراء استفتاء عام حول موضوع الخلاف، الثالث: أن يعطي حرية اتباع الرأي الذي يراه في الأحوال الاستثنائية كحالة الحرب أو خطر يهدد سلامة البلاد "(٣).

ولا نريد أن نتوسع في نقل الأقوال لكثرة الباحثين والعلماء الذين قد ذهبوا إلى أن الشورى ملزمة.

---

(١) الإسلام عقيدة وشريعة، محمود شلتوت ، ص٤٦٢-٤٦٣ .

(٢) من توجيهات الإسلام ، محمود شلتوت، ص٥٢٢، ٥٢٣ .

(٣) الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية ، ص٤٧ .

إن الله تعالى قد شرع نظام الشورى لحكم بالغة، ومقاصد عظيمة، ولما فيها من المصالح الكبيرة، والفوائد الجليلة التي تعود على الأمة والدولة والمجتمع بالخير والبركة ومن ذلك:

١- يتعرض الحكام والقادة والرؤساء في كثير من الأحيان والظروف إلى اندفاعات عاطفية، تكون ذات نتائج سلبية وآثار سيئة على حياة الأمة، وفي هذه الحالة تكون الشورى من أنجح الضوابط لكبح جماح العواطف لدى الحكام والقادة والرؤساء ففي المشاورة عصمة لهم من الإقدام على أمور تضر بالأمة وقد لا يشعرون بضررها.

٢- الشورى نوع من الحوار المفتوح، ومن أحسن الأساليب لتوعية الرأي العام وتنويره، وتعزيز عوامل الحب والثقة بين الحاكم والمحكومين، والقائد والمقودين، والرئيس والمرءوسين، وهو خير أسلوب في الحكم لعزل الشكوك، ونفي الهواجس وإزالة الأوهام، ووقف الإشاعات التي تنمو عادة في ظل الاستبداد، وتنشر في عتمة الغوغائية.

٣- تقضي مبادئ الإسلام بأن يشعر كل فرد أن له دورًا في حياة المجتمع والجماعة، والشورى تتيح الفرصة أمام كل فرد لكي يقدم ما يستطيع من جهود وأفكار وآراء ومهارات لخير المجتمع، كما تتيح الفرصة أمام كل فرد ليعبر عن رأيه في الشئون العامة.

٤- إن الشورى تمنح الدّفء العاطفي، والتماسك الفكري لأفراد الأمة، وفيها إشعار الفرد بقيمته الذاتية، وقيمته الفكرية، وقيمته الإنسانية، وتدفع أفراد المجتمع نحو الاجتهاد والإبداع والرضى وتتفجر الطاقات وتنكشف المواهب المغمورة في الأمة.

٥- إن الشورى تساهم في علاج ضروب الكبت الضاغطة، وكوامن الأحقاد الدفينة، وتطيح بكثير من الكظوم الخفيَّة، وتدفع رعايا الدولة للعطاء والحرص على ترسيخ النظام، وصدق الولاء .

٦ - وفي نظام الشورى تذكير للأمة بأنها هي صاحبة السلطان وتذكير لرئيس الدولة بأنه وكيل عنها في مباشرة الحكم والسلطان .

٧ - وفي المشاورة امتثال لأمر الله بها ، واقتداء برسول الله ﷺ وهذه المزية أرجح المزايا المتقدمة ، وهذا أهم العوامل في نجاح نظام الشورى[1] .

إن الشورى تمثل عملاً سياسيًّا ضروريًّا لنجاح الدولة في تدبير شئون الأمة ، وهي تشكل منهجًا حيويًّا يتوقف عليه انتصار الحق في المجتمع ، والتزام السداد في شئونه ، كما يتوقف عليه احترام العقل في الدولة واحترام الإنسان في ظلها . وهي ضمانة سياسية لاستقرار الدولة وحمايتها من عوامل الضعف ، وهي سبيل رئيسي لسلامة المجتمع من الفوضى ، وسلامة الدعوة الإسلامية من العثار حين أداء دورها العظيم في العالم ، وهي تتطلب انتخاب الهيئة القيادية السياسية والاجتماعية لمراقبة الخطوط السياسية وضبطها طبقًا لأحكام الشريعة التي تجسد المصالح الحقيقية للأمة .

وهناك حقيقة ينبغي أن تتضح في العقول والأذهان وهي أن بقاء المجتمع قويًّا مستمسكًا بأهدافه السامية ، وقيمه العليا يتطلب تعزيز الدور السياسي الذي تضطلع به الأمة بمجموعها عن طريق ممارسة الشورى التي شرعها الله للمؤمنين ، فمن خلال الشورى يتأكد السلطان السياسي الحقيقي الذي يقوم بمهمة الإشراف الفعلي والعقلي على المجتمع برمته .

وفي المجتمع الإسلامي تتقبل الآراء وفقًا لجدارتها ، وبمقدار انسجامها مع عقيدة الأمة ودستور الدولة ، تلك الدولة التي من شأنها أن تمنح الأفراد قدرة على ابتكار الأفكار الجديدة ، والآراء الناضجة ، وإن الدولة التي تنفذ الأمور دون معرفة بالحقائق المتصلة بها ، واستيعاب الظروف والملابسات المحيطة بها ، ودون الالتفاف إلى رأي الأمة وسماع وجهة نظرها عن طريق ممثليها إنما تقوم بمغامرة غير مأمونة

---

(١) انظر : الشورى بين الأصالة والمعاصرة لعز الدين التميمي ، ص٣٣،٣٤ .

في نتائجها ولا سليمة في نهايتها ولن تتوصل إلى حلول منطقية مبنية على أسس سليمة، ومـن هنا فإن الإلمام بالواقع يمثل أمرًا شديد الأهمـية في فن الحكم فكل قرار سيـاسي مهما بلغت كفاءة الرئيس الـذي يصدره ومكانته السياسيـة العالية - سوف يكون حتمًا وبالتأكيد قرارًا خاطئًا إن هو أخطأ في معرفة الواقع الذي يعالجه وهذه القاعدة لا تنطبق على القرارات السيـاسية وحدها، بل تنطبق أيضًا على كل قرار أيًا كان نوعه وفي أي مجال من مجالات الحـياة البشرية في السياسة والإدارة في الحيـاة العامـة أو الخاصـة على حد سـواء، والقرآن الكريم يرشـدنا إلى هذه الحقيقة في عدد من الآيات التي تؤكد على ضـرورة التثبت والتبين والتأني والبعد عن الاستعجـال، قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِن جَاءَكُمْ فَاسِقٌ بِنَبَأٍ فَتَبَيَّنُوا أَن تُصِيبُوا قَوْمًا بِجَهَالَةٍ فَتُصْبِحُوا عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَادِمِينَ** ﴾ (الحجرات، آية: ٦). فهذه الآية تتضـمن ضرورة الحـرص على الإلمام بالحقـيقـة والواقع إلمامًا كـاملاً قـبل إصدار القرارات في أي مجال من مجالات الحياة.

فكل حـاكم يريد لحكمه أن يسـتمر ولـنظام دولته أن يسـتقر عليـه أن يكون حريصًا عـلى الإلمام بحقيقـة الأوضاع ببلاده، والشورى خـير سبيل لتحـقيق هذه الغاية[١]. ولا مانع من تنظيم الشورى بتشكيل مجالس، أو تعيين نواب أو ممثلين لكل جماعـة وإتاحة الفرصة للاختـيار بشرط أن يكون مرجعـهم كتاب الله وسنة رسوله ﷺ، بحيث لا تتعارض توصيـاتهم أو قراراتهم أو تشريعاتهم مع شرع الله عز وجل[٢].

ولا مانع من ضبط ممارسة الشورى وفق نظام، أو منشـور أو قانون يعرف فيه ولي الأمر حـدود ما ينبغي أن يشـاور فيه ومتى وكـيف؟ وتعرف الأمة حـدود ما تستـشار فيـه ومتى؟ وكيف؟ لأن الشكل الذي تتـم به الشورى ليس مصـبوبًا في قالب حديدي، فهو متروك للصورة الملائمة لكل بيئة وزمان.

(١) المصدر نفسه، ص٣٦،٣٧ .

(٢) انظر: دستور للأمة من القرآن والسنة، د. عبد الناصر العطار ص(١٧٣،١٧٤).

إن القرآن الكريم لم يبين وسائل الشورى ، كما لم يبين وسائل تحقيق العدالة ، بل ترك ذلك لتقـدير الناس ينتهجون أحســن الوسائل التي توصلهم إلى المطلوب على الوجه الأكمل ، وذلك يتمشى مع فكرة صلاحية الإسلام لكل زمان ومكان ، ومع فكرة يسر الدين وسـلامة أحكامه من الحرج ، ولذلك فسح الإسـلام لأتباعه المجال لاختيار التنظيم الذي يرتأوونه محققًا الشورى على وجهها المفيد .

إن أشكال الشورى وأساليب تطبيـقها ووسائل تحقيقهـا وإجراءاتها ليست من قبيـل العقائد وليست من القـواعد الشرعيـة المحكمة التي يجب التزامهـا بصورة واحدة في كل العـصور والأزمنة ، وإنما هي متروكـة للتحري والاجتهـاد والبحث والاختيار ، أما أصل الشورى فإنه من قبيل المحكم الثابت الذي لا يجوز تجاهله أو إهماله لأن الشورى في جـميع الأمكنة والأزمنة مفيدة ومجـدية ، والدكتاتورية أو حكم الفرد في جميع الأمكنة والأزمنة كريهة ومخربة .

إن شئون الحيـاة متعددة ، ولكل شأن منها أناس هم المختـصون فيه وهم أهل معـرفته ، ومعـرفة ما يجب أن يكون عليـه ، ففي الأمة جانب القـوة ، وفي الأمة جـانب القـضاء ، وفض المنازعـات وحـسم الخـصومـات ، وفـيهـا جـانب المال والاقتصاد ، وفيها جانب السياسة وتدبيـر الشئون الداخلية والخارجية وفيها جانب الفنون الإدارية ، وفيها جانب التعليم والتربية ، وفيها جانب الهندسة ، وفيها جانب العلوم والمعارف الإنـسانية ، وفـيها غـير ذلك من الجوانـب ، ولكل جانب أناس عرفوا فيه بنضج الآراء ، وعظيم الآثار ، وطول الخبرة والمران .

هؤلاء هم أهل الشورى في الشئون المختلفة ، وهم الذين يجب على الأمة أن تعرفهم بآثارهم وتمنحهم ثقتهـا ، وتنيبهم عنها في الرأي ، وهم الذين يرجع إليهم الحاكم لأخذ رأيهم واستشارتهم ، وهم الوسـيلة الدائمة في نظر الإسلام لمعرفة ما تسوس به الأمة أمورها مما لم يرد في المصادر الشرعية ويحتاج إلى اجتهاد[1] .

---

(١) انظر : الشورى بين الأصالة والمعاصرة ، ص٥٧ .

ولذلك ينبغي أن يعتــمد في الشورى على أصحاب الاختــصاص والخبرة في المسائل المعــروضة التي تحــتاج إلى نوع من المعرفــة: ففي شــئون الدين والأحكام يستشار علماء الدين.

وفي شئون العمران والهندسة يستشار المهندسون .

وفي شئون الصناعة يستشار خبراء الصناعة .

وفي شئون التجارة يستشار خبراء التجارة .

وفي شئــون الزراعة يستــشار خبــراء الزراعة، وهكذا وهنا لا بد من توجــيه الأنظار إلى أنه من الضروري أن يكون علماء الدين قاسمًا مشتركًا في هذه الشئون حتى لا يخرج المستشارون في تقرير الســياسات المتنوعة عن حدود الشريعة[١] هذه إشارة موجزة عن أهمية الشورى ومزاياها وفــائدتها في إقامة الدولة وتقويتها وبناء المجتمع الإسلامي المنشود والنهوض به نحو المعالي.

ب- العدالة:

إن العدل هو الدعامة الرئيسة في إقــامة المجتمع الإسلامي والحكم الإسلامي فــلا وجود للإســلام في مجتــمع يسوده الظلم ولا يــعرف العــدل ولذلك اهتم الإسلام بتقرير هذه القاعــدة وتأسيسها وتدعيمها، فــأكثر الحديث عنها في الآيات القرآنية الكريمة والأحاديث النبوية الشريفة مركَّز على أن الناس سواسية ومتساوون أمام الشرع.

إن إقامة العدل بين الناس أفرادًا وجماعات ودولاً، ليست من الأمور التطوعية التي تترك لمزاج الحــاكم أو الأمير وهواه، بل إن إقامــة العدل بين الناس في الدين الإسلامي تعــد من أقدس الواجــبات وأهمــها، قد أجــمعت الأمــة على وجوب العدل. قال الفخــر الرازي - رحمه الله - : " أجمعوا على أن من كــان حاكمًا وجب عليه أن يحكم بالعدل"[٢].

(١) انظر: الشورى بين الأصالة والمعاصرة ، ص٥٨، ٥٩ .

(٢) تفسير الرازي (١٠/ ١٤١).

وهذا الحكم تؤيده النصوص من القرآن الكريم، والسنة النبوية، ومن هذه النصوص:

١- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُ بِالْعَدْلِ وَالإِحْسَانِ﴾ (سورة النحل، آية: ٩٠). وأمر الله بفعل كما هو معلوم يقتضي وجوبه.

٢- قال تعالى: ﴿إِنَّ اللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا الأَمَانَاتِ إِلَىٰ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ النَّاسِ أَن تَحْكُمُوا بِالْعَدْلِ ﴾ (سورة النساء، آية: ٥٨).

٣- وقال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لِلَّهِ وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الْوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إِن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَاللَّهُ أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلا تَتَّبِعُوا الْهَوَىٰ أَن تَعْدِلُوا وَإِن تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً ﴾ (سورة النساء، آية: ١٣٥).

٤- وقال تعالى: ﴿فَلِذَلِكَ فَادْعُ وَاسْتَقِمْ كَمَا أُمِرْتَ وَلا تَتَّبِعْ أَهْوَاءَهُمْ وَقُلْ آمَنتُ بِمَا أَنزَلَ اللَّهُ مِن كِتَابٍ وَأُمِرْتُ لأَعْدِلَ بَيْنَكُمُ ﴾ (سورة الشورى، آية: ١٥).

ثم إن ترك العدل يعد ظلمًا، والله سبحانه وتعالى حرم الظلم وذم أهله وتوعدهم بالعذاب الشديد يوم القيامة والهلاك في الدنيا[1].

قال تعالى: ﴿وَلا تَحْسَبَنَّ اللَّهَ غَافِلاً عَمَّا يَعْمَلُ الظَّالِمُونَ﴾ (إبراهيم، آية: ٤٢).

وقال تعالى: ﴿ فَتِلْكَ بُيُوتُهُمْ خَاوِيَةً بِمَا ظَلَمُوا ﴾ (سورة النمل: ٥٢).

وقال تعالى: ﴿ احْشُرُوا الَّذِينَ ظَلَمُوا وَأَزْوَاجَهُمْ﴾ (الصافات، الآية: ٢٢).

إن العدل في حياة هذه الأمة المحمدية الخاتمة واقعًا عاشته ومارسته، وطبقته في واقع حياتها، على مر تاريخها الطويل، على تفاوت في ذلك التطبيق بين زمان وزمان، ودولة ودولة، وحسب اشتعال جذوة الإيمان في قلوب الحاكمين وخبوئها، لقد مارست هذه الأمة العدل مع أعدائها وخصومها، وأهل ذمتها.

---

(١) انظر: النظام السياسي في الإسلام ، د. محمد أبو فارس، ص٤٩ .

إن من أهداف التمكين إقـامة المجتمع الإسـلامي الذي تسود فيه قـيم العدل والمساواة ورفع الظلم ومـحاربته بكافـة أشكاله وأنواعه، فإذا نـظرنا لتاريخ الدولة الإسلامـية في زمن النبي ﷺ والخلفـاء الراشدين، ومن سـار على هديهم من التابعين رأينا صوراً مشرِّفة تدل على عظمة هذا الدين، وحب هذه الأمة للعدل:

فها هو ﷺ يقـيد أصحابه من نفسه في طعنة طـعنها إياه بالقدح في بطنه أثناء تسـويته الصف للقـتال، روى ابن إسـحاق[١] أنه ﷺ : " عدل صـفوف أصحابه يوم بدر وفي يده قداح[٢] يعدل به القوم، فمـر بسواد بن غزية[٣] وهو مستـقل من الصف، قال ابن هشام[٤] ويقال: مستنصل[٥] من الصف - فطعنه في بطنه بالقداح - وقال: استو يا سواد، فقال: يا رسول الله أوجعتني وقد بعثك الله بالحق والعدل فـأقدني، فكشف رسـول الله ﷺ عن بطنه وقال: استـقد، قال: فـاعتنقه فقـبل بطنه، فقال: مـا حملك على هذا يا سواد؟ قـال: يا رسول الله: حضر ما ترى، فأردت أن يكون آخـر العهد بك أن يمس جلدي جلدك فدعا له رسول الله ﷺ بخير . . . "[٦] .

وجاء يهودي يشتكي إليه أحد أصـحابه قائلاً : " يا محمد: إن لي على هذا أربعة دراهم وقد غلبني عليها، قال أعطه حقه، قال: والذي نفسي بيده، ما أقدر عليها، قـد أخبرته أنك تبعثنا إلى خـيبر فأرجو أن تغنمنا شـيئًا فأرجع فأقـضيه، قال: أعطه حقه. وكان رسول الله ﷺ إذا قال ثلاثًا لم يراجع . . . "[٧] .

---

(١) هو العلامة الإخباري أبو بكر القرشي الكلبي مـولاهم المدني صاحب السيرة النبوية توفي عام ١٥١هـ . انظر: سير أعلام النبلاء (٧/ ٢٥).

(٢) القداح (بكسر القاف وبسكون الدال) : السهم . لسان العرب (٢/ ٥٥٦).

(٣) هو سواد بن غـزية الأنصاري من بني عدي بن النجار، شـهد بدرًا وأمره النبي ﷺ على خيـبر . انظر: ابن حجر، الإصابة (٢/ ٩٥).

(٤) هو أبو محمد عبد الملك بن هشام بن أيوب النهلي وقيل الحميري، قام بتهذيب سيرة ابن إسحاق وهو من أئمة اللغة . توفي ٤١٨هـ. انظر: سير أعلام النبلاء (١٠/ ٤٢٩).

(٥) مستنصل : أي خارج من نصل، بمعنى خرج. لسان العرب (١١/ ٦٦٢).

(٦) سيرة ابن هشام : (١/ ٦٢٦) تحقيق مصطفى السقا وزملائه.

(٧) أخرجه أحمد (٢/ ٤٢٣).

وكان ﷺ يقيم حدود الله على من وجب عليه ذلك في عدل وإنصاف لا تأخذه في ذلك لومة لائم ولا قرابة قريب ولا مكانة شريف، فها هو ﷺ وهو الصادق المصدوق البار في قسمه: لو أن ابنته سرقت لأقام عليها، لا يدفعه عنها كونها ابنة محمد ﷺ.

أخرج الإمام البخاري عن عائشة ﵄: "أن قريشًا أهمتهم المرأة المخزومية التي سرقت فقالوا: من يكلم فيها رسول الله ﷺ ومن يجترئ عليه إلا أسامة فقال: أتشفع في حد من حدود الله؟ ثم قام فخطب فقال: يا أيها الناس إنما ضل من كان قبلكم أنهم كانوا إذا سرق فيهم الشريف تركوه وإذا سرق الضعيف فيهم أقاموا عليه الحد، وايم الله، لو أن فاطمة بنت محمد سرقت لقطع محمد يدها "(١).

وهكذا كان ﷺ يقيم العدل، وينفذ الحدود في دولته وهذا عمر بن الخطاب يقيم العدل والقسط بين الناس يحكم بالحق لرجل يهودي على مسلم، ولم يحمله كفر اليهودي على ظلمه والحيف عليه، أخرج الإمام مالك(٢) من طريق سعيد بن المسيب: " أن عمر بن الخطاب ﵁ اختصم إليه مسلم ويهودي، فرأى عمر أن الحق لليهودي فقضى له، فقال له اليهودي: والله لقد قضيت بالحق "(٣).

وكان ﷺ يأمر عماله أن يوافوه بالمواسم، فإذا اجتمعوا قال: يا أيها الناس إني لم أبعث عمالي ليصيبوا من أبشاركم، ولا من أموالكم، إنما بعثتهم ليحجزوا بينكم، وليقسموا فيئكم بينكم، فمن فعل به غير ذلك فليقم، فما قام أحد إلا رجل واحد قام فقال: يا أمير المؤمنين إن عاملك فلانًا ضربني مائة سوط، قال: فيم ضربته؟ قم فاقتص منه، فقام عمرو بن العاص فقال: يا أمير المؤمنين إنك إن فعلت

---

(١) البخاري، كتاب الحدود، باب كراهية الشفاعة إذا رفع إلى السلطان (١٢/ ٨٧) رقم ٦٧٨٨ .

(٢) هو مالك بن أنس ابن أبي عامر بن عمرو، إمام دار الهجرة ولد عام ٥٣هـ توفي ١٧٩هـ . انظر: سير أعلام النبلاء (٨/ ٤٩-١٣٥).

(٣) الموطأ، كتاب الأقضية ، باب الترغيب في القضاء بالحق ، رقم الحديث ٢ .

هذا يكثر عليك ويكون سنة يأخذ بها من بعدك، فقال: أنا لا أقيد، وقد رأيت رسول الله ﷺ يقيد من نفسه قال: فدعنا فلنرضه، قال: دونكم فأرضوه، فافتدى منه بمائتي دينار كل سوط بدينارين[١] وإن لم يرضوه لأقاده[٢] رضي الله عنه.

وجاءه رجل من أهل مصر يشكو ابن عمرو بن العاص واليه على مصر قائلاً: " يا أمير المؤمنين عائذ بك من الظلم، قال: عذت معاذًا قال: سابقت ابن عمرو بن العاص فسبقته، فجعل يضربني بالسوط ويقول: أنا ابن الأكرمين.

فكتب عمر إلى عمرو - رضي الله عنهما - يأمره القدوم ويقد بابنه معه، فقدم فقال عمر: أين المصري؟ خذ السوط فاضرب فجعل يضربه بالسوط ويقول عمر: اضرب ابن الأكرمين، قال أنس - فضرب، فوالله، لقد ضربه ونحن نحب ضربه، فما رفع عنه حتى تمنينا أن يرفع عنه، ثم قال عمر للمصري: ضع على صلعة عمرو، فقال: يا أمير المؤمنين إنما ابنه الذي ضربني وقد استفيت منه، فقال عمر لعمرو: مذ كم تعبدتم الناس وقد ولدتهم أمهاتهم أحرارًا؟ قال: يا أمير المؤمنين لم أعلم ولم يأتيني[٣].

فانظر إلى هذه المواقف الرائعة لعدالة هذه الأمة، رجل من عامة الناس وفي رواية أنه ذمي من أقباط مصر، يتظلم فيعطى حقه ويقاد من ابن الأمير يجاء به وبأبيه ليعطي الرجل حقه وينصف ثم انظر إلى الحاضرين من أصحاب النبي ﷺ كيف أحبوا ذلك وأيدوه " فوالله، لقد ضربه ونحن نحب ضربه " لا تشفيًا منه ولا شماتة بعمرو وابنه، فالقوم فوق ذلك وأبعد ما يكون عن التشفي والشماتة، ولكنهم جيل أحب العدل وعاشه وتربى عليه على يد رسول الله ﷺ ، لذا فهو يبغض الجور ولا يحب رؤيته في الأمة ولو كان رجل مخالف لها في عقيدتها ودينها وشرعها، ويفرح أشد الفرح لرؤية العدالة ترمي بجذورها في أعماق الأمة ليؤخذ حق ضعفائها وأتباعها من أقويائها[٤].

---

(١) الطبقات الكبرى لابن سعد: (٣/ ٢٩٣-٢٩٤). (٢) أقاده: اقتص منه.

(٣) فتوح مصر والمغرب لابن عبد الحكيم: ٢٢٥،٢٢٦ . (٤) انظر: وسطية أهل السنة بين الفرق ص١٧٠ .

إن الناس إذا شعروا بإقامة العدالة في مجتمعهم، وسيادة العدل في حياتهم، على المسلمين وغير المسلمين، تستقر نفوسهم، وتطمئن قلوبهم، وتهدأ أحوالهم، ويزدهر مجتمعهم ويعمهم الخير والأمن والأمان والسلامة والإسلام[(١)]. إن تحقيق العدل الإلهي في حياة البشرية هدف لكل مسلم فرد أو جماعة حاكم أو محكوم ومن هنا كانت وظيفة كل نبي ورسول ومهمته أن يقيم في الناس القسط. قال تعالى: ﴿**لَقَدْ أَرْسَلْنَا رُسُلَنَا بِالْبَيِّنَاتِ وَأَنزَلْنَا مَعَهُمُ الْكِتَابَ وَالْمِيزَانَ لِيَقُومَ النَّاسُ بِالْقِسْطِ**﴾ (سورة الحديد، آية: ٢٥).

إن الدولة الإسلامية واجب عليها أن تقيم العدل بين الناس وتفسح المجال وتيسر السبل أمام كل إنسان يطلب حقه أن يصل إلى حقه بأيسر السبل وأسرعها، دون أن يكلفه ذلك جهد أو مال[(٢)] وعليها أن تمنع أي وسيلة من الوسائل من شأنها أن تعيق صاحب الحق من الوصول إلى حقه.

لقد أوجب الإسلام على الحكام أن يقيموا العدل بين الناس دون النظر إلى لغاتهم أو أوطانهم أو أحوالهم الاجتماعية، فهو يعدل بين المتخاصمين ويحكم بالحق، ولا يهمه أن يكون المحكوم لهم أصدقاء أو أعداء، أغنياء أو فقراء، عمالاً أو أصحاب عمل، قال تعالى: ﴿**وَلا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلاَّ تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ**﴾ (المائدة، آية: ٨). والمعنى لا يحملنكم بغض قوم على ظلمهم، ومقتضى هذا أنه لا يحملنكم حب قوم على محاباتهم والميل معهم[(٣)].

يقول الأستاذ أبو الأعلى المودودي - رحمه الله - معقبًا على قوله تعالى وأمرت لأعدل بينكم ما نصه: " يعني أنني مأمور بالإنصاف دون عداوة، فليس من شأني أن أتعصب لأحد أو ضد أحد، وعلاقتي بالناس كلهم سواء، وهي علاقة العدل والإنصاف، فأنا نصير من كان الحق في جانبه، وخصيم من كان

(١) انظر: النظام السياسي في الإسلام ص٥٤ .
(٢) نفس المصدر ص٥٨ .
(٣) انظر: النظام السياسي في الإسلام ص٥٢ .

الحق ضده، وليس في ديني أي امتيازات لأي فـرد كائنا من كان، وليس لأقاربي حقوق، وللغرباء عني حقوق أخـرى، ولا للأكابر عندي مميزات لا يحصل عليها الأصاغر، والشـرفاء والوضعاء عندي سواء، فالحق حق للجـميع والذنب والجرم ذنب للجمـيع، والحرام حرام على الـكل والحلال حلال للكل، والفـرض فرض على الكل حتى أنا نفسي لست مستثنى من سلطة القانون الإلهي(١).

إن من أهداف التمكين إقامة المجتمع المسلم الذي يسود فيه العدل بين الناس، ولا بد من إقامة القضاء المستقل في الدولـة المسلمة بحيث لا يتعرض القضاة لأي ضغـوط كانت ويصبحـون لهم الحرية في إصدار أحكامـهم العادلة فيمـا يعرض عليهم من قضـايا في حرية تامة ولا تأخذهم في إقامة العـدل لومة لائم، القوي والضعيف، الحـاكم والمحكوم، المسلم والذمي، الراعي والمرعي، الأمير والحـقير كلٌّ أمام القضاء سواء.

جـ - المساواة:

يعد مبـدأ المساواة أحد المبادئ العامة، التي أقـرها الإسلام، وهي من المبادئ التي تسـاهم في بناء المجتـمع المسلم، ولقـد أقر هذا المـبدأ وسـبق به تشريعـات وقوانين العصر الحاضر.

ومما ورد في القرآن الكريم تأكيدًا لمبدأ المساواة قوله تعالى:

﴿يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوبًا وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُوا إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ﴾ (سورة الحجرات، الآية: ١٣).

وقال الرسول عليه الصلاة والسلام: " يا أيها الناس ألا إن ربكم واحد، وإن أباكم واحد، ألا لا فضل لـعربي على أعجمي، ولا لأعجـمي على عربي، ولا لأحمر على أسود، ولا لأسود على أحمر إلا بالتقوى "(١).

---

(١) الحكومة الإسلامية ص٢٠٢ .

(٢) مسند الإمام أحمد (٥/ ٤١١).

إن هذا المبدأ كان من أهم المبـادئ التي جذبت الكثير من الشعـوب قديمًا نحو الإسلام، فكان هذا المبـدأ مصدرًا من مصادر القـوة للمسلمين الأولين[١]. وليس المقصود بالمساواة هنا " المساواة العامة " بين الناس جميـعًا، في كافة أمور الحياة، كـما ينادي بعـض المخدوعين ويرون ذلك عـدلاً [٢]، فـالاختـلاف في المواهب والقدرات، والـتفاوت في الدرجـات غاية من غـايات الخلق[٣]، ولكن المقـصود المساواة التي دعت إليها الشريعة الإسلامية، مسـاواة مقيدة بأحوال فيها التساوي، وليست مطلقة في جـميع الأحوال[٤] فالمساواة تأتي في معـاملة الناس أمام الشرع والقضاء وكافة الأحكام الإسلامية، والحقوق العامة دون تفريق بسبب الأصل، أو الجنس، أو اللون، أو الثروة، أو الجاه، أو غيرها[٥].

إن الإسـلام جعل المسـاواة بين المسلمين في العـبادات والمعـاملات والحـدود وغيرها، فما من عبادة إلا وتبـرز فيها المساواة بين الناس بشكل واضح، فالصلاة مثـلاً نجد فيهـا الناس جميعًـا غنيهم وفقـيرهم حاكمـهم ومحكومهم، شـريفهم ووضيعهم يصلون في مكان هو المسـجد، ويقفون صفوفًا متراصـة الفقير بجانب الغني والحاكم بجانب المحكوم، وفي صـلاة العيد نجد الناس يقفون جـميعًا على صعيد واحد وفي العراء لا يظللهم شيء من الحر.

وفي الحج مـاذا يلاحظ المسلم، إنه يـجد الناس قـد جـاءوا من كل حـدب وصوب، ومن كل فج عميق بلغات متبـاينة وألوان مختلفة، ومن أوطان متعددة، وأجناس شتى، يلبسـون ثيابًا بيضاء، ويقفـون موقفًا واحدًا هو عـرفة، ويطوفون طوافًا معـينًا في وقت معين، يقومون بسـائر المناسك متساويين لا يتـفاضلون في الهيئة والوقت وغير ذلك.

---

(١) انظر: مبادئ نظام الحكم في الإسلام، عبد الحميد متولي، ص٣٨٥ .

(٢) انظر: الأخلاق الإسلامية وأسسها للميداني (١/ ٦٢٤).

(٣) انظر: فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني ص١٧٩ .

(٤) انظر: الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، شوكت محمد ص٣٠٨ .

(٥) انظر: مبادئ علم الإدارة، محمد نور الدين ص١١٦ .

والصوم فريضة الله على الجميع، فقراء وأغنياء ذكورًا وإناثًا، لم يميز قومًا على قوم أو طبقة على طبقة أو حاكمًا على محكوم، فأوجبه على جميع الناس ولم يعف منه أحدًا حتى ولو كان رئيس الدولة متى توافرت فيه شروط الوجوب، وكذلك الزكاة فقد فرضت على سائر القادرين عليها دون أن يستثنى أحد منهم حتى ولو كان كريمًا سخيًّا يبذل أكثر من الزكاة المستحقة في ماله. وفي الحدود وسائر العقوبات فإن الناس أمام الشرع سواء[1].

إن الناس جميعًا في نظر الإسلام سواسية، الحاكم والمحكوم، الرجال والنساء، العرب والعجم، الأبيض والأسود، لقد ألغى الإسلام الفوارق بين الناس بسبب الجنس واللون أو النسب أو الطبقة والحكام والمحكومين كلهم في نظر الشرع سواء.

وجاءت ممارسات المسلمين التطبيقية خير شاهد على ذلك، فهذا أبو بكر في أول خطبة له بعد أن تولى الخلافة يقول: " وليت عليكم ولست بخيركم، فإن أحسنت فأعينوني وإن أسأت فقوموني، القوي فيكم ضعيف عندي حتى آخذ الحق منه، والضعيف فيكم قوي عندي حتى آخذ له حقه "[2].

وهذا عمر بن الخطاب ﵁ يقول في خطبة له : " أيها الناس من رأى فيّ اعوجاجًا فليقومه. فيقف رجل من وسط الناس يقول: يا عمر والله لو رأينا فيك اعوجاجًا لقومناه بحد سيوفنا، فيقول عمر: الحمد لله الذي جعل في أمة محمد ﷺ من يقوِّم اعوجاج عمر بحد سيفه "[3].

وهذا عمر بن عبد العزيز لما تولى الخلافة أقسم أنه يودُّ أن يساوي في المعيشة بين نفسه وعشيرته، وبين الناس، فقال: " أم والله لوددت أنه بُدئ بي،

---

(١) انظر: النظام السياسي في الإسلام ص٤٤ .
(٢) البداية والنهاية لابن كثير: (٥/ ٢٤٨).
(٣) انظر: نظام الحكم في الإسلام، د. عارف خليل ص٢٧١ .

وبلحمتي، التي أنا منها، حتى يستوى عيشنا وعيشكم، أما والله لو أردت غير هذا من الكلام، لكان اللسان به منبسطًا، ولكنت بأسبابه عارفًا "(١). وقال في خطبة له: " . . . وما منكم من أحد تبلغنا حاجته، إلا أحببت أن أسد من حاجته ما قدرت عليه . . . "(٢).

ولقد مارس عمر بن عبد العزيز مبدأ المساواة بين الناس، في الحقوق والواجبات في كافة مجالات الحياة، فلم يميز بين الناس في حقهم، في تولي الوظائف، والولايات، ولم يعط أحدًا كائنًا من كان شيئًا ليس له فيه حق، فقد ساوى بين أمراء وأشراف بني أمية وبين الناس فمنع عنهم العطايا والأرزاق الخاصة، وقال لهم حين كلَّموه في ذلك: " لن يتسع مالي لكم، وأما هذا المال - يقصد المال الذي في بيت مال المسلمين - فإنما حقكم فيه كحق رجل، بأقصى برك الغماد "(٣)، فكانت سياسته المالية تقوم على مبدأ المساواة، فبيت المال لجميع المسلمين، ولكل واحد منهم حق أن يأخذ منه، أسوة بغيره، فلا يكون حكرًا على فئات معينة من الناس، وعندما رأى أمراء بني أمية قد استحوذوا على قطع واسعة من الأرض وجعلوها حِمى، يُحرم من الاستفادة منها عامة الناس، فقال: " إن الحمى يباح للمسلمين عامة . . وإنما الإمام فيها كرجل من المسلمين، إنما هو الغيث ينزله الله لعباده، فهم فيه سواء "(٤). كما ساوى بين من أسلم من أهل الأديان الأخرى من النصارى واليهود، وبين المسلمين، وعمل على كسر حاجز التنافر بينهم، فقال: " . . فمن أسلم من نصراني، أو يهودي، أو مجوسي، من أهل الجزية اليوم، فخالط عامة المسلمين في دارهم، وفارق داره التي كان بها، فإن له ما للمسلمين، وعليه ما عليهم، وعليهم أن يخالطوه وأن يواسوه . . "(٥).

وفي مجال المساواة بين الناس أمام القضاء، وأحكام الإسلام، نكتفي بهذا

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، ابن عبد الحكم ص١١٢ .
(٢) تاريخ الأمم والملوك (٦/ ٥٧١).
(٣) تاريخ الخلفاء للسيوطي ، ص٢٣٦، ٢٣٧ .
(٤) سيرة عمر بن عبد العزيز، ص٨١ .
(٥) المصدر نفسه، ص٧٩ .

الموقف، كان عمر فيه أحـد أطراف النزاع أمام القاضي وتفصيل ذلك أنه : " أتى رجل من أهل مصر عمر بن عبد العزيز، فقال له: يا أمير المؤمنين، إن عبد العزيز - يقصـد والد عمر - أخذ أرضي ظلـمًا، قال: وأين أرضك يا عبـد الله؟ قال: حلوان، قال عـمر: أعرفهـا ولي شركاء - أي شركـاء في حلوان - وهذا الحاكم بيننا، فمـشى عمر إلى الحاكم فقـضى عليه، فقال عـمر: قد أنفقنا عليـها، قال القاضي: ذلك بما نلتم من غلتها، فقد نلتم مـثل نفقتكم، فقال عمر: لو حكمت بغير هذ ما وليت لي أمرًا أبدًا. وأمر بردِّها "[١].

وكان عمر يقيم وزنًا لمبدأ المساواة بين المسلمين، حتى في الأمور العامة، ومن ذلك أمره بأن لا يخص أناس بدعـاء المسلمين، والصلاة عليهم، فكتب إلى أمـير الجزيرة يقـول : " ... وقد بلغني أن ناسًا من القـصاص قد أحـدثوا صلاة على أمـرائهم، عِـدْلَ ما يصلون علـى النبي ﷺ ، فإذا جـاءك كـتابـي هذا، فمُـرِ القصاص، فليجعلوا صلاتهم على النبي ﷺ خاصة، وليكن دعاؤهم للمؤمنين والمسلمين عامة، وليَدعوا ما سوى ذلك "[٢].

ومن ذلك يتضح اهتمام عمر بالمساواة بين عامة الناس، حتى في الدعاء لهم، ولا يختص أحد بدعاء، فالمسلمون عامة في حاجة دعوة الله عز وجل لهم، والله سبحانه وتعـالى جدير بالإجابة[٣]، ولم يكتف عمـر بالأخذ بمبدأ المساواة بنفـسه فحسب، بل كان يأمر عماله وولاته بذلك، فقد كتب إلى عامله على المدينة يقول له: " اخرج للـناس، فآسي بينهم في المجلس والمنظر، ولا يكن أحـد الناس آثر عندك من أحد. ولا تقولن هؤلاء من أهل بيت أميـر المؤمنين، فإن أهل بيت أمير المؤمنين وغيرهم عندي اليوم سـواء. بل أنا أحرى أن أظن بأهل بيت أمير المؤمنين أنهم يقهرون مَنْ نازعهم "[٤].

---

(١) عمر بن عبد العزيز وسياسته في رد المظالم، ماجدة زكريا، ص٢١٠ .
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، ص٢٧٣ .
(٣) انظر: إدارة عمر بن عبد العزيز، ص٢٩٩ .
(٤) الطبقات لابن سعد (٥/ ٣٤٣).

وبعد هذا العرض الموجز ترى أن الدولة الإسلامية لا بد لها وأن تعمل على إنزال هذا المبدأ في دنيا الناس وعليها أن تراعي الآتي:

١- العلم بأن مبدأ المساواة لا يخلو من أنه أمر تعبدي، تؤجر عليه من خالق الخلق سبحانه وتعالى.

٢- إسقاط الاعتبارات الطبقية، والعرقية، والقبيلة والعنصرية، والقومية، والوطنية، والإقليمية، وغير ذلك من الشعارات الماحقة لمبدأ المساواة الإنسانية، والتي تقوم عليها وتستحسنها بعض الجماعات، والدول والمؤسسات، بل والمجتمعات، وإحلال المعيار الإلهي بدلاً عنها للتفاضل، ألا وهو (التقوى).

٣- ضرورة مراعاة مبدأ تكافؤ الفرص للجميع، ولا يراعي أحد لجاهه أو سلطانه، أو حسبه، أو نسبه، وإنما الفرص للجميع وكل حسب قدرته، وكفاءاته، ومواهبه، وطاقته، وإنتاجه.

إن تطبيق مبدأ المساواة بين رعايا الدولة الإسلامية يقوي صفها، ويوحد كلمتها، وينتج عنه مجتمع متماسك متراحم يعيش لعقيدة، ومنهج، ومبدأ.

د- الحريات:

نعني بالحرية في نظر الإسلام ممارسة الأفراد لكل حق من الحقوق الشخصية (الجانب المادي)، والفكرية (الجانب المعنوي)، التي لا تتعارض مع أحكام الشريعة وتعاليمها، ولا تصطدم مع المصالح الجماعية، ولا تتنافى مع الآداب الاجتماعية[1].

لذا فالحرية العامة للإنسان من الأمور الأساسية في حياته، فهي جزء لا يتجزأ من تكوينه النفسي وتركيبه السلوكي منذ أن وجد، ولكن الدنيا لم تعرف حرية بالمعنى الذي جاءت به رسالة الإسلام[2]، فالحرية في الإسلام لا تحتاج إلى أي تحديد من السلطة أو اعتراف، ولا يحتاج المسلم للوصول إلى حريته العامة إلى

(١) انظر: مبادئ الثقافة الإسلامية ، لمحمد النبهان، ص٣٦٠، ٣٦١ .

(٢) انظر: الإسلام تربية الإنسان، إبراهيم سعادة، ص١٣٩ .

اتخاذ أي إجراء، إذ كفل الإسلام حق المسلم في الحرية فكانت أحد مبادئ الحكم التي أقرها الإسلام، ولقد حرص رسول الله ﷺ، والخلفاء الراشدون من بعده، على تطبيق هذا المبدأ، بمنح المسلمين وغيرهم حقهم في الحرية، وتربية الأمة على ذلك[١].

حقوق الأفراد:

إن لكل فرد في الدولة الإسلامية حقوق، وقد كفل الإسلام هذه الحقوق وطالب المسلمين بالحفاظ عليها، ما دام الفرد واحدًا من رعية الدولة الإسلامية، أي مواطنًا فيها، سواء أكان مسلمًا أم كتابيًّا التزم بدستور الدولة، وخضع لنظامها العام، ولم يتمرد أو يخرج عن الدولة[٢].

١- حق الحياة:

إن الإسلام صان حق الحياة لكل الناس داخل الدولة الإسلامية أو خارجها، للمسلم وغير المسلم، لا يستثنى من ذلك إلا الذي يقف في وجه الدولة الإسلامية، ولا يجوز للدولة أن تعتدي على حياة أي شخص إلا إذا ارتكب جرمًا يؤاخذ عليه الشرع، ويعاقب عليه القانون الإسلامي، ولا يقف الإسلام عند حد حرمة الاعتداء على الأنفس، بل أوجب على الدولة تقديم الرعاية، وتوفير العيش الكريم لكل فرد لم يستطع الحصول عليه، سواء أكان من المسلمين أم من غير المسلمين، إذا وجد المال في بيت المال وهذا أمر متفق عليه بين المسلمين، والشواهد التاريخية منذ العهد النبوي تدل دلالة قاطعة على كفالة الدولة للمحتاجين من أفراد المجتمع في الدولة الإسلامية، دون تمييز بين المسلمين وغير المسلمين، وعلى هذا فإن الدولة الإسلامية من واجبها منع التعدي على أرواح الأفراد، ودفع الظلم عنهم، وتحقيق الكفاية للمجتمع[٣].

---

(١) انظر: إدارة عمر بن عبد العزيز، ص٣٠٩.
(٢) انظر: نظام الحكم في الإسلام، د. عارف خليل، ص١٥١.
(٣) انظر: نظام الحكم في الإسلام، ص١٥١، ١٥٢.

لقد اهتمت الدولة الإسلامية بكل رعاياها حتى المولود الذي يولد في الإسلام فهذا مثلاً رائعًا يدل على هذا الاهتمام. كان الفاروق ﷺ يفرض لكل من بلغ سن الفطام عطاءً من بيت مال المسلمين، فكان الآباء ينتظرون بشوق ليوم فطام أبنائهم إذ يذهبون بهم إلى صاحب الديوان، فيسجل أسماءهم وعطاءهم السنوي، ولعل بعض الناس كانوا يعجلون فطام أبنائهم من أجل العطاء فيضرون بالأبناء ويستفيدون العطاء وما كان عمر يعلم ذلك.

وبينما الفاروق يحرس في قافلة دخلت المدينة ليلاً، وكان معه عبد الرحمن ابن عوف سمع صوت بكاء طفل، فتوجه نحوه، فقال لأمه: اتقي الله وأحسني إلى صبيك. ثم عاد إلى مكانه، فلما كان آخر الليل سمع بكاءه فأتى أمه فقال: ويحك إني لأراك أم سوء، ما لي أرى ابنك لا يقر منذ الليلة؟

قالت: يا عبد الله قد أبرمتني منذ الليلة (أي أضجرتني) إني أريغه[1] عن الفطام فيأبى، قال: ولم؟

قالت: لأن عمر لا يفرض إلا للفطيم، قال: وكم له؟ قالت: كذا وكذا شهرًا، قال: ويحك لا تعجليه، فصلى الفجر وما يتبين الناس قراءته من غلبة البكاء، فلما سلم قال: يا بؤسًا لعمر: كم قتل من أولاد المسلمين، ثم أمر مناديًا فنادى: أن لا تعجلوا صبيانكم عن الفطام فإنا نفرض لكل مولود في الإسلام وكتب بذلك إلى الآفاق[2].

ونستخلص من الحادثة عدة أمور:

- إحاطة الفاروق المباشرة بشئون الرعية وتتبعه أخبارهم بنفسه حيث علم بقدوم القافلة ومنزلهم.
- القدوة الحسنة منه حيث أخذ معه سيدًا آخر من عظماء الصحابة هو عبد الرحمن بن عوف لحراسة القافلة ولم يكلف أحدًا من المسلمين.

---

(١) أريغه عن الفطام : أي أريده أن ينفطم.

(٢) مجمع الزوائد (٦/٦، ٧) وصحح الحديث.

- بحثه وتحقيقه عن بكاء الصغير ما سببه؟ وتكراره النصيحة لأمه حتى خرج بالسبب الذي كان سببًا في إسعاد كثير من المسلمين آباءً وأبناءً.

- مسارعته إلى حل المشكلات بأفضل الطرق وأقومها .

- تعـميمـه ذلك القرار الحـكيم على كل الولايات في الدولة؛ فأصـبح كل مولود في الإسـلام يتعين له عطاؤه السنـوي إن هذا العمل لا يوجد له نـظير في التاريخ البشري كله قديمًا وحديثًا [١].

وعامل أهل الكتاب مـعاملة رفيعة؛ فـعندما مر بباب قوم وعليـه سائل يسأل -شيخ ضرير البصر- فضـرب عضده من خلفه وقال : من أي أهل الكتاب أنت؟ فقـال : يهودي، قـال: فما ألجـأك إلى ما أرى؟ قال : أسـأل الجزية والحـاجة، والسن، قال : فأخذ عمر بيده وذهب به إلى منزله فرضخ له بشيء من المنزل[٢]، ثم أرسل إلى خـازن بيت المال فقـال: انظر هذا وضرباءه؛ فـوالله ما أنصـفناه إن أكلنا شيبته ثم نخذله عند الهرم، ووضع عنه الجزية وعن ضربائه"[٣]. وقد كتب إلى عماله معمـمًا عليهم هذا الأمر[٤] إن حق الحياة الكريمة في الدولة الإسـلامية محفوظ لكل رعاياها.

٢- حرية العمل:

إن الدستور الإسلامي يبيح لرعاياه الحرية الاقـتصادية المتمثلة في حرية العمل والتملك. وقد دعا الإسلام الناس إلى العمل وحثهم عليه قال تعالى: ﴿**هُوَ الَّذِي جَعَلَ لَكُمُ الْأَرْضَ ذَلُولاً فَامْشُوا فِي مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا مِن رِّزْقِهِ وَإِلَيْهِ النُّشُورُ**﴾ (الملك :١٥).

إن من حق الفرد في الدولة الإسـلامية أن يمارس جمـيع الشئون الاقتـصادية

---

(١) انظر: أولولويات الفاروق، د. غالب القرشي، ص٣٦٣،٣٦٤ .

(٢) رضخ: أعطاه شيئًا ليس بالكثير.

(٣) أحكام أهل الذمة لابن القيم (١/ ٣٨).

(٣) نصب الراية للزيلعي (٣/ ٤٥٣).

بشرط ألا يخــرج إلى دائرة المحرمــات التي منعتــها الشــريعة الغراء مــثل؛ الربا، والغش، والاحتكار، والقمــار فإذا وضع الفرد في المحرمات تــتدخل الدولة لمنعه من أجل المحافظة على مصلحة الأمة التي قدرتها الشريعة وأحكمتها بتوجيهاتها.

لقد أباحت الشريعة حرية التجــارة والكسب وحرص الخلفاء على حماية هذا النوع من الحرية فهذا عمر بن عبد العــزيز، قد أكد في كتاب له إلى عُمَّاله، على ضرورة منح الناس حــرية استثمار أمــوالهم، والاتّجار بها في البر أو الــبحر على حد سواء، فقال: " . . . وأن يبتغــي الناس بأموالهم في البر والبحر، لا يُمنعون ولا يُحبسون . . . "[1].

وفي شأن البــر والبحر، وأنهمــا مما سخر الله لعــباده لابتغاء فــضله، ولحرية الكسب فيهما يقول: " وأما البحر فإنا نرى سبيله سبيل البر، قال سبحانه: ﴿ **اللَّهُ الَّذِي سَخَّرَ لَكُمُ الْبَحْرَ لِتَجْرِيَ الْفُلْكُ فِيهِ بِأَمْرِهِ وَلِتَبْتَغُوا مِن فَضْلِهِ** ﴾ (الجاثية: ١١). فأذن فيه أن يــتَّجر فيــه من شاء، وأرى أن لا تحول بين أحد من الناس وبينه - يقــصد البحر - فــإن البر والبحر لله جميــعًا، سخرها لعبــاده يبتغون فيهــما من فضله، فكيف نحُول بين عباد الله وبين معايشهم "[2].

٣- حرية النقد والحرية الشخصية:

إن المجتمع الإســـلامي في أصله كالجسد الواحــد قال تعالى: ﴿ **وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُــمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّـــلاةَ وَيُؤْتُــونَ الزَّكَاةَ وَيُطِيعُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ أُوْلَئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ** ﴾ (التوبة: ٧١).

وفي السنة النبوية طائفــة من الأحاديث توجب على الأفراد محــاسبة السلطة ونصحــها، ففي الحــديث الصحيــح الذي رواه أبو سعيــد الخدري قال: ســمعت

---

(١) سيرة عمر بن عبد العزيز، ابن الحكم، ص٧٨ .

(٢) المصدر نفسه، ص٨٢ .

رسول الله ﷺ يقول: " من رأى منكم منكرًا فليغيره بيده فإن لم يستطع فبلسانه فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان "(١).

إن الدستور الإسلامي منح للمسلمين الحرّية السياسية، إذ لا طاعة لمخلوق في معصية الخالق، حتى وإن كان حاكمًا أو واليًا، وقد بينا في بحثنا هذا موقف الخلفاء الراشدين، وهذا عمر بن عبد العزيز عندما تولى الخلافة أعاد إلى الأمور إلى نصابها، وأعلن استئناف الحرية السياسية وشجع على الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، مُنكِرًا على الناس واقعهم المظلم، وأن الإسلام لا يرضى السكوت على الظلم، فقد خطب الناس يومًا فقال " ... ألا لا سلامة لامرئ في خلاف السنة، ولا طاعة لمخلوق في معصية الله، ألا وإنكم تسمون الهارب من ظلم إمامه العاصي، ألا وإن أولاهما بالمعصية الإمام الظالم "(٢).

ولقد قام هذا الخليفة العادل بالتنازل عن الخلافة عقب إعلان العهد له بالخلافة، وطلب من الأئمة أن تختار لهم خليفة، فاختاره أهل الحل والعقد وبايعته الأمة، ولقد أعطاه مجالاً واسعًا للرأي والتعبير، وأتاح لكل متظلم أن يشكو من ظلمه وأطلق للكلمة حريتها، وترك للناس حرية التعبير، قال القاسم ابن محمد بن أبي بكر الصديق(٣) رضي الله عنه عندما تولى عمر بن عبد العزيز الخلافة: " اليوم ينطق كل من كان لا ينطق "(٤) وهذا وصف موجز رائع يدل على الحرية في دولة عمر بن عبد العزيز.

إن حرية النقد، والتعبير تبني مجتمعًا سليمًا صالحًا للتطور والتقدم والازدهار، وتقضي على أمراض النفاق والتزلف وهي من أخطر الأمراض التي تضعف المجتمع، وتجعله ينحدر في الضعف والهوان والضياع.

---

(١) مسلم شرح النووي، (٢ / ٢٢).
(٢) سيرة عمر بن عبد العزيز للإمام ابن الجوزي، ص٢٤٠ .
(٣) هو حفيد أبو بكر الصديق ، تابعي من الفقهاء السبعة توفي عام ١١٢هـ. ابن سعد (٥/ ٣٤٤).
(٤) الطبقات لابن سعد (٥/ ٣٤٤).

إن الإسلام احترم الإنسان وقدره وأعطاه ما يضمن له حريته الشخصية، من حرية التنقل، فله أن ينتقل من مكان إلى آخر، وأن يخرج من البلاد ويعود إليها دون أن يكون هناك أي قيد على هذا التنقل، إلا ما تقتضيه مصلحة البلاد كمنع السفر دخولاً وخروجًا حين انتشار الوباء، وفقًا لحديث الرسول ﷺ : " إذا سمعتم بأرض فلا تقدموا عليه، وإذا وقع بأرض وأنتم فيها فلا تخرجوا فرارًا منه "[1].

ومن الحريات الشخصية التي كفلها الإسلام لكل فرد في الدولة حق الأمن، فلا يجوز في نظر الشريعة حبس شخص إلا بسبب جريمة تستحق العقوبة، لأن الأصل في هذه الحالات أن الإنسان بريء حتى تثبت إدانته، فالمسكن مصون في الإسلام، فلا يجوز اقتحامه من غير استئذان إلا عند الضرورة[2] قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَدْخُلُوا بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا وَتُسَلِّمُوا عَلَىٰ أَهْلِهَا ... ﴾ (سورة النور، آية: ٢٧).

* ■ *

(١) البخاري، كتاب الحيل، باب ما يكره من الاحتيال في الفرار من الطاعون (٨/ ٨٢) رقم ٦٩٧٣

(٢) انظر: نظام الحكم في الإسلام، د. عارف خليل ، ص١٥٥ .

المبحث الثاني
نشر الدعوة إلى الله

وذلك أن دين الإسلام، دين دعوة مستمرة، لا تتوقف، حتى تتوقف الحياة البشرية من على وجه الأرض.

وممارسة الدعوة بعد التمكين هي الممارسة المجدية القادرة على الوصول إلى أهدافها، لأن دولة وحكومة ترعاها وتؤيدها، والحق مهما كان واضحًا، فإنه بحاجة إلى قوة تؤيده وتحميه، ذاك الشأن هو سنة من سنن الله في الأرض. إن الدولة المحكمة لشرع الله هي المناط بها إعداد وتهيئة وحماية الدعاة، وتوفير السبل والوسائل المعينة لهم على القيام بهذه المهمة، وهي المسئولة أيضًا عن نشر هذه الدعوة في أرجاء الأرض وربط السياسة الخارجية على الأسس الدعوية العقدية، قبل بنائها على الأسس المصلحية النفعية، وذلك كما كان يفعل رسول الله ﷺ - كان يقوم بتبليغ الدعوة إلى الآفاق امتثالاً لقول الله تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الرَّسُولُ بَلِّغْ مَا أُنزِلَ إِلَيْكَ مِن رَّبِّكَ وَإِن لَّمْ تَفْعَلْ فَمَا بَلَّغْتَ رِسَالَتَهُ وَاللَّهُ يَعْصِمُكَ مِنَ النَّاسِ إِنَّ اللَّهَ لا يَهْدِي الْقَوْمَ الْكَافِرِينَ**﴾ (سورة المائدة: ٦٧).

وقد امتثل ﷺ للأمر وأرسل إلى ملوك الأرض، فكتب إلى ملك الروم، فقيل له: إنهم لا يقرءون كتابًا إلا إذا كان مختومًا، فاتخذ خاتمًا من فضة وختم به الكتب إلى الملوك، وبعث كتابًا ورسلاً إلى ملوك فارس والروم، والحبشة ومصر والبلقاء واليمامة في يوم واحد، ثم بعث إلى حكام عمان والبحرين واليمن وغيرهم(١).

إن الدولة المسلمة من أهدافها دعوة الناس إلى دين الله ولذلك ربما تؤسس وزارة أو مؤسسة أو هيئة خاصة بأمور الدعوة وظيفتها إعانة الدعاة للتغلب على هموم الدعوة، بكل ما أوتيت من إمكانات فهي التي تشرف على:

---

(١) انظر: زاد المعاد لابن القيم (١/ ١١٩-١٢٤).

١- إعداد الدعاة على المستوى الذي يتطلبه العصر الذي يعيشون فيه، والمجتمع الذي يمارسون فيه الدعوة، إعدادًا علميًّا فنيًّا ميدانيًّا.

٢- تنظيم وسائل الإعلام والتنسيق بينها لتؤدي مهمتها في الدعوة إلى الله.

٣- توجيه دعوة الله إلى عامة المسلمين والمقصرين في حق دينهم وتوجيه الدعوة إلى غير المسلمين في العالم كله إلى غير ذلك، ودعوة الأمة المسلمة إلى الله تكون بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، والدعوة إلى الأخلاق الكريمة بكافة الوسائل الشرعية، وأما خارج الأمة، فمن أعظم الوسائل الجهاد في سبيل الله.

أولاً : إحياء الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر:

إن من وسائل الدعوة إحياء فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر من خلال إشراف الدولة، لأن فريضة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هي جزء من سياسة الدولة الإسلامية الحاكمة بما أنزل الله، فهي ليست مجرد جهد شخصي من المتطوعين أصحاب النوايا الطيبة، وليست أصواتًا تعلو فوق المنابر تخاطب البناء التحتي للمجتمع الذي لا يملك حولاً ولا قوة حيال منكرات ومفاسد مدخولة على حياة الناس .. لا، ليس الأمر كذلك، ولكن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ركن من أركان خطة الدولة في إقامة الدين الذي تستمد الدولة شرعيتها منه.

فعبادة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والدعوة إلى الخير، هي الأرضية التي تنطلق منها السياسات الإعلامية والتثقيفية والتعليمية والاجتماعية والمالية، وشتى النواحي التي ينعكس أثرها على الدين سلبًا أو إيجابًا، فبهذا تكون الدولة مقيمة لشعائر الإسلام الظاهرة التي بها تعرف أنها دار إسلام.

يقول ابن تيمية - رحمه الله - : " ... وولي الأمر إنما نصب ليأمر بالمعروف وينهى عن المنكر، وهذا هو مقصود الولاية، فإذا كان الوالي يمكِّن من المنكر، كان

قد أتى بضد المقصود، مثل من نصبته ليعينك على عدوك فأعان عدوك عليك، وبمنزلة من أخذ مالاً يجاهد به في سبيل الله، فقاتل به المسلمين "[1].

وواضح من كلامه رحمه الله أن واجب الولاة إقامة هذه الشعيرة وتمكين الناس من أدائها، لا منعهم منها.

إن الأمة لا تكون خير أمة أخرجت للناس إلا بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر والإيمان بالله وبإقامة هذه الشعيرة تتوطد دعائم المجتمع الإسلامي على أسس الحق والخير، وبه تقمع دعاوى المناوئين والشاغبين على نهج الإسلام قال تعالى: ﴿ **كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ** ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١١٠).

إن الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر هو عنوان خيرية هذه الأمة، حتى أن الآية قدمته في الذكر قبل الإيمان، لأن الإيمان والدين لا يحفظان في حياة المسلمين دون الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر.

ومما يدل على أن الدين يضيع إذا لم يتأمر الناس بالمعروف ويتناهون عن المنكر ما حدث لبني إسرائيل، إذ كان إهمالهم لتلك الفريضة بداية النهاية لفقدهم رتبة التفضيل على ألسنة الرسل، كما قال تعالى: ﴿ **لُعِنَ الَّذِينَ كَفَرُوا مِن بَنِي إِسْرَائِيلَ عَلَىٰ لِسَانِ دَاوُودَ وَعِيسَى ابْنِ مَرْيَمَ ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا وَّكَانُوا يَعْتَدُونَ (٧٨) كَانُوا لَا يَتَنَاهَوْنَ عَن مُّنكَرٍ فَعَلُوهُ لَبِئْسَ مَا كَانُوا يَفْعَلُونَ** ﴾ (سورة المائدة: ٧٨، ٧٩).

إن من واجبات الدولة المسلمة العمل على إحياء هذه الشعبة (الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر)، وإعداد من يقوم عليها فقهًا، وخلقًا، وتفرغًا، واحتسابًا لوجه الله تعالى.

بل إن الدولة تقوم بإنشاء هيئة خاصة بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر لها مؤسساتها ونظمها وقوانينها ولوائحها تقوم هذه الهيئة بإلزام الناس بمنهج الإسلام

---

(١) مجموع الفتاوى (٢٨/٣٠٣).

في الحياة وتقف الحكومة من وراء هذه الهيئة وتدعمها، ويدخل تحت الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر إقامة الحدود، وجلب المصالح، وإحياء الأخلاق الكريمة، فإقامة حدود الله وفق تطبيق أمثل وأحكام عادلة، أمن للأمة واستقرار للمجتمع وثبات للدين، وقوة للدولة، ورضى لرب العباد يقول ابن القيم رحمه الله: " الحدود جعلها الله تعالى زواجر للنفوس وعقوبة ونكالاً وتطهيراً، فشرعها من أعظم مصالح العباد في المعاش والمعاد، بل لا تتم سياسة ملك من ملوك الأرض إلا بزواجر وعقوبات "(١).

وإن من يستقرئ أحوال المجتمعات القديمة والمعاصرة يرى ما تصنعه من وسائل وأجهزة، وما تستحدثه من فلسفات ومناهج وأساليب تقف من ورائها مؤسسات علمية وتربوية وفنية إلى جانب السياسات التشريعية والتنفيذية، كل هذا من أجل تثبيت أركان المبادئ التي تقوم عليها هذه المجتمعات ومنع ما قد يتهددها من أخطار. ومجتمع الإسلام يقوم بمبادئ الدين الحق، وهذا الدين به تحفظ ضروريات الناس من عقيدة ومال وعرض وعقل. فكان لا بد من المحافظة عليه، محافظة على هذه الضروريات.

وهذه المحافظة على الضروريات، من أجلها شرعت الحدود، قال الغزالي رحمه الله : " ومقصود الشرع من الخلق خمسة، وهو: أن يحفظ عليهم دينهم، ونفسهم وعقلهم ونسلهم ومالهم. فكل ما يتضمن حفظ هذه الأصول الخمسة هو مصلحة، وكل ما يفوت هذه الأصول الخمسة فهو مفسدة ودفعها مصلحة "(٢).

وعندما تحمي الدولة الإسلامية كل واحد من رعاياها على هذا النحو فلا شك أنها قد حققت قدراً كبيراً من معنى إقامة الدين في الأرض.

فهي ستمنع بذلك، أو تعمل على منع الكفر والقتل والزنا والسرقة والسكر وما شابه ذلك من آفات المجتمع التي لا تقوم على الدين.

---

(١) أعلام الموقعين عن رب العالمين (٣/ ١٨٤).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٤٥٧).

والحدود الشرعية جديرة بتحقيق ذلك كله، فقضاء الشرع بقتل الكافر المضل، وعقوبة المبتدع الداعي إلى بدعة ممن يفتنون الخلق عن دينهم، وقضاؤه بإيجاب القصاص، الذي به حفظ النفوس، وإيجاب حد شرب الخمر، الذي به حفظ العقول، التي هي ملاك التكليف، وإيجاب حد الشرب، الذي به حفظ النسل والأنساب وإيجاب زجر الغُصَّاب والسُّرَّاق، بما يحفظ الأموال التي هي معاش الخلق، كل هذا مما يعتبر من الضروريات التي لا يصلح أمر الناس إلا بها.

وللإسلام نظامه الخاص في إقامة المجتمع على الدين عن طريق إقامة الحدود فهو يبذل كل المساعي، ويسلك كل الطرق لمنع وقوع الجرائم والمخالفات، فإذا وقعت كان علاجه لها هو الناجح في محو آثارها، والناجع في إنجاء المجتمع من شره[1]. إن مرحلة التمكين من أهدافها أن يسود شرع الله في كافة شئون الحياة.

إن تلك الفرائض المنوطة بدولة الإسلام الحاكمة بما أنزل الله، تطبيقًا لحدود الله وإقامة لشريعته .. إنما هي متفرعة عن قيامها أولاً بإيجاد واقع عملي في حياة الناس، تقوم بعد ذلك بمقتضاه بتطبيق الحدود وتنفيذ الشرائع فلا بد إذن من واقع عملي إصلاحي يتكفل بتوفير المطعم للجوعان، والملبس للعريان، والزوجة للأعزب، والعون للمحتاج، ثم تحاسب بعد ذلك بمقتضى الشرع من استبد به النزق فخرج عن حدود الله، وخالف مبادئ الدين.

إن غاية التشريع الإسلامي هي إسعاد الناس وإصلاحهم، وتيسير أمرهم ورفع الحرج عنهم قال تعالى: ﴿ **يُرِيدُ اللَّهُ لِيُبَيِّنَ لَكُمْ وَيَهْدِيَكُمْ سُنَنَ الَّذِينَ مِن قَبْلِكُمْ وَيَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ (٢٦) وَاللَّهُ يُرِيدُ أَن يَتُوبَ عَلَيْكُمْ وَيُرِيدُ الَّذِينَ يَتَّبِعُونَ الشَّهَوَاتِ أَن تَمِيلُوا مَيْلاً عَظِيماً (٢٧) يُرِيدُ اللَّهُ أَن يُخَفِّفَ عَنكُمْ وَخُلِقَ الإِنسَانُ ضَعِيفًا** ﴾ (النساء، آية: ٢٦-٢٨). إذن فإصلاح دنيا الناس أساس، وتطبيق أحكام الحدود والقصاص وغيره، والإجراءات الوقائية إنما هو محافظة على ذلك الإصلاح،

(١) المصدر نفسه (١/ ٤٥٧).

حتى لا يعكر صفوه بفتنة مـحارب عدواني، أو شهواني زان، أو لص سارق، أو ملحد مارق.

إن من أهداف مرحلة التمكين إنزال منهج الإسلام الإصلاحي في دنيا الناس والذي يدور حول مصالح ثلاث:

١- درء المفاسد، المعروف عند أهل الأصول بالضروريات.

٢- جلب المصالح المعروف عندهم بالحاجيات.

٣- الجري على مكارم الأخلاق ومحاسن العادات المعروف عند الأصوليين بالتحسينات والتتميمات[١]. وبإقامة حكم الله تتحقق هذه المصالح الثلاث، وبالتالي تصلح أحوال الدنيا وتستقيم على منهج الله، ومن ثم يكون ذلك صلاحًا لآخرة الناس أيضًا.

وعلى وجه الإجمال يمكننا تتبع مقاصد الشريعة في الحكم الإسلامي بإلقاء نظرة على تشريعاته الهادفة لتحقيق المقاصد الثلاثة:

أ- درء المفاسد، وهو المعبر عنه بالضروريات، والمراد به درؤها عن ستة أشياء:

١- الدين:

جاءت أحكام الشرع حاسمة في درء أي مفسدة قد تلحق بالدين، فكان أن شرع الإسلام الجهاد لدفع الفتنة وإعلاء كلمة الله، قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾ (سورة البقرة، آية: ١٩٣).

وقال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ كُلُّهُ لِلَّهِ**﴾ (الأنفال: ٣٩).

فالأولى في قتال من بدأ المسلمين بالظلم، والثانية استغرقت كل فتنة وكل كفر من كافر، فالقتال فيها محاربة للكفر الذي يعتبر أكبر تهديد للدين، ولهذا " كله " بالتأكيد الحصري[٢].

---

(١) انظر: الموافقات (٢/٨-١٦).

(٢) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/٤٦٦).

وقد روى أبو بكر الصديق عن رسول الله ﷺ قوله: " أمرت أن أقاتل الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله، فقد عصم مني ماله ونفسه إلا بحقه، وحسابه على الله " وقال أبو بكر رضي الله عنه: والله لأقاتلن من فرق بين الصلاة والزكاة فإن الزكاة حق المال والله لو منعوني عقالاً كانوا يؤدونه إلى رسول الله ﷺ لأقاتلنهم على منعه "(١).

وهو قتال من أجل نشر الدعوة للدين، وقال ﷺ: " من بدل دينه فاقتلوه "(٢). وهو من أجل حفظ الدين من عبث المرتدين.

٢- النفس:

جاءت شريعة الإسلام بأحكام القصاص للمحافظة على النفس، ودرء المفاسد الناشئة عن شيوع القتل وسفك الدماء المحرمة، كما قال تعالى: ﴿**يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِصَاصُ فِي الْقَتْلَى**﴾ (سورة البقرة: ١٧٨).

وقال تعالى: ﴿**وَلَكُمْ فِي الْقِصَاصِ حَيَاةٌ يَا أُولِي الأَلْبَابِ لَعَلَّكُمْ تَتَّقُونَ**﴾ (سورة البقرة: ١٧٩). وقال تعالى: ﴿**وَمَن قُتِلَ مَظْلُوماً فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَاناً فَلا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُوراً**﴾ (سورة الإسراء: ٣٣).

٣- العقل:

وقد جاءت الأحكام الشرعية بالمحافظة على العقل الذي ميز الله به الإنسان وكرمه، فحرمت الخمر التي تذهب بالعقل وتغيبه كما قال تعالى: ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّمَا الْخَمْرُ وَالْمَيْسِرُ وَالأَنصَابُ وَالأَزْلامُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ الشَّيْطَانِ فَاجْتَنِبُوهُ**﴾ إلى قوله ﴿**فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ**﴾ (سورة المائدة: ٩٠، ٩١). وقال رسول الله ﷺ: " كل مسكر خمر وكل خمر حرام "(٣). وشرع إقامة الحد على السكران، وحرم المخدرات والمفترات التي تؤثر على سلامة العقل(٤).

---

(١) مسلم، كتاب الإيمان، باب الأمر بقتال الناس حتى يقولوا لا إله إلا الله (١/ ٥١) رقم ٣٢.

(٢) البخاري، كتاب الجهاد، باب لا يعذب الله، فتح الباري (٦/ ١٧٣).

(٣) البخاري، كتاب الأشربة، باب الخمر من العسل، فتح الباري (١٠/ ٤٤) رقم ٥٥٨٥.

(٤) انظر: الحكم والتحاكم في خطاب الوحي (١/ ٤٦٧).

٤- النسب:

جاءت الشريعة لدفع كل مفسدة تلحق بالأنساب، فإلى جانب تحريم الزنى وإيجاب الحد على الزناة المعلوم من قول الله تعالى: ﴿وَلا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلاً﴾ (سورة الإسراء: ٣٢).

وقوله: ﴿الزَّانِيَةُ وَالزَّانِي فَاجْلِدُوا كُلَّ وَاحِدٍ مِّنْهُمَا مِائَةَ جَلْدَةٍ﴾ (النور: ٢).

وإلى حد الرجم للمحصنين - إلى جانب ذلك، أوجبت الشريعة العدة على النساء عند مفارقة الأزواج بطلاق أو موت، لئلا يختلط ماء الرجل بماء رجل آخر في رحم المرأة. قال تعالى: ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: ٢٢٨). وقال: ﴿ وَالَّذِينَ يُتَوَفَّوْنَ مِنكُمْ وَيَذَرُونَ أَزْوَاجًا يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ أَرْبَعَةَ أَشْهُرٍ وَعَشْرًا﴾ (سورة البقرة: ٢٣٤). وكذلك منعت الشريعة نكاح الحامل حتى تضع، حتى لا يسقى الرجل بماء غيره فقال تعالى: ﴿وَأُوْلاتُ الأَحْمَالِ أَجَلُهُنَّ أَن يَضَعْنَ حَمْلَهُنَّ﴾ (سورة الطلاق: ٤).

وهذه الأحكام كلها يؤول تنفيذها إلى القاضي المسلم في الدولة المسلمة إضافة إلى مسئولية الناس الشخصية عن تبعاتها في المجتمع المسلم.

٥- العرض:

إن شريعة الإسلام كفلت كل وسائل حماية العرض، فنهت المسلم عن أن يتكلم في حق أخيه بأي شيء يؤذيه، وأوجبت حد القذف ثمانين جلدة على من يقذف. قال تعالى: ﴿ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً﴾ (سورة النور: ٤).

وحرمت الشريعة الغيبة : ﴿وَلا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا﴾ (الحجرات: ١٢).

ونهت عن اللمز والتنابز بالألقاب: ﴿وَلا تَلْمِزُوا أَنفُسَكُمْ وَلا تَنَابَزُوا بِالأَلْقَابِ﴾ (سورة الحجرات: ١١).

وحرمت اللعن والسب وعموم الأذى للمؤمنين قال تعالى: ﴿وَالَّذِينَ يُؤْذُونَ الْمُؤْمِنِينَ وَالْمُؤْمِنَاتِ بِغَيْرِ مَا اكْتَسَبُوا فَقَدِ احْتَمَلُوا بُهْتَانًا وَإِثْمًا مُّبِينًا﴾ (الأحزاب: ٥٨).

٦- المال:

جاءت الشريعة الإسلامية لحفظ أموال الناس التي هي قوام حياتهم. وقد حرم الإسلام كل وسيلة لأخذ المال بغير حق شرعي، فقال تعالى: ﴿وَلا تَأْكُلُوا أَمْوَالَكُم بَيْنَكُم بِالْبَاطِلِ﴾ (سورة البقرة: ١٨٨). وحرّم السرقة وأوجب الحد على من ثبتت عليه تلك الجريمة فقال تعالى: ﴿وَالسَّارِقُ وَالسَّارِقَةُ فَاقْطَعُوا أَيْدِيَهُمَا جَزَاءً بِمَا كَسَبَا نَكَالاً مِّنَ اللَّهِ﴾ (سورة المائدة: ٣٨).

وكذلك حرم الإسلام الربا الذي يهدد مصالح الأفراد واقتصاد الدول، فقال تعالى: ﴿يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لا تَأْكُلُوا الرِّبَا أَضْعَافًا مُّضَاعَفَةً﴾ (آل عمران: ١٣٠).

وحرم كذلك الغش والاحتكار والنهب والاختلاس والغلول وغير ذلك من أشكال الاعتداء على المال، وكل ذلك داخل في أكل أموال الناس بالباطل المنهي عنه.

وبتوفر الحماية لهذه العناصر الستة، يقصد المنهج التشريعي الإسلامي إلى إصلاح حياة الناس بدرء المفاسد عنها، وقد قدم الإسلام درء المفاسد على جلب المصالح رغم أن درأها هو في حد ذاته مصلحة كبرى، إذ بذلك يمنع الشر أولاً، ثم يستجلب الخير. فهذا إصلاح بالسلب وذلك بالإيجاب وهو ما نعنيه من قولنا إن الدعوة إلى الله من أهداف التمكين وذلك بإنزال منهج الإسلام الإصلاحي في دنيا الناس والذي يدور حول مصالح ثلاث: درء المفاسد، وجلب المصالح، والجري على مكارم الأخلاق.

ب- جلب المصالح: المعروف بالحاجيات:

إن جلب المصالح مجاله واسع رحيب، فالشريعة فتحت أبواب الحلال على

مصاريعـها في جميع مناحي المعيـشة وجعلت هذا الحلال أسلوب حيـاة، تحرسه الدولة وتزيل العقبات من طريقه، فكل نوع من التكسب والإنتاج والصناعة والفن والثقـافة لا يدخل في محرم، إنما هو مـن حقوق الناس، ليس لأحد أن يحـرّمه عليهم أو يحرمهم منه، قال تعالى: ﴿لَيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَبْتَغُوا فَضْلاً مِّن رَّبِّكُمْ﴾ (البقرة: ١٩٨).

وقال تعالى: ﴿وَآخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِي الأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ اللَّهِ﴾ (المزمل: ٢٠).

وقد جاء الشرع المطهر بإباحة المصالح المتبادلة بين الفرد والمجتمع على الوجه المشروع، ليستـجلب كل مصلحـته من الآخـر، كالبيـوع والإجارات والمسـاقاة والمضاربة وما يجري مجرى ذلك.

جـ - إحياء مكارم الأخلاق ومحاسن العادات بين الناس:

إن الرسول الكريم ﷺ قال: " إنما بعثت لأتمم مكارم الأخلاق "[1].

إن الدولة الإسلامـية من واجـبهـا أن تهيئ جوًّا تنشـأ فيه مكـارم الأخلاق، ومحاسن الأعمال من الطهر والعفاف والنقاء، تحرسه شريعة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وتحميه شـعيرة الحسبة، والدعوة إلى الله، لتكون أسـاسًا للمعاملة بين الصغير والكبير، والغني والفقير، والولي والمولى، والراعي والرعية.

إن إقامـة الأمر بالمعـروف والنهي عن المنكر، وتنفـيذ الحدود، والـدعوة إلى مكارم الأخلاق، وتعليم الأمة أمـر دينها يترتب عليه فوائد ومصـالح عامة للأمة والأفراد، والحكام والمحكومين ومن أهم هذه الفوائد:

١ - إقامة الملة والشريعة وحفظ العقيدة والدين لتكون كلمة الله هي العليا:

قال تعالى: ﴿وَلَوْلا دَفْعُ اللَّهِ النَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَامِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَاتٌ وَمَسَاجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا اسْمُ اللَّهِ كَثِيراً﴾ (الحج، آية: ٤٠).

---

(١) أحمد في مسنده (٢/ ٣٨١) وصححه أحمد شاكر. انظر: تحقيق المسند (١٨/ ٨٠) رقم ٨٩٣٩.

إن الإنسان لا بد له من أمر ونهي ودعوة، فمن لم يأمر بالخير ويدعو إليه أمر بالشر[1].

٢- رفع العقوبات العـامة: قال تعالى: ﴿**وَمَا أَصَابَكُم مِّن مُّصِيبَةٍ فَبِمَا كَسَبَتْ أَيْدِيكُمْ**﴾ (الشورى، آية: ٣٠). وقال أيضًا في الجواب عن سبب مصابهم يوم أحد: ﴿**قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ**﴾ (آل عمران، آية: ١٦٥).

فالكفر والمعاصي بأنواعها سـبب للمصائب والمهالك قال تعالى: ﴿**فَلَوْلا كَانَ مِنَ الْقُرُونِ مِن قَبْلِكُمْ أُوْلُوا بَقِيَّةٍ يَنْهَوْنَ عَنِ الْفَسَادِ فِي الأَرْضِ إِلاَّ قَلِيلاً مِّمَّنْ أَنجَيْنَا مِنْهُمْ**﴾ (هود، آية: ١١٦).

وقال: ﴿**وَمَا كَانَ رَبُّكَ لِيُهْلِكَ الْقُرَىٰ بِظُلْمٍ وَأَهْلُهَا مُصْلِحُونَ**﴾ (هود، آية: ١١٧).
وهذه إشـارة تكشف عن سنة من سنن الله في الأمم، فـإن الأمة التي يقع فـيهـا الظلم والفساد فيجدان من ينهض لدفعـهما هي أمم ناجية لا يأخذها الله بالعذاب والتدمير، فأما الأمم التي يظلم فيها الظـالمون، ويفسد فيها المفسدون، فلا ينهض من يدفع الظلم والفساد، أو يكون فيـها من يستنكر ذلك، ولكنه لا يبلغ أن يؤثر في الواقع الفاسـد فهي أمم مـهددة بالدمار والهـلاك كما هي سـنة الله تعالى في خلقـه، وبهذا تعلم أن دعـاة الإصلاح المناهضـون للطغيـان والظلم والفسـاد هم صمام الأمان للأمم والشـعوب، وهذا يبرز قيمة كفاح المكافـحين للخير والصلاح الواقفين للظلم والفساد، إنهم لا يؤدون واجـبهم لربهم ولدينهم فحسب، إنما هم يحولون بهذا دون أممهم وغضب الله واستحقاق النكال والضياع"[2].

٣- استنزال الرحمة من الله تعالى، لأن الطاعة والمعروف سبب للنعمة:

قال تعالى: ﴿**وَإِذْ تَأَذَّنَ رَبُّكُمْ لَئِن شَكَرْتُمْ لأَزِيدَنَّكُمْ**﴾ (إبراهيم، آية: ٧). والقيام بالأمر بالمعروف والنهي عن المنكر نوع من العبودية لله.

---

(١) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خالد السبت، ص٧٢.
(٢) في ظلال القرآن (٤/ ١٩٣٣).

٤- شد ظهر المؤمن وتقويته ورفع عزيمته وإرغام أنف المنافق:

فإن المؤمن يقوى ويعتز حينما ينتشر الخير والصلاح ويُوحد الله لا يشرك به وتضمحل المنكرات على إثر ذلك، بينما يخنس المنافق بذلك ويكون ذلك سببًا لغمه وضيق صدره وحسرته، لأنه لا يحب ظهور هذا الأمر ولا ذيوعه بين الخلق(١).

قال الثوري - رحمه الله - : " إذا أمرت بالمعروف شددت ظهر المؤمن، وإذا نهيت عن المنكر أرغمت أنف المنافق "(٢).

٥- تحقيق وصف الخيرية في هذه الأمة:

قال تعالى: ﴿ كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (سورة آل عمران، آية: ١١٠). قال عمر رضي الله عنه في تفسير هذه الآية: "من سرَّه أن يكون من هذه الأمة فليؤد شرط الله فيها"(٣).

٦- التجافي عن صفات المنافقين:

إن من أخص صفات المؤمنين القيام بهذا العمل الطيب قال تعالى: ﴿وَالْمُؤْمِنُونَ وَالْمُؤْمِنَاتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ يَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَيُؤْتُونَ الزَّكَاةَ . . . ﴾ (سورة التوبة، آية: ٧١).

ثانيًا: الجهاد في سبيل الله:

إن الأخطار التي تهدد الدولة المسلمة كثيرة جدًّا، منها ما قد يأتي من داخل الدولة، وهذا يتكفل نشر العلم، والدعوة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وإقامة الحدود، بالتصدي له، أما ما قد يجيء من خارج حدود الدولة الإسلامية، فإن منه ما يكف شره بالبيان، ومنه ما لا سبيل إلى قطع دابره إلا بالسيف والسنان.

---

(١) انظر: الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خالد السبت، ص٧٧ .

(٢) الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، للخلال، ص٦٧ .

(٣) تفسير الطبري (٥/ ١٠٢) .

ولكي يحقق الحكم الإسلامي مقصده في إقامة الدين في الأرض بلا معوقات، فلا بد أن يكون مستعداً لما قد يكون في الطريق من عقبات ترد الدعوة، أو تصد الدعاة عن القيام بواجب نشر الحق، ولهذا كان لا بد أن تتهيأ دولة الإسلام لما تواجه به هذه الظروف، وتعد الأمة للجهاد دائماً ضد كل متصدر للوقوف في طريق كتائب الحق المتحركة نحو رضى الله، وإذا كان الجهاد وسيلة من وسائل إقامة الدين في الأرض، فإن " إقامة حكم الله في الأرض والتمكين لدينه، غاية من غايات الجهاد في سبيل الله، والذي يجب أن يسعى لتحقيق هذه الغاية هم المسلمون الذين آمنوا بها وذاقوا حلاوتها وعلموا أن من حق البشر عليهم أن يسعوا لإسعادهم بها. ولو كان الناس يقبلون دعوة المسلمين إلى تحكيم هذا الكتاب عليهم أن يكتفوا بالدعوة إلى ذلك لأنه يحقق الهدف، ولكن أكثر الناس لا يكفيهم أن يرفضوا تحكيم كتاب الله، بل إنهم يقفون محاربين من أراد تحكيمهم بكل ما أوتوا من قوة، وهذا يحتم على أولياء الله أن يجاهدوا أعداءه الذين يحاربونهم من أجله "[1].

إن الدولة الإسلامية التي تسعى لتحقيق أهداف التمكين من واجباتها تشكيل وزارة للجهاد في سبيل الله، ووضع نظام للجهاد يتلائم مع قيم الدين وآدابه، في إعداد الجنود، بعيدة عن الأنظمة الوافدة أو المستوردة. إن الإعداد للجهاد والاهتمام به ليس عدواناً على أحد، حتى ولو كان من غير المسلمين، إنما هو تأمين لحاضر المسلمين ومستقبلهم وحماية لأرضهم وعرضهم ومالهم ودينهم ونفوسهم أمام أي معتد على واحدة من هذه التي يعتز بها كل إنسان إن كان من أصحاب الفطر السوية[2].

إن الجهاد في سبيل الله - تعالى - من أهم مقومات التمكين. والحديث عن الجهاد للإحاطة بكل جوانبه أمر لا يحتمله هذا البحث المتواضع، ذلك أن أمر الجهاد عظيم فهو جزء لا يتجزأ من العقيدة الإسلامية ومن رساله الأمة الإسلامية.

---

(١) الجهاد في سبيل الله حقيقته وغايته . د . عبد الله القادري (٢/ ١٥٩) .

(٢) انظر: فقه الدعوة إلى الله (٢/ ٧٤٤، ٧٤٥) .

إن الجهاد في سبيل الله مقوم أساسي من مقومات التمكين للأمة، وأن الجهاد والتمكين مرتبطان ارتباطًا وثيقًا فلا تمكين إلا بجهاد، فإذا صدق الجهاد كان التمكين بإذن الله رب العالمين[1].

إن طبيعة هذا الدين: الجهاد وأنه من أخص خصائص الأمة الإسلامية، ولهذا لم يتركه المسلمون ولم يفرطوا فيه في أي عصر من عصورهم.

قال تعالى مخاطبًا الأمة الإسلامية: ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ هُوَ اجْتَبَاكُمْ وَمَا جَعَلَ عَلَيْكُمْ فِي الدِّينِ مِنْ حَرَجٍ مِّلَّةَ أَبِيكُمْ إِبْرَاهِيمَ هُوَ سَمَّاكُمُ الْمُسْلِمِينَ مِن قَبْلُ وَفِي هَذَا لِيَكُونَ الرَّسُولُ شَهِيدًا عَلَيْكُمْ وَتَكُونُوا شُهَدَاءَ عَلَى النَّاسِ. . .** ﴾ (الحج، آية: ٧٨).

" فالقرآن الكريم صريح في هذا النص الكريم أن الجهاد في سبيل الله فريضة على المسلمين، كما فرض عليهم الصلاة والصيام والزكاة والحج . وقد كشف الله - تعالى - عن سر هذا التكليف، وحكمة هذه الفريضة التي افترضها على المسلمين فبين لهم أنه اجتباهم واصطفاهم دون الناس ليكونوا سواس خلقه، وأمناء على شريعته وخلفاءه في أرضه، وورثة رسله في دعوته "[2].

" والآية الكريمة - السابقة - جمعت كل ضروب الجهاد وأبوابه. من قتال العدو ومن الإعداد لذلك، ومن بذل المال والنفس، ومجاهدة الشهوات ومجاهدة الشيطان، وتشمل الجهاد باللسان والأدب والفكر والسياسة والاقتصاد. . . جهادًا كاملاً يستوعب طاقة الأمة كلها، ويستوعب مواهبها وقدراتها. فذلك أصل معنى الجهاد : " استفراغ الوسع والطاقة. وهو معنى مستمر ممتد لا يتوقف "[3].

والجهاد بهذا المعنى الشامل فرض عين، أما القتال - وهو نوع من أنواع الجهاد - فهو كفاية. ولا يتعين إلا في الحالات الآتية:

---

(١) انظر: التمكين للأمة الإسلامية ، ص٧٣ .

(٢) الرسائل ، حسن البنا، ص٣٩، ٤٠ .

(٣) لقاء المؤمنين ، عدنان النحوي (٢/ ١٥٩) بتصرف .

١ - إذا التقى الصفان .

٢ - إذا نزل الكفار ببلدة فيتعين على أهلها قتالهم .

٣ - إذا استنفر الإمام قومًا لزمهم النفرة معه .

قال ابن قدامة في المغني : " وأقل ما يفعله الإمام مرة كل عام "[١].

إن الجهاد ضروري لقيام الدعوة واستمرارها ، وهو وسيلة من وسائلها . يقول الأستاذ / عدنان النحوي : " ونحن - معشر أمة الإسلام - لا نريد القتال أساسًا لأجل القتال ، ولا لأجل الحرب وكذلك فلسنا أعداء لأحد من الناس من حيث الابتداء ، ولكن لنا من بين الناس أعداء الذين هم أعداء الله ، والذين يوقدون نار الحرب ، ويسعون الفساد في الأرض ، ويفتنون الناس عن الإيمان ، ويصدون عن سبيل الله . . والمؤمن يمضي بدعوته جاهدًا كي يفوّت فرصة الفساد والإفساد ، ويطفئ نار الفتنة والهلاك حتى تمضي الدعوة الإسلامية تشق طريقها ، فإن أبوا إلا المضي في إشعال الفتنة والسعي في الفساد . فإنه لا مفر من القتال . وكما يقولون : آخر الدواء الكي "[٢].

" فالجهاد في سبيل الله - تعالى - ليس هدفًا منفصلاً عن الدعوة إلى الله ، بل هو مرتبط بها ارتباطًا كاملاً . . يدور القتال لأجل الدعوة ويتوقف لأجل الدعوة فهو إذًا وسيلة من وسائل الدعوة إلى الله ، وقوة من قواها لإخراج الناس من عبادة العباد ، إلى عبادة الله الواحد الأحد ، وليمض الجيل المؤمن بالدعوة بكل قواها ، وسلامة نهجها ، حتى تكون كلمة الله هي العليا .

وهو كذلك وسيلة من وسائل حماية الدعوة ، وحماية المسلمين أنفسًا ، ودارًا ، وثروات ، ومنهاجًا . . وهو كذلك وسيلة لدفع الدعوة في الأرض حتى تبلغ الناس كافة ، حين لا تنفع الحكمة والموعظة الحسنة ، ولا يكفي جهاد اللسان

---

(١) المغني (١٠/ ٢٦٥) .

(٢) لقاء المؤمنين (٢/ ١٩٩) .

والبيان، وحين تُصد الدعوة عن غايتهـا، وتقفل الدروب والمسالك أمامها، وتبذل الجهود لخنقها "[١].

" وإذا انعزل القتـال - الذي هو صـورة من صور الجـهاد في سـبيل الله - عن الدعوة بصورة أو بأخرى، وإذا فقد أهدافه الإيمانيـة وخصائصه الربانية، فقد جوهره وحقيقته، وأصبح قتالاً كقتال سائر الناس في الأرض، عدوانًا وظلمًا، واستعمارًا، ونهبًا وجرائم تتلوها جرائم، وحمية جاهلية، الإسلام منها بريء "[٢].

ومن أهم خصائص الجهاد أنه " في سبيل الله ".

إن المتدبر لكتاب الله - تعالى - يجد أن كلمة " في سـبيل الله " تأخذ عمقًا بعيدًا ومعنىً واسعًا، ففي معظم آيات الجـهاد تأتي لفظة " الجهاد " مقرونة بقوله تعالى: ﴿ **فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ أو ﴿ **فِي اللَّهِ**﴾ أو ﴿ **فِينَا**﴾.

قال تعالى: ﴿**وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ**﴾ (التوبة: ٤١).

وقال جل شأنه: ﴿ **وَجَاهِدُوا فِي اللَّهِ حَقَّ جِهَادِهِ** ﴾ (سورة الحج، آية: ٧٨).

وقال سبحانه: ﴿**وَالَّذِينَ جَاهَدُوا فِينَا لَنَهْدِيَنَّهُمْ سُبُلَنَا**﴾ (العنكبوت، آية: ٦٩).

وإن لم ترد مثل هذه الكلمات فـإنها تكون مفهومة ضمنًا بـحيث يظل الجهاد في الإسلام جهادًا في سبيل الله " فقط " وليس في سبيل أي شيء آخر[٣].

وقد سئل رسول الله ﷺ عن الرجل يقاتل شجـاعة ويقاتل حمية، ويقاتل رياء، أي ذلك في سبيل الله؟ فقال: من قـاتل لتكون كلمة الله هي العليا فهو في سبيل الله[٤]. إن الجهاد في سبيل الله له أهداف من أهمها، إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض، دفع عدوان الكافـرين، نيل الشهادة في سبيل الله، تصـفية

---

(١) لقاء المؤمنين (٢/ ١٦٤) .

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٨٦) .

(٣) انظر: لقاء المؤمنين (٢/ ١٩٢) .

(٤) الترمذي ، كتاب فضائل الجهاد، باب ما جاء في من يقاتل رياءً (٤/ ١٧٩) .

الصف الإسلامي من عناصر الفساد، كما أن له ثمرات من أهمها، إعزاز المسلمين وإذلال الكافرين، وحدة صفـوف المسلمين، هداية المجاهدين وتسديد خطواتهم، دخـول الناس أفواجًـا في هذا الدين، التـزام المسلمين بالإسلام، والحـرص على حمايته، وعدم التفريط فيه، إسعاد الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته.

أ - أهداف الجهاد في الدولة الإسلامية:

إن الغاية العليا للجهاد في سبيل الله هي إعلاء كلمة الله لتحقيق عبادته وحده لا شريك له، كما قال تعالى: **﴿وَمَا خَلَقْتُ الْجِنَّ وَالإِنسَ إِلاَّ لِيَعْبُدُونِ * مَا أُرِيدُ مِنْهُم مِّن رِّزْقٍ وَمَا أُرِيدُ أَن يُطْعِمُونِ * إِنَّ اللَّهَ هُوَ الرَّزَّاقُ ذُو الْقُوَّةِ الْمَتِينُ﴾** (الذاريات: ٥٦، ٥٨). ومفـهوم العبـادة شامل لنشاط الإنسـان كله ويفسـر ذلك قوله سبـحانه: **﴿قُلْ إِنَّ صَلاتِي وَنُسُكِي وَمَحْيَايَ وَمَمَاتِي لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ (١٦٢) لا شَرِيكَ لَهُ وَبِذَلِكَ أُمِرْتُ وَأَنَا أَوَّلُ الْمُسْلِمِينَ﴾** (الأنعام: ١٦٣، ١٦٤).

ومن أجل هذه الغاية جاهد جنود الدولة الإسلامـية في عصرها الزاهر، وقد سأل رستم قائد الفرس ربعي بن عامر: ما جاء بكم؟ فقال: ابتعثنا الله لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله ومن ضـيق الدنيا إلى سعتها ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، فأرسلنا بدينه إلى خلقه لندعـوهم إليه فمن قبل ذلك قبلنا منه ورجعنا عنه ومن أبى قاتلناه أبدًا حتى نفضي إلى مـوعود الله، قال: وما موعود الله؟ قال: الجنة لمن مات على قتال من أبى والظفر لمن بقى "[1].

وقال ابن تيمية - رحمه الله -: " والجـهاد مقصوده أن تكون كلمة الله هي العليا وأن يكون الدين لله، فـمقصوده إقـامة دين الله، لا استيـفاء الرجل حظه، كـان ما يصـاب به المجاهد في نفسه ومـاله أجره على الله فـإن الله اشتـرى من المؤمنين أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة "[2].

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير (٧/ ٣٩).

(٢) الفتاوى (١٥/ ١٧٠).

هذه هي الغاية العليا الشاملة للجهاد في سبيل الله، ويمكننا أن ندخل نقطتين تحت أهداف الجهاد في الدولة الإسلامية منها:

١- إقامة حكم الله ونظام الإسلام في الأرض:

إن إقامة حكم الله في الأرض هدف من أهداف الجهاد، ولذلك تسعى الدولة المسلمة لتحقيق هذا الهدف من خلال أجهزتها ومؤسساتها وتوظيف كل إمكاناتها، وفتح المجال للمسلمين للسعي الدءوب من أجل إنزال حكم الله، ونظام الإسلام في دنيا الناس، ليتمتعوا بحكم الله الذي يؤتي كل ذي حق حقه بلا نقص.

قال تعالى: ﴿ **إِنَّا أَنزَلْنَا إِلَيْكَ الْكِتَابَ بِالْحَقِّ لِتَحْكُمَ بَيْنَ النَّاسِ بِمَا أَرَاكَ اللَّهُ وَلا تَكُن لِّلْخَائِنِينَ خَصِيمًا** ﴾ (النساء، آية: ١٠٥).

قال سيد قطب - رحمه الله - : " وجاهد الإسلام ليقيم في الأرض نظامه الخاص ويقرره ويحميه، وهو وحده النظام الذي يحقق حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان حينما يقرر أن هناك عبودية واحدة لله الكبير المتعال ويلغي في الأرض عبودية البشر للبشر في جميع أشكالها وصورها فليس هناك فرد ولا طبقة ولا أمة تشرع الأحكام للناس وتستذلهم عن طريق التشريع، إنما هنالك رب واحد للناس جميعًا هو الذي يشرع لهم على السواء وإليه وحده يتجهون بالطاعة والخضوع كما يتجهون إليه وحده بالإيمان والعبادة سواء، فلا طاعة في هذا النظام لبشر إلا أن يكون منفذًا لشريعة الله موكلاً عن الجماعة ليقوم بهذا التنفيذ حيث لا يملك أن يشرع هو ابتداء لأن التشريع من شأن الألوهية وحدها، وهو مظهر الألوهية في حياة البشر فلا يجوز أن يزاوله إنسان فيدعي لنفسه مقام الألوهية وهو واحد من العبيد . . جاهد الإسلام ليقيم هذا النظام الرفيع في الأرض ويقرره ويحميه وكان من حقه أن يجاهد ليحطم النظم الطاغية التي تقوم على عبودية البشر للبشر والتي يدعي فيها العبيد مقام الألوهية ويزاولون فيها وظيفة الألوهية بغير حق، ولم يكن

بد أن تقاومه تلك الـنظم الطاغية في الأرض كلها وتناصبـه العداء، ولم يكن بد كذلك أن يسحـقها الإسلام سـحقًا ليعلن نظامه الرفـيع في الأرض وما يزال هذا الجهاد لإقـامة هذا النظام الرفيع مفـروضًا على المسلمين ﴿ **وَقَاتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ الدِّينُ لِلَّهِ**﴾ (البقرة: ١٩٣) فلا تكون هناك ألوهية للعـبيد في الأرض ولا دينونه لغير الله "(١).

٢- دفع عدوان الكافرين:

إن من أهداف الجـهاد في الدولـة الإسلامـية دفع عـدوان الكافـرين، وهذا العدوان أنواع منها:

- أن يعتدي الكفار على فئة مؤمنة مسـتضعفة في أرض الكفار - لا سيما إذا لم تسـتطع أن تنتقل إلـى بلاد تأمن فيـها على ديـنها، فـإن الواجب على الدولة الإسلامـية أن تعـد العدة لمجاهـدة الكفار الذين اعتـدوا على تلك الطائفـة حتى يخلصوها من الظلم والاعتداء الواقع عليها (٢).

قال تعالى: ﴿**فَلْيُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يَشْرُونَ الْحَيَاةَ الدُّنْيَا بِالآخِرَةِ وَمَن يُقَاتِلْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا (٧٤) وَمَا لَكُمْ لا تُقَاتِلُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ الَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَا أَخْرِجْنَا مِنْ هَذِهِ الْقَرْيَةِ الظَّالِمِ أَهْلُهَا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا وَاجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا**﴾ (النساء: ٧٤، ٧٥).

قـال القرطبي - رحـمه الله - : " حض على الجـهـاد، ويتضـمن تخليص المستضعفين من أيدي الكفرة المشركين الذين يسومونهم سوء العذاب ويفتنونهم عن الدين، فأوجب تعالى الجهاد لإعلاء كلمتـه وإظهار دينه واستنقاذ المؤمنين الضعفاء من عباده، وإن كان في ذلك تلف النفوس وتخليص الأسارى واجب على جماعة

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٢٩٥) .

(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله ، د . عبد الله القادري (٢/ ١٦٢) .

المسلمين إما بالقتال وإما بالأموال وذلك أوجب لكونها دون النفوس، إذ هي أهون منها "[١].

وقال سيـد - رحمه الله - : " جاهد الإسلام . . . ليـدفع عن المؤمنين الفتنة التي كانوا يسامونها وليكفل لهم الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم وقرر ذلك المبدأ العظيم: . . . والفتنة أشـد من القتل، فاعتبر الاعتـداء على العقيدة والإيذاء بسببـها وفتنة أهلها أشد من الاعـتداء على الحياة ذاتهـا، فالعقيدة أعظم قـيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم وإذا كان المؤمن مأذونًا في القتال ليدفع عن حياته وعن ماله فهو من باب أولى مأذون في القتال ليدفع عن عقيدته ودينه، . . "[٢].

- أن يعتدي الكفار على ديار المسلمين:

قال تعالى: ﴿**وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ الَّذِينَ يُقَاتِلُونَكُمْ وَلا تَعْتَدُوا إِنَّ اللَّهَ لا يُحِبُّ الْمُعْتَدِينَ (١٩٠) وَاقْتُلُوهُمْ حَيْثُ ثَقِفْتُمُوهُمْ وَأَخْرِجُوهُم مِّنْ حَيْثُ أَخْرَجُوكُمْ وَالْفِتْنَةُ أَشَدُّ مِنَ الْقَتْلِ وَلا تُقَاتِلُوهُمْ عِندَ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ حَتَّىٰ يُقَاتِلُوكُمْ فِيهِ فَإِن قَاتَلُوكُمْ فَاقْتُلُوهُمْ كَذَلِكَ جَزَاءُ الْكَافِرِينَ (١٩١) فَإِنِ انتَهَوْا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ**﴾ (البقرة، آية: ١٩٠، ١٩٢).

قد نص الفـقهاء على أنه إذا اعتـدى الكفار على ديار المسلمين يتعين الجـهاد للدفاع عن الديـار، لأن العدو إذا احتلهـا سام المسلمين عذابًـا ونفذ فيـها أحكام الكفر وأجبر أهلهـا على الخضوع له، فتصبح دار كفـر بعد أن كانت دار إسلام. قال ابن قدامة رحمه الله: " ويتـعين الجهاد في ثلاثة مواضع . . الثاني: إذا نزل الكفار ببلد معين على أهله قتالهم ودفعهم "[٣].

وقال بعض علماء الحنفـية " وحاصله إن كل موضع خـيف هجوم العدو منه فرض على الإمـام أو على أهل ذلك الموضع حفظه، وإن لم يقـدروا فرض على الأقرب إليهم إعانتهم إلى حصول الكفاية بمقاومة العدو "[٤].

---

(١) تفسير القرطبي (٥/ ٢٧٩) .
(٢) في ظلال القرآن (٣/ ٢٩٤) .
(٣) المغني (٩/ ١٩٧) .
(٤) حاشية ابن عابدين (٤/ ١٢٤) .

- أن ينشر العدو الظلم بين رعاياه - ولو كانوا كفاراً - لأن الله سبحانه حرم على عباده الظلم، والعدل في الأرض واجب لكل الناس، وإذا لم يدفع المسلمون الظلم عن المظلومين أثموا لأنهم مأمورون بالجهاد في الأرض لإحقاق الحق وإبطال البـاطل ونشر العـدل والقـضاء على الظلـم ولا فلاح لهم إلا بذلك وهو الأمـر بالمعروف والنهي عن المنكر، وما كانوا خير أمة أخرجت للناس إلا بذلك كما قال تعالى: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾ (آل عمران: ١١٠). قال تعالى: ﴿ **وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ قَوْمٍ عَلَىٰ أَلَّا تَعْدِلُوا اعْدِلُوا هُوَ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ وَاتَّقُوا اللَّهَ إِنَّ اللَّهَ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ**﴾ (المائدة، آية: ٨).

ومن العدل كف الظـلم عن المظلوم الكافر الذي يبغـضه المسلم لكفـره، قال السرخسي - رحمه الله - : " وإن كان - يقصد أحد ملوك أهل الحرب - طلب الذمة على أن يترك يحكم في أهل مملكته بما شاء من قتل أو صلب أو غيره بما لا يصلح في دار الإسلام لم يجب إلى ذلك، لأن التقرير على الظلم مع إمكان المنع منه حرام "(١).

إن من واجب الدولة المسلمـة أن تجـاهد في سـبيل الله للقـضـاء على الظلم والظالمين(٢).

- الوقـوف ضـد الدعاة إلـى الله ومنعهـم من تبليغ دعـوة الله، إن المسلمين مفروض عليهم من قبل المولى عز وجل أن يبلغـوا رسالات الله للناس كافة، كما قال تعالى: ﴿**قُلْ هَٰذِهِ سَبِيلِي أَدْعُو إِلَى اللَّهِ عَلَىٰ بَصِيرَةٍ أَنَا وَمَنِ اتَّبَعَنِي وَسُبْحَانَ اللَّهِ وَمَا أَنَا مِنَ الْمُشْرِكِينَ**﴾ (سورة يوسف: ١٠٨).

وأعداء الله يصدون أولياءه عن تبليغ عبـاده دعوته ولا يتركون لهم سبيلاً إلى الناس كـما لا يـأذنون للدعاة أن يـسمـعـوا الدعوة إلى الله للـناس، ويضعـون

---

(١) المبسوط للسرخسي (١٠/ ٨٥) .

(٢) انظر: الجهاد في سبيل الله للقادري (١/ ١٦٥،١٦٦) .

العراقيل، والعـوائق، والحواجز بين الدعوة ودعـاتها والناس، ولذلك أوجب الله عز وجل على عباده المؤمنين قتال كل من يصد عن سبيل الله تعالى.

قال تعالى: ﴿الَّذِينَ كَفَرُوا وَصَدُّوا عَن سَبِيلِ اللَّهِ أَضَلَّ أَعْمَالَهُمْ ۝ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ وَآمَنُوا بِمَا نُزِّلَ عَلَىٰ مُحَمَّدٍ وَهُوَ الْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ كَفَّرَ عَنْهُمْ سَيِّئَاتِهِمْ وَأَصْلَحَ بَالَهُمْ ۝ ذَٰلِكَ بِأَنَّ الَّذِينَ كَفَرُوا اتَّبَعُوا الْبَاطِلَ وَأَنَّ الَّذِينَ آمَنُوا اتَّبَعُوا الْحَقَّ مِن رَّبِّهِمْ كَذَٰلِكَ يَضْرِبُ اللَّهُ لِلنَّاسِ أَمْثَالَهُمْ ۝ فَإِذَا لَقِيتُمُ الَّذِينَ كَفَرُوا فَضَرْبَ الرِّقَابِ حَتَّىٰ إِذَا أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا الْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَاءً حَتَّىٰ تَضَعَ الْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَاءُ اللَّهُ لَانتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ وَالَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَالَهُمْ﴾ (سورة محمد، آية: ١-٤)، قال سيد - رحـمه الله - : " وجاهد الإسلام .. لتقـرير حرية الدعوة - بعد تقـرير حرية العقيـدة - فقد جاء الإسـلام بأكمل تصور للوجـود والحيـاة وبأرقى نظام لتطور الحيـاة، جاء بهذا الخـير ليـهديه إلى البشرية كلها ويبلغ إلى أسماعها وإلى قلوبها، فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفـر ولا إكراه في الدين، ولكن ينبغي قبل ذلك أن تزول العـقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة كـما جاء من عند الله للناس كافة وأن تزول الحواجز التي تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا، ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغـية في الأرض تصد الناس عن الاستـماع إلى الهدى وتفتن المهـتدين أيضًا، فـجاهد الإسلام ليـحطم هذه النظم الطاغية وليقيم مكانها نظامًـا عادلاً يكفل حرية الدعوة إلى الحق في كل مكان وما يزال هذا الهدف قـائمًا وما يزال الجـهاد مفـروضًا على المسلمين ليبلغـوه إن كانوا مسلمين "[1].

هذه بعض أهداف الجهاد التي تتحقق عند إقامة هذه الفريضة.

---

(١) في ظلال القرآن (٣/ ٢٩٤).

ب- بعض ثمرات إقامة الجهاد في سبيل الله:

إن ثمرات إقامة الجهاد في سبيل الله كثيرة منها:

١- إعزاز المسلمين وإذلال الكافرين:

إن الجهاد في سبيل الله يعدّ قمة الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر ووصف المولى عز وجل هذه الأمة بصفات القيادة الرشيدة في قوله تعالى: ﴿كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ﴾ (آل عمران: ١١٠).

قال القـرطبي - رحمه الله - قـوله " تأمرون بالمعروف وتـنهون عن المنكر" مدح لهذه الأمة ما أقاموا ذلك واتصفوا به، فإذا تركوا التغيير وتواطئوا على المنكر زال عنهم اسم المدح ولحقهم اسم الذم وكان ذلك سببًا لهلاكهم[١].

قال سـيد قطب - رحمه الله - : " وهذا مـا ينبغي أن تدركه الأمـة المسلمة لتعرف حقيقـتها وقيمتها وتعرف أنها أخرجت لتكون طلـيعة وتكون لها القيادة بما أنها هي خير أمة والله يريد أن تكون القيادة للخير لا للشر في هذه الأرض "[٢].

إن هذه الأمة تعمل على نشر الخير، وصيـانة المجتمعات من عوامل الفساد، لكي تبني مـجتـمعـات صالحـة على أسس من القـيم والمبادئ، والاعـتقـادات، والتصورات، والنظم، والأخلاق، والمعـارف، والعلوم المستمدة من المنهج الرباني الحكيم.

وهذه الأهداف النبيلة تجعل قـيادة الأمة تنازل قوى البغي في ميـادين الجهاد، لأن القوى الكـافرة دائمًا وأبدًا تعـد العدة وتبـذل جهـدها للقضـاء على الإسلام والمسلمين، ولهذا تركب الأمة صهوات المجد، وتسل سيـوفها ضد أعداء البشرية ممن يعتقدون الكفر والضلال والفساد، فتكون ثمرة هذا الجهاد المبارك القضاء على شوكة الكفار وإذلالهم وإنزال الرعب في قلوبهم، وتطهير الأرض من سيطرتهم.

---

(١) الجامع لأحكام القرآن (٤-١٧٣).

(٢) في ظلال القرآن (١/٤٤٧).

إن المشركين والكفار لا يراعون في المسلمين إذا قدروا عليهم، عهدًا ولا قرابة. قال تعالى: ﴿كَيْفَ وَإِن يَظْهَرُوا عَلَيْكُمْ لا يَرْقُبُوا فِيكُمْ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً﴾ (التوبة: ٨)، وقال تعالى: ﴿لا يَرْقُبُونَ فِي مُؤْمِنٍ إِلاًّ وَلا ذِمَّةً وَأُوْلَئِكَ هُمُ الْمُعْتَدُونَ﴾ (التوبة: ١٠).

وقال: ﴿وَلَن تَرْضَىٰ عَنكَ الْيَهُودُ وَلا النَّصَارَىٰ حَتَّىٰ تَتَّبِعَ مِلَّتَهُمْ﴾ (البقرة: ١٢٠).

لهذا كان الجهاد في سبيل الله هو الفيصل بين المسلمين وأعدائهم لأنه يثمر - بإذن الله - القضاء على قوة الكفر وإذلال طغاته وخزيهم وإلقاء الرعب في قلوبهم غنيمة للمسلمين المجاهدين، كما قال تعالى: ﴿وَرَدَّ اللَّهُ الَّذِينَ كَفَرُوا بِغَيْظِهِمْ لَمْ يَنَالُوا خَيْرًا وَكَفَى اللَّهُ الْمُؤْمِنِينَ الْقِتَالَ وَكَانَ اللَّهُ قَوِيًّا عَزِيزًا ﴿٢٥﴾ وَأَنزَلَ الَّذِينَ ظَاهَرُوهُم مِّنْ أَهْلِ الْكِتَابِ مِن صَيَاصِيهِمْ وَقَذَفَ فِي قُلُوبِهِمُ الرُّعْبَ فَرِيقًا تَقْتُلُونَ وَتَأْسِرُونَ فَرِيقًا ﴿٢٦﴾ وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَارَهُمْ وَأَمْوَالَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَئُوهَا وَكَانَ اللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرًا﴾ (الأحزاب، آية: ٢٥-٢٧).

إن الله تعالى قد رتب على الجهاد قتال الكافرين وتعذيب أعداء الله وخزيهم ونصر المجاهدين عليهم وشفاء صدور المؤمنين الذي أوغر أعداء الله صدورهم وإذهاب غيظ قلوبهم بما يدخل عليهم من السرور بكسر شوكة أعداء الله والقضاء على قوتهم، كما قال تعالى: ﴿قَاتِلُوهُمْ يُعَذِّبْهُمُ اللَّهُ بِأَيْدِيكُمْ وَيُخْزِهِمْ وَيَنصُرْكُمْ عَلَيْهِمْ وَيَشْفِ صُدُورَ قَوْمٍ مُّؤْمِنِينَ ﴿١٤﴾ وَيُذْهِبْ غَيْظَ قُلُوبِهِمْ وَيَتُوبُ اللَّهُ عَلَىٰ مَن يَشَاءُ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ﴾ (سورة التوبة، آية: ١٤، ١٥).

لقد قام النبي ﷺ بحركة الجهاد واستطاع أن يقضي على شوكة الكفر في الجزيرة، ويرد كيد اليهود عليهم، ووجه ضربات موفقة للنصارى وسار الصديق رضي الله عنه على نفس المنهج وخاض حروب الردة وقضى على مسيلمة الكذاب وسجاح وغيرهما، فكانت معاركه ضد المرتدين من أكبر الأسباب على نصر الإسلام وأهله وبعد انتهاء حروب الردة قام بحركة الجهاد ضد الفرس والروم واستمر الخلفاء من بعده على نفس المنوال، وامتدت رقعة الإسلام من الصين شرقًا إلى المحيط

الأطلسي غربًا وأخذت جيوش الإسلام تدك معاقل النصرانية في أوربا وبسطت نفوذها على بلدان كثيرة منها (١).

٢- دخول الناس في دين الله أفواجًا:

إن أهل الباطل يستهينون بأهل الحق ويستضعفونهم ما لم يكونوا أعزة، والتاريخ يشهد على أن الناس يحترمون الحق الذي تحرسه القوة، وعندما يكون أهل الحق أعزة يدخل الناس في دين الله أفواجًا، فعندما أسس ﷺ دولة للإسلام واكتملت لها المقومات اللازمة وشرعت في بعث السرايا، والقيام بالغزوات ضد أعداء الإسلام ووقعت بينهم وبين المسلمين معارك كان الانتصار في الغالب للمسلمين على المشركين وبلغت قوة المسلمين ذروتها عندما وقع الصلح بينهم وبين المشركين في الحديبية حيث اعترف أهل الكفر بدولة تعقد المعاهدات وتفاوض وتصالح وكثر الداخلون في الإسلام، وعندما نقضت قريش الصلح غزا رسول الله ﷺ مكة ففتحها ودخلها منتصرًا مظفرًا فماذا كان بعد هذا الفتح المبين؟ (٢).

قال محمد بن إسحاق: " ولما افتتح الرسول ﷺ مكة وفرغ من تبوك وأسلمت ثقيف وبايعت ضربت إليه وفود العرب من كل وجه، قال ابن هشام: "حدثني أبو عبيدة أن ذلك في سنة تسع وأنها كانت تسمى الوفود، قال ابن إسحاق: وإنما كانت العرب تربص بإسلامها أمر هذا الحي من قريش لأن قريشًا كانوا إمام الناس وهاديتهم وأهل البيت والحرم وصريح ولد إسماعيل بن إبراهيم وقادة العرب لا ينكرون ذلك، وكانت قريش هي التي نصبت الحرب لرسول الله ﷺ وخلافه فلما افتتحت مكة ودانت له قريش ودخولها الإسلام عرفت العرب أنهم لا طاقة لهم بحرب رسول الله ﷺ ولا عداوته فدخلوا في دين الله كما قال عز وجل أفواجًا يضربون إليه من كل وجه "(٣).

---

(١) انظر: الجهاد في سبيل الله (٢/ ٤٢٣).

(٢) المصدر نفسه (٢/ ٤٥٢، ٤٥٣).

(٣) البداية والنهاية (٥/ ٤٠).

واستمر الأمر كذلك بعد انتقال النبي ﷺ للرفيق الأعلى، فكان الجهاد هو الذي يقضي على حركات التمرد والشقاق ويجبرهم على الخضوع للإسلام والإنقياد لشرعه، واحترام أهله، فكان أبو بكر الصديق رضي الله عنه مدركًا ذلك تمام الإدراك فكان له مواقف رائعة تدل على فهمه العميق لفقه التمكين، وقدرته الفذة على المحافظة على دولة الإسلام التي أقامها النبي ﷺ ومن أهم هذه المواقف:

- إنفاذ جيش أسامة:

لقد ظهر فقه الصديق وحكمته عند إصراره على إرسال جيش أسامة بن زيد رضي الله عنهما من عدة وجوه:

- تنفيذه بعث أسامة رضي الله عنه على الرغم من شدة الأحوال ومعارضة بعض الصحابة، وذلك امتثالاً لأمر النبي ﷺ ، وأصرّ على أن تستمر الحملة العسكرية في تحركها إلى الشام مهما كانت الظروف والأحوال والنتائج، وفشلت كافة المحاولات الهادفة لإقناع الصديق كي يتخلى عن فكرة إرسال جيش أسامة، وعندما كثر الإلحاح على أبي بكر، دعا عامة المهاجرين والأنصار إلى اجتماع المجلس لمذاكرة هذا الأمر معهم وبين لهم أن إنفاذ جيش أسامة هو مشروع وضعه رسول الله ﷺ وعلينا تنفيذه مهما بلغت الصعاب والمتاعب وقال: " أيها الناس، والله لو خطفتني الكلاب والذئاب لأنفذت أسامة وجيشه كما أراد رسول الله ﷺ ، لا رادّ لقضاء قضى به رسول الله ﷺ : ولو لم يبق في القرى غيري لأنفذته، والله لأن تتخطفني الطير أحب إليَّ من أن أبدأ بشيءٍ قبل أمر رسول الله ﷺ "(١).

- ولما أشار بعض الناس على أبي بكر أن يولي أمر الجيش رجلاً أقدم سنًّا من أسامة، غضب لذلك، لأن رسول الله ﷺ هو الذي أمَّرَ أسامة على هذا الجيش، فلا يريد رضي الله عنه أن يغير شيئًا فعله رسول الله ﷺ .

- وأوصى الصديق ذلك الجيش المظفر بهذه الوصايا: " لا تخونوا، ولا

---

(١) تاريخ الإسلام للذهبي عهد الخلفاء الراشدين ، ص٢٠ .

تغدروا، ولا تغلوا، ولا تمثلوا، ولا تقتلوا طفلاً ولا شيخًا كبيرًا، ولا امرأة، ولا تعزقوا [١] نخلاً، ولا تحرِّقوه، ولا تقطعوا شجرة مثمرة، ولا تذبحوا شاة ولا بقرة ولا بعيرًا إلا للأكل، وإذا مررتم بقوم فرّغوا أنفسهم في الصوامع فدعوهم وما فرّغوا أنفسهم له، وإذا لقيتم قومًا فحصوا [٢] أوساط رءوسهم وتركوا حولها مثل العصائب فاضربوا بالسيف ما فحصوا عنه، فإذا قُرِّب عليكم الطعام فاذكروا اسم الله، يا أسامة: اصنع ما أمرك نبي الله ببلاد قضاعة، ائتِ آبِلَ، ولا تقصر من أمر رسول الله ﷺ ثم ودعه من الجُرف[٣] " ورجع.

والجُرف: موضع قرب المدينة ، وهذه التعاليم الإنسانية الرفيعة، استمدها الصديق ؓ من فهمه العميق لحقيقة الإسلام وهي ترد على كل من يتهم الإسلام بأنه دين الهمجية والوحشية والعسف[٤].

وسار أسامة حتى انتهى لما أمره به رسول الله ﷺ ، فبعث الجنود إلى بلاد قضاعة، وأغار أسامة على " أُبْنَى " ، فسبى وغنم، ورجع إلى المدينة ظافرًا بعد أن غاب عنها أربعين يومًا وكان إنفاذ جيش أسامة من أعظم الأمور نفعًا للمسلمين، فإنَّ العرب قالوا: " لولا أن لهؤلاء قوة ما خرج مثل هؤلاء من عندهم ولكن ندعهم حتى يلقوا الروم، فلقوا الروم فهزموهم وقتلوهم ورجعوا سالمين فثبتوا على الإسلام "[٥].

لقد أثبتت الأيام والأحداث سلامة رأي الصديق وصواب قراره الذي اعتزم تنفيذه معتمدًا في ذلك على الدقة التامة في التزام المنهج النبوي، والأمر النبوي، والتصميم الملهم في وقته المناسب والنظر البعيد إلى المستقبل.

---

(١) ولا تعزقوا : لا تكسروا .
(٢) فحصوا: كشفوا .
(٣) تاريخ الأمم والملوك للطبري (٤/ ٤٧) .
(٤) انظر : الخلفاء الراشدون ، عبد الوهاب النجار، ص٤٧ .
(٥) البداية والنهاية (٦/ ٣٠٤،٣٠٥) .

وقد اعترف كبـار الصحابة بصواب ما ذهب إليه الصديق وردّ عمـر فيما بعد قولته المشهورة: " ليلة من أبي بكر خير من عمر وآل عمر "[١].

إن بعث أسامة في تلك اللحظة الحـرجة لم يحدث أي أثر سلبي على الموقف الإسلامي العـام كما ظن الـكثيرون؛ بل على العكس فـإنه أحدث آثارًا إيجـابية أفادت الموقف العسكري والسياسي والدعوي آنيًا وفيما بعد فقد أحدث هذا الجيش في أثناء مسيرته رعبًا وخوفًا لدى القبائل وأصحاب الأديان الأخرى الذين أشرأبت أعناقهم عندما رأوا الفـتنة قد ذر قرنها في الجزيرة العربيـة بعد وفاة النبي ﷺ ، فكان الجيـش لا يمر بحي من أحياء العـرب إلا أرعبـوا منهم وقالوا: " مـا خرج هؤلاء من قوم إلا وبهم منعة شديدة"[٢] ولهذا فإن بعث أسامة كـان حربًا نفسية رائعة فيما حققته من مكاسب.

إن اختيار الطريق السهل في بعض الأحيان يورد المهالك. ولكن أبا بكر اختار في تلك اللحظة الطريق الصـعب الشاق المؤدي إلى النجـاة والنصر والفـوز وكان حزمًا وحسمًا سجلهما التاريخ لهذا الخليفة الراشد الملهم[٣].

رضي الله عنك يا أبا بكر لقد كان يدرك ما وراء خـروج هذا الجيش بعد وفاة رسول الله ﷺ التي جعلت أعداء الإسلام يتطلعون للقضاء على الإسلام، كان يدرك رضي الله عنه ما في طاعة الله ورسوله من الخير من جهة، وما في إظهار القوة التي لا يحترم الأعداء سواها من جهة أخرى، فكانت هذه النتيجة الرفيعة لذلك القرار التاريخي العظيم[٤].

- **حروب الردة:**

قام أبو بكـر الصديق رضي الله عنه بحرب المرتديـن وجهز الجـيوش لكل ناحـية من

(١) الشورى بين الأصالة والمعاصرة ، ص٨٤ .

(٢) البداية والنهاية (٦/٣٠٨) .

(٣) انظر: الشورى بين الأصالة والمعاصرة، ص٨٤ .

(٤) انظر: الجهاد في سبيل الله (٢/ ٤٥٥) .

نواحي الجزيرة العربية فنصر الله الإسلام وأذل الكفر وكانت النتيجة خلال سنة واحدة كما قال ابن كثير - رحمه الله - : " استهلت هذه السنة - يعني سنة اثنتي عشرة للهجرة - وجيوش الصديق وأمراؤه الذين بعثهم لقتال أهل الردة جوالون في البلاد يمينًا وشمالاً لتمهيد قواعد الإسلام وقتال الطغاة من الأنام حتى رد شارد الدين بعد ذهابه ورجع الحق إلى نصابه وتمهدت جزيرة العرب وصار البعيد الأقصى كالقريب الأدنى . . . "(١).

إن كل واقعة من حروب الردة تشهد بأن أهل الباطل لا يحترمون أهل الحق إلا بالقوة والجهاد ولقد ترتب على حروب الردة عدة نتائج من أهمها:

- لقد تكسرت وتحطمت قوى الشر من يهود ونصارى، ووثنيين الذين تستروا تحت شعارات عدة أمام صلابة التوحيد وحقيقة التصور السليم، والقيادة الحكيمة وتركت لنا الأحداث الجسيمة ثروة ضخمة في معاملة المرتدين وأحكامهم، وفي المنهج الصحيح لمعاملة الخارجين عن دولة الإسلام العظيمة.

- استطاعت القيادة الإسلامية بزعامة الصديق ﷺ أن تجعل من الجزيرة العربية قاعدة للانطلاق لفتح العالم أجمع، وأصبحت الجزيرة هي النبع الصافي الذي يتدفق منه الإسلام ليصل إلى أصقاع الأرض بواسطة رجال عركتهم الحياة، وأصبحوا من أهل الخبرات المتعددة في مجالات التربية، والتعليم، والجهاد وإقامة شرع الله الشامل لإسعاد بني الإنسان حيثما كان.

- كانت حروب الردة إعدادًا ربانيًّا للفتوحات الإسلامية حيث تميزت الرايات وظهرت القدرات، وتفجرت الطاقات، واكتشفت قيادات ميدانية، وتفنن القادة في الأساليب والخطط الحربية وبرزت مؤهلات الجندية الصادقة المطيعة المنضبطة الواعية التي تقاتل وهي تعلم على ماذا تقاتل، وتقدم كل شيء وهي تعلم من أجل ماذا تضحي وتبذل، ولذا كان الأداء فائقًا والتفاني عظيمًا(٢).

---

(١) البداية والنهاية (٦/ ٣٤٢) .

(٢) انظر: تاريخ صدر الإسلام ، ص١٤٢، ١٤٧ .

- الفتوحات الإسلامية:

بعد أن انتهت حروب الردة، وتوحدت كلمة المسلمين، وأصبحت لهم قاعدة صلبة في جزيرة العرب كلها، تحركت قيادة الأمة بزعامة الصديق رضي الله عنه لتحقيق وعد الله بنصر دينه، وإقامة شرعه، ودعوة الناس لعبادة الله، وتحقيق عبوديته الشاملة في كل نواحي الحياة والممات، وكان لا بد من تحرك المسلمين لإزالة كل العقبات التي تقف في وجه أداء هذه الأمانة للناس أجمعين، حتى لا تكون فتنة ويكون الدين كله لله، وبذلك تتحقق سيادة شرع الله الحكيم على كل بني البشر، ويصبح الجميع يدينون بحاكمية الله سبحانه وتعالى المطلقة المتمثلة في خضوع الجميع لأحكام الله ورسوله صلى الله عليه وسلم.

لقد كان المسلمون بقيادة الصديق رضي الله عنه على يقين بما أخبر الله ورسوله من النصر والتمكين، وهذا اليقين من أخلاق النصر في جيل الصحابة - رضي الله عنهم - انطلاقًا من قوله سبحانه: ﴿ **يُرِيدُونَ لِيُطْفِئُوا نُورَ اللَّهِ بِأَفْوَاهِهِمْ وَاللَّهُ مُتِمُّ نُورِهِ وَلَوْ كَرِهَ الْكَافِرُونَ (٨) هُوَ الَّذِي أَرْسَلَ رَسُولَهُ بِالْهُدَىٰ وَدِينِ الْحَقِّ لِيُظْهِرَهُ عَلَى الدِّينِ كُلِّهِ وَلَوْ كَرِهَ الْمُشْرِكُونَ** ﴾ (سورة الصف: ٨،٩). وقال تعالى: ﴿ **إِنَّا لَنَنصُرُ رُسُلَنَا وَالَّذِينَ آمَنُوا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَيَوْمَ يَقُومُ الْأَشْهَادُ** ﴾ (غافر: ٥١).

لقد كان التحرك نحو العراق والشام من أجل نشر دين الله تعالى مرحلة طبيعية بعد انتهاء حروب الردة، فشرع الصديق رضي الله عنه في إرسال الجيوش إلى العراق بقيادة خالد وأزاحت الطواغيت من على رقاب الناس، واستجاب العباد لدين الفطرة ودخلوا فيه أفواجًا، ووجه جيوشه نحو الشام وواصل الخلفاء الراشدون من بعده المسيرة التي ساهمت في إدخال أمم وشعوب في دين الله تعالى.

٣- إسعاد الناس بنور الإسلام وعدله ورحمته:

إن الجهاد في سبيل الله يحقق الرحمة للبشرية في الأرض، ويدفع الظلم والاعتداء، ويسعد الناس بهذا الدين الذي هو نور، ويخرجهم من ظلمات الكفر

والضلال، قال تعالى: ﴿ اللَّهُ وَلِيُّ الَّذِينَ آمَنُوا يُخْرِجُهُم مِّنَ الظُّلُمَاتِ إِلَى النُّورِ وَالَّذِينَ كَفَرُوا أَوْلِيَاؤُهُمُ الطَّاغُوتُ يُخْرِجُونَهُم مِّنَ النُّورِ إِلَى الظُّلُمَاتِ أُوْلَئِكَ أَصْحَابُ النَّارِ هُمْ فِيهَا خَالِدُونَ ﴾ (البقرة، آية: ٢٥٧).

وما أروع جهـاد ذي القرنين في القرآن الكريم حيث تحرك بجيـوشه من أجل دعوة الله الخـالدة، ووظف كل إمكاناته من أجل نشـر التوحـيد وتعـريف الناس بخالقـهم، ولقد جمع بين الفتـوحات العظيمـة بحد السيف، وفتـوحات القلوب بالإيمان والإحسـان، فكان إذا ظفر بأمـة أو شعب دعـاهم إلى الحق والإيمان بالله تعالى قبل العـقاب أو الثواب، وكان حريصًـا على الأعمال الإصلاحيـة في كافة الأقاليم والبلدان التي فتحها، فسعى في بسط سلطان الحق، والعدالة في الأرض، شرقًا وغربًا، فلم يتعامل مع القوم المغلوبين بالظلم أو الجور أو التعسف أو التجبر أو الطغيـان أو البطش، وإنما عاملهم بهذا الدسـتور الرباني : ﴿ قَالَ أَمَّا مَن ظَلَمَ فَسَوْفَ نُعَذِّبُهُ ثُمَّ يُرَدُّ إِلَىٰ رَبِّهِ فَيُعَذِّبُهُ عَذَابًا نُّكْرًا (٨٧) وَأَمَّا مَنْ آمَنَ وَعَمِلَ صَالِحًا فَلَهُ جَزَاءً الْحُسْنَىٰ وَسَنَقُولُ لَهُ مِنْ أَمْرِنَا يُسْرًا﴾ (سورة الكهف، آية: ٨٧، ٨٨).

ولقد وجد في إحدى رحلاته الجهادية الدعوية قومًا لا يكادون يفقهون قولاً، وقد وقع عليهم ظلم عظيم، وتخوفوا من قدوم يأجوج ومأجوج عليهم، فعرضوا عليه المال من أجل أن يبنى لهم سدًّا فقام بمدافعة الظلـم المتوقع واعتذر عن أخذ الخراج، وشـرع في نقلهم من الجهل إلى العلم، والتخلف إلى التـقدم، والكسل إلى العمل، والضعف إلى القـوة قال تعالى: ﴿قَالَ مَا مَكَّنِّي فِيهِ رَبِّي خَيْرٌ فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا (٩٥) آتُونِي زُبَرَ الْحَدِيدِ حَتَّىٰ إِذَا سَاوَىٰ بَيْنَ الصَّدَفَيْنِ قَالَ انفُخُوا حَتَّىٰ إِذَا جَعَلَهُ نَارًا قَالَ آتُونِي أُفْرِغْ عَلَيْهِ قِطْرًا﴾ (سورة الكهف، آية: ٩٥، ٩٦). لقد كان ذو القرنين حريصًا على مصلحة الناس، ناصحًا لهم فيما يعود عليهم بالنفع، ولهذا طلب منهم المعونة الجسدية، لما في ذلك تنشيط لهم ورفع لمعنوياتهم، ومن نصحه وإخلاصه لهم، إنه بذل ما في الوسع والخـدمة أكثر مما كانوا يطلبون، فهم

طلبوا منه أن يجعل بينهم وبين القوم المفسدين سدًّا، أما هو فقد وعد بأن يجعل بينهم ردمًا : " والردم هو الحاجز الحصين، والحجاب المتين وهو أكبر من السد وأوثق، فوعدهم بفوق ما يرجون"[1].

إن قول الله تعالى: ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ أَجْعَلْ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُمْ رَدْمًا﴾ (الكهف: ٩٥). فيه مَعْلَمٌ بارزٌ في تضافر الجهود وتوحيد الطاقات والقدرات والقوى.

لقد استطاع ذو القرنين أن يفجر طاقات المستضعفين ووجههم نحو التكامل، لتحقيق الخير والغايات المنشودة.

إن المجتمعات البشرية غنية بالطاقات المتعددة في المجالات المتنوعة في ساحات الفكر والمال والتخطيط والتنظيم، والقوى المادية، ويأتي دور القيادة الربانية في الأمة لتربط بين كل الخيوط والخطوط والتنسيق بين المواهب والطاقات وتتجه بها نحو خير الأمة ورفعتها.

إن أمتنا الإسلامية مليئة بالمواهب الضائعة والطاقات المعطلة، والأموال المهدورة، والأوقات المبدّدة، والشباب الحيارى، وهي تنتظر من قيادتها في كافة الأقطار والدول والبلدان لكي تأخذ بقاعدة ذي القرنين في الجمع والتنسيق والتعاون ومحاربة الجهل والكسل والتخلف[2] ﴿فَأَعِينُونِي بِقُوَّةٍ﴾.

لقد كان ذو القرنين يستخدم جيوشه وقوته كوسيلة من وسائل الدعوة، ونشر العدل بين الناس، ورفع الظلم عنهم، ومحاربة أهل الفساد.

هذه أهم ثمرات إقامة الجهاد في سبيل الله تعالى.

إن الجهاد في هذه الأمة ماض إلى يوم القيامة، ولا مكانة لهذه الأمة بدون الجهاد، فهو روحها، وفي وجوده حياتها، وتاريخ الأمة الإسلامية خير شاهد

---

(١) روح المعاني (١٦/ ٤٠) .

(٢) مع قصص السابقين (٢/ ٣٤٢) .

على ذلك، وإن الأهداف الكبرى التي تسعى لها الأمة لا يمكن تحـقيقها إلا بجيل مجاهد يحب المـوت كما يحب الأعداء الحيـاة، ولا يمكن رفع الذلة التي فرضت عليها إلا بالجهاد، ولا تستطيع أن تبلغ دعوة الله إلى الناس أجمعين بدون قيود أو حواجز إلا بالجهاد.

قال تعالى: ﴿ يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ تِجَارَةٍ تُنجِيكُم مِّنْ عَذَابٍ أَلِيمٍ ۝ تُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَتُجَاهِدُونَ فِي سَبِيلِ اللَّهِ بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (سورة الصف: ١٠، ١١).

* ■ *

■ الخاتمة ■

- إن فقه التمكين يعني دراسة أنواعه وشروطه وأسبابه ومراحله وأهدافه ومعوقاته ومقوماته من أجل رجوع الأمة إلى ما كانت عليه من السلطة والنفوذ والمكانة في دنيا الناس وتطبيق شرع الله عز وجل.
- إن النصر والتمكين للمؤمنين له وجوه عدة، وصور متنوعة من أهمها تبليغ الرسالة، وهزيمة الأعداء، وإقامة الدولة.
- إن من أنواع التمكين التي ذكرت في القرآن الكريم، تمكين الله تعالى للدعاة، بتبليغ الرسالة وأداء الأمانة، واستجابة الخلق لهم ومن أمثلة ذلك: أصحاب القرية، وأصحاب الأخدود، وتمكين الله تعالى لرسول الله ﷺ لتبليغ الرسالة في مكة.
- إن من أنواع التمكين، هلاك الكفار ونجاة المؤمنين ونصرهم في المعارك كالذي حدث في قصة نوح عليه السلام مع قومه، وموسى عليه السلام مع قوم فرعون، وطالوت مع جالوت، ونبينا ﷺ في مغازيه كبدر وغيرها.
- إن من سنن الله الماضية في المجتمعات والشعوب والأمم سنة إنجاء المؤمنين المصدقين من أوليائه، المعترفين برسالة رسله وأنبيائه وإهلاك الكافرين المكذبين لهم من أعدائه.
- إن السنن الربانية ثابتة في الكون وتقع على الإنسان في كل زمان ومكان وسنة التدافع من السنن التي تتعلق بالتمكين تعلقًا وثيقًا وهي من أهم سنن الله في الشعوب والأمم.
- إن تولي أهل التوحيد والإيمان أعباء الحكم لدولة غير مؤمنة نوع من أنواع التمكين، وقد أشار القرآن الكريم لهذا النوع من التمكين في قصة يوسف عليه السلام، ولقد شاركت بعض الحركات الإسلامية حكوماتها في الحكم وحققت إنجازات مهمة للإسلام من أهمها: تجربة اليمن، والأردن وتركيا.

- إن من أنواع التمكين التي ذكرت في القرآن الكريم وصول أهل التوحيد والإيمان الصحيح إلى سدة الحكم وتوليهم لمقاليد الدولة، كما حدث لداود وسليمان عليهم السلام وذي القرنين.
- إن الاستخلاف في الأرض والتمكين لدين الله، وإبدال الخوف أمنًا وعد من الله تعالى متى حقق المسلمون شروطه.
- إن من شروط التمكين تحقيق الإيمان بكل معانيه وبكافة أركانه، وممارسة العمل الصالح بكل أنواعه والحرص على كل أنواع الخير وصنوف البر.
- إن من شروط التمكين لدين الله تحقيق العبادة في دنيا الناس وعلى المسلمين أن يفهموا حقيقة العبادة في القرآن الكريم وسنة سيد المرسلين عليه أفضل الصلاة والتسليم وأن يعملوا على نشر مفهوم العبادة الصحيح في شرايين الأمة حتى تخرج من الأوهام والمغالطات والخرافات التي ما أنزل الله بها من سلطان.
- من شروط التمكين المهمة، محاربة الشرك بجميع أشكاله وأنواعه، ولذلك على الجماعة المسلمة والتي تسعى لتحكيم شرع الله تعالى أن تعرف حقيقة الشرك وخطره وأسبابه وأدلة بطلانه وأنواعه وأن تنقي صفها منه بكافة الأساليب الشرعية ولا يمكن للإنسان أن يحذر من الشرك وأن يحذر غيره إلا إذا عرفه وعرف خطره.
- إن من شروط التمكين المهمة تقوى الله عز وجل، لأن تقوى الله تعالى لها ثمرات عظيمة في الدنيا والآخرة وهذه الثمرات تظهر على الأفراد والمجتمع الذي يسعى لتحكيم شرع الله والتمكين لدينه.
- إن الأخذ بالأسباب التي تؤدي إلى التمكين أمر أرشدنا إليه القرآن الكريم، وحثنا على الأخذ بها سيد المرسلين ﷺ، وقد أمر الله تعالى بالإعداد الشامل فقال: ﴿وَأَعِدُّوا لَهُم مَّا اسْتَطَعْتُم مِّن قُوَّةٍ وَمِن رِّبَاطِ الْخَيْلِ﴾ (الأنفال: ٦٠) والإعداد في حقيقته أخذ بالأسباب.

- إن من أهم السنن الربانية التي ترتبط بعلاقة مباشرة مع سنن التمكين سنة الأخذ بالأسباب، ولذلك يجب على الأفراد والجماعات العاملة للتمكين لدين الله من فهمها واستيعابها وإنزالها على أرض الواقع.
- إن العمل بسنة الأخذ بالأسباب من صميم تحقيق العبودية لله تعالى وهو الأمر الذي خلق له العبيد، وأرسلت به الرسل، وأنزلت لأجله الكتب، وبه قامت السموات والأرض، وله وجدت الجنة والنار، فالقيام بالأسباب المأمور بها محض العبودية.
- إن أسباب التمكين تنقسم إلى نوعين: أسباب معنوية، ومادية، فمن أهم الأسباب المعنوية، إعداد الأفراد الربانيين، القيادة الربانية ، ومحاربة أسباب الفرقة ، التي من أهمها : الابتداع ، والجهل ، واتباع الهوى ، وتحكيم العقل وتقديمه على النصوص ومخالفة منهج أهل السنة في النظر والاستدلال .
- ومن أسباب التمكين المعنوية الأخذ بأصول الوحدة والاتحاد والاجتماع المتمثلة في وحدة العقيدة ، وتحكيم الكتاب والسنة ، وصدق الانتماء إلى الإسلام ، طلب الحق والتحري في ذلك ، وتحقيق الأخوة بين أفراد المسلمين.
- إن من أسباب التمكين المادية ، الاهتمام بمبدأ التفرع والتخصص، ومراكز البحوث، والتخطيط والإدارة ، والاهتمام بالقوة الاقتصادية، والإعداد الإعلامي .
- إن التمكين لدين الله في الأرض يمر بمراحل لا بد منها وهذه المراحل هي : مرحلة التعريف، مرحلة الإعداد والتربية، ومرحلة المغالبة ، ومرحلة الظهور .
- إن الخطوة الأولى في سبيل إقامة الدولة المسلمة أو التمكين للإسلام هو التعريف به والدعوة إليه .
- إن عدة الدعاة القائمين على مرحلة التعريف هي : التمييز الإيماني ، والتفوق الروحي ، والرصيد العلمي ، والزاد الثقافي ، ورجاحة العقل ، وقوة الحجة، ورحابة الصدر وسماحة النفس .

- إن من السنن المهمة في فقه التمكـين فهم سنة التدرج ومراعاة تدرج الأمة من السهل إلـى الصعب ، ومن الصعـب إلى الأصعب ومن الهدف الـقريب إلى الهدف البعيد ، ومن الخطة الجزئية إلى الخطة الكلية .

- إن رسل الله الكرام عليهم أفضل الصلوات والســلام عندما بلغوا رسالات الله إلى أقوامهم ، اختاروا من الناس من استجـاب لدعوتهم وغرسوا في نفوسهم المعاني الإيمانية والأخلاق الربانية حتى استطاعوا أن يحملوا معهم دعوة الله إلى الناس .

- إن عدة القائمين على مرحلة الإعداد والتربية أمــور كثيرة من أهمها، الخبرات والتجارب ، وأن يكون القائمون أصحاب سياسة حكيمة .

- يكون في مرحلة الإعـداد والتربية يهتم المشرفـون عليها بغرس صـفات جيل التمكين في نفوس العناصر التي اختيرت لهذه المرحلة .

- إن سنة الابتلاء مرتبطة بالتمكين ، ارتباطًا وثيـقًا ، فلقد جرت سنة الله تعالى - ألا يمكن إلا بعد أن تمر بمراحل الاختبار المختلفــة وبعد أن ينصهر معدنها في بوتقة الأحداث ، فيميز الله الخبيث من الطيب .

- إن مرحلة المـغالبة هي مـرحلة التركـيز والتـخصـيص ، لسد ثغرات الـعمل الإسلامي كله ، من حـيث الكم ومن حيث النوع ومن حيث الاستـجابة لكل متطلبات الدعوة وأعبائها .

- إن بناء القاعدة الصلبة على أسس من منهج أهل السنة والجماعة يدخل ضمن الطائفة المنصورة التي تتحرك بهذا الدين على جميع الثغرات .

- إن من صفات الطائفة المنصورة من خلال الأحاديث الصحيحة هي ؛ أنها على الحق ، وأنها قائمة بأمر الله ، وأنها تقــوم بواجب الجهاد والقتال في سبيل الله ، وأنها المجددة للأمة أمر دينها، وأنها ظاهرة إلى قيام الساعة ، أنها صابرة.

- إن مـرحلة التـمكين هي ذروة العـمل الإسـلام المنظم ، وهي تمثل الثـمـرة الناضجة من الجهود التي بذلت في المراحل التي سبقتها .
- إن بشائر العودة إلى التمكين ومظاهره بدأت مع الحركات الإسلامية منذ قرنين ماضيين وتوارثت الأجيال الحاضرة تلك التجارب التي تركت لنا معالم في فقه التمكين ومن أهم هذه الحـركات ، حركة الشـيخ محمد بن عـبد الوهاب في شبه الجزيرة العربية، وحركة الشيخ أحمد بن عبد الأحد السرهندي في الهند .
- إن من أهم أهداف التمكين : إقامة المجتمع المسلم ، ونشر الدعوة إلى الله .

وبعد فهذه الرسالة قد تمت بحمد الله ومنّتـه وكرمه أضعها بين يدي قارئها ، ولا أدعي الكمال فيها

وما بها من خطأ ومـن خلل ... أذنت في إصلاحه لمن فعل

لكن بشرط العلم والإنصاف ... فذا وذا من أجمل الأوصاف

والله يهدي سبـل السـلام ... سبحانه بحبـله اعتصـامي [1]

فلله الحمد على ما منّ به عليّ أولاً وآخرًا ، وأسأله سـبحانه بأسمائه الحسنى وصفـاته العُلا ، أن يجعل هذه الرسـالة لوجهه خالـصة ، ولعباده نافـعة ، وأن ينفعني بها يوم لا ينفع مـال ولا بنون إلا من أتى الله بقلب سليم ، وأن ينفعنا بما كتبنا وقرأنا وسمعنا .

﴿ سُبْحَانَ رَبِّكَ رَبِّ الْعِزَّةِ عَمَّا يَصِفُونَ (١٨٠) وَسَلامٌ عَلَى الْمُرْسَلِينَ (١٨١) وَالْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ الْعَالَمِينَ﴾ .

* ■ *

(١) اقتباس من منظومة ابن عاصم ، ص١٢ .

■ توصيات البحث ■

أسأل الله أن تكون هذه التوصيات خالصة لوجهه الكريم وأن يهيئ لها القبول، والأسباب، لتكون واقعًا حيًّا في دنيا المسلمين.

■ **توصيات إلى زعماء الأمة الإسلامية:**

- بأن يتقوا الله في أعمالهم وأقوالهم، وحركاتهم، وفي سكناتهم وأن يلتزموا بمنهج الله تعالى وشريعته، وأن يعملوا على تفجير طاقات الأمة ويحرصوا على توظيفها بما يعود بالخير على الإسلام والمسلمين، ويربوا شبابها على الرجولة والشهامة والبطولة، ويمنعوا أسباب العجز والكسل والخمول.

■ **توصيات إلى الجامعات الإسلامية:**

- أوصي رجال الأمة القائمين على جامعاتها، كجامعة أم درمان الإسلامية، وجامعة المدينة المنورة، وأم القرى بمكة والأزهر الشريف بمصر وغيرها، أن يقوموا بواجبهم تجاه الدعوة إلى الله تعالى، وألا يكتفوا بمجرد الأبحاث والتأليف والكتابة والمحاضرة، والمقالة، وإنما عليهم أن ينتشروا في أوساط الناس لتعليمهم وتوجيههم وتربيتهم وتثقيفهم، فالناس في أشد الحاجة إلى علمهم وجهدهم.

- وأن يوجهوا طلابهم نحو الأبحاث التي تنفع الإسلام والمسلمين وتعالج قضاياهم المعاصرة، والمستجدة وأن يحرصوا على تخريج أجيال واعية، تستوعب حقيقة الإسلام، وتحرص على نشره بين الناس بكافة الأساليب المعاصرة وأن يكون لهؤلاء الطلبة المتخرجين المقدرة على التصدي لمحاولات الغزو الفكري، التي يقوم بها أعداء الإسلام من مبشرين ومستشرقين وعلمانيين ويهود ونصارى وملاحدة.

■ **توصيات إلى أبناء الأمة الإسلامية:**

- أن يرجعوا إلى كتاب الله وسنة نبيه ﷺ ، ليستمدوا منها عقائدهم وأخلاقهم وعبادتهم، وأن يكونوا يدًا واحدة في وجه أعدائهم.

- وأن يسعــوا بكافة ما يملكــون من أجل استرداد أراضــيهم، ومقــدساتهم، وإقامة حكم إسلامي في كل الأراضي.

- وعلى الأمة الإسلامــية أن تتعامل مع سنن الله وقـوانينه معاملة المستـبصر والعارف بها وأن تعمل على العمل والعطاء في كل مجالات الحياة.

- وأن تتحــرر من هيمنة الاســتعــمار والتــبعيــة له بكل أشكالهــا وصورها، وأنواعها، وأصنافها.

وأخيرًا:

فإنني أوصي كل فرد من أفراد الأمة تصله هذه الكلمات:

- أن يتقي الله في إسلامه ودينه وعقيدته.

- وأن يعمل على أن لا يؤتى الإسلام من قبله.

- وأن يكون جنديًّا مخلصًا لعقيـدته وأن يشارك ما استطاع في العمل ورفع البناء حتى يأذن الله تعالى بالتمكين للإسلام والمسلمين.

* ■ *

أهم مصادر ومراجع البحث

١- القرآن الكريم.
٢- إتمام الوفاء، محمد الخضري بك، دار الفكر العربي، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٩٩٢م.
٣- أحكام القرآن، أبو بكر أحمد بن علي الرازي، تحقيق: محمد صادق قمحاوي، الناشر، دار الصحف، القاهرة، مصر.
٤- أحكام القرآن لأبي بكر بن العربي، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار المعرفة، بيروت.
٥- أحكام أهل الذمة: شمس الدين محمد بن أبي بكر (ابن القيم) (ت ٧٥١هـ) تحقيق: د. صبحي الصالح، دار العلم للملايين، بيروت، الطبعة الثانية، ١٤٠١هـ.
٦- إدارة عمر بن عبد العزيز، محمد القحطاني، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، السعودية، الطبعة الأولى، ١٤١٦هـ.
٧- أدب الطالب ومنتهى الأدب، لمحمد علي الشوكاني، دار الكتب العلمية، بيروت الطبعة الأولى ١٤٠٢هـ.
٨- أدب الدنيا والدين، أبو الحسن علي بن محمد الماوردي، علق عليه: علي مصطفى السقا، دار الكتب العلمية، لبنان، الطبعة الرابعة ١٣٩٨هـ.
٩- استمرارية الدعوة والدعاة، محمد السيد الوكيل، دار المجتمع، المدينة، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٤م.
١٠- أسس الدعوة، محمد السيد الوكيل، دار النشر الإسلامية.
١١- أصول الدعوة، د. عبد الكريم زيدان، مكتبة المنار الإسلامية، الكويت، طبعة ١٤١٠هـ.
١٢- أصول الفقه الإسلامي د. حسن الأهدل، دار الجيل، صنعاء - اليمن طبعة ١٩٩٣م.

١٣- أصول الفكر السياسي في القرآن المكي د. عبد القادر التيجاني، دار البشر، عمان - الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ، ١٩٩٥م.
١٤- أضواء البيان في إيضاح القرآن بالقرآن للشيخ محمد الأمين الشنقيطي، عالم الكتب، بيروت، سنة ١٤٠٣هـ ١٩٨٣م.
١٥- إعلام الموقـعين عن رب العالمـين، الإمام ابن القيم، مـراجعـة وتعليق، طه عبدالرؤوف سعد، دار الجيل بيروت - لبنان.
١٦- آفات على الطريق، سيد نوح، دار الوفاء، المنصورة، مصر، الطبعة الخامسة ١٤٠٠هـ، ١٩٩٠م.
١٧- اقتضاء الصراط المسـتقيم للشيخ أحمد بن عبد السـلام بن تيـمية، تحقيق: د. ناصر عبد الكريم العقل، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، مطابع العبيكان.
١٨- إمام التوحيد الشيخ محمد عبده، أحمد القطان، مكتبة السندس، الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٨م.
١٩- الإتقان في علوم القرآن للسيوطي، مطبعة البابي الحلبي، مصر.
٢٠- الأحكام السلطانية لأبي يعلى الفراء، مصطفى البابي الحلبي، مصر.
٢١- الاستـخبـارات العـسكرية في الإسلام، عـبد الله علي السـلامة مناصـرة، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الثانية، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.
٢٢- الاستقامة ابن تيمية، تحقيق: محمد رشاد سالم، طبعة جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الأولى ١٤٠٣هـ.
٢٣- الأسلوب الإعلامي في القرآن الكريم، لمحمد الطلابي، مكتبة البلاغ، جدة السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩١م.
٢٤- الإسلام عقـيدة وشريعة، دار الشـروق بالقاهرة، الطبعـة الرابعة سنة الطبع ١٩٦٨م.
٢٥- الإسلام وأوضاعنا القـانونية، عبد القادر عودة، الناشـر المختار الإسلامي، القاهرة، الطبعة الخامسة سنة ١٣٩٧هـ.

٢٦- الإسلام وتربية الإنسان، إبراهيم سعاده، مكتبة المنار، الزرقاء - الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
٢٧- الإسلام والحضارة للندوة العالمية للشباب، أبحاث ووقائع اللقاء الرابع للندوة العالمية للشباب الإسلامي المنعقد في الرياض ٢٧ ربيع الثاني ١٣٩٩هـ، الموافق من ١٨-٢٥ مارس ١٩٧٩م الناشر شركة دار العلم للطباعة بالسعودية، الطبعة الثالثة.
٢٨- الإسلام وأوضاعنا القانونية، عبد القادر عودة، الناشر المختار الإسلامي، القاهرة، الطبعة الخامسة سنة ١٣٩٧هـ.
٢٩- الإصابة في تمييز الصحابة، للحافظ أحمد بن حجر العسقلاني، تحقيق: علي محمد البجاوي، دار نهضة مصر.
٣٠- الاعتصام، أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، تعليق محمد رشيد رضا، دار المعرفة - بيروت.
٣١- الإعلام في صدر الإسلام عبد اللطيف حمزة، دار الفكر العربي، مصر.
٣٢- الأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، خالد السبت، المنتدى الإسلامي، لندن، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
٣٣- أولويات الحركة الإسلامية في المرحلة القادمة د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة، القاهرة، الطبعة الثانية ١٤١١هـ.
٣٤- أولويات الفاروق، غالب عبد الكافي القرشي، المكتب الإسلامي، بيروت، مكتبة الحرمين الرياض، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ - ١٩٨٣م.
٣٥- الإيمان والحياة د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت الطبعة العاشرة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٤م.
٣٦- الإيمان بالقضاء والقدر، محمد إبراهيم الحمد، دار ابن خزيمة، الرياض بالسعودية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ.

٣٧- الإيمان لابن تيمية، دار الحديث بجوار إدارة الأزهر، القاهرة - مصر، حققه هاشم محمد الشاذلي.
٣٨- البداية والنهاية، ابن كثير، مطبعة دار الفكر العربي.
٣٩- البحر المحيط، محمد بن يوسف الشهير بأبي حيان، دار الفكر، بيروت - لبنان. الطبعة الثانية ١٤٠٣هـ ، ١٩٨٣م.
٤٠- البدعة والمصالح المرسلة د. توفيق يوسف الواعي، مكتبة دار التراث، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ.
٤١- البيان العدد ١٨ جمادى الآخرة ١٤١٨هـ.
٤٢- التحرير والتنوير، للشيخ محمد الطاهر بن عاشور - دار الكتب الشرقية، تونس.
٤٣- التخطيط والرقابة، نجاح الإدارة د. عبد الفتاح دياب حسن، سلسلة مطبوعات المجموعة الاستشارية العربية ، الطبعة الثانية.
٤٤- التفسير الإسلامي للتاريخ، د. عماد الدين خليل، دار العلم للملايين، بيروت - لبنان ، الطبعة الأولى ١٩٧٥م.
٤٥- التقوى الغاية المنشودة والدرة المفقودة، أحمد فريد، دار العميعي للنشر والتوزيع، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ، ١٩٩٣م.
٤٦- التعريفات للجرجاني، دار الكتب العلمية.
٤٧- التغيير على منهاج النبوة، جمعة أمين عبد العزيز، دار الدعوة، الإسكندرية، مصر ،الطبعة الثانية ١٤١٦هـ، ١٩٩٦م.
٤٨- التمكين للأمة الإسلامية في ضوء القرآن الكريم، لمحمد السيد محمد يوسف، الطبعة الأولى، ١٤١٨هـ، ١٩٩٧م، دار السلام بالقاهرة.
٤٩- التوكل على الله وعلاقته بالأسباب، د. عبد الله عمر الدميجي، دار الوطن، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ.

٥٠- الثقافة الإسلامية وتحديات العصر، شوكت محمد عليان، دار الرشيد للنشر والتوزيع، الرياض، طبعة سنة ١٤٠١هـ.
٥١- الجهاد في سبيل الله د. عبد الله أحمد القادري، دار المنارة، جدة، الطبعة الثانية ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.
٥٢- الجهاد ميادينه وأساليبه د. محمد نعيم ياسين، دار الفرقان، عمان - الأردن، الطبعة الثانية ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
٥٣- الجهاد في سبيل الله، سعيد القحطاني، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، السفير، الرياض.
٥٤- إلجام العوام عن علم الكلام، محمد محمد الغزالي، مكتبة الجندي، القاهرة - مصر.
٥٥- الجامع لأحكام القرآن، للإمام القرطبي، دار الكتاب العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٨٧م.
٥٦- الحركات الإسلامية الحديثة في تركيا، د. أحمد النعيمي، دار البشير، عمّان، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ - ١٩٩٣م.
٥٧- الحركة الإسلامية الحديثة في تركيا، محمد مصطفى الطحان مطابع دار الطباعة والنشر الإسلامية، القاهرة - مصر.
٥٨- الحكمة في الدعوة إلى الله، سعيد بن علي بن وهف القحطاني، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ - ١٩٩٢م، توزيع مؤسسة الجريسي.
٥٩- الحكم والتحاكم في خطاب الوحي، عبد العزيز مصطفى كامل، دار طيبة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ - ١٩٩٥م.
٦٠- الحكومة الإسلامية للمودودي، ترجمة أحمد إدريس، نشر المختار الإسلامي، للطباعة والنشر القاهرة، الطبعة الأولى ١٣٩٧هـ - ١٩٧٧م.
٦١- الخصائص العامة للإسلام د. يوسف القرضاوي، مكتبة وهبة القاهرة، مصر، الطبعة الرابعة ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٦٢- الخلفاء الراشدون، عبد الوهاب النجار، دار القلم، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ - ١٩٨٦م.
٦٣- الخلافة والملك للمودودي، تعريف أحمد إدريس - دار القلم، الطبعة الأولى سنة ١٣٩٨هـ - ١٩٧٨م.
٦٤- الأخلاق الإسلامية، عبد الرحمن حبنكة الميداني، دار القلم، دمشق.
٦٥- الدعاة والتخطيط، د. محمد عبد الله الخطيب، دار المنار الحديثة، مصر، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.
٦٦- الدعوة إلى الإسلام، حسن أدهم إبراهيم.
٦٧- الدعوة الإسلامية بين الفردية والجماعية، سليمان مرزوق منشورات مكتبة المنار، الكويت الطبعة الأولى، ١٤٠٧هـ، ١٩٨٦م.
٦٨- الدعوة قواعد وأصول، جمعة أمين عبد العزيز، دار الدعوة للطبع والنشر والتوزيع، الطبعة الثالثة ١٤٠٩هـ.
٦٩- الديباج المذهب في معرفة علماء المذهب، وبهامشه كتاب الابتهاج بتطريز الديباج الناشر: دار الكتب العلمية بيروت.
٧٠- الروض الأنف في شرح السيرة النبوية لابن هشام: لأبي القاسم عبد الرحمن ابن عبد الله السهيلي (٥٠٨ - ٥٨١هـ) ومعه السيرة النبوية للإمام ابن هشام تحقيق: عبد الرحمن الوكيل، دار الكتب الحديثة سنة ١٣٨٧هـ.
٧١- الرياض الناظرة، عبد الرحمن السعدي، مكتبة المعارف الرياض، الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ، ١٩٨٠م.
٧٢- الزهد، لهناد بن السري، تحقيق: عبد الرحمن بن عبد الجبار الفريوائي، دار الخلفاء للكتاب الإسلامي، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ.
٧٣- السياسة الشرعية أو نظام الدولة، عبد الوهاب خلاف، الناشر: المطبعة السلفية ومكتبتها سنة الطبع ١٣٥٠هـ.
٧٤- السياسة الشرعية لشيخ الإسلام ابن تيمية، قدم له الأستاذ محمد المبارك. سنة الطبع ١٣٨٦هـ، ١٩٦٦م، دار الكتب العربية، بيروت - لبنان.

٧٥- السيرة النبوية، دروس وعبر د. مصطفى السباعي، الطبعة الثامنة، ١٤٠٥هـ، المكتب الإسلامي.
٧٦- السيرة النبوية الصحيحة، د. أكرم ضياء العمري، الناشر: مكتبة العلوم والحكم، المدينة المنورة، الطبعة الأولى سنة ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
٧٧- السيرة النبوية، لابن كثير، للإمام أبي الفداء إسماعيل بن كثير القرشي (٧٠١ - ٧٧٤هـ) تحقيق: مصطفى عبد الواحد، الطبعة الثانية سنة ١٣٩٨هـ، دار الفكر بيروت - لبنان.
٧٨- السير والمغازي لابن إسحاق، تحقيق: سهيل زكار.
٧٩- الشريعة، للآجري، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتب العلمية، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ.
٨٠- الشهادة الزكية في ثناء الأئمة على ابن تيمية، مرعي بن يوسف، دار الفرقان، دار الرسالة، الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ، ١٩٨٣م.
٨١- الشورى بين الأصالة والمعاصرة، عز الدين التميمي، دار البشير، عمان - الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
٨٢- الشيخ عبد الرحمن السعدي وجهوده في توضيح العقيدة، عبد الرزاق بن عبد المحسن العباد، مكتبة الرشد، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
٨٣- الصحاح، للجوهري، تحقيق: أحمد عبد الغفور عطار، الطبعة الثانية ١٣٩٩هـ.
٨٤- الصحوة الإسلامية بين الجمود والتطرف، د. يوسف القرضاوي، دار الوفاء، المنصورة - مصر، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
٨٥- الصحوة الإسلامية منطلق الأصالة وإعادة بناء الأمة على طريق الله، أنور الجندي، دار الاعتصام.

٨٦- الطبقات الكبرى لابن سعد، دار صادر، بيروت، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
٨٧- الطريق إلى جماعة المسلمين، حسين بن محسن بن علي بن جابر، الطبعة الخامسة ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م. دار الوفاء، المنصورة ، مصر.
٨٨- العبادة في الإسلام، د. يوسف القرضاوي، مؤسسة الرسالة، بيروت، الطبعة الثانية عشرة، ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
٨٩- العبر في خبر من غبر، لأبي عبد الله الذهبي، تحقيق: أبي هاجر محمد بسيوني زغلول، دار الكتب العلمية، الطبعة الأولى ١٤٠٥هـ.
٩٠- العبقرية العسكرية في غزوات الرسول، دار الفكر العربي، القاهرة، الطبعة الثالثة ١٩٧٧م.
٩١- الغرباء الأولون، سلمان العودة، دار ابن الجوزي، الدمام - السعودية، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.
٩٢- الغزو الثقافي يمتد في فراغنا، محمد الغزالي، دار الصحوة، القاهرة، ١٤٠٨هـ، ١٩٨٧م.
٩٣- الفتاوى السعدية، لعبد الرحمن السعدي، الدار السعدية، الرياض - السعودية، مطبعة الكيلاني.
٩٤- الفرد والدولة في الشريعة الإسلامية، عبد الكريم زيدان، الناشر: الاتحاد الإسلامي العالمي للمنظمات الطلابية، سنة الطبع ١٣٩٥هـ، ١٩٧٥م.
٩٥- الفوائد: الإمام ابن القيم، دار الدعوة الإسكندرية.
٩٦- القاموس المحيط، للفيروزآبادي، الناشر: مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان.
٩٧- القصص القرآني في سورة الكهف، لمحمد متولي الشعراوي، منشور مكتبة الشعراوي الإسلامية.
٩٨- الكتاب والسنة يجب أن يكونا مصدر القوانين في مصر، أحمد محمد شاكر.
٩٩- المبسوط، شمس الدين السرخسي، مطبعة السعادة، مصر، الطبعة الأولى.

١٠٠- المدخل إلى الفقه الإسلامي د. عبد الله الدرعان، مكتبة التوبة، الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.
١٠١- المصباح المنير في غريب الشرح الكبير للرافعي، لأحمد بن محمد الفيومي، ت ٧٧٠هـ، بدون تاريخ، المكتبة العلمية، بيروت - لبنان.
١٠٢- المصطلحات الأربعة في القرآن، أبو الأعلى المودودي تعريب محمد كاظم، دار القلم، الكويت، الطبعة السادسة ١٣٩٧هـ.
١٠٣- المعالم الرئيسية للأسس التاريخية والفكرية لحزب السلامة، محمد حرب عبد الحميد، ندوة اتجاهات الفكر الإسلامي المعاصر المنعقدة في البحرين من ٢٢-٢٥ شباط ١٩٨٥م.
١٠٤- المعجم الوسيط: مجمع اللغة العربية، بدون تاريخ، الطبعة الثانية، المكتبة الإسلامية، إستنابول - تركيا.
١٠٥- المغني، لأبي محمد عبد الله بن أحمد بن قدامة المقدسي، مكتبة القاهرة، الطبعة الأولى.
١٠٦- المفردات في غريب القرآن، لأبي القاسم الحسين بن محمد الراغب الأصبهاني، تحقيق: سيد كيلاني، دار المعرفة بيروت - لبنان.
١٠٧- الملل والنحل، الشهرستاني، محمد عبدا لكريم، تحقيق: عبد العزيز محمد الوكيل، مؤسسة الحلبي وشركاه ١٣٨٧هـ، ١٩٦٨م.
١٠٨- الموطأ: الإمام مالك بن أنس، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، دار إحياء الكتب العربية، عيسى الحلبي وشركاه، القاهرة.
١٠٩- الموافقات في أصول الشريعة: أبو إسحاق إبراهيم بن موسى الشاطبي، دار المعرفة، بيروت - لبنان.
١١٠- الموالاة والمعاداة في الشريعة الإسلامية، محماس بن عبد الله الجعلود، دار اليقين، المنصورة، مصر. دار الفرقان الرياض - السعودية، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.

١١١ - المنهاج الحـركي للسيـرة النبوية ، منيـر الغضـبان ، مكتـبة المنار ، الأردن - الزرقاء ، الطبعة السادسة ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م .
١١٢ - المنهاج الـقرآني في التشـريع د . عبـد الستـار فتح الله سعـد ، مطابع دار الطباعة الإسلامية ، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ ، ١٩٩٢م .
١١٣ - النظام السياسي في الإسـلام د . محمد أبو فارس ، دار الفرقـان ، عمان - الأردن ، الطبعة الثانية ١٤٠٧هـ ، ١٩٨٦م .
١١٤ - النظام السـياسي للمودودي ، مـطبوع مع مجـموعـة كتب سمـيت نظرية الإسـلام وهديه في السـيـاسـة والقـانون والدسـتور سـنة الطبع ١٣٨٧هـ - ١٩٦٧م ، دار الفكر ، ترجمة خليل حسن .
١١٥ - النظام الاقتصادي في الإسلام ، محـمود إبراهيم الخطيب ، مكتبة الحرمين ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٩م .
١١٦ - النهاية في غريب الحـديث والأثر للإمام مجد الدين أبي السـعادات المبارك ابن محـمد الجزري المعـروف بابن الأثير ، تحـقيق : محـمود محـمد الظاحي الناشر : المكتبة الإسلامية طبعة دار التراث العربي ، بيروت - لبنان .
١١٧ - النونية ، القـحطانية ، لأبي مـحمد عبـد الله القحطاني الأندلسي ، مكتـبة السوادي للتوزيع جدة ، الطبعة الثانية ، ١٤٠٩هـ ، ١٩٨٨م .
١١٨ - الهجـرة في القرآن ، أحزمي سامـعون جزولي ، مكتبـة الرشد ، الرياض ، الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م .
١١٩ - الوفود في العهد المكي وأثره الإعلامي لعلي رضوان أحمد الأسطل الطبعة الأولى ١٤٠٤هـ ، ١٩٨٤م ، دار المنار الأردن - الزرقاء .
١٢٠ - الولاء والبراء ، محمد سعـيد القحطاني ، دار طيبة مكة المكرمة ، الرياض ، الطبعة السادسة ١٤١٣هـ .
١٢١ - تاريخ الخلفاء ، للسيوطي ، بيروت ، دار الفكر ، بدون تاريخ نشر .

١٢٢- تاريخ الإسلام للذهبي عهـد الخلفاء الراشدين، تحقيق: عمـر عبد السلام تدمري، دار الكتاب العربي، بيروت، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
١٢٣- تاريخ المذاهب الإسلامية في السياسة والعقائد لأبي زهرة محمد أبو زهرة، دار الفكر العربي ، مصر.
١٢٤- تاريـخ الأمـم والملـوك، الطبري، أبو جـعفر محمد بن جـرير، تحقيق: أبو الفضل إبراهيم، دار سويدان، بيروت.
١٢٥- تحديات سـياسيـة تواجه الحركة الإسـلامية، مـصطفى الطحان، مؤسـسة الفلاح، الكويت.
١٢٦- تـذكرة الحفاظ للذهبي، شمس الدين مـحمـد بن أحمـد الذهبـي كنيته أبو عبد الله، ت : ٧٤٨هـ، ١٣٤٨م ، مطبعة مجلـس دائرة المعارف العثمانية بحيدر آباد - الهند - الطبعة الثالثة سنة ١٩٥٧م.
١٢٧- تطبيق الشـريعة الإسلامـية د. عبـد الله عبد المحـسن الطريقي، مؤسـسة الرسالة، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
١٢٨- تعليم المتعلم طريق التعلم: برهان الدين الزرنوجي، تحقيق :صلاح محمد الحيمي ونذير حمدان، دار ابن كثير، الطبعة الثانية، ١٤٠٧هـ.
١٢٩- تفسير القرآن العظيم، ابن كثير أبو الفـداء إسماعيل ، تحقيق: عبد العزيز غنيم، وحمد أحمد عاشور، ومحمد إبراهيم البناء، مطبعة الشعب، القاهرة ، مصر.
١٣٠- تفسـير البغوي، المسـمى معالم التنزيل، لأبي محـمد الحسين بن مـسعود الفراء البغوي الشافعي، تحقـيق: خالد عبد الرحمن العك، ومروان سوار، دار المعرفة بيروت.
١٣١- تفسير البيقاعي المسمى «نظم الدرر في تناسب الآيات والسور للإمام برهان الدين أبي الحسن إبراهيم بن عـمر البيقاعي»، دار الكتب العلمـية، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.

١٣٢- تفسير السعدي المسمى تيسير الكريم الرحمن في تفسير كلام المنان، للشيخ عبد الرحمن بن ناصر السعدي، تحقيق: محمد زهري النجار، المؤسسة السعدية بالرياض ١٩٧٧م.
١٣٣- تفسير الطبري المسمى جامع البيان عن تأويل القرآن، لابن جرير الطبري، دار الفكر، بيروت - لبنان، ١٤٠٥هـ.
١٣٤- تفسير المنار، محمد رشيد رضا، دار المعرفة، الطبعة الثانية، بيروت.
١٣٥- تفسير المنير، د. وهبة الزحيلي، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
١٣٦- تفسير المراغي: حمد مصطفى المراغي، دار الفكر، بيروت - لبنان، الطبعة الثالثة ١٣٩٢هـ، ١٩٧٤م.
١٣٧- تفسير الألوسي المسمى روح المعاني في تفسير القرآن العظيم والسبع المثاني: شهاب الدين السيد محمود الألوسي البغدادي، طبعة مكتبة دار التراث، القاهرة.
١٣٨- تفسير النسفي مدارك التنزيل وحقائق التأويل الإمام أبو البركات عبد الله ابن أحمد بن محمود النسفي.
١٣٩- تهذيب التهذيب، ابن حجر أحمد العسقلاني، دائرة المعارف النظامية بالهند، الطبعة الأولى ١٣٢٥هـ.
١٤٠- تهذيب مدارج السالكين، للإمام ابن القيم، عبد المنعم صالح العلي العزي، دار المطبوعات الحديثة، جدة - السعودية.
١٤١- جامع بيان العلم وفضله، لابن عبد البر، دار الكتب العلمية، بيروت - لبنان.
١٤٢- جامع الأصول في أحاديث الرسول لابن الأثير، تحقيق: عبد القادر الأرناؤوط، مكتبة الحلواني، الطبعة الأولى ١٣٧٢هـ، ١٩٣٢م.

١٤٣- جـامع العلوم والحكم لابن رجب الحنـبلي، تحقـيق: شـعـيب الأرناؤوط وإبراهيم باجس، مؤسسة الرسالة، الطبعة الثالثة، ١٤١٢هـ، ١٩٨٩م.
١٤٤- جنة الرضا في التسليم لما قدر الله وقضى، لأبي يحيى محـمد بن عاصم الغرناطي، تحقيق: د. صلاح جرار، دار البشير ١٤١٠هـ.
١٤٥- جيل النصـر المنشود: يوسف القرضاوي، مكتـبة وهبة القاهـرة - مصر، ١٤١٤هـ، ١٩٩١م.
١٤٦- حاشية رد المختار، محمد أمين بن عابدين، مصطفى البابي وأولاده.
١٤٧- حديث القرآن الكريم عن غزوات الرسـول ﷺ، د. أبو بدر محمد بن بكر آل عابد، دار الغرب الإسلامي بيروت، الطبعة الأولى.
١٤٨- حقيقة البـدعة وأحكامها، سعيد ناصر الغامـدي، مكتبة الرشد الرياض، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
١٤٩- حقـيقـة الانتصار، وناصـر سليمـان العمر، دار الوطن للـنشر، الرياض السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ.
١٥٠- حكم المشاركة في الوزارة والمجالس النيابيـة، عمر الأشقر، دار النفائس، عمان - الأردن الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
١٥١- حكم الشورى في الإسـلام ونتيجـتها د. محـمد أبو فارس، دار الفـرقان عمان - الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٨هـ، ١٩٨٨م.
١٥٢- حكمة الدعوة وصفة الدعاة لأبي الحـسن الندوي، دار عرفات مطبعة ندوة العلماء، الهند.
١٥٣- حليـة الأولياء وطبـقات الأصفـياء لأبي نـعيم الأصبـهاني، دار الكـتاب العربي، بيروت الطبعة الثالثة، ١٤٠٠هـ.
١٥٤- حول التـفسير الإسلامي لـلتاريخ، محمـد قطب، المجموعة الإسـلامية، الطبعة الثالثة بدون تاريخ.

١٥٥- خلق المسلم: محمد الغزالي، دار القلم، الطبعة السادسة ١٤٠٦هـ.
١٥٦- دعوة الله بين التكوين والتمكين، د. علي جريشة، مكتبة وهبة، مصر، الطبعة الأولى ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
١٥٧- درء تعارض العقل والنقل، للإمام ابن تيمية، تحقيق: د. محمد رشاد سالم، طبع جامعة الإمام محمد بن سعود الإسلامية، الطبعة الأولى ١٣٩٩هـ.
١٥٨- دراسة في السيرة النبوية د. عماد الدين خليل، دار النفائس بيروت، الطبعة الحادية عشرة ١٤٠٩هـ ١٩٨٩م.
١٥٩- دستور الأمة في القرآن والسنة د. عبد الناصر العطار، عمر الأشقر، دار النفائس، عمان - الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
١٦٠- ديوان الإمام علي، جمعه وطبعه نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت.
١٦١- ذو القرنين القائد الفاتح والحاكم الصالح، محمد خير رمضان يوسف، دار القلم، دمشق الطبعة الأولى، ١٤٠٦هـ، ١٩٨٦م.
١٦٢- رجال الفكر والدعوة للإمام السرهندي، لأبي الحسن الندوي، دار القلم، الكويت، الطبعة الأولى ١٤٠٣هـ، ١٩٨٣م.
١٦٣- ركائز الإيمان بين العقل والقلب، محمد الغزالي دار الاعتصام، القاهرة - مصر، الطبعة السادسة ١٣٩٩هـ، ١٩٧٩م.
١٦٤- ركائز الإيمان، محمد قطب، مركز الدراسات والإعلام دار إشبيلية، الرياض الطبعة الأولى ١٤١٧هـ، ١٩٩٧م.
١٦٥- روضة الطالبين، يحيى بن شرف النووي، المكتب الإسلامي، بيروت - لبنان.
١٦٦- سنن أبي داود سليمان بن الأشعث، تحقيق: عزت عبيد الدعاس، حمص الناشر: محمد السيد.

١٦٧- سنن الترمذي، لأبي عيسى الترمذي، تحقيق: أحمد شاكر مطبعة مصطفى الحلبي القاهرة.

١٦٨- سنن البيهقي، أبو بكر أحمد البيهقي، دار الفكر، بيروت - لبنان.

١٦٩- سنن ابن ماجه، محمد بن يزيد القزويني، تحقيق: محمد فؤاد عبد الباقي، طبع عيسى الحلبي وشركاه.

١٧٠- سنن النسائي أحمد بن شعيب، الناشر: دار إحياء التراث العربي بيروت.

١٧١- سير أعلام النبلاء، الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، تحقيق: شعيب الأرناؤوط، مؤسسة الرسالة الطبعة الثانية، ١٤٠٢هـ، ١٩٨٢م.

١٧٢- سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الحكم، مكتبة وهبة، دمشق، ١٣٧٣هـ.

١٧٣- سيرة عمر بن عبد العزيز لابن الجوزي، تحقيق: نعيم زرزور، دار الكتب العلمية، بيروت طبعة عام ١٤٠٤هـ.

١٧٤- سورة يوسف دراسة وتحليل د. أحمد نوفل، دار الفرقان، عمان - الأردن، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

١٧٥- شذرات الذهب في أخبار من ذهب لابن العماد الحنبلي، دار الآفاق الجديدة بيروت.

١٧٦- شرح أصول اعتقاد أهل السنة والجماعة، اللالكائي تحقيق: د. أحمد بن سعد حمدان الغامدي، دار طيبة الرياض - السعودية.

١٧٧- شرح الطحاوية، لمحمد بن محمد بن أبي العز الحنفي، المكتب الإسلامي، بيروت الطبعة الرابعة ١٣٩١هـ.

١٧٨- شرح القصائد السبع، للقاضي حسين بن أحمد الزوزني، تحقيق: يوسف علي بدوي، دار ابن كثير دمشق، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، ١٩٨٩م.

١٧٩- شرح الكوكب المنير، لمحمد بن أحمد الفتوحي، دار العبيكان الرياض - السعودية طبعة ١٤١٣هـ، ١٩٩٣م.

١٨٠- شـرح النووي على صـحيح مـسلم، يحـيى بن شرف الـنووي، المطبعـة المصرية ومكتبتها بالقاهرة ١٣٤٩هـ.
١٨١- شيخ الإسـلام ابن تيمـية جهـاده ودعوته عقـيدته، تأليف أحـمد القطان ومحمد الزين مراجعة الشيخ عبد العزيز بن باز، مكتبة الندى الكويت، الطبعة الثانية ١٤٠٩هـ.
١٨٢- صحيح مسلم للإمام أبي الحسين مسلم بن الحـجاج القشيري النيسابوري، دار الحديث القاهرة الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.
١٨٣- صفة الغـرباء، سلمان العودة، دار ابن الجوزي، الطبعـة الثانية ١٤١٢هـ، ١٩٩١م، المملكة العربية السعودية.
١٨٤- صناعة الحياة، محمد أحـمد الراشد، دار المنطلق، دار المجتمع السعودية، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
١٨٥- عمر بن عبد العـزيز وسياسته في رد المظالم، ماجدة زكريا فـيصل، مكتبة الطالب الجامعي، مكة المكرمة طبعة سنة ١٤٠٧هـ.
١٨٦- علل وأدوية للغزالي، دار الدعوة، القاهرة، مصر ١٤١١هـ، ١٩٩١م.
١٨٧- فتح الباري بشرح صحيح البخاري لابن حجر العسقلاني تصحيح وتعقيب عبد العزيز بن باز، دار الفكر، طبعة ١٤١١هـ، ١٩٩٠م.
١٨٨- فتح المجـيد لكتاب التوحـيد، عبد الرحـمن بن حسن آل الشيخ، المكتـبة السلفية، المدينة المنورة، الطبعة الخامسة.
١٨٩- فتح القدير، مـحمد بن علي بن محـمد الشوكاني، دار الخـير، بيروت، الطبعة الأولى، ١٤١٢هـ، ١٩٩١م.
١٩٠- فقه الدعوة إلى الله د. علي عبد الحليم محمود، دار الوفاء، مصر، طبعة ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
١٩١- فقه الدعوة الإسلامية والإعلام عند المودودي، فاروق عبد الغني الصاوي، دار المنار الحديثة مصر، الطبعة الأولى ١٤١٣هـ، ١٩٩٢م.

١٩٢- فقه المسئولية، د. علي عبد الحليم محمود، دار التوزيع والنشر الإسلامية، القاهرة، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
١٩٣- فلسفة التربية الإسلامية، ماجد عرسان الكيلاني، مكتبة هادي، مكة المكرمة طبعة عام ١٤٠٩هـ.
١٩٤- في ظلال الإيمان صلاح عبد الفتاح الخالدي، مكتبة المنار الأردن - الزرقاء، الطبعة الأولى ١٤٠٧هـ، ١٩٨٧م.
١٩٥- في فقه الأولويات دراسة جديدة في ضوء القرآن والسنة د. يوسف القرضاوي، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
١٩٦- نظريات التغيير، منير شفيق، الناشر للطباعة والنشر والتوزيع والإعلان بيروت - لبنان، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
١٩٧- قيادة الرسول السياسية والعسكرية، تأليف أحمد راتب عرموش، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م، دار النفائس بيروت - لبنان.
١٩٨- قادة الغرب يقولون دمروا الإسلام أبيدوا أهله: جلال العالم، مؤسسة الرسالة، بيروت - لبنان، طبعة ١٤٠٥هـ، ١٩٨٥م.
١٩٩- قصص الرحمن في ظلال القرآن، لأحمد فائز الحمصي، مؤسسة الرسالة بيروت، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٥م.
٢٠٠- قواعد التعامل مع العلماء د. عبد الرحمن بن معلا اللويحق دار الورّاق، السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
٢٠١- كيف تستعيد الأمة الإسلامية مكانتها؟ عمر الأشقر، دار النفائس، عمان، الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
٢٠٢- كيف ندعو الناس؟ عبد البديع صقر - الطبعة السادسة المكتب الإسلامي، ١٣٩٧هـ، ١٩٧٧م.
٢٠٣- لسان العرب، لأبي الفضل جمال الدين محمد بن مكرم، دار صادر بيروت.

٢٠٤- لطائف الإشارات تفسير القشيري تحقيق : د. إبراهيم بسيوني ، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، الطبعة الثانية : ١٩٨١م .
٢٠٥- لقاء المؤمنين لعدنان النحوي ، مطابع الفرزدق التجارية ، الرياض - السعودية ، الطبعة الثالثة ، ١٤٠٥هـ ، ١٩٨٥م .
٢٠٦- لماذا تأخر المسلمون ولماذا تقدم غيرهم ؟ الأمير شكيب أرسلان ، دار النشر ، القاهرة - مصر ، بدون تاريخ .
٢٠٧- مباحث في التفسير الموضوعي ، مصطفى مسلم ، دار القلم ، دمشق ، الطبعة الأولى ١٤١٠هـ ، ١٩٨٩م .
٢٠٨- مبادئ الثقافة الإسلامية ، لمحمد النبهاني ، دار البحوث العلمية ، الكويت ١٤٠٣هـ .
٢٠٩- مبادئ علم الإدارة ، محمد نور الدين عبد الرزاق ، مكتبة الخدمات الحديثة جدة - السعودية ، الطبعة الأولى بدون تاريخ .
٢١٠- مبادئ نظام الحكم في الإسلام ، عبد الحميد متولي ، دار المعارف ، القاهرة ، الطبعة الأولى .
٢١١- مجاز القرآن لأبي عبيد معمر التميمي تحقيق : د. محمد فؤاد سزكين ، دار الفكر الطبعة الثانية ١٣٩٠هـ ، ١٩٧٠م .
٢١٢- مجلة الوعي الإسلامي الكويتية ، ربيع الآخر ، ١٤١٤هـ ، ١٤١٥م .
٢١٣- مجمع الزوائد ومنبع الفوائد ، للحافظ نور الدين علي بن أبي بكر الهيثمي ، دار الكتاب العربي ، الطبعة الثانية ١٩٦٧م ، بيروت .
٢١٤- مجموعة الرسائل للشيخ حسن البنا ، دار الدعوة الإسكندرية ، مصر الطبعة الأولى ، ١٤١١هـ ، ١٩٩٠م .
٢١٥- مجموع فتاوى ابن باز ، الشيخ عبد العزيز عبد الله بن باز ، مكتبة المعارف للنشر والتوزيع ، طبعة ١٤١٣هـ .

٢١٦- محاسن التأويل، محمد جمال القاسمي، دار الفكر، بيروت - لبنان، بدون تاريخ.
٢١٧- مختصر صحيح مسلم زكي الدين عبد العظيم المنذري تحقيق: محمد ناصر الدين الألباني، بيروت، المكتب الإسلامي.
٢١٨- مدارج السالكين بين منازل إياك نعبد وإياك نستعين لابن قيم الجوزية، تحقيق: محمد حامد الفقي، دار الكتاب العربي، بيروت ١٣٩٢هـ.
٢١٩- ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين؟ أبو الحسن علي الندوي، دار نهر النيل، القاهرة - مصر، الطبعة الثامنة ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.
٢٢٠- مذكرات في الدعوة الإسلامية عبد الغفار محمد عزيز دار المعارف السعودية للطباعة والنشر.
٢٢١- مراتب الإجماع: أبو محمد علي بن حزم، دار الآفاق، بيروت، الطبعة الأولى ١٩٧٨م.
٢٢٢- مشاركة الإسلاميين في السلطة، عزام التميمي مركز أبحاث الديمقراطية في جامعة ويستمنستر في لندن في العشرين من شباط (فبراير) ١٩٩٣م.
٢٢٣- معارج القبول شرح سلم الوصول إلى علم الوصول في التوحيد، تأليف الشيخ الحافظ أحمد حكمي رحمه الله بتعليق عمر محمود أبو عمر الناشر، دار ابن القيم للنشر والتوزيع الطبعة الأولى ١٤١٠هـ، ١٩٩٠م.
٢٢٤- معالم على الطريق: سيد قطب، دار الشروق القاهرة، الطبعة الأولى ١٤٠٠هـ، ١٩٨١م.
٢٢٥- مع الله (دراسات في الدعوة والدعاة): محمد الغزالي دار الكتب الحديثة، الطبعة الرابعة ١٣٦٩هـ.
٢٢٦- مع قصص السابقين، صلاح عبد الفتاح الخالدي، دار القلم، الطبعة الأولى ١٤٠٩هـ، ١٩٨٩م.

٢٢٧- مفاتيح الغـيب (التفسير الكبيـر) الفخر الرازي ، محمد عـمر بن الحسين الرازي ، دار الغد العربي ، القاهرة - مصر ، الطبعة الأولى .
٢٢٨- مفاهيم ينبغي أن تصحح ، محـمد قطب ، دار الشروق ، القاهرة - مصر ، الطبعة الثامنة ١٤١٣هـ ، ١٩٩٣م .
٢٢٩- مفتاح دار السعادة ، للإمام ابن القيم دار الكتب العلمية بيروت .
٢٣٠- مقاصد الشريعة الإسلامـية ، زيد بن محمد الرماني ، دار الغيث ، الرياض السعودية ، الطبعة الأولى .
٢٣١- مقاصد المكلفـين د . عمر الأشقر ، مكتبة الفـلاح الكويت ، الطبعة الأولى ١٤٠١هـ .
٢٣٢- مقدمة ابن خلدون ، دار القلم بيروت الطبعة الأولى ١٩٨٧م .
٢٣٣- مقـومات الداعـية الناجح د . علي عمـر بادحدح ، دار الأندلس الخـضراء السعودية الطبعة الأولى ١٤١٧هـ ، ١٩٩٦م .
٢٣٤- من توجيـهات الإسـلام ، محمـود شلتوت ، دار الشروق ، الـقاهرة ، طبع مؤسسة دار الشعب .
٢٣٥- منهج أهل السنة في قـضية التـغييـر د . السيـد محمـد نوح ، دار الوفاء ، المنصورة ، الطبعة الثانية ١٤١٢هـ ، ١٩٩١م .
٢٣٦- منهج الرسول في غرس الروح الجهادية في نفوس أصـحابه د . السيد محمد السيد نوح ، الطبعة الأولى ١٤١١هـ - ١٩٩٠م . نشرته جامعة الإمارات العربية .
٢٣٧- مواقف إسلامية د . عبد العزيز كامل ، دار المعارف ، سلسلة اقرأ ١٩٧٠م .
٢٣٨- ملامح المجـتمع المسلم ، د . القـرضاوي ، مكتبـة وهبة القاهرة -مـصر ، الطبعة الأولى ١٤١٤هـ ، ١٩٩٣م .
٢٣٩- ميزان الاعتدال للإمام الذهبي ، تحقيـق : على محمد البجاوي ، دار المعرفة بيروت .

٢٤٠- نظام الحياة في الإسلام للـمودودي، ترجمة محمد عـاصم حداد، الطبعة الثانية، سنة الطبع ١٣٧٧هـ، ١٩٥٨م، دار الفكر- دمشق.
٢٤١- نظام الحكم في الإسلام د. عارف خليل أبو عيـد، دار النفائس، عمان - الأردن، الطبعة الأولى ١٤١٦هـ.
٢٤٢- نظرات في رسالة التعالـيم، محمد عبد الله الخطيب، محـمد عبد الحليم حامد، دار التوزيع والنشر الإسلامية.
٢٤٣- نزهة الفـضلاء في تهذيـب سير أعـلام النبلاء، تأليف: الإمـام الذهبي، تهذيب: مـحـمـد حسن عقـيل موسى، دار الأندلس الخضـراء، جدة الطبـعة الأولى.
٢٤٤- نظرية الإسـلام وهديه في السـيـاسـة والقـانون والدسـتـور، أبو الأعلى المودودي، تقـديم محـمد عـاصم حـداد سنة الطبع ١٣٨٧هـ، ١٩٦٧م، دار الفكر.
٢٤٥- نصب الراية للزيلعي، جمـال الدين الزيلعي، دار إحياء التـراث العربي، بيروت الطبعة الثانية ١٣٩٣هـ.
٢٤٦- هداية المرشدين إلى طرق الوعظ والخطابة، للشيخ علي مـحفوظ، الطبعة التاسعة، ١٣٩٩هـ دار الاعتصام.
٢٤٧- هذا الدين، لسيـد قطب، دار الشروق، القاهرة - مـصر، الطبعـة الرابعة عشرة ١٤١٢هـ ١٩٩٢م.
٢٤٨- هكذا علمتني الحـياة ، د. مصطفى السـباعي، الطبعة الثـالثة ١٤٠٦هـ، المكتب الإسلامي.
٢٤٩- هل نحن مسلمـون؟ لمحمد قطـب، مؤسسة المـدينة - السعودية، الطبـعة الثالثة ١٤١٠هـ ١٩٨٩م.
٢٥٠- واقعنا المعـاصر، محـمد قطب، مؤسـسة المدينة السعـودية الطبعة الثـالثة ١٤١٠هـ ١٩٨٩م.

٢٥١- وجوب التعاون بين المسلمين، عبد الرحمن السعدي، المعارف - الرياض، طبعة ١٤٠٢هـ.
٢٥٢- وجوب لزوم الجماعة وترك التفرق، جمال الدين بن أحمد بن بشير بادي، دار الوطن، الرياض - السعودية الطبعة الأولى: ١٤١٢هـ.
٢٥٣- وسائل دفع الغربة، سلمان العودة، دار ابن الجوزي الأحساء - السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٢هـ، ١٩٩٢م.
٢٥٤- وسطيـة أهل السنة بين الفرق، د. مـحمد باكـريم محـمد عـبد الله، دار الراية، الرياض - السعودية، الطبعة الأولى ١٤١٥هـ، ١٩٩٤م.
٢٥٥- وفـيات الأعـيـان وأبناء الزمان، لابـن خلكان أبو العبـاس شـمس الدين أحمد، تحقيق: إحسان عباس، دار صادر بيروت.
٢٥٦- يقظة الإسلام في تركيا، أنور الجندي، دار الأنصار ، القاهرة ، ١٩٧٩م.

* ■ *

الفهرس

الموضوع *الصفحة*

الباب الثاني: شروط التمكين وأسبابه

الباب الثالث: مراحل التمكين وأهدافه

دار التابعين للنشر والتوزيع
العنوان: ٢٥ شارع أحمد عصمت عين شمس - برج التوحيد - الدول الأول - ت: ٤٩٣٨١٤٤.